#1 مؤلف أفضل الروايات مبيعاً طبقاً لصحيفة "نيويورك تايمز"

جيفرى آرتشر

مؤلف رواية Sons of Fortune

عندما يطير الغراب

"آرتشر هو عبقرى كتابة الروايات المسلية"

صحيفة تايم

تشارلى

١٩٠٠ - ١٩١٩

الفصل

١

" إننى لن أعطيك هذه مقابل بنسين " ، هكذا كان يصيح جدى حاملا ثمرة كرنب فى كلتا يديه . وكان يضيف قائلاً : " ولن أتنازل عنها مقابل بنس واحد ولا حتى نصف بنس . كلا إننى سوف أتنازل عنها مقابل ربع بنس "

هذه هى الكلمات الأولى التى أستطيع أن أتذكرها . فهذه هى الكلمات التى تعلمتها حتى قبل تعلم المشى ؛ حيث كانت أختى الكبرى تحشرنى داخل صندوق البرتقال فوق الرصيف بجوار المكان الذى كان يقف فيه جدى لكى أبدأ التدرب فى سن مبكرة .

" حتى هذا الرضيع يتظلم " ، هكذا اعتاد جدى أن يقول وهو يشير إلىَّ داخل الصندوق الخشبى . إن الكلمة الأولى التى تعلمتها - فى واقع الأمر - هى كلمة " جدى " ثم كلمة " ربع بنس " كما كان بوسعى أيضاً أن أعيد كل حديثه المتكرر مع الزبائن كلمة بكلمة فى عيد ميلادى الثالث . هذا لا يعنى أن أفراد أسرتى كانوا يعرفون

يوم ميلادى تحديدا نظرا لأن أبى كان قد قضى ليلة ميلادى فى السجن ، أما أمى فقد ماتت حتى قبل أن ألتقط أول أنفاسى فى الحياة . كان جدى يعتقد أن يوم ميلادى كان يوم سبت ؛ وأن الشهر كان يناير وكان واثقا أن العام كان عام ١٩٠٠ ، وبينما كنت أعرف أننى ولدت فى سنوات حكم الملكة فيكتوريا . لذا خلصنا إلى أن يوم مولدى كان ٢٠ من شهر يناير عام ١٩٠٠ .

لم أعرف والدتى أبداً لأنها ـ كما سبق وذكرت ـ توفيت يوم مولدى . وهى وفاة نتيجة الولادة كما كان يطلق عليها أحد رجال الدين الذي كان على علاقة بأسرتنا ، ولكننى لم أدرك معنى ما كان يقوله إلا بعد مرور سبع سنوات من ولادتى عندما واجهتنى المشكلة ثانية . كان رجل الدين الذى يدعى أومالى لا يكف عن إخبارى بأن والدتى كانت متدينة إن جاز ذلك القول . أما والدى ـ الذى لم يكن يجرؤ أحد على وصفه بأنه كان متديناً ـ فقد كان يعمل فى السفن صباحا ويعيش فى المقاهى ليلا ويعود إلى المنزل فى الصباح لأنه المكان الوحيد الذى كان يمكنه أن ينام فيه دون أن يزعجه أحد .

أما باقى أسرتى فقد كانت مؤلفة من ثلاث أخوات وهن سال الكبرى التى كانت فى الخامسة من عمرها والتى كانت تعرف تاريخ ميلادها حيث ولدت فى منتصف الليل فى أحد الأيام وتسببت فى إيقاظ الرجل العجوز أبى طوال الليل ، والثانية هى جريس التى كانت تبلغ من العمر ثلاثة أعوام ولم تزعج أى أحد أثناء النوم ، والثالثة هى كيتي ذات الشعر الأحمر والتى كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر شهرا ولم تكن تكف عن البكاء العالى مطلقاً .

أما رأس العائلة فقد كان جدى تشارلى الذى سميت باسمه . كان ينام فى غرفته فى الدور الأرضى من منزلنا فى شارع وايت شابيل

ليس فقط لأنه كان الأكبر سنا ولكن لأنه كان يسدد إيجاره بشكل دائم . أما باقى أفراد الأسرة ـ بمن فيهم أنا ـ فقد كنا جميعا نتكدس فى الغرف المقابلة . وكانت لدينا غرفتان أخريان فى الدور الأرضى ، كانت إحداهما تعد بمثابة مطبخ وغرفة أخرى كان معظم الناس يطلقون عليها اسم الصوان الكبير ، بينما كانت جريس تحب أن تطلق عليها اسم الصالون .

وكان هناك حمام فى الحديقة الخالية من العشب ، كنا نشترك فيه مع أسرة أيرلندية أخرى كانت تعيش فى الطابق العلوى فوقنا . وكان يبدو لنا أنهم يذهبون إلى الحمام دائماً فى الثالثة صباحا .

كان جدى ـ الذى كان بائع خضراوات متجولاً ـ يقف فى أحد أركان شارع وايت شابيل . وفى إحدى المرات عندما استطعت أن أفلت من صندوق البرتقال وأتجول بين عربات اليد الأخرى ، سرعان ما تبين لى أن جميع السكان كانوا ينظرون إلى جدى باعتباره أفضل تاجر فى الجانب الشرقى .

أما أبى ـ الذى سبق وأخبرتكم أنه احترف العمل فى السفن ـ فلم يبد يوما اهتماما بأى منا ، وبالرغم من أنه أحيانا كان يكسب مبلغا من المال قد يصل إلى جنيه فى الأسبوع ، فقد كان المال ينتهى به المآل دائما على ما يبدو داخل البلاك بول ، حيث كان ينفق كل بنس منه على الخمر والمقامرة على الألعاب الورقية أو الدومينو بصحبة جارنا بيرت شورركز الذى بدا لى وكأنه لا يتحدث أبدا ويكتفى بإصدار أصوات مبهمة .

وفى الحقيقة ، فلو لم يكن جدى موجودا لما كنت قد التحقت بالمدرسة الابتدائية فى شارع جوبيلى ؛ وكلمة " التحقت " هى الكلمة الصحيحة لأننى لم أفعل الكثير منذ أن التحقت بالمدرسة ،

اللهم إلا العبث بغطاء مكتبي الصغير وأحيانا شد شعر بوش بوركى الذى كان على هيئة ذيل حصان ، وهى الفتاة التى كانت تجلس أمامى . كان اسمها الحقيقى هو ريبيكا سالامون وكانت ابنة دان سالامون الذى كان يملك المخبز الواقع فى إحدى ضواحى بريك لين . وكانت بوش بوركى تعلم تحديداً مكان وتاريخ مولدها ولم تكف يوما عن إخبار كل من فى الفصل بأنها أصغر منا جميعا بعام كامل .

كنت أنتظر بفارغ الصبر دقات جرس الانصراف فى نهاية اليوم الدراسى حيث كنت أطرق غطاء مكتبى للمرة الأخيرة قبل أن أنطلق بطول شارع وايت شابيل لكى أساعد جدى فى عمله .

وفى أيام العطلات وكنوع من أنواع المكافأة ، كان جدى يسمح لى بأن أذهب معه فى الصباح الباكر إلى سوق كوفينت جاردن حيث كان ينتقى أنواع الخضر والفاكهة التى سوف يبيعها فى وقت لاحق من مكانه الخاص المقابل لمخبز السيد سالامون ومتجر دونلكى للسمك والأطعمة البحرية الذى كان يقع بجواره .

وعلى الرغم من أننى كنت أتوق إلى اليوم الذى سوف أترك فيه المدرسة إلى الأبد لكى أعمل مع جدى بشكل دائم ، فإننى إن كنت أسعى للتهرب من أداء واجبى ، فإنه لم يكن ليسمح لى بمشاهدة فريق وست هام - وهو فريق الكرة المحلى - فى أيام الإجازات ، والأسوأ من ذلك فلم يكن ليسمح لى أن أشاركه العمل فى صباح نفس اليوم .

وقد اعتاد أن يقول لى : " أتمنى أن تكبر ويكون لك شأن مثل ريبيكا سالامون . فهذه الفتاة سوف تقطع شوطا كبيرا " .

واعتدت أن أرد عليه قائلاً : " كلما ابتعدت كان ذلك أفضل " ، ولكنه لم يضحك يوما على هذا التعليق وإنما كان يواصل حديثه ويذكرنى بأنها كانت تحقق دائما النتائج الأفضل فى كل مادة من المواد .

وكنت أجيبه بشجاعة : " باستثناء الرياضيات ، حيث أهزم غباءها فيها " . فأنا أستطيع أن أجرى أية عملية رياضية فى رأسى بينما تنكب هى لتدوينها على الورق ، وهذا يقودها إلى حافة الجنون .

لم يزر أبى شارع جوبيلى - حيث كانت تقع مدرستى - يوما واحدا على مدار السنوات التى قضيتها هناك ، بينما كان جدى يمر مرة واحدة على الأقل فى الفترة الدراسية لكى يحادث السيد كاريت رايت بشأنى . وكان السيد كاريت رايت يؤكد لجدى أن تفوقى فى الرياضيات يمكن أن يجعلنى يوماً محاسباً أو موظفاً ، حتى إنه أخبر جدى ذات مرة أنه يمكن أن يجد لى وظيفة جيدة فى المدينة . ولكن كان كل هذا بمثابة مضيعة للوقت بالنسبة لى لأن كل ما كنت أتوق إليه فى واقع الأمر هو أن أشارك جدى فى عمله كبائع للخضر .

كنت فى السابعة عندما أدركت أن الاسم المدون على جانب عربة يد جدى - " تشارلى ترامبر ، التاجر الأمين ، تأسس عام ١٨٢٣ " - هو نفس الاسم الذى كنت أحمله . كان اسم أبى الأول هو جورج وكان قد أكد فى أكثر من مناسبة أنه بعد اعتزال جدى للمهنة فإنه لن يحل محله لأنه لا يريد أن يترك رفاقه فى أعمال السفن .

وقد كنت أشعر بسعادة غامرة بقراره هذا حتى إننى أخبرت جدى أنه عندما يحين الأوان وأحل محله في العمل ، فلن نضطر حتى لتغيير الاسم .

كان جدى يتنحنح عندها ويقول : " لا أريد أن ينتهى بك المآل للعمل فى الجانب الشرقى يا غلامى الصغير . أنت أفضل من أن تظل تاجراً للخضر طوال حياتك " ، وقد كانت كلماته هذه تحزننى لأنه لم يكن يدرك أن هذا تحديدا هو ما كنت أتوق إلى عمله .

وقد مضت أيام الدراسة بطيئة شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، كانت ريبيكا خلالها لا تكف عن تسلم الجوائز فى يوم الخطابة . وما كان يزيد الاجتماع السنوى سوءا هو أنه كان يفرض علينا دائما الاستماع إليها وهى تنشد بعض الأناشيد الدينية فى هذه المناسبة وهى تقف فوق خشبة المسرح مرتدية ثوبها الأبيض وجواربها البيضاء وحذاءها الأسود . حتى إنها كانت تضع شريطة بيضاء أيضا فى شعرها الأسود الطويل .

همست كيتى الصغيرة فى أذنى قائلة : " أعتقد أنها ترتدى ثيابا داخلية جديدة أيضاً كل يوم " .

انفجرت فى الضحك لأن كل التجار الجائلين فى شارع وايت شابيل كانوا يفعلون ذلك عند سماع هذا التعليق على الرغم من أننى أقر بأننى فى هذا الوقت لم أكن أدرك معنى هذا الكلام من قريب أو بعيد . طلب منى جدى عندئذ أن أكف عن الضحك ولم يبتسم ثانية إلا عندما صعدت لكى أتسلم جائزتى فى الرياضيات التى كانت عبارة عن علبة ملونة معتادة من أقلام التلوين . وكان علىَّ أن أختار بين تلك العلبة أو الحصول على أحد الكتب .

أخذ جدى يصفق بحرارة وأنا عائد إلى مكانى حتى استدارت بعض الأمهات نحونا وابتسمن ، مما زاد من حماس جدى وتصميمه على أن أبقى فى المدرسة حتى الرابعة عشرة .

ومع بلوغى العاشرة ، كان جدى يسمح لى أن أنسق البضائع فوق العربة قبل الذهاب إلى المدرسة صباحاً . فكنت أضع البطاطس فى المقدمة والخضر فى المنتصف والفاكهة فى الخلف ، وكانت هذه هى قاعدته الذهبية .

وقد اعتاد جدى أن يقول لى : " لا تسمح لأى شخص أن يلمس الفاكهة قبل أن يسدد ثمنها . سوف تجد صعوبة فى بيع ثمرة طماطم إن تعرضت للخدش ولكن الأصعب هو أن تبيع عنقود عنب تناقلته الأيدى ولو لمرات قليلة " .

ومع بلوغ الحادية عشرة كنت أقبض المال من الزبائن وأرد لهم الباقى المستحق . وكانت هذه هى أول مرة أعرف فيها التحايل . فكان الزبائن - أحيانا - بعد أن أرد لهم الباقى ، يفتحون راحة أيديهم لأكتشف أن أحد العملات التى رددتها لهم قد اختفت فجأة وأننى مطالب بالتعويض . وقد تسببت فى خسارة جدى لجزء كبير من ربحه الأسبوعى بهذه الطريقة إلى أن علمنى أن أقول : " الباقى بنسان يا سيدة سميث " ، ثم أحمل العملات المتبقية وأريها للجميع قبل أن أردها إلى المشترى .

ومع بلوغى الثانية عشرة كنت قد تعلمت كيفية التفاوض على السعر مع تجار كوفينت جاردن بوجه مجرد من أى تعبير ثم أبيع نفس المنتج ثانية إلى الزبائن بابتسامة عريضة . وقد اكتشفت وقتها أن جدى كان يحرص على تغيير الموردين بشكل دائم وذلك " فقط لكى لا يظن أى منهم أننى لا أستطيع الاستغناء عنه " .

ومع بلوغ الثالثة عشرة ، كنت قد أصبحت عين جدى التى يبصر بها وأذنه التى يسمع بها لأننى كنت قد تعلمت بالفعل اسم كل تاجر من كبار تجار الخضر والفاكهة فى كوفينت جاردن . وسرعان ما عرفت التجار الذين يدسون الفاكهة العطبة تحت الفاكهة الطازجة ، والتجار الذين يسعون لدس التفاح المخدوش بين البضاعة ، وكذلك الموردين الذين كانوا يحاولون الغش . ولكن الأهم من ذلك كله هو أننى عرفت الزبائن الذين لا يسددون ديونهم مما دفعنى إلى عدم السماح لهم بوجود أسمائهم فى قائمة التسديد الآجل .

وأتذكر أننى انتشيت فخرا فى اليوم الذى جاءتنى فيه السيدة سميلى التى كانت تملك فندقا صغيرا فى الشارع التجارى وأخبرتنى قائلة : " هذا الشبل من ذاك الأسد " وأنها ترى أننى سوف أصبح فى يوم من الأيام فى نفس كفاءة جدى . وقد احتفلت فى هذه الليلة بهذه المناسبة وتناولت أول كأس من الشراب فى حياتى وأشعلت أول سيجارة ولكننى لم أنه أياً منهما .

ولن أنسى أبداً هذا الصباح من يوم السبت عندما تركنى جدى أولا أدفع العربة وحدى . ثم تركنى بعد ذلك على مدى خمس ساعات بدون أن يفتح فمه بنصيحة واحدة أو حتى رأى واحد لأدير العمل بنفسى . وعندما تسلم منى حصيلة الحساب فى نهاية اليوم ، منحنى قطعة الستة بنسات المعتادة التى دأب على منحى إياها مع نهاية كل أسبوع على الرغم من أن الحصيلة كانت تقل عن ٢ شلن وخمسة بنسات عن الحصيلة المعتادة .

كنت أعلم أن جدى كان يريدنى أن أبقى فى المدرسة وأن أحسن مستواى فى القراءة والكتابة ، ولكن فى الجمعة الأخيرة من الفترة

الدراسية الأولى فى ديسمبر عام ١٩١٣ ، خرجت من بوابة مدرسة شارع جوبيلى مودعاً إياها إلى الأبد فى ظل مباركة والدى . كان والدى قد دأب على إخبارى بأن التعليم إهدار للوقت وأنه لم يكن يرى أي جدوى من ورائه . وكنت أوافقه الرأى فى ذلك حتى بعد أن فازت بوش بوركى بمنحة دراسية فى مكان ما يدعى سانت بول ، كان على أية حال يبعد عدة أميال عن هامرسميث . ومن زعم أننى أريد أن أذهب إلى هامرسميث فى الوقت الذى يمكننى فيه أن أبقى فى الجانب الشرقى ؟

كان من الواضح أن والدتها كانت تريدها أن تلتحق بهذه المدرسة لأنها دأبت على إخبار كل شخص يقف فى الطابور لشراء الخبز بأن ابنتها كانت " شجاعة فكرياً " ، مهما كان ما تعنيه تلك العبارة .

وقد اعتاد جدى أن يهمس فى أذنى قائلاً : " افهم أيها المغرور ، إنها بمثابة إناء من الفاكهة يزين البيت كله " .

كنت أشعر حيال بوش بوركى بنفس الشعور الذى كان يكنه جدى للسيدة سالمون ، مع أن السيد سالمون مع ذلك كان لا بأس به . وقد كان ذات يوم بائع خضر متجولاً هو الآخر ولكن قبل أن يتزوج السيدة روش ، ابنة الخباز .

فى صباح كل سبت ، بينما كنت أجلس خلف العربة ، كان السيد سالمون قد اعتاد أن يختفى داخل إحدى دور العبادة تاركاً زوجته تدير المخبز بنفسها . وفى أثناء غيابه ، لم تكن زوجته تكف عن تذكرينا بصوتها المرتفع أنها سيدة محنكة لا يمكن النيل منها .

كانت بوش بوركى تبدو ممزقة بين الذهاب مع والدها إلى دار العبادة والبقاء داخل المحل حيث كانت تجلس بجوار النافذة وتشرع فى التهام كعك القشطة بمجرد اختفاء والدها عن الأنظار .

" إنها المشكلة الأبدية ، الزواج المختلط " ، هكذا كان يقول لى جدى . وقد مضت سنوات قبل أن أدرك حقيقة ما كان يتحدث عنه وأنه لا يقصد بذلك كعك القشطة .

فى اليوم الذى تركت فيه المدرسة أخبرت جدى أنه يمكن أن يستريح بينما أذهب أنا بمفردى إلى كوفينت جاردن لكى أتسوق لإحضار البضاعة ولكنه لم يوافق . وعندما وصلنا إلى السوق ، سمح لى لأول مرة أن أعقد الصفقات مع الموردين . وسرعان ما وجدت تاجرا وافق على بيع دستة التفاح مقابل ثلاثة بنسات وذلك إن تعهدت له بشراء نفس الكمية من التفاح يومياً لمدة شهر كامل . وبما أن جدى تشارلى وأنا كنا قد دأبنا على تناول التفاح فى الإفطار فقد لبى هذا الاتفاق احتياجاتنا وفى نفس الوقت منحنى فرصة لتقييم طلب الزبائن .

ومنذ هذه اللحظة كان كل يوم سبت هو يوم إجازة لى ، وقد نجحنا أحيانا فيما بيننا فى زيادة الربح قدر أربعة عشر شلناً فى الأسبوع .

وبعدها وصل أجرى الأسبوعى إلى خمسة شلنات ، وكانت ثروة حقيقية . كنت أحتفظ بأربعة شلنات فى صندوق مغلق كنت أحتفظ به تحت سرير جدى إلى أن نجحت فى ادخار أول جنيه . وإن الرجل الذى يحصل على جنيه ، يكون قد حصل على الأمان ، هكذا أخبرنى ذات مرة السيد سالمون بينما كان يقف خارج محله

واضعاً إبهاميه فى جيوب معطفه كاشفا عن الساعة الذهبية التى كانت تحيط بمعصمه والسلسلة الذهبية التى كانت تحيط بعنقه .

وفى المساء ، بعدما كان جدى يعود إلى المنزل لتناول العشاء وبعدما كان أبى يخرج لقضاء الليل فى المقهى كنت أشعر بالملل أثناء بقائى فى المنزل لا أفعل شيئا سوى الاستماع إلى حديث أخواتى عما دار أثناء اليوم ، لذا قررت أن أنضم إلى نادى وايت شابيل للذكور . كنت أمارس تنس الطاولة يوم الاثنين والأربعاء والجمعة والملاكمة يوم الثلاثاء والخميس والسبت . لم أتقن يوما لعبة تنس الطاولة ولكننى أتقنت الملاكمة تحت وزن ١١٨ رطلاً حتى إننى مثلت النادى ضد بيثنال جرين .

وبخلاف أبى ، لم أكن أكثر من الذهاب إلى الحانات أو المقامرة وإنما كنت مازلت أشجع نادى وست هام فى عصر أيام السبت معظم الوقت . كما أننى كنت أحيانا أقطع المسافات أو أسافر عبر الجانب الشرقى فى بعض الأمسيات لكى أشهد آخر عرض موسيقى .

عندما سألنى جدى عن الهدية التى أريدها لعيد ميلادى الخامس عشر ، أجبته بدون لحظة تردد واحدة : " أريد عربتى الخشبية الخاصة " ، وأخبرته بأننى ادخرت ما يكفى من المال لشرائها . فما كان منه إلا أن ضحك وأخبرنى بأن عربته الجرارة القديمة تكفينى وبأننى سوف أحصل عليها عندما يحين الوقت وأحل محله فى العمل . ولكنه حذرنى قائلا بأن هذا هو ما يطلق عليه الأثرياء اسم الأصول ، وأضاف ناصحاً بأننى يجب ألا أستثمر أموالى أبداً فى نشاط جديد وخاصة أثناء الحرب .

وعلى الرغم من أن السيد سالون كان قد أخبرنى بالفعل أننا قد أعلنا الحرب ضد الألمان منذ ما يقرب من عام مضى ، لم يكن أحد منا قد سمع من قبل بالأرشدوق فرانز فرديناند ، إلا أننا لم ندرك مدى جدية الوضع إلا عندما شرع الكثير من زملاء السوق من الشباب فى الاختفاء والذهاب إلى " الجبهة " ، لكى يحل إخوانهم الأصغر سنا محلهم بل وأحيانا أخواتهم . وفى صباح أحد أيام السبت ، وجدت أن عدد الرجال ممن كانوا يرتدون الزى العسكرى الكاكى يفوق عدد المدنيين .

كانت الذكرى الوحيدة الأخرى التى رسخت فى ذهنى عن هذه الفترة هى ذكرى شولتز ، بائع النقانق الذى كنا نكافئ أنفسنا بتناول الطعام لديه مساء كل سبت ، وخاصة عندما كان يبتسم لنا ابتسامة خافتة ، ويقدم لنا السوس الإضافى بدون مقابل . كان مؤخراً قد بدا متجهما حتى فوجئنا فى صباح أحد الأيام بأنه قد تم إغلاق المحل كلية ولم نر السيد شولتز أبدا منذ ذلك اليوم . وقد همس جدى فى سرية بأنه " الاعتقال " .

كان أبى ينضم إلينا أحيانا فى صباح السبت ولكن فقط لكى يحصل على بعض المال النقدى من جدى يمكنه من الذهاب إلى البلاك بول وإنفاق كل المال مع صديقه بيرت شوروكز .

وقد دأب جدى أسبوعاً بعد أسبوع على منح أبى مبالغ نقدية كان كلانا يعلم أنها خارجة عن حدود قدرته . ولكن ما كان يزعجنى فى المقام الأول هو أن جدى نفسه لم يقدم يوماً على تناول الخمر أو المقامرة . ولكن هذا لم يمنع أبى من أخذ المال ثم ضبط قبعته بالطريقة المعهودة والذهاب إلى البلاك بول .

استمر الوضع على هذا الحال أسبوعاً تلو الآخر ، وكان يمكن أن يدوم هكذا بدون تغير إلا أن حدث صباح أحد أيام السبت وجاءتنا سيدة كنت قد لاحظت وقوفها على مدى الأسبوع السابق عند أحد الأركان مرتدية ثوباً أسود طويلاً حاملة مظلة . توجهت نحو العربة الخشبية التى تحمل الخضار ثم توقفت ووضعت ريشة بيضاء على طية صدر سترة أبى .

لم أكن قد شهدت أبى فى مثل الثورة التى اعترته عندها إلا مساء السبت المعتاد عندما كان يفقد كل ماله فى القمار ويعود إلى البيت ثملاً مما كان يضطرنا جميعا إلى الاختباء تحت السرير . رفع قبضة يده فى وجه السيدة ولكنها لم تحرك ساكنا وبقيت ثابتة ونعتته " بالجبان " فى وجهه . رد عليها صائحاً ببعض الشتائم المنتقاة التى كان يحتفظ بها دائما لجامع الإيجار . ثم جمع كل الريش الذى أسقطته وألقى به فى البالوعة وانطلق فى اتجاه البلاك بول . ولكن الأكثر من ذلك هو أنه لم يعد إلى المنزل فى منتصف الليل ، عندما قدمت لنا سال عشاء السمك والبطاطس . لم يزعجنى الأمر عندما ذهبت إلى وست هام فى عصر نفس اليوم وتناولت كل حصته من البطاطس . ولكنه لم يعد إلى المنزل فى تلك الليلة ، وعندما استيقظت فى الصباح وجدت أن جانب الفراش الخاص به لم يمس . وعندما عدنا بصحبة جدى من دار العبادة لم نجد أيضا أية إشارة تنم عن رجوع أبى ، وهكذا قضيت ليلة ثانية فى سريرى المزدوج وحدى .

" لقد قضى على الأرجح ليلة ثانية فى السجن " ، قال جدى ذلك صباح يوم الاثنين بينما كنت أدفع العربة الخشبية فى منتصف

الطريق محاولاً تجنب كل الشاحنات التى كانت تمر فى الطريق ذهاباً وإياباً إلى المدينة بطول خط الميتروبوليتان .

وبينما كنا نمر برقم ١١٠ ، وقع بصرى على السيدة شوروكز وهى تحدق إلىّ عبر النافذ بعينيها السوداء المحاطة بالكدمات الملونة المعتادة التى كان بيرت يخلفها فوق وجهها مساء معظم أيام السبت .

قال جدى : " يمكنك أن تذهب وتسدد له الكفالة قرابة الظهيرة . وربما يكون قد أفاق عندها من أثر الخمر " .

استأت من فكرة تسديد قيمة الكفالة مما كان يعنى الاستغناء ثانية عن ربح يوم آخر .

بعد الثانية عشرة ببضع دقائق ، توجهت إلى قسم الشرطة . ولكن الضابط المسئول أخبرنى أن بيرت شوروكز كان مازال فى الزنزانة وأنه من المنتظر أن يعرض على القاضى فى العصر ولكنه لم ير والدى طوال عطلة نهاية الأسبوع .

قال جدى مازحاً : " سوف يرجع إليك ثانية ، فهو مثل العملة البالية ، ثق فى ذلك " .

مضى شهر كامل قبل أن يعود أبى ثانية . وعندما رأيته للمرة الأولى لم أصدق عينى ، فقد كان يرتدى الزى الكاكى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . كان قد التحق بالكتيبة الثانية من سلاح الغدارة الملكية . وأخبرنا بأنه من المتوقع أن يتم إرساله إلى الجبهة فى غضون الأسابيع القليلة التالية ولكنه سوف يعود إلى المنزل فى عيد رأس السنة ، حيث أخبره أحد الضباط أن الأعداء الجبناء سوف يولون الأدبار قبل هذا الموعد بكثير .

هز جدى رأسه وقطب جبينه ولكننى شعرت بفخر شديد حيال أبى حتى إننى ظللت باقى اليوم ملازما له فى السوق . وحتى السيدة التى كانت تقف فى الركن توزع الريش الأبيض أومأت برأسها مؤيدة له . قطبت جبينى لها ووعدت أبى بأن الألمان إن لم ينسحبوا بحلول عيد رأس السنة فسوف أترك السوق وأنضم بنفسى إليه لكى ننهى هذه المهمة . حتى إننى ذهبت معه هذه الليلة إلى مقهى البلاك بول مصراً على إنفاق كل أجرى الأسبوعى على كل ما يحلو له . ولكن لم يسمح له أى شخص بتسديد ثمن الشراب فانتهى بى المآل إلى عدم إنفاق أى بنس واحد . وفى صباح اليوم التالى ، تركنا لكى ينضم إلى فرقته العسكرية حتى قبل أن نخرج أنا وجدى للذهاب إلى السوق .

لم يرسل إلينا أبى ولو خطاباً واحداً لأنه لم يكن يعرف الكتابة وكان الناس فى الطرف الشرقى يدركون جيداً أنه إن لم يصلك خطاب ذو لون بنى تحت بابك فهذا يعنى أن عضو العائلة الذى انضم للجيش مازال حيا .

كان السيد سالمون قد دأب على قراءة الجريدة الصباحية لى من وقت إلى آخر ولكن بما أنه لم يذكر فى أى يوم شيئاً عن الكتيبة الملكية فإننى لم أتبين ما حدث لأبى . كنت فقط أتضرع إلى الله ألا يكون فى مكان يسمى يبريس حيث كانت كل الصحف قد ذكرت ارتفاع عدد الضحايا فيه .

مر يوم عيد رأس السنة هادئاً على كل أفراد الأسرة لأن الرجل العجوز لم يكن قد عاد من الجبهة كما وعده الضابط .

عادت سال ـ التى كانت تعمل بنظام النوبات فى أحد المقاهى فى الشارع التجارى ـ إلى عملها يوم الإهداء ، وبقيت جريس فى

عملها فى مستشفى لندن على مدى العطلة المزعومة ، بينما بقيت كيتى تتسكع وتتفقد هدايا الجميع قبل أن تؤوى إلى فراشها ، لم تكن كيتى قادرة على الاحتفاظ بعمل واحد لأكثر من أسبوع ولكنها بقيت رغم ذلك الأكثر أناقة بيننا . ربما لأن معارفها بدوا على استعداد لإنفاق آخر بنس عليها قبل الذهاب إلى الجبهة . ولم يكن بوسعى تصور ردها عليهم إن عادوا جميعا فى يوم واحد .

كانت كيتى تتطوع من وقت إلى آخر للعمل على مدى ساعتين على عربة الخضر المتنقلة ولكنها كانت بمجرد أن تراجع أرباح اليوم كانت سرعان ما تختفى . وقد اعتاد جدى أن يقول : " لا يمكن أن أصف ما يحدث على أنه ميزة " . ومع ذلك لم يكن الأمر يزعجنى . كنت فى السادسة عشرة من عمرى ولم يكن هناك أى شىء فى العالم يثير اهتمامى ، وكان كل فكرى منصباً على كيفية الحصول على عربتى الجوالة الخاصة .

وقد أخبرنى السيد سالمون أنه قد سمع أن أفضل العربات الخشبية تباع فى شارع أولد كينت ، وذلك بعد أن أقدم العديد من الشباب على بيع عرباتهم الجوالة لتلبية نداء الوطن والالتحاق بالخدمة العسكرية . وقد أكد لى أن هذا هو الوقت المناسب لعقد الصفقة واقتناء العربة الخشبية . شكرت الخباز ورجوته ألا يخبر جدى بما أنا بصدده لأننى كنت أريد أن أعقد الصفقة قبل أن يكتشف الأمر .

فى صباح يوم السبت التالى ، استأذنت جدى للتغيب عنه لبضع ساعات .

" هل وجدت لنفسك فتاة ؟ إننى فقط أريد أن أطمئن إلى أنك لن تحتسى الشراب " .

قلت له بابتسامة عريضة : " لا شىء من هذا القبيل ، ولكنك سوف تكون أول شخص أخبره بما حدث يا جدى ، أعدك بهذا " ، ثم أحكمت قبعتى فوق رأسى ثم مضيت فى اتجاه شارع أولد كينت .

عبرت نهر التاميز فوق جسر تاور وسرت متجهاً إلى الجنوب فى مكان لم يسبق لى أن توجهت إليه من قبل وعندما وصلت إلى السوق لم أصدق ما رأيته . لم أكن قد شاهدت من قبل كل هذا الكم من العربات الخشبية المعروضة للبيع . كانت العربات مصطفة فى صفوف . وكانت هناك عربات طويلة وعربات قصيرة وأيضاً عربات قصيرة وعريضة ، وكانت هناك عربات من كل ألوان الطيف وكان بعضها يحمل بعض أسماء تعود إلى أجيال فى الجانب الشرقى . قضيت ما يقرب من ساعة فى التنقل بين تلك العربات ولكن كانت هناك عربة دأبت على التردد والرجوع إليها ، كانت عربة زرقاء وذهبية الجوانب ، " كانت أكبر عربة خشبية فى العالم " .

وقد أخبرتنى السيدة التى كانت تبيع هذه التحفة الرائعة أن عمرها كان شهراً واحداً فقط وأن زوجها الذى قتل على يد الجبناء كان قد دفع ثلاثة جنيهات ثمناً لها وأنها لم تكن تنوى بيعها بأقل من ذلك ببنس واحد .

أخبرتها أننى لا أملك سوى جنيهين فقط ولكننى على استعداد لتسديد باقى ثمنها قبل انقضاء ستة أشهر .

" ربما نكون قد لقينا حتفنا جميعاً قبل ستة أشهر " ، هكذا أجابت وهى تهز رأسها فى الهواء وكأنها قد سمعت مثل تلك الأقاويل كثيرا حتى سئمتها .

أجبتها بلا تفكير قائلاً : " إذن سوف أعطيك جنيهين وستة بنسات وأمنحك ضمانا باسم جدى " .

" ومن هو جدك ؟ "

قلت بفخر بالرغم من أننى لم أكن واثقا أنها قد سمعت باسمه من قبل : " تشارلى " .

" تشارلى ترامبر هو جدك ؟ "

قلت فى تشكك : " وهل تعرفينه ؟ " .

قالت : " إذن جنيهان وستة بنسات ، أوافق أيها الفتى الصغير . واحرص على سداد الباقى قبل عيد الميلاد " .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أدركت فيها معنى كلمة " السمعة " . منحتها مدخرات عمرى ووعدتها بأن أسدد لها باقى الثمن قبل نهاية العام .

تصافحنا دليلاً على انعقاد الصفقة وأمسكت على مقبض العربة وبدأت أدفع بنفسى أول عربة لى عائداً ثانية فوق الجسر إلى شارع وايت شابيل . وعندما وقع بصر كل من سال وكيتى لأول مرة على جائزتى الكبرى ؛ لم يتمالكا نفسيهما وأخذا يقفزان من شدة الفرح وساعدانى فى طلاء أحد جوانبها وكتبت عليه : " تشارلى ترامبر ، التاجر الأمين ، تأسست عام ١٨٢٣ " . كنت واثقاً أن جدى سوف يكون فخوراً بى .

وبمجرد أن استكملنا المهمة وقبل أن يجف الطلاء بكثير ، دفعت عربتى بزهو نحو السوق . وعندما أصبح المكان الذى يقف فيه جدى على مرمى البصر كانت ابتسامتى قد اتسعت إلى أقصى حد .

كانت الجموع المحتشدة حول جدى تفوق حجمها المعتاد صباح السبت ولم أستطع أن أفسر سبب الصمت المفاجئ الذى ساد المكان

فور ظهورى . " ها قد جاء تشارلى الصغير " ، هكذا صاح أحد الأشخاص واستدارت عدة وجوه نحوى وأخذت تحدق إلىّ . شعرت أن ثمة أمراً مريباً ، فتركت مقبض العربة وشققت الحشد راكضاً ، فتفرق على الجانبين وأفسح لى الطريق . وعندما وصلت إلى المقدمة ، كان أول شىء رأيته هو جدى ملقى على الرصيف ورأسه مرفوع فوق صندوق تفاح ووجهه فى بياض قطعة الورق .

أسرعت ووقفت بجواره وجثيت على ركبتى وقلت وأنا أبكى : " أنا تشارلى يا جدى ، إنه أنا ، أنا هنا . ما الذى تريدنى أن أفعله ؟ فقط أخبرنى بما تريد وسوف أفعله " .

حرك جفنيه المتعبين ببطء وقال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة : " أصغ إلىّ يا بنى . إن العربة الآن أصبحت ملكك أنت ، اعتن بها دائماً ولا تتركها بعيداً عن ناظريك لأكثر من بضع ساعات دفعة واحدة " .

" ولكنها عربتك أنت يا جدى ، كيف ستعمل بدونها ؟ " ، هكذا سألته . ولكنه لم يكن يسمعنى .

وحتى هذه اللحظة لم أكن أدرك مطلقاً أن شخصاً أعرفه يمكن أن يموت .

الفصل

٢

أقيمت جنازة الجد فى صباح يوم خال من السحب فى بداية شهر فبراير فى إحدى دور العبادة فى شارع جوبيلى . وكان كل من فى القاعة واقفاً وحتى السيد سالمون فى معطفه الأسود الطويل وقبعته السوداء كان من بين الواقفين فى الخلف .

عندما سار تشارلى دافعاً عربته الجديدة إلى حيث اعتاد جده أن يقف فى صباح اليوم التالى ، خرج السيد دانكلى من متجر السمك والبطاطس وأعرب عن إعجابه بتلك العربة .

كان أول ما قاله تشارلى للرجل : " يمكنها أن تحمل ضعف ما كانت تحمله عربة جدى القديمة والأهم من ذلك أنه لم يبق سوى تسعة عشر بنساً لسداد ثمنها ." ولكن مع نهاية الأسبوع اكتشف تشارلى أن عربته مازالت محملة بالبضاعة حتى تصفها . حتى سال وكيتى أشاحا بوجهيهما عنه عندما عرض عليهما تناول الموز الأسود والخوخ العطب . وقد استغرق التاجر الجديد عدة أسابيع قبل أن

ينجح فى تحديد متوسط الكميات التى يحتاج إليها صباح كل يوم لكى يلبى احتياجات زبائنه ، واستغرق وقتا أطول إلى أن أدرك أن هذه الاحتياجات تختلف من يوم إلى آخر .

وفى صباح أحد أيام السبت ، كان تشارلى قد جمع حصيلته من السوق وكان يسير فى طريقه إلى وايت شابيل عندما سمع نداءً أجش .

" القوات البريطانية تُذبَح عند نهر " السوم " ، هكذا صاح الفتى الذى كان يقف عند أحد أركان كوفين جاردن وهو يلوح بإحدى الصحف فوق رأسه .

ضحى تشارلى بنصف بنس من ماله لكى يشترى صحيفة الديلى كرونيكل ثم جلس على الرصيف وأخذ يقرأ منتقيا الكلمات التى كان يعرفها . علم بمقتل آلاف من الجنود البريطانيين الذين كانوا قد شاركوا فى عمليات عسكرية مشتركة مع القوات الفرنسية ضد جيش القيصر بيل . وانقلبت المواجهة المشئومة إلى كارثة . كان الجنرال هيج قد تنبأ بتقدم القوات أربعة آلاف ياردة فى اليوم الواحد ولكن الأمر قد انتهى بالتراجع . لقد تحول الشعار القائل : " سوف نعود جميعا إلى ديارنا بحلول عيد الميلاد " إلى نداء أجوف .

ألقى تشارلى بالصحيفة فى سلة المهملات . لا يجرؤ أى ألمانى على قتل والده ؛ لقد كان واثقا من ذلك بالرغم من أنه بدأ يشعر بالذنب فى وقت لاحق لأنه لم يشارك بجهوده فى الحرب بعد أن تطوعت جريس فى العمل فى معسكرات الإغاثة على بعد نصف ميل فقط من الجبهة الأمامية .

وعلى الرغم من أن جريس كانت تراسل تشارلى شهرياً ؛ فإنها لم تكن قادرة على إمداده بأية معلومات عن مكان الدهم . وقد

كتبت تحكى له : " إنهم نصف مليون جندى هنا ، كما أن البرد والرطوبة والجوع قد جعلتهم جميعا يشبهون بعضهم البعض " . وقد واصلت سال عملها كنادلة فى الشارع التجارى وكانت تقضى ما بقى لها من وقت بحثاً عن زوج ؛ أما كيتى فلم تكن تواجه أية مشكلة فى العثور على رجال على استعداد لإنفاق أموالهم تلبية لرغباتها . إن كتيى ـ فى الواقع ـ كانت الوحيدة التى تملك وقتا للمساعدة فى تجارة الخضر والفاكهة ؛ ولكن حيث إنها لم تكن تستيقظ قبل بزوغ الشمس وتتسلل من عملها قبل غروب الشمس بكثير ؛ فلم تكن تنطبق عليها مواصفات ما كان يطلق عليه الجد اسم امتياز .

مرت أسابيع قبل أن يكف تشارلى عن الحيرة والتساؤل : " كم يا جدى ؟ " ، أو " بكم ، يا جدى ؟ " ، أو " هل يمكن أن نمنح السيدة روجلز بضاعة بسداد آجل يا جدى ؟ " . كما أنه لم يدرك إلا بعد سداد دين عربته الجديدة بالكامل وعدم حمل أى نقد احتياطى ، كيف كان جده بائعا محنكاً بحق .

على مدى الشهور القليلة الأولى لم يكسبا سوى بضع بنسات قليلة أسبوعيا ، وقد أدركوا جميعا بما فى ذلك سال أنه سوف ينتهى بهم المآل إلى الطرد من منزلهم إن عجزوا عن سداد الإيجار . توسلت سال إلى تشارلى لكى يبيع عربة جده لكى تدر عليهم بعض المال ولكن إجابته بقيت ثابتة لا تتغير " مستحيل " ، ثم أضاف بعدها أنه يفضل أن يتضور جوعا وأن يترك البضاعة تعطب قبل أن يقدم على تسليم مقبض عربة جده ليد أخرى .

وبحلول خريف عام ١٩١٦ ؛ بدأ العمل ينتعش ثانية وحققت أعظم عربة جوالة فى العالم عائداً جيداً سمح لسال بشراء ثوب

مستعمل وسمح لكيتى بشراء زوج أحذية جديد وتمكن تشارلى من شراء بذلة مستعملة .

وعلى الرغم من أن تشارلى كان نحيفا ـ أصبح يلاكم فى وزن الذبابة ـ ولم يكن قد زاد طوله بشكل ملحوظ ، فإنه بمجرد أن أتم عامه السابع عشر ، لاحظ أن السيدات فى شارع وايت شابيل ـ ممن كن يلقين الريش الأبيض على كل من يبدو فيما بين الثامنة عشرة والأربعين من العمر ـ قد بدأن يرقبنه بصبر نافد .

لم يكن تشارلى يخشى الألمان ، ولكنه كان مازال يتمنى أن تنتهى الحرب وأن يعود والده سريعا إلى وايت شابيل لكى يمارس عمله فى السفن نهارا ولهوه فى مقهى بلاك بول ليلاً . ولكن مع عدم وصول خطابات وعدم ورود أية أخبار فى الصحف ، فإنه حتى السيد سالمون نفسه عجز عن إخباره بحقيقة ما يجرى بالفعل فى الجبهة .

وبمرور الأشهر ، أصبح تشارلى أكثر إدراكا لمتطلبات واحتياجات زبائنه ، كما أدرك زبائنه فى المقابل أن قيمة سلعه ومستوى جودتها كانت تفوق ما يقدمه العديد من منافسيه . وحتى تشارلى شعر أن الأمور قد بدأت تسير إلى الأفضل عندما جاءت السيدة سميلى بوجهها الباسم ذات يوم لتشترى منه المزيد من البطاطا لفندقها الصغير فى صباح أحد الأيام واشترت منه أكثر مما يشترى أى زبون عادى على مدى شهر كامل .

قال وهو يرفع قبعته : " يمكننى أن أوصل لك الطلبات بنفسى يا سيدة سميلى مباشرة إلى فندقك صباح كل اثنين " .

أجابت قائلة : " كلا شكرا يا تشارلى ، إننى أحب دائما أن أتفحص ما أشتريه " .

" امنحينى فرصة لكى أثبت نفسى يا سيدة سميلى ، وبعدها لن تكونى بحاجة لأن تجهدى نفسك وتحضرى إلى هنا عندما تتأكدين بنفسك من أنك قد حصلت على أفضل مما كنت تتوقعين " .

حدقت إليه مباشرة " حسنا ؛ سوف أمنحك أسبوعين . ولكن إن خذلتنى يا تشارلى ترامبر ــــ "

أجاب تشارلى بابتسامة قائلاً : " اتفقنا " ، ومنذ ذلك اليوم لم تذهب السيدة سميلى فى السوق أبداً لشراء الخضر والفاكهة .

وقد قرر تشارلى بعد هذا النجاح المبدئى أن يوسع نطاق خدمة التوصيل إلى زبائن آخرين فى الجانب الشرقى . وفكر أنه بهذه الطريقة ربما يكون بوسعه أن يضاعف دخله . وفى صباح اليوم التالى ، أخرج عربة جده القديمة من الفناء الخلفى للمنزل ونظفها من العنكبوت ثم طلاها وترك كيتى تتلقى الطلبات المنزلية عبر الهاتف بينما عاد هو إلى المكان الذى يقف فيه فى شارع وايت شابيل .

وفى غضون أيام كان تشارلى قد خسر كل الربح الذى كان قد حققه على مدى العام السابق وفجأة وجد نفسه قد عاد إلى نقطة البداية ثانية . وقد اكتشف أن كيتى لم تكن تجيد التعامل مع الأرقام والأسوأ من ذلك أنها كانت تصدق كل من يستعطفها بقصص واهية إلى أن انتهى بها المآل إلى توزيع الطعام بدون مقابل . وبنهاية الشهر كان تشارلى قد أفلس ووجد نفسه ثانية عاجزاً عن تسديد إيجار المنزل .

" إذن ما الذى تعلمته من هذا الدرس القاسى ؟ " ، هكذا سأله دان سالمون بينما كان واقفاً عند عتبة محله ، وقد وضع قلنسوته

فوق مؤخرة رأسه ، وإبهاميه فى جيوب معطفه كاشفا بفخر عن جزء من ساعته الذهبية .

" أن أفكر جيداً قبل أن أعين أحد أفراد أسرتى وألا أفترض أبداً أن أى شخص سوف يسدد دينى " .

قال السيد سالمون : " جيد ، أنت تتعلم سريعا . إذن ما هو المبلغ المطلوب لكى تسدد إيجارك وتتجاوز هذه المشكلة فى الشهر القادم ؟ " .

سأل تشارلى : " ما الذى ترمى إليه ؟ "

كرر السيد سالمون : " كم تريد ؟ "

قال تشارلى وهو ينكس رأسه : " خمسة جنيهات " .

فى مساء الجمعة بعد أن أغلق مصراع النافذة ، أعطى دان سالمون خمسة جنيهات إلى تشارلى ومعها خمس فطائر . ثم قال له : " سدد الدين عندما تستطيع وإياك أن تخبر زوجتى وإلا فسوف توقعنا نحن الاثنين فى مأزق " .

وقد سدد تشارلى الدين بمعدل خمسة شلنات فى الأسبوع الواحد وبعد عشرين أسبوعاً كان قد سدد الدين كله . سوف يبقى متذكراً دائماً اليوم الذى سدد فيه القسط النهائى لأنه كان فى اليوم الذى حدثت فيه غارة جوية كبيرة فوق لندن وقضى معظم ليلته مختبئا تحت سرير والده وبقيت كل من سال وكيتى متشبثتين به خوفا على حياتهما .

وفى صباح اليوم التالى قرأ تشارلى قصة القذف الجوى فى جريدة الديلى كرونيكل وعرف أن المئات من سكان لندن كانوا قد لقوا حتفهم بينما أصيب ما يقرب من أربعمائة شخص أثناء الغارة .

التهم تشارلى تفاحته قبل أن يوصل الطلبات إلى السيدة سميلى وعاد إلى موقعه فى شارع وايت شابيل . كان يوم الاثنين فى العادة يوماً مزدحماً حيث كان الجميع يسعون إلى شراء مستلزمات الأسبوع بعد عطلة نهاية الأسبوع . ومع حلول الوقت الذى عاد فيه إلى المنزل رقم ١١٢ لتناول شاى العصر كان منهكا . وكان تشارلى يدس شوكته فى ثالث فطيرة للحم عندما سمع طرقاً على باب المنزل .

سألت كيتى ، بينما كانت سال تقدم لتشارلى ثمرة بطاطا ثانية : " ترى من الطارق ؟ "

" هناك طريقة واحدة فقط لكى نعرف الإجابة يا فتاتى " ، هكذا قال تشارلى بدون أن يحرك ساكنا .

تركت كيتى المائدة فى تردد ورفعت أنفها إلى أعلى فى الهواء ، وقالت : " إنها بيكى سالمون . تقول إنها ترغب أن تحادثك فى أمر ما " .

قال تشارلى مبتسماً : " هل تريد ذلك الآن ؟ إذن أدخليها فى الصالون " .

عادت كيتى تجر أقدامها ثانية بينما نهض تشارلى من فوق مقعده حاملاً ما تبقى من فطيرته بين يديه وتوجه إلى الغرفة الوحيدة التى لم تكن غرفة نوم داخل المنزل . جلس على الكرسى الجلدى القديم وواصل مضغ طعامه بينما بقى منتظراً . وبعد لحظة جاءته بوش بوركى ووقفت فى منتصف الغرفة قبالته مباشرة . لم تتحدث . ودُهش تشارلى قليلاً من حجم الفتاة على الرغم من أن طولها كان يقل عنه بما يقرب من بوصتين إلى ثلاث بوصات ولكن وزنها كان على الأرجح يزيد عن وزنه كثيرا ، لقد كانت ثقيلة

الوزن بالفعل . يبدو أنها لم تكن قد كفت عن تناول فطائر قشدة السيد سالمون . وأخذ تشارلى يحدق فى قميصها ناصع البياض وتنورتها حالكة الزرقة . كانت سترتها الأنيقة مزينة بنسر ذهبى محاطاً بكلمات لم يكن قد شاهد مثلها أبداً من قبل . كانت هناك شريطة حمراء تمسك بالكاد بشعرها الأسود القصير وقد لاحظ تشارلى أن حذاءها الأسود الصغير وجواربها البيضاء كانت ناصعة كما هى الحال دائماً .

كان يمكن أن يطلب منها أن تجلس ما لم يكن قد شغل هو المقعد الوحيد فى الغرفة ، لذلك فإنه لم يفعل . طلب من كيتى أن تتركهما على انفراد . وللحظة ، أخذت كيتى تحدق فى تشارلى فى ريبة ثم غادرت الغرفة بدون أن تنطق بكلمة .

سألها تشارلى بمجرد أن أغلق الباب : " إذن ما الذى تريدين ؟ "

بدأت ريبيكا سالمون ترتجف وهى تسعى لإخراج الكلمات من حلقها وقالت : " لقد جئت أقابلك بسبب ما حدث لأهلى " ونطقت كل كلمة ببطء وعناية وبلكنة بعيدة تماماً عن لكنة الجانب الشرقى مما أثار ازدراء تشارلى .

سأل تشارلى فى غلظة وكأنما يريد أن يوحى إليها بأن هذه النبرة لم تؤثر فيه : " إذن ما الذى أصاب والديك ؟ " . انفجرت بيكى فى البكاء . فما كان من تشارلى إلا أن أخذ يحدق عبر النافذة لأنه لم يكن واثقاً مما كان يجب عليه فعله .

واصلت بيكى ارتجافها عندما بدأت تتحدث ثانية وقالت : " لقد قُتل أبى فى الغارة ليلة أمس ، أما أمى فقد نقلت إلى

مستشفى لندن " ، ثم توقفت فجأة بدون أن تضيف المزيد من التوضيح .

قفز تشارلى من فوق كرسيه ، قال بينما بدأ يسير فى أنحاء الغرفة : " لم يخبرنى أحد " .

قالت بيكى : " لا يمكن أن تكون قد سمعت بالخبر ؛ لأننى حتى لم أخبر العاملين فى المحل بعد . إنهم يعتقدون أن أبى قد تغيب اليوم بسبب مرضه " .

سأل تشارلى : " هل تودين أن أخبرهم ؟ هل هذا ما جئت من أجله ؟ " .

قالت وهى ترفع رأسها ببطء : " كلا " ، ثم صمتت للحظة وأضافت : " بل أريدك أن تأخذ المحل " .

ذهل تشارلى من الاقتراح حتى أنه بالرغم من أنه كان قد كف عن التحرك داخل الغرفة ، عجز عن الرد .

" كان أبى يقول دائما إنه لن يمضى وقت طويل قبل أن تؤسس متجرك الخاص ، لذا فقد فكرت فى ..... " .

تمتم تشارلى قائلا بينما سقط فوق مقعده :

" ولكننى لا أعرف شيئا بالمرة عن الخبز " .

" إن العاملين لدى أبى يعرفون كل شىء عن التجارة وأنا واثقة من أنك سوف تعرف أكثر مما يعرفون فى غضون شهور قليلة . إن ما يحتاجه المتجر الآن هو تاجر محنك . لقد كان أبى يرى دائماً أنك لا تقل كفاءة عن جدك تشارلى الكبير والكل يعرف أنه كان الأفضل " .

" ولكن كيف سأدير عملى ؟ " .

" إن المتجر لا يبعد سوى بضع ياردات قليلة من عربتك ؛ أى أنك سوف تتمكن بسهولة من متابعة العمل هنا وهناك " . ثم ترددت قليلا وأضافت : " إن الأمر يختلف عن عملك فى مجال خدمة توصيل الطلبات " .

" هل كنت تعرفين بالأمر ؟ " .

" وأعرف أيضاً أنك قد حاولت رد مبلغ الخمس شلنات التى كنت مديناً بها لأبى قبل أن يذهب إلى دار العبادة ببضع دقائق يوم السبت . نحن لا نخفى أسراراً عن بعضنا البعض " .

سأل تشارلى بعد أن بدأ يشعر أنه متأخر دائما خطوة عن الفتاة : " إذن ، كيف يمكن أن أوفق بين الأمرين ؟ " .

" سوف تدير تجارة الخضر والمخبز وسوف نتقاسم الربح النصف بالنصف " .

" وما هو الدور الذى سوف تقومين به أنت لكى تكسبى حصتك فى المكسب ؟ " .

" سوف أراجع دفاتر الحسابات شهرياً وأحرص على تسديد الضرائب فى الوقت المحدد وعدم خرق أية قوانين حكومية " .

قال تشارلى : " لم يسبق لى وسددت أية ضرائب من قبل . ومن بحق السماء يعبأ بالحكومة والقوانين التى تفرضها ؟ " .

تشبثت عينا بيكى به للمرة الأولى وقالت : " كل من يريد أن يدير عملاً جاداً فى يوم من الأيام يا تشارلى ترامبر ؛ هؤلاء هم الذين يعبأون بمثل هذه الأمور " .

قال تشارلى وهو لا يزال يحاول أن يحتفظ بالسبق والكلمة العليا : " ولكن النصف بالنصف يبدو لى اتفاقاً غير منصف " .

" إن قيمة مخبزى تفوق قيمة عربتك الخشبية كما أن المكسب الذى يدره يفوق كثيراً ما تدره عليك تجارتك " .

" كان الحال كذلك قبل وفاة والدك " ، هكذا قال تشارلى ثم ندم على كل كلمة فى تلك العبارة بعدما تفوه بها مباشرة .

نكست بيكى رأسها ثانية وهمست قائلة : " هل توافق على شراكتنا أم لا ؟ " .

قال تشارلى : " ستون مقابل أربعين ؟ " .

ترددت لفترة طويلة ثم فجأة مدت ذراعها . ثم نهض تشارلى من مقعده وصافح يدها بحرارة للتأكيد على عقد أول صفقة له .

بعد جنازة دان سالمون ؛ حاول تشارلى أن يقرأ صحيفة الديلى كرونيكل كل صباح أملاً فى تبين مصير الكتيبة الملكية الثانية وما آل إليه والده . كان يعلم أن الفرقة تحارب فى مكان ما فى فرنسا ولكن لم تكشف أى صحيفة عن مكانها تحديداً لذا لم يتوصل إلى شيء .

أصبحت الصحيفة اليومية ذات سحر مزدوج لتشارلى ؛ حيث بدأ يهتم بقراءة الإعلانات التى كانت تعرض فى كل صفحة من صفحات الجريدة . لم يكن بوسعه أن يصدق أن هؤلاء المرفهين فى الجانب الشرقى كانوا على استعداد لدفع مبالغ نقدية كبيرة لاقتناء أشياء بدت له لا تعدو أكثر من كماليات ثانوية غير ضرورية . ومع ذلك ؛ فإن هذه القناعة لم تمنع تشارلى من الرغبة فى تذوق الكوكاكولا ؛ آخر المشروبات التى اخترعتها أمريكا بتكلفة بنس واحد للزجاجة أو اقتناء ماكينة الحلاقة الآمنة التى ابتكرتها جيليت حتى بالرغم من أنه لم يكن قد بدأ يمارس الحلاقة من الأساس ؛ بقيمة ستة بنسات للماكينة وبنسين للأمواس الستة . لقد

كان واثقا أن والده الذى لم يستخدم يوما إلا سكينا حادة فى الحلاقة كان سيستنكر تلك الفكرة . وقد أثار مشهد سيدة تسير وهى تجر اثنين من الكلاب سخرية تشارلى باعتبارها فكرة سخيفة للغاية . ولن تحتاج أى من سال أو كيتى أياً من ذلك فى يوم من الأيام بالرغم من أن بوش بوركى قد تقدم على ذلك ؛ إن مضت فى طريقها على هذا النحو .

انبهر تشارلى بكل هذه الفرصة التى بدت له لا نهائية فى البيع مما دفعه إلى قطع الطريق إلى نهاية الجانب الشرقى صباح يوم الأحد لكى يشاهد بنفسه ما يجرى هناك . ركب العربة التى يجرها الخيل حتى وصل إلى تشيلسيا ثم نزل وسار ببطء نحو الجانب الشرقى حيث وصل إلى ماى فير وأخذ يتفحص جيداً كل البضائع المطروحة عبر نوافذ المتاجر وهو يقطع طريقه . وقد لاحظ أيضا الطريقة التى كان يرتدى بها الناس ملابسهم وتلك العربات الرائعة المزودة بمحرك والتى كانت تنفث دخانها بدون أن تخلف أى روث وراءها وهى تسير فى منتصف الطريق . حتى إنه بدأ يتساءل كم يبلغ إيجار محل فى تشيلسا .

فى الأحد الأول من أكتوبر عام ١٩١٧ اصطحب تشارلى سال معه إلى الجانب الشرقى لكى ترى كل هذه المشاهد وكان يشرح لها ما تراه .

سار تشارلى بصحبة أخته بتمهل وأخذا يتفحصان معروضات المتاجر عبر النوافذ وقد عجز عن إخفاء مدى شعوره بالإثارة أمام كل اكتشاف جديد كان يمر به . كان كل شيء يحتذب انتباهه ؛ ملابس الرجال والقبعات والأحذية وثياب النساء والعطور والملابس الداخلية وحتى الكعك والمعجنات .

قالت سال : " بحق السماء ، دعنا نرحل من هنا ونعود إلى وايت شابيل إلى حيث ننتمى ، لأن هناك شيئاً واحداً أنا واثقة منه وهو أننى أشعر بالغربة هنا " .

قال تشارلى : " ولكنك لا تفهمين . فى يوم من الأيام سوف أقتنى محلاً فى تشيلسيا " .

قالت سال : " لا تكن سخيفا ، حتى دان سالمون نفسه لم يكن يملك قيمة متجر من هذه المتاجر " .

ولكن لم يشغل تشارلى نفسه بعناء الرد عليها .

كانت بيكى محقة فى توقعاتها ، فقد أثبت تشارلى كفاءته فى إدارة تجارة المخبز . وفى خلال شهر واحد كان قد تعلم كل ما يخص درجة حرارة الفرن وتخمر العجين والمقادير الصحيحة للدقيق مقابل الماء ، كان قد اكتسب من المعرفة ما يضاهى معرفة العاملين فى المخبز . وحيث إن المخبز كان يتعامل مع نفس العملاء الذين يترددون على تشارلى فى تجارة الخضراوات فقد انخفضت المبيعات فى المخبز وتجارة الخضراوات فى الربع السنوى الأول من العام .

وقد أثبتت بيكى أنها تفى بوعودها حيث حرصت على مراجعة الحسابات التى وصفتها بأنها كانت بالغة السهولة كما أنها أعدت مجموعة من دفاتر الحساب الجديدة لتدوين حركة مبيعات وحساب تجارة ترامبر . ومع انتهاء الثلاثة أشهر الأولى من الشراكة ، كانا قد حققا ربحا وصل إلى أربعة جنيهات وأحد عشر شلنا على الرغم من أنهما قاما بإصلاح فرن الغاز فى المخبز مما مكن تشارلى من شراء بذلة مستعملة أخرى .

واصلت سال عملها كنادلة فى الشارع التجارى ولكن تشارلى كان يعرف جيداً أنها تتحرق شوقاً للعثور على رجل على استعداد للزواج منها ـ مهما كان شكله ـ مقابل أن يمنحها غرفة تنام فيها بمفردها ، فهكذا كانت تردد دائماً .

واصلت جريس بلا أى انقطاع إرسال خطاباتها فى أول كل شهر ونجحت إلى حد ما فى أن تبدو دائماً متفائلة على الرغم من رائحة الموت التى كانت تحاصرها من كل جانب . لقد كانت تشبه والدتها تماما ، هكذا كان يردد رجل الدين أومالى أمام أتباعه . أما كيتى فقد كانت لا تكف عن التحرك ذهاباً وإياباً كما يحلو لها واقتراض المال من أختيها ومن تشارلى بدون أن تسدد ديونها ، تماما مثل أبيها ، كما كان يردد رجل الدين أومالى أيضاً أمام أتباعه .

قالت السيدة سميلى عندما جاءها تشارلى حاملاً طلباتها الأسبوعية عصر يوم الاثنين : " تعجبنى حلتك الجديدة " . احمر وجهه ورفع قبعته وتظاهر بأنه لم يسمع إطراءها بينما أسرع فى العودة إلى المخبز .

حقق الربع السنوى الثانى من العام أرباحاً تفوق الربع الأول فى كلا الشركتين وقد أخبر تشارلى بيكى أنه قد وضع عينيه على محل الجزارة ، بعد أن لقى ابن مالك المتجر حتفه فى بشنديل . ولكن بيكى حذرته من التعجل والإقدام على أى مشروع جديد قبل أن يتأكد من نسبة الأرباح التى تحققها شركتهما وفقط عندما يتحقق المساعدون الأكبر سنا مما عزم عليه . قالت له وهما جالسان فى الغرفة الصغيرة خلف متجر سالمون لمراجعة الحسابات الشهرية : " لأن هناك شيئاً يجب أن تدركه جيداً يا تشارلى ترامبر ، وهو أنك

لا تعرف أى شىء عن الجزارة . إن شعار ترامبر ، التاجر الأمين ، الذى تأسس عام ١٨٢٨ ، إنه لا يزال يروق لى " ، ثم أضافت قائلة : " ولكن ترامبر المفلس المتهور ، الذى أشهر إفلاسه عام ١٩١٧ فكرة لا تروق لى بالمرة " .

وقد أبدت بيكى هى الأخرى إعجابها بالحلة الجديدة ولكن ليس قبل أن تنهى مراجعة كل الأرقام التى كان يزخر بها دفتر الحسابات . كان على وشك رد المجاملة بإطراء مقابل وإخبارها بأنها قد فقدت القليل من الوزن عندما انحنت والتقطت كعكة أخرى من كعك المربى .

ثم مررت إصبعها اللزج على قائمة الأرقام للتأكد من الحسابات الشهرية ثم تفحصت الأرقام مقابل البيان المصرفى المخطوط يدويا . لقد حققا أرباحاً تقدر بثمانية جنيهات وأربعة عشر شلناً ، ثم دونت الرقم بالحبر الأسود السميك بمنتهى الدقة فوق الخط الأخير .

قال تشارلى مبتسماً : " سوف نكون بهذا من أصحاب الملايين عندما أبلغ الأربعين " .

قالت بيكى فى ازدراء : " أربعون يا تشارلى ترامبر ؟ أنت لست متعجلا ، أليس كذلك ؟ " .

سأل تشارلى : " ما الذى تقصدين ؟ " .

" أقصد أننى آمل أننا يمكن أن نحقق ذلك قبل هذا الوقت بكثير " .

ضحك تشارلى بصوت مرتفع لكى لا يكشف عن عدم معرفته تحديدا ما إذا كانت تمزح أم لا . وبمجرد أن تأكدت بيكى من أن الحبر قد جف أغلقت الدفاتر وأعادتها إلى حقيبتها بينما تأهب تشارلى لإغلاق المخبز . وعندما خرجا ووصلا إلى الرصيف تمنى

تشارلى لشريكته ليلة طيبة وانحنى لها انحناءة مبالغاً فيها . ثم أغلق بعدها القفل ومضى فى طريق عودته إلى البيت . أخذ يتغنى بأغنية لامبيث ووك بدون أن يضبط الإيقاع بينما كان يدفع بقايا اليوم فى اتجاه شمس المغيب . هل يمكن بالفعل أن يصبح مليونيراً قبل أن يبلغ الأربعين ، أم أن بيكى كانت تسخر منه ؟

وعندما وصل تشارلى إلى بيت بيرت شوروكز ، توقف فجأة . خارج الباب الأمامى للمسكن ١١٢ ، كان رجل الدين أومالى يقف أمامه .

الفصل

٣

جلس تشارلى فى مقعده داخل عربة القطار فى طريقه إلى إيدنبرج وأخذ يفكر فى كل ما قام به على مدى الأيام الأربعة الأخيرة . وصفت بيكى تصرفه بأنه تصرف أهوج . أما سال فلم تزعج نفسها بالأمر . والسيدة سميلى كانت ترى أنه كان يجب أن ينتظر إلى أن يتم استدعاؤه ، بينما كانت جريس مازالت تضمد جراح المصابين فى معتقلات الجبهة الغربية ، أى أنها لم تعرف من الأساس بالأمر . أما كيتى ، فقد اكتفت بتقطيب جبينها وتساءلت كيف ستعيش بدون أخيها .

كان الجندى جورج ترامبر قد لقى حتفه فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ فى بشيندال وقد ذكر الخطاب أنه مات ميتة شجاعة أثناء تبادل إطلاق النار مع العدو فى غابة بوليجون . كان أكثر من ألف رجل قد قتلوا فى ذلك اليوم بطول الجبهة التى امتدت لعشرة

أميال من ميسينز إلى بشنندال ، مما فسر سبب اختصار خطاب الملازم المقتضب .

بعد ليلة مؤرقة ، كان تشارلى أول من وُجِدَ واقفاً فى صباح اليوم التالى أمام مكتب التجنيد فى سكوتلاند يارد . كان الملصق يعلن عن طلب متطوعين بين الثامنة عشرة والأربعين للالتحاق بالخدمة العسكرية تحت قيادة جيش الجنرال هيج .

وعلى الرغم من أنه لم يكن قد أتم الثامنة عشرة فإن تشارلى أخذ يتضرع إلى الله ألا يتم استبعاده .

عندما صاح رقيب مكتب التجنيد قائلا : " ما اسمك " ، نفخ تشارلى صدره وكاد يصيح مجيبا " ترامبر " . ثم انتظر فى قلق .

قال الرجل الذى كان يحمل ثلاث شرائط بيضاء فوقه ذراعه : " تاريخ الميلاد ؟ "

أجاب فى تردد وقد انتفخت وجنتاه وهو يردد الكلمات : " العشرون من يناير عام ١٨٩٩ " .

نظر إليه الرقيب ثم أدار بصره . وتم تدوين الأحرف والأرقام فوق السترة العسكرية بدون أى تعليق . ثم قال الرقيب : " اخلع قبعتك يا فتى واذهب إلى الضابط المسئول عن الكشف الطبى " .

قادت إحدى الممرضات تشارلى عبر ممر إلى رجل يرتدى معطفاً أبيض طويلاً طلب منه أن يخلع ملابسه حتى الخصر ثم طلب منه أن يسعل ويخرج لسانه ويلتقط نفسًا عميقًا قبل أن يطرق على كل جزء فى جسده بأداة مطاطية . ثم واصل الطبيب كشفه وأخذ يتفحص أذنى تشارلى وعينيه قبل أن يطرق على ركبتيه بواسطة مطرقة مطاطية . وبعد أن خلع بنطاله وملابسه الداخلية ـ لأول مرة فى حياته أمام شخص لا ينتمى إلى أفراد أسرته ـ أخبره الطبيب

بأنه لم يكن مصاباً بأى مرض معدٍ ، أى كان ما يفكر فيه تشارلى .

أخذ يحدق فى نفسه فى المرآة بينما كانوا يدونون مقاييسه الجسمية . قال الرجل : " خمس أقدام وتسعة وربع " .

كان تشارلى يريد أن يضيف وهو يدفع خصلة شعر سوداء من فوق عينيه ويقول : " ومازلت أنمو " .

قال الدكتور الكبير فى السن : " الأسنان فى حالة جيدة ، العيون بنية . ليس بك ثمة عيب ظاهر " ، ثم طرق الطبيب على يده اليمنى عدة طرقات بواسطة المطرقة قبل أن يطلب من تشارلى أن يتوجه إلى الضابط ذى الشرائط البيضاء الثلاث .

وجد تشارلى نفسه منتظراً فى صف آخر قبل أن يقابل الرقيب وجهاً لوجه .

" إلى اليمين يا غلام ، وقع هنا وسوف نوافيك بترخيص سفر " .

وقع تشارلى فى الموضع الذى توقف عنده إصبع الرقيب . لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة أن إبهام الرقيب كان مبتوراً .

" سلاح المدفعية المجيد أم سلاح الرماة الملكى ؟ " .

قال تشارلى : " سلاح الرماة الملكى . كان هذا هو السلاح الذى انضم إليه أبى " .

قال الرقيب بدون أن يفكر فى الأمر ثانية : " إذن سلاح الرماة الملكى " ، ثم أضاف علامة أخرى فى القائمة .

" متى أحصل على الزى العسكرى ؟ " .

" ليس قبل أن تصل إلى إيدنبرج يا غلام . يجب أن تسلم نفسك فى كينج كروس فى الساعة صفر ، ثمانية ، مائة غداً صباحا . من التالى ؟ " .

عاد تشارلى إلى منزل رقم ١١٢ شارع وايت شابيل وقضى ليلة مؤرقة ثانية . أخذ يجول بفكره بين سال وجريس ثم أخذ يفكر فى كيتى وكيف ستعيش أختاه فى غيابه . وبدأ أيضا يفكر فى ريبيكا سالمون وصفقتهما ، ولكن أفكاره كانت تنتهى دائماً عند قبر أبيه الذى دفن فى أرض المعركة الغريبة ورغبته فى الانتقام من الألمان الذين تجرأوا على اعتراض طريقه . وقد بقيت هذه المشاعر ملازمة له إلى أن بزغت أشعة الشمس عبر النوافذ .

ارتدى تشارلى بذلته الجديدة ، تلك البذلة التى أعجبت السيدة سيملى وأفضل قميص لديه ورابطة عنق أبيه وقبعة مسطحة وحذاءه الجلدى الوحيد . " المفترض أننى ذاهب لقتال الألمان وليس إلى حفل زفاف " . هكذا قال بصوت مرتفع وهو ينظر إلى نفسه فى المرآة المصدعة فوق حوض الماء . كان قد دون بضع كلمات لبيكى - بمساعدة رجل الدين أومالى - وطلب منها أن تبيع المحل والعربتين إن تمكنت من ذلك وأن تحافظ على نصيبه من المال إلى أن يعود إلى وايت شابيل . لم يعد أحد يذكر شيئاً عن احتفالات رأس السنة .

قال رجل الدين أومالى بعد أن نكس رأسه قليلاً : " وإن لم تعد ؟ فما هو مصير ممتلكاتك إذن ؟ " .

قال تشارلى : " وزعها بين أخواتى الثلاث بالتساوى " .

كتب رجل الدين أومالى تعليمات تلميذه السابق تشارلى ، وللمرة الثانية فى غضون أيام وقع تشارلى ثانية على أوراق رسمية .

بعد أن انتهى تشارلى من ارتداء ملابسه ، وجد سال وكيتى فى انتظاره عند الباب الأمامى ، ولكنه رفض أن تصحباه إلى محطة القطار بالرغم من اعتراضهما بالبكاء على طلبه . قبلته أختاه - كانت هذه هى المرة الأولى - واضطرت كيتى لنزع يدها من بين يديه لكى يتمكن من الإمساك بلفافته الورقية البنية التى كان قد وضع فيها كل مقتنياته المهمة .

سار تشارلى وحيدا فى السوق ثم دخل المخبز لآخر مرة . وقد أقسم له العاملون أنه سوف يجد الحال كما هو عليه عند عودته . غادر المحل وإذا بفتى يجر عربة نقالة بدا له أصغر منه بعام تقريبا كان يبيع خشب الكستناء . سار ببطه عبر السوق فى اتجاه كينج كروس بدون أن يلتفت وراءه ثانية .

وصل تشارلى إلى محطة جريت نورثين قبل الموعد المحدد بنصف ساعة وسلم نفسه على الفور إلى الرقيب الذى كان قد سجل نفسه لديه فى اليوم السابق . " تمام يا ترامبر ، اشتر لنفسك شرابا ثم الزم الرصيف رقم ثلاثة " . لم يتذكر تشارلى متى كانت المرة الأخيرة التى تلقى فيها أمراً ، ناهيك عن طاعة الأمر . وبالطبع لم يحدث ذلك منذ وفاة جده .

كان الرصيف رقم ثلاثة زاخراً بالفعل بالرجال بالزى العسكرى والمدنى ، كان بعضهم يثرثر بصوت مزعج والبعض الآخر يقف فى صمت ووحدة ، وكان كلٌ يعكس بطريقته الخاصة حس الشعور بعدم الأمان .

وفى الحادية عشرة بعد انقضاء ثلاث ساعات على موعد التسليم ، تلقى الجمع أخيرا أوامر بالصعود على متن أحد القطارات . تخير تشارلى مقعداً فى أحد أركان عربة غير مضاءة

وأخذ يحدق عبر النافذة الغائمة فى الريف الإنجليزى الذى لم يكن قد شاهده أبداً من قبل . عزفت الأغانى الشعبية على آلة الهرمونيكا فى رواق القطار بقليل من النشاز . وبينما كان القطار يمر بمحطات المدن التى لم يكن قد سمع بها تشارلى من قبل - بيتر بورو ، وجرانثام ، ونيوارك ، ويورك - كانت حشود المودعين تلوح وتحيي الأبطال . توقف محرك القطار فى دورهام لكى يتزود بالفحم والماء . أمرهم ضابط التجنيد جميعاً بالنزول من على متن القطار وإراحة أجسامهم وتناول قدح آخر من الشراب وأضاف أنهم إن كانوا محظوظين فيمكنهم أيضاً اقتناء بعض الطعام .

سار تشارلى بطول الرصيف وهو يمضغ بصوت مسموع كعكة الشعير على صوت الفرقة الموسيقية العسكرية التى كانت تعزف أغنية " Land of hope and Glory " حيث كانت رحى الحرب دائرة فى كل مكان . وعندما عادوا على متن القطار كان هناك المزيد من التلويح بالمناديل من نساء مكلومات سوف يبقين بلا أزواج حتى نهاية عمرهن .

مضى القطار فى طريقه بصوته الإيقاعى الخافت فى طريقه إلى الشمال ، مبتعدا أكثر فأكثر عن العدو إلى أن توقف فى النهاية فى محطة ويفرلى فى إيدنبرج . وبمجرد أن هبط الجنود من على متن القطار ، كان هناك قائد واثنان من ضباط الصف وآلاف النساء فى الانتظار فوق الرصيف للترحيب بهم .

سمع تشارلى تلك الكلمات : " هيا أنجز مهمتك أيها الرقيب الأول " . وبعد لحظة تقدم ضابط كان طوله يبلغ ما يقرب من ست وستين بوصة عريض المنكبين واسع الصدر مغطى بالنياشين العسكرية إلى الأمام .

صاح الرجل العملاق فى نبرة حازمة : " فليصطف الجميع هنا وبسرعة " ، ولكن تشارلى لم يعلم إلا فى وقت لاحق أن السرعة كانت بطيئة وفق مقاييسه الخاصة . ثم قسم الرجال إلى صفوف ثلاثة قبل أن يعطى التمام إلى رجل افترض تشارلى أنه ضابط . ثم حيا الرجل وقال : " الكل حاضر وكل شىء على ما يرام يا سيدى " ، فرد عليه أكثر الرجال أناقة - من وجهة نظر تشارلى - التحية . لقد بدا نحيفا وهو يقف بجوار الرقيب الأول بالرغم من أن طوله كان يزيد قليلاً عن ستة أقدام . كان زيه منمقا نظيفا ولكنه كان خاليا من النياشين كما أن ثنيات بنطاله كانت حادة إلى درجة جعلت تشارلى يتساءل إن كان قد سبق له ارتداؤه من قبل مطلقاً . كان الضابط الشاب يحمل عصا جلدية صغيرة فى يده المغطاة بقفاز وكان من وقت إلى آخر يدق على جانب ساقه بها كما لو كان يمتطى حصانا . تركزت عينا تشارلى على حزام الضابط وحذائه الجلدى البنى . كان الحزام والحذاء يلمعان إلى حد ذكره بريبيكا سالمون .

قال الضابط لزمرة المحاربين المستجدين فى نبرة تناسب المسرح أكثر من محطة قطار فى سكوتلاند : " اسمى هو الكابتن ارينام ، أنا الضابط المساعد للكتيبة " . واستطرد يشرح كل التفاصيل وهو يتكئ على قدم ثم يتكئ على الأخرى : " وأنا الضابط المسئول عن هذه المهمة طوال فترة بقائكم فى إيدنبرج . أولا سوف نسير إلى الثكنات حيث تتسلمون المهام العسكرية وتعدون فرشكم . يقدم العشاء فى الساعة ثمانية عشرة ومائة وسوف تطفأ الأنوار فى الساعة عشرين ومائة . غداً صباحاً سوف تطلق صفارة الاستيقاظ فى الساعة صفر وخمسمائة ، سوف تنهضون وتتناولون إفطاركم ، وبعدها سوف نبدأ التدريب الأساسى فى الساعة صفر وستمائة . سوف نستمر على

هذا النظام على مدى الأسابيع الاثنى عشر القادمة . وأنا أعدكم أنها سوف تكون اثنى عشر أسبوعا من الجحيم الخالص " ثم أضاف قائلاً ، وقد بدا وكأن الفكرة تروق له تماماً : " فى أثناء هذه الفترة سوف يكون الملازم أول فيلبوت ضابط الصف المسئول عن الوحدة . لقد قاتل الملازم الأول فى السوم حيث حصل على النيشان العسكرى ، أى أنه يعلم تماما ما هو المستوى الذى يجب أن نكون عليه عندما ينتهى بنا المآل إلى فرنسا ومواجهة العدو . أنصتوا إلى كل كلمة سوف يقولها بإمعان ، لأنها قد تكون الكلمة التى تنقذ حياتكم . واصل أيها الملازم الأول " .

قال الملازم أول فيلبوت بطريقة سريعة وعدوانية : " شكراً يا سيدى " .

أخذ الحشد مختلط العناصر يحدق فى ذهول فى الوجه الذى سوف يكون مسئولاً عن إنقاذ حياتهم على مدى الأشهر الثلاثة التالية . لقد كان - بالرغم من كل شىء - رجلا شاهد العدو بالفعل وعاد ليقص ما رآه .

قال : " تمام ، هيا نمضى فى طريقنا " ، وبدأ يقود المستجدين - حاملين كل شىء من الحقائب العسكرية إلى اللفافات الورقية البنية - عبر شوارع إيدنبرج بسرعة ، وذلك فقط لكى لا يلحظ المدنيون كم كان الحشد غير منضبط فى واقع الأمر . وعلى الرغم من مظهر المستجدين غير المحترف فقد كان المارة يتوقفون لإلقاء التحية والتصفيق . لم يسع تشارلى إلا أن يلحظ بطرف عينه رجلاً يرتكز بيده الواحدة على ساقه الواحدة . وبعد عشرين دقيقة وبعد صعود أكبر مرتفع شاهده تشارلى فى حياته - مرتفع كاد يزهق روحه بحق - وصل الحشد أخيراً إلى ثكنات إيدنبرج .

بقى تشارلى ليلته مطبقا فمه يكاد لا ينطق بكلمة أثناء استماعه للهجات المختلفة التى تحيط به . بعد تناول عشاء من حساء البازلاء - "حبة بازلاء لكل فرد " كما قال عريف الخدمة مازحاً - واللحم البقرى ، وبعد تعلم بضع كلمات جديدة داخل صالة الألعاب الرياضية التى كانت تضم فى ذلك الوقت أربعمائة سرير ، بلغ حجم كل فراش ما يقرب من قدمين عرضا وبلغت المسافة التى تفصل بين كل سرير وآخر قدماً واحدة . كما كان هناك مرتبة من شعر الخيل وفوقها ملاءة واحدة ووسادة واحدة وغطاء واحد . فهكذا كان يقضى النظام الملكى .

كانت هذه هى المرة الأولى التى شعر فيها تشارلى أن منزله فى ١١٢ شارع وايت شابيل كان بحق منزلاً فاخراً للغاية . سقط تشارلى - إثر الإنهاك - فى سبات عميق فوق سريره الذى لم يكن معدا بعد . استسلم للنوم ولكنه مع ذلك استيقظ فى اليوم التالى فى الرابعة والنصف . ولكن فى هذه المرة لم يكن هناك سوق لكى يتوجه إليه ، كما لم يكن أمامه خيار سوى أن يتناول إما الكوكس أو الجرانى سميث على الإفطار .

انطلق بوق الخامسة لكى يوقظ باقى زملائه من نومهم المتقطع . كان تشارلى قد نهض بالفعل واغتسل وارتدى ملابسه عندما دخل رجل بشريطتين فوق كمه فى المهجع . طرق الباب وراءه وصاح " قيام ، قيام ، قيام " ، وهو يركل مؤخرة كل فراش مازال يحمل جسداً نائماً . نهض كل المستجدين وكونوا صفاً للاغتسال فى أحواض نصف ممتلئة بالماء المثلج لا تستبدل بماء جديد إلا بعد كل ثلاثة أدوار أى بعد كل ثلاثة جنود . كان البعض يذهب بعدها إلى المراحيض خلف مؤخرة القاعة التى كان تشارلى يرى أن رائحتها

أسوأ من رائحة منتصف سوق شارع وايت شابيل فى يوم صيف شديد الحرارة .

كان الإفطار مؤلفاً من عصيدة ونصف كوب من اللبن وقطعة بسكويت جافة ومع ذلك لم يشتك أحد . كانت الضوضاء المبهجة فى القاعة لا تدع مجالا للشك لدى أى ألمانى أن هذه الزمرة كانت قد اتحدت لكى تقضى على عدو مشترك .

فى السادسة ، بعد إعداد الأسرّة ومراجعتها ، اقتيد الجمع إلى الهواء البارد المظلم ومنه إلى أرض التدريب العسكرى التى كان سطحها مغطى بطبقة رفيعة من الثلج .

سمع تشارلى لهجة يتم نطقها فى أفقر أحياء لندن : " إن كانت هذه هى أرض اسكتلندا الجميلة فأنا إذن ألمانى مخضب بالدماء " . ضحك تشارلى لأول مرة منذ أن غادر وايت شابيل وسار نحو جندى أصغر منه كان يفرك يديه بين ساقيه لكى يستدفئ .

سأل تشارلى : " من أين أتيت ؟ "

" من بوبلر يا زميل وأنت ؟ " .

" من وايت شابيل " .

" أيها الغريب الملعون " .

أخذ تشارلى يحدق فى زميله الجديد . لم يكن طوله يزيد على خمس أقدام ، كان نحيلا ، وشعره أسود مجعد وله عينان تموجان بالنشاط تبدوان وكأنهما لا تهدآن أبداً وكأنهما تدوران دائماً بحثاً عن المشاكل . كانت بذلته المرقعة من عند المرفقين تتدلى عليه وتبدى كتفيه أشبه بحمالة المعطف .

" اسمى تشارلى ترامبر " .

" تومى بريسكوت " هكذا جاءه الرد . ثم توقف عن ممارسة تدريبات التدفئة ومد له يداً دافئة لكى يصافحه . صافحه تشارلى بحرارة .

صاح الملازم الأول : " هدوء . الآن يجب أن تقفوا فى صفوف من ثلاثة . الأطول إلى اليمين والأقصر إلى اليسار . هيا تحركوا " . فتفرق الجمع .

وعلى مدى الساعتين التاليتين ، مارس الجمع ما أطلق عليه الملازم الأول اسم " تدريب عسكرى " . واصلت الثلوج تساقطها بلا انقطاع من السماء ولكن الملازم الأول لم يسمح لقطعة ثلج واحدة بالاستقرار فوق أرض التدريب . سار الجمع فى ثلاثة صفوف ؛ كل منها مؤلف من عشرة أشخاص . وهو ما عرف تشارلى بعد ذلك أنه يطلق عليه اسم جناح . السير مع أرجحة الأذرع حتى ارتفاع الخصر ورفع الرأس عالياً بمعدل مائة وعشرين خطوة فى الدقيقة . " سيروا بحيوية ونشاط يا رفاق " . " حافظوا على اتساق الخطوات " ، كانت هذه هى الكلمات التى سمع تشارلى الضابط يرددها مراراً وتكراراً . ثم أكد الملازم الأول والثلوج تواصل تساقطها : " إن الألمان يسيرون أيضا فى مكان ما وهم ينتظرون لقاءنا بفارغ الصبر " .

ولو كان تشارلى لا يزال فى وايت شابيل ؛ لسعد أيما سعادة بالعمل بلا انقطاع من الخامسة صباحا حتى السابعة مساء مع لعب بعض جولات ملاكمة فى النادى وتناول كأسين من الشراب ولكان قد واصل نفس الروتين اليومى فى اليوم التالى بلا تفكير أو كلل .

ومع ذلك فإنه عندما منحهم الملازم الأول فترة استراحة لعشر دقائق فى التاسعة مساء لتناول الكوكا ؛ انهار فوق العشب وهو يشعر

بإنهاك بالغ وعندما رفع رأسه إلى أعلى إذا بتومى بريسكوت يحدق فيه قائلا : " سيجارة ؟ "

قال تشارلى : " كلا أشكرك . لا أدخن "

سأله تومى وهو يشعل سيجارته : " ما هى تجارتك إذن ؟ " .

قال تشارلى : " أملك مخبزاً فى أحد أركان شارع وايت شابيل ، و ــ " .

قاطعه تومى قائلاً : " هيا أخبرنى بالرواية الأخرى أيضا ، ربما ستخبرنى فى المرة التالية أن والدك عمدة لندن " .

ضحك تشارلى وقال : " ليس تماما . ما هو عملك أنت إذن ؟ " .

" أعمل فى مصنع للمشروبات ، ألا يبدو علىّ ذلك ؟ شركة وايت بريد ، شارع تشيس ويل ؛ إي سى وان . أنا الذى أتولى مهمة وضع البراميل فوق العربات ثم تمضى بى الخيول التى تسحب العربة فى كل أنحاء الجانب الشرقى لكى أوزع البضائع . لا أتقاضى الكثير ولكن يمكننى احتساء الشراب كما يحلو لى قبل أن أعود كل ليلة " .

" إذن ما الذى دفعك للالتحاق بالجيش ؟ " .

قال تومى : " إنها قصة طويلة . بداية ؛ يمكننى أن أقول ــ " .

صاح الملازم أول فيلبوت : " انتهت فترة الاستراحة ؛ عودوا إلى التدريب ؛ هيا انهضوا جميعا ؛ لم يتجرأ أحد على التفوه بكلمة واحدة على مدى الساعتين التاليتين من شدة الإنهاك حيث بقوا يسيرون إلى أعلى وأسفل ، وأعلى وأسفل ؛ إلى أن شعر تشارلى أنه سوف يتهاوى على قدميه بكل تأكيد عندما يتوقفون عن السير .

تألف الغداء من الخبز والجبن ، التى لم يكن تشارلى يجرؤ على بيع أى منها للسيدة سميلى . وبينما كانوا يلتهمون الطعام من فرط الجوع ، عرف كيف أن تومى فى الثامنة عشرة من عمره منح الاختيار ما بين السجن الملكى أو التطوع للقتال فداءً للوطن والملك . فاقترع بعملة معدنية فظهرت صورة الملك .

قال تشارلى : " عامان ؟ ولكن لماذا ؟ "

" كنت أوزع براميل الشراب هنا وهناك وأعقد صفقات جانبية فى الخفاء مع بعض التجار المحتالين . وكنت أفعل ذلك منذ زمن . وإن كنت قد اقترفت ذلك منذ مائة عام لكانوا قد شنقونى فى الحال أو أرسلونى إلى المنفى فى أستراليا حيث لا أجد من أشكو له . ومع ذلك فإن هذا هو كل ما أجيد عمله " .

سأل تشارلى : " ما الذى تقصده ؟ "

" حسنا ، لقد كان أبى نشالاً محترفاً ، أليس كذلك ؟ وكذلك جدى من قبله . ليتك شاهدت وجه الكابتن ترينشام عندما أخبرته أننى أريد أن ألتحق بالخدمة العسكرية بدلاً من أن أعود ثانية إلى السجن " .

كانت عشرون دقيقة هى الوقت المخصص لتناول الغداء ثم خصص باقى وقت الظهيرة لضبط الزى العسكرى .تبين تشارلى أنه كان ينتمى إلى المقاس الشائع ، فلم يستغرق وقتاً فى ضبط وإصلاح زيه بما يتفق مع مقاسه ، أما تومى فقد استغرق ما يقرب من ساعة كاملة لإصلاح زيه العسكرى الذى كان يبدو فيه قبل الإصلاح أشبه بالمتسابقين فى لعبة ارتداء الجراب من فرط اتساع الملابس .

وعندما عادوا إلى المهجع ، ثنى تشارلى أفضل حلله ووضعها تحت فراشه بجوار الفراش الذى استقر فوقه تومى ، ثم مضى يتجول فى أنحاء المكان فى زيه الجديد .

قال تومى ، وهو ينظر إلى سترة تشارلى الكاكى ويمعن فى تفحصها : " ملابس الموتى " .

" ما الذى تقصده ؟ " .

قال تومى وهو يشير إلى إصلاح فى السترة على بعد بوصتين فقط من رأس تشارلى : " لقد أعيدت كل هذه الملابس العسكرية من الجبهة بعد مقتل أصحابها ، أليس كذلك ؟ ثم نظفت وحيكت . إنها تتسع بما يكفى لمرور حربة ، على ما أظن " .

بعد ساعتين أخريين قضاها الحشد فوق أرض التدريب التى كانت قد أصبحت مجمدة ، سمح للجنود بالانصراف لتناول العشاء .

" المزيد من الجبن والخبز الملعون " هكذا علق تومى وهو ينعى حظه العثر ، ولكن تشارلى كان جائعا إلى حد لم يجعله يتذمر وهو يلتهم كل الفتات بإصبعه المبلل . ولليلة الثانية على التوالى ، انهار تشارلى فوق فراشه .

" لقد استمتعتم بيومكم الأول فى خدمة الملك والوطن ، أليس كذلك ؟ " ، هكذا سأل ضابط الخدمة بينما كان يطفئ مصباح الغاز فى الثكنة المخصصة للنوم .

جاءته الصيحات الساخرة تقول : " نعم ، شكرا لك أيها العريف " .

قال العريف : " جيد ، لأننا نسعى للترفق بكم دائما فى اليوم الأول " .

تعالت همهمات السخرية والاستنكار حتى أحس تشارلى أنه لابد وأن تكون قد سمعت تلك الهمهمات فى وسط إيدنبرج . ووسط ضجيج الثرثرة التى اندلعت فى الغرفة بعد انصراف العريف ، تمكن تشارلى من سماع صوت أحد الأبواق من فوق القلعة . ثم سقط فى نوم عميق .

عندما استيقظ تشارلى فى صباح اليوم التالى قفز من فوق سريره فى الحال واغتسل وارتدى ملابسه قبل أن يحرك أى شخص داخل المهجع ساكنا ، ثم ثنى ملاءته وغطاءه وكان يلمع حذاءه عندما دق بوق الاستيقاظ .

قال تومى وهو ينهض من فراشه : " ألسنا مثل طيور الصباح الباكر ؟ ولكن ما سر تلك العجلة وكل ما سوف نتناوله على الإفطار لن يتعدى دودة ؟ " .

قال تشارلى : " ولكنك إن كنت الأول فى الصف فسوف تتناول على الأقل دودة ساخنة ، وعلى أية حال ـــــ " .

صاح العريف وهو يدخل المهجع ويطرق إطار كل سرير يمر عليه بعصاه : " فليقف الجميع على الأرض " .

قال تومى وهو يحاول أن يخفى تثاؤبه : " بالطبع ، رجل مثلك من ذوى الأملاك يجب أن يستيقظ مبكرا فى الصباح لكى يتأكد من أن عماله قد بدأوا بالفعل عملهم وأنهم لا يعبثون " .

قال العريف : " كفا عن الحديث وقفا ثابتين وارتديا ملابسكما وإلا فسوف تزجان بنفسيكما فى المشاكل " .

قال تشارلى مؤكدا : " لقد ارتديت ملابسى أيها الضابط " .

" لا تجبنى أيها الغلام ولا تنادينى بكلمة ضابط ما لم تكن تريد أن تنظف المراحيض " . كان هذا التهديد كافيًا لكى ينهض تومى مذعورًا من فوق فراشه .

كان الصباح التالى يشمل المزيد من التدريبات تحت الثلوج التى كانت لا تكف عن التساقط مخلفة بوصتين من الجليد ، تلاه غداء آخر من الخبز والجبن . أما وقت العصر فقد خصص بناءً على الأوامر " للألعاب والترفيه " مما فرض عليهم تبديل ملابسهم قبل دخول صالة الألعاب لممارسة التدريبات الرياضية التى تلتها بعض دروس فى الملاكمة .

كان تشارلى ـ الذى كان قد أصبح ملاكم وزن خفيف ـ يتوق إلى النزول فى حلبة الملاكمة بينما نجح تومى بشكل أو آخر فى الاختباء بعيدا عن خط النار بالرغم من إدراك الجميع لتواجد الكابتن ترينتام المثير للرعب بعصاه التى كان لا يكف عن طرق جانب ساقه بها . كان يبدو دائمًا متواجدًا حولهم ناصبًا عينيه عليهم جميعا . وكانت الابتسامة لا تعرف طريقها إلى فمه إلا عندما يشهد هزيمة أحدهم على أرض الحلبة . وفى كل مرة كان يمر فيها بجانب تومى كان يكتفى بتقطيب جبينه .

قال تومى لتشارلى فى وقت لاحق من مساء ذلك اليوم : " أنا أحد استثناءات الطبيعة ، لقد سمعت بلا شك من قبل بهذا التعبير . حسنا أنا واحد من هذه الاستثناءات " ، وأخذ يشرح لتشارلى وهو مستلق على الفراش وهو يحدق فى السقف .

سأل تومى العريف المكلف بالإشراف عليهم عندما دخل عليهم بعد إطفاء الأنوار ببضع دقائق : " هل سنتمكن يوما من الفرار من هذا المكان أيها العريف ؟ أى مقابل حسن السير والسلوك مثلا ؟ " .

قال العريف : " سوف يسمح لكم بالخروج مساء يوم السبت . سوف يسمح لكم بالخروج لثلاث ساعات من السادسة حتى التاسعة وسوف يسمح لكم بعمل كل ما تشاءون . ولكن ليس لأبعد من ميلين من موقع الثكنات . كما أنكم يجب أن تتصرفوا على نحو يليق بفرقة الرماة الملكية وأن تعودوا فى أوج لياقتكم قبل التاسعة بدقيقة . ناموا جيدًا يا أعزائى " . كانت هذه هى كلمات العريف الأخيرة بعد أن جاب أنحاء المهجع لكى يطفئ كل مصباح مضاء .

وعندما جاءت ليلة السبت أخيرًا ، جاب الجنود المنهكون بأقدامهم المتورمة وأوصالهم المتهتكة كل شبر فى أنحاء المدينة فى غضون ثلاث ساعات ، وقد حمل كل منهم خمسة شلنات فقط مما قلل من حجم المناقشات المثارة حول اختيار المقهى المناسب لارتياده .

وبالرغم من ذلك ، فقد بدا تومى قادرا على الحصول على كمية من الشراب تفوق أحلام تشارلى حتى بالرغم من أنه لم يفهم ما كان يقوله أصحاب المقاهى أو يتظاهر بأنه يفهمه . وعندما حل الجزء الأخير من ساعات الاستراحة ، اختفى تومى المتطوع من الحانة متبوعا بالنادلة التى كانت فتاة سليطة ممتلئة بعض الشىء تدعى روز . وبعد عشر دقائق ، عاد ثانية .

سأل تشارلى : " ما الذى كنت تفعله بالخارج ؟ " .

" ما الذى تظن أنى كنت أفعله أيها الأحمق ؟ "

" ولكنك لم تغب إلا عشر دقائق فقط " .

قال تومى : " هذا يكفى تماما ، إن الضباط فقط هم الذين يحتاجون لأكثر من عشر دقائق لإنجاز ما أنجزته " .

وعلى مدى الأسبوع التالى ، تلقت الكتيبة أول دروس الرماية والرمى بالحربة وأيضاً درساً فى قراءة الخرائط . وبينما أتقن تشارلى سريعًا فن قراءة الخرائط ، لم يستغرق تومى سوى يوم واحد للتعرف على فنون الرمى . ومع الدرس الثالث كان قد أصبح قادرا على تفكيك ماسورة البندقية ثم تجميع كل أجزائها ثانية مع بعضها البعض أسرع من أى مدرب .

وفى صباح يوم الأربعاء من الأسبوع الثانى ، ألقى عليهم النقيب ترينثام أول محاضرة فى تاريخ سلاح الرماية الملكية . وكان تشارلى يمكن أن يستمتع بالدرس بالفعل ما لم يكن ترينثام قد ترك لديهم الانطباع أنه لا أحد منهم يستحق أن ينتمى إلى نفس السلاح الذى ينتمى إليه هو .

قال الضابط وهو ينظر بحدة تجاه تومى : " إن كل من اختار منا سلاح الرماية الملكية بسبب العلاقات التاريخية أو الروابط العائلية قد يشعر أن السماح للمجرمين للمشاركة فى صفوف هذا السلاح فقط لأننا فى حالة حرب يسيء إلى سمعة السلاح " .

" اثبت فى مكانك أيها المغرور " . قالها تومى بصوت أسمع كل من فى المكان باستثناء النقيب ترينثام . وقد أثارت نوبة الضحك التى عج بها المكان بعد هذا التعليق عبوس وجه ترينثام .

عاد النقيب ترينثام إلى صالة الألعاب فى عصر يوم الخميس ، ولكنه فى هذه المرة لم يكن يدق على جانب ساقه بعصاه ، وإنما كان يرتدى قميصاً أبيض اللون وبنطالاً قصيراً وسترة بيضاء سميكة . كانت ملابسه الجديدة لا تقل أناقة وهندامًا عن زيه العسكرى . جاب فى أنحاء القاعة لمراقبة المدربين وهم يمارسون عملهم وقد أبدى ـ كما حدث فى زيارته الأخيرة ـ اهتمامًا خاصًا بما كان

يجرى داخل حلبة الملاكمة . وعلى مدى ساعة كان الرجال يقفون أزواجا لتلقى التعليمات الأساسية أولاً فى الدفاع ثم الهجوم . " ارفعوا جميعا أيديكم إلى أعلى يا رفاق " . كانت هذه هى الكلمات التى تقال وتكرر عندما يصل مقبض اليد إلى الذقن .

وعندما حل وقت صعود تومى وتشارلى للحلبة ، أعلن تومى صراحة لصديقه أنه يتمنى أن يفلت من حصة الملاكمة .

صاح ترينثام : " ليتشبث كل منكما بالآخر " ولكن بالرغم من أن تشارلى بدأ يسدد اللكمات فى صدر تومى إلا أنه لم يحاول إحداث أى ألم حقيقى .

صاح ترينثام : " إن لم تحسموا هذه المباراة فسوف أنقض على كل منكما ، الواحد تلو الآخر " .

قال تومى : " أراهن أنه لا يستطيع أن ينتزع الكريمة من كستر البودينج " ، ولكن فى هذه المرة وصل صوته إلى ترينثام . ولسوء حظ المدرب ، فقد انقض ترينثام فى الحال على حلبة الملاكمة وقال : " سوف نرى إن كنت محقا " ، ثم طلب من المدرب أن يعطيه قفاز ملاكمة .

" سوف ألعب ثلاث جولات مع كل من هذين الرجلين " ، هكذا قال ترينثام بينما كان المدرب يربط قفاز الملاكمة فى يده بشىء من التردد . توقف كل من كان فى صالة الألعاب لمشاهدة كل ما كان يجرى بداخلها .

سأل الكابتن وهو يشير إلى تومى : " سوف أبدأ بك ، ما اسمك ؟ " .

قال تومى بابتسامة عريضة : " بريسكوت يا سيدى " .

قال ترينثام : " نعم ، نعم أنت المتهم " ، فاختفت ابتسامة تومى من فورها . وأخذ يدور حوله لكى يبقى نفسه بمنأى عن المشاكل . وفى الجولة الثانية بدأ ترينثام يسدد له اللكمات ولكن ليس بالقوة التى تسمح بإسقاطه . احتفظ ترينثام بهذه اللكمة المهينة للجولة الثالثة عندما فاجأ تومى بلكمة مباغتة حادة جعلت تومى يفقد الرؤية . وحُمل تومى خارج الحلبة بينما كان تشارلى يربط قفازه .

قال ترينثام : " والآن حان دورك أيها الجندى ، ما اسمك ؟ "

" ترامبر يا سيدى "

"حسنا ، دعنا ننهى الأمر يا ترامبر " ، كان هذا هو كل ما قاله النقيب قبل أن يتقدم صوبه .

على مدى الدقيقتين الأوليين من الجولة كان تشارلى يدافع عن نفسه جيدا ويستخدم الحبال والأركان حيث كان يتفادى اللكمات ثم يلوذ بالفرار متذكراً كل مهارة كان قد تعلمها واكتسبها فى نادى وايت شابيل حتى إنه شعر أنه يمكن أن يلقن خصمة درسا جيدا ما لم يكن الرجل اللعين يتمتع بهذا التفوق الجسدى فى الطول والوزن . ومع حلول الدقيقة الثالثة بدأ تشارلى يزداد ثقة حتى إنه سدد لكمة أو اثنتين أثارتا غبطة كل المتفرجين . ومع قرب نهاية الجولة شعر تشارلى أنه قد حصن نفسه جيدا . وعندما دق جرس انتهاء الجولة ، خلع قفازه وسار نحو الركن المخصص له . وبعدها بثانية إذا بقبضة عنيفة تستقر على جانب أنف تشارلى . سمع كل من فى صالة الألعاب صوت ارتطام تشارلى على الحبال . لم يهمس أحد بكلمة بينما كان النقيب يخلع قفازه ويقفز من الحلبة قائلاً :

" إياك أن تتخلى عن حرصك " ، وكانت هذه هى كلمة العزاء الوحيدة التى قدمها له .

وعندما تفحص تومى وجه صديقه فى هذه الليلة بينما كان مستلقيا فى سريره كان كل ما قاله هو : " آسف يا زميلى ، الذنب ذنبى . إنه رجل لعين سادى . ولكن لا تقلق إن لم يقض الألمان على هذا اللقيط فسوف أتولى أمره بنفسى " .

لم يقو تشارلى إلا على الرد عليه بابتسامة مقتضبة .

ومع حلول يوم السبت كان كلاهما قد تعافى إلى حد يكفى لوقوفهما فى صف صرف المال ؛ وبقيا منتظرين لفترة طويلة فى انتظار استلام الشلنات الخمسة المخصصة لكل منهما . وعلى مدى الثلاث ساعات التى قضياها خارج الخدمة هذه الليلة ، اختفت النقود بأسرع من فترة وقوفهما فى انتظار تسلمها . ولكن تومى - مع ذلك - نجح فى الحصول على أعلى عائد مقابل المال الذى أنفقه أكثر من أى مجند آخر .

ومع بداية الأسبوع الثالث ، نجح تشارلى بالكاد فى إدخال أصابع قدمه المتورمة فى الحذاء الجلدى العسكرى الثقيل ، ولكن بالنظر إلى صف الأحذية العسكرية الطويلة التى كانت تزخر بها أرضية الغرفة فى الصباح ، أيقن أن كل زملائه لم يكونوا أفضل حالا منه .

صاح العريف : " سوف تتولى مهمة تنظيف المرحاض يا فتى ؛ هذا مؤكد " . نظر إليه تشارلى ولكن الكلمات كانت موجهة إلى تومى فى السرير المقابل .

سأل تومى : " ولم أيها العريف ؟ " .

" بسبب حالة غطائك وفراشك . فقط انظر إليه . إنه يبدو وكأنك قد التقيت بثلاث من النساء أثناء الليل " .

" اثنتان فقط ؛ لكى أكون صادقا معك أيها العريف " .

" اصمت يا بريسكوت وتوجه لأداء مهمتك بعد الإفطار مباشرة " .

" سوف أذهب بالفعل هذا الصباح أيها العريف ، شكرا لك " .

قال تشارلى : " اصمت يا تومى ، أنت تزيد الأمور سوءا " .

همس تومى : " أرى أنك قد بدأت تتفهم مشكلتى . إن هذا العريف أسوأ من الألمان أنفسهم " .

جاء رد العريف : " أتمنى ذلك يا فتى ؛ فقط من أجل مصلحتك . لأن هذه هى فرصتك الوحيدة فى الإبقاء على حياتك . والآن هيا إلى المراحيض . بأقصى سرعة " .

اختفى تومى ثم عاد بعد ساعة وقد انبعثت منه رائحة أشبه برائحة الروث .

قال تشارلى : " يمكنك أن تقتل الجيش الألمانى كله بدون رصاصة واحدة . كل ما عليك عمله هو أن تقف أمامهم وتتمنى أن تهب الريح فى الاتجاه الصحيح " .

وأثناء الأسبوع الخامس - حيث ولى عيد رأس السنة بدون الكثير من الاحتفالات - عين تشارلى ضابط خدمة للجناح العسكرى الخاص به .

قال تومى : " سوف يجعلونك عريفًا قبل أن نذهب من هنا " .

قال تشارلى : " لا تكن غبيا ، الكل سوف يحظى بفرصة إدارة الجناح فى وقت ما أثناء الأسابيع الاثنى عشر " .

قال تومى : " لا أظن أنهم سوف يجازفون بمنحى هذه المهمة ، وإلا سوف أطلق وابلاً من الرصاص على كل الضباط وأولهم هذا الملعون ترينثام " .

وجد تشارلى متعة فى تحمل مسئولية تنظيم الجناح على مدى سبعة أيام وشعر بالأسف عندما انتهى الأسبوع المخصص له وانتقلت المهمة إلى مجند آخر .

ومع حلول الأسبوع السادس ، أصبح تشارلى يتقن مهمة إفراغ وتنظيف بندقيته بنفس مهارة تومى ولكن صديقه هو الذى كان قد أثبت مهارة فائقة فى التصويب والقدرة على اقتناص أى شىء متحرك من على بعد مائتى ياردة . وحتى الملازم الأول كان منبهراً بمستوى أدائه .

أقر تومى قائلاً : " كل هذه الساعات التى نقضيها فى القنص والتصويب يجب أن تكون لها دلالة ، ولكن الشىء الذى أود أن أعرفه هو متى سوف تتسنى لنا فرصة الانقضاض على الأعداء ؟ " .

أجابه العريف مؤكداً : " أقرب مما تصور يا غلام " .

قال تشارلى : " يجب أن نستكمل أسابيع التدريب الاثنى عشر ، هكذا تقضى اللائحة الملكية . أى أننا لن نمنح هذه الفرصة بأى حال من الأحوال قبل شهر " .

قال العريف بينما كان تشارلى يعيد ملء بندقيته بالذخيرة ويصوب نحو الهدف : " لا تأمل كثيرا " .

صاح أحدهم : " ترامبر " .

قال تشارلى وقد اندهش عندما وجد ملازم الخدمة قد وقف بجانبه : " نعم يا سيدى " .

" الضابط المساعد يريد أن يراك . اتبعنى " .

" ولكنى لم أقترف شيئا أيها الملازم " .

" لا تجادل يا فتى ؛ فقط اتبعنى " .

قال تومى : " إنها دورية إطلاق النار ، ولأنك تبلل فراشك ليلاً . أخبرنى إن كان الأمر كذلك وسوف أتطوع لجذب الزناد . بهذه الطريقة سوف تضمن أن ينتهى أمرك سريعًا بدون عناء " .

أفرغ تشارلى بندقيته ووضعها على الأرض ثم سار خلف الملازم .

" لا تنس ، يمكنك أن تتمسك بحقك فى تعصيب عينيك . لكم أشعر بالأسى لأنك لا تدخن " . كانت هذه هى الكلمات الأخيرة التى قالها تومى بينما اختفى تشارلى من فوق أرض الملعب وسار مسرعا .

توجه الحارس إلى نقطة انتظار خارج حجرة الضابط المساعد ، واقتيد تشارلى وهو يلهث حيث فتح الباب وخرج منه حارس أسود اللون استدار إلى تشارلى وقال له : " انتباه . أيها الغلام ، اتبعنى بهدوء ولا تتحدث إلا عندما يطلب منك ذلك . مفهوم ؟ "

وتبع تشارلى الحارس الأسود خلال المكتب الخارجى إلى أن وصلا إلى باب آخر به لافتة مكتوب عليها : " الكابتن ترينثام ، مساعد القائد " ، وكان تشارلى يشعر بدقات قلبه تتلاحق بشدة بينما كان الحارس الأسود يطرق على الباب بهدوء .

جاء صوت آمر آخر قائلاً : " ادخل " ، ودخل الرجلان بمشية عسكرية وتحركا لأربع خطوات إلى أن توقفا أمام الكابتن ترينثام .

وقام الحارس الأسود بإلقاء التحية العسكرية .

ورفع صوته قائلاً : " المجند ترامبر رقم ٧٣١٢٨٧ ، كما طلبت يا سيدى " ، على الرغم من أن كليهما لم يكونا على بينة من الكابتن ترينثام .

ورفع الضابط نظره من وراء مكتبه .

قال : " نعم ، ترامبر ، إننى أتذكر ، إنك ذلك الخباز من وايت شابيل " ، وكان تشارلى على وشك أن يصحح له المعلومة عندما ابتعد ترينثام بنظره قائلاً : " لقد كان القائد يراقبك لعدة أسابيع ، ويشعر أنك ستكون مرشحاً جيداً للترقية لرتبة وكيل عريف . ويجب أن أعترف أنه تعترينى بعض الشكوك ، ولكننى أقبل بذلك أحياناً بأن أرقى أحد المتطوعين للحفاظ على ارتفاع الروح المعنوية بين المجندين . أعتقد أنك ستكون على مستوى تلك المسئولية يا ترامبر ، أليس كذلك ؟ " قال ذلك ولم يشغل باله النظر فى اتجاه تشارلى .

ولم يعرف تشارلى ما يجب قوله .

قال الحارس الأسود : " نعم يا سيدى . شكراً " ، ثم صاح : " استدر ، خطوة سريعة ، استدر يساراً ، يميناً ، يساراً يميناً " .

وبعدها بعشر ثوان ، وجد وكيل العريف تشارلى ترامبر من سلاح الرماية الملكية نفسه خارجا إلى أرض التدريب ثانية .

قال تومى فى عديم تصديق بعدما سمع بالنبأ : " وكيل العريف ترامبر . هل هذا يعنى أننى يجب أن أناديك بكلمة سيدى ؟ "

قال تشارلى مبتسما وهو يجلس على طرف الفراش يحيك شريطة واحدة على ذراع زيه العسكرى : " لا تكن سخيفا يا تومى ، يكفيك أن تنادينى بكلمة عريف فقط " .

وفى اليوم التالى بدأ جناح تشارلى المؤلف من عشرة مجندين يتمنى لو لم يكن تشارلى قد قضى السنوات الأربع عشرة السابقة من حياته يجوب الأسواق فى الصباح الباكر . كانت تدريباتهم وأحذيتهم العسكرية وتجهيزاتهم وتدريب السلاح الخاص بهم قد

أصبح السمة المميزة للفرقة كاملة حيث حرص تشارلى على حملهم على المزيد والمزيد من التدريب والعناء . ولكن المكافأة الحقيقية التى ألقت الضوء على تشارلى جاءت فى الأسبوع الحادى عشر عندما غادروا الثكنات وسافروا إلى جلاسكو حيث فاز تومى بجائزة الملك فى القنص والتصويب بعد أن هزم كل الجنود والرجال من الفرق العسكرية السبع الأخرى .

قال تشارلى بعد أن منح الملازم صديقه الكأس الفضية : " أنت عبقرى " .

وكان تعليق تومى الوحيد على الحدث هو : " هل هناك مكان يشترى السلع المسروقة هنا فى جلاسكو ؟ " .

كان يوم العرض العسكرى التالى فى يوم السبت الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩١٨ حيث سار فريق تشارلى بخطوات منتظمة على أرض الملعب فى اتساق تام مع الفريق الموسيقى . شعر تشارلى عندها للمرة الأولى بأنه جندى حتى بالرغم من أن تومى بدا أشبه بحقيبة بطاطس .

وعندما انتهى العرض أخيرا ، قدم الملازم أول فيلبوت تهانيه للفريق وقبل أن يصرف الفرق أخبرهم بأنه يمكنهم أخذ عطلة لباقى اليوم على أن يعودوا إلى ثكناتهم ويناموا فى فرشهم قبل منتصف الليل .

أطلق سراح الفرق العسكرية المجتمعة فى إيدنبرج لآخر مرة . وتولى تومى ثانية مهمة قيادة الفصيلة ١١ التى ظلت تترنح بين حانة وأخرى وهى تزداد ثمالة قبل أن ينتهى بها المآل أخيرا فى حانة الفولنتير فى ليث وولك .

التف عشرة جنود وقد غمرتهم السعادة حول البيانو وقد أخذوا يزدادون ثمالة مع كل رشفة أثناء غناء " احزم متاعبك فى حقيبتك القديمة " ، وتكرار كل كلمة فى المقطع الجماعى المخصص لهم . وقد لاحظ تومى الذى كان يعزف لهم على آلة الهرمونيكا أن تشارلى لم يرفع عينيه عن روز النادلة ، التى بالرغم من أنها كانت فى أواخر الثلاثينات ، لم تكن تكف عن مغازلة المجندين صغار السن . انسل تومى من بين الفريق الغنائى وانضم إلى صديقه وقال له : " أنت منشغل بأمور أكثر أهمية " .

" نعم ولكنها فتاتك أنت " . كان ذلك رد تشارلى وهو يواصل التحديق فى الشقراء منسدلة الشعر التى تظاهرت بعدم الالتفات إلى نظراتهما . وقد لاحظ أنها قد فتحت زرا فى قميصها يفوق المعتاد .

قال تومى : " نعم ، يمكننى أن أقول ذلك ، ولكن على أية حال ، أنا مدين لك بخدمة مقابل الإصابة التى لحقت بأنفك " .

ضحك تشارلى عندما واصل تومى حديثه قائلا : " إذن يجب أن تنتظر إلى أن ترى ما يمكننى أن أسديه لك " . فغمز إلى روز ثم ترك تشارلى لكى يحادثها فى نهاية الحانة .

وجد تشارلى أنه لا يقوى على مراقبة ما يجرى بينهما بالرغم من أنه لاحظ من خلال انعكاس صورتهما فى المرآة أنهما كانا قد انهمكا فى حوار ما . كما أدارت روز أثناء الحديث عينيها مرة أو مرتين فى اتجاهه . وبعدها بلحظات قليلة عاد تومى ليقف بجواره .

قال تومى : " كل شيء على ما يرام يا تشارلى " .

" ما الذى تقصده بذلك ؟ " .

" تماما ما تعنيه الكلمة . كل ما عليك عمله هو أن تتوجه إلى مؤخرة الحانة حيث يكدسون الصناديق الفارغة وسوف توافيك روز على الفور " .

بقى تشارلى ثابتًا فى مكانه .

قال تومى : " هيا ، انهض قبل أن تغير المرأة اللعينة رأيها " .

انسل تشارلى من فوق مقعده وسار من أحد الأبواب الجانبية بدون أن ينظر خلفه . كان كل ما يتمناه فقط هو ألا يلحظ أى شخص ما كان يجرى مما دفعه إلى أن يركض سريعا فى الممر غير المضاء ومنه إلى الباب الخلفى . وقف وحيدا فى أحد أركان الفناء وهو يشعر أنه لا يعدو أحمق صغيراً وهو يقفز إلى أعلى وأسفل لكى يستدفئ . شعر بقشعريرة وتمنى لو عاد إلى الحانة ثانية . وبعدها بلحظات اعترته قشعريرة ثانية وعطس وقرر هذه المرة أن يعود إلى رفاقه وينسى الأمر . وبينما بدأ يسير نحو الباب إذا بـ " روز " تخرج مسرعة .

" مرحبا أنا روز . آسفة لتأخرى كل هذا الوقت. لقد فاجأنى زبون فى اللحظة التى خرجت فيها من باب الحانة " . أخذ تشارلى يتأملها فى ظل الضوء الخافت المنبعث من إحدى النوافذ الصغيرة فوق الباب .

قال تشارلى وهو يمد يده مصافحاً : " تشارلى ترامبر " .

قالت ضاحكة : " أعرف ، لقد حكى لى تومى كل شيء عنك وقد أخبرنى أنك أفضل جندى فى الفرقة العسكرية " .

" أعتقد أنه كان يبالغ فى قوله " وبعد ذلك انخرطا فى الحديث وبدآ يتجاذبان أطراف الكلام وقد بدا المرح على كل منهما .

وفى صباح اليوم التالى كانت الأوامر الخاصة بالكتيبة قد علقت على اللائحة فى غرفة ضباط الخدمة . كانت كتيبة الرماية الجديدة تعتبر الآن قوة مقاتلة وكان من المفترض أن تنضم إلى الحلفاء فى الجبهة الغربية . أخذ تشارلى يسأل نفسه إذا كانت هذه الزمرة من المجندين من مختلف الأماكن والتى تدربت مع بعضها البعض على مدى الثلاثة أشهر الماضية تتمتع بالفعل بكفاءة كافية لمواجهة النخبة المختارة من جنود الجيش الألمانى .

وفى أثناء رحلة العودة إلى الجنوب ، حظوا ثانية بنفس الترحيب والتهليل الذى حظوا به فى المرة الأولى فى كل محطة . وفى هذه المرة شعر تشارلى أنهم أكثر استحقاقا للاحترام الفائق الذى كانت تظهره النساء . وأخيرًا فى مساء اليوم وصل القطار إلى ميدستون حيث هبط الجميع من على متن القطار وقضوا ليلتهم فى الثكنات العسكرية فى رويال وست كينتس .

وفى الساعة صفر وستمائة من صباح اليوم التالى ، قدم لهم النقيب ترينثام تفصيلا كاملا لما سوف يحدث ، كانوا سيركبون الباخرة إلى بولون ، هكذا عرفوا ، ثم كان من المفترض أن ينتقلوا بعدها بعشرة أيام إلى إيتابلز لتلقى المزيد من التدريب حيث سينضمون إلى فرقتهم تحت قيادة المقدم السير دانيفرز هاميلتون - أحد أصحاب الخدمة الممتازة - والذى كان يخطط وفق ما تم التأكيد عليه لهم لاكتساح كامل لخطوط دفاع الألمان . وظلوا بقية يومهم يجهزون معداتهم قبل أن يسيروا فوق المعبر وصولا إلى ناقلة الجنود .

بعد أن دق بوق السفينة ست مرات ، بدأ الإبحار من دوفر ، حيث تم حشد ألف رجل معًا على متن السفينة إتش . إم . إس ، وهم يغنون قائلين : " مازال الطريق طويلا إلى نقطة الوصول " .

سأل تومى : " هل سبق لك وسافرت خارج البلاد أيها العريف ؟ " .

رد تشارلى قائلاً : " كلا ما لم نعتبر اسكتلندا خارج حدود البلاد " .

قال تومى فى عصبية : " ولا أنا أيضا " . وبعد دقائق قليلة همس قائلا : " ألست خائفا ؟ " .

قال تشارلى : " كلا ، بالطبع لا . بل إننى مرتعد " .

قال تومى : " وأنا أيضا " .

" إلى اللقاء يا بيكاديلى ، إلى اللقاء يا ميدان ليشستر . مازال الطريق طويلا ، طويلا إلى ... " .

الفصل

٤

شعر تشارلى بدوار البحر بمجرد أن اختفى الساحل الإنجليزى عن ناظره بدقائق . وقد اعترف لتومى قائلاً : " لم يسبق لى ركوب البحر من قبل ، ما لم ننظر بعين الاعتبار إلى القارب الخشبى فى بريجتون " . وكان أكثر من نصف الرجال الذين كانت تقلهم السفينة تقيأوا الطعام القليل الذى تناولوه على وجبة الإفطار .

قال تومى : " لم يصب أى من الضباط بدوار البحر كما يبدو لى " .

" ربما اعتادوا الإبحار " .

" أو ربما يتقيأون فى كبائنهم الخاصة " .

وعندما ظهر الساحل الفرنسى أخيرا ، بدأ الجنود يهللون على متن السفينة . كان كل ما يتوقون إليه عندها هو أن يطأوا اليابسة بأقدامهم . وكان يمكن أن يكون الحال كذلك بالفعل ما لم تنهمر السماء بوابل من الأمطار فى اللحظة التى هبطت فيها القوات على

الأراضى الفرنسية . وبعد أن هبط الجميع من على متن السفينة ؛ طالبهم الملازم أول بالاستعداد لقطع مسافة خمسة عشر ميلاً سيراً على الأقدام .

أبقى تشارلى فرقته مشغولة عن قطع الطريق وسط الطين بالغناء المصحوب بالموسيقى التى كان يعزفها تومى على الهرمونيكا . وعندما وصلوا إلى إيتابلز وأعدوا معسكرهم لقضاء الليل؛ رأى تشارلى أنه ربما كانت صالة الألعاب فى إيدنبرج فاخرة رغم كل شىء .

بعد أن دق البوق الأخير أغمض ألفا جندى عيونهم فى محاولة لاستدعاء النوم تحت ظل الخيام . وقد خصصت كل كتيبة جنديين لأغراض الحراسة مع تبديلهما كل ساعتين للتأكد من حصول كل جندى على قسط من الراحة . وقضى تشارلى نوبة حراسته مع تومى فى الرابعة .

بعد ليلة مؤرقة قضاها الجنود فى الاقتراع والتقلب فوق التربة الفرنسية الوعرة المبتلة ، أوقظ تشارلى فى الرابعة وقام بدوره بركل تومى الذى أدار ببساطة جسده واستكمل نومه مباشرة . وبعدها بدقائق خرج تشارلى خارج الخيمة وأخذ يربط أزرار قميصه وهو يربت على ظهره بشكل دائم لكى يستدفئ . وبعد أن اعتاد بصره شيئًا فشيئًا على الضوء نصف الخافت ، بدأ يحصى الخيام الممتدة فوق بعضها البعض حتى مرمى البصر .

قال تومى عندما استيقظ بعد الرابعة والثلث : " صباح الخير أيها العريف ، هل حظيت برؤية نجوم الصباح ؟ " .

" كلا لم أحظ بشىء . ولكن ما أريده بحق هو كوب من الكاكاو الساخن أو أى شيء ساخن " .

" أمرك أيها العريف " .

أخذ تومى يبحث عن خيمة المطبخ وعاد بعد نصف ساعة بكوبين من الكاكاو الساخن وقطعتين من البسكويت الجاف .

قال لـ " تشارلى " : " لم أجد سكراً مع الأسف ، إنه مخصص فقط للملازمين والرتب الأعلى . لقد أخبرتهم أنك لواء متنكر لكنهم أجابونى بأن كل اللواءات قد عادوا بالفعل إلى لندن وناموا فى أسرتهم " .

ابتسم تشارلى وهو يضع أصابعه المجمدة حول كوب الكاكاو الساخن وأخذ يحتسيه ببطء لضمان دوام تلك المتعة البسيطة .

أخذ تومى يحدق فى الأفق قائلاً : " إذن أين هؤلاء الألمان الملاعين الذين حكوا لنا كثيرا عنهم ؟ " .

قال تشارلى : " الله وحده يعلم ، ولكن ثق أنهم فى مكان ما يتساءلون بدورهم عن أماكن وجودنا " .

وفى السادسة أيقظ تشارلى باقى أفراد فرقته العسكرية . كانوا قد استيقظوا بالفعل وعلى استعداد للتفتيش ثم طووا الخيمة إلى مربع صغير مع حلول السادسة والنصف .

جاء بوق آخر يعلن موعد الإفطار واتخذ كل الرجال مواقعهم فى صف طويل للغاية كان تشارلى واثقا من أنه سيسعد قلب أى تاجر خضراوات فى وايت شابيل .

وعندما وصل تشارلى أخيرا إلى مقدمة الصف ، رفع إناءه لكى يحصل على حصته من العصيدة ورغيف من الخبز . غمز تومى إلى الفتى الذى كان يرتدى سترة بيضاء طويلة وسترة زرقاء وقال له : " هل تظن أننى انتظرت كل هذه السنوات لكى أحصل على عينات من المطبخ الفرنسى " .

أجابه الطاهى قائلاً : " إن الأمر يزداد سوءا كلما اقتربت من الخط الأمامى " .

وعلى مدى الأيام العشرة التالية عسكروا فى إيتابلز ، وكانوا يقضون صباحهم فى السير فوق الكثبان ، وعصرهم فى الاستماع إلى معلومات عن حرب الغاز ، وأمسياتهم فى الاستماع إلى روايات النقيب ترينثام عن الطرق المختلفة التى يمكن أن يلقوا حتفهم بها .

وفى اليوم الحادى عشر جمعوا متعلقاتهم وخيامهم وانقسموا إلى مجموعات تحت قيادة القائد العام للفريق .

وقف أكثر من ألف رجل مشكلين مربعا على التربة الطينية فى مكان ما فى فرنسا يسألون أنفسهم إذا كان اثنا عشر أسبوعا من التدريب وعشرة أيام فى فرنسا تكفى لمواجهة العدو الألمانى .

قال تومى آملاً : " ربما لم يقضوا هم أيضا سوى اثنى عشر أسبوعًا فى التدريب " .

وفى تمام الساعة صفر وتسعمائة وصل المقدم السير دانيفرز هاميلتون فوق فرسته السوداء وتوقف فى منتصف المربع البشرى . وبدأ يخاطب الفرق العسكرية . لن ينسى تشارلى أبدا أنه أثناء الخطبة التى امتدت لخمس عشرة دقيقة لم يتحرك الحصان أبدا .

" مرحبًا بكم فى فرنسا " ، هكذا بدأ المقدم هاميلتون حديثه ، وكان يرتدى نظارة أحادية على عينه اليسرى وأضاف قائلاً : " كنت أتمنى أن نقوم برحلة ليوم واحد فقط " ، فانبعثت ضحكات خافتة من بين الصفوف ، " ولكننى أخشى أننا لن نملك وقتا للرحلات قبل أن نقضى على هؤلاء الألمان ونعيدهم ثانية من حيث أتوا مهزومين مدحورين " . فى هذه المرة ، تهلل الجمع وأضاف المقدم : " ولا تنسوا أن الطريق وعر ولكن الأسوأ هو أن الألمان لا

يعرفون قوانين السير على الأراضى الوعرة " . تعالت الضحكات بالرغم من أن تشارلى كان على يقين بأن المقدم كان يعنى كل كلمة قالها .

واصل المقدم حديثه : " اليوم سوف نسير نحو يبرس حيث سنعسكر قبل أن نشن هجومًا جديدًا وأعتقد أنه سوف يكون نهائيا على الجبهة الألمانية . أنا واثق أننا فى هذه المرة سوف نخترق خطوط الألمان كما أن الرماية المجيدة سوف تتباهى بشرف أمجاد هذا اليوم . أتمنى أن يحالفنا جميعا الحظ وليبارك الرب الملك " .

توالت المزيد من الهتافات والتهليل بعد أن عزفت الموسيقى العسكرية النشيد الوطنى وأخذت كل الفرق تغنى فى حماس وقوة .

استغرقت المسيرة خمسة أيام أخرى قبل أن يسمع صوت إطلاق نيران المدفعية ويشتم الجميع راحئة الخنادق مما أشعر الجميع أنهم قد اقتربوا بالفعل من جبهة القتال . وبعدها بيوم عبروا المخيمات الخضراء الكبيرة المخصصة للصليب الأحمر . وقبل الحادية عشرة من ذلك الصباح شاهد تشارلى جثة أول جندى ، وكان برتبة ملازم أول من فرقة إيست يورك شاير .

قال تومى : " اللعنة ، إن الرصاص لا يفرق بين الضباط والمجندين " .

وبعد قطع ميل آخر ، كانوا قد شاهدوا العديد من النقالات ، والعديد من الأجسام والعديد من الأوصال الممزقة قضت على روح الدعابة لدى الجميع . لقد وصلت الكتيبة ـ كما بدا واضحا إلى ما تطلق عليه الصحف اسم "الجبهة الغربية" . ومع ذلك لم يكن أى مراسل صحفى قد نجح فى وصف الكآبة التى كانت تسود الجو أو

نظرة اليأس فى وجه أى شخص قضى هناك فترة لا تزيد على بضعة أيام قليلة .

أخذ تشارلى يحدق فى الحقول الشاسعة الممتدة التى كانت تدر الخير الكثير فى يوم من الأيام . كان كل ما تبقى هو بيت المزرعة المحروق الذى حدد البقعة التى وجدت فيها الحضارة فى يوم ما . لم تكن قد ظهرت بعد أية بادرة تشير إلى العدو . وحاول أن ينسجم مع البيئة المحيطة به التى سوف تكون بمثابة وطنه فى الشهور التالية إن بقى على قيد الحياة . وكان كل جندى يعرف أن متوسط الحياة فى الجبهة هو سبعة عشر يوما .

ترك تشارلى رجاله يستريحون فى الخيام بينما خرج هو ليقوم بجولته الخاصة . مر فى البداية بخنادق الاحتياط التى كانت تقع على بعد مئات قليلة من الياردات أمام مخيمات المستشفى فى المنطقة التى كانت تعرف باسم " منطقة الفندق " والتى كانت تبعد ربع ميل خلف الخط الأمامى حيث كان كل جندى يقضى أربعة أيام بدون فترة استراحة ثم يحظى بعدها بفترة راحة لأربعة أيام فى خنادق الاحتياط . تقدم تشارلى نحو الأمام كما لو كان سائحا زائرا غير مشارك فى الحرب . استمع إلى بضعة رجال كانوا قد نجوا بحياتهم لأكثر من بضعة أسابيع وكانوا يتمنون لو أصيبوا "بجرح بسيط" يمكنهم من الانتقال إلى أقرب مخيم للتمريض ، أما إن كانوا من بين الأكثر حظا فقد ينتهى بهم المآل إلى العودة إلى إنجلترا .

وبما أن الرصاص الطائش كان يشق طريقه فى هذه الأراضى الشاسعة فقد جثا تشارلى على ركبتيه وعاد زاحفًا إلى خنادق الاحتياط لكى يخبر فرقته بما يمكن أن يحدث لها عندما تتقدم إلى الأمام بضع مئات من الياردات .

إن الخنادق ـ كما قال لرجاله ـ تمتد من الأفق إلى الأفق وهى يمكن أن تمتلئ فى أى وقت بآلاف الفرق العسكرية . وأمامها على بعد ما يقرب من عشرين ياردة سياج من الأسلاك الشائكة التى يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ثلاثة أقدام والتى ـ كما قال له أحد العريفين ـ قد كبدت ألف شخص حياتهم فقط لمحاولة تشييدها . فيما وراء هذا كانت هناك أراض شاسعة تصل مساحتها إلى خمسمائة فدان كانت مملوكة ذات يوم لأسرة بريئة قبل أن تسقط فى شراك الحرب . وبعد ذلك كانت الأسلاك الشائكة الخاصة بالألمان ومن ورائها الألمان أنفسهم داخل خنادقهم فى انتظارهم .

كان كل جيش ـ على ما يبدو ـ ينام فى مخبئه المخضب بالماء المزدحم بالفئران على مدى أيام وأحيانا على مدى شهور فى انتظار تحرك الجانب الآخر . كانت المسافة التى تفصل بينهما تقل عن ميل واحد . فإن لاح رأس لتفقد الأرض رُمى على الفور برصاصة من الجانب الآخر . فإن صدرت الأوامر بالتقدم فإن فرص نجاح الشخص فى قطع مسافة عشرين ياردة سوف تكون أقل من فرصة طفل رضيع فى استكمال خطوتين متتاليتين . أما إن نجح الجندى فى الوصول إلى الأسلاك الشائكة فأمامه طريقان للموت ، فإن وصل لخنادق الألمان فأمامه عشرة طرق .

وإن بقيت فى مكانك فيمكن أن تموت من الكوليرا أو غاز الكلورين أو التيفود أو قدم الجندى أى عندما يغرس الجندى الحربة فى قدمه لكى يقضى على الألم . لقد مات من الرجال خلف خطوط النار ما لا يقل عن عدد من لقوا حتفهم عند خط النار ، هكذا قال ملازم قديم لـ " تشارلى " . كما أن معرفة كون الألمان يعانون من

نفس المآسى على بعد مئات الياردات لم يكن يخفف من وطأة الظروف القاسية .

حاول تشارلى أن يضع نظاما يوميا لرجاله . كانوا يقومون بواجباتهم اليومية ثم يزيحون الماء من الخنادق ثم ينظفون المعدات ثم يلعبون كرة القدم لشغل ساعات الفراغ والملل والانتظار . كان تشارلى يسمع الكثير من الشائعات والشائعات المضادة عن كل ما يحمله المستقبل لهم . كان يرى أن الرجل الوحيد الذى كان يدرك حقيقة الأمر هو الضابط المسئول الذى يجلس فى مقر القيادة خلف خط العدو بميل واحد ، كان هو الرجل الوحيد من وجهة نظره الذى يدرك الجزء الأكبر من الحقيقة .

وكلما حان وقت قضاء تشارلى أربعة أيام فى الخنادق الأمامية ، كانت فرقته تقضى معظم وقتها فى ملء القبعات العسكرية بالماء وهم يبذلون جهدهم للتخلص من جالونات الماء التى كانت تنهمر يوميا عليهم من السماء . كان الماء فى الخندق يرتفع أحيانا حتى يصل إلى مستوى ركبة تشارلى .

قال تومى متبرمًا : " السبب الوحيد الذى منعنى من الالتحاق بالبحرية هو أننى لا أجيد السباحة . ولم يحذرنى يومها أحد من أننى يمكن أن أغرق أيضا بسهولة فى الجيش " .

بالرغم من انهمار الماء عليهم وقسوة البرودة وشدة الجوع ، بقى الجنود محتفظين إلى حد ما بروح التفاؤل . على مدى سبعة أسابيع بقى تشارلى وفرقته العسكرية يعيشون تحت وطأة هذه الظروف القاسية فى انتظار أوامر جديدة تسمح لهم بالتقدم . كان التقدم الوحيد الذى سمعوا به أثناء هذه الفترة هو التقدم نحو لودندورف .. وكان الجنرال الألمانى قد دفع الحلفاء إلى التراجع لمسافة تقرب من

أربعين ميلا مما كبدهم خسائر وصلت إلى أربعمائة ألف جندى بينما سقط ثمانية آلاف آخرين فى قبضة الأسر . كان النقيب ترينشام فى معظم الأحيان هو الذى ينقل مثل هذه الأخبار ولكن ما كان يثير ضيق تشارلى أكثر من ذلك هو أنه كان يبدو دائمًا نظيفًا يقظ الفكر والأسوأ هو أنه كان يبدو مستدفئًا جيد التغذية .

كان اثنان من رجال تشارلى قد لقوا حتفهم بالفعل بدون حتى أن يروا العدو . كان معظم الجنود يشعرون بالسعادة لمجرد الوصول إلى خطوط المواجهة لأنهم كانوا قد فقدوا كل أمل فى البقاء فى ظل حرب كانوا يرون أنها سوف تدوم إلى الأبد . ولم يكن يكسر حدة الملل إلا قتل الفئران بالحربة من آن إلى آخر أو طرد الماء من الخنادق أو الاستماع إلى تومى وهو يعزف نفس الألحان القديمة على آلة الهرمونيكا التى أصبحت الآن قديمة وبالية .

لم تصلهم الأوامر إلا فى الأسبوع التاسع حيث طلب منهم الاحتشاد فى المربع البشرى ثانية . جاء العقيد مثبتا نظارته الأحادية فى مكانها ثانية ثم أصدر الأوامر تفصيلاً من فوق حصانه الذى لا يحرك ساكناً . كانت الرماية الملكية يجب أن تتقدم حتى الخطوط الألمانية فى صباح اليوم التالى لمهاجمة الجناح الشمالى للعدو مع تولى قوات الحرس الأيرلندية مهمة تقديم المساندة من الجناح الأيمن فى الوقت الذى سوف يتقدم فيه الويلزيون من جهة اليسار .

قال العقيد هاميلتون مؤكداً : " غدا سيكون يوماً مجيداً لسلاح الرماية الملكية . يجب أن تنالوا قسطًا من الراحة لأن المعركة سوف تبدأ مع أول خيوط الفجر " .

فور العودة إلى الخندق ، اندهش تشارلى من أن نبأ الاشتراك أخيرا فى المعركة الحقيقية قد رفع الروح المعنوية لدى الجنود .

أقبل الجنود بحماس على تنظيف بنادقهم وتشحيمها واختبارها ثم اختبارها ثانية ووضع كل رصاصة بمنتهى العناية فى المكان المخصص لها وكذلك كل المسدسات التى اختبرت جميعا بدورها وزيتت وأعيد اختبارها وأخيرًا حلق كل الرجال استعدادًا لمواجهة العدو . كانت أول تجربة حلاقة لـ " تشارلى " قد تمت بواسطة مياه شبه مجمدة .

يصعب على أى رجل أن يستسلم للنوم فى الليلة السابقة على المعركة - هكذا سمع تشارلى - وقد استغل معظم الجنود الوقت فى كتابة رسائل طويلة إلى محبوباتهم فى أراضى الوطن بل وأقدم البعض ممن يملكون شجاعة كافية على كتابة وصاياهم . كتب تشارلى إلى بوش بوركى - لم يكن واثقًا من السبب الذى دفعه إلى ذلك - طالبا منها أن تعتنى بأخواته سال وجريس وكيتى إن لم تقدر له العودة . أما تومى فلم يكتب لأحد ، فقط لكونه لا يعرف الكتابة . وعند منتصف الليل جمع تشارلى كل الخطابات وسلمها فى حزمة إلى الضابط المنوط بالخدمة .

شحذت الحراب بمنتهى العناية والدقة ثم ثبتت جيدًا ، وبدأت القلوب تخفق أسرع فأسرع بمرور الدقائق وبقى الجميع صامتين فى انتظار الأوامر بالتقدم . كانت مشاعر تشارلى تتأرجح بين الفزع والإثارة وهو يراقب النقيب ترينشام وهو يتنقل بين فرقة وأخرى لكى يصدر تعليماته النهائية . تناول تشارلى دفعة واحدة شراب الرام الذى كان يمنح لكل الجنود فى كل الخنادق قبل أية معركة .

وكان هناك ملازم كان قد اتخذ مكانه خلف خيمة تشارلى ولم يكن تشارلى قد قابله قط من قبل . بدا وكأنه طالب متحمس فى المدرسة وقدم نفسه لتشارلى بشكل عادى وكأنهما فى حفل تعارف .

طلب من تشارلى أن يجمع فرقتة مع بعضها البعض على بعد بضع ياردات من الخط لكى يخاطبهم . خرج عشرة رجال يرتعدون وقد تملكتهم البرودة من خنادقهم وأخذوا يصغون إلى حديث الضابط الشاب فى صمت مطبق . كان هذا اليوم قد اختير من قبل خبراء الأرصاد الذين أكدوا أن الشمس سوف تشرق فى الخامسة وثلاث وخمسين وأن السماء لن تمطر . كان خبراء الأرصاد محقين بشأن الشمس ولكن ما جاء مناقضا لكل توقعاتهم هو تساقط بعض الأمطار الخفيفة فى الرابعة والحادية عشرة . " إنها الأمطار الألمانية ، ولكن ترى أى الفريقين سيسانده الله ؟ "

ابتسم الملازم ابتسامة رقيقة . وظلوا فى انتظار الإشارة الضوئية وكأنهم فى انتظار صفارة الحكم قبل اندلاع العداء رسميًا بين الفريقين .

وفى الخامسة وثلاث وخمسين ؛ مع بزوغ الشمس التى كانت فى حمرة الدم فى الأفق ؛ انطلقت الرصاصة الضوئية ونظر تشارلى ليجد السماء كلها مضاءة من خلفه .

انطلق الملازم أول من خندقه وصاح : " اتبعونى يا رجال " .

هرع تشارلى وراءه وصاح بأعلى صوته ـ بدافع الخوف أكثر من الشجاعة ـ : " تقدموا نحو الأسلاك الشائكة " .

وقبل أن يقطع الملازم أول خمسة عشرة ياردة أصيب بأول رصاصة ولكنه نجح بشكل ما فى مواصلة السير إلى أن وصل إلى الأسلاك الشائكة . أخذ تشارلى يراقب فى فزع الملازم وهو يتهاوى وسط الأسلاك الشائكة بينما انطلق وابل من الرصاص ليخترق جسده الهامد . غيّر اثنان من الرجال الشجعان مسارهما لكى يهرعوا لمساعدته ولكن لم يتمكن أى منهما من الوصول إلى السلك . كان

تشارلى يبعد عنه بياردة واحدة وكان على وشك المرور من خلال أحد الثغرات عندما هرع تومى وسبقه . استدار تشارلى وابتسم وكان هذا هو آخر ما يتذكره من معركة " ليس " .

بعد يومين استيقظ تشارلى فى مخيم التمريض على بعد ثلاثمائة ياردة من خط النار وإذا بفتاة شابة ترتدى زيًا أزرق يميل إلى السواد تضع العلامة الملكية فوق قلبها تميل نحوه . كانت تتحدث إليه . لقد أدرك ذلك فقط من تحرك شفتيها ولكنه لم يسمع كلمة مما كانت تقول . فكر تشارلى قائلاً لنفسه : " حمداً لله ؛ مازلت حيا ؛ وسوف يتم إرسالى بالطبع إلى إنجلترا " . فبمجرد أن يحصل الجندى على شهادة تثبت أنه فقد سمعه يتم إرساله على الفور إلى الوطن . هكذا كانت تقضى اللائحة الملكية .

ولكن تشارلى استرد سمعه كاملاً فى غضون أسبوع وارتسمت الابتسامة على شفتيه للمرة الأولى عندما رأى جريس وهى تقف بجواره تصب له كوبًا من الشاى . لقد سمحوا لها بمغادرة مخيم التمريض عندما سمعت أن جنديًا مجهولاً يدعى ترامبر قد سقط فاقداً الوعى فى ميدان المعركة ، وقد أخبرت أخاها أنه أحد المحظوظين الذين أصيبوا إثر انفجار لغم أرضى لم يفقده سوى إصبع قدمه ؛ كما أنه ليس الإصبع الكبير ؛ كما قالت له جريس ممازحة . خيبت الأنباء أمل تشارلى لأن فقد الإصبع الأكبر كان يعنى أيضا أنه يمكنه أن يعود إلى أرض الوطن .

أضافت فى حزن : " فيما عدا ذلك لم تصب إلا بقليل من القطوع والجروح . ليس هناك أية إصابة خطيرة كما أنك تتمتع بوافر الصحة . يجب أن تعُود إلى الجبهة فى غضون أيام " .

نام تشارلى ثم استيقظ وأخذ يتساءل عن مصير تومى .

سأل بعد أن استكمل جولته : " هل هناك أية أنباء عن المجند بريسكوت ؟ " .

تفحص الملازم القائمة ثم تجهم وجهه وأجاب قائلا : " لقد تم اعتقاله ، يبدو أنه سوف يواجه محاكمة عسكرية " .

" ماذا ؟ لماذا ؟ " .

أجاب الملازم الشاب وهو ينتقل إلى السرير المجاور : " ليس لدى أدنى فكرة " .

وفى اليوم التالى ، استطاع تشارلى أن يتناول القليل من الطعام وخطا بضع خطوات مؤلمة فى اليوم الذى يليه واستطاع أن يجرى فى الأسبوع التالى . ثم عاد إلى الجبهة ثانية بعد واحد وعشرين يوما من اليوم الذى انطلق فيه الملازم قائلا "هيا اتبعونى " .

وعندما عاد تشارلى إلى الخندق سرعان ما اكتشف أنه لم يبق من فرقته سوى ثلاثة رجال فقط على قيد الحياة ولكنه لم يعثر على أى أثر يرشده إلى مصير تومى . كان هناك فوج جديد من الجنود قد وصل لتوه من إنجلترا فى صباح ذلك اليوم . كان عليهم أن يتخذوا مواقعهم ويشرعوا فى اتباع نظام أربعة أيام عمل وأربعة أيام راحة . وكان المحاربون المستجدون يعاملون تشارلى على أنه أحد المحاربين القدامى .

لم تمض إلا ساعات قليلة على رجوعه عندما علقت الأوامر العسكرية بوجوب توجهه لمقابلة المقدم هاميلتون فى الساعة الحادية عشرة ومائة من صباح اليوم التالى .

سأل تشارلى ضابط الخدمة : " ولماذا يريد القائد مقابلتى ؟ " .

" قد يعنى هذا إما محاكمة عسكرية أو تشريفاً ، إن القائد ليس لديه وقت لأى شىء آخر . وإياك أن تنسى أنه يحب إثارة المشاكل . راقب لسانك جيدا وانتبه لما تقوله لأنه قليل الصبر " .

وفى الساعة العاشرة وخمس وخمسين تحديدا وقف وكيل العريف ترامبر وهو يرتجف خارج خيمة القائد . كان خوفه من القائد لا يقل عن الخوف من الذهاب إلى أرض المعركة . وبعد بضع دقائق قليلة ، خرج الرقيب الأول من الخيمة لكى يدخله .

صاح الملازم أول فيليبوت : " قف ، انتباه ، قدم التحية وقل اسمك ورتبتك ورقمك التسلسلى " ، وأضاف فى حدة : " وتذكر لا تتحدث إلا عندما يطلب منك " .

سار تشارلى نحو الخيمة وتوقف أمام مكتب القائد . قدم التحية وقال : " وكيل عريف ترامبر ، ٧٣١٢٠٨٧ ، يا سيدى " ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها القائد جالسا على كرسى وليس حصانا .

قال القائد هاميلتون ، وهو ينظر إلى أعلى : " آه ، ترامبر سعدنا بعودتك ، وسعدنا أكثر بشفائك السريع " .

قال تشارلى وقد أدرك لأول مرة أن هناك عيناً من عينى القائد تتحرك بالفعل : " شكرا لك يا سيدى " .

" ومع ذلك فثمة مشكلة تخص أحد مجنديك والتى آمل أن تساعدنا فى حلها " .

" سوف أفعل كل ما بوسعى يا سيدى " .

قال القائد : " جيد ، لأنه يبدو " ، ثم أضاف وهو يضع نظارته الأحادية فوق عينه اليسرى" أن بريسكوت " ، ثم تفحص بعض الأوراق الموضوعة أمامه على المكتب وواصل بعدها حديثه قائلا

" نعم المجند بريسكوت ، ربما يكون قد أطلق النار على يده لكى يفر من مواجهة العدو . وطبقا لرواية النقيب ترينثام التى ذكرها فى التقرير ، لقد وجد مصابا بطلق نارى واحد فى يده اليسرى وهو ملقى فى الطين على بعد بضع ياردات قليلة من خندقه . فى مثل هذه الظروف يفسر هذا التصرف على أنه تخاذل عن لقاء العدو . ومع ذلك فإننى قررت عدم إعداد المحاكمة العسكرية قبل سماع شهادتك فى هذا الصدد بشأن ما جرى صباح ذلك اليوم . لقد كان أحد أفراد فرقتك العسكرية لذا فقد رأيت أنه ربما يكون لديك ما تود إضافته إلى رواية النقيب ترينثام" .

قال تشارلى : " أجل يا سيدى هذا صحيح بكل تأكيد " ، وحاول أن يرتب أفكاره ويراجع فى عقله كل تفاصيل ما جرى منذ شهر مضى . وقال : " بمجرد أن انطلقت الإشارة الضوئية قاد الملازم ميكبيس القوات وسار متقدمًا عليها وسرت أنا وباقى فرقتى خلفه . كان الملازم هو أول من وصل إلى السياج السلكى حيث أطلق عليه على الفور وابل من الرصاص وكان هناك رجلان فقط متقدمان علىّ فى هذا الوقت . سارا بشجاعة لإنقاذ الملازم ولكنهما سقطا حتى قبل أن يصلا إليه . وعندما وصلت إلى السلك لاحظت وجود ثغرة فمررت خلالها وإذا بالمجند بريسكوت يسبقنى بينما كان يتقدم نحو خطوط العدو . ولابد أننى أصبت بلغم أرضى هناك وهو ربما ما أصاب المجند بريسكوت هو الآخر على الأرجح ."

" هل أنت واثق أن المجند بريسكوت هو الذى تجاوزك ؟" .

" فى خضم المعركة ، يصعب عليك أن تتذكر كل التفاصيل يا سيدى ولكننى لن أنسى أبدًا أن بريسكوت هو الذى تقدم علىّ " .

سأل القائد : " ولماذا ؟ " .

" لأنه زميلى وقد أزعجنى فى ذلك الوقت تقدمه علىّ " .

وهيئ لـ " تشارلى " أنه رأى ابتسامة خافتة تعبر وجه القائد .

سأل القائد وهو يثبت نظارته الأحادية : " هل هو صديق مقرب منك ؟ " .

" نعم يا سيدى هو كذلك ، ولكن هذا لا يؤثر على حكمى ولا يحق لأحد أن يدعى ذلك " .

قال القائد بصوت أجش : " هل تدرك تماما من الذى تتحدث إليه ؟ "

" أجل أيها العقيد . رجل حرص على معرفة الحقيقة وإرساء العدل . أنا لست رجلاً متعلماً يا سيدى ولكننى رجل نزيه " .

" أيها العريف ، سلم نفسك إلى ...." .

قال القائد : " شكرا أيها الرقيب الأول ، لقد انتهت المهمة . وشكرا لك أيها العريف ترامبر لشهادتك الواضحة المحددة . لن أزعجك ثانية . يمكنك الآن أن تعود إلى فرقتك " .

قال تشارلى : " شكرا لك يا سيدى " . وتأخر قليلا إلى الخلف وقدم التحية ثم قام باستدارة وسار خارجا من الخيمة .

سأل الرقيب الأول : " هل تريد رأيى فى هذا الشأن ؟ " .

قال القائد هاميلتون : " نعم ، أود ذلك . رق وكيل العريف ترامبر إلى رتبة رقيب وأطلق سراح المجند بريسكوت فى الحال " .

عاد تومى إلى فرقته فى عصر نفس اليوم وهو يحمل ضمادة على يده اليسرى .

" لقد أنقذت حياتى يا تشارلى "

" لقد قلت الحقيقة فقط " .

" أعلم وهذا ما فعلته أيضا . ولكن الفرق هو أنهم قد صدقوك أنت " .

استلقى تشارلى فى خيمته فى تلك الليلة وهو يفكر فى سبب إصرار النقيب تريتنام على التخلص من تومى . هل يمكن أن يتصور أى رجل أنه يحق له أن يلقى برجل آخر إلى حتفه فقط لأنه سجن ذات مرة ؟

واصل الجنود نفس روتينهم اليومى المعتاد على مدى شهر كامل قبل أن تعلن القيادة عن التحرك جنوبًا إلى مارن استعداد للقاء الجنرال فون لودندورف . انقبض قلب تشارلى وهو يقرأ الأوامر . كان يعلم أن الخطر داهم وفرصة النجاة ضئيلة . وقد نجح فى لقاء جريس فى وقت الراحة وأخبرته أنها سقطت فى هوى عريف من ويلز كان قد فقد إحدى عينيه إثر وقوفه على لغم أرضى .

إنه الحب من أول نظرة ؛ هكذا فكر تشارلى مازحاً .

فى منتصف الليل من يوم الأربعاء السابع عشر من يوليو عام ١٩١٨ ساد صمت مطبق مخيف فى الأرض الخالية . ترك تشارلى كل من كانت لديه القدرة على النوم ينام ولم يسع لإيقاظ أحد قبل الثالثة من صباح اليوم التالى . كان الآن بصفته رقيباً يملك قيادة فصيلة من أربعين جنديا يجب أن يعدها للمعركة وكان جميعهم يخضعون بدورهم لقيادة النقيب تريتنام العامة الذى لم يره أحد منذ اليوم الذى أطلق فيه سراح تومى .

وفى الثالثة وثلاثين دقيقة ، انضم ملازم يدعى هارفى إليهم خلف الخنادق حيث كان جميعهم عندها فى حالة تأهب كامل لخوض المعركة . كان هارفى ـ وقد تبين لهم ذلك ـ قد وصل إلى الجبهة فى يوم الجمعة السابق على ذلك اليوم .

قال تشارلى بعد أن تعارف الرجلان : " إنها حرب مجنونة " .

رد هارفى ببساطة : " لا أعرف تحديدا . إننى أتوق إلى الخروج وملاقاة الألمان بنفسى " .

همس تومى : " لن يبق للألمان أى أمل مادمنا نملك رجالا فى مثل تهور هذا الرجل " .

قال تشارلى : " بالمناسبة يا سيدى ما هى كلمة السر ؟ " .

قال الملازم : " آه ؛ آسف كدت أنسى . إنها ذات الرداء الأحمر " .

بقى الجميع منتظرًا . وفى الساعة صفر وأربعمائة ؛ أحكموا ضبط الحراب ، وفى الرابعة وواحد وعشرين انطلقت الرصاصة الضوئية الحمراء لتضىء السماء فى مكان ما خلف الخطوط وانطلقت الصفارات فى كل أرجاء المكان .

" تالى هو " هكذا صاح الملازم هارفى . ثم أطلق مسدسه فى الهواء وتولى القيادة وسار فى المقدمة وكأنه ذاهب لمطاردة ثعلب ضال . وثانية ، تسلق تشارلى الخندق إلى أن خرج منه وسار خلفه ببضع ياردات فقط . سار باقى أفراد الفصيلة خلفه بينما كان يتعثر فى خطاه فوق الأرض الطينية التى باتت مجردة من الأشجار لحمايتهم . وإلى يساره وجد تشارلى فصيلة أخرى متقدمة عنه . كان تريتنام صاحب الوجه النظيف الذى لا تخطئه العين يقود المؤخرة . ولكن الملازم هارفى ظل هو الذى يقود القوات حيث شق الأسلاك بمنتهى التمكن وسار فى الأرض الشاسعة . وقد شعر تشارلى بثقة بالغة عندما فوجئ بشخص يشق طريقه عبر هذه الأسلاك اللعينة . ومضى هارفى يشق طريقه وكأنه غير قابل للمساس أو كأنه مسحور . شعر تشارلى وكأنه يسقط فى كل خطوة يخطوها وهو يراقب الملازم

وهو يتعامل مع الأسلاك الألمانية الشائكة وكأنها عقبة أخرى تعترض طريقه قبل أن يعدو نحو خنادق الأعداء وكأنها خط السباق النهائى فى مدرسته المحلية . قطع الرجل عشرين ياردة داخل شريط الأعداء قبل أن يمطروه بوابل من الرصاص أسقطته أخيرا جثة هامدة . ووجد تشارلى وقتها نفسه فى المقدمة يقاتل الألمان الذين كانوا يخرجون رؤوسهم من الثغرات .

لم يكن قد سمع من قبل بشخص استطاع بالفعل أن يصل إلى خنادق الألمان ؛ لذا لم يكن واثقا مما كان يجب عليه فعله ، وبالرغم من كل التدريبات التى تلقاها ، كان لايزال يجد صعوبة فى إطلاق الرصاص أثناء العدو . وعندما أطلق أربعة ألمان نيران بنادقهم فى آن واحد ، شعر أنه قد قضى عليه لا محالة . صوب نيرانه نحو الرجل الأول فأرداه قتيلا فى خندقه ولكنه بعدها وجد بنادق الثلاثة الآخرين مصوبة نحوه . وفجأة وجد وابلاً من الرصاص ينطلق من خلفه أردى الثلاثة قتلى داخل خنادقهم وكأنها مسابقة لاصطياد البط . وقد أدرك عندها أن الفائز بجائزة الملك فى التصويب مازال يسير على قدميه .

وفجأة ، وجد نفسه فى خنادق العدو وجهاً لوجه ويحدق فى عينين مرتعدتين لفتى مذعور يصغره سناً . تردد للحظة فقط قبل أن يدس الحربة فى منتصف فمه . ثم سحب الحربة ليدسها ثانية ولكن فى قلب الفتى مباشرة فى هذه المرة ثم جرى . كان هناك ثلاثة من رجاله فى هذا الوقت قد تقدموا عليه لمطاردة الأعداء أثناء تراجعهم . وفى هذه اللحظة رأى تشارلى تومى فى الجناح الأيمن وهو يطارد اثنين من الألمان فوق أحد المرتفعات . اختفى خلف بعض الأشجار ثم سمع تشارلى طلقة نارية واحدة وسط هدير المعركة .

استدار وانطلق يعدو سريعا فى الغابة لكى ينقذ صديقه ليجد أحد الألمان قتيلا فوق الأرض وتومى مازال يعدو خلف الآخر ، فوق المرتفع . انطلق تشارلى بأنفاس متهدجة ونجح فى اللحاق به عندما توقف أخيراً خلف إحدى الأشجار .

قال تشارلى وهو يلقى نفسه بجواره : " لقد كنت رائعاً بحق يا تومى " .

" ولكننى لم أكن فى نصف كفاءة هذا الضابط ؛ ما هو اسمه ؟ " .

" هارفى ؛ إنه الملازم هارفى " .

قال تومى وهو يلوح بسلاحه : " إن ما أنقذنا فى الأساس هو نيران مسدسه وليس هذا اللقيط ترينتام " .

قال تشارلى : " ما الذى تقصده ؟ "

" لقد فر من خنادق الألمان أليس كذلك ؟ وانطلق فى الغابة . لقد شاهده اثنان من الألمان واقتفوا أثره ، لذا سرت وراءهم . وقتلت أحدهم ؛ أليس كذلك " .

" إذا أين ترينتام الآن ؟ " .

" فى مكان ما هناك " قال تومى ذلك وهو يشير من فوق الجبهة إلى المرتفع : " فى مكان ما هناك سوف تجده مختبئا من هذا الألمانى الذى اقتفى أثره ؛ بكل تأكيد " .

أخذ تشارلى يتأمل الفراغ .

" إذن ما الذى سنفعله الآن أيها العريف ؟ " .

" يجب أن نطارد هذا الألمانى ونقتله قبل أن يقتل النقيب " .

قال تومى : " ولم لا نعود أدراجنا على أمل أن يعثر الألمانى على النقيب قبل أن نعثر نحن عليه ؟ " .

ولكن تشارلى كان قد نهض بالفعل على قدميه وبدأ يسير نحو المرتفع .

تقدم الاثنان ببطء نحو المنحدر ، محتمين بالأشجار يراقبون وينصتون لكل ما يجرى إلى أن وصلا إلى القمة والأرض المفتوحة .

همس تشارلى : " ليس هناك أثر لأى منهما " .

" حسنا . لم لا نرجع خلف خطوطنا لأن الألمان إن قبضوا علينا فلن يدعونا لتناول الشاى والبسكويت " .

واصل تشارلى سيره . كان أمامهما كنيسة صغيرة لا تشبه معظم الكنائس التى مروا بها عبر الطريق الطويل من إيتابل إلى الجبهة .

قال تشارلى بينما كان تومى يعيد ملء بندقية الملازم هارفى بالذخيرة : " ربما يجدر بنا أن نتفقد الكنيسة جيداً فى البداية . ولكن يجب ألا نقدم على أية مجازفة غير محسوبة " .

سأل تومى : " وما الذى تظن أننا كنا نفعله على مدى الساعة الأخيرة " .

بوصة ببوصة وخطوة بخطوة ، زحف الاثنان فوق الأرض المفتوحة إلى أن وصلا إلى باب الكنيسة . دفع تشارلى الباب وفتحه ببطء وهو يتوقع أن يقابل بوابل من الرصاص ولكن كان أعلى صوت سمعاه كان صوت صرير المفصلة . وعندما دخلا ، فعل تشارلى نفسه مثلما كان يفعل جده دائما فور دخول كنيسة سانت مارى وسانت مايكل فى شارع جوبيلى . أما تومى فقد أشعل سيجارة .

بقى تشارلى يتقدم بحرص بينما بدأ يتفقد الكنيسة الصغيرة . كانت قد فقدت بالفعل نصف سقفها بسبب قذيفة إنجليزية أو ألمانية بينما بقى صحن الكنيسة ورواقها دون أن يمسا .

وجد تشارلى نفسه مبهوراً بأنماط الموزاييك التى كانت تغطى الجدران الداخلية وتلك المربعات الضئيلة التى كانت ترسم صورة كبيرة . تقدم ببطء حول المحيط وهو يحدق فى هذه الرسوم .

وتوارد إلى ذهنه صورة رجل الدين أومالى . وعندها طاحت إحدى الرصاصات بجواره . وبينما زحف تشارلى للاختباء ، انطلقت رصاصة ثانية . أدار تشارلى بصره فى أرجاء المكان إلى أن رأى ضابطاً ألمانياً كان قد أصيب فى جانب رأسه وأخذ يترنح بين الستائر إلى أن سقط خارج الصندوق الخشبى فوق الأرض الحجرية . لابد أنه مات فى الحال .

قال تومى : " أتمنى فقط أن يكون قد أتيح له الوقت الكافى لكى يتألم قبل أن يموت " .

زحف تشارلى خارجا من مخبئه .

قال تومى : " بحق السماء ، ابق فى مكانك أيها الأحمق لأن هناك شخصا آخر مازال هنا ولدىَّ شعور غريب بأنه يوجد معنا هنا . وعندها سمعا صوت حركة من حولهما .

قال الصوت الذى تعرف عليه فى الحال : " إنه أنا " .

قال تومى محاولاً كتم الضحك : " من أنا ؟ " .

" النقيب ترينثام . أيًا كان ما تفعلانه ، لا تطلقا النار " .

قال تومى مستمتعاً بكل لحظة حرج يتعرض لها معذبه : " إذن أرنا نفسك وضع يديك فوق رأسك لكى نتأكد من أنك الشخص الذى زعمت أنك هو " .

نهض ترينثام ببطء من أعلى لكى يهبط الدرج الحجرى واضعاً يديه فوق رأسه . واصل سيره إلى أن وصل إليهما قبل أن يخطو فوق

جثة الضابط الألمانى ويقف وجهاً لوجه مع تومى الذى كان مازال يحمل بندقيته مصوبًا إياه على قلبه .

قال تومى وهو ينكس بندقيته : " آسف يا سيدى كان يجب أن أتأكد أنك لست ألمانيا " .

قال ترينثام فى سخرية : " ألمانى يتحدث بهذه اللهجة الإنجليزية ؟ "

قال تومى : " لقد حذرتنا فى إحدى محاضراتك من مثل هذه الحيل يا سيدى "

" اصمت يا بريسكوت . وكيف حصلت على بندقية ضابط ؟ "

قاطع تشارلى الحديث : " إنها بندقية الملازم هارفى التى أسقطها عندما ...." .

قال تومى وهو لا يحيل بصره عن ترينثام : " لقد فررت فى الغابة " .

" لقد كنت أطارد اثنين من الألمان كانوا يسعون للفرار " .

قال تومى : " لقد بدا لى الأمر عكس ذلك . وعندما نعود ؛ سوف أقص ما حدث لكل من يريد أن يصغى " .

قال ترينثام : " سوف يكون عليك أن تثبت روايتك مقابل روايتى ، وعلى أية حال لقد قتل الجنديان الألمانيان " .

" بفضلى أنا ولا تنس أن العريف أيضاً قد شهد كل ما حدث " .

قال ترينثام وهو ينظر إلى تشارلى مباشرة : " إذن أنت تعلم أن روايتى للأحداث هى الرواية الصحيحة ؟ " .

" كل ما أعرفه هو أننا يجب أن نغادر هذا الحصن ونخطط للرجوع إلى خطوطنا بدون أن نهدر المزيد من الوقت فى الشجار هنا " .

أومأ النقيب بالموافقة ثم استدار وعاد إلى مؤخرة الكنيسة ثم صعد الدرج الحجرى ومنه إلى البرج . أسرع تشارلى خلفه . اتخذ كل منهما موقع المراقبة فى مقابل الآخر فوق السطح . وبالرغم من أن تشارلى كان مازال يسمع صوت المعركة الدائرة فإنه لم يكن واثقا أى الفريقين كان المتقدم على الآخر فى الجانب المقابل من الغابة .

سأل ترينثام بعد مرور بضع دقائق : " أين بريسكوت ؟ "

قال تشارلى : " لا أعرف يا سيدى . كنت أظن أنه يسير خلفنا " مضت بضع دقائق قبل أن يظهر تومى مرتديًا قبعة الجندى الألمانى فوق قمة الدرج الحجرى .

سأل ترينثام فى تشكك : " أين كنت ؟ " .

" أقلب المكان رأسا على عقب أملاً فى العثور على أى طعام ولكننى لم أعثر على جرعة ماء " .

قال النقيب وهو يشير إلى قنطرة لم تغط بعد : " اتخذ مكانك هناك ، وراقب المكان جيدا . سوف نبقى بلا حراك إلى أن يحل الظلام الحالك . ومع حلول ذلك الوقت سوف أكون قد وجدت خطة للرجوع إلى خطوطنا " .

أخذ الرجال الثلاثة يحدقون فى الريف الفرنسى إلى أن كثر الضباب ثم تحول إلى اللون الرمادى وأخيرا حل الظلام .

سأل تشارلى بعد أن بقوا فى الظلام الحالك على مدى أكثر من ساعة : ألا يجدر بنا أن نفكر فى التحرك سريعاً أيها النقيب ؟ " .

قال ترينثام : " سوف نذهب عندما أشعر أننى فى حالة جيدة وأكون مستعداً ، ليس قبل ذلك " .

قال تشارلى : " أمرك يا سيدى " ، وبقى يرتجف وهو يحدق فى الظلام على مدى أربعين دقيقة .

قال ترينثام بدون أى إنذار مسبق : " حسناً ، اتبعونى " ونهض وقادهما أسفل الدرج الصخرى ثم توقفوا عند مدخل باب الكنيسة . وسحب الباب ليفتحه ببطء . وبدا صوت مفصل الباب لـ " تشارلى " أشبه بصوت إفراغ المسدس الآلى . أخذ ثلاثتهم يحدقون فى الظلام وأخذ تشارلى يسأل نفسه إن كان قد بقى ألمانى آخر بالخارج مازال يحمل بندقيته فى الانتظار . وتفحص النقيب بوصلته .

همس ترينثام : " أولا يجب أن نسعى للوصول إلى أمان هذه الأشجار التى تقع فى قمة التل ثم سأسعى لإيجاد طريق لكى نعود ثانية إلى خطوطنا " .

وعندما تعود تشارلى على الرؤية فى الظلام ؛ بدأ يدرس القمر جيدا ولكن الأهم من ذلك حركة السحب .

واصل النقيب حديثه قائلاً : " إن الطريق المؤدى إلى هذه الأشجار مكشوف ، لذا لا يمكننا أن نجازف إلى أن يختفى القمر خلف أى سحابة وعلى كل منا أن يقطع طريقه منفصلا بسرعة نحو التل . عندما أصدر أمرى يا بريسكوت سوف تبدأ أنت بالعدو " .

قال تومى : " أنا ؟ " .

" نعم أنت يا بريسكوت ثم العريف ترامبر سوف يليك فى اللحظة التى تصل فيها إلى الأشجار " .

قال تومى : " وسوف تصل أنت فى المؤخرة بالطبع ؛ هذا إن حالفنا الحظ ونجونا " .

قال ترينثام : " لا تكن فظا وأنت تخاطبنى ، وإلا فسوف تجد نفسك معرضاً لمحاكمة عسكرية وسوف ينتهى بك المآل فى السجن حيث يجب أن تكون فى الأساس " .

قال تومى : " ولكن ليس بدون وجود شاهد ؛ أليس كذلك ؟ أعرف هذا الجزء جيدا من القوانين الملكية " .

قال تشارلى : " اصمت يا تومى " .

بقى الثلاثة منتظرين فى صمت خلف باب الكنيسة إلى أن تحرك ظل كبير ببطء عبر الممر وأخيراً أحاط بالكنيسة وبطول الطريق المؤدى إلى الأشجار .

" انطلق ! " هكذا قال النقيب وهو يضرب على كتف بريسكوت . انطلق تومى وكأنه طير أطلق سراحه وأخذ الرجلان يراقبانه وهو يطوى الأرض المفتوحة إلى أن وصل بعدها بعشرين ثانية إلى أمان الأشجار .

وبعدها بلحظة طرقت نفس اليد ثانية على كتف تشارلى الذى انطلق بدوره سريعا ، أسرع من أى مرة عدا فيها فى حياته بالرغم من أنه كان يحمل بندقية فى إحدى يديه ولفافة فى يده الأخرى . وغابت الابتسامة عن وجهه ولم تظهر ثانية إلا عندما وصل بجوار تومى .

استدار الاثنان وأخذا يحدقان فى اتجاه النقيب .

قال تشارلى : " ما الذى ينتظره بحق السماء ؟ " .

قال تومى : " لكى يتأكد من أن أياً منا لم يقتل ، على ما أظن " . عاود القمر ظهوره ثانية .

بقى الاثنان منتظرين دون أن ينطقا بكلمة إلى أن اختفى ضوء القمر خلف سحابة أخرى وأخيرا هرع النقيب نحوهما .

وقف بجانبهما وانحنى على شجرة وارتاح إلى أن التقط أنفاسه .

تمتم أخيراً قائلا : " حسنا ، سوف نتقدم ببطء عبر الغابة ونتوقف كل بضع ياردات للإنصات إلى صوت العدو ونتخذ الأشجار فى نفس الوقت غطاء لنا. تذكرا ، لا تتحركا قيد أنملة إن كان القمر ظاهراً ولا تتحدثا أبدا إلا للإجابة عن سؤال أوجهه " .

بدأ الثلاثة يتحسسون طريقهم أسفل المرتفع متنقلين بين شجرة وأخرى ولكن ليس لأكثر من بضع ياردات فى المرة الواحدة . لم يكن تشارلى يعرف قبل ذلك أنه يملك القدرة على الانتباه لأدق الأصوات غير المألوفة . استغرقوا أكثر من ساعة للوصول إلى قاع المنحدر حيث توقفوا جميعا . كل ما رأوه أمامهم هو مساحة شاسعة من الأراضى المفتوحة .

همس ترينثام : " إنها أرض شاسعة . هذا يعنى أننا يجب أن نقضى باقى يومنا منبطحين على الأرض " ، ثم هبط على الفور على الطين وقال : " سوف أتولى القيادة . ترامبر سوف تتبعنى وبريسكوت سوف يكون فى المؤخرة " .

همس تومى : " حسنا ، هذا يثبت على الأقل أنه يعرف إلى أين يسير ؛ لأنه يجب أن يكون قد درس تحديدا المكان الذى تطلق منه النيران ومن ستصيب على الأرجح فى البداية " .

وببطء ، بوصة ببوصة ، تقدم الرجال الثلاثة مسافة النصف ميل عبر الأرض الشاسعة نحو جبهة الحلفاء وهم يدسون وجوههم فى الطين كلما عاود القمر ظهوره من وراء الغمام .

وعلى الرغم من أن تشارلى كان يستطيع أن يرى ترينثام أمامه ؛ كان تومى صامتا فى تقدمه إلى حد كان يدفع تشارلى إلى الالتفات وراءه من وقت إلى آخر لكى يتأكد أنه مازال موجودا . كانت ابتسامته تكشف عن صف أسنان أبيض هو كل ما يحظى به مقابل الجهد الذى كان يبذله .

وعلى مدى الساعة الأولى غطى ثلاثتهم مسافة تقرب من مائة ياردة . وتمنى تشارلى لو كانت الليلة أكثر غياما . أخذت الطلقات النارية الطائشة تتبادل بين الفريقين من الخنادق مما أكد لهم وجوب مواصلة الزحف على الأرض . وجد تشارلى أنه لا يكف عن بصق الطين ووجد نفسه فى إحدى المرات وجها لوجه مع جندى ألمانى . لم يستطع أن يحرك ساكنا .

بوصة أخرى ، قدم أخرى وياردة أخرى ، واصل الثلاثة زحفهم فى الطين المبلل البارد عبر الأراضى التى لم تكن مملوكة لأحد . وفجأة سمع تشارلى صوت صرخة مدوية حادة خلفه . استدار فى غضب لكى يوبخ تومى ليجد فأراً فى حجم الأرنب ملقى بين ساقيه . كان تومى قد دس حربته فى بطنه مباشرة .

" أعتقد أنك أعجبته أيها العريف . ولا يمكن أن يكون بدافع الجنس مثلما حدث لـ " روز " فلابد أنه بدافع الطعام " .

غطى تشارلى فم صاحبه بكلتا يديه خشية أن يسمع الألمان ضحكاته .

تسلل القمر خارجا من وراء السحاب وأضاء الأرض الشاسعة ثانية . وثانية دس الرجال الثلاثة أنفسهم فى الطين وبقوا منتظرين إلى أن مرت سحابة ثانية سمحت لهم بالتقدم لبضع ياردات

أخرى . مرت ساعتان قبل أن ينجحوا في الوصول إلى محيط الأسلاك الشائكة التي كانت قد أصلحت للسماح بمرور الألمان .

وعندما وصلوا إلى الأسلاك الشائكة ، غير ترينثام وجهته وبدأ يزحف بطول الجانب الألماني من السور بحثا عن ثقب أو منفذ في السلك الفاصل بينهم وبين الشعور بالأمان . كان عليه أن يزحف بطول ثمانين ياردة أخرى ـ شعر تشارلى أنها ميل كامل ـ ثم عثر النقيب أخيراً على ثغرة ضئيلة نجح في الزحف خلالها . كانوا الآن قد أصبحوا على بعد خمسين ياردة فقط من أمان خطوطهم .

فوجئ تشارلى بأن النقيب قد تراجع وسمح له بالمرور أولا .

" اللعنة " هكذا قال تشارلى في نفسه بعد أن أشع القمر بنوره وأضاء الأرض وتركهم منبطحين في منتصف الطريق بلا حراك على بعد شارع واحد من أمان معسكراتهم . عندما اختفى ضوء القمر ثانية ، عاودوا زحفهم ثانية شيئاً فشيئاً ببطء ، وواصل تشارلى زحفه الشبيه بزحف السرطان وقد بدأ خوفه الآن من الرصاص الطائش من معسكره يفوق خوفه من رصاص العدو . وأخيراً ، نجح في تبين الأصوات ، إنها أصوات إنجليزية . ولم يكن يتخيل أنه سوف يرى هذه الخنادق ثانية .

صاح تومى بصوت كان يمكن أن يسمعه الألمان أنفسهم . وثانية دفن تشارلى رأسه في الطين .

" مَن هناك ؟ " ، وهكذا جاء صوت الضابط المسئول . وسمع تشارلى صوت البنادق وهي تصوب من الخنادق وكأن الحياة قد دبت في الرجال النائمين فجأة .

صاح تشارلى في نبرة حازمة : " إنه النقيب ترينثام والعريف ترامبر والمجند بريسكوت من سلاح الرماية " .

سأل الصوت : " كلمة السر ؟ " .

" يا إلهي ؛ ما هي كلمة السر ـــ ؟ " .

صاح ترينثام من الخلف : " ذات الرداء الأحمر " .

" تقدم وعرف نفسك " .

قال ترينثام : " ليتقدم بريسكوت أولا " . دفع تومى نفسه على ركبتيه وبدأ يزحف ببطء نحو الخندق الخاص به . سمع تشارلى صوت رصاصة جاءت من خلفه وبعدها بلحظه فزع لمشهد تومى وهو يتهاوى على معدته ويسقط في الطين بلا حراك .

نظر تشارلى ثانية في الضوء الخافت جهة ترينثام الذى قال : " إنهم الألمان الجبناء . ابق منكسًا وإلا فسوف تلقى نفس المصير " .

تجاهل تشارلى الأمر وأخذ يزحف بسرعة إلى الأمام إلى أن وصل إلى جسد صديقه الملقى على الأرض . وعندما وصل بجانبه ، لف إحدى ذراعيه حول كتف تومى وقال له : " لم يبق أمامنا سوى عشرين ياردة فقط لكي نصل " . قال تشارلى بصوت مرتفع وهو ينظر إلى الخنادق : " رجل مصاب " .

جاءه أمر ترينثام من الخلف : " بريسكوت ؛ لا تتحرك والقمر ظاهر " .

قال تشارلى وهو يحاول أن يتبين التعبير على وجه صديقه : " ما بك يا رفيقى ؟ " .

قال تومى : " لا أكذبك ، كنت أفضل من ذلك " .

قال ترينثام : " هدوء ، اصمتا " .

قال تومى بينما بدأت الدماء تسيل من فمه : " بالمناسبة ، إنها لم تكن رصاصة ألمانية . يجب أن تنال من هذا الوغد إن لم تتسن لى فرصة النيل منه بنفسى " .

قال تشارلى : " سوف تكون على ما يرام . لا شىء ولا أحد يستطيع أن يقتل تومى بريسكوت " .

بينما غطت سحابة سوداء كبيرة القمر ، هرعت مجموعة من الرجال بمن فيهم اثنان من رجال الصليب الأحمر حاملين نقالة نحوهم . وضعوا النقالة بجوار تومى ثم سحبوا جسده فوقها قبل أن يهرعوا عائدين إلى الخندق . وتلا ذلك وابل من الرصاص من الخطوط الألمانية .

وعندما وصلوا إلى أمان معسكرهم ، ألقى الممرض النقالة بلا اكتراث فوق الأرض . صاح تشارلى فيه قائلا : " انقله على الفور إلى معسكر الإغاثة ، بسرعة بالله عليك ، بسرعة " .

قال الممرض : " لا داعى لذلك أيها العريف . لقد مات " .

الفصل ٥

" مازلت فى انتظار تقريرك يا ترامبر " .

" أعلم أيها الضابط ، أعلم " .

" هل ثمة مشكلة " ، هكذا سأل ضابط الشرف وقد أدرك أن هناك مغزى ما فى قوله وأضاف : " ألا تستطيع أن تكتب ؟ "

" ليست هناك مشكلة " .

على مدى الساعة التالية ، أخذ تشارلى يدون أفكاره ببطء ثم يعيد كتابة القصة البسيطة التى تروى ما حدث فى ١٨ يوليو عام ١٩١٨ أثناء المعركة الثانية فى مارن .

قرأ تشارلى وأعاد قراءة روايته المجردة من أى طعم ، مدركا أنه بالرغم من أنه قد أشاد بشجاعة تومى أثناء المعركة لم يشر من قريب أو بعيد إلى فرار ترينثام من أرض المعركة . كانت الحقيقة الواضحة هى أنه لم يشهد بالفعل ما قام به ترينثام . قد يكون بالفعل قد شكل رأياً خاصاً فيما جرى ولكن الأمر بحاجة إلى دليل . أما

بالنسبة لمصرع تومى ؛ فما هو الدليل الذى يثبت أن الرصاصة الطائشة قد خرجت من بندقية النقيب ترينشام ؟ وحتى إن كان تومى محقا فى كلا الروايتين وحتى إن كان تشارلى يؤيده فى رواياته فسوف تبقى شهادته مضادة لشهادة ضابط ورجل نبيل يعتد بقوله .

الشىء الوحيد الذى حرص عليه تشارلى هو ألا يحظى ترينشام بأى تقدير لما جرى فى أرض المعركة ذلك اليوم ؛ إثر شهادته . وقع تشارلى فى نهاية الصفحة الثانية على تقريره قبل أن يسلمه إلى الضابط المسئول وقد اعتراه الشعور بالخيانة .

فى وقت لاحق من عصر ذلك اليوم سمح له ضابط الخدمة بساعة راحة لكى يوارى جسمان صديقه المجند بريسكوت . لعن تشارلى الرجال المقاتلين على كلا الجبهتين الذين يتحملون وزر هذه الحرب وهو يجثو بجوار رأس صديقه .

استمع تشارلى إلى الرجل الذى يقوم بالدفن وهو يقول : " من الرماد إلى الرماد ومن التراب إلى التراب " إلى أن عزفت الموسيقى الجنائزية النهائية ثانية . ثم سار الموكب إلى اليمين وبدأ يحفر قبر جندى آخر . لقد ضحى مئات الآلاف من الجنود بحياتهم فى مارن . ولم يعد تشارلى بالمرة يتقبل فكرة كون النصر يستحق كل هذا الثمن الفادح .

جلس معقوص الساقين عند قبر تومى غير مستشعر لمرور الوقت بينما كان ينحت كلمات عند رأس القبر وكانت هذه الكلمات تقول : " المجند تومى بريسكوت ".

عاد القمر كدأبه يضىء آلاف القبور الجديدة وأقسم تشارلى برب السماء أنه لن يترك ثأر أبيه أو تومى وسوف ينال من النقيب ترينشام .

سقط نائماً وسط زملائه . وانطلق بوق الاستيقاظ مع بزوغ أول خيوط الفجر وبعد نظرة أخيرة على قبر تومى عاد إلى فصيلته ؛ حيث علم أن العقيد سوف يخطب فى القوات فى الساعة صفر وتسعمائة .

وبعد ساعة ، وقف انتباه داخل مربع جمع من بقى من الجنود على قيد الحياة . أخبر العقيد هاميلتون رجاله أن رئيس الوزراء قد أطلق على معركة مارن الثانية اسم أعظم انتصار فى تاريخ الحرب . ووجد تشارلى نفسه عاجزا عن رفع صوته لمشاركة زملائه فى التهليل .

واصل العقيد حديث ونظارته الأحادية مثبتة بدقة فى مكانها قائلاً : " لقد كان يوم فخار ومجد لسلاح الرماية الملكية " . كانت القوات قد فازت بستة عشر نيشاناً أثناء المعركة . شعر شالى بعدم اكتراث أثناء تكريم الجنود وذكر الأعمال البطولية التى قاموا بها فى المعركة إلى أن سمع اسم الملازم آرثر هارفى الذى ـ كما ذكر العقيد ـ قاد قوات الفصيلة ١١ بطول الطريق إلى أن وصل إلى خنادق الألمان مما سمح للقوات بالتقدم حتى هناك واختراق خطوط العدو . وتقديرا لعمله البطولى فقد منح الوسام العسكرى .

وبعدها بلحظة سمع تشارلى العقيد وهو يذكر اسم النقيب جاى ترينشام . هذا الضابط المغوار ـ هكذا أكد العقيد للقوات ـ الذى واصل الهجوم بعد سقوط الملازم هارفى وقتل العديد من الجنود الألمان قبل أن يصل إلى مخابئ العدو حيث قضى على وحدة كاملة بمفرده . وبعد أن اخترق خطوط العدو واصل مطاردته لاثنين من الألمان بالقرب من الغابة . ونجح فى قتل اثنين من الجنود الألمان قبل أن ينقذ اثنين من جنودنا كانا قد سقطا فى قبضة الألمان . ثم قادهما

بعد ذلك عائدا إلى خنادق الحلفاء . ومقابل شجاعته الفائقة ، قررنا منح النقيب ترينثام الوسام العسكرى .

تقدم ترينثام إلى الأمام بينما أخذ الجنود يهللون عندما استخرج العقيد وساماً فضياً من علبة جلدية ثم وضع النيشان على صدر النقيب .

تلا ذلك قراءة للأعمال البطولية التى قام بها عقيد وثلاثة رقباء وعريفان وأربعة مجندين وذلك على التوالى . ومن بينهم جميعا لم يتقدم سوى شخص واحد لكى يحصل على نيشانه .

واصل العقيد حديثه : " من بين من لا يستطيعون أن يكونوا بيننا الآن ، هناك شاب سار خلف الملازم هارفى إلى أن وصل إلى خنادق الأعداء ثم قتل أربعة أو ربما خمسة جنود ألمان قبل أن يطارد ويقتل ضابطاً ألمانياً آخر وأخيرا قتل بشكل مأساوى برصاصة طائشة على بعد ياردات قليلة من خنادقنا " ، وثانية أخذ الجمع يهتف ويهلل .

بعدها بلحظات صرف الجمع وبينما عاد الجميع إلى معسكراتهم سار تشارلى رويداً عائداً إلى خلف الخطوط إلى أن وصل إلى المدافن الجماعية .

جثا تشارلى بجوار القبر الذى كان يعرفه جيداً ووقف عند رأس القبر .

ثم سحب السكين الذىكان يتدلى من حزامه ، وبجوار اسم " تومى بريسكوت " حفر أحرف كلمات " صاحب السمو " .

وبعدها بأسبوعين ، أمر ألف رجل بألف ساق وألف ذراع وألف عين تقاسموها فيما بينهم بالعودة إلى الوطن وأمر الرقيب تشارلى

ترامبر من سلاح الرماية الملكية بمصاحبتهم ، ربما لأنه لم يسبق من قبل أن أدى رجل ثلاث مهام متتالية على خطوط العدو .

كان ابتهاجهم وسعادتهم لأنهم قد بقوا على قيد الحياة قد ضاعف من شعور تشارلى بالذنب ، فإنه بعد كل هذا لم يفقد إلا إصبعاً واحداً . فى رحلة العودة عن طريق البر والبحر ثم البر ، ساعد الرجال على ارتداء ملابسهم والاغتسال وتناول طعامهم وقيادتهم ومساعدتهم بدون كلل أو شكوى .

وفى دوفر استقبلتهم الجماهير على رصيف الميناء بالتهليل والترحيب على بطولاتهم . كانت القطارات تقف على أهبة الاستعداد لنقلهم إلى مختلف أرجاء البلاد لكى يتذكروا ما بقى لهم من حياتهم لحظات التكريم والترحيب هذه بل وحتى لحظات المجد باستثناء تشارلى . كانت الأوراق التى يحملها تقضى بوجوب سفره إلى إيدنبرج للمساعدة فى تدريب المجموعة المستجدة من المجندين المزمع إرسالهم إلى جبهة القتال .

وفى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩١٨ فى الساعة الحادية عشرة ومائة ، توقفت رحى الحرب بين الفريقين المتناحرين ، ووقفت الأمة فى امتنان وشكر فى صمت لثلاث دقائق عندما عقدت الهدنة فى إحدى عربات القطار فى غابة كومبيان . وعندما سمع تشارلى نبأ الانتصار كان يدرب بعض المستجدين على التصويب فى إيدنبرج . وقد عجز بعض المتدربين عن إخفاء استيائهم وخيبة أملهم لأنهم فقدوا فرصة مواجهة العدو .

كانت الحرب قد انتهت والامبراطورية قد انتصرت ، أو هكذا قرر السياسيون أن يقدموا نتيجة المباراة الدائرة بين الإنجليز والألمان .

كتب تشارلى فى أحد خطاباته لأخته سالى : " أكثر من تسعة ملايين رجل كانوا قد ماتوا فى سبيل الوطن قبل أن يصلوا حتى إلى طور الشباب . ما الذى جناه كلا الجانبين من وراء هذه المذبحة ؟ " .

كتبت سال ترد على خطاب أخيها وتخبره بكم ما تشعر به من امتنان لأنه كان قد بقى على قيد الحياة ، وواصلت خطابها مخبرة إياه بأنها قد خطبت لطيار من كندا . وكتبت تقول : " قررنا أن نتزوج خلال الأسابيع القليلة المقبلة وسوف أسافر لأعيش مع أهله فى تورنتو . وفر المرة التالية التى سوف تتلقى فيها خطابا منى ، سوف يكون من الجزء المقابل من العالم .

جريس مازالت فى فرنسا ولكن من المتوقع أن تعود إلى مستشفى لندن مع مستهل العام الجديد . لقد أصبحت ممرضة مسئولة عن جناح كامل . أظن أنك قد علمت أن عريفها ويلزى الجنسية قد أصيب بالتهاب شعبى وتوفى بعد عقد الهدنة بأيام قليلة .

اختفت كيتى من على وجه الأرض ثم ظهرت ثانية بدون سابق إنذار فى وايت شابيل مع رجل فى سيارة ؛ كان من الواضح أنها غير مرتبطة به ولكنها بدت سعيدة كل السعادة بحياتها .

وعجز تشارلى عن فهم الملحوظة التى دونتها له أخته فى نهاية خطابها وكانت تقول : " أين ستعيش عندما تعود إلى الجانب الشرقى ؟ "

* * *

أعفى الرقيب تشارلى ترامبر من الخدمة فى العشرين من فبراير عام ١٩١٩ ؛ كان من بين أول من صرفوا من الخدمة العسكرية ؛ أخيرا جاء الإصبع المفقود بمكسب . ثنى زيه العسكرى ووضع خوذته العسكرية فوقها والحذاء العالى بجانبه وسار عبر أرض الملعب وسلمها للقائد المسئول .

" لقد عرفتك بالكاد فى سترتك القديمة وقبعتك . لم تعد تليق بك ، أليس كذلك ؟ لابد أنك قد كبرت خلال فترة خدمتك فى سلاح الرماية ؟ " .

نظر تشارلى إلى أسفل لكى يتحقق من طول بنطاله ؛ لقد ارتفع بالفعل قدر بوصة واضحة عن رباط حذائه .

" لا بد أننى قد كبرت خلال فترة خدمتى مع سلاح الرماية " ، كرر تشارلى كل كلمة من كلمات العبارة فى أسى .

" سوف تسعد عائلتك بلا شك برؤيتك ثانية فى الحياة المدنية " .

قال تشارلى وهو يستدير راحلا : " ما بقى منها " . كانت آخر مهمة هى أن يتوجه إلى ضابط الخزينة لكى يتسلم آخر دفعة مالية وإذن السفر قبل أن يتخلى عن الشلن الملكى .

قال الرقيب الأول بعد أن استكمل تشارلى ما افترض أنها كانت آخر مهمة عسكرية له : " ترامبر ضابط الخدمة يريد أن يحادثك " .

إن الملازم ميكبيس والملازم هارفى سوف يبقيان دائما الضابطين اللذين خدم تحت إمرتهما ، هكذا فكر تشارلى وهو يشق طريقه عائدا فوق أرض الملعب فى اتجاه مكتب القيادة . بعض المستجدين من

الشباب ممن لم يواجهوا العدو يملكون الآن من القدرة للمحاولة واتخاذ أماكنهم .

كان تشارلى على وشك تحية الملازم عندما تذكر أنه لم يعد يرتدى الزى العسكرى فاكتفى برفع قبعته .

" كنت تريد أن ترانى يا سيدى ؟ " .

" أجل يا ترامبر ، إنه أمر شخصى " . ولمس الضابط الشاب صندوقاً كبيراً كان موضوعا فوق مكتبه . لم يتبين تشارلى تحديدا محتويات الصندوق .

" يبدو يا ترامبر أن صديقك المجند بريسكوت كان قد أوصى لك بكل ما يملك " .

لم يتمكن تشارلى من إخفاء دهشته عندما دفع له الضابط بالصندوق عبر المكتب .

" من فضلك تفقد محتويات الصندوق ووقع على الاستلام " .

ثم وضعت أمامه وثيقة أخرى لكى يوقع عليها . وفوق اسم المجند توماس بريسكوت المدون بالآلة الكاتبة كانت هناك فقرة مكتوبة بخط يدوى كبير . وكان حرف " إكس " قد خط على عجل ، بعد شهادة الرقيب أول فيلبوت على الوصية .

بدأ تشارلى يستخرج محتويات الصندوق الواحد تلو الآخر . آلة الهرمونيكا الخاصة بـ " تومى " بعد أن صارت متهالكة وصدئة ، وسبعة جنيهات وأحد عشر شلناً وستة بنسات ، هى متأخرات راتبه وأخيرا خوذة الضابط الألمانى . ثم تسلم تشارلى صندوقاً جلدياً صغيراً وفتح غطاءه ليجد أمامه نيشاناً عسكرياً منح لـ " تومى " مقابل " شجاعته فى أرض المعركة " ، هكذا طبعت الكلمات

ببساطة على ظهر النيشان . حرك النيشان وقبض عليه فى راحة يده .

قال الضابط : " لابد أن المجند بريسكوت كان بطلاً شجاعاً وأميناً وجيداً جداً وكل هذه الأشياء الطيبة " .

أجابه تشارلى مؤيدا : " وكل هذه الأشياء الطيبة " .

" لقد كان أيضاً رجلاً متدينا " .

" كلا ، لا يمكن أن أدعى ذلك ." هكذا قال تشارلى وهو يجيز لنفسه ابتسامة رقيقة وأضاف : " ولكن لماذا تسأل ؟ " .

قال الملازم وهو يشير ثانية إلى الصندوق : " الصورة " . مال تشارلى نحو الصندوق وأخذ يحدق فى عدم تصديق لصورة شخصية دينية . كان حجم الصورة يصل إلى ثمانى بوصات محاطة بإطار أسود من خشب الساج . استخرج الصورة وحملها بين يديه .

أخذ يحدق فى الألوان الحمراء والزرقاء والبنفسجية الغامقة السائدة فى الوجه المركزى فى الصورة ، واثقا من أنه قد شاهد هذه الصورة فى مكان ما من قبل . وقد انقضت عدة شهور بعدها قبل أن يستخرج الصورة وباقى مقتنيات تومى من الصندوق لكى يحتفظ بها فى مكان آخر .

أعاد تشارلى قبعته على رأسه واستدار لكى يرحل ، ثم وضع الصندوق تحت ذراعه وحمل اللفافة البنية الورقية تحت ذراعه الآخر ووضع تذكرته إلى لندن فى جيبه العلوى .

بينما سار خارج الثكنات ليشق طريقه إلى المحطة أخذ يسأل نفسه كم من الوقت سوف يستغرق إلى أن يتمكن من السير ثانية بالسرعة الطبيعية ، وعندما وصل إلى غرفة الحراس توقف واستدار حوله لكى يلقى نظرة أخيرة على أرض الملعب . كانت هناك

مجموعة من المستجدين تمارس التدريب بالخطوة العسكرية تحت قيادة مدرب جديد كان يتحدث بنفس نبرة تصميم الملازم الراحل . كان الرقيب فيلبوت حريصا كدأبه على عدم استقرار أى قطعة ثلج على أرض الملعب .

أدار تشارلى ظهره لأرض الملعب وبدأ رحلته إلى لندن . كان فى التاسعة عشرة من عمره ؛ وكان قد تأهل بما يكفى للحصول على شلن الملك ولكن طوله الآن قد ازداد قدر بوصتين كما أنه كان قد بدأ يحلق فضلا عن أنه أيضا اقترب من مصاحبة النساء .

كان قد قام بواجبه وشعر على الأقل أنه يتفق مع رئيس الوزراء فى أمر واحد . كان بالطبع قد شارك فى الحرب لكى يضع حدا لكل الحروب .

كان قطار النوم فى إيدنبرج قد امتلأ عن آخره بالرجال فى زيهم العسكرى وقد أخذوا ينظرون إلى تشارلى فى زيه المدنى بعين التشكك باعتباره رجلا لم يخدم وطنه أو الأسوأ بأنه أحد المناهضين للحرب .

جاءه صوت عريف همس عاليا من الجانب البعيد لعربة القطار : " سوف يستدعونه بأسرع ما يكون " . ابتسم تشارلى ولم يجب .

نام نوما متقطعا ؛ وقد راقت له فكرة أنه ربما وجد سهولة أكبر فى النوم فى الخنادق الطينية الرطبة التى تعج بالفئران والصراصير عن النوم فى القطار . مع حلول موعد توقف القطار فى محطة كينج كروس فى السابعة من صباح اليوم التالى ؛ كان قد أصيب بخشونة

فى عنقه وآلام فى ظهره . مدد ظهره قبل أن يلتقط لفافته الورقية البنية وصندوق مقتنيات تومى .

فى المحطة اشترى شطيرة وكوبا من الشاى . وقد اندهش عندما طلبت منه الفتاة ثلاثة بنسات . " بنسان فقط لكل من يرتدى الزى العسكرى " ، هكذا أخبرته باحتقار واضح ، احتسى تشارلى الشاى وغادر المحطة بدون أن يتفوه بكلمة واحدة .

كانت الشوارع أكثر انشغالا واكتظاظا بالمارة وأكثر هوسا عما كانت عليه قبل أن يسافر ولكنه مع ذلك نجح فى القفز بثقة فى ترام كان كتب على مقدمته كلمة " المدينة " . جلس وحيدا فوق أريكة خشبية ذات مسند وأخذ يسأل نفسه عن التغييرات التى يمكن أن يواجه بها عند عودته إلى الجانب الشرقى . هل ازدهر محله ، أم بلى ، هل بيع أم أفلس ؟ ترى كيف كان مصير أكبر عربة نقالة فى العالم ؟

قفز من الترام فى بولترى وقرر أن يقطع الميل المتبقى سيراً على الأقدام . كانت سرعته تزداد مع تغيير اللهجات ، كان الرجال الوجهاء فى معاطفهم السوداء الطويلة وقائدو السيادرات يفسحون الطريق لرجال الأعمال فى ستراتهم السوداء ، يليهم الغوغاء فى ثيابهم الرثة وقبعاتهم ، وهكذا سار تشارلى إلى أن وصل أخيراً إلى الجانب الشرقى حيث وجد أنه حتى الشباب تحت الثلاثين قد أصبحوا يستنكفون النقل بالمراكب .

مع اقتراب تشارلى من شارع وايت شابيل ، توقف وأخذ يتأمل النشاط الصاخب الذى كان يحيط به من كل جانب . منافذ بيع اللحوم وعربات الخضر وصوانى الفطائر وأوعية الشاى الضخمة تسير فى كل اتجاه .

ترى ما الذى ألم بالمخبز والمكان الذى كان يمارس فيه جده تجارته ؟ هل يمكن أن يكون كلاهما لايزال موجوداً وفى حالة جيدة ؟ نكس قبعته فوق مقدمة رأسه وانسل فى هدوء داخل السوق .

عندما وصل إلى أحد أركان وايت شابيل لم يكن واثقا من أنه قد وصل بالفعل إلى المكان الصحيح . لم يكن المخبز موجودا وإنما استبدل بمكان مخصص لاستئجار غرف الفنادق كان يعمل تحت اسم جاكوب كوين . اقترب تشارلى من النافذة حتى دس أنفه قبالتها ولكنه لم يتعرف على أى شخص يعمل بداخله . ثم سار ليتفقد البقعة التى ظلت " عربة تشارلى ترامبر ، التاجر الأمين " واقفة فيها على مدى قرن كامل ، ليجد عصبة من الشباب يستدفئون عندها حول نيران الفحم حيث كان رجل يقوم ببيع قرطاس أبو فروة مقابل بنس واحد .

اقترب تشارلى منه ومد يده ببنس وحصل مقابله على قرطاس بدون أن يلقى أحد عليه نظرة ثانية . ربما كانت بيكى قد باعت كل شىء بناءً على طلبه ، هكذا فكر . وبعدها غادر السوق وواصل سيره فى شارع وايت شابيل أملا فى العثور على إحدى أخواته والحصول على قسط من الراحة وللملمة شتات فكره .

عندما وصل خارج عقار ١١٢ ، سعد عندما وجد الباب قد أعيد طلائه . ليباركك الله يا سال . دفع الباب وفتحه وسار مباشرة نحو الصالون عندما وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل بدين ، وقد حلق نصف حلاقة مرتديا سترة وبنطالاً كان يحمل فيه ماكينة حلاقة .

سأل الرجل وهو يحمل ماكينة الحلاقة فى حزم : " ما اسمك إذن ؟ " .

قال تشارلى : " هذا هو بيتى " .

" حقا ؟ لقد اشتريت هذا المنزل منذ ستة أشهر " .

" ولكن ــ " .

قال الرجل : " لا مجال لكلمة لكن " ، وبدون إنذار لكم تشارلى فى صدره لكمة أعادته ثانية إلى الشارع . صفع الباب وراءه وسمع تشارلى صوت المفتاح وهو يدور فى الباب . سار غير واثق مما يجب عليه عمله ، وبدأ يتمنى لو لم يكن قد عاد أبدا إلى هذا المكان .

قالت سيدة من خلفه : " مرحبا يا تشارلى ، ألست تشارلى ؟ إذا أنت لم تمت كما يزعمون ؟ " .

قال تشارلى : " أمت ؟ " .

أجابت السيدة شوروكز : " نعم . لقد أخبرتنا كيتى أنك قد قتلت فى الجبهة الغربية مما دفعها إلى بيع العقار ١١٢ . كان هذا منذ عدة شهور مضت ، لم أرها منذ ذلك الحين . ألم يخبرك أحد بذلك ؟ " .

" كلا ، لم يخبرنى أحد بذلك " هكذا قال تشارلى وقد سعد لأنه عثر على الأقل على شخص تعرف عليه . وأخذ يحدق فى جارته القديمة وهو يحاول أن يتبين سر تغيرها .

" ما رأيك بتناول الغداء معى ؟ أنت تتضور جوعاً على ما أرى " .

" أشكرك يا سيدة شوروكز " .

" لقد اشتريت لتوى وجبة من السمك ورقائق البطاطس من محل دانكلى . مقابل ثلاثة بنسات ، أما زلت تذكر طعمها الشهى . إنها تحتوى على سمكة شهية مطهية فى الخل وحقيبة ممتلئة برقائق البطاطس " .

سار تشارلى خلف السيدة شوروكز داخل العقار ١١٠ وجلس معها فى مطبخها الصغير وألقى بنفسه من شده الإنهاك فوق الكرسى الخشبى .

" ألا تعرفين ما حدث لعربتى الخشبية أو مخبز دان سالون ؟ " .

" لقد باعت الآنسة ريبيكا الصغيرة كليهما منذ ما يقرب من تسعة أشهر كاملة ، لم يكن ذلك بعد رحيلك بفترة طويلة إلى الجبهة على ما أذكر " . ثم وضعت السيدة شوروكز حقيبة الرقائق والسمك على قطعة ورق فى منتصف المائدة وأضافت : " لكى أصدقك القول ، لقد أخبرتنا كيتى أن اسمك كان مدونا فى قائمة القتلى فى مارن ومع حلول الوقت الذى اكتشفنا فيه الحقيقة كان الوقت قد تأخر كثيرا " .

قال تشارلى : " كان يمكن أن يكون الأمر كذلك ، لم يعد هناك شىء أعود من أجله " .

قالت السيدة شوروكز وهى تفتح زجاجة شراب وتصب لـ " تشارلى " كأسا وتمنحه إياه : " لا أعرف ، لقد سمعت أن هناك الكثير من العربات المطروحة للبيع الآن ولا يزال البعض منها يعرض بسعر معقول " .

قال تشارلى : " سعيد لسماع ذلك ، ولكن أولاً يجب أن أتصل ببوش بوركى لأننى لم أعد أملك الكثير من رأس المال " . ثم سكت لكى يتناول أول قطعة من السمك وأضاف : " هل لديك فكرة أين يمكن أن أجدها ؟ " .

" لم أعد أراها هنا يا تشارلى . لقد كانت دائما متعالية بعض الشىء وغير عابئة بأمثالنا ولكننى سمعت أن كيتى تذهب للقائها فى جامعة لندن " .

" جامعة لندن ؟ حسنا ، إنها على وشك اكتشاف أن تشارلى ترامبر مازال حيا مهما بلغ تعاليها وترفعها . ويجدر بها أن يكون لديها قصة مقنعة تفسر بها ما حدث لحصتى من المال " . ثم نهض من المائدة وجمع مقتنياته وترك آخر قطعتين من البطاطس للسيدة شوروكز .

" هل أفتح لك زجاجة أخرى يا تشارلى ؟ " .

" لا يمكن أن أتوقف الآن يا سيدة شوروكز . ولكن شكراً على الشراب والطعام وأبلغى السيد شوروكز تحياتى " .

" بيرت ؟ ألم تسمع بما جرى له ؟ لقد توفى بنوبة قلبية منذ أكثر من ستة أشهر ، هذا الرجل المسكين . إننى أفتقده بشدة " . وعندها أدرك تشارلى ما تغير فى جارته القديمة ، ولم تكن عيناها محاطتين بالسواد أو الكدمات .

غادر المنزل وقرر أن يتوجه إلى جامعة لندن ليرى إن كان بوسعه أن يقتفى أثر ريبيكا سالون . هل بالفعل ـ كما طلب منها إن ثبتت وفاته ـ قسمت حصته بين أخواته الثلاث ـ وقد أصبحت سال الآن فى كندا وجريس فى مكان ما فى فرنسا وكيتى ، يعلم الله ، أين هى . فى هذه الحالة لن يكون معه رأسمال لكى يبدأ من جديد باستثناء الراتب المتأخر المستحق لـ " تومى " وبضعة جنيهات نجح فى ادخارها لنفسه . طلب من أول رجل شرطة قابله أن يصف له الطريق إلى جامعة لندن فطلب منه أن يسير فى اتجاه الشاطئ . سار لنصف ميل آخر إلى أنْ وصل إلى مدخل مقنطر كان محفور فوقه

عبارة " جامعة الملك " . سار من البوابة ثم طرق بابا مكتوب عليه " استعلامات " وسأل الرجل الذى يجلس خلف المكتب عن ريبيكا سالمون وإن كان اسمها مدونا فى الجامعة . راجع الرجل قائمة ما ثم أجاب قائلا : " ليس هنا ولكن يمكن أن تسأل عن اسمها فى سجلات الجامعة فى شارع ماليه " .

بعد أن أنفق بنساً آخر لركوب الترام ، بدأ تشارلى يتساءل أين سيقضى ليلته .

قال الرجل الذى كان يقف خلف مكتب السجلات مرتديا زي العريف : " ريبيكا سالمون . إننى أعرف هذا الاسم " . ثم راجع اسمها فى دليل طويل استخرجه من مكتبه وقال : " أجل نعم ، لقد وجدتها . جامعة بيدفورد ، إنها تدرس تاريخ الفن " . قالها وهو عاجز عن إخفاء نبرة الاستهزاء فى صوته .

سأل تشارلى : " أليس لها عنوان أيها العريف ؟ " .

قال الرجل الأكبر سنا : " أنا لا أعمل هنا فى خدمتك فلا تنادينى بكلمة عريف . يجدر بك أولا أن تلتحق بالجيش " .

شعر تشارلى أنه قد أخذ كفايته من الإهانة ليوم واحد وفجأة تغيرت لهجته وباغت الرجل قائلا : " الرقيب ترامبر ، ٧٣١٢٠٨٧ سوف أناديك بالعريف وأنت ستنادينى بالرقيب . هل هذا مفهوم ؟ " .

قال العريف وقد ركز كل انتباهه : " أجل أيها الرقيب " .

" الآن ما هو عنوانها ؟ " .

" إنها تسكن فى العقار ٩٧ فى حدائق شيلسيا أيها الرقيب " .

" شكرا لك " هكذا قال تشارلى وغادر تاركاً الرجل وهو يحدق فيه فى ذهول بينما بدأ هو رحلة جديدة عبر لندن .

نزل تشارلى الذى كان الإجهاد قد بلغ منه مبلغه من الترام فى أحد أركان حدائق شيلسيا بعد الرابعة بقليل . هل وصلت بيكى إلى هنا قبله ـ أخذ يتساءل ـ حتى إن كانت فقط تسكن فى إحدى العقارات .

سار ببطء فى الطريق المألوف وهو يراقب بإعجاب كل المحلات التى حلم فى يوم ما بامتلاك أحدها . رقم ١٣١ ؛ محل تحف زاخر بالأثاث المصنوع من خشب المهوجنى والموائد والكراسى المطلية بدقة . رقم ١٣٣ ، ملابس النساء والجوارب ، كانت الملابس معروضة فى نافذة المحل وكان تشارلى يشعر دائما أنه لا يصح لرجل أن ينظر إليها . وفى العقار رقم ١٣٥ كانت اللحوم معلقة والرائحة شهية إلى الحد الذى أنسى تشارلى أنهم يعانون من نقص فى الموارد الغذائية . ثم استقرت عيناه على محل يحمل اسم " السيد سالينى " افتتح فى العقار ١٣٩ . أخذ تشارلى يتساءل ما إذا كان الطعام الإيطالى قد وصل بالفعل إلى لندن .

وكان العقار ١٤١ يضم متجراً قديماً بالياً وعتيقاً خالياً من الزبائن تماما ، ثم العقار ١٤٣ ، كان محلاً لتفصيل الثياب ، وكانت البدل والمعاطف والقمصان والياقات ـ كما كانت تؤكد الرسالة المدونة عبر نافذة المتجر ـ لا يمكن أن تشترى إلا من قبل رجال بارزين . أما العقار ١٤٥ ؛ فكان مخبزا تفوح منه رائحة الخبز الشهى التى تثير اللعاب . أخذ يتأمل الشارع من كل جوانبه فى ارتياب ويشاهد النساء المتأنقات اللاتى يمارسن حياتهن اليومية كما لو كانت الحرب العالمية لم تقع فى الأساس . يبدو أن أحداً لم يخبرهم بالمخصصات المعيشية للجندى .

توقف تشارلى عند العقار ١٤٧ فى حدائق شيلسيا ، وأخذ يتأمل فى انبهار صفوف الخضر والفاكهة الطازجة التى جذبت عينيه المجهدتين والتى كان سيفخر ببيعها . كانت هناك فتاتان ترتديان مريلتين خضراوين وشاب وسيم يقومون بخدمة زبون كان قد التقط عنقوداً من العنب .

عاد تشارلى خطوة إلى الوراء وأخذ يحدق فى الاسم المدون على المتجر . وإذا بأحرف تتلألأ باللونين الأزرق والذهبى تدون اسم " تشارلى ترامبر ، التاجر الأمين ، تأسس عام ١٨٢٣ " .

بيكى

١٩١٨ - ١٩٢٠

الفصل

٦

قال : " من عام ١٤٨٠ حتى عام ١٥٣٢ " .

راجعت ملاحظاتي لكى أتأكد من صحة التواريخ وقد تيقنت أننى أجد صعوبة فى التركيز . كانت آخر محاضرة فى اليوم وكان كل ما يشغل فكرى هو العودة إلى حدائق شيلسيا .

كان الفنان موضوع المحاضرة فى ذلك اليوم هو برناردينو لوينى . كنت قد قررت بالفعل أن يتناول موضوع رسالتى حياة هذا الفنان الذى لم يحظ بالتقدير اللائق ؛ إنه من ميلانو ؛ ميلانو ... إنه سبب آخر يدفعنى للشعور بالامتنان لانتهاء الحرب أخيرا . الآن يمكننى أن أخطط للسفر إلى روما وفلورنسا وفينسيا وأيضا ميلانو لدراسة أعمال لوينى على أرض الواقع . هناك أيضا مايكل أنجلو وليوناردو دافنشى وبيلينى وكارافاكيو وبيرينى ؛ نصف الثروة الفنية للعالم كله فى بلد واحد فى الوقت الذى لم يتسن لى فيه تخطى حدود مملكة فيكتوريا وألبرت .

فى الرابعة والنصف دق الجرس إيذانا بانتهاء محاضرات اليوم الدراسى . أغلقت كتبى وأخذت أراقب البروفيسور تيلسى وهو يتوجه نحو الباب . شعرت ببعض الأسف على الرجل العجوز . كان قد أعيد للتدريس بعد سن التقاعد لأن الكثير من أساتذة التدريس من الشباب كانوا قد تركوا الجامعة للمشاركة فى جبهة القتال . لقد كانت وفاة ماثيو ميكبيس ـ الرجل الذى كان من المفترض أن يحاضرنا اليوم ـ " أحد أبرز طلبة جيله " ، كما دأب أن يقول لنا البروفيسور ـ خسارة فادحة للقسم والجامعة ككل . وقد كنت أوافقه الرأى ؛ كان ميكبيس من بين الرجال القلائل فى إنجلترا الذين يملكون معرفة ودراية واسعة مشهوداً بها بـ " لوينى " . كنت قد حضرت ثلاث محاضرات له فقط قبل أن يلتحق بالجيش ... وكان الأسى الذى شعرت به جراء مصرع الرجل برصاص الألمان وسقوطه صريعا بين الأسلاك الشائكة فى مكان ما فى وسط فرنسا ، لا يفارقنى أبدا .

كنت فى عامى الأول فى بيدفورد . بدا لى أنه لم يكن هناك وقت كاف أبدا للإلمام بكل ما درسناه ؛ كنت بحاجة ماسة إلى تشارلى ؛ كنت أريده أن يعود ويتسلم إدارة المتجر بدلا منى . كنت قد راسلته وهو فى إيدنبرج بينما كان فى بلجيكا ، ثم راسلته فى بلجيكا بينما ذهب إلى فرنسا ، فراسلته فى فرنسا فى نفس الوقت الذى عاد فيه إلى إيدنبرج . ويبدو أن الخطابات الملكية لم تكن تصل إليه أبدا . والآن لم أكن أريد أن يعرف تشارلى ما كنت عازمة عليه قبل أن أشهد رد فعله بنفسى .

كان جاكوب كوين قد وعدنى بإرسال تشارلى إلى شيلسيا فور ظهوره ثانية فى شارع وايت شابيل . ولم أكن أتوقع أن يحدث ذلك سريعا .

حملت كتبى ووضعتها ثانية داخل حقيبتى المدرسية القديمة ـ تلك الحقيبة التى كان أبى قد اشتراها لى عندما فزت بأول منحة دراسية مفتوحة لى فى سانت بول . كانت الحروف " ر ؛ س " التى ترمز إلى اسمى والتى كان قد طبعها بمنتهى الفخر على الحقيبة قد خبت الآن كما أن المسك الجلدى للحقيبة كان على وشك التمزق مما دفعنى مؤخرا إلى حملها تحت ذراعى . ولم يكن أبى ليوافق أبدا على شراء حقيبة جديدة طالما بقى فى القديمة أى بصيص من الأمل فى الاستخدام ولو ليوم واحد .

كم كان أبى حازما معى دائما حتى إنه لم يتوان عن معاقبتى بالضرب فى حادثين . الأول عندما أخذت بعض الكعك بدون أن أخبره فى الوقت الذى لم يكن يمانع فيه أبداً من منحى ما أريد عندما أطلب ؛ والمرة الثانية عندما قلت كلمة " اللعنة "عندما قطعت إصبعى وأنا أقشر التفاحة . وبالرغم من أننى لم أنشأ على مبادئ أبى ـ حيث لم تكن أمى لتوافق على هذا ـ كان أبى يغرس فىّ كل المبادئ التى تربى هو عليها ولم يكن ليتهاون أبدا فيما كان يطلق عليه من آن إلى آخر " سلوك غير مقبول " .

ولم أعرف إلا بعدها بسنوات بالقيود التى قبلها أبى على نفسه عندما تقدم للزواج من أمى التى كانت تدين بديانة غير ديانته . كان يعشقها ولم يشك يوما فى وجودى من كونه كان يحضر المناسبات الدينية بمفرده . إن " الزواج المختلط " يبدو اليوم تعبيرا

باليا ولكن لابد أنه كان فى مطلع القرن تضحية كبيرة من كلا الجانبين .

وقد أحببت مدرسة سانت بول من اليوم الأول الذى عبرت فيه بوابتها ؛ ربما لأنه لم يثننى أحد فيها عن بذل قصارى جهدى فى العمل . كان الشىء الوحيد الذى لم يكن يروق لى هو إطلاق اسم "بوركى " علىَّ . وكانت هناك فتاة تجلس أمامى فى الفصل - دافنى هركورت براون - هى التى شرحت لى فيما بعد المعنى المزدوج لهذا الاسم . كانت دافنى فتاة شقراء ذات شعر مموج وكانت تعرف باسم "سنوتى " ، وبالرغم من أننا لم نكتسب صداقتنا بشكل طبيعى ، فإن شغفنا بكعك القشطة كان هو ما جمعنا وخاصة عندما اكتشفت أننى أملك مددا لا ينفد من الكعك . كانت دافنى على أتم الاستعداد لتسديد ثمن الكعك لى ولكننى لم أفكر يوماً فى ذلك لأننى كنت أريد أن يعرف كل الزملاء فى الفصل أننا أصدقاء . وفى إحدى المرات دعتنى لزيارتها فى شيلسيا ولكننى لم أقبل دعوتها لأننى كنت أدرك أننى يجب أن أرد الدعوة بدعوتها إلى منزل فى وايت شابيل .

كانت دافنى هى من قدمت لى أول كتاب فى الفن ؛ وكان الكتاب يحمل اسم "Treasures of Italy" ؛ وكان ذلك فى مقابل بضع رقائق من الكريمة قدمتها لها . ومنذ ذلك اليوم أدركت أننى قابلت المادة التى أريد دراستها لباقى حياتى . لم أسأل دافنى يوما ولكننى بقيت دائما متحيرة أسأل نفسى عن سبب تمزق الصفحة الأولى من الكتاب .

كانت دافنى تنتمى إلى أعرق عائلات لندن ؛ حيث كانت تنتمى بكل تأكيد - حسب علمى - لما يسمى بالطبقة الراقية . لذا بمجرد

تخرجى من مدرسة سانت بول افترضت أننا لن نتقابل ثانية أبدا . لم يكن ميدان لاوندز مكان عيش يناسب أمثالى . ولكن لكى أكون منصفة لم يكن الجانب الشرقى أيضاً مكاناً مناسباً لى طالما بقى يضم أشخاصاً أمثال عائلة ترامبر وشورروكز .

لقد كنت أوافق أبى الرأى تماما فى كل ما يخص عائلة ترامبر . لقد كانت مارى ترامبر - وفق كل الروايات - قديسة . وكان جورج ترامبر صاحب سلوك غير مقبول ولم يكن فى نفس مستوى أبيه الذى كان يصفه أبى دائما بأنه "رجل نبيل ". وكان تشارلى الصغير - الذى كنت أرى أنا شخصياً أنه لا يجيد صنع شىء - رغم كل شىء " صاحب مستقبل " كما كان يصفه أبى . لابد أن السحر كان قد أسقط جيلا من العائلة ؛ كما كان يقول أبى .

وكان أبى يقول : " إن الفتى ليس سيئاً بالنسبة لمستواه ، سوف يدير محله فى يوم ما وربما يدير أكثر من محل واحد ؛ صدقينى " . لم يشغل كلامه تفكيرى كثيرا إلى أن توفى أبى ولم أجد من أستعين به .

كان أبى يشكو دائماً من أنه لا يمكن أن يترك مساعديه فى المخبز لأكثر من ساعة بمفردهما لأنهما كان لا يملكان القدرة على إدارة المحل . لم يكن أى منهما قادرا على تحمل المسئولية ؛ هكذا كان يشكو دائما . " لا يمكن أن أتصور ما يمكن أن يؤول إليه المخبز إن اضطررت للبقاء فى المنزل ليوم واحد " .

عندما قرأ رابى كليسكتين الكلمات الأخير من الطقوس الجنائزية عليه ؛ بقيت هذه الكلمات ترن فى أذنى . كانت أمى وقتها مازالت فاقدة الوعى فى المستشفى ولم يستطع أحد أن يخبرنى متى أو ما إن كانت ستفيق من غيبوبتها . كان علىَّ وقتها أن أقيم فى منزل

خالتى هاريت التى أبدت ترددها فى هذا الشأن والتى لم أكن قد التقيت بها من قبل إلا فى المناسبات العائلية . اكتشفت أنها تسكن فى مكان ما يطلق عليه اسم رومفورد وأنها كان يجب أن تأتى لتصحبنى إلى هناك فى اليوم التالى للجنازة . ولم أحظ إلا ببضع ساعات قليلة لكى أتخذ قرارا فى هذا الصدد . حاولت أن أعمل فكرى جيدا لكى أتبين القرار الذى كان يمكن أن يتخذه أبى إن كان فى مكانى وخلصت إلى أنه فى ظل هذه الظروف كان سيتخذ ما كان يطلق عليه دائما " خطوة جريئة " .

عندما استيقظت فى صباح اليوم التالى ، كنت قد قررت بيع المخبز بأعلى سعر إذا لم يكن تشارلى ترامبر على استعداد لتحمل مسئوليته بنفسه . لم أكن واثقة من أن تشارلى يستطيع أن يقوم بالمهمة ولكننى فى النهاية أذعنت لحكم أبى ورأيه فيه .

أثناء محاضراتى صباح ذلك اليوم ، أخذت أعد خطة للتحرك . وعندما انتهى اليوم الدراسى فى هذا اليوم ركبت القطار من هامرسميث إلى وايت شابيل ثم واصلت باقى الرحلة سيراً على الأقدام إلى أن وصلت إلى منزل تشارلى .

وعندما وصلت أمام العقار ١١٢ ، طرقت الباب براحة يدى وبقيت منتظرة - أذكر أننى فوجئت من أن الباب لم يكن مزوداً بمطرقة . وأخيراً جاء أحدهم ليجيب الباب وكانت إحدى أخوات تشارلى البشعات ولكننى لم أتبين وقتها أيهن كانت . أخبرتها أننى أريد أن أحادث تشارلى ولم أفاجأ عندما تركتنى واقفة عند الباب بينما اختفت فى المنزل ثانية . ثم عادت بعد بضع دقائق وقادتنى إلى غرفة صغيرة فى مؤخرة المنزل .

عندما غادرت المنزل بعدها بعشرين دقيقة ، شعرت أننى عقدت أسوأ صفقة فى حياتى ولكننى تذكرت ثانية إحدى مقولات أبى الشهيرة " ليس أمامنا خيار " .

وفى اليوم التالى سجلت اسمى فى أحد فصول المحاسبة " كخيار إضافى ". كانت الدروس مسائية بعد انتهائى من أداء واجباتى المدرسية . فى البداية وجدت المادة مجهدة ولكننى بمرور الأسابيع وجدت متعة بالغة عندما تبينت تأثير تسجيل كل حركة مالية على العمل حتى إن كان عملا صغيرا كالذى كنا نديره . لم أكن أملك أدنى فكرة عن كم المال الذى يمكن أن يحفظه الشخص بمجرد فهم كل حركة مالية فى ميزان المدفوعات وتدوين الديون وتقديم الموازنة للضرائب . كان الشىء الوحيد الذى يقلقنى هو أن تشارلى لم يكن قد سبق له من قبل تسديد أية ضرائب فى المقام الأول .

ولكننى بدأت أستمتع بزياراتى الأسبوعية إلى وايت شابيل لكى تتاح لى فرصة استعراض مهاراتى الجديدة . وبالرغم من أننى بقيت واثقة من أن شراكتى لـ " تشارلى " سوف تنتهى بمجرد أن تطأ قدمى الجامعة كنت مازلت مؤمنة بأن طاقته وحماسه مع عقليتى المستنيرة فى كل الشئون المالية كانت ستترك انطباعا جيداً لدى أبى وربما الجد تشارلى لو كانا موجودين .

ومع اقتراب الوقت الذى كان يجب أن أولى كل تركيزى فيه لاختبار القبول فى الجامعة قررت أن أمنح تشارلى فرصة شراء حصتى فى الشركة التى تجمع بيننا حتى إننى خططت لكى يحل محاسب جيد محلى ليراجع الحسابات . ولكن هؤلاء الألمان أفسدوا علىّ ثانية أفضل خططى .

فى هذه المرة قتلوا والد تشارلى ، وهو ما كان خطأ سخيفا لأنه دفع الصغير الأحمق إلى الالتحاق بالخدمة العسكرية لكى يقاتل الألمان بنفسه . وكما كان متوقعا منه ، فإنه لم يكلف نفسه مشقة استشارة أحد . وهكذا سار إلى شارع سكوتلاند يارد العظيم فى تلك السترة المروعة وتلك القبعة المسطحة السخيفة ورابطة العنق الخضراء الزاهية حاملا مشاكل الأمة على عاتقيه تاركاً إياى لأرأب الصدع . ولم يكن من المستغرب أن أفقد الكثير من وزنى على مدى العام التالى وهو ما اعتبرته أمى المكسب الوحيد الذى جنيته من أمثال تشارلى ترامبر .

ولكى تزداد الأمور سوءا ، بعد أن ركب تشارلى القطار إلى إيدنبرج بأسابيع قليلة ، تم قبولى فى الجامعة .

لم يترك لى تشارلى سوى خيارين أولهما أن أحاول أن أدير المخبز بنفسى والتخلى عن فكرة الحصول على الشهادة الجامعية نهائيا أو بيع المخبز بأعلى سعر . كان تشارلى قد ترك لى رسالة فى اليوم الذى غادر فيه ونصحنى فيه بالبيع وهو ما فعلته بالفعل . وبالرغم من الساعات الطويلة التى قضيتها أجوب الجانب الشرقى فلم أعثر إلا على مشتر متحمس واحد وهو السيد كوين . كان السيد كوين يدير عمله كترزى من فوق متجر أبى وكان يسعى للتوسع . وقد قدم لى عرضاً جيداً فى ظل الظروف التى كنت أمر بها كما أننى نجحت فى الحصول على جنيهين من أحد التجار الذى اشترى عربة تشارلى النقالة الضخمة . ولكننى برغم الجهود المضنية لم أنجح فى العثور على مشتر لعربة الجد تشارلى القديمة البشعة التى ترجع إلى القرن التاسع عشر .

وفى الحال أودعت كل المال الذى جمعته فى بنك باوى بيلدينج سوسايتى فى ١٠٢ شارع شيب سايد لعام كامل بفائدة تصل إلى أربعة بالمائة . لم يكن لدىَّ أية نية للمساس بهذا المبلغ طالما بقى تشارلى فى الجبهة إلى أن جاءتنى كيتى ترامبر منذ خمسة أشهر تزورنى فى رومفورد . انفجرت فى البكاء وأخبرتنى أن تشارلى لقى حتفه فى الجبهة الغربية . وأضافت أنها لا تدرى كيف سيكون مصير الأسرة بعد وفاة تشارلى الذى كان يعتنى بهم . فشرحت لها على الفور ما اتفقت عليه مع تشارلى مما رسم على الأقل الابتسامة على وجهها . وافقت أن تصحبنى إلى البنك فى اليوم التالى لسحب حصة تشارلى من المال .

كنت أريد أن أنفذ وصية تشارلى وأقسم حصته من المال على أخواته بالتساوى . ومع ذلك فإن مدير البنك حاول أن يفهمنا بأكثر الطرق تأدبا أنه لا يجوز لنا سحب ولو بنس واحد من المبلغ المودع قبل مرور عام كامل حتى إنه قدم لنا المستندات التى كنت قد وقعت عليها وأشار إلى البند القانونى الذى ينص على ذلك . وعندما سمعت كيتى بذلك ، انقضت على الرجل وأخذت تسب وتلعن مما أصاب كل الموظفين بحالة ذهول ودفعهم لمغادرة المكان .

ولكننى شعرت بعدها بالامتنان لهذا البند القانونى . كان يمكن ببساطة أن أقسم حصة تشارلى التى تصل إلى ستين بالمائة بين أخواته سال وجريس وكيتى اللعينة هذه التى على ما يبدو كانت تكذب علىَّ بشأن وفاة أخيها . لم أدرك الحقيقة إلا عندما بعثت لى جريس خطابا من الجبهة فى شهر يوليو أخبرتنى فيه أن تشارلى أرسل إلى إيدنبرج فى معركة مارن الثانية . وعندها أقسمت أن أعيد له حصته من المال بمجرد أن تطأ قدمه إنجلترا . كنت أريد أن

أتخلص من عائلة ترامبر وكل مشاكلهم التى تعكر علىّ صفو حياتى إلى الأبد .

لكم تمنيت لو كان أبى قد ظل حياً لكى يرانى وأنا أطأ بقدمى كلية بيدفورد . لم تكن ابنته القادمة من الجانب الشرقى تأمل فى الالتحاق بجامعة لندن ما لم تجر أمى صفقة لقبولى هناك . وقد كان لها ما تريد ومن يومها لم تكف عن تذكير كل أصدقائها بأن ابنتها كانت أول فتاة من وايت شابيل تلتحق بالجامعة .

بعد أن كتبت خطاب قبولى فى بيدفورد بدأت أبحث عن مكان أقيم فيه بالقرب من الجامعة . كنت مصممة على الاستمتاع بقدر من الاستقلالية . انتقلت أمى التى لم يكن قلبها قد برئ تماما من مأساة فقد والدى للعيش فى الضواحى مع الخالة هاريت فى رومفورد . لم تكن تتفهم فكرة إصرارى على العيش فى لندن بالمرة وأصرت على أن أحظى بموافقة الجامعة على المكان الذى سوف أعيش فيه . وركزت على كونى لا يمكن أن أقتسم العيش إلا مع رفيقة كان أبى سينظر إليها باعتبارها "مقبولة ". لم تكف أمى عن إخبارى بأنها لم تكن تتقبل تلك الأخلاقيات الخارجة التى تفشت فى المجتمع إثر اندلاع الحرب .

وبالرغم من أننى حافظت على علاقاتى بالعديد من أصدقاء سانت بول ، لم أكن أعرف سوى واحدة فقط كانت تملك مكان إقامة إضافياً فى لندن . كنت أعلم أنها يمكن أن تكون أملى الوحيد الذى سينتشلنى من قضاء باقى حياتى فى القطار ما بين رومفورد وريجنت بارك . وهكذا بعثت برسالة إلى دافنى هاركورت براون فى اليوم التالى .

ردت على خطابى بدعوتى لتناول الشاى معها فى شقتها فى تشيلسيا . وعندما رأيتها ثانية لأول وهلة فوجئت بأننى تفوقت عليها فى الطول ، ولكن فوجئت بأنها أيضا قد فقدت من الوزن ما يقارب الوزن الذى فقدته . لم ترحب بى دافنى فقط بأن أخذتنى بين أحضانها وإنما أيضا أعربت عن سعادتها الغامرة بأنى سوف أشغل الغرفة الخالية لديها . أصررت على دفع ثمن الإيجار الذى يصل إلى خمسة شلنات فى الأسبوع كما طلبت منها أيضا بشىء من التردد أن تقبل دعوتى إياها لتناول الشاى مع أمى فى رومفورد . بدت دافنى معجبة بالفكرة وسافرت معى إلى إيسكس فى يوم الثلاثاء التالى لهذا اللقاء .

لم تتفوه أمى وخالتى بكلمة واحدة تقريبا طوال الزيارة . وتحول الحوار إلى حديث أحادى حكت لنا فيه دافنى عن قصص الصيد وكلاب الصيد والبولو وتدنى أخلاقيات ضباط الحرس ؛ وكانت مثل هذه الموضوعات بعيدة كل البعد عن الموضوعات التى يمكن أن تدلى فيها أمى أو الخالة هاريت بأى رأى . وبحلول الوقت الذى قدمت فيه الخالة هاريت فطائر الموفين للمرة الثانية لم أفاجأ بإيماء أمى بالموافقة على الإقامة مع دافنى .

سارت الأمسية على ما يرام ولم يعكر صفوها إلا ذلك الموقف المحرج الذى حدث عندما نهضت دافنى حاملة صينية الطعام إلى المطبخ - وهو الشىء الذى أظن أنها لم تفعله من قبل قط فى حياتها - ورأت شهادتى الدراسية معلقة على باب خزانة المطبخ . ابتسمت أمى ولم تكتف بذلك وإنما لمزيد من الإهانة قرأت محتويات الشهادة بصوت مرتفع : " تتمتع الآنسة سالمون بقدرة فائقة على بذل الجهد

الجاد مصحوباً بذكاء فطرى وعقل متبصر يؤهلها لمستقبل مشرق فى جامعة بيدفورد . التوقيع السيدة بوتير ، ناظرة المدرسة "

" لا يمكن أن تزعج أمى نفسها بالطبع بتعليق شهادتى فى أى مكان " ، كان هذا كل ما علقت به دافنى .

بعد أن انتقلت للعيش فى حدائق تشيلسيا ، سرعان ما اتخذت حياتنا معاً روتينا منظما . كانت دافنى تتنقل بين الحفلات بينما كنت أتنقل أنا بسرعة أكبر بين قاعات المحاضرات . ونادرا ما كانت كل منا تقابل الأخرى .

وبالرغم من خوفى ، وجدت فى دافنى صحبة رائعة فى العيش والسكن . بالرغم من أنها لم تبد اهتماما كبيرا بحياتى الأكاديمية ـ كانت كل طاقتها موجهة لملاحقة ضباط الحرس ـ كانت تتمتع دائما ببصيرة نافذة فى كل أمور الحياة تقريبا ، ناهيك عن قائمة الشباب اللائقين الذين كانوا لا يكفون عن المرور أمام باب العقار ٩٧ فى حدائق تشيلسيا .

كانت دافنى تعاملهم جميعا بنفس التعالى واعترفت لى أن حبها الوحيد مازال يخدم فى الجبهة الغربية ولكنها لم تذكر اسمه مرة واحدة فى وجودى .

وكلما كنت أجد وقتاً للراحة بعيدا عن كتبى ، كانت تنجح دائما فى العثور على ضابط شاب يصحبنى إلى حفل موسيقى أو المسرح أو حتى إلى حفل راقص . بالرغم من أنها لم تبد يوما اهتماما بما كنت أفعله فى الجامعة كانت كثيرا ما تطرح علىَّ أسئلة عن الجانب الشرقى وكانت تبدو مبهورة بالقصص التى كنت أحكيها لها عن تشارلى ترامبر وعربته النقالة .

كان يمكن أن تسير الأمور على هذا النهج إلى الأبد إن لم أكن قد التقطت نسخة من جريدة كينسنجتون نيوز كانت دافنى قد اشترتها لكى تتعرف على حالة العقارات فى المنطقة .

بينما كنت أتصفح الجريدة مساء أحد أيام الجمعة ، لفت أحد الإعلانات انتباهى . أمعنت قراءة الكلمات جيدا لكى أتأكد من أن المتجر المعروض كان يشغل بالفعل المكان الذى كنت أتصوره ثم طويت الجريدة وغادرت الشقة لكى أتفقد الأمر بنفسى . سرت فى حدائق تشيلسيا بحثا عن الإشارة على نافذة عرض تاجر الخضر المحلى . لابد أننى مررت به منذ أيام بدون أن ألحظ عبارة " للبيع ، الاتصال بـ " جون دى . وود " ، ٦ شارع ماونت ، لندن دبليو ١ "

تذكرت أن تشارلى طالما كان يتوق إلى معرفة أسعار تشيلسيا مقارنة بأسعار وايت شابيل لذا قررت أن أحقق له هذه الرغبة بنفسى .

فى صباح اليوم التالى ، بعد أن طرحت بعض الأسئلة الأساسية على وكيل أنبائنا المحلى ـ السيد بيلز الذى كان يعرف دائما ما يجرى فى الحدائق والذى كان يسعد دائما باقتسام معرفته مع أى شخص على استعداد لقضاء بعض الوقت معه ـ ثم توجهت إلى جون دى . وود فى شارع ماونت ، تركونى لبعض الوقت واقفة عند نضد الاستقبال وأخيرا جاءنى أحد المساعدين وقدم نفسه إلىَّ باسم السيد بالمر وسألنى عما يمكن أن يسديه لى .

بعدما تفحصت الشاب جيدا ، تشككت فى مدى قدرته على إسداء خدمة لأى أحد . كان عمره قرابة السابعة عشرة وكان بالغ الشحوب ونحيفاً وبدًا كأن لفحة هواء يمكن أن تطيح به بعيدا .

قلت له : " أود أن أعرف المزيد من التفاصيل عن العقار رقم ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا " .

بدا لى مندهشًا وحائرًا فى نفس الوقت .

" العقار ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا ؟ " .

" العقار ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا ؟ " .

سأل قائلاً : " هل سمحت لى يا سيدتى ببعض الوقت ؟ " ، ثم سار نحو خزينة ملفات وهو يهز كتفيه بشكل مبالغ فيه وهو يمر بجوار أحد زملائه . رأيته يقلب عدة صفحات قبل أن يرجع إلى المكتب ثانية بورقة وحيدة . ولم يسع لدعوتى للدخول أو حتى إحضار كرسى لكى أجلس عليه .

وضع الورقة الوحيدة فوق المكتب وتفحصها جيدا .

قال : " إنه محل بيع الخضراوات " .

" أجل " .

واصل الشاب حديثه فى صوت متعب قائلاً : " الوجهة الأمامية للمحل تبلغ اثنين وعشرين قدما . أما المحل نفسه فمساحته تقل قليلا عن ألف قدم مربع وهو يضم شقة صغيرة فى الدور الأول تطل على المتنزه " .

سألت بعد أن تشككت فى أننا نقصد نفس العقار : " أي متنزه ؟ " .

أجاب قائلاً : " حدائق برنسيس يا سيدتى " .

أجبته قائلة بعد أن أدركت فجأة أن السيد بالمر لم يكن قد زار حدائق تشيلسيا من قبل فى حياته : " إنها رقعة أرض من العشب لا تزيد مساحتها عن بضع أقدام فى بضع أقدام أخرى " .

واصل حديثه وكأنه لم يستمع إلى تعليقى ولكن على الأقل بعد أن كف من الانحناء على النضد : " سوف تملكين العقار ملكية مطلقة ، وسوف يقوم المالك بإخلائه فى غضون ثلاثين يوما من التوقيع على العقد " .

سألته بعد أن نفد صبرى من الطريقة التى يتحدث بها : " ما السعر الذى يطلبه المالك ؟ " .

واصل الشاب حديثه قائلاً : " موكلتنا السيدة تشابمان ...." .

قلت له : " زوجة الملاكم السابق الذى قتل فى الثامن من فبراير عام ١٩١٨ تاركا ابنة فى السابعة وابنا فى الخامسة " .

فوجئ السيد بالمر حتى اكتسى وجهه بالبياض .

أضفت على سبيل الاحتياط : " إننى أيضا أعرف أن السيدة تشابمان مصابة بالتهاب المفاصل مما يجعل من المستحيل عليها تقريبا أن تصعد كل هذا الدرج المؤدى إلى الشقة " .

حينئذٍ بدت علامات الارتباك واضحة عليه وأجاب قائلا : " نعم " .

قلت له : " إذن ما هو السعر الذى تأمل السيدة تشابمان أن تحصل عليه؟ " وعندها كان ثلاثة من زملاء السيد بالمر قد توقفوا عن العمل لمتابعة حديثى معه .

قال الموظف بعد أن ثبت بصره على الخط النهائى للجدول المبين أمامه : " مائة وخمسون جنيها للعقار " .

" مائة وخمسون جنيها " ، هكذا كررت فى سخرية تنم عن عدم تصديق بدون أن تكون لدىَّ فى واقع الأمر أدنى فكرة عن قيمة العقار الحقيقية . وأضفت قائلة : " لابد أنها تعيش فى برج

عاجى . هل نسيت أن هناك حربًا دائرة ؟ اعرض عليها مائة يا سيد بالمر ولا تزعجنى ثانية إن طلبت بنساً واحداً أكثر من هذا المبلغ " .

قال الرجل آملا : " جنيها ؟ " .

أجبته وأنا أدون اسمى وعنوانى على ظهر قطعة ورق تركتها فوق النضد : " جنيها استرلينيا ؟ " . بدا السيد بالمر عاجزا عن الكلام وبقى فاغرا فاه بينما استدرت وغادرت المكتب .

قطعت طريقى عائدة إلى تشيلسيا وأنا على يقين من أننى لن أشترى المحل . على أية حال لم أكن أملك مائة جنيه لشراء المتجر أو حتى أى مبلغ يقترب منه . كنت أملك فقط ما يزيد قليلا على أربعين جنيها فى البنك ، ولم أكن أملك أى بنس إضافى آخر ولكن الطريقة التى عاملنى بها هذا الرجل السخيف هى التى أثارت غضبى . ومع ذلك فلم أكن أشك فى أن السيدة تشابمان يمكن أن تقبل بعرض مهين كهذا .

ولكن السيدة تشابمان قبلت عرضى فى صباح اليوم التالى . ولأنى كنت مدركة ـ لحسن الحظ ـ أننى غير ملزمة بعقد أى اتفاق ، تركت عشرة جنيهات كمبلغ مقدم فى عصر نفس اليوم . وقد أفهمنى السيد بالمر أن هذا المقدم لن يرد إن عجزت عن إبرام العقد فى غضون ثلاثين يوما .

قلت له بشجاعة بالرغم من أننى لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفية التحصل على النقد : " ليست هناك مشكلة " .

على مدى السبعة والعشرين يوما التالية حاولت أن أقنع كل من أعرفهم بدءا بالبنك مرورا بأقاربى وحتى زملائى فى الجامعة بالمشروع ولكن لم يبد أى منهم أدنى اهتمام بمساندة فتاة شابة

مازالت تستكمل دراستها واقراضها مبلغ ستين جنيها لشراء متجر للخضراوات والفاكهة .

" ولكنه استثمار رائع " هكذا حاولت أن أشرح لكل من يصغى وكنت أضيف قائلة : " والأكثر من ذلك هو أن تشارلى ترامبر هو أفضل من رأيته فى حياتى فى تجارة الخضر والفاكهة . " ونادرا ما كنت ألجا لاستخدام هذا الأسلوب لعقد صفقاتى ومع ذلك فقد كنت أقابل بالرفض المهذب الذى لا ينم عن أية رغبة فى المشاركة .

بعد انقضاء الأسبوع الأول خلصت بشيء من الإذعان إلى أن تشارلى ترامبر لن يكون راضيا عن تضحيتى بعشرة جنيهات من مالنا ـ ستة جنيهات من ماله وأربعة من مالى ـ ولكن لكى أرضى غرور الأنثى لدىّ قررت أن أتحمل أنا خسارة الستة جنيهات بدلا من أن أقر له بأننى أقدمت على تهور مثير للرثاء .

سألت دافنى فى اليوم السادس والعشرين : " ولكن لماذا لم تفاتحى والدتك وخالتك فى أمر شديد الأهمية كهذا ؟ لقد بدوا لى شديدى التفهم " .

قلت لها فى حدة : " سوف يوجهان لى النقد اللاذع لما أوقعت نفسى فيه ، كلا شكرا لك . على أية حال ، أنا لست واثقة من أنهما يملكان ستين جنيها . حتى وإن كانتا يملكان هذا المبلغ فأنا لا أعتقد أنهما سوف يرحبان باستثمار بنس واحد لدى تشارلى ترامبر " .

وفى نهاية الشهر عدت أجر أقدامى إلى جون دى وود لكى أشرح له أننى قد عجزت عن جمع التسعين جنيها المتبقية وأنه أصبح يحق له أن يبحث عن مشترٍ آخر . كنت أشعر بالارتعاد من

تعبير " كنت أعلم ذلك من البداية " ، الذى كان سيرتسم على وجه السيد بالمر عندما يسمع الخبر .

أكد لى السيد بالمر مبديًا عدم استيعابه الكامل لما أقول : " ولكن مندوبتك عقدت الصفقة أمس " .

وقلت : " مندوبتى ؟ " .

راجع المساعد الملف وأجاب : " نعم ، الآنسة دافنى هاركورت براون من ــــ " .

سألت : " ولكن لماذا ؟ " .

رد السيد بالمر : " أعتقد أننى لست الشخص الذى يجب أن يجيب عن هذا التساؤل الخاص ، لأننى لم أر السيدة مطلقاً قبل البارحة " .

* * *

أجابت دافنى عندما طرحت عليها نفس السؤال فى مساء نفس اليوم : " الأمر فى غاية البساطة فى واقع الأمر . إن كان تشارلى ترامبر يتمتع بالفعل بنصف الكفاءة التى تزعمينها فهذا يعنى أننى قد وضعت مالى فى استثمار ممتاز " .

" استثمار ؟ "

" نعم . سوف أفهمك الأمر . أنا أريد رأسمالى وأربعة بالمائة من الفائدة فى غضون ثلاث سنوات " .

" أربعة بالمائة ؟ " .

" صحيح . فهذا على أية حال هو سعر الفائدة الذى أحصل عليه مقابل رصيدى فى البنك . كما أنك فى المقابل إن عجزت عن تسديد رأس المال بالإضافة إلى الفائدة كاملة فسوف أطلب منك تسديد نسبة ١٠ بالمائة فائدة من ربح السنة الرابعة " .

" ولكن قد لا يكون هناك فوائد بالمرة " .

" فى هذه الحالة سوف أسترد على الفور ٦٠ بالمائة من رأس المال وسوف يملك تشارلى بذلك أربعة وعشرين بالمائة وأنت ستة عشر بالمائة . سوف تجدين كل ما تودين معرفته داخل هذا الملف " . ثم أعطتنى عدة صفحات منسوخة كانت الصفحة الأخيرة تحمل رقم سبعة أعلاها ، وقالت : " كل ما أريده الآن هو توقيعك فى الخط النهائى " .

راجعت الصفحات بتؤدة بينما صبت دافنى لنفسها كوبا من الجعة . كانت هى أو ربما ستشارها قد حسبا حساب كل الدقائق والاحتمالات .

قلت لها وأنا أوقع على الورق فى المكان المخصص بين علامتين : " هناك فارق واحد فقط بينك وبين تشارلى ترامبر " .

" وما هو هذا الفارق ؟ " .

" أنك ولدت فى بيئة ثرية " .

بما أننى لم أكن قادرة على تنظيم المحل بنفسى أثناء مواصلة دراستى فى الجامعة ، سرعان ما خلصت إلى أننى يجب أن أعين مديرًا مؤقتًا ، كما كان إغراق الفتيات الثلاثة اللاتى كن يعملن بالفعل فى رقم ١٤٧ فى الضحك كلما أصدرت تعليمات ، يزيدنى إصرارًا على الإسراع فى اقتناء هذا المدير .

وفى يوم السبت التالى بدأت أجوب شوارع تشيلسيا وفولهام وكنسنجتون وأنا أحدق فى نوافذ عرض المتاجر على العربات النقالة الثلاثة التى كانت تبيع الخضر والفاكهة والشباب الذين كانوا

يديرون هذا العمل أملاً فى العثور على الشخص المناسب لإدارة متجر ترامبر .

بعد مراقبة عدة مرشحين كانوا يعملون فى المحلات المحلية ، وقع اختيارى أخيرًا على شاب كان يعمل مساعدًا لدى بائع فاكهة فى كنسنجتون . وفى مساء يوم الأول من نوفمبر وقفت فى انتظاره إلى أن ينهى عمله . ثم تبعته بعدها بينما بدأ رحلة العودة إلى منزله .

كان الرجل ذو الشعر البنى يسير فى اتجاه أقرب محطة أتوبيس عندما لحقت به .

قلت له : " عمت مساء يا سيد ماكينز " .

" مرحبا ؟ " ، وبدا فى قمة الذهول من أن سيدة شابة لا يعرفها تعرف اسمه . ثم واصل سيره .

قلت له : " أنا أملك متجرًا للخضر والفاكهة فى حدائق تشيلسيا ...... " وكدت أحافظ على اتساق خطواتى مع خطواته وهو يسير فى اتجاه المحطة . أبدى مزيدا من الدهشة ولكن لم ينطق بكلمة وإنما فقط زاد من سرعته ، بينما أضفت قائلة : " وأنا أبحث عن مدير جديد " .

كانت هذه المعلومة هى التى أبطأت من خطواته قليلا للمرة الأولى منذ بدء الحديث وارتسمت على وجهه علامات الجدية .

قال متسائلاً : " محل تشابمان ؟ هل أنت التى اشتريت المحل ؟ " .

قلت له : " نعم ولكن اسمه أصبح ترامبر الآن ، وأنا أعرض عليك العمل كمدير للمحل مقابل جنيه واحد أسبوعيا أى أكثر من

راتبك الحالى " ، وذلك بدون أن تكون لدىَّ أدنى فكرة عن راتبه الحالى .

طرح علىَّ العديد من الأسئلة فى الأتوبيس والعديد من الأسئلة الأخرى التى كان يجب أن أجيب عليها عند باب منزله الأمامى قبل أن يدعونى للقاء والدته . وهكذا انضم بوب ماكينز إلى فريق العمل لدينا كمدير لمحل ترامبر .

وعلى الرغم من هذه الصفقة الناجحة فقد شعرت بخيبة أمل عندما اكتشفت مع نهاية الشهر الأول أن المحل قد منى بخسارة تزيد على ثلاثة جنيهات مما كان يعنى أنه لم يكن بوسعى أن أعيد بنسًا واحدًا إلى دافنى .

قالت دافنى : " لا تيأسى . فقط واصلى ، لابد أن هناك أملا كما أننى لن ألجأ إلى تفعيل الشرط الجزائى مطلقًا وخاصة إن أثبت ترامبر فور رجوعه أنه فى نصف الكفاءة التى تزعمينها " .

على مدى الستة أشهر التالية تمكنت من إحكام قبضتى على تشارلى المتفلت وتحديد أماكن تواجده بفضل مساعدة ضابط شاب قدمته لى دافنى وأخبرتنى أنه يعمل فى المكتب الحربى . كان يبدو دائما قادرا بسهولة على تحديد مكان الرقيب تشارلى ترامبر من سلاح الرماية الملكية فى أى وقت ليلا أو نهارا ومع ذلك فقد بقيت مصرة على إدارة المحل بجدارة بل وتحقيق ربح قبل رجوع تشارلى بكثير .

ومع ذلك فقد علمت من صديق دافنى أن شريكى الشارد كان سيعفى من الخدمة فى ٢٠ فبراير عام ١٩١٩ مما لم يترك لى سوى القليل من الوقت أو لم يترك لى وقتًا بالمرة لضبط ميزان المدفوعات . والأسوأ من ذلك هو أننا اضطررنا مؤخرا إلى استبدال اثنتين من

الفتيات الضاحكات باثنتين أخريين حيث سقطتا مع الأسف فريسة وباء الأنفلونزا الأسبانية وتمت إقالة الثالثة بسبب عدم كفاءتها .

حاولت أن أتذكر كل الدروس التى لقننى إياها والدى عندما كنت صغيرة . " فإن كان صف الزبائن طويلا فيجب أن تكون الخدمة سريعة أما إن كان قصيرا فيجب أن تبذلى كل الوقت ، وهكذا لن يخلو المحل من الزبائن أبدا . إن الناس لا يحبون المتاجر الخالية " ، هكذا كان يقول أبى ؛ إنهم يشعرون بداخلها بعدم الأمان .

وكان يصر قائلا : " على لافتة المحل ، يجب أن تدونى بحروف كبيرة ظاهرة العبارة التالية " دان سالمون ، الخبز الطازج ؛ تأسس عام ١٨٧٩ " . يجب أن تكررى الاسم والتاريخ فى كل مناسبة لأن الناس الذين يقطنون الجانب الشرقى يحبون أن يتأكدوا من أنك تمارسين المهنة منذ زمن . صفوف الزبائن والتاريخ ، لطالما قدر الإنجليز قيمة هذين العاملين .

حاولت أن أطبق فلسفة أبى لأننى كنت أرى أن تشيلسيا لا تختلف عن الجانب الشرقى . ولكن فى حالتنا هذه كانت اللافتة الزرقاء تحمل اسم " تشارلى ترامبر ؛ التاجر الأمين ؛ تأسس عام ١٨٢٣ . " بقيت لعدة أيام أفكر فى إطلاق اسم " تشارلى وسالمون " على المحل ولكننى تخليت عن الفكرة عندما أدركت أن هذا سوف يربطنى بـ " تشارلى " طوال الحياة .

ومن بين الفروق الأساسية التى لاحظتها بين الجانب الشرقى والجانب الغربى هو أن أسماء الدائنين فى الجانب الشرقى كانت تدون على قطعة أردواز ، أما الدائنون فى تشيلسيا فقد كانوا يفتحون حسابا . ولدهشتى ، وجدت أن الديون المعدومة فى تشيلسيا كانت أكثر شيوعا كثيرا من وايت شابيل . ومع حلول

الشهر الثانى بقيت عاجزة عن السداد لـ " دافنى " . بدأت أوقن يوما بعد يوم أن أملى الوحيد كان يعتمد على عودة تشارلى .

فى اليوم المزمع لعودته تناولت الغداء فى الجامعة مع اثنين من الأصدقاء من نفس صفى الدراسى . أخذت أمضغ تفاحتى ثم تناولت بعدها قطعة من الجبن وحاولت قدر جهدى أن أركز على آرائهم فى كارل ماركس . وبعد أن أفرغت آخر محتويات كوب اللبن ؛ لملمت كتبى وعدت إلى محاضراتى فى عصر نفس اليوم . وعلى الرغم من أننى عادة أشعر بالانبهار عند تناول موضوع فنانى عصر النهضة فإننى فى هذه المرة شعرت بالامتنان للأستاذ عندما لملم أوراقه وغادر قبل انتهاء موعد المحاضرة ببضع دقائق قليلة .

بدا لى الوقت المستغرق فى الترام العائد إلى تشيلسيا وكأنه دهر ولكنه توقف فى النهاية عند أحد أركان حدائق تشيلسيا .

كنت أجد دائما متعة فى قطع الطريق بطوله سيرا على الأقدام لتفقد المتاجر . كنت أمر أولا بمحل التحف حيث كان يقيم السيد روثرفورد . كان دائما يحرص على رفع قبعته عند رؤيتى . ثم بعدها كان محل ملابس النساء فى العقار ١٣٣ الذى كان يعرض الأثواب فى نافذة العرض والتى كنت أشاهدها دائما وأشعر أننى لن أمتلك يومًا ما القدرة المادية لاقتنائها . وبعدها كانت جزارة كيندريك التى كانت دافنى تتعامل معها وبعدها ببضعة أبواب كان المطعم الإيطالى بموائده الخالية من الفرش . كنت أعلم أن مالك المطعم يناضل من أجل الإبقاء على عمله لأنه كان قد فقد شعبيته تماما . وأخيرا كانت مكتبة العزيز السيد سيندليز الذى كان يجاهد من أجل انتزاع أى لقمة عيش . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد باع كتابًا واحدًا منذ أسابيع ، كان يبدو دائمًا سعيدًا وهو جالس فى أحد الأركان منهمكًا

فى قراءة كتاب وبليام بلو إلى أن يحين موعد الإغلاق فيستبدل إشارة مفتوح بإشارة مغلق . فابتسمت وأنا أمر قبالته ولكنه لم يرنى .

بدأت أحسب الوقت المستغرق لوصول تشارلى إن كان قطاره قد وصل فى موعده إلى محطة كينج كروس فى صباح نفس اليوم ؛ كان لابد أن يكون قد وصل إلى هنا الآن حتى وإن كان قد قطع كل طريقه سيرًا على الأقدام .

ترددت للحظة فقط وأنا أقترب من المحل ثم سرت نحوه مباشرة . وما أثار حزنى هو أن تشارلى لم يكن قد ظهر بعد . سألت بوب على الفور إن كان أى شخص قد توقف للسؤال عنى .

أكد لى بوب قائلاً : " لم يأت أحد يا آنسة بيكى ، لا تقلقى كلنا نتذكر ما يجب أن نفعله فور ظهور السيد ترامبر " . ثم أومأت المساعدتان الجديدتان بيستى وجلاديز بالموافقة .

نظرت إلى ساعتى ـ كانت قد تخطت الخامسة ببضع دقائق ـ وفكرت فى أن تشارلى إن لم يكن قد ظهر إلى الآن فهذا يعنى على الأرجح أنه لن يظهر قبل اليوم التالى . قطبت وجهى وأخبرت بوب أنه يمكن أن يشرع فى إغلاق المحل . وعندما دقت الساعة أعلى الباب السادسة طلبت من بوب فى تردد أن يدفع التندة إلى الداخل وأن يضع القفل بينما أخذت أراجع الوارد اليومى .

قال بوب عندما وصل بجانبى عند الباب الأمامى قابضا على مفاتيح باب المحل : " هذا أمر غريب " .

" ما هو هذا الأمر الغريب ؟ " .

" هذا الرجل الجالس هناك . لقد بقى جالسا على الأريكة لأكثر من ساعة ولم ينزل عينه لثانية عن لافتة المحل . أتمنى ألا يكون مصابًا بخلل " .

نظرت إلى حيث يتحدث ؛ فإذا بـ " تشارلى " جالسا عاقدًا ساعديه يحدق نحوى مباشرة . وعندما التقت أعيننا ، فك ساعديه وتقدم نحوى ببطء .

لم ينطق أحدنا بكلمة لبعض الوقت إلى أن قال : " ما الخطب إذن ؟ " .

الفصل

٧

قال بوب وهو يفرك راحة يده فى المريلة الخضراء قبل أن يمدها لمصافحة يد صاحب العمل الممتدة إليه : " كيف حالك يا سيد ترامبر ؟ سعيد بلقائك كل السعادة " .

تقدمت كل من بتسى وجلاديز إلى الأمام لتحية تشارلى مما رسم الابتسامة على وجه بيكى .

قال تشارلى : " لستم بحاجة إلى كل هذا ، إننى أنتمى إلى وايت شابيل لذا يجب أن تقتصر كل هذه التحيات والاحترامات على الزبائن فقط " .

قالت بيكى : " بوب ، احمل من فضلك متعلقات السيد ترامبر إلى غرفته ، بينما سوف أريه أنا المتجر " .

قال بوب : " أمرك يا آنسة بيكى " ، وكان ينظر إلى اللفافة الورقية البنية والصندوق الصغير الذى كان تشارلى قد تركه على

الأرض بجانبه ثم سأل فى نبرة متشككة : " هل هذه هى كل مقتنياتك يا سيد ترامبر ؟ " .

أومأ تشارلى بالإيجاب .

أخذ تشارلى يتأمل المساعدتين فى قميصهما الأبيضين ومئزريهما الأخضرين . وكانتا تقفان خلف النضد غير واثقتين تماما من الخطوة المقبلة التى يجب أن يقدما عليها . قالت بيكى : " هيا انصراف ، ولكن احرصا على الالتزام بموعد الوصول فى الصباح لأن السيد ترامبر لا يتهاون فى المواعيد " .

التقطت كل منهما حقيبتها وانصرفتا بينما جلس تشارلى على مقعد بجوار صندوق عنب .

قال تشارلى : " الآن أصبحنا بمفردنا يمكنك أن تخبرينى كيف حدث كل هذا " .

قالت بيكى : " حسنا . إنه الكبرياء الأحمق هو الذى أوصلنا إلى ما نحن فيه ..... " .

وقبل أن تنهى قصتها بفترة طويلة كان تشارلى يقول لها : " أنت معجزة يا بيكى سالمون ، أنت معجزة رائعة " .

وواصلت حديثها مع تشارلى مخبرة إياه بكل ما جرى على مدى العام السابق . وكان التجهم الوحيد الذى اعتلى وجهه هو عندما أخبرته بتفاصيل استثمار دافنى .

" إذن أمامى عامان ونصف العام لتسديد دين الستين جنيها بالإضافة إلى الفائدة " .

قالت بيكى فى تردد : " فضلاً عن الخسارة التى منينا بها على مدى الستة أشهر الماضية " .

" أكرر يا ريبيكا سالمون أنت معجزة . وإن لم يكن بوسعى أن أؤدى مثل هذا العمل البسيط الذى تطلبين ، فأنا لست جديرا بشراكتك " .

ارتسمت ابتسامة ارتياح على وجه بيكى .

سأل تشارلى وهو ينظر أعلى الدرج : " وهل تعيشين هنا أنت أيضا ؟ " .

" بالطبع لا . أنا أشارك إحدى زميلات الدراسة القدامى شقتها ، إنها دافنى هيركورت براون . نحن نعيش فى العقار ٩٧ من نفس الشارع " .

" الفتاة التى أقرضتنا المال ؟ " .

أومأت بيكى بالإيجاب .

قال تشارلى : " لابد أنها من صديقاتك المقربات ؟ " .

ظهر بوب ثانية عند الدرج .

" لقد وضعت متعلقات السيد ترامبر فى غرفة النوم وتفقدت الشقة . يبدو كل شيء منظما " .

قالت بيكى : " شكرا لك يا بوب . ليس هناك شيء آخر اليوم . أراك فى الصباح " .

" هل سيذهب السيد ترامبر إلى السوق يا آنسة ؟ "

قالت بيكى : " لا أظن ذلك . لم لا تجرى طلبية الغد كالمعتاد ؟ أنا واثقة من أن السيد ترامبر لن يبدأ عمله إلا بعد بضعة أيام " .

سأل تشارلى : " حدائق كوفنت ؟ " .

قال بوب : " نعم يا سيدى " .

" حسنًا . إن لم تكن قد نقلت إلى مكان آخر فسوف ألقاك غدا فى الرابعة والنصف صباحاً " .

لاحظت بيكى شحوب وجه بوب وضحكت وهى تقول : " إن السيد ترامبر لا يتوقع ذهابك كل صباح فى الرابعة والنصف وإنما فقط يريد أن يمسك هو بزمام الأمور . طاب مساؤك يا بوب " .

قال بوب وقد ارتسمت على وجهه علامات الحيرة : " عمت مساءً يا سيدتى ، عمت مساءً يا سيدى " .

قال تشارلى متسائلاً : " ما كل هذه الاحترامات وكل هذه الألقاب الفارغة ؟ إننى أكبر بوب بعام واحد فقط " .

" وهكذا كان أكثر الضباط فى الجبهة الغربية ممن كنت تناديهم بسيدى " .

" ولكن هذا هو ما أقصده تحديدا . فأنا لست ضابطا " .

" كلا ولكنك صاحب المتجر . ولكن الأهم من ذلك يا تشارلى هو أنك لم تعد فى وايت شابيل . هيا بنا ؛ حان وقت رؤية غرفك " .

قال تشارلى : " غرفى ؟ لم يسبق لى من قبل امتلاك أى غرف فى حياتى . وإنما فقط خنادق وخيام وصالات ألعاب فى الفترة الأخيرة " .

" حسنا ، لقد أصبح لديك غرف الآن " . هكذا قالت بيكى وهى تقود شريكها أعلى السلم الخشبى إلى الدور الأول حيث بدأت جولتها . قالت : " هذا هو المطبخ ، إنه صغير ولكنه يفى بالغرض . بالمناسبة ؛ لقد حرصت على اقتناء ما يكفى من سكاكين وشوك وأوان فخارية تكفى لثلاثة كما أوكلت إلى جلاديز مهمة الحفاظ على نظافة ونظام الشقة . وهذه هى الغرفة الأمامية " .

وفقت معلنة وهى تفتح الباب : " إن كان يمكن إطلاق هذا المسمى على غرفة بهذا الحجم الصغير " .

أخذ تشارلى يحدق فى الأريكة والكراسى الثلاثة التى كانت تبدو جميعها جديدة وقال : " ما الذى حدث لمقتنياتى القديمة ؟ " .

قالت بيكى : " لقد حرق معظمها فى يوم توقيع الهدنة . ولكننى نجحت فى اكتساب شلن مقابل كرسى شعر الحصان والفراش " .

" وماذا عن عربة جدى القديمة ؟ أنتم لم تحرقوها هى الأخرى ، أليس كذلك ؟ " .

" بالطبع لا . لقد حاولت أن أبيعها ولكننى لم أعثر على مشترٍ على استعداد لدفع أكثر من خمسة شلنات ، ولذا فإن بوب يستخدمها لنقل الخضر والفواكه من السوق صباح كل يوم " .

قال تشارلى وقد ارتسمت علامات الارتياح على وجهه : " جيد " .

ثم استدارت بيكى وتوجهت إلى الحمام .

قالت : " آسفة بشأن البقعة أسفل صنبور الماء البارد . لم يتمكن أى منا من إزالتها بالرغم من كم الشحوم التى استخدمناها . كما يجب أن أحذرك من أن ماء المرحاض لا يتدفق دائما " .

قال تشارلى : " لم يسبق لى من قبل اقتناء حمام داخل المنزل . هذا فى غاية الأناقة " .

واصلت بيكى جولتها إلى غرفة النوم .

كان تشارلى يحاول أن يستوعب كل شىء دفعة واحدة ولكن عينيه استقرتا على الصورة الملونة التى كانت معلقة فوق سريره فى وايت شابيل والتى كانت مملوكة فى يوم من الأيام لوالدته . شعر أن

هناك شيئا مألوفا فى الصورة . ثم انتقلت عيناه إلى مجموعة من الأدراج وكرسيين وسرير لم يكن قد رآه أبدا من قبل . كان يبذل كل طاقته لكى يعرب لـ " بيكى " عن كم تقديره لكل ما قامت به ثم أخذ يحدق أعلى وأسفل أحد أركان السرير .

قال تشارلى : " مرة أخرى " .

" مرة أخرى ؟ "

" أجل ؛ الستائر ؛ كان جدى لا يسمح أبدا باقتناء الستائر كما تعرفين ؛ لقد دأب على القول بأن — " .

قال بيكى : " نعم أتذكر . إنها تبقيك نائما حتى وقت متأخر من الصباح وتحول دون قيامك بعملك كما ينبغى " .

" نعم شيء من هذا القبيل باستثناء أنى لست واثقا من أن جدى كان يدرك معنى كلمة " تحول " ، كان تشارلى يقول ذلك بعد أن بدأ يستخرج مقتنيات تومى من الصندوق الصغير . وسقطت عينا بيكى على الصورة التى كانت تخص تومى فى اللحظة التى وضع فيها تشارلى اللوحة فوق السرير . والتقطت الصورة وبدأت تدقق فيها عن كثب .

" من أين حصلت على هذه الصورة يا تشارلى ؟ إنها بالغة الروعة "

أجاب وكأنه يقرأ أمرًا واقعاً : " كانت لصديق لى توفى فى جبهة القتال وأوصى بها لى " .

ظلت بيكى ممسكة بالصورة وهى تقول : " صديقك هذا كان يتمتع بذوق رفيع . هل لديك فكرة عن الفنان الذى رسم هذه اللوحة " .

" كلا ؛ لا أعرف " . وبدأ تشارلى يتأمل صورة والدته المؤطرة التى كانت بيكى قد علقتها على الجدار ثم قال : " يا للعجب إنها نفس الصورة بالضبط " .

قالت بيكي وهى تدقق فى صورة المجلة المعلقة فوق السرير : " ليس تحديدا . إن والدتك هى صورة لأحد الأعمال الفنية المهمة لبرونزيو . أما لوحة صديقك بالرغم من أنها تبدو متشابهة ؛ فهى فى واقع الأمر نسخة بالغة الجودة تكاد تقترب من النسخة الحقيقية " . ثم نظرت فى ساعتها وقالت بدون سابق إنذار : " يجب أن أنصرف . لقد وعدت بأن أكون فى قاعة كوين فى الثامنة مساءً . إنه موتسارت " .

" موتسارت . هل أعرفه ؟ " .

" سوف أعد لك لقاءً معه فى المستقبل القريب " .

سألها تشارلى : " هذا يعنى أنك لن ترجعى إلى هنا لكى تعدى لى عشائى أولاً ؟ مازال لدى الكثير من الأسئلة التى أريد أن أطرحها عليك . هناك الكثير من الأشياء التى أود أن أعرفها . بداية أود أن ــ " .

" آسفة يا تشارلى ؛ يجب ألا أتأخر . سوف أراك فى الصباح وعندها أعدك بأننى سوف أجيب عن كل أسئلتك " .

" أول شىء فى الصباح " .

ضحكت بيكى وقالت : " أجل ولكن ليس الصباح الذى تقصده أنت ، ربما قرب الثامنة صباحا حسب تقديرى " .

سأل تشارلى بينما أحست بيكى أن عينيه بدأتا تتفحصانها بمزيد من الإمعان : " هل يعجبك موتسارت هذا ؟ "

" حسنا لكى أكون صادقة ؛ أنا لا أعرف عنه الكثير ولكن جاى يحبه " .

قال تشارلى متسائلاً : " جاى ؟ " .

" نعم ؛ جاى . إنه الشاب الذى سوف يصحبنى إلى الحفل الموسيقى . إننى لم أعرفه منذ فترة طويلة لذا يجدر بى ألا أتأخر عن موعده . سوف أخبرك المزيد عنهما غدًا . إلى اللقاء يا تشارلى " .

فى طريق العودة إلى شقة دافنى ؛ لم تستطع بيكى أن تمنع نفسها من الشعور ببعض الذنب لأنها تركت تشارلى فى أول ليلة يعود فيها وبدأت تفكر فى أنها ربما كانت أنانية منها أن تقبل دعوة حضور حفل موسيقى مع جاى فى هذه الليلة . ولكن الخدمة فى الجيش لم تكن تمنحه العديد من الليالى أثناء الأسبوع وإن لم تره فى فترة راحته فهذا يعنى أنه ستنقضى عدة أيام قبل أن يتسنى لها رؤيته ثانية .

عندما فتحت الباب الأمامى للشقة ؛ سمعت بيكى صوت دافنى وهى تستحم فى الماء .

صاحت صديقتها عند سماع صوت إغلاق الباب : " هل تغير ؟ " .

سألت بيكى وهى تتوجه نحو الحمام : " من ؟ " .

قالت دافنى وهى تفتح باب الحمام : " تشارلى بالطبع " ووقفت متكئة على جدار الحمام وقد لفت جسدها بفوطة وهى محاطة بسحابة بخار .

فكرت بيكى فى سؤالها للحظة وقالت : " لقد تغير بالفعل ؛ كثيرا فى واقع الأمر ،باستثناء ملابسه وصوته " .

" ماذا تقصدين ؟ " .

" حسنا . صوته بقى كما هو ؛ يمكننى أن أتبين صوته من بين كل الأصوات . كما أن ملابسه بقيت كما هى ؛ يمكننى أيضا أن أعرفها فى أى مكان . ولكنه لم يبق كما كان عليه " .

سالت دافنى وقد بدأت تفرك شعرها بقوة : " هل من المفترض أن أفهم كل هذا ؟ " .

" حسنا ؛ كما قال لى هو ؛ إن بوب يصغره بعام واحد فقط ولكن تشارلى يبدو أكبر من أى منا بعشر سنوات على الأقل . لابد أن هناك شيئا ما يحدث للرجال فى الجبهة الغربية " .

" يجب ألا يدهشك ذلك ولكن ما أود معرفته هو ما إذا كان المحل بمثابة مفاجأة بالنسبة له " .

قالت بيكى وهى تخلع ثوبها : " نعم أعتقد أنه كان بمثابة مفاجأة كبيرة بالنسبة له . هل لديك زوج من الجوارب يمكننى اقتراضه ؟ " .

قالت دافنى : " الدرج الثالث إلى أسفل . ولكننى فى المقابل أود اقتراض ساقيك " .

ضحكت بيكى .

واصلت دافنى حديثها بعد أن ألقت الفوطة المبللة على أرضية الحمام : " وكيف يبدو ؟ " .

فكرت بيكى فى سؤالها ثم قالت : " يبلغ طوله أقل من ست أقدام ببوصة وربما اثنتين ؛ كما أنه فى مثل حجم أبيه مع استبدال الدهون بالعضلات . إنه ليس بدينا . وهو بالطبع لا يشبه دوجلاس فيربانكس كثيرا ولكن يمكن اعتباره وسيما " .

قالت دافنى وهى تفتش فى ملابسها بحثًا عن شيء مناسب ترتديه : " يبدو لى من الطراز الذى يعجبنى " .

قالت بيكى : " لا يمكن يا عزيزتى ، لا أستطيع أن أتصور العميد هيركورت براون يرحب بتناول كأس من الجعة مع تشارلى ترامبر قبل الذهاب إلى رحلة صيد " .

قالت دافنى : " يالك من متغطرسة يا ريبيكا سالمون . ربما نعيش معًا فى شقة واحدة ، ولكن لا تنسى أنك أنت وتشارلى تنتميان إلى أصل واحد . أنت لم تقابلى جاى إلا بفضلى أنا ؛ لا تنسى ذلك " .

قالت بيكى : " صحيح تماما . ولكننى مع ذلك حصلت بكل تأكيد على بعض الامتياز جراء التحاقى بسانت بول وجامعة لندن " .

قالت دافنى وهى تتفحص أظافرها : " ليس من وجهة نظر الطبقة التى ننتمى إليها . لا يمكننى أن أضيع وقتى الآن بالثرثرة مع الطبقة العاملة يا عزيزتى " وواصلت حديثها قائلة : " يجب أن أنصرف الآن لأن هنرى برومسجروف سوف يصحبنى إلى حفل راقص فى تشيلسيا . وبالرغم من أن هنرى لا يروق لى تماما ؛ فإننى أستمتع بدعوته لى إلى بلده اسكتلندا فى شهر أغسطس من كل عام . لقد حان وقت الانصراف ! " .

وبينما كانت بيكى تستحم ؛ أخذت تفكر فى كلمات دافنى التى قالتها بروح مرحة وتودد ومع ذلك فقد كانت الكلمات تلقى بالفعل الضوء على المشاكل التى كانت تواجهها بيكى لاختراق الحواجز الاجتماعية . وبقى هذا التفكير مسيطرا عليها لبضع لحظات .

لقد قدمتها دافنى بالفعل لـ " جاى " ؛ منذ بضعة أسابيع قليلة فقط عندما أقنعتها بالذهاب معها لمشاهدة مسرحية " لابوام " فى حدائق كوفينت . مازالت بيكى تتذكر هذا اللقاء الأول بمنتهى الوضوح . لقد بذلت جهدها حينئذٍ لكى لا تتعلق بـ " جاى " بينما كانا يتناولان شرابا معًا وخاصة بعد أن حذرتها دافنى من سمعته . حاولت ألا تحدق بوضوح طويلا فى هذا الشاب النحيل الذى كان يقف أمامها . كان شعره الأشقر الكثيف وعيناه الزرقاوان قد اجتذبتا بالقطع الكثير من النساء فى مساء ذلك اليوم ولكن بما أن بيكى كانت تدرك أنه يعامل كل الفتيات بنفس الطريقة فإنها لم تنخدع بهذه المعاملة . وقد ندمت على سلوكها المتحفظ معه فى اللحظة التى عاد فيها إلى مكان جلوسه عند بدء الفصل الثانى لأنها وجدت نفسها فى معظم وقت الفصل الثانى تحدق فيه ولا تدير بصرها عنه سريعا إلى المسرحية إلا عندما تلتقى أعينهما .

وفى مساء اليوم التالى سألتها دافنى عن رأيها فى الضابط الشاب الذى قابلته فى الأوبرا .

قالت بيكى : " ذكرينى باسمه " .

قالت دافنى : " آه فهمت ، هل أثر فيك إلى هذا الحد ؟ أليس كذلك ؟ " .

اعترفت قائلة : " أجل . ولكن ماذا بعد ؟ هل يمكن أن يعبأ رجل من مثل هذه الخلفية الاجتماعية بفتاة مثلى من وايت شابيل ؟ " .

" نعم أستطيع أن أتصور ذلك على الرغم من أننى أشك فى أنه يسعى لنيل شيء واحد فقط " .

قالت بيكى : " إذن يجدر بك تحذيره من أننى لست من هذه النوعية من الفتيات " .

أجابت دافنى : " لا أظن أن هذا السبب سبق وحال بينه وبين ما يريد . ومع ذلك بداية إنه يريدك أن تصحبيه إلى المسرح مع بعض أصدقائه فى الجيش . فما رأيك ؟ " .

" سوف أحب ذلك " .

أجابت دافنى : " لقد اعتقدت ذلك أنا أيضا ، لذا أخبرته بموافقتك بدون أن أستشيرك فى الأمر " .

ضحكت بيكى ولكن كان عليها أن تنتظر خمسة أيام أخرى قبل أن تتمكن من رؤية الضابط الشاب ثانية . وبعد أن مر ليصطحبها من شقتها ؛ انضما إلى حفل يضم مجموعة من الضباط الشبان وبعض المبتدئين فى مسرح هايمركت لمشاهدة مسرحية بيجميليون للكاتب الأكثر شهرة جورج برنارد شو . استمتعت بيكى بالمسرحية الجديدة ولم يعكر صفوها إلا تلك الفتاة التى تسمى أماندا ؛ التى بقيت غارقة فى الضحك طوال الفصل الأول ثم رفضت التحدث معها أثناء فترة الاستراحة .

وأثناء العشاء فى الكافيه رويال ؛ جلست بيكىبجوار جاى وحكت له كل شيء عن نفسها منذ مولدها فى وايت شابيل وحتى فوزها بالالتحاق بجامعة بيدفورد فى العام السابق .

بعد أن ودعت بيكى كل الأصحاب ؛ ركبت مع جاى ليوصلها إلى شيلسيا وودعها قائلا : " إلى اللقاء يا آنسة سالمون " ، ثم صافحها باليد .

ظنت بيكى أنها لن ترى الضابط الشاب ثانية .

ولكن جاى ترك لها رسالة فى اليوم التالى يدعوها لحضور حفل استقبال فى النادى العسكرى ، ثم بعدها بأسبوع دعاها لتناول العشاء ثم إلى حفل راقص وبعدها كثر خروجهما معًا وانتهى الأمر بدعوته لها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عند والديه فى بيرك شاير .

بذلت دافنى جهدها لتقص على بيكى كل تفاصيل عائلة جاى . لقد كان والده العقيد رجلا لطيف الطبع ـ كما أكدت لها ـ وكان يمتلك سبعمائة فدان من المراعى فى بيرك شاير كما أنه كان أيضا يجيد الصيد .

وحاولت دافنى أن تشرح لـ " بيكى " طبيعة رحلات الصيد باستخدام الكلاب ، بالرغم من أنها أقرت أنه يصعب على أى شخص تصور الدافع وراء بذل كل هذا الجهد فى المقام الأول .

قالت دافنى : " ولكن والدة جاى مع ذلك لا تتمتع بهذه الصفات الكريمة التى يتمتع بها العقيد . إنها سيدة متغطرسة من الطراز الأول " . شعرت بيكى بغصة فى حلقها ، وأضافت دافنى قائلة : " إنها الابنة الثانية للبارون ليود جورج الذى كان ينتج معدات حربية كما كان فى نفس الوقت يقدم على الأرجح تبرعات كبيرة للحزب الليبرالى . إن الجيل الثانى يكون بالطبع هو الأسوأ " ، وتفحصت دافنى غرز جوربها ثم استطردت : " إن عائلتى توارثت هذا على مدى سبعة عشرة جيلاً كما تعرفين أى أننا لم نعد نسعى لإثبات ذاتنا فنحن نعلم أننا نتمتع بعقليات جيدة كما أننا نتمتع بالثراء بكل تأكيد ، كما أننا نتمتع أيضا بالعراقة . ولكننى مع ذلك لا يمكن أن أدعى أن نفس الأمر للكابتن جاى ترينثام .

الفصل ٨

استيقظت بيكى فى صباح اليوم التالى قبل أن يدق جرس المنبه ونهضت وارتدت ملابسها وغادرت الشقة قبل أن تستيقظ دافنى بكثير . لم تكن تطيق صبرا لتعرف كيف سيتصرف تشارلى فى يومه الأول . وبينما كانت تسير نحو العقار ١٤٧ لاحظت أن المحل كان مفتوحًا بالفعل وأن هناك زبونًا بالفعل كان واقفًا بينما كان تشارلى يوليه جل اهتمامه .

صاح تشارلى من وراء النضد بمجرد أن خطت بيكى داخل المحل : " صباح الخير يا شريكتى " .

ردت بيكى قائلة : " صباح الخير . أرى أنك مصر على قضاء يومك الأول جالسا لمراقبة مجريات العمل " .

كان تشارلى ـ كما رأت ـ قد بدأ يخدم الزبائن حتى قبل مجىء بيستى وجلاديز بينما بدا بوب المسكين بالغ الإنهاك وكأنه قد أنهى عمل يوم شاق بالفعل .

قال تشارلى وقد بدت لهجته الشعبية أكثر وضوحا من أى وقت مضى : " ليس لدى وقت للثرثرة مع الطبقة الكسولة الآن . آمل أن أحظى بمقابلتك فى وقت لاحق هذا المساء ؟ " .

قالت بيكى : " بالطبع " .

نظرت بيكى فى ساعتها ولوحت له مودعة ومضت للحاق بأولى محاضراتها . وجدت صعوبة فى التركيز فى تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، وحتى عرض مقتطفات من أعمال رافائيل من خلال الشاشة المضيئة لم ينجح فى الاستحواذ على كل اهتمامها . بقى عقلها يتأرجح بين الشعور بالقلق لأنها ستقضى عطلة نهاية الأسبوع لدى جاى ، ومشاكل تشارلى الذى يجب أن يحقق ربحا كافيا لتسديد دين دافنى . وقد أقرت بيكى فى دخيلة نفسها أن الأمر الثانى لا يؤرقها بقدر الأول . شعرت بالارتياح عندما دقت الساعة الرابعة والنصف . وثانية ركضت لكى تلحق بالترام فى أحد أركان ميدان بورتلاند وواصلت ركضها للحاق بالحافلة التى تقلها إلى حدائق تشيلسيا .

كان صف قصير من الزبائن يقف أمام متجر ترامبر وتمكنت بيكى من سماع بعض عبارات تشارلى المعتادة حتى قبل أن تصل إلى الباب الأمامى للمحل .

" نصف جنيه ملكى من جنيهات الملك إدوارد ؛ إنه عنب شهى من جنوب أفريقيا ؛ ولم لا نضيف بعض البرتقال الرائع ؛ كل هذا من أجلك يا حبيبتى ؟ " . وبدت كل النساء كبيرات السن والمربيات والسيدات المنتظرات ؛ اللاتى كن سيرفعن أنوفهن فى ترفع إن خاطبهن أى شخص آخر قائلا حبيبتى ؛ كن فى قمة الانسجام مع تشارلى وهو ينطق كلمة " حبيبتى " . ولم تلحظ بيكى

بشكل كافٍ كل التغيرات التى أجراها تشارلى فى المحل إلا بعد مغادرة الزبائن .

أخبرها قائلاً : " لقد بقيت ساهرا طوال الليل كما ترين . وتخلصت من كل الصناديق الفارغة وكل البضائع غير الضرورية . ثم وضعت كل الخضراوات الملونة والطماطم والخضر والبازلاء ؛ كل تلك الأنواع اللينة فى المؤخرة بينما وضعت كل الأنواع الصلبة غير المثيرة للاهتمام فى الأمام مثل البطاطس واللفت . إنها القاعدة الذهبية . "

بدأت حديثها بابتسامة قائلة : " الجد تشارلى ــــ " ؛ ولكنها توقفت فى الوقت المناسب .

بدأت بيكى تتفحص كل التغييرات التى أجراها تشارلى فى البضاعة المعروضة وكان عليها أن تقر فى نفسها أن الطريقة التى رتب بها تشارلى البضائع كانت أكثر عملية من الطريقة القديمة . كما أنها بالطبع كان يجب أن تقر بالاستحسان الذى استشفته من ابتسامات الزبائن .

وفى غضون شهر واحد ؛ كان صف الزبائن الذى يمتد حتى الرصيف من السمات المميزة لمتجر تشارلى ، وبعد شهر آخر كان تشارلى قد بدأ بالفعل يحادث بيكى فى أمر التوسع .

سألت بيكى قائلة : " نتوسع أين ؟ داخل غرفة نومك ؟ " .

أجاب تشارلى بابتسامة : " ليس هناك مكان للخضراوات فى الدور العلوى ، ليس قبل أن تكون الصفوف الواقفة أمام المتجر أطول من الصفوف الواقفة أمام مسرحية بيجميليون . كما أننا فضلا من ذلك سوف نبقى فى حالة توسع مستمر " .

وبعد أن راجعت وأعادت مراجعة الأرباح ربع السنوية ، لم تصدق بيكى نفسها وفكرت أنه ربما قد حان وقت إقامة احتفال بسيط .

اقترحت دافنى قائلة : " لم لا نتناول نحن الأربعة العشاء فى المطعم الإيطالى ؟ " وذلك بعد أن تلقت شيكا بمبلغ نقدى كبير للثلاثة أشهر الماضية يفوق كل ما توقعته .

رأت بيكى أن الفكرة رائعة ولكنها فوجئت عندما أبدى جاى تردده فى قبول الدعوة وكذلك عندما شاهدت الاستعداد الكبير الذى تكبدته دافنى لحضور هذه المناسبة .

أكدت بيكى لـ " دافنى " قائلة : " لن ننفق كل الارباح فى ليلة واحدة ؛ أليس كذلك ؟ " .

قالت دافنى : " يالها من خسارة ؛ لأن هذا يبدو لى الأمل الوحيد لكى أنفذ عقوبة الشرط الجزائى فى العقد . إننى لا أشكو . ولكن تشارلى سوف يكون بمثابة تغيير عن كل أبناء الطبقة الراقية وكل صبيان الإسطبل الذين لا يكفون عن امتطاء الجياد والذين يجب أن أتحملهم فى عطلة نهاية كل أسبوع " .

" احذرى ألا يؤول بك المآل إلى أن يتناولك تشارلى بدلا من الحلوى بعد العشاء " .

كانت بيكى قد أكدت لـ " تشارلى " أن الحجز فى تمام الثامنة مساءً وجعلته يعدها بأنه سوف يرتدى أفضل بدلة لديه وذكرها تشارلى قائلاً : " إنها بدلتى الوحيدة " .

مر جاى ليصطحب الفتاتين إلى المطعم فى الثامنة تماما ولكنه بدا كئيبا بعض الشىء على غير عادته بعد أن وصل متأخرا بضع دقائق عن الموعد المحدد . وجدوا تشارلى جالسا بمفردة فى أحد الأركان

متململا وقد بدا عليه أنها ربما تكون المرة الأولى التى يذهب فيها إلى مطعم .

بدأت بيكى بتقديم دافنى إلى تشارلى ثم تشارلى إلى جاى . وقف الرجلان وأخذا يحدقان فى بعضهما البعض وكأنهما فى مباراة ملاكمة .

قالت دافنى : " لقد كنتما بالطبع فى نفس الفوج العسكرى " ، وأضافت وهى تنظر إلى تشارلى : " ولكننى لا أعتقد أنكما قد تقابلتما من قبل " . لم يعلق أى منهما على حديثها .

كانت بداية الأمسية سيئة إلا أنها ازدادت سوءا بمرور الوقت . حيث عجز الأربعة عن إيجاد حديث مشترك بينهم . كان تشارلى بخلاف ما كان يتسم به من ذكاء وفطنة مع الزبائن ؛ فكان نكدًا ومتحفظا . ولو كانت بيكى قد نجحت فى الاقتراب منه لكانت قد ركلته فى كاحله ، على الأقل لأنه كان لا يكف عن دس الشوكة المتلئة بالبازلاء فى فمه .

كما أن صمت جاى وتجهمه لم يزد الأمور إلا سوءا على الرغم من سعى دافنى الدءوب إلى إثارة جو المرح . ومع حلول وقت تقديم فاتورة الحساب ، شعرت بيكى للمرة الأولى بالارتياح لاقتراب موعد انتهاء هذه الأمسية . كما أنها تركت إكرامية خلسة لأن تشارلى بدا جاهلا بالأمر .

غادرت المطعم مع جاى وانفصلا عن دافنى وتشارلى أثناء طريق العودة إلى العقار ٩٧ . افترضت بيكى أنهما كان يسيران على بعد بضع خطوات قليلة خلفهما ولكنها توقفت بحثًا عنهما عندما أخذها جاى بين ذراعيه واحتضنها وقبلها برفق مودعا : " طاب مساؤك يا عزيزتى ؛ ولا تنسى سوف نذهب إلى آشورست فى عطلة نهاية

الأسبوع " . وكيف يمكن أن تنسى ذلك ؟ شاهدت بيكى جاى وهو ينظر خلسة فى الاتجاه الذى كان يجب أن يظهر فيه تشارلى ودافنى ، ولكن بدون كلمة إضافية ؛ استدعى سيارة أجرة وركبها متجهاً إلى ثكنات سلاح الرماية فى هاونسلو .

فتحت بيكى الباب الأمامى وجلست على الأريكة وأخذت تفكر فيما لو كان عليها أن تعود إلى العقار ١٤٧ لكى تخبر تشارلى برأيها فيه . وبعدها بدقائق قليلة ؛ اقتحمت دافنى الغرفة .

قالت بيكى قبل أن تسمح لصديقتها بأن تعبر عن رأيها : " آسفة بشأن هذه الأمسية . إن تشارلى عادة يكون أكثر لطفا مما كان عليه اليوم ؛ لا أدرى ما الذى أصابه؟ " .

قالت دافنى : " ليس من السهل عليه أن يتناول العشاء مع ضابط من فرقته العسكرية القديمة على ما أظن " .

قالت بيكى : " أنا واثقة من أنك محقة ، ولكنهما سوف يكونان صديقين . أنا واثقة من ذلك " .

حدقت دافنى فى بيكى متشككة .

فى صباح السبت التالى ؛ بعد الانتهاء من عمله فى الحراسة ؛ وصل جاى إلى حدائق تشيلسيا لكى يصطحب بيكى فى سيارته إلى آشورست . وفى اللحظة التى وقع بصره فيه عليها وهى مرتدية أحد أثواب دافنى الحمراء الأكثر أناقة ؛ أخبرها كم كانت تبدو جميلة وكان التفاؤل سائداً فى الحديث أثناء الرحلة إلى بيرك شاير مما أشعر بيكى بشىء من الاسترخاء . وصلا القرية قبل الثالثة وغمز جاى إليها بعينه قبل أن يقود سيارته فى الطريق الممتد مسافة ميل كامل إلى أن وصلا إلى قاعة المنزل .

لم تكن بيكى تتوقع أن يكون المنزل فسيحًا إلى هذا الحد .

كان الساقى ومساعد الساقى واثنان من الخدم فى انتظارهما على الدرج العلوى لتقديم التحية . أوقف جاى السيارة فى المكان المخصص وتقدم الساقى لكى يحمل حقيبتى بيكى الصغيرتين من مؤخرة السيارة ثم أعطاهما للخادم الذى حملهما وانصرف . ثم قاد الساقى النقيب جاى وبيكى بخطوات وقورة أعلى الدرج الخشبى إلى غرفة نوم فى الدور الأرضى .

قال الساقى وهو يفتح لها باب الغرفة : " غرفة ويلنجتون يا سيدتى " .

قال لها جاى وهو يصعد السلم بجوارها : " لقد قضى ليلة هنا ذات مرة . لا أريدك أن تشعرى بالوحدة يا عزيزتى فأنا أنام فى الغرفة المجاورة كما أننى أكثر مرحًا كثيرًا من اللواء السابق " .

دخلت بيكى غرفة كبيرة مريحة حيث وجدت فتاة صغيرة فى ثوب أسود طويل وياقة وأطراف أكمام بيضاء تفرغ محتويات حقيبتها . استدارت الفتاة وقدمت لها التحية وقالت " أنا نيللى ؛ خادمتك. أرجوك أخبرينى إن كنت بحاجة إلى أى شىء " .

شكرتها بيكى وسارت نحو نافذة المشربية وأخذت تتأمل الأراضى الخضراء الشاسعة الممتدة حتى مرمى البصر .ثم سمعت طرقا على الباب فاستدارت لتجد جاى داخل الغرفة حتى قبل أن يسمح لها بفرصة دعوته للدخول .

" هل الغرفة مناسبة يا عزيزتى ؟ " .

قالت بيكى بينما كانت الخادمة تقدم لها التحية ثانية : " إنها رائعة " ولاحظت بيكى نظرة خوف خافتة فى عينى الفتاة من جاى عندما خطا داخل الغرفة .

قال جاى : " هل أنت مستعدة للقاء أبى ؟ " .

" على أتم استعداد " ، هكذا قالت بيكى وهى تهبط بصحبته الدرج إلى غرفة المعيشة حيث كان يقف رجل فى بداية الخمسينات أمام النيران المشتعلة فى انتظار تحيتها .

قال العقيد ترينثام : " مرحبا بك فى قاعة آشورست " .

ابتسمت بيكى لمضيفها وقالت : " شكرا لك " .

كان العقيد أقصر قليلا من ابنه ولكنه كان يملك نفس الجسم النحيف والشعر الأشقر بالرغم من بعض خصلات الشعر الرمادية التى ظهرت فى جانبى شعره ، وكانت هذه هى أوجه الشبه بينهما . ولكن بينما كانت بشرة جاى شابة وشاحبة ، كانت بشرة العقيد ترينثام تتمتع بصلابة الرجل الذى قضى جل حياته فى الخارج . وعندما صافحته بيكى بيدها شعرت بصلابة يده التى كدت فى زراعة الأرض .

قال العقيد : " هذا الحذاء اللندنى الفاخر لا يتناسب مع الجولة التى خططت لها ، يجب أن نقترض لك زوجاً من أحذية زوجتى أو ربما حذاء نيجيل ؟ " .

سألت بيكى : " نيجيل ؟ " .

" ترينثام الصغير . ألم يحدثك جاى عنه ؟ إنه يدرس فى عامه الأخير فى هارو على أمل الالتحاق بساندهارست لكى يتفوق على أخيه كما أرى " .

" لم أكن أعرف أن لديك ـــ " .

" ذلك الصغير لا يستحق الذكر " ، هكذا قاطعها جاى بنصف ابتسامة بينما قادهما الأب عائدا عبر البهو إلى خزانة أسفل الدرج .

أخذت بيكى تحدق فى صفوف الأحذية الجلدية العالية التى كانت أكثر لمعانا حتى من الحذاء الذى كانت ترتديه .

قال العقيد ترينثام : " اختارى ما تشائين يا عزيزتى " .

بعد بضع محاولات عثرت بيكى على الزوج المناسب تماما ثم تبعت جاى ووالده فى الحديقة . استغرق العقيد ترينثام معظم وقت ما بعد الظهيرة فى صحبة ضيفته فى جولة فى الأراضى التى تصل مساحتها إلى سبعمائة فدان ، ومع حلول وقت العودة كانت بيكى فى أمس الحاجة إلى دفء الحساء الذى قدم لها فى الإناء الفضى الكبير فى غرفة الصباح .

أعلن الساقى أن السيدة ترينثام اتصلت هاتفيًا وأخبرته بأنها سوف تتأخر فى رحلتها ولن تستطيع أن تتناول الشاى معهم .

وبحلول وقت صعود بيكى إلى غرفة نومها فى وقت مبكر من المساء لكى تستحم وتغير ملابسها استعدادا لتناول العشاء ، لم تكن السيدة ترينثام قد عادت .

كانت دافنى قد أقرضت بيكى اثنين من ثيابها وبروش رائعاً من الماس كانت بيكى تشعر بقليل من الخوف عندما أخذته . ولكنها عندما نظرت إلى نفسها فى المرآة تلاشت كل مخاوفها سريعًا .

وعندما سمعت بيكى الساعة وهى تدق الثامنة من الساعات الكثيرة المنتشرة فى البيت عادت إلى غرفة الاستقبال . كان للثوب والبروش تأثير سريع ومباشر على كلا الرجلين . ولم تكن هناك بعد أى بادرة تنبؤ بوصول والدة جاى .

قال العقيد : " ياله من ثوب رائع يا آنسة ساللون " .

قالت بيكى وهى تدفئ يديها عند النيران المشتعلة فى المدفأة : " أشكرك أيها العقيدُ ترينثام " .

قال العقيد لـ " بيكى " : " سوف تنضم إلينا زوجتى فى غضون لحظات " بينما كان الساقى يقدم لها كأساً من الجعة على صينية فضية .

" لقد استمتعت بمشاهدة الأراضى اليوم " .

أجاب العقيد بابتسامة دافئة : " قلما أسمع هذا الإطراء يا عزيزتى ، ولكننى سعيد لأنك استمتعت بالنزهة " ، ثم حول انتباهه إلى ما وراء كتفيها .

استدارت بيكى لتجد سيدة طويلة أنيقة مرتدية ثوبًا أسود من عنقها حتى كاحلها تدخل الغرفة . تقدمت ببطء وتؤدة باتجاههم .

قال جاى وهو يتقدم نحوها ويقبلها على خدها : " أمى ، أود أن أقدم لك بيكى سالمون " .

قالت بيكى : " كيف حالك ؟ " .

سألت السيدة ترينثام متجاهلة يد بيكى الممتدة إليها : " هل لى أن أعرف من الذى ارتدى حذائى العالى من الخزانة ؟ ثم أعاده مغطى بالطين " .

أجاب العقيد : " أنا الذى فعلت ، وإلا لكانت الآنسة سالمون قد جابت أنحاء المزرعة بكعبها العالى بما لا يتلاءم مع طبيعة الجولة " .

" كان الأجدر بالآنسة سالمون أن تحرص على إعداد نفسها جيدًا لمثل هذه الرحلة باقتناء الحذاء المناسب للحضور به فى المقام الأول " .

بدأت بيكى تقول : " أنا آسفة للغاية ..... " .

سأل جاى مقاطعا الحديث : " أين كنت يا أمى طوال اليوم ؟ أردنا أن نراك قبل ذلك " .

أجابت السيدة ترينثام : " كنت أحاول أن أحل بعض المشاكل التى بدا لى المسئول الدينى الجديد غير قادر على التعامل معها بنفسه . من الواضح أنه لا يملك أدنى فكرة عن كيفية تنظيم مهرجان الحصاد . لا أدرى ما الذى يدرسونه للطلبة فى أوكسفورد هذه الأيام " .

قال العقيد ترينثام : " النظرية اللاهوتية ربما " .

تنحنح الساقى ثم أعلن قائلا : " العشاء جاهز يا سيدتى " .

استدارت السيدة ترينثام بدون كلمة واحدة أخرى وقادت الجمع إلى غرفة المائدة بخطوة سريعة . دعت بيكى للجلوس إلى يمين العقيد وقبالتها ثلاث سكاكين وأربع شوك وملعقتان كانت جميعها تلمع فى وجه بيكى وهى تنظر إلى المائدة المربعة الكبيرة . ولم تجد بيكى مشكلة فى انتقاء الأداة التى سوف تبدأ بها طعامها لأن الطبق الأول كان طبق الحساء ولكن بعدها كان عليها ببساطة أن تحذو حذو مضيفتها السيدة ترينثام .

لم توجه مضيفتها كلمة واحدة إليها إلى أن قدم الطبق الرئيسى . وإنما بقيت بدلا من ذلك تحادث زوجها عن الجهد الذى يبذله نيجيل فى هارو ، وعن المسئول الدينى الجديد الذى يفتقر إلى الكفاءة وعن السيدة لافيينا ماليم أرملة أحد القضاة التى استقرت مؤخرا فى القرية وتثير مشاكل كثيرة تفوق الحد الطبيعى .

كان فم بيكى ممتلئًا عن آخره بالطعام عندما فاجأتها السيدة ترينثام بسؤالها : " وما هو عمل والدك يا آنسة سالمون ؟ " .

همهمت بيكى قائلة : " لقد توفى " .

" آه ؛ آسفة لذلك " ، قالتهـا فـى لامبـالاة وأضـافت : " وهـل أفترض أنه كان يقاتل فى الجبهة ؟ " .

" كلا لم يكن " .

" إذن ما الذى كان يفعله أثناء الحرب ؟ " .

أضـافت بيكـى : " كـان يـدير مخبـزًا فـى وايـت شـابيل " . وتذكرت تحذير والدها : " إن سعيت لإخفاء أصلك فلن يعود عليك ذلك إلا بالندم " .

قالت السيدة ترينثام مستفهمة : " وايـت شـابيل ؟ إن لم أكـن مخطئة فإنها تلك القرية الصغيرة خارج ورسستر " .

قالت بيكى : " كلا يا سيدة ترينثام ؛ إنهـا فـى قلـب الطـرف الشرقى من لندن " . وكانت تأمل أن يتدخل جـاى لإنقاذهـا ولكنـه بدا أكثر انشغالا باحتساء شرابه .

قالت السيدة ترينثام محتفظة بشفتيها فى خط مستقيم : " آه ، أذكر أننى ذات مرة زرت زوجة مطـران ورسستر فـى مكـان يـدعى وايـت شـابيل ولكننـى يجـب أن أعـترف أننـى لم أجـد أنـه مـن الضرورى السفر إلى مكـان بعيـد مثـل الطـرف الشـرقى . لا أظـن أن يكون هناك مطران . " ثم وضعت شوكتها وسكينها وواصلت حديثها قائلة : " ومع ذلك فإن أبى السير رايموند هاردكاسيل ربما تكـونين قد سمعت عنه ... " .

أجابت بيكى بأمانة : " كلا لم أسمع عنه فى واقع الأمر " .

فارتسمت نظرة احتقار أخرى على وجه السـيدة ترينثـام بـالرغم من أن هذا الـرد لم يـنجح فـى التصـدى لاسترسـالها فـى الحـديث فأضافت : " الذى اكتسب لقب البارون نظير خدماته للملك جـورج الخامس ـــ " .

" وما هى هذه الخدمات ؟ " ، هكذا سألت بيكى فى براءة مما دفع السيدة ترينثام إلى التوقف للحظـة قبـل أن تسـتطرد شـرحها : " لقد لعب دورا صغيرا فى الجهود الملكية الرامية لطرد الألمان " .

قال العقيد ترينثام فى نفسه : " إنه تاجر أسلحة " .

ولو كانت السيدة ترينثام قد سمعت بـالتعليق لكانـت قـد آثـرت تجاهله .

سألت السيدة ترينثام فى برود : " هل تخرجـت هـذا العـام يـا آنسة سالمون ؟ " .

قالت بيكى : " كلا ؛ لم أتخرج ، وإنما التحقت بالجامعة " .

" لا أؤيد مثل هـذا التصـرف مـن وجهـة نظـرى . إن السـيدات الفضـليات يجـب ألا يـتخطين مسـتوى تعليميـاً معينـاً بالإضـافة إلى اكتسـاب بعـض المعرفـة بشـئون إدارة الخـدم والقـدرة علـى تحمـل مشاهدة مباريات الكريكيت " .

" ولكن إن لم يكن لديك خدم ...." بـدأت بيكـى وكانـت ستواصل حديثها لو لم تكن السيدة ترينثام قد دقت الجـرس الفضـى الذى كانت تحمله فى يدها اليمنى .

عندما ظهر الساقى من جديد قالت فى غلظة : " سوف نتنـاول القهوة فى غرفة الاستقبال يا جيبسون " ، ارتسمت بعـض علامـات الدهشة على وجه الساقى بينما نهضت السيدة ترينثـام مـن مقعـدها وقادت الجميع من غرفة المائدة إلى الرواق فى الأسفل ومنه إلى غرفـة الاستقبال حيث لم تكن نيران المدفأة قد أضرمت بما يكفى .

سأل العقيـد ترينثـام : " هـل تـودين شـراب بعـض البـورت أو البراندى يا آنسة سالمون ؟ " ، بينما كان جيبسون يصب القهوة .

قالت بيكى فى هُدوء : " كلا شكرًا لك " .

قالت السيدة ترينثام وهى تنهض من مقعدها الذى كانت قد جلست عليه لتوها : " أرجوكم ، اسمحوا لى بالانصراف . يبدو أننى أصبت ببعض الصداع وأنا بحاجة للعودة إلى غرفتى . اسمحوا لى " .

قال العقيد فى لامبالاة : " أجل بالطبع يا عزيزتى " .

وبمجرد أن غادرت والدته الغرفة سار جاى مسرعا نحو بيكى وجلس بجوارها وأمسك يدها وقال : " سوف تكون أفضل فى الصباح عندما تبرأ من الصداع الذى ألم بها ؛ سوف ترين " .

قالت بيكى همساً : " أشكُ فى ذلك " ، واستدارت نحو العقيد ترينثام وقالت : " ربما يجدر بى أن أنصرف أنا الأخرى فقد كان يوما طويلا على أية حال كما أننى واثقة من أن لديكما الكثير من الأمور الخاصة التى تودان التحدث عنها على انفراد " .

نهض الرجلان بينما غادرت بيكى الغرفة وصعدت بطول الدرج المؤدى إلى غرفتها . خلعت ملابسها سريعا وبعد أن اغتسلت فى حمام من الماء شبه المجمد تسللت إلى غرفتها الباردة وانسلت بين طيات الأغطية فوق الفراش البارد .

كانت بيكى نصف نائمة عندما سمعت مقبض الباب وهو يفتح . فتحت عينيها وأغمضتهم عدة مرات لكى تتبين الجانب البعيد من الغرفة . فتح الباب ببطء وكان كل ما نجحت فى تبينه هو أنه جسد لرجل دخل وأغلق الباب فى هدوء وراءه .

همست فى حدة : " من ؟ " .

همس جاى : " إنه أنا . فكرت فى أن أمر لكى أتفقد أحوالك " .

سحبت بيكى الغطاء العلوى حتى وجهها وقالت سريعاً : " عمت مساءً يا جاى " .

قال جاى الذى كان قد قطع الغرفة وأصبح جالسا بجوارها على طرف السرير : " هذا ليس ردًا ودودًا . أردت فقط أن أتأكد من أن كل شىء على ما يرام لأنك قد مررت بليلة عصيبة اليوم " .

قالت بيكى فى لامبالاة : " أنا على خير ما يرام ، شكرًا لك " . وعندما انحنى فوقها لكى يقبلها انسلت بعيدا عنه حتى انتهى به المآل إلى تقبيل أذنها اليسرى .

" ربما ليس هذا هو الوقت المناسب ؟ " .

أضافت بيكى وهى تنسل بعيدا عنه إلى أقصى مسافة حتى إنها كادت تسقط من الجانب المقابل من فراشها : " أو المكان المناسب " .

" فقط أردت أن أطمئن عليك قبل أن تنامى " .

سمحت له بيكى بشىء من التردد أن يصافحها ولكنه أطال فى مصافحته إلى حد جعلها تدفعه بعيدا عنها .

قالت فى حزم : " عمت مساء يا جاى "

فى البداية لم يتحرك جاى ولكنه بعدها نهض ببطء وقال : " ربما فى وقت آخر " . وبعدها بلحظة سمعت الباب وهو يغلق .

انتظرت بيكى لبضع لحظات قليلة قبل أن تنهض من فراشها . وسارت نحو الباب وأدارت المفتاح فى القفل وانتزعته قبل أن تعود إلى فراشها . ومضى بعض الوقت قبل أن تستسلم للنوم .

عندما نزلت بيكى لتناول الإفطار فى صباح اليوم التالى سرعان ما عرفت من العقيد ترينثام أن زوجته قضت ليلة مؤرقة وأنها لم

تشف بعد من الصداع ، ولذلك فقد قررت أن تبقى فى سريرها إلى أن يزول الألم تماما .

وبعدها خرج العقيد ومعه جاى للذهاب إلى دار العبادة بينما تركا بيكى تقرأ صحيفة الصانداى فى غرفة الاستقبال . ولم يسع بيكى إلا أن تلاحظ أن الخدم كانوا يتهامسون فيما بينهم كلما وقع نظرها عليهم .

ظهرت السيدة ترينثام على الغداء ولكنها لم تسع للمشاركة فى الحوار الدائر فى الجانب المقابل من المائدة . وفجأة على غير المتوقع عندما تم تقديم مشروب القستر سألت : " وما هو نص خطبة الواعظ اليوم ؟ "

أجاب العقيد وهو يشدد على الكلمات بعض الشىء : " عامل الناس كما تحب أن يعاملوك " .

سألت السيدة ترينثام موجهة حديثها لـ " بيكى " للمرة الأولى : " وكيف وجدت الأحوال فى دار عبادتنا يا آنسة سالمون ؟ " .

بدأت بيكى تقول : " لم أذهب للصلاة ...." .

" نعم ؛ أجل أنت من النخبة المختارة " .

أجابت بيكى : " كلا بل أنا أنتمى إلى طائفة أخرى " .

قالت السيدة ترينثام وهى تخفى دهشتها : " آه ، لقد ظننت أن اسم سالمون هذا يعنى ... على أية حال أعتقد أن الطقوس فى دار عبادتنا لم تكن لتحوز على إعجابك ؛ فهى تتسم بالواقعية الشديدة " .

أخذت بيكى تتساءل إن كنت السيدة ترينثام قد تدربت على كل كلمة وكل تصرف تقدم عليه مسبقا .

بما أن انتهى الغداء اختفت السيدة ترينثام ثانية واقترح جاى أن يقوما بنزهة . صعدت بيكى إلى غرفتها وارتدت حذاءها القديم بعد أن استبعدت تماما فكرة اقتراض زوج أحذية من السيدة ترينثام .

قالت بيكى لـ " جاى " عندما هبطت ثانية : " أنا أفعل أى شيء للهروب من هذا البيت " . ثم بقيت صامتة تماما إلى أن شعرت أنها أصبحت بعيدة عن مرمى سمع السيدة ترينثام .

أخيرًا سألت بيكى : " ما الذى تتوقعه منى ؟ " .

رد جاى مصرا وهو يمسك يدها : " الأمر ليس بهذا السوء . أنت تبالغين فى رد فعلك . لقد أقنعنى أبى أنها سوف تذعن بمرور الوقت ، كما أننى على أية حال أعرف من سأختار إن فرض علىَّ الاختيار " .

ضغطت بيكى على يده وقالت : " شكرًا يا عزيزى ، ولكننى مازلت غير واثقة مما إذا كان بإمكانى تحمل ليلة عصيبة أخرى كالليلة الماضية " .

قال جاى : " يمكننا أن نغادر فى وقت مبكر ونقضى باقى اليوم فى منزلك " . استدارت بيكى نحوه غير واثقة مما يعنيه . ثم أضاف سريعا : " يجدر بنا أن نعود إلى المنزل وإلا فسوف تظن أننا تعمدنا تركها بمفردها " . أسرع الاثنان فى خطاهما .

وبعدها بدقائق قليلة كان كلاهما يصعد السلم الحجرى إلى البهو الأمامى . وبمجرد أن استبدلت بيكى حذاءها القديم بحذاء المنزل وتفقدت شعرها فى مرآة البهو انضمت إلى جاى فى غرفة الاستقبال . وقد فوجئت بأن مأدبة شاى كاملة كانت قد أعدت فى

الغرفة . نظرت فى ساعتها فوجدتها تشير إلى الثالثة وخمس عشرة دقيقة فقط .

" آسفة لأنك أبقيت الجميع فى الانتظار يا جاى " ، كانت هذه هى الكلمات الأولى التى سمعتها بيكى بمجرد أن وطئت قدماها الغرفة .

قال العقيد من الجانب المقابل عند المدفأة : " لم يسبق لنا من قبل تناول الشاى فى هذا الوقت المبكر " .

سألت السيدة تريتثام وقد نجحت فى أن تنطق اسمها بشىء من العدوانية : " هل تودين تناول الشاى يا آنسة سالمون ؟ "

أجابت بيكى : " نعم ؛ أشكرك " .

قال جاى : " ربما يمكنك أن تناديها باسمها الأول " .

ثبتت السيدة تريتثام بصرها على ابنها وقالت : " لا يمكننى أن أجارى العادات السائدة اليوم والتى تسمح لمناداة أى شخص باسمه الأول وخاصة عندما أكون حديثة عهد به . هل تودين شراب الدارجلينج أم اللابسانج أم الإيرل جراى يا آنسة سالمون ؟ " ، وهكذا بادرت بالسؤال قبل أن تتاح لأى شخص فرصة الرد عليها . نظرت وهى فى حالة توقع لرد بيكى ولكنها لم تجد أية بادرة إجابة فورية لأن بيكى لم تكن قد أفاقت بعد من عبارتها المهينة السابقة ولكن السيدة تريتثام أضافت : " واضح أنك لا تحظين بهذا الكم من الخيارات فى وايت شابيل " .

فكرت بيكى فى أن ترفع الإناء وتصب محتواه فوقها ولكنها نجحت بشكل ما فى تمالك نفسها فقط لأنها كانت تدرك جيدًا أن هذا ما كنت ترمى إليه السيدة تريتثام وتأمل فى تحقيقه .

وبعد فترة صمت سألت السيدة تريتثام : " هل لديك أية إخوة أو أخوات يا آنسة سالمون ؟ " .

أجابت بيكى : " كلا أنا ابنة وحيدة " .

" شىء غريب فى واقع الأمر " .

سألت بيكى فى براءة : " ولم ذاك ؟ " .

قالت السيدة تريتثام وهى تضع قطعة سكر إضافية فى كوب الشاى الخاص بها : " لقد كنت أعتقد أن الطبقة السفلى تنجب كما تنجب الأرانب " .

بدأ جاى يقول : " أمى ولكن ... " .

قالت سريعا : " إنها مزحة فقط ، إن جاى يأخذ بعض كلامى على محمل الجدية فى بعض الأحيان يا آنسة سالمون ومع ذلك أتذكر أن أبى السير رايموند قد قال لى ذات مرة — " .

قال العقيد : " ليس ثانية "

" — إن الطبقات الاجتماعية أشبه بالماء والنبيذ . أى أن كليهما لا يمكن أن يمتزج مع الآخر تحت أى ظرف " .

قالت بيكى : " ولكننى أعتقد أن هذا حدث بالفعل " .

قررت السيدة تريتثام أن تتجاهل هذه الملحوظة. " ولذلك فنحن لدينا ضباط ورتب أخرى فى المقام الأول ؛ هكذا كان التخطيط الإلهى " .

سألت بيكى : " وهل تظنين أن الله قد خطط لنشوب الحرب لكى يذبح هؤلاء الضباط وغيرهم من الرتب بعضهم بعضا بدون أى تمييز ؟ " .

أجابت السيدة تريتثام : " لا أعرف بكل تأكيد يا آنسة سالمون ، فأنا كما ترين لا أتمتع بمثل ثقافتك وإنما أنا فقط سيدة

بسيطة تتحدث بفطرتها . ولكن ما أعرفه بالفعل هو أننا جميعا قدمنا تضحيات أثناء الحرب " .

سألت بيكى : " وما هى التضحيات التى قدمتها يا سيدة تريتشام ؟ " .

أجابت السيدة تريتشام وهى تطيل جسدها إلى أبعد مدى : " عدد كبير من التضحيات يا سيدتى الصغيرة . كان علىَّ أن أستغنى عن العديد من الأشياء التى كانت تعد أساسية بالنسبة لى " .

سألت بيكى : " كذراع أو ساق مثلاً ؟ " ، ثم سرعان ما ندمت على ما بدر منها بعد أن أيقنت أنها سقطت فى الفخ الذى نصبته لها السيدة تريتشام .

هبت السيدة تريتشام واقفة من مقعدها وسارت ببطء نحو المدفأة ، حيث دقت جرس الخدم بعنف وقالت : " لا يجب أن أبقى جالسة فى مكان أتعرض فيه للإهانة فى عقر دارى " . وعندما جاء جيبسون استدارت نحوه وأضافت قائلة : " اطلب من ألفريد أن يحزم كل مقتنيات السيدة سالمون من غرفتها لأنها سوف تعود إلى لندن فى وقت مبكر عما خططت له " .

وظلت بيكى صامتة بجوار المدفأة غير واثقة من خطوتها التالية . ووقفت السيدة تريتشام تحدق فيها فى برود بينما قامت بيكى أخيرا وسارت نحو العقيد وصافحته بيدها وقالت : " سوف أقول لك وداعا يا سيد تريتشام فلدىَّ شعور أننا لن نتقابل ثانية أبدا . "

" إنها خسارة لى يا سيدة سالمون " قال ذلك فى نبرة أنيقة قبل أن يقبل يدها . ثم استدارت بيكى وسارت ببطء خارج غرفة الاستقبال بدون أن تنظر إلى السيدة تريتشام ثانية .

وفى طريق العودة إلى لندن ، اعتذر لها جاى بكل الحجج الممكنة عن سلوك والدته ولكن بيكى كانت تدرك تماما أنه لم يكن مقتنعا بأية كلمة من الكلمات التى كان يقولها . وعندما توقفت السيارة أخيرا خارج العقار ٩٧ ، قفز جاى منها وفتح لها الباب .

سألها قائلاً : " هل تسمحى لى بالصعود ؟ ما زال هناك شيء أريد أن أقوله لك " .

قالت بيكى : " ليس الليلة . أريد أن أفكر بعض الشيء وأود أن أبقى بمفردى " .

تنهد جاى وقال : " إننى فقط أردت أن أخبرك كم أحبك كما أردت أيضا أن نتحدث قليلا عن خططنا للمستقبل " .

" خطط تشمل والدتك ؟ " .

أجاب قائلاً : " أنا لا أكترث بأمى ، ألا تدركين كم أحبك ؟ " وترددت بيكى .

" اسمحى لى أن نعلن خطبتنا فى صحيفة التايمز فى أقرب وقت ، ولتفعل أمى ما تشاء . ما رأيك ؟ "

استدارت ولفته بذراعيها وقالت : " آه يا جاى ، تعلم أننى أحبك أنا أيضا ولكن يجدر بك ألا تصعد الليلة . ليس ودافنى على وشك الرجوع فى أية لحظة . ربما فى وقت آخر " .

ارتسمت علامات خيبة الأمل على وجه جاى . ثم قبلها وهو يتمنى لها ليلة سعيدة . ثم فتحت الباب الأمامى وصعدت الدرج .

وعندما فتحت بيكى باب المنزل وجدت أن دافنى لم تعد بعد من رحلتها . جلست بمفردها على الأريكة ولم تكترث بإشعال الغاز ثانية عندما خبا الضوء . ولم تعد دافنى إلا بعد انقضاء ساعتين .

" كيف سارت الأمور " ، كانت هذه كلمات دافنى الأولى وهى تدخل غرفة الاستقبال ؛ وقد فوجئت قليلا بوجود صديقتها جالسة فى الظلام .

" كارثة " .

" هل انتهى كل شىء إذن ؟ "

قالت بيكى : " كلا ليس تحديدا ؛ بل إن لدىّ شعوراً أن جاى قد تقدم لخطبتى " .

سألت دافنى : " ولكن هل وافقت ؟ " .

" أظن ذلك " .

" وماذا عن السفر إلى الهند ؟ " .

* * *

فى صباح اليوم التالى عندما أفرغت بيكى محتويات حقيبتها ، ذعرت عندما اكتشفت اختفاء البروش الأنيق الذى كانت دافنى قد أقرضته لها فى عطلة نهاية الأسبوع . فاعتقدت أنها لابد أن تكون قد نسيته فى قاعة آشورست .

وبما أنه لم تكن لديها رغبة فى الاتصال بالسيدة ترينشام ، فقد تركت خطابا لـ " جاى " فى النادى العسكرى تعرب فيه عن قلقها . ولكنه رد عليها فى اليوم التالى مؤكدا لها أنه سوف يتحقق من الأمر يوم الأحد حيث قرر أن يتناول الغداء مع أبويه فى قاعة آشورست .

قضت بيكى الأيام الخمسة التالية وقد سيطر عليها القلق بشأن البروش المفقود وما إن كان جاى سوف يعثر عليه أم لا . ثم حمدت الله أن دافنى لم تكن قد لاحظت غيابه . وكان كل ما تتمناه هو أن تستعيد البروش قبل أن ترغب صديقتها فى ارتدائه .

كتب لها جاى يوم الاثنين ليخبرها أنه بالرغم من البحث عنه فى كل مكان فى غرفة الضيوف لم يتمكن من العثور عليه ، كما أخبرها أن نيللى قد أكدت له أنها قد وضعت كل مجوهراتها فى الحقيبة .

أثارت هذه المعلومة حيرة بيكى لأنها كانت تدرك جيدا أنها هى التى جمعت مجوهراتها فور انصرافها المفاجئ من آشورست . وبخوف بالغ ، جلست حتى وقت متأخر من الليل فى انتظار عودة دافنى من عطلة نهاية الأسبوع الطويلة لكى تشرح لها ما حدث . وكانت تعلم أنها قد تكون بحاجة إلى شهور وربما سنوات لكى تدخر ثمن البروش الذى كان على الأرجح ميراثًا عائليًا .

وبحلول الوقت الذى ظهرت فيه صديقتها بعد منتصف الليل بقليل فى حدائق تشيلسيا كانت بيكى قد شربت بالفعل العديد من أكواب القهوة وأوشكت على إشعال إحدى سجائر دافنى .

" لقد بقيت ساهرة حتى وقت متأخر يا عزيزتى " ، كانت هذه هى الكلمات الأولى التى تفوهت بها دافنى فور دخولها . " هل الامتحانات على الأبواب ؟ " .

قالت بيكى : " كلا " ، ثم حكت لها قصة البروش المفقود كاملة . ثم سألت دافنى كم من الوقت تظن أنها بحاجة إليه لكى تسدد ثمن البروش .

قالت دافنى : " ربما أسبوع فى اعتقادى " .

قالت بيكى وقد أصيبت بالذهول : " أسبوع ؟ " .

" نعم ؛ إنها قطعة مقلدة ؛ إنها آخر صيحة هذه الأيام كما تعلمين . وإن كنت أتذكر جيدًا فإنها قد كلفتنى ثلاثة شلنات كاملة " .

تنفست بيكى الصعداء وحكت لـ " جاى " على العشاء يوم الثلاثاء أن العثور على البروش لم يعد ذا أهمية .

وفى الاثنين التالى جاء جاى حاملا البروش لـ " بيكى " بعد أن شرح لها أن نيللى قد عثرت عليه تحت سريرها فى غرفة ويلنجتون .

الفصل ٩

بدأت بيكى تلحظ بعض التغيرات الصغيرة فى سلوك تشارلى ، وكانت فى البداية غير ملحوظة ثم أصبحت واضحة تماماً .

لم تسع دافنى لإخفاء دورها فى إحداث هذا التغيير بما وصفته بأنه " الاكتشاف الاجتماعى للعقد " وقالت : " إنه اكتشافى لـ " تشارلى دوليتل " . لماذا ؟ لأنه فقط فى عطلة نهاية هذا الأسبوع ، صحبته معى إلى قاعة هيركورت ، ألا تعرفين ؟ وقد أثار كل الإعجاب . حتى أمى وجدته رائعا " .

قالت بيكى فى عدم تصديق : " والدتك أبدت إعجابها بـ " تشارلى ترامبر " ؟ " .

" نعم بالطبع يا عزيزتى لأن أمى تعرف تماما أنه ليست لدى أية نيه للزواج من تشارلى " .

" احذرى ، فأنا لم تكن لدىَّ نية للزواج من جاى " .

" يا عزيزتى ؛ لا تنسى أبدا أنك تنتمين إلى الطبقة الرومانسية بينما أنتمى أنا إلى خلفية اجتماعية أكثر عملية ولعل هذا هو سر بقاء الأرستقراطية طوال هذه الفترة الممتدة . كلا سوف ينتهى بى المآل إلى التزوج من رجل ثرى من ويلتشاير ولن يكون للأمر أية علاقة بالقدر أو النجوم وإنما هو تقليد منطقى جدير بالاتباع " .

" ولكن هل يعلم السيد القادم من ويلتشاير بخططك المستقبلية هذه ؟ " .

" بالطبع لا يعلم بهذه الخطط . حتى أمه لم تخبره بها بعد " .

" ولكن ماذا لو أحبك تشارلى ؟ " .

" هذا ليس ممكنا ؛ لأن هناك امرأة أخرى فى حياته " .

قالت بيكى : " يا إلهى وأنا لم أقابلها قط من قبل "

كشفت أرباح الستة والتسعة شهور الأولى عن حدوث تطور كبير فيما يخص الأرباح وهو ما اكتشفته دافنى عندما تلقت حصتها . وقد أخبرت بيكى أن هذا المعدل يعنى أنه لم يعد لديها أمل فى تحقيق أية أرباح طويلة المدى من وراء القرض . أما بالنسبة لـ " بيكى " فقد تضاءل الوقت الذى أصبحت تقضيه فى التفكير فى دافنى وتشارلى والمتجر مع اقتراب موعد رحيل جاى إلى الهند .

الهند ....لم تنم بيكى فى الليلة التى علمت فيها أن جاى سوف يقضى ثلاث سنوات خدمة فى الهند وتمنت لو تمكنت من تبين ما عزم عليه بشأن مستقبل علاقتهما منه هو شخصيا وليس من دافنى . كانت بيكى قد قبلت - بدون أى تردد - بعدم مقابلة جاى على أساس منتظم بسبب طبيعة عمله فى الجيش ، ولكن مع اقتراب موعد رحيله إلى الهند شعرت بالاستياء من عمل الحراسة

والتدريبات الليلية ، والأكثر من ذلك ؛ كل العمليات التى كانت تقوم بها فرقة الرماية الملكية فى عطلة نهاية الأسبوع .

خشيت بيكى من فتور مشاعر جاى بعد الزيارة المؤسفة إلى آشورست ، ولكن العكس هو الذى حدث فى واقع الأمر ؛ حيث ازدادت مشاعره تأججا وظل يؤكد لها مدى اختلاف الأمور عندما يتزوجان .

ولكن بعدها وبدون سابق إنذار تحولت الشهور إلى أسابيع والأسابيع إلى أيام إلى أن أصبح اليوم المفزع الذى كانت بيكى قد رسمت حوله دائرة فى النتيجة المجاورة لسريرها - وهو الثالث من فبراير عام ١٩٢٠ - وشيكا.

اقترح جاى فى يوم الاثنين الذى كان سيرحل بعده . " لنتناول العشاء فى كافيه رويال حيث قضينا ليلتنا الأولى " .

قالت بيكى : " كلا لا أريد أن يشاركنى فيك المئات من الغرباء فى آخر ليلة لنا سويا " ، ثم أضافت فى تردد : " إن كان بوسعك أن تتحمل طهيى فإننى أفضل أن أقدم لك عشاءً فى المنزل . على الأقل سوف نكون بذلك بمفردنا " .

ابتسم جاى .

عندما بدأت أحوال المحل تستقر ؛ توقفت بيكى عن المرور عليه يوميا ولكنها لم تكن تقوى على منع نفسها من إلقاء نظرة عبر النافذة كلما مرت بالعقار ١٤٧ . وقد فوجئت فى الثامنة صباحا من يوم الاثنين هذا تحديدا أن تشارلى لم يكن موجودا وراء النضد .

سمعت صوتاً يصيح من ورائها يقول : " أنا هنا " ، واستدارت لكى تجد تشارلى جالسا على نفس الأريكة المقابلة للمحل التى كان جالسا عليها فى أول يوم وصل فيه إلى لندن . فعبرت الشارع إليه .

" ما هذا ؛ هل أحلت نفسك إلى التقاعد المبكر قبل أن نسدد القرض ؟ " .

" بالطبع لا ؛ أنا أعمل " .

" تعمل ؟ أرجوك اشرح لى يا سيد ترامبر كيف يمكن أن يكون الجلوس على أريكة صباح يوم الاثنين عملا ؟ " .

" لقد كان هنرى فورد هو الذى علمنا أن كل دقيقة تحرك تحتاج إلى ساعة تفكير " ، هكذا قال تشارلى بلهجة جديدة تكاد تكون خالية من لهجته الشعبية القديمة . كما لم تتمكن بيكى أيضا من منع نفسها من ملاحظة الطريقة التى نطق بها كلمة "هنرى" .

سألت بيكى : " وإلى أين قادتك هذه الأفكار الهنرية فى هذه اللحظة تحديدا ؟ " .

" إلى هذا الصف المقابل من المحلات " .

نظرت بيكى إلى كل المحلات الممتدة أمامها وقالت : " كل هذه المحلات ؟ " .

" وما هى الخلاصة التى كان يمكن أن يصل إليها السيد فورد إن كان جالسا فى مكانك على الأريكة ؟ أخبرنى ؟ " .

" أن هذه المحلات تمثل ستة وثلاثين طريقة لاكتساب المال " .

" لم يسبق لى أن أحصيتها ولكننى أثق فى كلامك " .

" ولكن ما الذى ترينه أيضاً عندما تنظرين عبر الشارع ؟ " .

عادت بيكى تنظر إلى حدائق تشيلسيا وقالت : " الكثير من الناس يسيرون ذهاباً وإيابا فوق الرصيف وتحته وخاصة السيدات

اللاتى يحملن المظلات والمربيات اللاتى يدفعن عربات الأطفال والطفل الذى يمر بالحبل والطوق لماذا ؛ ما الذى تراه أنت ؟ " .

" لافتتين مكتوباً عليهما كلمة " للبيع " " .

" أقر أننى لم ألحظهما " ، ثم نظرت ثانية إلى الطريق .

شرح تشارلى قائلاً : " ذلك لأنك تنظرين بعينين مختلفتين " .

" هناك بداية جزارة كندريك. حسنا كلنا يعلم قصته ؛ أليس كذلك ؟ لقد أصيب بنوبة قلبية ونصحه الطبيب أن يتقاعد فى وقت مبكر وإلا فسوف يفقد حياته " .

قالت بيكى بعد أن لاحظت اللافتة الأخرى : " ثم محل السيد روثرفورد " .

" الذى يعمل فى مجال التحف . أجل ، العزيز جوليان يريد أن يبيع متجره ويلحق بصديقه فى نيويورك ، حيث يبدى المجتمع المزيد من التعاطف والتفهم لنزعته الخاصة ـ تعجبنى الكلمة " .

" وكيف عرفت ذلك ــ ؟ " .

قال تشارلى وهو يلمس أنفه : " المعلومات . إنها العمود الفقرى لأى عمل " .

" هذا مبدأ فوردى آخر ؟ " .

أقر تشارلى قائلاً : " كلا ؛ إنه أقرب من ذلك . إنه أحد مبادئ دافنى هيركورت براون " .

ابتسمت بيكى وقالت : " إذن ما الذى تنوى فعله حيال كل هذا ؟ " .

" سوف أمتلك كليهما ؛ أليس كذلك ؟ " .

" وكيف تخطط لفعل ذلك ؟ " .

" بتخطيطى واجتهادك " .

" هل أنت جاد يا تشارلى ترامبر ؟ " .

" لم أكن فى حياتى أكثر جدية من ذلك " ، ثم استدار تشارلى لينظر إليها ثانية وقال : " على أية حال ليس هناك اختلاف كبير بين حدائق تشيلسيا ووايت شابيل " .

قالت بيكى : " ربما فقط الفاصل العشرى الزائد " .

" إذن دعينا نزيل الفاصل العشرى يا آنسة سالمون . لأن الوقت قد حان لكى تكفى عن كونك شريكة خاملة وتشرعى فى أداء مهام شراكتك " .

" ولكن ماذا عن الاختبارات ؟ "

" استخدمى الوقت الإضافى الذى تقضينه الآن مع صديقك بعد سفره إلى الهند " .

" سوف يسافر غدا فى الواقع " .

" إذا سوف أمنحك إذن انصراف آخر اليوم ، هكذا يصفه الضباط ، أليس كذلك ؟ لأننى أريدك غدا أن تذهبى إلى جون دى وود وتحددى موعدا للقاء هذا الفتى الوسيم ، ما اسمه ؟ " .

قالت بيكى : " بالمر " .

قال تشارلى : " نعم ، بالمر . اطلبى منه أن يفاوض فى السعر نيابة عنا لكلا المحلين وأخبريه أيضا أننا نود شراء أى شيء يعرض للبيع فى حدائق تشيلسيا " .

قالت بيكى التى بدأت تدون بعض الملاحظات فى كراستها : " أى شيء آخر يعرض للبيع فى تشيلسيا ؟ " .

" نعم سوف نكون بحاجة لتوفير كل المال اللازم لشراء هذه الممتلكات ، لذا يجب أن تقومى بزيارة البنوك وتسعى للحصول على

أفضل الشروط . لا تفكرى فى أى عرض تزيد نسبة فائدته على أربعة بالمائة " .

" لا شيء يزيد على أربعة بالمائة " ، هكذا كررت بيكى ، ثم رفعت رأسها وأضافت قائلة : " ولكن ستة وثلاثين محلا يا تشارلى ؟ " .

" أعلم أنا هذا يمكن أن يستغرق وقتاً طويلاً " .

* * *

فى مكتبة جامعة بيدفورد ، حاولت بيكى أن تدفع أحلام تشارلى فى أن يكون السيد سيلفريدج الجديد بعيدا عن تفكيرها بينما كانت تسعى لاستكمال بحثها عن تأثير بيرنينى على فن النحت فى القرن السابع عشر . ولكن عقلها بقى مع ذلك يتأرجح بين بيرنينى وتشارلى ثم يعود ثانيةً إلى جاى . وبعد أن عجزت عن استيعاب العصر الحاضر شعرت أنها ربما تكون أكثر عجزا عن استعياب الماضى لذا قررت فى النهاية أن ترجئ بحثها إلى أن تصبح قادرة على العثور على المزيد من الوقت لكى تركز على الماضى .

أثناء استراحة الغداء ، جلست على جدار من الطوب الأحمر خارج المكتبة وهى تتناول برتقالتها بينما واصلت تفكيرها . قضمت قضمة أخيرة ثم ألقت بذر البرتقالة فى أقرب سلة مهملات ووضعت باقى مقتنياتها داخل حقيبتها قبل أن تبدأ رحلتها إلى تشيلسيا .

وعندما وصلت إلى حدائق تشيلسيا ، توقفت عند محل الجزارة حيث اشترت اللحم وأعربت للسيدة كندريك عن بالغ أسفها لما ألم بزوجها . وعندما سددت الفاتورة ، لاحظت أن العاملين بالمحل كانوا يفتقدون الحماس اللازم على الرغم من تدريبهم بشكل جيد . كان الزبائن يفرون بمجرد الحصول على ما يريدونه ، بينما كان

تشارلى لا يسمح لهم أبدا بذلك . ثم وقفت بعدها فى صف محل ترامبر ثم نادت على تشارلى لكى يحضر لها ما تريد .

" هل تريدين شيئا بعينه يا سيدتى ؟ " .

" رطلان من البطاطس ورطل من المشروم وثمرة كرنب وثمرة كانتالوب " .

قال تشارلى وهو يضغط على أعلى الثمرة قليلا : " إنه يوم حظك يا سيدتى . إن الشمام يجب أن يؤكل هذا المساء . هل هناك شىء تريد السيدة شراءه ؟ ربما القليل من البرتقال أو الجريب فروت ؟ " .

" كلا ، شكرا لك يا رجلى الطيب " .

" الحساب هو إذا ثلاثة شلنات وأربعة بنسات يا سيدتى " .

" ولكن ألن تمنحنى ثمرة برتقال خاصة إضافية كما تفعل مع باقى الفتيات ؟ " .

" كلا يا سيدتى ، مثل هذه المزايا لا يحصل عليها سوى زبائننا الدائمين فقط . ولكننى أذكرك أننى يمكن أن أقتنع بما تقولين إن شاركتك تناول ثمرة الشمام هذه الليلة . مما سيمنحنا وقتا لدراسة خطتنا الكبرى لحدائق تشيلسيا ولندن والعالم بأسره " .

" لا يمكن الليلة يا تشارلى . لأن جاى سوف يسافر إلى الهند غدا صباحا " .

" بالطبع ، كم كان ذلك غباءً منى ، أنا آسف . لقد نسيت " ، وبدا مشوشا على غير العادة ثم قال : " ربما فى الغد ؟ " .

" أجل ولم لا ؟ " .

" إذن سوف أصحبك إلى العشاء فى الخارج كمكافأة خاصة . سوف أمر عليك فى الثامنة " .

قالت بيكى آملة أن يكون صوتها قد بدا مبشرا : " اتفقنا يا شريكى " .

ثم انشغل تشارلى فجأة بسيدة ضخمة كانت قد اتخذت مكانها فى مقدمة الصف .

قال تشارلى بعد أن استعاد لهجته السوقية : " آه ، السيدة نورس . اللفت السويدى المعتاد أم أننا سنتقدم على القليل من المجازفة اليوم ، يا سيدتى ؟ " .

نظرت بيكى إلى السيدة نورس ، ولم يكن عمرها يقل عن الستين بيوم واحد ، فوجدت صدرها الضخم قد انتفخ تعبيرا عما تشعر به من رضا .

وعندما عادت إلى شقتها ، قامت بيكى سريعاً بتفقد غرفة الاستقبال لكى تتأكد من نظافتها ونظامها . كانت الخادمة قد أدت عملا جيدا ، وبما أن دافنى لم تكن قد عادت بعد من إحدى عطلات نهاية الأسبوع الطويلة الخاصة بها لم يكن على بيكى سوى أن تنظم الوسائد وتغلق الستائر .

قررت بيكى أن تعد الكم الأكبر من العشاء قبل أن تستحم . وكانت بالفعل قد بدأت تندم على رفض عرض دافنى باستخدام طاه وزوج من الخدم من ميدان لاوندز لمساعدتها فى إنجاز المهمة ، ولكنها كانت مصرة على أن تنفرد بـ " جاى " فى هذه الليلة بالرغم من أنها كانت تعلم جيدا أن والدتها لم تكن لتوافق أبدا على تناولها العشاء مع صديق بدون وجود دافنى أو أى مراقب يبقى عينه عليها .

أعدت الشمام وبعدها اللحم مع البطاطس والكرنب والمشروم ، وكان هذا هو نوع العشاء الذى كانت ستؤيده والدتها . ولكنها شكت

فى أن هذا التأييد يمكن أن يمتد ليشمل إهدار كل هذا المال الذى بذلت جهدا فى اكتسابه مقابل شراء زجاجة نبيذ من السيد كوثبيرت فى العقار ١٠١ . قشرت بيكى البطاطس ثم قامت بطهى اللحم وحرصت على وضع بعض النعناع قبل أن تضع اللحم على الكرنب .

وبعد أن نزعت سدادة زجاجة الشراب ، قررت أنها فى المستقبل سوف تكون بحاجة إلى شراء كل احتياجاتها محليًّا لكى تتأكد من توصلها إلى كل المعلومات التى نجح تشارلى فى التوصل إليها عن كل ما يجرى فى تشيلسيا . وقبل أن تدخل لخلع ملابسها ، تأكدت من أنه قد بقى فى الزجاجة بعض البراندى الذى كانت قد اشترته فى عيد رأس السنة السابق .

استلقت فى حمام دافئ لبعض الوقت قبل أن تستغرق فى التفكير فى البنوك التى يمكن أن تسعى للتعامل معها ، والأهم من ذلك كيف ستعرض صفقتها والأرقام التفصيلية الخاصة بدخل ترامبر والجدول الزمنى لسداد القرض .... ثم جمح عقلها بعيداً عن تشارلى إلى جاى والسبب فى أن كلاً منهما لم يتحدث أبدا عن الآخر .

عندما سمعت بيكى ساعة غرفة النوم وهى تعلن انقضاء نصف ساعة ، انتفضت خارج الحوض فى فزع وفجأة أدركت كم الوقت الذى استغرقته فى التفكير فى الوقت الذى كانت فيه واثقة من أن جاى سوف يظهر عند عتبة الباب عندما تدق الساعة الثامنة . فالشىء الوحيد الذى يمكن أن تكون واثقة منه عند التعامل مع الضباط هو أنهم يحافظون على مواعيدهم بمنتهى الدقة .

كانت الملابس ملقاة فى كل ركن من أركان أرضية غرفة النوم عندما أفرغت بيكى محتويات خزانة ملابس دافنى ومعظم محتويات خزانة ملابسها بحثاً عن شيء ترتديه . وفى النهاية وقع اختيارها على الثوب الذى ارتدته دافنى فى حفل سلاح الرماية والذى لم تكن قد ارتدته منذ ذلك الحين . وبمجرد أن نجحت فى إغلاق الزر العلوى للرداء ، نظرت إلى نفسها فى المرآة . كانت بيكى واثقة من أنها تبدو رائعة . وعندما دقت الساعة الثامنة دق معها جرس الباب .

ظهر جاى مرتدياً زيه العسكرى ودخل الغرفة حاملا زجاجة أخرى من الشراب ودستة زهور حمراء . وبمجرد أن وضع كليهما على المائدة ، احتضن بيكى بين ذراعيه .

قال : " ياله من ثوب رائع . لا أظن أننى قد رأيته من قبل " .

قالت بيكى وهى تشعر بالذنب لأنها لم تستئذن دافنى فى ارتدائه : " كلا ، إنها المرة الأولى التى أرتديه فيها " .

سألها جاى وهو يتلفت حوله : " ليس هناك أحد يساعدك ؟ " .

" لكى أكون صادقة لقد تطوعت دافنى للقيام بدور الوصيفة ولكننى لم أقبل لأننى كنت أريد أن أنفرد بك فى آخر ليلة سوف نقضيها معاً " .

ابتسم جاى وقال : "هل يمكن أن أقوم بشىء ؟ " .

" نعم يمكنك أن تنزع سدادة زجاجة الشراب بينما أضع البطاطس " .

" بطاطس ترامبر ؟ "

" بالطبع " ، هكذا أجابت بيكى بينما عادت ثانية إلى المطبخ ووضعت الكرنب فى ماء مغلى . وترددت للحظة قبل أن تقول له : " أنت لا تحب تشارلى أليس كذلك ؟ " .

صب جاى كأس لكل منهما وكأنه لم يسمع مـا قالتـه ولم يسـع للرد عليه .

قالت بيكى عندما عادت إلى غرفة الاستقبال وأخذت منه الكأس الذى صبه لها : " كيف كان يومك ؟" .

أجاب : " كنت أعد حقائب لا آخر لها استعداداً لرحلة الغد . إنهم يتوقعون أن نقتنى أربعة من كل شىء فى هذا البلد اللعين " .

قالت بيكى وهى ترتشف الشراب : " من كل شىء ؟" .

" كل شيء . وأنت كيف كان يومك ؟ "

" تحدثت مع تشارلى عن خططه بشأن احـتلال كـل جـزء فـى لندن بدون إعلان الحرب واشتريت زجاجة الشراب وانتقيت بعـض المشـروم ؛ ناهيـك عـن حصـتى اليوميـة التـى أحصـل عليهـا مـن ترامبر " . وبعـد أن انتهـت مـن حـديثها ، وضـعت بيكـى نصـف شمامة فى طبق جاى ووضعت النصف الآخر فى طبقهـا هـى بينمـا أعاد هو ملء الكأسين .

وعلى مدى عشاء طويل ؛ أصبحت بيكـى بمـرور الوقـت تـزداد إدراكا بأن هذا سوف يكون على الأرجح عشاءهما الأخير على مـدى الثلاثة أعوام التالية . تحدثا عن المسرح والفرقة العسكرية ومشـاكل أيرلندا ودافنـى وحتـى عـن أسـعار الشمام ولكنهمـا لم يـذكرا كلمـة واحدة عن الهند .

" يمكنك دائما أن تأتى لزيارتى "، هكذا قال أخيرا ؛ مثيرا هذا الموضوع المثير للفزع وهو يصب كأسا آخر من الشراب بعـد أن أفـرغ الزجاجة تقريبا .

قالت وهى تحمل الأطباق الفارغـة مـن فـوق المائـدة لتعيـدها إلى المطبخ : " إن الرحلة قد تستغرق يوماً كاملاً ، أليس كذلك ؟ "

" أظن أن هذا سوف يكون ممكناً فى وقت ما فى المستقبل " .

صب جاى لنفسه كأساً آخر ثم فتح الزجاجة التى اشتراها .

" ما الذى تقصده ؟ " .

" بالطائرة . لقد نجح ألكوك وبراون فـى عبـور الأطلنطـى بـدون توقف . لذا فإن الهند يجب أن تكون الطمـوح التـالى لأى رائـد فـى هذا المجال " .

قالت بيكى عندما عادت من المطبخ : " ربمـا يمكننـى الجلـوس على أحد الأجنحة " .

ضحك جاى وقال : " لا تقلقى . أنا واثق أن السـنوات الـثلاث سوف تمر كالبرق وبعدها سوف نتزوج فور عودتى " . ثم رفع كأسه ونظر إليها وهى تشرب كأساً آخر . وظلا صامتين لبعض الوقت .

نهضت بيكى من المائدة وهى تشعر بقليـل مـن الـدوار وقالـت : " يجب أن أضع الغلاية على الموقد " .

عندما عادت بيكى لم تلحظ أن كأسها كان قد أعيد ملؤه . وقال جاى : " شكرا على هذه الأمسية الرائعة " . وللحظة خشيت بيكى أن يكون قد عزم على الرحيل .

" والآن أعتقد أنه قد حان وقت غسيل الصـحون وأخشـى أننـى قد تركت خادمى فى الثكنات " .

قالت بيكى بعد أن أفاقت : " كلا ؛ لا تشغل بالك بذلك . فأنا أسـتطيع أن أقضـى عامـا فـى غسـيل الصـحون متبوعـا بعـام فـى التجفيف وعام بعده لإرجاع الأوانى إلى أماكنها " .

قاطع صوت توقف الغلاية ضحكة جاى .

قالت بيكـى : " سوف أعـود فـى دقيقـة . لم لا تصـب لنفسـك بعض الشراب ؟ " . ثم اختفت ثانية داخل المطبخ وانتقت كـوبين

أنيقين . ثم عادت وهى تحمل الكوبين مملوءين عن آخرهما بالقهوة القوية الساخنة وظنت للحظة أن الضوء قد خفت قليلا . وضعت الكوبين فوق المائدة بجوار الأريكة . وقالت محذرة : " القهوة ساخنة للغاية ، علينا أن ننتظر بضع دقائق قبل تناولها " .

قدم لها كأسا نصف ممتلئ من البراندى . ثم رفع كأسه وبقى منتظرا . ترددت ثم أخذت رشفة قبل أن تجلس بجواره . مضى بعض الوقت ثانية دون أن يتحدث أى منهما وفجأة وضع كأسه وأخذها بين ذراعيه .

انتفض جاى وقال لها : " لدى مفاجأة خاصة لك يا عزيزتى ؛ كنت أدخرها لهذه الليلة ."

" وما هى هذه المفاجأة ؟ "

"سوف نعلن خطبتنا فى صحيفة التايمز غدا " .

بقيت بيكى للحظة ثابتة فى مكانها من فرط الذهول وأخذت تحدق فى جاى وقالت : " آه يا عزيزى ؛ كم هذا رائع " ، ثم احتضنته ثانية . ولكنها ابتعدت عنه ثانية وقالت : " ولكن كيف سيكون رد فعل والدتك على ذلك؟ " .

قال جاى : " لا أكترث برد فعلها " ثم احتضنها ثانية .

أضاف جاى : " ومع ذلك فهناك شىء ما قد خيب ظنى هذه الليلة " .

قالت بيكى وهى تضع كأس الشراب : " خيَّب ظنك ؟ " . وكانت قد بدأت تشعر وقتها بدوار قوى .

قال جاى : " نعم ، خاتم خطوبتك " .

" خاتم خطوبتى ؟ " .

" لقد طلبته من متجر جاراد منذ أكثر من شهر مضى وقد وعدونى بأنه سوف يكون جاهزا هذا المساء . ولكنهم أخبرونى فقط عصر اليوم بأننى يمكن أن أمر لآخذه فى وقت مبكر من صباح الغد " .

قالت بيكى : " لا يهم " .

قال جاى : " بلى هذا أمر مهم ، لقد كنت أريد أن أضعه فى إصبعك الليلة لذا أتمنى أن تحضرى إلى المحطة فى وقت مبكر قليلا عما خططنا له ، لأننى أريد أن أجثو على ركبتى وأقدمه لك " .

وقفت بيكى وابتسمت بينما نهض جاى سريعا وأخذها بين ذراعيه وقال : " سوف أحبك دائماً ، أنت تعلمين ذلك ، أليس كذلك ؟" . وقادته إلى غرفة نومها .

وقضيا ليلة لم يكن لأى واحد منهما أن ينساها .

كانت بيكى نصف نائمة عندما سمعت الباب وهو يصفع ولكنها استدارت بعد أن هيئ لها أن الصوت هو صوت الشقة الواقعة فوقهم . وتحرك جاى بالكاد . وفجأة فتح باب الغرفة وظهرت دافنى أمامهما .

قالت فى همس : " آسفة للغاية ، لم أكن أعرف " ، وأغلقت الباب وراءها بسرعة . نظرت بيكى إلى حبيبها فى فزع .

ابتسم وأخذها بين ذراعيه وقال : " لا تقلقى من دافنى ؛ إنها لن تخبر أحدا " .

كانت محطة ووترلو تعج بالفعل بالضباط فى الزى العسكرى عندما سارت بيكى نحو الرصيف رقم واحد . كانت قد تأخرت دقيقتين ، لذا فوجئت بعض الشىء بأن جاى لم يكن واقفا فى

انتظارها . ثم تذكرت أنه كان يجب أن يمر بشارع ألبيمار لكى يحضر الخاتم .

نظرت فى لائحة مواعيد القطارات المدونة بالطباشير بخط كبير حيث قرأت عبارة : " قطار ساونها مبتون بى آند أوه . المتجه إلى الهند ؛ موعد الرحيل ١١:٣٠ " . واصلت بيكى بحثها فى كل أرجاء المحطة وقد ارتسمت علامات القلق على وجهها قبل أن تستقر عيناها على مجموعة من الفتيات البائسات . كن قد احتشدن مع بعضهن البعض تحت ساعة المحطة ، وكانت صيحاتهن وأصواتهن المنهكة تختلط مع بعضها البعض وهن يتحدثن فى آن واحد عن كرات الصيد ولعبة البولو ومن هو الفريق الخاسر فى الموسم . كن جميعا يدركن أن الوداع يجب أن يتم فى المحطة لأنه لم يكن يليق بفتاة أن تصحب ضابطاً إلى القطار المتجه إلى ساونها مبتون ما لم زوجها أو خطيبها رسميا . ولكن صحيفة التايمز فى صباح هذا اليوم سوف تعلن خطبتها إلى جاى ؛ أى أنه ربما يسمح لها للسفر معه حتى الساحل ....

نظرت فى ساعتها ثانية ، كانت الحادية عشرة وواحداً وعشرين دقيقة . وللمرة الأولى اعتراها بعض الشعور بالاضطراب ثم فجأة رأت جاى يسير فوق الرصيف نحوها يتبعه جندى يجر حقيبتين وحمال يحمل المزيد من الحقائب .

اعتذر لها جاى ولكنه لم يفسر سبب تأخره كل هذا الوقت آمرا الجمال أن يضع حقائبه فى القطار وأن يبقى فى انتظاره . وعلى مدى الدقائق القليلة التالية لم يتحدثا فى موضوع معين تحديدا حتى إن بيكى شعرت أنه متباعد عنها بعض الشىء ولكنها كانت تدرك جيدا أن هناك العديد من الضباط فوق الرصيف يبثون

لوعة الوداع ؛ حيث إنه كان من بينهم أيضا رجال يودعون زوجاتهم .

انطلقت صفارة القطار ولاحظت بيكى أن هناك موظفاً ينظر فى ساعته . مال جاى نحوها وقبلها ثم استدار فجأة . أخذت تراقبه وهو يمضى مسرعا نحو القطار بدون أن ينظر وراءه ولو لمرة واحدة ، بينما كان كل ما تذكرته فى هذه اللحظة هو وجودهما فى الفراش معاً وجاى يقول لها : " سوف أحبك دائماً . أنت تعلمين ذلك ؛ أليس كذلك ؟ " .

انطلقت الصافرة الأخيرة ورفع علم أخضر . وقفت بيكى وحيدة . وارتعشت من الهواء الذى هب عليها عندما أدير محرك القطار وسار فوق قضيبه الأشبه بالثعبان مغادرا المحطة لكى يبدأ رحلته نحو ساوثها مبتون . وخرجت الفتيات اللاتى كن يثرثرن ولكن فى اتجاه آخر ؛ نحو سياراتهن الفارهة والسائقين الذين كانوا فى انتظارهن خارج المحطة .

سارت بيكى نحو كشك جرائد فوق الرصيف رقم سبعة واشترت نسخة من صحيفة التايمز مقابل بنسين ، ألقت نظرة سريعة على قائمة المخطوبين ثم بعد ذلك تفحصت الأمر بعناية .

ولم يكن هناك أى أثر لاسم ترينثام أو سالمون .

الفصل

١٠

حتى قبل أن يُقدم أول طبق على مائدة العشاء ، كانت بيكى قد بدأت تندم على قبول دعوة تشارلى فى مطعم السيد سالينى هذا المساء ، وكان هذا هو المطعم الوحيد الذى يعرفه . كان تشارلى يبذل قصارى جهده لكى يكون متفهما لمشاعرها ، مما كان يزيد لديها الشعور بالذنب .

قال وهو يشيد بردائها ذى الألوان الفاتحة الذى كانت قد اقترضته من دافنى : " يعجبنى ثوبك " .

" شكرا لك " .

ثم ساد الصمت .

قال تشارلى : " آسف كان يجب علىَّ أن أفكر جيداً قبل أن أدعوك للعشاء فى نفس يوم رحيل النقيب ترينثام إلى الهند " .

" سوف تعلن خطوبتنا فى التايمز غدا " ، قالت ذلك بدون أن ترفع عينيها عن إناء الحساء الموضوع أمامها والذى لم تكن قد

امتدت إليه يدها : " سوف تعلن خطوبتنا فى صحيفة التايمز غداً " .

قال تشارلى ببرود : " تهانئى " .

" أنت لا تحب جاى ، أليس كذلك ؟ " .

" لم أحسن يوما التعامل مع الضباط " .

قالت بيكى بدون سابق إنذار : " ولكنك قابلته أثناء الحرب . بل إنك فى واقع الأمر تعرفه قبل أن أعرفه أنا، أليس كذلك ؟ " . لم يجب تشارلى ، فأضافت قائلة : " لقد شعرت بذلك فى أول مرة تناولنا فيها العشاء معاً " .

قال تشارلى : " أكون مبالغاً إن قلت إنى أعرفه تمام المعرفة . لقد كنا نخدم فى فرقة واحدة ولكننا حتى الليلة التى تناولنا فيها العشاء لم نكن قد تناولنا الطعام على مائدة واحدة " .

" ولكنكما قاتلتما فى حرب واحدة " .

أجاب تشارلى رافضا أن يقع فى الفخ : " مع أربعة آلاف رجل آخرين من فرقتنا " .

" وهل كان ضابطا شجاعا ومحترما ؟ " .

وفجأة ظهر النادل على غير توقع بجوارهما وقال : " ما الذى تودان شرابه مع السمك يا سيدى ؟ " .

قال تشارلى : " شراب . هناك على الأقل شىء يستحق الاحتفال " .

قالت بيكى " وما هو ؟ " ، ولم تكن تدرك أن هذه هى فقط طريقة لكى يصرف انتباهها عن الموضوع .

" النتائج التى حققناها بعد عامنا الأول . أم أنك نسيت أننا قد سددنا لـ " دافنى " أكثر من نصف قرضها ؟" .

نجحت بيكى فى رسم ابتسامة على وجهها بعد أن أدركت أنها بينما كانت قلقة بشأن رحيل جاى إلى الهند ؛ كان تشارلى قد وجه جل اهتمامه إلى حل مشكلتها الأخرى . ولكن بالرغم من هذه الأنباء ؛ ساد الصمت باقى الأمسية والذى لم يكن يتخلله سوى بعض تعليقات من جانب تشارلى لم يكن لها أى صدى لديها . وكانت من وقت إلى آخر تتجرع الشراب مع السمك كما أنها لم تطلب أى حلوى بعد العشاء ونجحت بالكاد فى إخفاء ارتياحها بعد وصول الفاتورة وانتهاء الأمسية .

دفع تشارلى الفاتورة وترك إكرامية جيدة . وفكرت بيكى بأن دافنى كانت ستفخر به .

وعندما نهضت بيكى من مقعدها شعرت أن الغرفة تدور بها .

سأل تشارلى وهو يضع ذراعه فوق كتفها : " هل أنت بخير ؟ " .

قالت بيكى : " أنا على ما يرام ؛ على ما يرام . ولكننى لم أعتد تناول كل هذا الكم من الشراب على مدى ليلتين متتاليتين " .

قال تشارلى وهو يقودها خارج المطعم إلى الهواء المنعش : " كما أنك لم تتناولى عشاءك جيداً " .

واصلا السير وهى متأبطة ذراعه بطول حدائق تشيلسيا مما دفع بيكى رغما عنها إلى التفكير بأن أى مار فى الطريق لم يكن ليخطئهما على أنهما حبيبين . وعندما وصلا إلى مدخل شقة دافنى ؛ كان على تشارلى أن يدس يده فى حقيبة بيكى لكى يخرج المفتاح . وقد نجح بطريقة ما فى فتح الباب بينما أسندها على الجدار . ولكن بعدها لم تتمالك بيكى نفسها وكادت تسقط على الأرض وكان عليه أن يتشبث بها لكى يحول دون سقوطها . رفعها

وحملها بين ذراعيه حتى وصل إلى الطابق الأول . وعندما وصل إلى الشقة ؛ كان عليه أن يوظف كل مهاراته لكى يفتح الباب بدون أن يسقطها من بين يديه . وأخيرا نجح فى الوصول إلى غرفة الاستقبال ووضعها على الأريكة . ووقف وحمل مقتنياته غير واثق مما إذا كان عليه تركها على الأريكة أو البحث عن غرفة نومها .

كان تشارلى على وشك الرحيل عندما سقطت فوق الأرض وهمهمت بكلمات غير مفهومة ؛ وكانت الكلمة الوحيدة الذى نجح فى تبينها هى كلمة " مخطوبة " .

عاد تشارلى إلى حيث كانت بيكى ولكنه فى هذه المرة رفعها بقوة فوق كتفه . ثم سار بها نحو أحد الأبواب ؛ وأدرك عندما فتحه أنه يقود إلى غرفة نوم . وضعها برفق فوق السرير ، بينما بدأ يعود أدراجه على أطراف أصابعه نحو الباب ؛ أخذت تتقلب فى الفراش وكان على تشارلى أن يهرع عائدا لكى يضعها فى منتصف الفراش حتى لا تسقط على الأرض .

نظر إليها وهمس قائلاً : " تشارلى ترامبر ، أنت رجل أعمى وقد كنت أعمى لفترة طويلة جدا " .

ثم سحب الغطاء ثانية ووضع بيكى بين الأغطية بنفس الطريقة التى رأى بها الممرضات يضعن الرجال المصابين فى الجبهة .

أمنها بكل وسيلة ممكنة لكى لا تسقط ثانية . وكان آخر ما فعله هو أنه مال عليها وقبلها فى خدها .

قال لنفسه وهو يغلق الباب وراءه : " أنت لست أعمى فقط يا تشارلى ترامبر وإنما أيضا مجنون " .

قال تشارلى : " سوف أوافيك فى غضون دقيقة " ، وكان يلقى بعض ثمرات البطاطس فوق الميزان بينما كانت بيكى تنتظره بفارغ الصبر فى أحد أركان المحل .

سأل الزبونة الواقفة فى أول الصف : " هل تريدين شيئاً آخر يا سيدتى ؟ بعض المندرين ربما ؟ بعض التفاح ؟ لدى أيضا جريب فروت رائع من جنوب إفريقيا رأسا ، وصل السوق فقط صباح هذا اليوم " .

" كلا ، أشكرك ، يا سيد ترامبر ، هذا كل ما أريده اليوم " .

" الحساب إذن شلنان وخمسة بنسات يا سيدة سيموندز . بوب أرجو أن تأتى لخدمة الزبون التالى لحين انتهاء حديثى مع الآنسة سالمون " .

" الرقيب ترامبر " .

" سيدى " ، كان هذا هو رد الفعل التلقائى المباشر من تشارلى عند سماع هذا الصوت المدوى . ثم استدار لكى ينظر إلى الرجل الذى كان يقف أمامه فى استقامة بالغة مرتديا سترة عسكرية .

قال الرجل : " أنا لا أنسى أبدا وجها رأيته " ، على الرغم من أن تشارلى كان يمكن أن يبقى متحيراً إن لم يكن قد رأى النظارة الأحادية .

قال تشارلى وقد استحوذ عليه الانتباه : " يا إلهى ! " .

قال الرجل وهو يضحك : " يمكنك أن تنادينى بالعقيد كما أنك لست بحاجة لكل هذا التكلف . لقد ولت هذه الأيام ومضت لحال

سبيلها . على الرغم من أنه قد مضى بعض الوقت منذ آخر مرة التقينا فيها يا ترامبر " .

" قرابة العامين يا سيدى " .

قال العقيد فى تؤدة : " تبدو لى الفترة أطول من ذلك . لقد كنت محقاً بكل تأكيد بشأن بريسكوت ، أليس كذلك ؟ كما أنك كنت صديقا مقربا منه " .

" لقد كان صديقا جيدا " .

" كما أنه كان أيضا جنديا من الطراز الأول واستحق التكريم الذى حصل عليه " .

" أوافقك بكل تأكيد فى هذا يا سيدى " .

" كان يمكن أن تحصل أنت أيضا على نيشان يا ترامبر ولكنه ذهب إلى بريسكوت . أخشى أن الأمر لم يذكر لك إلا من خلال البريد " .

" لقد حصل الرجل المناسب على النيشان " .

قال العقيد : " لقد كانت طريقة وفاة بشعة على كل حال . إن الطريقة التى توفى بها مازالت تطاردنى أتعلم ذلك ؟ على بعد بضع ياردات فقط من حدودنا الأمنية " .

" لم يكن خطأك يا سيدى . وإن كان ثمة خطأ ، فقد كان خطئى أنا " .

قال العقيد : " إن كان ثمة خطأ فلم يكن بكل تأكيد خطأك أنت " ، وأضاف بدون مزيد من التفسير : " ولعل الأفضل أن ننسى الأمر برمته " .

سأل تشارلى : " إذن كيف حال الفرقة العسكرية ؟ هل هى على ما يرام بدونى ؟" .

قال العقيد : " وبدونى أنا أيضا " . وكان يضع بعض التفاحات فى حقيبة تسوق كان يحملها . واستطرد قائلاً : " لقد رحلت الفرقة إلى الهند ولكن بعد أن أنهوا خدمتى لأننى صرت كالحصان العجوز " .

" آسف لسماع ذلك يا سيدى ؛ لقد كانت الفرقة هى حياتك " .

" هذا صحيح ؛ على الرغم من أن أى أحد فى العسكرية يجب أن يخضع إلى الصرف من الخدمة . لكى أكون صادقا معك ؛ أنا رجل مشاة فى المقام الأول ؛ لقد كنت كذلك دائما ؛ لم أولع يوما بهذه الشاحنات العصرية " .

" لو كنا قد اقتنيناها منذ سنوات قليلة يا سيدى لكانت على الأرجح قد أنقذت حياة البعض " .

أومأ العقيد وقال : " إن لها دورها . يجب أن أقر بذلك . كما يحلو لى أيضا أن أفكر أننى أنا الآخر قد قمت بدورى " ، ثم لمس عقدة رابطة عنقه المخططة وقال : " هل سنراك فى عشاء القوات يا ترامبر ؟ " .

" لم يكن لدى علم أن هناك عشاء فى المقام الأول " .

" هناك عشاءان سنويا . الأول فى شهر يناير للرجال فقط والثانى فى شهر مايو يسمح فيه باصطحاب النساء ؛ حيث يكون أيضا حفلا راقصا . وهذا يمنح الزملاء فرصة للتلاقى والثرثرة قليلا بشأن الأيام الخوالى . وسوف يكون من الطيب أن تتمكن من الحضور يا ترامبر . فأنا كما ترى رئيس لجنة الحفل الراقص هذا العام وأنا أسعى لإعداد حفل جيد لائق " .

" إذن سوف أحضر يا سيدى " .

" حسناً . سوف أحرص على أن يتصل بك الضابط المسئول على الفور . ثمن التذكرة عشرة شلنات وسوف تعثر على كل ما تود شربه . أنا واثق أنك لن تجد صعوبة فى تسديد المبلغ " ، قال العقيد ذلك وهو ينظر فى أرجاء المحل المكتظ بالزبائن .

سأل تشارلى بعد أن أدرك فجأة أن هناك صفاً طويلاً فى الانتظار خلف العقيد : " وهل هناك أى شىء يمكننى أن أحضره لك من هنا يا سيدى ؟ " .

" كلا ، كلا ؛ إن مساعدك الهمام قد اعتنى بى عناية ممتازة وقد استكملت قائمة طلبات زوجتى المدونة كما ترى " . وكان يحمل قطعة ورق هزيلة بالطلبات مع صف من علامات التصويب بجوار كل سلعة .

قال تشارلى : " إذن سوف أنتظر لقاءك فى ليلة الحفل الراقص " .

أومأ العقيد ثم خرج مغادرا نحو الرصيف بدون أن يضيف كلمة واحدة .

تقدمت بيكى نحو شريكها بعد أن أدركت جيدا أنه قد نسى أنها فى انتظار التحدث معه وقالت مازحة : " أمازلت تقف فى التمام يا تشارلى " .

قال تشارلى بشىء من التفاخر : " هذا هو قائد الفرقة ؛ العقيد السير دانيفرز هاميلتون . لقد قادنا فى الجبهة ؛ لقد قام بذلك بالفعل ؛ إنه رجل نبيل بمعنى الكلمة وهو يتذكر اسمى " .

" تشارلى ؛ يجب أن تنظر إلى الأمور الآن . هو رجل نبيل ؛ ربما تكون محقا فى ذلك ولكنه خارج الخدمة ، أما أنت فإنك تدير عملاً واعداً . أىَ أنك تستحق كل الاحترام " .

" ولكنه القائد ، ألا تفهمين ؟ " .

قالت بيكى : " كان القائد ، وقد أسرع بإخبارك بالفعل بأن الفرقة قد رحلت إلى الهند بدونه " .

" ولكن هذا لا يغير شيئا " .

" تذكر كلماتى جيدا يا تشارلى ترامبر ؛ هذا الرجل سوف يناديك فى يوم من الأيام بلقب سير " .

كان قد مضى على رحيل جاى ما يقرب من أسبوع وكانت بيكى أحيانا تنجح فى قضاء ساعة كاملة بدون التفكير فيه .

كانت قد قضت معظم ليلتها السابقة فى إعداد خطاب له على الرغم من أنها عندما توجهت إلى محاضرتها الأولى فى صباح اليوم التالى ؛ سارت متخطية صندوق البريد . ونجحت فى إقناع نفسها بأن فشلها فى إتمام الخطاب يقع على عاتق السيد بالمر .

وقد أصيبت بيكى بخيبة أمل عندما لم ينشر خبر الخطوبة فى صحيفة التايمز فى اليوم التالى كما أصيبت بيأس كامل لأنها لم تنشر على مدى كل أيام الأسبوع . وعندما اتصلت يائسة بمتجر جاراد فى الاثنين التالى ؛ أخبرها البائع بأنه لم يكن لديه أى علم بطلبية خاتم للنقيب ترينثام من سلاح الرماية الملكية . قررت بيكى أن تنتظر لأسبوع آخر قبل أن ترسل خطابا لـ " جاى " . وكانت واثقة من أنه لابد من وجود تفسير بسيط لكل هذه الأمور .

كان جاى مازال يشغل جل تفكيرها عندما دخلت مكتب جون دى . وود فى شارع ماونت . دقت جرس الشقة وطلبت من الموظف مقابلة السيد بالمر .

أخبرها الموظف قائلاً : " السيد بالمر ؟ لم يعد يعمل لدينا ، لقد ترك العمل هنا منذ ما يقرب من عام يا آنسة . هل يمكننى أن أساعدك ؟ " .

قالت بيكى فى حزم : " حسنا أود أن أقابل أحد الشركاء " .

سأل الموظف : " هل لى أن أعرف طبيعة طلبك ؟ " .

قالت بيكى : " نعم أود أن أناقش الشروط الخاصة ببيع العقار رقم ١٣١ والعقار رقم ١٣٥ فى حدائق تشيلسيا " .

" أجل ؛ وهل لى أن أتعرف على اسمك ؟ " .

" الآنسة ريبيكا سالمون " .

" اسمحى لى بلحظة فقط " ، قال الشاب ذلك ولكنه لم يعد إلا بعد عدة دقائق . وعندما عاد كان بصحبته رجل أكبر منه سنا بكثير كان يرتدى معطفاً أسود ونظارة طبية . وكانت هناك سلسلة فضية تتدلى من جيب معطفه عند الخصر .

" جو جميل بالنسبة لهذا الوقت من العام ؛ أليس كذلك يا سيدتى ؟ " .

حدقت بيكى عبر النافذة وأخذت تراقب المظلات وهى ترتفع أعلى وأسفل الرصيف وقررت ألا تعلق على الحكم المناخى الخاص بالسيد كراوثر " .

وعندما وصلا إلى غرفة متواضعة فى مؤخرة البناء ؛ أعلن بكل فخر قائلاً : " هذا هو مكتبى . هلا جلست من فضلك يا آنسة سالمون ؟ " ، ثم أشار إلى كرسى منخفض غير مريح مقابل لمكتبه . ثم جلس هو فوق كرسيه ذى الظهر المرتفع وقال لها موضحاً : " أنا أحد الشركاء ، ولكننى يجب أن أقر أننى الأصغر سنا " ، ثم ضحك على مزحتّه وقال : " والآن كيف يمكن أن أساعدك ؟ " .

قالت " زميلى وأنا نرغب فى شراء العقارين ١٣١ ، ١٣٥ من حدائق تشيلسيا " .

" وهو كذلك . " ، قالها السيد كراوثر وهو يراجع الملف الموضوع أمامه وقال : " وفى هذه الحالة هل الآنسة دافنى هاركورت براون ــ " .

قالت بيكى وهى تكتم أنفاسها : " الآنسة هاركورت براون ليس لها علاقة بالأمر ؛ وإن شعرت بناء على ذلك أنك لن تستطيع أن تتعامل مع السيد ترامبر ومعى ؛ فسوف يسعدنا أن نتعامل مع المشترى بشكل مباشر " .

" أرجوك لا تسيئى فهمى يا سيدتى . إننى لا أجد أية غضاضة فى التعامل معكما " .

" شكرا لك " .

قال السيد كراوثر وهو يدفع نظارته أعلى أنفه قبل أن يتصفح الملف الموضوع أمامه : " الآن دعينا نبدأ بالعقار رقم ١٣٥ . أجل ؛ إنه ملك العزيز السيد كندريك ؛ جزار من الطراز الأول كما تعرفين . ولكنه للأسف يفكر فى التقاعد مبكرا " .

تنهدت بيكى . ونظر إليها السيد كراوثر من خلال نظارته .

قالت بيكى : " لقد أخبره الطبيب أنه ليس أمامه خيار إن كان يأمل أن يمتد به العمر لأكثر من بضعة أشهر " .

قال السيد كراوثر وهو يعود إلى الملف : " بالفعل . حسنا ؛ يبدو أنه يطلب مائة وخمسين جنيها لذلك المتجر بالإضافة إلى مائة جنيه مقابل الحصول على اسم المتجر " .

" وكم سيتقاضى ؟ "

" لا أفهم ماذا تقصدين تحديدا يا سيدتى ." رفع الشريك الأصغر حاجبيه .

" سيد كراوثر ، قبل أن نهدر دقيقة أخرى من وقتى أو وقتك ؛ أود أن تدرك جيدا أن لدينا رغبة جادة فى شراء كل متجر يعرض للبيع فى حدائق تشيلسيا إن كان سعره مناسبا بغرض امتلاك كل حدائق تشيلسيا على المدى الطويل حتى إن استغرق هذا عمرنا كله . لهذا فإننى لست عازمة على زيارة مكتبك بشكل منتظم على مدى العشرين سنة القادمة فقط لكى أراوغك . لأنه مع حلول هذا الوقت سوف تكون قد أصبحت أحد الشركاء الكبار ولن يكون لديك أو لدىّ وقت لكى نضيعه . هل هذا واضح ؟ " .

قال السيد كراوثر بعد أن ألقى نظرة على الملاحظة التى دونها السيد بالمر عن صفقة العقار ١٤٧ : " بكل تأكيد " . فلم يكن الرجل قد بالغ فى تقييم مدى صراحة العميل . ثم دفع السيد كراوثر نظارته إلى الوراء فوق أنفه .

" أعتقد أن السيد كندريك يمكن أن يقبل بمائة وخمسة وعشرين جنيها إن وافقت على منحه معاشاً يصل إلى خمسة وعشرين جنيها سنويا حتى وفاته " .

" ولكنه قد يعيش إلى الأبد " .

" أرى أننى يجب أن ألفت نظرك يا سيدتى أنك أنت وليس أنا التى أشرت إلى حالة السيد كندريك الصحية " ، ولأول مرة مال الشريك الأصغر إلى الوراء على كرسيه .

أجابت بيكى : " ليست لدى أية نية لحرمان السيد كندريك من المعاش . أرجوك اعرض عليه مائة جنيه للمحل وعشرين جنيها سنويا لمدة ثمانيَة أعوام كمعاش سنوى . وسوف أبدى قدراً من

المرونة فيما يخص الجزء الأخير من الصفقة ولكن ليس فى الجزء الأول . هل هذا واضح يا سيد كراوثر ؟ " .

" بكل تأكيد يا سيدتى " .

" كما أننى مقابل المعاش الذى سوف أدفعه للسيد كندريك أتوقع أن يمنحنى كل النصائح الخاصة بالجزارة وقتما شئت " .

قال كراوثر وهو يدون طلبها فى الهامش : " بكل تأكيد " .

" إذن ماذا بشأن العقار ١٣١ ؟ " .

" إنها مشكلة معقدة بعض الشئ " ، وهكذا قال كراوثر وهو يفتح ملفه الثانى وأضاف : " لا أعرف إن كانت لديك دراية كاملة بالظروف يا سيدتى ولكن ... " .

قررت بيكى ألا تمده بالمعلومات فى هذه المرة فاكتفت بابتسامة رقيقة .

واصل الشريك الأصغر حديثه قائلاً : " حسناً إن السيد روثرفورد سوف يسافر إلى نيويورك مع أحد أصدقائه لكى يفتتح معرضا للتحف هناك فى مكان ما يدعى " فليدج " . ثم تردد فى إكمال الحديث .

قالت بيكى بعد فترة صمت طويلة : " كما أن شراكتهما هى إلى حد ما شراكة من طبيعة خاصة . وقد يفضل بناءً على ذلك بقاء باقى حياته فى شقة فى نيويورك بدلا من أن يقضيها داخل زنزانة فى بريكستون ؟ " .

قال السيد كراوثر بينما بدت بعض قطرات العرق على جبهته : " أجل يا سيدتى . وفى هذه الظروف الخاصة ؛ يريد أن يخلى محله تماما من كل المقتنيات لأنه يشعر أنها سوف تحقق سعراً

أفضل فى مانهاتن . لذا فإن كل ما يعرضه للبيع هو المحل خاليا " .

" إذن ففى هذه الحالة لن يتقاضى أى معاش " .

" أعتقد ذلك " .

" وهل هذا يعنى أن سعره سوف يكون منخفضاً نظرا للضغوط التى يتعرض لها ؟ " .

أجاب السيد كراوثر : " لا أظن ذلك ولكن المحل المعروض للبيع هو الأكبر مساحة فى تشيلسيا ...."

قالت بيكى : " تصل مساحته إلى ألف وأربعمائة واثنين وعشرين قدماً مربعاً تحديدا مقارنة بألف قدم مربع للعقار ١٤٧ الذى اشتريناه مقابل ــــ " .

" كان هذا سعرا مناسبا وقتها إن سمحت لى أن أقول ذلك يا آنسة سالمون " .

" ومع ذلك ــــ " .

قال السيد كراوثر وقد ظهر بعض العرق ثانية فى جبهته : " تماماً " .

" إذن ما هو السعر الذى يطمح إليه مقابل ملكية المحل بعد أن اتفقنا أنه لن يطلب معاشاً " .

قال السيد كراوثر بعد أن ثبت عينيه ثانية على الملف : " سعره هو مائتا جنيه " وأضاف قبل أن يمنح بيكى فرصة لمقاطعته ثانية : " ولكنه مع ذلك يقبل بعرض سعر خاص للغاية مقابل إتمام الصفقة سريعا وهو مائة وخمسة وسبعون جنيها فقط " ، ثم عقد حاجبيه . وقال : " أعتقد أنه حريص على اللحاق بصاحبه فى أقرب وقت ممكن " .

" إن كان حريصا بالفعل على اللحاق بصاحبه فعليه أن يخفض السعر إلى مائة وخمسين جنيها وقد نقبل بمائة وستين جنيها بالرغم من أن هذا قد يستغرق بضعة أيام أخرى " .

" بكل تأكيد " ، ثم نزع السيد كراوثر منديله من جيب سترته العلوى ومسح جبهته . ولم يسع بيكى إلا أن تلاحظ استمرار هطول الأمطار فى الخارج وسألها بعد أن أعاد المنديل إلى جيبه : " هل هناك المزيد يا سيدتى ؟ "

قالت بيكى : " نعم يا سيد كراوثر . أريدك أن تراقب جيدا كل المتلكات المطروحة للبيع فى تشيلسيا وإما أن تخبر السيد ترامبر أو أنا كلما طرح أى شيء للبيع فى السوق " .

"ربما يكون من الأجدر بنا أن نجرى لكما تقييما شاملا لكل المتلكات فى تشيلسيا بحيث يكون لديكما تقرير مفصل عن كل ما يجرى " .

قالت بيكى وهى تخفى دهشتها من هذه المبادرة المباغتة : " سوف يكون هذا نافعاً للغاية " .

ثم نهضت من مقعدها لكى تعلن انتهاء المقابلة .

وبينما كانا يتوجهان إلى المكتب الأمامى ؛ وجد السيد كراوثر فى نفسه الشجاعة لكى يقول : " لقد اكتسب العقار ١٤٧ شعبية كبيرة بين سكان تشيلسيا " .

سألت بيكى وقد فوجئت للمرة الثانية : " وكيف عرفت ذلك " .

قال السيد كراوثر : " من زوجتى . إنها ترفض شراء الفاكهة والخضراوات من أى مكان آخر بالرغم من أننا نعيش فى فولهام " .

قالت بيكى : " زوجتك سيدة محنكة " .

قال السيد كراوثر : " بكل تأكيد " .

ظنت بيكى أن البنوك سوف تستجيب لها بنفس الحماس الذى أبداه السيد كراوثر . ومع ذلك ، فإنها بعد أن انتقت ثمانية بنوك اعتقدت أنها يمكن أن تبادر بتمويلها ، سرعان ما اكتشفت الفارق الكبير بين عرض نفسك كمشتر وعرض نفسك كمقترض . فكانت فى كل مرة تقدم فيها خطتها ـ لأى موظف صغير يبدو غير قادر على اتخاذ أى قرار ـ كانت لا تقابل إلا بالرفض . وقد شمل هذا حتى البنك الذى كان يحتفظ فيه ترامبر بحساب عمله . قالت بيكى وهى تعيد روايتها على دافنى فى وقت لاحق من مساء نفس اليوم : " بل إن أحد صغار الموظفين قال لى بالحرف الواحد فى بنك " بينى " إننى فى حال زواجى سوف يسعدهم التعامل مع زوجى " .

سألت دافنى وهى تسقط مجلتها على الأرض : " عالم الرجال يعترض طريقنا للمرة الأولى ؛ أليس كذلك ؟ إن مكان المرأة هو المطبخ ، أما إذا كانت تتمتع بقدر من الجاذبية فيمكن أن يكون مكانها من آن إلى آخر فى غرفة النوم " .

أومأت بيكى فى اكتئاب وهى ترفع المجلة لتضعها ثانية على مائدة جانبية .

قالت دافنى وهى تدس قدميها فى زوج حذاء ذى طرف مدبب أنيق : " إن هذه الطريقة فى التفكير لم تثر إزعاجى فى يوم من الأيام . يجب أن أعترف بذلك . وهذا يعنى أننى لم أولد بطموح مثل طموحك هذا يا عزيزتى . ومع ذلك فربما قد حان وقت إلقاء طوق النجاة " .

" طوق النجاة ؟ "

" نعم . إن كل ما تحتاجينه لحل مشاكلك هو رابطة عنق مدرسية قديمة " .

" ألن تبدو سخيفة عندما أرتديها ؟ " .

" ربما ستبدو مثيرة للجدل بعض الشيء ولكن هذا ليس مربط الفرس . إن المأزق الذى تواجهينه الآن مرتبط بجنسك ، ناهيك عن لهجة تشارلى فى الحديث بالرغم من أننى كدت أخلصه منها . ومع ذلك فهناك شيء واحد مؤكد وهو أنه لم توجد بعد طريقة لتغيير جنس الشخص " .

سألت بيكى ببراءة : " وما الذى يقودنا إليه كل هذا ؟ " .

" أنت قليلة الصبر يا عزيزتى . تماما مثل تشارلى . يجب أن تمنحينى بعض الوقت لكى أشرح لك ما نحن بصدده " .

جلست بيكى على أحد طرفى الأريكة ووضعت يديها فى حجرها .

واصلت دافنى حديثها قائلة : " أولا يجب أن تعرفى أن كل المصرفيين ما هم إلا زمرة من المتعجرفين الخائفين . وإلا لكانوا مثلك ؛ أى لكانوا قد أداروا أعمالهم الخاصة . لذلك فإن كل ما تريدينه لكى تملكيهم هو رجل محترم يكون بمثابة واجهة لكم " .

" رجل واجهة ؟ " .

" نعم ؛ أى شخص يصحبك إلى البنك كلما لزم الأمر " .

ونهضت دافنى من مقعدها وتفحصت نفسها فى المرآة قبل أن تستطرد : " قد لا يملك هذا الشخص نصف ذكائك ولكنه فى نفس الوقت لن يتعثر بسبب جنسك أو لهجة تشارلى . كل ما سوف يملكه هو رابطة عنق كلاسيكية ويفضل أن يكون حاملا لأى لقب من

الألقاب لكى يساعده فى إنجاز مهمته . إن المصرفيين يحبون لقب البارون ولكن الأهم من كل هذا هو أن الشخص الذى سوف تستعينين به يجب أن يكون بحاجة ماسة إلى المال النقدى . أى مقابل الخدمات التى سوف يسديها لك ؛ هل فهمت ؟ " .

سألت بيكى فى عدم تصديق : " وهل هناك أشخاص مثل ذلك ؟ " .

" بالطبع هناك . بل إن هناك من هذه النوعية الكثيرين ممن يتوقون إلى العمل ولو ليوم واحد " ، وابتسمت دافنى ابتسامة وقالت مطمئنة : " امنحينى أسبوعًا أو اثنين وأنا واثقة من أننى سوف أقدم لك بعدها قائمة صغيرة تحمل ثلاثة أسماء . سوف ترين " .

قالت بيكى : " أنت معجزة " .

" ولكن فى المقابل أريد منك خدمة صغيرة " .

" لك كل ما تريدين " .

" إياك أن تستخدمى هذه الكلمة ثانية مع شخص مفترس مثلى يا عزيزتى . ومع ذلك فإن طلبى بسيط للغاية كما أن بوسعك تنفيذه . إن طلب منك تشارلى أن تصحبيه إلى عشاء القوات والرقص فاقبلى طلبه " .

" لماذا ؟ " .

" لأن ريجى أربورثنوت كان غبيا إلى الحد الذى دفعه لدعوتى إلى هذه المناسبة الحمقاء ولن أستطيع أن أرد طلبه إن كنت أريد أن أسافر معه إلى بلده فى اسكتلندا فى نوفمبر القادم " ، وضحكت بيكى عندما أضافت دافنى قائلة : " وأنا لا أمانع فى أن أصحبه إلى الحفل الراقص ولكننى أمانعُ بكل تأكيد فى أن أغادر معه . إذن

إن وافقت على طلبى فسوف أحضر لك البارون المعدم وأنت سوف تتعهدين لى بقبول دعوة تشارلى " .

" اتفقنا " .

لم يفاجأ تشارلى بقبول بيكى دعوته إلى الحفل الراقص بدون تردد حيث كانت دافنى قد شرحت له مسبقا كل تفاصيل الاتفاق . ولكنه صدم صدمة حقيقية عندما لم يرفع أى واحد من زملائه الملازمين عينيه عن بيكى عندما جلست على مقعدها من المائدة .

قدم العشاء فى صالة الألعاب الشاسعة مما شجع زملاء تشارلى على رواية بعض القصص عن أيام التدريب الأولى فى إيدنبرج . ومع ذلك فإن الصالة كانت هى وجه الشبه الوحيد لأيام التدريب ، أما الطعام فقد كان مختلفا تماما عن الطعام الذى كان يقدم إلى تشارلى فى اسكتلندا .

سألت بيكى بينما كانت ثمرة تفاح مغطاة تماما بالقستر توضع أمامها وقالت : " أين دافنى " .

قال تشارلى : " هنا فى المائدة العلوية مع كل هؤلاء المتغطرسين . لا يمكن أن تسمح لنفسها بأن تظهر مع أمثالنا ؛ أليس كذلك ؟ ".

فور انتهاء العشاء توالى تناول الشراب ، فقد رفع الجميع كؤوسهم للقوات المسلحة ؛ كل كتيبة على حدة ؛ وأخيرا للفرقة العسكرية كلها ؛ مقرونة باسم عقيدهم السابق . وقد راقبت بيكى ردود أفعال الرجال الذين كانوا يجلسون حولها وأدركت للمرة الأولى كم كان معظم رجال هذا الجيل ممتنين لمجرد بقائهم على قيد الحياة .

وقد ألقى العقيد السابق للفرقة العسكرية السير داينفرز هاميلتون الحاصل على أعلى النياشين - بعد أن ثبت نظارته الأحادية فى مكانها - خطبة مؤثرة عن كل الزملاء الذين حال القدر دون تواجدهم معهم فى هذه الليلة بسبب ظروف مختلفة . وقد رأت بيكى تأثر تشارلى البالغ عند ذكر صديقه تومى بريسكوت . وأخيرا نهض الجميع وشربوا نخب كل أصدقائهم الغائبين ، وجدت بيكى نفسها متأثرة رغما عنها .

وبمجرد أن جلس العقيد ؛ تمت إزالة كل الموائد ونحيت جانبا لكى يبدأ الحفل الراقص . وبمجرد أن بدأت الفرقة العسكرية تعزف المقطوعة الموسيقية الأولى حتى ظهرت دافنى من الجانب المقابل من القاعة .

قالت : " هيا يا تشارلى ؛ لا يمكننى أن أنتظر إلى أن تشق طريقك إلى المائدة العلوية " .

قال تشارلى عندما نهض من مقعده : " يسعدنى ذلك بكل تأكيد يا سيدتى ، ولكن ما الذى حل بـ " ريجى " ؛ ما اسمه ؟ " .

أجابت : " أربوثنوت . لقد تركت الرجل الأحمق معلقا بسيدة شعواء من تشيلمسفورد . إنها مفزعة للغاية ؛ لكى أصدقك القول " .

سأل تشارلى مقلدا إياها : " ما الشيء المفزع فيها ؟ " .

قالت دافنى : " لم أكن أتصور أنه فى يوم من الأيام سوف يسمح جلالته لأى شخص من إسيكس بالحضور إلى البلاط الملكى . ولكن الأسوأ من ذلك هو عمرها " .

" لماذا ؟ كم يبلغ عمرها ؟ "، هكذا سأل تشارلى بينما كان يرقص رقصة الفالس مع دافنى بمنتهى الثقة فوق حلبة الرقص .

" لست واثقة تمام من عمرها ؛ ولكنها تجرأت على تقديمى لوالدها الأرمل " .

انفجر تشارلى ضاحكا .

" لا يجدر بك أن تجد ذلك مثيرا للسخرية يا تشارلز ترامبر ؛ وإنما يجب أن تبدى بعض التعاطف . مازال ينقصك تعلم المزيد " .

أخذت بيكى تراقب تشارلى وهو يرقص ببراعة فوق حلبة الرقص . " دافنى هذه رائعة " ، كان هذا هو ما قاله لها الرجل الجالس بجوارها والذى قدم نفسه باسم الملازم مايك باركر والذى كان جزارا من كامبرويل وكان قد خدم مع تشارلى فى مان . وقد أيدته بيكى فى حكمه بدون تعليق ، وعندما قدم التحية لـ " بيكى " بعدها وطلب منها مراقصته ، أجابت طلبه فى شيء من التردد . سار بها فى حلبة الرقص وكأنه يقتاد ماعزاً فى طريقها إلى غرفة التجميد . كان الشيء الوحيد الذى أجاد فعله فى اتساق مع الموسيقى هو دهسه لأصابع قدمها . ثم أعاد بيكى أخيرا بأمان إلى مائدتهم ذات المفرش الملطخ ببقع الجعة . وبقيت بيكى جالسة فى صمت وهى تراقب الجميع وهم يستمتعون بوقتهم على أمل ألا يطلب منها أى أحد آخر مراقصتها . ثم تطرقت أفكارها إلى جاى واللقاء المرتقب الذى لا يمكن الفرار منه لأكثر من أسبوعين آخرين ...

" هل لى أن أتشرف بمراقصتك يا آنسة ؟ " .

انتبه كل الرجال الملتفين حول المائدة إلى عقيد القوات وهو يقود بيكى إلى حلبة الرقص .

وقد وجدت بيكى أن العقيد هاميلتون كان راقصا محنكا وصحبة مسلية كما أنه لم يبد أى نزعة لإبداء تفضله عليها كما فعلت زمرة

الرجال المصرفيين الذين قابلتهم مؤخرا . وبعد انتهاء الرقصة ؛ دعا بيكى للجلوس معه فى مائدة القمة وقدمها لزوجته .

قالت دافنى لـ " تشارلى " وهى تنظر فوق كتفها فى اتجاه العقيد والليدى هاميلتون : " يجب أن أحذرك ، سوف يكون من الصعب جداً بالنسبة لك أن تلاحق طموح الآنسة سالمون . ولكن طالما تنصت إلىَّ وتنتبه إلى كل ما أقول فسوف نمنحها أفضل استثمار لمالها " .

وبعد رقصتين أخريين ؛ أخبرت دافنى بيكى أنها قد أدت واجبها على أتم وجه وأنه يجدر بهم جميعا الانصراف . وكانت بيكى - من جانبها - سعيدة لأنها ستنجو من انتباه عدد كبير من صغار الجنود الذين شاهدوها وهى تراقص العقيد .

" لدىَّ بعض الأنباء السعيدة لكما " ، وهكذا قالت دافنى لهما بينما كانت العربة التى يجرها الحصان تشق طريقها فى اتجاه حدائق تشيلسيا وكان تشارلى لايزال متشبثا بزجاجة الجعة نصف الممتلئة .

قال تشارلى : " ما هى هذه الأنباء يا فتاتى ؟ " ، قالها بعد أن تجشأ .

قالت دافنى متذمرة : " لست فتاتك ، قد أكون على استعداد لاستثمار أموالى فى الطبقات الدنيا يا تشارلى ترامبر ولكننى من أصل نبيل " .

سألتها بيكى ضاحكة : " إذن ما هى هذه الأنباء ؟ " .

" لقد التزمت بالجزء الخاص بك من الصفقة لذا يجب أن أوفى بالجزء المطلوب منى " .

سأل تشارلى وهو شبه نائم : " ماذا تقصدين ؟ " .

" يمكننى الآن أن أقدم لكم القائمة القصيرة التى تحمل أسماء المرشحين لكى يكونوا رجل الواجهة لكما مما سيسهم ـ أتمنى ذلك ـ فى حل مشكلتكما " .

أفاق تشارلى فجأة .

بدأت دافنى بقولها : " المرشح الأول هو الابن الثانى لـ " إيرل " (لقب إنجليزى) وهو معدم ولكنه وجيه . المرشح الثانى هو بارون سوف يؤدى المهمة مقابل مبلغ نقدى ولكن اختيارى المفضل هو كونت خسر كل أمواله على مائدة القمار فى دوفيل ووجد نفسه الآن مضطرا للانخراط فى مثل هذه الأعمال التجارية السوقية " .

سأل تشارلى وهو يحاول أن يتمالك نفسه لكى ينطق الكلمات بشكل جيد : " ومتى سوف نلتقى به ؟ " .

قالت دافنى : " وقتما تريدون غدا ... " .

قالت بيكى فى هدوء : " لن يكون هذا ضروريا " .

سألت دافنى فى دهشة : " ولم لا ؟ " .

" لأننى عثرت على الرجل المناسب الذى سوف يمثلنا " .

" ومن هو هذا الرجل يا عزيزتى ؟ هل هو أمير ويلز ؟ "

" كلا : إنه العقيد سير دانيفرو هاميلتون صاحب كل نياشين الشرف " .

قال تشارلى بعد أن أسقط زجاجة الجعة عند باب العربة الأنيق : " ولكنه القائد الأعلى للقوات . يستحيل أن يوافق " .

" أؤكد لكم أنه سوف يوافق " .

سألت دافنى : " ما الذى يجعلك واثقة إلى هذا الحد ؟ " .

" لأننى قد حددت موعدا للقائه غدا فى الحادية عشرة صباحا " .

الفصل
١١

لوحت دافنى بمظلتها إلى عربة الحصان وهى تقترب منها . توقف السائق ورفع قبعته وقال : " إلى أين يا آنستى ؟ " .

قالت قبل أن تصعد السيدتان على متن العربة : " العقار ١٧٢ فى شارع هارلى " .

رفع قبعته ثانية وبضربة خفيفة على ظهر الحصان سار به فى اتجاه هايد بارك .

سألت بيكى : " هل أخبرت تشارلى بعد ؟ "

أقرت دافنى : " كلا عجزت عن ذلك " .

بقيتا جالستين فى صمت بينما سارت بهما العربة فى اتجاه ماربل آرك .

" قد لا نكون بحاجة إلى إخباره بأى شيء " .

قالت بيكى : " لنأمل ذلك " .

ثم سادت فترة صمت طويلة إلى أن وصل الحصان إلى شارع أوكسفورد

" هل طبيبك رجل متفهم ؟ " .

" لقد كان هكذا دائما فى الماضى " .

" يا إلهى ؛ أنا مرتعدة " .

" لا تقلقى . كل هذا سرعان ما سينتهى قريبا ، وعلى الأقل سوف تعرفين الحقيقة أيًا كانت " .

توقفت العربة عند العقار ١٧٢ فى شارع هارلى وخرجت السيدتان منها . وبينما ربتت بيكى على ظهر الحصان دفعت دافنى ستة بنسات إلى السائق . استدارت بيكى عندما سمعت النقر على مطرقة الباب النحاسية وصعدت درجات السلم الثلاثة لكى تلحق بصديقتها .

جاءتهما ممرضة فى زيها الأزرق وقبعتها وياقتها البيضاء وفتحت لهما الباب وطلبت منهما أن يتبعاها . قادتهما فى رواق مظلم لا يضيئه سوى مصباح غاز واحد ثم أدخلتهما فى غرفة انتظار خالية . كانت هناك نسخ من صحيفتى بنش وتاتلر موضوعة فى انتظام شديد فى منتصف الغرفة . وكانت هناك أيضا مجموعة متنوعة من الكراسى المريحة ولكن غير المتوافقة مع بعضها البعض تحيط بالمائدة المنخفضة . جلست كل منهما على مقعدها ولكن لم تنطق أى منهما بكلمة واحدة إلى أن غادرت الممرضة الغرفة .

بدأت دافنى : " أنا ــــ " .

قالت بيكى فى نفس الوقت : " إذا ــــ " .

ضحكت الاثنتان وتردد صدى صوتهما فى الغرفة ذات السقف المرتفع .

قالت بيكى : " كلا . تحدثى أنت أولا " .

" أردت فقط أن أعرف كيف استعد العقيد للموقف " .

قالت بيكى : " لقد أعطيته كل التفاصيل ، سوف نتوجه لأول لقاء رسمى غدا . سوف نذهب إلى البنك الواقع فى شارع فلييت . وقد طلبت منه أن يتعامل مع الموقف برمته وكأنه يجرب بذلة جديدة لأننى احتفظت بالبنك الذى أظن أنه سوف يمنحنا فرصة حقيقية للأسبوع التالى " .

" وماذا عن تشارلى ؟ " .

" لا يستطيع أن يصدق كل ما يجرى .مازال العقيد فى نظره هو القائد الأعلى للقوات " .

" كان يمكن أن يكون الوضع كذلك بالنسبة لك إن كان تشارلى قد اختار الرجل الذى يدرس لك مادة المحاسبة لكى يراجع الحسابات الأسبوعية للمحل فى العقار ١٤٧ " .

قالت بيكى : " إننى أتجنب هذا الرجل تحديدا فى الوقت الحاضر . إننى أحاول أن أبذل قصارى جهدى فى دراستى الأكاديمية فى الوقت الحالى لكى لا أندم ؛ لقد انخفضت درجاتى فى الآونة الأخيرة وأصبحت لا تتعدى المقبول ؛ فإن لم أنجح فى تحسينها فى النهاية ، فهناك شخص واحد فقط هو الذى يمكن أن ألقى عليه اللوم " .

" سوف تكونين إحدى السيدات القلائل اللاتى يحصلن على درجة البكالوريوس فى الفنون ؛ وربما يكون بوسعك عندها أن تغيرى الدرجة إلى شهادة الغزَّالة " .

" الغزَّالة ؟ " .

" غزَّالة الفنونّ " .

ضحكت الاثنتان على هذه المزحة التافهة فى محاولة لتناسى السبب الحقيقى الذى أجلسهما فى غرفة الانتظار . وفجأة فتح الباب وإذا بالمرضة تدخل الغرفة من جديد .

" سوف يقابلكما الطبيب الآن " .

" هل لى أن آتى معك ؟ " .

" نعم ؛ أنا واثقة من أنه ليس هناك مانع فى ذلك " .

نهضت السيدتان وسارتا خلف المرضة فى نفس الرواق إلى أن وصلتا إلى باب أبيض يحمل لافتة نحاسية تكاد تكون قد بليت مع الزمن ؛ مكتوب عليها " الدكتور فيرجوس جولد " . طرقت المرضة الباب طرقة خفيفة فرد عليها صوت أنيق قائلاً : " نعم " ، فدخلت بيكى ودافنى الغرفة .

قال الطبيب فى صوت متفائل بلهجة اسكتلندية ثم صافحهما الواحدة تلو الأخرى : " صباح الخير . تفضلا بالجلوس . لقد أتممنا الفحوصات وأنا أحمل أنباء ممتازة لكما " . وعاد إلى مقعده خلف المكتب وفتح ملفاً أمامه . ابتسمت الاثنتان وارتسمت علامات الارتياح على بيكى للمرة الأولى منذ أيام .

" أنا سعيد بأن أخبرك بأنك تتمتعين بصحة بدنية ممتازة ، ولكن بما أن هذا هو طفلك الأول " لاحظ وجه السيدتين وهو يشحب " فيجب أن تتصرفى بحذر على مدى الشهور المقبلة . ولكن طالما التزمت بكل ما أقول ؛ فليس هناك ما يدعونى للتفكير باحتمال وقوع أية مضاعفات . هل لى أن أكون أول المهنئين ؟ " .

قالت وهى يكاد يغمى عليها : " يا إلهى ، كلا . ظننت أننى سمعتك تقول إن الأنباء ممتازة " .

أجاب الدكتور جولد : " نعم ، لماذا ؟ ظننت أنك ستطيرين فرحا " .

قاطعته صديقتها قائلة : " ولكن ثمة مشكلة أيها الطبيب . إنها ليست متزوجة " .

قال الطبيب وقد تغيرت نبرة صوته على الفور : " أجل فهمت . أنا آسف . لم تكن لدىّ فكرة ، وإن كنت قد صارحتنى بذلك فى أول لقاء ـــ " .

" كلا ؛ أنا الملامة يا دكتور جولد ؛ إننى فقط كنت آمل ـــ " .

" كلا أنا الملوم بكل تأكيد . كم كان هذا غير لائق من جانبى " ، ثم صمت الدكتور جولد وفكر مليا وقال : " بالرغم من أنها عملية غير مشروعة بعد فى بلادنا إلا أننى أؤكد لك أن هناك بعض الأطباء المتازين فى السويد ممن يجرون ـــ " .

قالت المرأة الحامل : " كلا ، هذا ليس ممكنًا . هذا يتعارض مع ما ينظر إليه أبواى باعتباره سلوكا مقبولا " .

" صباح الخير يا هادلو " ، هكذا قال العقيد وهو يخطو داخل البنك ويمد يده للمدير بمعطفه وقبعته وعصاه .

أجاب المدير وهو يأخذ القبعة والمعطف والعصا ويمررها لساعده : " صباح الخير يا سير هاميلتون . " هل لى أن أعرب عن مدى سعادة هيئتنا بتشريف سيادتكم لنا بالزيارة اليوم ؟ " .

ولم تستطع بيكى أن تمنع نفسها من التفكير فى أن هذا الاستقبال كان يختلف تماما عن الاستقبال الذى لاقته عندما ذهبت لزيارة بنك مشابه منذ أسابيع قليلة مضت .

واصل المدير حديثه وهو يمد يده وكأنه يضبط حركة المرور : " هلا تفضلت بالجلوس فى مكتبى ؟ " .

" بكل تأكيد ؛ ولكن هل لى أن أقدم لك أولا السيد ترامبر والآنسة سالمون شركائى فى هذا المشروع ؟ " .

" سوف يسعدنى ذلك بكل تأكيد ." قال المدير ذلك وهو يدفع نظارته فوق أنفه قبل أن يصافح بيكى وتشارلى الواحد تلو الآخر .

لاحظت بيكى أن تشارلى كان صامتا على غير عادته وبقى يجذب ياقته طوال الوقت التى بدت ضيقة عليه بعض الشىء . فبعد أن كان قد قضى صباحه فى متجر سافيل رو فى الأسبوع السابق لكى تؤخذ مقاساته من الرأس إلى القدم لتفصيل بذلة جديدة ؛ رفض أن يبقى لدقيقة إضافية عندما طلبت منه دافنى أن تؤخذ مقاساته لعمل قميص له . مما ترك دافنى فى النهاية تخمن مقاس عنقه .

سأل المدير بمجرد أن استقر الجميع فى المكتب : " قهوة ؟ " .

قال العقيد : " كلا ؛ شكرا لك " .

كانت بيكى تتوق إلى تناول قدح من القهوة ولكنها أدركت أن المدير افترض أن السير هاميلتون يتحدث نيابة عن ثلاثتهم .فعضت على لسانها .

" والآن كيف يمكن أن أساعدك يا سير دانيفرز ؟ " ثم لمس المدير بعصبية عقدة رابطة عنقه .

" أنا ومساعداى نمتلك بالفعل محلا فى شارع تشيلسيا ـ العقار رقم ١٤٧ ـ وهو بالرغم من كونه صغيرا الآن إلا أنه يزدهر بشكل واعد " . بقى المدير محتفظا بنفس الابتسامة .

" لقد اشترينا المكان منذ ثمانية عشر شهرا مضت بمبلغ مائة جنيه وحققنا ربحا سنويا تعدى الأربعين جنيها بقليل " .

قال المدير : " هذا مرض للغاية . بالطبع لقد اطلعت على الخطاب والحسابات التى تكرمت بإرسالها عن طريق مراسلك " .

وشعر تشارلى برغبة قوية فى أن يكشف عن شخص المراسل الذى حمل الخطاب .

واصل العقيد حديثه : " ومع ذلك لقد شعرنا أنه قد آن لنا أن نتوسع ولكى نحقق هذا الهدف شعرنا أننا بحاجة للبحث عن بنك يكون أكثر تحمسا من الهيئة التى نتعامل معها حاليا ؛ أى بنك صاحب نظرة مستقبلية . إن العمل البنكى ـ أشعر أحيانا ـ مازال يعيش فى القرن التاسع عشر . بصراحة إنه لا يعدو كونه حامل أرصدة وودائع بينما ما نبحث عنه فى واقع الأمر هو بنك حقيقى " .

" أفهم ما تعنيه " .

" من الأمور التى تثير إزعاجى ـــ " ، هكذا قال العقيد فجأة ثم أعاد تثبيت نظارته الأحادية فوق عينه اليسرى .

قال السيد هادلو بعد أن تقدم فى مقعده إلى الأمام فى شىء من التوتر : " يزعجك ماذا ؟ "

" رابطتك " .

" رابطتى ؟ " ، تحسس المدير رابطة عنقه ثانية بعصبية .

" نعم ؛ رابطتك . رجالك " .

" أنت محق يا سير دانيفرز " .

" هل شهدت ما يجرى ؛ يا هادلو ؟ " .

" كلا ليس تحديدا فإن نظرى ضعيف كما ترى " . ثم أخذ يحرك نظارته فى قلق .

قال العقيد : " حظك سيىء يا صديقى " ثم أعاد نظارته الأحادية ثانية وقال : "حسنا ؛ فلنواصل حديثنا . أرى أنا وشركائى أنه قد حان وقت التوسع ولكننى أرى أنه من الإنصاف أن تعرف أننا قد حددنا موعدا للقاء بنك منافس عصر يوم الخميس المقبل " .

" عصر الخميس " ، كرر المدير بعد أن دس قلمه الحبر فى محبرته ثانية وأضاف هذه المعلومة إلى باقى المعلومات التى كان قد سجلها من قبل .

استطرد العقيد قائلاً : " ولكننى كنت آمل أن تضع فى اعتبارك أننا قد قررنا زيارتكم أولا " .

قال السيد هادلو : " وهذا يشعرنى بالفخر الحقيقى . وما هى الشروط التى تود أن تحصل عليها من البنك يا سير دانيفرز ، ولا يستطيع بنكك الحالى أن يقدمها لك ؟ " .

صمت العقيد للحظة بينما نظرت إليه بيكى فى قلق لأنها لم تكن تذكر ما إن كانت قد ذكرت له كل الشروط . فلم يكن أى منهما قد توقع أن تتطور الأمور إلى هذا الحد فى اللقاء الأول .

تنحنح العقيد وقال : " نحن نتوقع بكل تأكيد الحصول على شروط منافسة تدفعنا إلى نقل أعمالنا إلى بنككم مع الوضع فى الاعتبار التعاملات طويلة المدى " .

تركت هذه الإجابة انطباعا جيدا لدى هادلو . فنظر إلى الأرقام المبينة أمامه وأجاب قائلا : " حسنا ؛ أرى أنك تطلب قرضا بمائتين وخمسين جنيها لشراء العقارين ١٣١ و١٣٥ فى حدائق تشيلسيا مما يفرض علينا إذا ما وضعنا وضعكم المالى فى الاعتبار ؛

السحب على المكشوف " ثم صمت وكأنه يجرى حسبة فى عقله ثم استطرد : " لما لا يقل عن مائة وسبعين جنيها " .

" تماما يا هادلو . أرى أنك قد درست حالتنا الراهنة بشكل رائع " .

سمح المدير لنفسه بابتسامة بسيطة وقال : " نظرًا لهذه الظروف يا سير دانيفرز فأنا أرى أننا يمكن أن نقرضكم المبلغ المطلوب إن كانت فائدة أربعة بالمائة سنويا تحظى بقبولك أنت وشركائك " .

تردد العقيد ثانية إلى أن لاحظ بيكى وهى تبتسم نصف ابتسامة .

قال العقيد : " إن البنك الذى يمولنا حاليا يطالبنا بثلاثة ونصف بالمائة كنسبة فائدة فقط ، وأنا واثق أنك تعلم " .

أشار السيد هادلو : " ولكنهم لا يتحملون أية مجازفة . كما أنهم لا يسمحون لكم بالسحب على المكشوف لأكثر من خمسين جنيها . ومع ذلك . أشعر أننا فى هذه الحالة الاستثنائية يمكن أن نطالبكم بفائدة ثلاثة ونصف بالمائة فقط . فما رأيك ؟ " .

لم يعلق العقيد بكلمة إلى أن لاحظ التعبير الذى ارتسم على وجه بيكى . فقد كانت ابتسامتها قد ازدادت اتساعا لتغطى وجهها .

" أعتقد أننى أتحدث باسم شركائى يا هادلو عندما أرى أن عرضك مقبول ؛ مقبول للغاية " .

أومأت بيكى وتشارلى بالموافقة .

" إذن سوف أبادر بإعداد كل الأوراق المطلوبة وقد يستغرق هذا بضعة أيام " .

قال العقيد : " وأنا أؤكد لك يا هادلو أننا نتطلع إلى شراكة طويلة مثمرة مع بَنككم " .

نهض المدير وقدم التحية بحركة - شعرت بيكى - أنه يصعب حتى على السير هنرى إيفرينج أن يؤديها .

واصل السيد هادلو سيره إلى أن أوصل العقيد وشريكيه إلى القاعة الأمامية .

سأل العقيد : " أما زال تشابى دوكوورث العجوز يعمل هنا؟ "

همس السيد هادلو فى تبجيل : " اللورد دوكوورث هو مدير البنك الحالى "

" إنه رجل محترم ؛ لقد خدمت معه فى جنوب إفريقيا . فى الرماية الملكية . سوف أخبره بلقائنا - إن أذنت لى - عندما ألتقى به فى النادى " .

" سوف يكون هذا كرمًا منك يا سير دانيفرز " .

عندما وصل الجميع إلى الباب ؛ صرف المدير مساعده وساعد العقيد بنفسه على ارتداء معطفه ثم قدم له قبعته وعصاه قبل أن يودع عملاءه الجدد . " يمكنك أن تحادثنى وقتما شئت " ، كانت هذه كلمات الرجل الأخيرة وهو يقدم التحية ثانية . وظل واقفا إلى أن اختفى عملاؤه الثلاثة عن الأنظار .

وبمجرد أن وصل الثلاثة إلى الشارع ؛ سار العقيد بسرعة فى أحد الأركان ثم توقف خلف أقرب شجرة . جرت بيكى وتشارلى خلفه غير مدركين لما يمكن أن يكون قد ألم به .

قال تشارلى عندما لحق به : " هل أنت بخير يا سيدى ؟ " .

" أنا على ما يرام يا ترامبر . على خير ما يرام ولكننى لكى أكون صادقا فإننى أفضل لقاء عصبة من المقاتلين الألمان عن إجراء مثل هذه المقابلات ثانية . ومع ذلك ؛ كيف كان أدائى ؟ " .

قالت بيكى : " لقد كنت رائعا . أقسم أنك إن كنت قد خلعت حذاءك وطلبت منه أن ينظفه لك لكان قد أخرج منديله وبدأ يمسحه فى الحال " .

ابتسم العقيد وقال : " حسنا . إذن أنت ترين أننى قد أبليت بلاء حسنا " .

قالت بيكى : " مثاليا . ليس هناك أفضل من ذلك . سوف أتوجه إلى جون دى . وود عصر اليوم وأدفع مقدمًا للعقارين " .

قال العقيد وهو ينهض ويقف على قدميه : " إننى أحمد الله على أن هذا هو رأيك يا آنسة سالمون . هل تعرفين أنك يمكن أن تكونى ضابطا ممتازا ؟ " .

ابتسمت بيكى وقالت : " أرى أن هذه مجاملة عظيمة أيها العقيد " .

أضاف قائلاً : " ألا توافقنى يا ترامبر ؟ لقد حصلت لنفسك على شريكة ماهرة " .

قال تشارلى بينما بدأ العقيد يشق طريقه وهو يأرجح مظلته : " نعم يا سيدى . لكن هل لى أن أسألك عن شيء كان يثير قلقى ؟ " .

" بالطبع يا ترامبر ؛ أخبرنى " .

قال تشارلى : " إن كنت صديقا لرئيس البنك فلم لم تتوجه إليه مباشرة فى المقام الأول ؟ " .

توقف العقيد فجأة وقال : " يا عزيزى ترامبر ؛ أنت لا تزور مدير البنك من أجل قرض بمائتين وخمسين جنيها . ومع ذلك ؛ دعنى أقول لك إننا قريبا سوف نكون بحاجة إلى زيارته . ومع ذلك هناك حاجات أكثر إلحاحا أشعر بها الآن " .

قال تشارلى : " حاجات أكثر إلحاحا ؟ " .

" نعم يا ترامبر ، أنا بحاجة إلى الجعة ، ألا تعرف ؟ " ، هكذا قال العقيد وهو ينظر إلى لافتة حانة فى الجهة المقابلة من الطريق ، وأضاف : " وعندما نصل إلى هناك لتكن جعة مركزة " .

* * *

سأل تشارلى عندما صارحته بيكى بالأنباء : " فى أى شهر أنت ؟ " .

" فى الشهر الرابع تقريبا " . قالتها وهى تتجنب النظر فى عينيه بشكل مباشر .

" ولم لم تخبرينى فى وقت سابق ؟ " ، بدا صوته مجروحا وهو يقلب اللافتة التى تحمل كلمة " مفتوح " إلى " مغلق " ويصعد الدرج .

قالت بيكى وهى تتبعه نحو الشقة : " كنت آمل ألا أكون بحاجة إلى ذلك " .

" لقد أرسلت إلى ترينثام لتخبريه بذلك بالطبع ؟" .

" كلا ليس بعد ، مازلت أحاول " ، ثم بدأت ترتب الغرفة بدون أن تنظر إليه .

قال تشارلى : " مازلت تحاولين ؟ كان يجب أن تبلغى هذا اللعين منذ أسابيع عدة . إنه أول شخص كان يجب أن يعرف . إنه هو المسئول عن كل هذه الفوضى المؤلمة ؛ إن سمحت لى أن أقول ذلك " .

" الأمر ليس بهذه السهولة يا تشارلى " .

" ولم لا ، أخبرينى بحق السماء " .

" لأن هذا يعنى نهاية عمله الذى يمثل له كل حياته. إنه مثل العقيد ، سوف يكون من غير المنصف أن نطلب منه أن يتخلى عن عمله فى الجيش وهو مازال فى الثالثة والعشرين ."

قال تشارلى : " ليس هناك أى وجه للشبه بينه وبين العقيد على أية حال ، إنه مازال شابا ويستطيع أن يجد لنفسه أى عمل آخر مثلنا " .

" لقد تزوج الجيش يا تشارلى ولم يتزوجنى أنا . فلماذا ندمر حياتنا ؟ " .

" ولكنه يجب أن يعرف على أية حال ، على الأقل لكى يكون له حق الخيار " .

" هذا لن يترك له أى خيار يا تشارلى ، كن واثقا من ذلك . سوف يعود إلى الوطن على أقرب سفينة ويتزوجنى . إنه رجل نبيل " .

قال تشارلى : " رجل نبيل ، أهذا رأيك ؟ حسنا ، إن كان نبيلا إلى هذا الحد فيجب أن تعدينى بشيء واحد " .

" وما هو ؟ " .

" سوف تكتبين له خطابا الليلة وتخبرينه بالحقيقة " .

ترددت بيكى لبعض الوقت قبل أن تجيب : " حسنا سوف أفعل " .

" الليلة ؟ " .

" نعم ، الليلة " .

" ويجب أيضا أن تخبرى أهله بما حدث " .

" كلا لا يمكن أن أخبر أهله يا تشارلى " ، قالتها وهى تواجهه للمرة الأولى .

" وما السبب ؟ هل هذا يضع نهاية لمستقبلهم المهنى أيضًا ؟" .

" كلا ، ولكننى أعلم أن والد جاى سوف يصر على أن يعود ويتزوجنى " .

" وما العيب فى ذلك ؟" .

" سوف تدعى أمه أننى قد خدعت ابنها والأسوأ هو ــ" .

" وما هو الأسوأ ؟ " .

" ستدعى أنه ليس ابنه فى المقام الأول " .

" ومن الذى سيصدقها ؟ " .

" كل من يريد أن يصدقها " .

قال تشارلى : " ولكن هذا ليس منصفا " .

" الحياة ليست منصفة كما كان يقول أبى . كان يجب أن أنضج أنا الأخرى فى وقت ما يا تشارلى كما نضجت أنت فى الجبهة الغربية " .

" إذن ما الذى سوف نفعله الآن ؟ " .

" نفعل ؟ " .

" نعم ، مازلنا شركاء ، كما تعلمين . أم أنك نسيت " .

" بداية يجب أن أبحث عن مكان آخر لكى أعيش فيه ، لن يكون هذا منصفا لـ " دافنى " ــــ " .

قال تشارلى : " لن تكون صديقة إن تخلت عنك فى هذا الموقف " .

" هذا ليس منصفا لكلينا " ، قالت بيكى ذلك ، بينما وقف تشارلى ودس يديه فى جيبه وبدأ يحوم فى أنحاء الغرفة الصغيرة . وقد ذكر هذا بيكى بالأيام التى جمعت بينهما فى المدرسة .

قال تشارلى : " أنا لا أفترض ــ " وكان قد حان الآن دوره فى عدم القدرة على مواجهتها .

" تفترض ماذا ؟ " .

بدأ ثانية : " لا أفترض ــ " .

" نعم ؟ " .

" هل تقبلين بالزواج منى ؟ " .

سادت فترة صمت طويلة قبل أن تتمكن بيكى من أن تفيق من صدمتها وتجيبه فى النهاية قائلة : " ولكن ماذا عن دافنى ؟ " .

" دافنى ؟ أكنت تظنين أن هناك علاقة بينى وبينها ؟ إنها تعطينى دروسًا ليلية ؛ لكن ليس من النوع الذى تفكرين فيه . على أية حال ، لم يكن هناك دائما سوى رجل واحد فى حياة دافنى وهو بكل تأكيد ليس تشارلى ترامبر ؛ لسبب بسيط للغاية وهو أنها كانت تعرف دائما أن هناك امرأة واحدة فى حياتى " .

" ولكن ــ " .

" إننى أحبك منذ فترة طويلة يا بيكى " .

قالت بيكى وهى تضع رأسها بين يديها : " يا إلهى " .

قال تشارلى : " أنا آسف . كنت أظن أنك تعرفين ؛ لقد أخبرتنى دافنى أن النساء يشعرن دائما بمثل هذه الأشياء " .

" لم يكن لدى أية فكرة يا تشارلى . لقد كنت عمياء وغبية " .

قال : " إننى لم أنظر إلى امرأة غيرك منذ أن عدت من إيدنبرج . ربما ظننت أنه بوسعك أن تمنحينى بعض الحب " .

" سوف أحبك دائما قليلا يا تشارلى ، ولكننى أخشى أن أقول إن جاى قد ملك علىّ كل مشاعرى " .

" يا له من محظوظ . مع أننى أعرفك قبله . لقد طاردنى والدك ذات مرة فى محله ـ أتعلمين ذلك ؟ ـ لأنه سمعنى وأنا أتحدث عنك باسم "بوش بوركى " من ورائك " . ابتسمت بيكى ، واستطرد هو قائلاً : " كما ترين ؛ لقد كان بإمكانى دائما أن أقتنى كل ما أريده بحق من الحياة ؛ فكيف أدعك تفلتين منى ؟ " .

عجزت بيكى عن النظر إليه .

" بالطبع إنه ضابط وأنا لست كذلك . هذا يفسر الأمر كله " . وتوقف تشارلى عن التنقل فى أرجاء الغرفة ثم وقف أمامها .

" أنت جنرال يا تشارلى " .

" ولكننى أختلف عن جاى ؛ أليس كذلك ؟ " .

الفصل ١٢

٩٧ حدائق تشيلسيا
لندن
العشرون من مايو عام ١٩٢٠

عزيزى جاى

هذا هو أصعب خطاب كان علىَّ أن أكتبه فى حياتى . بل إننى فى واقع الأمر لست واثقة من أين أبدأ . لقد مضى أكثر من ثلاثة أشهر على رحيلك إلى الهند وقد حدث شيء أعتقد أنك تود أن تعرفه فى الحال . لقد ذهبت لتوى لزيارة طبيب دافنى فى شارع هارلى و ..

توقفت بيكى عن الاسترسال وراجعت مليا العبارات الأخيرة التى كتبتها ثم تنهدت وقبضت على الورقة ومزقتها وألقت بها فى سلة المهملات التى كانت تقع عند قدميها . وقفت ثانية وأخذت تطيل جسدها وتنظر فى خواء الغرفة أملا أن تستوحى بعض الأعذار الجديدة التى تعفيها من مواصلة هذه المهمة . كانت الساعة قد دقت الثانية عشرة والنصف بالفعل ؛ أى أنه كان بوسعها أن تؤوى إلى فراشها مدعية أنها كانت منهكة مما حال دون مواصلتها كتابة الرسالة ولكنها كانت تعلم جيدا أنها لن تستطيع أن تخلد إلى النوم إلا بعد أن تكمل الخطاب . فعادت إلى مكتبها وحاولت أن تركز ثانية قبل أن تخط السطور الأولى . فالتقطت قلمها .

٩٧ حدائق تشيلسيا
لندن
العشرون من مايو عام ١٩٢٠

عزيزى جاى

أخشى أن هذا الخطاب سوف يكون بمثابة مفاجأة وخاصة بعد الحديث المقتضب الذى دار بيننا منذ شهر واحد فقط . لقد كنت أرجئ إعلان النبأ أملا أن يثبت لى عدم صحته . ولكن هذا ما لم يحدث مع الأسف وقد أصبحت الظروف الآن ملحة .

بعد قضاء ليلتنا الرائعة معاً قبل رحيلك إلى الهند ؛ انقطعت عادتى الشهرية فى الشهر التالى ولكننى لم أشأ أن أثقل عليك بهذه المشكلة فى وقتها على أمل أن ..

كلا ؛ لا ؛ فكرت بيكى ثم مزقت الخطاب قبل أن تلقى بالورقة الممزقة فى سلة المهملات . سارت نحو المطبخ وأعدت لنفسها إناء من الشاى . وبعد احتساء الكوب الثانى ؛ عادت فى شىء من التردد إلى مكتبها وحاولت أن تركز ثانية .

٩٧ حدائق تشيلسيا
لندن
العشرون من مايو عام ١٩٢٠

عزيزى جاى ؛

أتمنى أن تكون كل الأمور على ما يرام بالنسبة لك فى الهند وأنهم لا يشقون عليك كثيرا . أفتقدك أكثر مما تتصور ولكن الاختبارات أصبحت وشيكة كما أن طموحات تشارلى جعلته يعتقد أنه سيكون السيد سيلفريدج المرتقب مما جعل الشهور الثلاثة التى تلت رحيلك تمر سريعا . أعلم أنك سوف تندهش عندما تعلم أن قائدك السابق العقيد السير دانفيرز هاميلتون قد أصبح ..

" وبالمناسبة ؛ أنا حامل " ، قالت بيكى ذلك بصوت مرتفع ثم مزقت ثالث محاولاتها . أغلقت قلمها وشعرت أن الوقت قد حان للقيام بنزهة فى الميدان . التقطت معطفها من فوق حمالة البهو ثم هبطت الدرج وخرجت من العقار . أخذت تسير بلا هدف فى الطريق المهجور غير مدركة ـ على ما يبدو ـ لتأخر الوقت . فرحت عندما وجدت لافتة تحمل كلمة " مباع " معلقة على العقارين ١٣١ ، ١٣٥ . توقفت خارج محل التحف للحظة ثم وضعت يديها حول عينيها وكأنها ترتدى نظارة وأخذت تحدق من خلال النافذة . ولدهشتها وجدت أن السيد روثرفورد كان قد أخلى المحل تماما من كل شيء حتى معدات الغاز ورف المستوقد الذى ظنت أنه مثبت فى الجدار . وفكرت فى نفسها قائلة : سيجعلنى هذا الدرس أراجع شروط كل عقد جيدا بمنتهى الدقة فى المرة القادمة . واصلت تأملها للمكان الخالى وشاهدت فأرا وهو يشق طريقه عبر المحل . وقالت بصوت مرتفع : " ربما يجدر بنا أن نفتتح محلا للحيوانات الأليفة " .

" ماذا تقولين يا سيدتى ؟ " .

استدارت بيكى لترى ضابط شرطة يمد يده ليمسك بمقبض باب المحل ١٣٣ ويتأكد من أنه مغلق .

قالت بيكى وقد اعتراها بدون مبرر بعض الخوف والشعور بالذنب : " عمت مساء أيها الضابط "

" إنها تقترب من الثانية صباحا يا آنسة . وقد قلت لتوك " عمت مساءً " .

قالت بيكى : " هل الوقت تأخر إلى هذا الحد ؟ " ثم نظرت فى ساعتها وقالت : " أجل أنت محق . ياله من سخف منى . إننى

أعيش فى العقار ٩٧ " . قالتها وهى تشعر أنها بحاجة لمبرر يفسر وجودها فى الشارع فى هذا الوقت المتأخر ثم قالت : " لم أستطع أن أنام ؛ فقررت أن أتجول قليلا " .

" يجدر بك إذن أن تنضمى إلى القوات المسلحة وسوف تسعدين بالسير طوال الليل " .

ضحكت بيكى وقالت : " كلا أشكرك ؛ أظن أننى يجب أن أعود إلى شقتى وأحاول أن أحصل على قسط من النوم . طاب مساؤك " .

" طاب مساؤك يا آنسة " ، قال رجل الشرطة ذلك وهو يضع يده على خوذته فى نصف تحية قبل أن يتحقق من أن محل التحف مغلق بإحكام .

عادت بيكى وسارت فى تصميم فى حدائق تشيلسيا وفتحت الباب الأمامى للعقار ٩٧ وصعدت الدرج إلى شقتها وخلعت معطفها وعادت فى الحال إلى مكتبها الصغير . توقفت للحظة قبل أن تلتقط قلمها ثانية وتعاود الكتابة من جديد .

للمرة الأولى انسابت الكلمات بسهولة لأنها كانت قد أدركت تحديدا ما تود قوله .

٩٧ حدائق تشيلسيا
لندن
العشرون من مايو عام ١٩٢٠

عزيزى جاى ؛

فكرت فى مئات الطرق المختلفة لكى أخبرك بما حدث منذ رحيلك إلى الهند وأخيرا خلصت إلى أن أبسط الطرق هى الأقرب .

إننى الآن حامل فى الأسبوع الرابع عشر بابنك ؛ مما يشعرنى بسعادة غامرة . سعادة لأنك أنت الرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتى ، وفى نفس الوقت الخوف من تأثير هذا النبأ على مستقبلك المهنى فى الجيش .

يجب أن تعلم أنه ليست لدىّ أية نية للإضرار بحياتك المهنية أو إجبارك على الزواج منى إن كان هذا الزواج سيتم بدافع الشعور بالذنب فقط ؛ مما سيخلق لديك الشعور بالأسى لباقى حياتك على خطأ ارتكبناه ذات مرة ؛ وهذا ما لن يقبله كلانا بالطبع .

من جانبى أنا ؛ فأنا لا أخفيك سرا أننى أحمل لك كل الوفاء والتفانى ولكن إن لم يكن هذا الشعور متبادلا فإننى لن أطالبك يوما بأن تقدم على هذه التضحية من أجلى .

ولكن ـ يا عزيزى ـ لا تشك فى حبى الكامل لك وحرصى الشديد على مستقبلك وسلامتك حتى إلى حد إنكار صلتك بالأمر برمته إن كان هذا هو ما تريده منى .

جاى ؛ سوف أبقى على عشقى لك دائما وكن واثقا من إخلاصى الكامل لك مهما يكن قرارك .

مع كل حبى

بيكى

عجزت بيكى عن حبس دموعها عندما أعادت قراءة الخطاب للمرة الثانية . وبينما كانت تطوى الورقة فتح باب الغرفة ودخلت دافنى وهى ناعسة .

" هل أنت بخير يا عزيزتى ؟ " .

قالت بيكى : " نعم . فقط أشعر ببعض الغثيان . لذا فإننى سوف أخرج لاستنشاق بعض الهواء النقى " . ثم دست الخطاب فى مظروف خال من أية بيانات .

قالت دافنى : " لقد استيقظت . أتودين تناول كوب من الشاى ؟ " .

" كلا ، شكرا لك ، لقد شربت كوبين إلى الآن " .

" حسنا ، سوف أشرب أنا " ، ثم اختفت دافنى فى المطبخ . التقطت بيكى قلمها فى الحال ودونت البيانات على المظروف :

النقيب جاى ترينثام
الكتيبة الثانية من سلاح الرماية الملكية
ثكنات ويلنجتون
بونا
الهند

بريد بحرى

تركت الشقة وألقت الخطاب فى صندوق البريد فى أحد أركان شارع تشيلسيا وعادت إلى العقار ٩٧ حتى قبل أن يغلى الماء .

بالرغم من أن تشارلى تلقى خطابه المعتاد من سال المقيمة فى كندا والتى أخبرته فيه بمولد ابن أخته ، والمكالمات التى لا تتكرر بانتظام من جريس فى أى وقت كانت تنجح فيه فى الإفلات من أعباء المستشفى ؛ كانت زيارات كيتى له نادرة . ولكنها كانت عندما تأتى لزيارته كانت تأتى دائما لهدف واحد فقط .

قالت كيتى وهى تلقى بنفسها فوق الكرسى الوحيد المريح بعد لحظات فقط من دخولها شقة تشارلى : " فقط أريد جنيهين يا تشارلى " .

أخذ تشارلى يحدق فى أخته . وبالرغم من أنها لم تكن تكبره إلا بثمانية عشر شهرا فإنها كانت تبدو بالفعل وكأنها سيدة فى الثلاثينات من العمر . فتحت سترتها الصوفية شديدة الاتساع ؛ ضاعت كل ملامح قوامها الرشيق الذى طالما اجتذب أنظار كل من فى الطرف الشرقى كما أن التجاعيد كانت تبدو ظاهرة على وجهها وهو مجرد من مساحيق التجميل .

قال لها تشارلى مذكرا : " كان جنيها واحدا فى المرة السابقة ، ولم يكن هذا منذ فترة طويلة " .

" ولكن رجلى هجرنى منذ ذلك الوقت يا تشارلى . وقد أصبحت أعيش بمفردى ثانية بدون حتى سقف يؤوينى . هيا كن كريما " .

واصل تحديقه فيها ويحمد الله على أن بيكى لم تكن قد عادت من محاضرة العصر بالرغم من أنه كان يشك أن كيتى كانت تأتى فقط عندما تتأكد من عدم وجود بيكى .

قال لها بعد فترة صمت طويلة : " لن أغيب سوى لحظات " ، ثم انسل من الغرفة وهبط الدرج إلى المحل . وبمجرد أن تأكد من انشغال العاملين استخرج جنيهين وعشرة شلنات من الخزانة . ثم سار منسحبا صاعدا الدرج ثانية إلى شقته .

كانت كيتى تنتظر عند الباب . مد لها تشارلى يده بالورقات الأربع . كادت تخطف المال من يده ثم دستها فى قفازها وغادرت دون أن تضيف كلمة واحدة .

سار تشارلى خلفها هابطا الدرج ورآها وهى تلتقط ثمرة خوخ من فوق هرم منظم بعناية فى أحد أركان المحل قبل أن تأخذ قضمة ثم خرجت على الرصيف وأسرعت خطاها فى الطريق .

وكان على تشارلى أن يتفقد بنفسه الحساب فى هذه الليلة لكى لا يكتشف أحد تحديدا المبلغ الذى أعطاه إياها .

قالت بيكى وهى تجلس بجواره : " سوف ينتهى بك المآل إلى شراء هذه الأريكة يا تشارلى ترامبر " .

قال وهو يستدير لينظر إليها : " ليس قبل أن أمتلك كل محل فى المنطقة ؛ يا عزيزتى ، وماذا عنك ؟ ما هو الموعد المرتقب للولادة ؟ " .

" باقى ما يقرب من خمسة أسابيع كما يقول الطبيب " .

" هل أعددت الشقة بالفعل لاستقبال المولود الجديد ؟ " .

" نعم ؛ بفضل دافنى التى سمحت لى بالبقاء " .

قال تشارلى : " إننى أفتقدها " .

" وأنا أيضا ، بالرغم من أننى لم أرها أسعد حالا منذ إعفاء بيرسى من الخدمة فى الحرس الاسكتلندى " .

" سوف يعلنان خطبتهما قريبا " .

قالت بيكى وهى تنظر عبر الطريق : " لنأمل ذلك " .

ثلاث لافتات باسم ترامبر تلمع باللونين الذهبى والأزرق فى وجهها . واستمر محل الخضراوات والفاكهة يحقق أرباحا ممتازة وبدا بوب ماكينز أعلى مكانة بعد عودته من الخدمة الوطنية . فقدت الجزارة بعض رونقها بعد تقاعد السيد كندريك ولكنها استعادت مكانتها ثانية بعد أن عين تشارلى مايك باركر مكانه .

" لنأمل أن تكون مهاراته فى الجزارة أفضل من مهارته فى الرقص " ، قالت بيكى ذلك عندما أخبرها تشارلى بشأن موعده مع الرقيب باركر .

أما بالنسبة لمحل البقالة ؛ الذى كان محل فخر وسعادة تشارلى ؛ فقد ازدهر منذ اليوم الأول مع أن طاقم العاملين فيه كان يقول إن مديرهم فى العمل كان يبدو متواجدا فى المحلات الثلاثة فى وقت واحد .

قال تشارلى : " إنها العبقرية التى مكنتنا من تحويل محل التحف القديم إلى محل بقالة " .

" إذن أنت تعتبر نفسك الآن بقالا أليس كذلك ؟ " .

" بالطبع لا . أنا تاجر خضراوات وفاكهة وسوف أبقى هكذا دائما " .

" أشك فى أن هذا ما سوف تقوله للفتيات عندما تمتلك كل محلات الحى " .

" قد يستغرق هذا بعض الوقت . إذن ما هو الوضع المالى للمحلات الجديدة ؟ " .

" الوضع المالى مدون فى دفاتر الحساب وقد يشير إلى خسارة فى العام الأول " .

رفع تشارلى صوته معترضاً : " ولكن مازال بالإمكان تحقيق أرباح والوصول إلى نقطة اللامكسب واللاخسارة . كما أن متجر البقالة سوف .... " .

" لا ترفع صوتك هكذا . أريد أن يكتشف السيد هادلو وزملاؤه فى البنك أننا قد حققنا أرباحا تفوق توقعاتهم " .

" أنت امرأة شريرة بكل تأكيد يا ريبيكا سالمون " .

" لن يكون هذا هو رأيك يا تشارلى ترامبر عندما تحتاج إلىَّ فى المرة القادمة لكى أتفاوض على قرضك المقبل " .

" إن كنت بمثل هذا الذكاء ؛ لم لا تخبرينى عن سبب عدم قدرتنا على امتلاك محل بيع الكتب ؟ " قال تشارلى ذلك وهو يشير إلى العقار ١٤١ حيث كان الضوء الوحيد المنبعث منه هو الإشارة التى تثبت أن المكان مازال مسكونا واستطرد قائلاً : " لم يطأ زبون

واحد المكان بقدمه منذ أسابيع وعندما يحدث ذلك لا يكون إلا بغرض السؤال عن عنوان ما أو معرفة الطريق " .

قالت بيكى : " ليس لدى فكرة ، لقد تحدثت بالفعل طويلا مع السيد سنيدلز بشأن شراء المكان ولكنه لم يبد أى اهتمام . لقد أصبحت إدارة المحل بالنسبة له منذ وفاة زوجته السبب الوحيد الذى يحثه على المواصلة " .

سأل تشارلى : " ولكن مواصلة ماذا ؟ إزالة التراب عن الكتب القديمة وتكديس المخطوطات القديمة فوق بعضها البعض ؟ " .

" إنه سعيد بجلوسه هكذا وقراءة قصائد ويليام بلاك المحببة عن الحرب . طالما يبيع كتابين فى الشهر ؛ هو سعيد بإبقاء المحل مفتوحا . إن الثراء ليس غاية الجميع ، كما تعرف ، كما تردد دافنى دائما " .

"ربما . إذن لماذا لا نعرض على السيد سنيدلز مائة وخمسين جنيها للعقار ومعاشاً يقدر بعشرة جنيهات سنويا ؟ وهكذا سوف تؤول الملكية بشكل تلقائى إلينا بمجرد وفاته " .

" أنت رجل يصعب إرضاؤه يا تشارلى ترامبر . ولكن إن كان هذا هو ما تريده فسوف أحاول " .

" هذا هو ما أريده يا ريبيكا سالمون ؛ فابذلى ما فى استطاعتك " .

" سوف أبذل ما فى وسعى بالرغم من أنك قد نسيت أننى على وشك الوضع والحصول على شهادة البكالوريوس " .

" هذا المزيج يبدو غير متوائم بالنسبة لى . ومع ذلك ؛ فمازلت بحاجة إليك لكى نعقد صفقة أخرى " .

" صفقة أخرى ؟ "

" فوثيرجيل " .

" محل الزاوية ؟ " .

قال تشارلى : " هو تماما وأنت تعلمين رأيي فى محلات الزاوية يا آنسة سالمون " .

" بكل تأكيد يا سيد ترامبر . كما أننى أدرك تماما أنك لا تعرف شيئا عن العمل فى مجال الفنون الجميلة ؛ ناهيك عن عمل المزادات " .

قال تشارلى : " لا أعرف الكثير ؛ يجب أن أقر بذلك . ولكن بعد بضع زيارات إلى شارع بوند عرفت الطريقة التى يجنون بها المال فى سوثيباى وبعد زيارة إلى شارع سانت جيمس لدراسة حجم المنافسة فى كريستى ، خلصت إلى أننا يمكن أن نستغل شهادتك فى الفنون فى عملنا " .

رفعت بيكى حاجبيها وقالت : " لا أطيق صبرا لمعرفة ما تخطط له لباقى حياتك " .

واصل تشارلى حديث متجاهلا تعليق بيكى : " بمجرد أن تحصلى على شهادتك هذه أريدك أن تعملى لدى سوثيباى أو كريستى ، لا يهمنى أيهما ؛ حيث يمكنك قضاء ثلاث إلى خمس سنوات لاكتساب الخبرة اللازمة . وفى الوقت الذى تقررين فيه أنك أصبحت تملكين الخبرة الكافية يمكنك أن تجمعى كل الكفاءات اللازمة للعمل معك وتنتقلى إلى العقار رقم ١ فى حدائق تشيلسيا ومنافسة هاتين المنشأتين " .

" مازلت أصغى إليك يا تشارلى ترامبر " .

" كما ترين يا ريبيكا سالمون ؛ أنت تملكين حنكة أبيك فى العمل . أرجو أن تكُون الكلمة قد نالت إعجابك . كما أنك تملكين

أيضا موهبة طبيعية وولعا بالفنون التى هى حبك الوحيد ؛ فكيف يمكن أن تخفقى ؟ " .

" شكرا على الإطراء ولكن بما أننا مازلنا بصدد الحديث فى الموضوع فهل لى أن أعرف ما هو وضع السيد فوثيرجيل فى كل خططك ؟ " .

" ليس له أى موضع " .

" ما الذى تقصده ؟ " .

قال تشارلى : " إنه لم يجن سوى الخسارة على مدى الأعوام الثلاثة السابقة . إن ثمن عقاره وأفضل بضاعته فى الوقت الحاضر سوف تكفى بالكاد لتغطية خسارته ولكن الوضع لن يبقى على ما هو عليه طويلا . إذن أنت تعلمين تحديدا ما يجب عليك عمله " .

" بكل تأكيد يا سيد ترامبر " .

عندما جاء شهر سبتمبر ثم ولى ؛ بدأت بيكى تذعن إلى أن جاى ليس لديه أية نية للرد على خطابها .

وقد أخبرتهم دافنى فى نهاية شهر أغسطس أنها قد قابلت السيدة ترينثام فى جودوود . وأن والدة جاى كانت تقول إن ابنها كان يكد فى عمله فى الهند وأنه سوف يرقى بلا شك إلى رتبة عقيد . ولم تجد دافنى وقتها بدا من أن تحفظ عهدها مع صديقتها وتكتم أمر بيكى عن السيدة ترينثام .

ومع اقتراب موعد الإنجاب ؛ حرص تشارلى على ألا تهدر بيكى وقتها فى شراء الطعام حتى إنه طلب من إحدى العاملات فى العقار ١٤٧ أن تساعد بيكى فى العناية بنظافة شقتها إلى الحد الذى جعل بيكى تتهمهما بالإفراط فى تدليلها .

ومع بلوغ الشهر التاسع ؛ لم تعد بيكى حتى تشغل بالها بتفقد البريد بعد أن اكتسب رأى دافنى القديم فى النقيب ترينثام المزيد من المصداقية لديها . فوجئت بيكى بالسرعة التى خبت بها مشاعرها تجاهه بالرغم من كونها على وشك إنجاب ابنه .

شعرت بيكى أيضا بالحرج من أن معظم المحيطين بها كانوا يفترضون أن تشارلى هو والد ابنها ولعل ما رسخ هذا الشعور هو أن تشارلى كان يلوذ بالصمت ويرفض الإنكار كلما أثير هذا الأمر .

فى هذه الأثناء ، كان تشارلى قد وضع عينيه على متجرين شعر أن أصحابهما سوف يكونان على استعداد للبيع فى وقت قريب ولكن دافنى علقت كل الصفقات لحين إنجاب بيكى لطفلها .

" لا أريد لبيكى أن تتورط فى أية صفقات خاصة بالعمل قبل أن تضع طفلها وتحصل على شهادتها . هل هذا واضح ؟ " .

قال تشارلى وهو يدق بكعبيه الأرض فى حركة عسكرية : " نعم يا سيدتى " ، لم يذكر لها أن بيكى نفسها كانت قد عقدت الصفقة مع السيد سنيدلز فى الأسبوع السابق وبأن ملكية المحل سوف تؤول إليهم بمجرد وفاة المالك . كان هناك بند واحد فقط يثير مخاوف تشارلى فى الصفقة وهو كم الكتب الذى كان عليه أن يتحمل عبئه ولا يعرف وسيلة للتخلص منه .

همس بوب فى أذن مديره فى عصر يوم من الأيام بينما كان تشارلى يخدم الزبائن فى المحل : " لقد اتصلت الآنسة بيكى لتوها ، إنها تطلب منك أن تذهب إليها فى الحال لأنها تظن أنها على وشك الوضع " .

قال تشارلى وهو يخلع سترته الخارجية : " ولكن مازال هناك أسبوعان على موعد الولادة " .

" لا أعرف يا سيد ترامبر ولكن كل ما طلبته منى هو أن تسرع فى الذهاب إليها " .

سأل تشارلى وهو يترك صف الزبائن ويرتدى معطفه : " هل أرسلت فى طلب المُوَلدِّة ؟ " .

" ليس لدىّ فكرة يا سيدى " .

" حسنا ؛ اعتن بالمحل لأننى لن أعود اليوم ثانية " . ترك تشارلى صف الزبائن وسار مسرعا فى شارع ٩٧ وطار فوق الدرج ثم فتح الباب وتوجه مباشرة نحوف غرفة بيكى .

جلس بجانبها على السرير وأمسك يدها لبعض الوقت قبل أن يتحدث أى منهما .

سألها أخيراً : " هل أرسلت إلى المُوَلدِّة ؟ " .

" لقد فعلت بالطبع " ، جاءه صوت من خلفه عندما دخلت سيدة بدينة الغرفة . كانت ترتدى معطفاً واقياً من الأمطار بنى اللون كان يبدو صغيرا للغاية عليها وحقيبة جلدية سوداء . وكانت الطريقة التى يعلو بها صدرها ويهبط تكشف عن مدى الجهد الذى بذلته لكى تصعد الدرج . قالت المرأة : " أنا السيدة ويستليك من مستشفى سانت ستيفن ، أتمنى أن أكون قد وصلت فى الوقت المناسب " . أومأت بيكى فى الوقت الذى حولت فيه المُوَلدِّة انتباهها إلى تشارلى وقالت : " الآن اذهب وقم بغلى بعض الماء بسرعة " ، خرج صوتها وكأنها سيدة قد اعتادت أن تطاع أوامرها .

وبدون كلمة أخرى ؛ قفز تشارلى من طرف الفراش وغادر الغرفة .

وضعت السيدة ويستليك حقيبتها الكبيرة على الأرض وبدأت تقيس نبض بيكى .

سألتها وكأنها تريد أن تقر بأمر واقع : " ما هو الوقت الفاصل بين كل نوبة تقلصات وأخرى ؟ " .

أجابت بيكى : " عشرون دقيقة تقريبا " .

" ممتاز ؛ أى أنه لم يعد أمامنا الكثير " .

ظهر تشارلى عند الباب حاملا إناء من الماء الساخن وقال :

" هل هناك شىء آخر يمكننى القيام به ؟ " .

" نعم ؛ بالطبع هناك أشياء . أريدك أن تأتى لى بكل فوطة نظيفة تقع يدك عليها ، كما أننى لا أمانع فى احتساء كوب من الشاى " .

خرج تشارلى راكضا من الغرفة .

قالت السيدة ويستليك : " الأزواج يكونون دائما بمثابة مصدر إزعاج فى مثل هذه الأوقات . لذا يجب أن تبقيهم مشغولين طوال الوقت " .

كانت بيكى على وشك توضيح أمر تشارلى عندما داهمتها نوبة تقلصات أخرى .

" تنفسى بعمق وببطء يا عزيزتى " ، كانت السيدة ويستليك تشجعها بصوت أكثر رقة بينما عاد تشارلى حاملا ثلاث مناشف وإناء من الماء الساخن .

وبدون أن تستدير لكى ترى الداخل ؛ واصلت السيدة ويستليك حديثها قائلة : " اترك الفوط على جانب الفراش وصب الماء الساخن فى أكبر إناء يمكن أن تحصل عليه ثم أدر الغلاية ثانية لكى أحصل على المزيد من الماء كلما أردت " .

اختفى تشارلى ثانية بدون أن ينطق بكلمة .

قالت بيكى فى إعجاب : " أتمنى أن أملك نفس القدرة فى السيطرة عليه " .

" لا تقلقى يا عزيزتى . فأنا لا أملك القدرة على السيطرة على زوجى بالرغم من أنه لدينا سبعة من الأبناء " .

وبعدها بدقيقتين ، دفع تشارلى الباب بإحدى قدميه حاملا إناءً آخر من الماء المغلى ووضعه بجانب السرير .

قالت السيدة ويستليك وهى تشير إلى الموضع الذى تقصده : " ضع الماء على المائدة الجانبية ، وحاول ألا تنسى الشاى من فضلك . وبعدها سوف أكون بكل تأكيد بحاجة إلى المزيد من المناشف " .

تأوهت بيكى بصوت مرتفع .

قالت المُولدّة : " أمسكى يدى وواصلى التنفس بعمق " .

سرعان ما ظهر تشارلى ثانية حاملا المزيد من الماء الساخن حيث طلبت منه المُولدّة فى الحال إفراغ محتواه قبل إعادة ملئه ثانية بالمزيد من الماء . وبعد أن أنهى مهمته ، قالت له السيدة ويستليك : " يمكنك أن تبقى بالخارج إلى أن أدعوك للحضور " .

غادر تشارلى الغرفة وهو يسحب الباب برفق ليغلقه خلفه .

بدا وكأنه يعد أكوابًا لانهائية من الشاى ويحمل كميات لا تحصى من الماء ، داخل وخارج الغرفة ، وهو يبدو دائما وكأنه يحمل الطلب الخاطئ فى الوقت الخاطئ إلى أن طرد أخيرا من الغرفة وترك لكى يجوب أنحاء المطبخ خوفا من وقوع الأسوأ . ثم سمع صوت صراخ الوليد .

شاهدت بيكى من سريرها المُولدّة وهى تحمل الطفل من ساقه ثم ضربته برفق على مؤخرته وقالت : " إننى أستمتع دائما بذلك . يسعدنى دائما أن أقدم شيئا جديدا للعالم " . ثم لفت الطفل فى منشفة من المناشف الصغيرة وأعادته إلى أمه .

" إنه — " .

قالت المُولدّة : " إنه ولد ، أخشى ذلك . أى أنه لن يزيد أو ينقص شيئا فى العالم . سوف تكونين بحاجة إلى إنجاب ابنة فى المرة التالية " . قالت وهى تبتسم ابتسامة واسعة : " إن كان على استعداد لذلك " ، قالتها وهى تشير بإبهامها فى اتجاه الباب المغلق .

حاولت بيكى أن تتحدث ثانية : " ولكنه —— " .

" ما لم يكن ، أعرف . شأنه شأن كل الرجال ". فتحت السيدة ويستليك الباب بحثا عن تشارلى وقالت : " لقد انتهت المهمة يا سيد سالمون . يمكنك أن تكف عن الدوران فى أرجاء الغرفة ، وتدخل لإلقاء نظرة على ابنك " .

دخل تشارلى مسرعا حتى إنه كاد يطيح بالمُولدّة . وقف عند نهاية الفراش وأخذ يحدق فى الوجه الضئيل الذى كانت تحمله بيكى بين ذراعيها .

قال تشارلى : " إنه صغير قبيح ، أليس كذلك ؟ " .

قالت المُولدّة : " حسنا ، نحن نعلم من الملوم فى ذلك ، دعنا فقط نأمل ألا ينتهى به المآل إلى كسر أنفه . على أية حال ، كما شرحت لزوجتك ، سوف تكون بحاجة إلى ابنة فى المرة التالية . بالمناسبة ، ما هو الاسم الذى سوف تطلقونه على هذا الصغير " .

قالت بيكى بلا تردد : " دانيال جورج " وشرحت وهى تنظر إلى تشارلى : " تيمنا باسم أبى " .

قال تشارلى وهو يسير إلى الفراش ويلف بيكى بذراعه : " واسمى " .

" إذن يجب أن أنصرف الآن يا سيدة سالمون ولكننى سوف أعود إليك فى الصباح الباكر " .

قالت بيكى فى هدوء : " كلا . إننى السيدة ترامبر فى واقع الأمر . سالمون هو اسمى قبل الزواج " .

قالت المُوَلِّدَة وهى تبدو مضطربة للمرة الأولى : " أهذا صحيح ، يبدو أنه قد حدث ثمة خطأ فى البيانات المدونة فى البيان الخاص بالمكالمات . أجل سوف أراك غدا يا سيدة ترامبر " ، قالت ذلك وهى تغلق الباب .

قال تشارلى : " السيدة ترامبر ؟ " .

" لقد استغرقت وقتا طويلا للغاية إلى أن عدت إلى رشدى ؛ أليس كذلك يا سيد ترامبر ؟ " .

دافنى

١٩١٨ - ١٩٢١

الفصل

١٣

عندما فتحت الخطاب ؛ يجب أن أقر أننى لم أتذكر بيكى سالون . ولكن بعدها تذكرت أنه كانت هناك فتاة بالغة الذكاء ؛ تميل إلى البدانة معنا فى مدرسة سانت بول والتى كانت تبدو دائما وكأنها تملك مددا لانهائيًا من الكعك بالقشطة . وكان كل ما أتذكره هو أن كل ما أعطيته لها فى المقابل هو كتاب عن الفن كانت قد أهدته لى إحدى خالاتى فى كمبرلاند .

كما أننى تذكرت أننى بمجرد أن وصلت إلى النصف الثانى من العام السادس كانت الفتاة الذكية المجتهدة قد شقت طريقها إلى النصف الأول من نفس العام بالرغم من فارق العامين الذى كان يفصل بيننا .

وبعد أن قرأت خطابها للمرة الثانية ؛ لم أستطع تبين أى مبرر يمكن أن يدفعها للقائى وخلصت إلى أن الطريقة الوحيدة لتبين الأمر هى أن أدعوها لتناول الشاى معى فى شقتى الصغيرة فى تشيلسيا .

عندما وقع نظرى على بيكى ثانية ، لم أكد أعرفها . ليس فقط لأنها كانت قد فقدت الكثير من الوزن ولكن لأنها كانت تتمتع بقوام وجاذبية فتيات الإعلانات اللاتى كانت صورهن توضع على عربات الترام . كانت فتاة ذات وجه نضر وأسنان مثالية لامعة . لابد أن أقر أننى أضمرت لها بعض الحسد .

شرحت لى بيكى أنها كانت بحاجة إلى غرفة فى لندن لأنها كانت قد التحقت بالجامعة . وقد سعدت كثيرا بطلبها هذا لأن أهلى كانوا ـ على أية حال ـ وكما أشاروا فى عدة مناسبات ، غير راضين عن بقائى فى شقة بمفردى وعن إحجامى عن العيش معهم فى منزل العائلة فى السادس والعشرين من ميدان لاوندز . كنت أتوق إلى إخبار أبى وأمى اللذين لم يكفا عن مطالبتى بشكل دائم بالبحث عن رفيقة سكن تعيش معى .

سألت أمى عندما ذهبت إلى هاكورت فى عطلة نهاية الأسبوع : " ولكن مَن هذه الفتاة ؟ هل نعرفها ؟ " .

أجبت : " لا أظن يا أمى ، إنها زميلة قديمة من سانت بول ؛ من ذلك النوع المثقف " .

قال أبى : " أى أنها من أصحاب الزى الأزرق ؛ أهذا ما تقصدين ؟ " .

" أجل هى كذلك يا أبى ، وسوف تلتحق بمكان ما يدعى بيدفورد كوليدج لكى تدرس تاريخ عصر النهضة الأوروبية ؛ أو شيئًا من هذا القبيل " .

قال أبى : " لا أعلم أن الفتيات يمكن أن يفكرن فى الحصول على شهادات عليا . لابد أن نلقى اللوم فى كل ما يجرى على هذا اللعين ويلشمان وأفكاره عن بريطانيا الجديدة " .

قالت أمى معاتبة : " يجب أن تكف عن وصف ليويد جورج بذلك إنه قبل كل شىء رئيس وزارتنا " .

أضاف أبى مبديا من جديد اعتراضه المعهود : " قد يكون رئيس وزارتك أنت يا عزيزتى ولكن ليس رئيس وزارتى أنا ؛ إننى ألقى اللوم على كل من ينادى بحق المرأة فى الاقتراع " .

قالت أمى مذكرة إياه : " يا عزيزى ؛ أنت لا تكف عن إلقاء اللوم على المناصرين لحق المرأة فى الاقتراع حتى حصاد العام الماضى ألقيت فيه اللوم عليهم . ومع ذلك فإن هذه الفتاة ـ كما تتراءى لى ـ يمكن أن تكون ذات أثر إيجابى عليك يا دافنى . ولكن أين يعيش والداها ؟ " .

أجبت : " لا أعرف ولكن أعتقد أن والدها كان رجل أعمال فى مكان ما فى الطرف الشرقى وسوف أذهب لتناول الشاى مع والدتها فى موعد لم يحدد بعد فى الأسبوع القادم " .

قال أبى : " سنغافورة ربما ؟ هناك الكثير من الأعمال الجارية هناك ؛ المطاط وأشياء كثيرة من هذا القبيل " .

" كلا لا أظن أنه يعمل فى هذا المجال يا أبى " .

قالت أمى : " حسنا ؛ أيًّا كان الأمر ؛ يجب أن تدعيها لتناول الشاى معنا فى عصر أحد الأيام . أو حتى تدعيها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هنا " .

" كلا لا أظن أن هذا سوف يكون ممكنا يا أمى ؛ ولكننى سوف أدعوها بالطبع لتناول الشاى معنا فى المستقبل القريب لكى يدرس كل منكما الآخر " .

يجب أن أعترف أننى سعدت بفكرة الذهاب لتناول الشاى لدى والدة بيكى لكى تتأكد من أننى الشخص المناسب الذى يمكن أن

تعيش معه ابنتها . على أية حال ، لقد كنت واثقة من أننى لست من هذا النوع . لم يكن قد سبق لى السفر إلى الطرف الشرقى فى ألدويتش من قبل حسبما أذكر ولكننى اكتشفت أن السفر إلى إسيكس أكثر إثارة من السفر إلى الخارج .

ولحسن الحظ كانت الرحلة إلى رومفورد هادئة خالية من أية مفاجآت وخاص لأن هوسكينز ـ سائق والدى ـ كان يعرف الطريق جيدا . لأن موطنه الأصلى كان فى مكان ما يدعى داجنهام الذى كان يبعد أكثر من غابة إيسكس ، على حد قوله .

لم أكن أعلم حتى ذلك اليوم أنه كان يوجد على سطح الأرض أناس كهؤلاء . لم يكونوا من طبقة الخدم أو من أصحاب المهن أو من الطبقة الأرستقراطية ، ولكننى لا أستطيع أن أدعى أننى سقطت فى هوى رومفورد . ومع ذلك فقد احتفت بى السيدة سالمون وأختها الآنسة روش أيما احتفاء . وقد اكتشفت أن والدة بيكى كانت سيدة عملية وحساسة ومؤمنة فضلا عن أنها أعدت لنا حفل شاى شهيًا ؛ مما جعل الرحلة كلها تستحق العناء .

انتقلت بيكى إلى شقتى فى الأسبوع التالى وقد ارتعدت من كم الجهد الذى كانت تبذله هذه الفتاة . كان يبدو لى أنها تقضى كل يومها فى بيدفورد هذه ، ثم تعود إلى المنزل لكى تأكل شطيرة وتحتسى كوبًا من اللبن ثم تواصل دراستها إلى أن تسقط نائمة بعدما آوى إلى فراشى بفترة طويلة . ولم أستطع تبين السبب الذى يدفعها إلى بذل كل هذا العناء .

كانت أول مرة أسمع فيها اسم تشارلى ترامبر وأعرف طموحاته ؛ عقب زيارتها إلى جون دى وود . كل هذه الجلبة فقط لأنها باعت عربته الخشبية النقالة بدون أن تخبره . شعرت أن أقل ما يجب

علىَّ فعله هو أن أذكر لها أن اثنين من أجدادى كانت قد قطعت أعناقهما لأنهما حاولا سرقة ممتلكات البارون وأن شخصًا آخر من العائلة سجن فى برج لندن بتهمة الخيانة العظمى كما أن لى قريبًا ـ على ما أذكر ـ كان قد قضى آخر أيامه فى مكان قريب من الطرف الشرقى .

كانت بيكى ـ كما هو حالها دائما ـ تعلم أنها محقة ، فظلت تردد هذه العبارة : " ولكن المحل معروض مقابل مائة جنيه فقط " .

" ولكنك لا تملكين هذا المبلغ " .

" أملك أربعين وأنا واثقة من أنه استثمار جيد ، لذا يجب أن أسعى للحصول على مبلغ الستين جنيها المتبقية بدون عناء . إن تشارلى يملك القدرة على بيع الثلج لأهل الإسكيمو " .

سألتها : " ولكن كيف ستديرين المحل فى غيابه ؟ بين المحاضرات ربما ؟ " .

" لا تكونى سخيفة يا دافنى . سوف يدير تشارلى المتجر على خير ما يرام فور عودته من الحرب . وهذا لن يتأخر كثيرا فى ظل الظروف الراهنة " .

ذكرتها قائلة : " لقد انتهت الحرب منذ بضعة أسابيع ، ولم تظهر أى بادرة لفتاك تشارلى " .

" إنه ليس فتاى " كان هذا هو كل ما قالته .

على أية حال ؛ أبقيت عينى مفتوحة على ما تفعله بيكى على مدى الثلاثين يوما التالية وسرعان ما بدا واضحا للعيان أنها لن تتمكن من جمع المال المطلوب . ومع ذلك ؛ كانت بيكى تستنكف

أن تعترف بذلك لى ؛ لذلك فقد قررت أن الوقت قد حان لكى أقوم بزيارة ثانية إلى رومفور .

" يا لها من مفاجأة سعيدة يا آنسة هاركورت براون " ، هكذا قالت والدة بيكى مرحبة عندما وصلت إلى بيتها الصغير فى شارع بيل فيو روود . كان علىَّ أن أقول لها - دفاعا عن نفسى - إننى كنت أود أن أعلمها بالزيارة مسبقا إن كانت تملك هاتفا . ولكننى كنت أبحث عن معلومات محددة كانت هى الوحيدة القادرة على أن تمدنى بها قبل انقضاء فترة الثلاثين يوما - إنها المعلومات التى لن تنقذ فقط ماء وجه ابنتها وإنما أيضا أموالها - لأننى لم أكن على استعداد لإهدار أموالى .

" بيكى لا تواجه أية مشكلة ؛ أتمنى ذلك ؟ " ، كان هذا هو رد فعل والدتها الأول عندما فوجئت بى واقفة عند باب المنزل .

طمأنتها قائلة : " بالطبع لا . إنها على خير ما يرام " .

" أصبحت شديدة القلق عليها بعد وفاة والدها " ، هكذا قالت لى السيدة سالمون مفسرة . كانت تعرج قليلا وهى تقودنى إلى غرفة الاستقبال التى كانت نظيفة للغاية تماما مثل اليوم الذى ذهبت فيه تلبية لدعوتها على الشاى . كان هناك طبق من الفاكهة فوق المائدة فى منتصف الغرفة . تضرعت إلى الله ألا تزورنى السيدة سالمون بدون سابق إنذار عام على الأقل فى شقتى فى ٩٧ من حدائق تشيلسيا .

سالتنى السيدة سالمون بعد أن اختفت السيدة روش بلحظات لكى تعد الشاى . " كيف يمكن أن أساعدك ؟ " .

قلت لها : " إننى أفكر فى اجراء استثمار صغير فى أحد محلات الخضراوات والفاكهة فى تشيلسيا . لقد أكد لى جون دى .

وود أنه عرض جيد بالرغم من مشكلة نقص الغذاء الحالية ومشاكل اتحاد التجارة الراهنة مادمت سأعين مديرًا كفئًا لإدارة المتجر " .

حلت الدهشة محل الابتسامة على وجه السيدة سالمون .

" لقد أشادت بيكى بشخص ما يدعى تشارلى ترامبر والهدف من زيارتى هو أن أعرف رأيك فى هذا الرجل المحترم المقصود " .

قالت السيدة سالمون بدون تردد : " رجل محترم ؛ إنه ليس كذلك بكل تأكيد إنه شخص غوغائى غير متعلم ؛ هذا هو التعبير الأقرب إلى الصحة فى واقع الأمر " .

قلت لها : " يا للاحباط . وخاصة لأن بيكى جعلتنى أعتقد أن زوجك الراحل كان ينظر إليه بعين الاعتبار " .

" كبائع خضراوات وفاكهة هو بالفعل كذلك . بل إنه يمكننى القول إن السيد سالمون كان يرى أن تشارلى سوف ينتهى به المآل إلى نفس كفاءة جده " .

" وكيف كانت كفاءة جده ؟ " .

قالت السيدة سالمون : " بالرغم من أننى لا أختلط بمثل هؤلاء الأشخاص كما تعلمين ؛ فقد أخبرت - من خلال شخص ثالث بالطبع - أن جده كان أفضل تاجر عرفته وايت شابيل " .

قلت : " جيد ولكن هو أيضا أمين ؟ " .

أقرت السيدة سالمون قائلة : " لم أسمع غير ذلك طوال عمرى ، كما أنه يملك القدرة على العمل طوال اليوم بدون كلل ولكنه ليس من طرازك فى رأيي يا آنسة براون " .

" لقد كنت أفكر فى تعيينه كمدير للمتجر يا سيدة سالمون وليس أن أدعوه لصحبتى فى حفل ملكى فى أسكوت " ، وعندها عادت الآنسة روش ثانية وهى تحمل صينية شاى وبعض فطائر المربى

والكعك المحلى بالكريمة . وقد كانت شهية إلى الحد الذى جعلنى أبقى لوقت أطول مما عزمت عليه فى بادئ الأمر .

وفى صباح اليوم التالى قمت بزيارة جون دى . وود وسلمته شيكا بمبلغ التسعين جنيها المتبقية . ثم قمت بزيارة المحامى الخاص بى وكتبنا العقد الذى عندما فرغنا من إعداده شعرت أننى لا أفهم منه شيئا .

وعندما عرفت بيكى ما عزمت عليه كان علىَّ أن أخوض فى مناقشة مستفيضة لأنها كانت ستستاء من عرضى ما لم أثبت لها أننى سوف أجنى نفعا من وراء الصفقة .

وبمجرد أن اقتنعت بذلك ، قامت على الفور بتقديم ثلاثين جنيها لكى تقلل من حجم الدين . كانت بيكى بالطبع تتعامل مع مشروعها على نحو أكثر جدية حيث إنها فى غضون أسابيع أقنعت شابا كان يعمل فى أحد محلات كنيسينجتون لكى يحل محل تشارلى لحين عودته . كما أنها كانت تواصل عملها لساعات لم أكن أعلم أنها موجودة فيها . ولم أطلب منها يوما أن تفسر لى سر استيقاظها قبل طلوع الشمس .

بعد أن انتظمت بيكى فى نظام عملها اليومى الجديد حاولت أن أقنعها بأن تصحبنى إلى الأوبرا فى إحدى الليالى لمشاهدة عرض لابوميه . فى الماضى ، كانت بيكى لا تبدى أية رغبة فى حضور أى من المناسبات التى أخرج إليها وخاصة بعد تحملها لعبء مسئولية المتجر الجديد . ولكننى فى هذه المناسبة أخذت أتوسل إليها لأن إحدى صديقاتى كانت قد اعتذرت عن الحضور فى آخر لحظة وكنت بحاجة ماسة لفتاة بديلة .

قالت فى يأس : " ولكن ليس لدىَّ ما أرتديه "

" يمكنك اقتراض أى ثوب يحلو لك من خزانة ملابسى " . قلت لها ذلك ثم بادرت بإدخالها غرفتى لانتقاء ما تشاء .

كان بوسعى أن أرى أن العرض كان مغريا للغاية بالنسبة لها مما جعلها تفقد كل قدرتها على المقاومة . وبعدها بساعة ظهرت وهى ترتدى ثوبًا فيروزيًا طويلاً أعاد إلىَّ ذكرى الثوب كما كان يبدو على العارضة فى المحل .

سألت بيكى : " من هم ضيوفك الآخرون ؟ " .

" ألجيرمون فيتزباتريك ؛ إنه الصديق المقرب لـ " بيرسى ويلتشاير " هل تذكرينه ؟ إنه الرجل الذى لم يخبروه بعد بشأن زواجه منى " .

" ومن الذى أقام الحفل " .

" جاى ترينثام . إنه نقيب فى سلاح الرماية الملكية ؛ إحدى الفرق العسكرية المعتبرة . " ، أضفت : " لقد عاد مؤخرا من الجبهة الغربية حيث يقال إنه خاض الحرب بشجاعة وحصل على نيشان تكريم . نحن ننتمى إلى نفس المنشأ فى بيكشاير وقد كبرنا معاً بالرغم من أننى يجب أن أقر بأنه ليست هناك أشياء مشتركة كثيرة تجمعنا . وهو شاب وسيم للغاية ولكنه رجل لعوب اشتهر بولعه بالنساء ؛ احترسى منه " .

كانت مسرحية لابوميه ، كما رأيت ، رائعة بالرغم من أن جاى لم يكف عن التحديق فى بيكى على مدى الفصل الثانى ؛ أما هى فلم تبد أى اهتمام ظاهر به .

ومع ذلك ؛ فعندما عدنا إلى المنزل ولدهشتى ؛ وجدت أن بيكى لا تكف عن الحديث عن شكل الرجل ووجاهته وجاذبيته ولكنها مع كل ذلك لمْ تشر فى حديثها بالمرة إلى شخصيته مما أثار

انتباهى . وأخيرا نجحت فى الإفلات منها إلى فراشى ولكن ليس قبل أن أؤكد لها أن هذا الشعور كان بلا شك متبادلا بينها وبينه .

وفى واقع الأمر وجدت نفسى أقوم بدور كيوبيد الغرام بين العشيقين . وفى اليوم التالى طلب منى جاى أن أدعو الآنسة سالمون للذهاب معه إلى مسرحية وست إند . وافقت بيكى بالطبع كما سبق وأكدت لجاى .

بعد ذهابهما معاً إلى الهاى ماركت ، بدا لى الاثنان وكأنهما لا يفترقان عن بعضهما البعض وبدأت أخشى أن تنتهى العلاقة إن تطورت لأكثر من ذلك - كما اعتدت أن أسمع - بسكب الدموع . بدأت أندم لأننى قدمتهما لبعضهما البعض فى الأساس بالرغم من أنها - على حد التعبير الشائع - كانت قد غرقت فى بحر الهوى .

وبالرغم من ذلك فقد عاد الاتزان ثانية إلى العقار ٩٧ ثم أعفى تشارلى من الخدمة العسكرية .

لم أقدم رسميا للرجل إلا بعد مرور فترة من الوقت على عودته وعندما قابلته - يجب أن أعترف بذلك - شعرت أنه يختلف عن الرجال فى بيكشاير . كانت المناسبة التى قابلته فيها هى دعوة عشاء فى أحد المطاعم الإيطالية الصغيرة البشعة الواقعة على الرصيف المقابل لشقتى .

ولكى أكون منصفة ، لم تكن الأمسية من الأمسيات الرائعة ربما لأن جاى لم يبذل أى جهد لكى يكون اجتماعيا ، ولكن السبب الرئيسى هو بيكى التى لم تشغل بالها على الإطلاق بإدماج تشارلى فى أحاديثها . وجدت نفسى أسأل وأجيب عن أسئلتى ، أما تشارلى فقد بدا لى من الوهلة الأولى على أنه أخرق .

عندما بدأنا نسير جميعا فى طريق العودة إلى الشقة بعد انتهاء العشاء ، اقترحت على تشارلى أن نترك بيكى وجاى بمفردهما . عندما صحبنى تشارلى إلى متجره لم يكف عن الحديث عن عمله وكيف أنه غيَّر كل شيء فى المتجر فور تسلمه العمل . كان حماسه كافيا لإقناع أكثر المستثمرين إحجاما ولكن ما بهرنى بدرجة أكبر هو كم معرفته وخبرته فى مجال عمل لم يكن ليثير انتباهى بالمرة . وكان هذا هو الوقت الذى اتخذت فيه قرارا بمساعدة تشارلى فى قضيته .

لم أفاجأ بالمرة عندما علمت بمشاعر تشارلى حيال بيكى ، ولكنها كانت مفتونة بـ " جاى " إلى الحد الذى حال دون حتى إدراكها بوجود تشارلى . كانت بداية وضعى خطة لمستقبل تشارلى أثناء أحد أحاديثه الأحادية اللانهائية عن فضائل هذه الفتاة . كنت مصرة على أنه يجب أن يتلقى نوعية مختلفة من التعليم ؛ قد لا يكون رسميا مثل تعليم بيكى ولكنه فى نفس الوقت قد يبقى فى نفس مستوى الأهمية بالنسبة للمستقبل الذى خططنا له .

أكدت لـ " تشارلى " أن جاى سرعان ما سوف يسأم بيكى كما كان دأبه دائما مع الفتيات اللاتى عرفهن فى الماضى . كما أضفت له أنه يجب أن يتحلى بالصبر وسوف يجد التفاحة تسقط فى حجره فى يوم من الأيام . وقد انتهزت هذه الفرصة لكى أقص عليه قصة نيوتين .

كنت أرى أن الدموع التى سوف تسكبها بيكى قد باتت وشيكة بعد زيارتها لأسرة جاى فى عطلة نهاية الأسبوع فى آشورست . ولذا فقد حرصت على أن تدعونى أسرة ترينثام على تناول الشاى عصر يوم الأحد لكَى أمنح بيكى كل المساندة التى تحتاج إليها .

وصلت بعد الثالثة وأربعين دقيقة بقليل وهو الوقت الذى كنت أعتبره دائما الوقت الأنسب لتناول الشاى ، لأجد السيدة ترينثام جالسة محاطة بالطاقم الفضى والحلوى ولكن بمفردها .

سألت وأنا أدخل غرفة الاستقبال : " أين العشيقان ؟ " .

" إن كنت تقصدين بذلك يا دافنى ابنى والآنسة سالمون ، فقد غادرا بالفعل إلى لندن " .

سألتها : " معاً ، حسبما أرى " .

قالت السيدة ترينثام وهى تصب لى كوبًا من الشاى : " أجل بالرغم من أننى أقسم أننى لا أستطيع أن أتبين سر إعجابه بها . فأنا أراها عادية للغاية " .

" ربما يكون عقلها ومظهرها هو الذى أثار إعجابه " قلت ذلك بينما كان العقيد يدخل الغرفة . ابتسمت للرجل الذى كنت أعرفه منذ نعومة أظافرى والذى كنت أعتبره بمثابة العم . كان الشيء الوحيد الذى يحيطه الغموض فى هذا الرجل هو سبب إقدامه على تزوج سيدة مثل إيثيل هاردكاسيل .

قال سائلاً : " هل غادر جاى أيضا ؟ " .

قالت السيدة ترينثام للمرة الثانية : " نعم لقد عاد إلى لندن مع الآنسة سالمون " .

" يا للخسارة ، إنها فتاة رائعة " .

قالت السيدة ترينثام : " إنها مثيرة للرثاء " .

" لدىَّ انطباع أن جاى قد ارتبط بها " ، قلت ذلك أملا فى استثارة رد فعل .

قالت السيدة ترينثام : " لا قدر الله " .

قلت لكى أشعل التحدى ضراوة : " أظن أن الأمر ليس له علاقة بذلك " .

قالت السيدة ترينثام : " إذن ، ليست لدى أية نية للسماح لابنى بالتزوج من فتاة كان والدها يعمل تاجرا فى الطرف الشرقى " .

قاطعها العقيد قائلا : " لا أفهم السبب . ألم يكن جدك كذلك فى يوم ما ؟ " .

" جيرالد ، لا تكن فظا ، لقد أسس جدى عملا ناجحا وحرص على تنميته وكان ذلك فى يورك شاير وليس فى الطرف الشرقى " .

قال العقيد : " إذن وجه الخلاف كما أرى هو الموقع فقط ليس إلا . أذكر أن والدك أخبرنى ـ بشىء من الفخر يجب أن أضيف ـ أن والده الراحل بدأ عمله فى هارد كاسيل فى مكان ما بالقرب من هودرسفيلد " .

" جيرالد ، لقد كان أبى يبالغ " .

أجاب العقيد معترضًا : " لم يكن والدك يوما رجلا يميل إلى المبالغة . بل على العكس ، كان رجلا دقيقا فى حديثه ، لقد كان داهية " .

قالت السيدة ترينثام : " لابد أن هذا قد حدث إذن منذ زمن طويل " .

أضاف العقيد : " ولكن الأكثر من ذلك هو أننى أظن أننا سوف نحيا إلى أن نرى أبناء ريبيكا سالمون وهم يبلون بلاء أحسن من أمثالنا " .

" جيرالد ، كف عن الحديث بهذه الطريقة . سوف نتأثر جميعا بتلك المسرحية الاشتراكية بيجميليون وكاتبها السيد شو والتى لا تعدو كونها مسرحية عن الآنسة سالمون " .

قلت لها : " لا أظن ذلك " ، لأن بيكى سوف تتخرج فى جامعة لندن بشهادة فى الفنون لم تنجح عائلتى كلها فى الحصول على مثلها منذ أحد عشر قرنا " .

استطردت السيدة تريتنام : " قد يكون الحال كذلك بالفعل ، ولكنها لا تملك المواصفات التى سوف تفيد جاى فى عمله العسكرى وخاصة بعد الجولة المزمعة التى سوف تقوم بها فرقته فى الهند " .

جاءت هذه المعلومة بمثابة لطمة بالنسبة لى كما أننى كنت واثقة من أن بيكى لم تكن تعلم بالأمر .

واصلت السيدة تريتنام حديثها : " وعندما يعود إلى أرض الوطن سوف أبحث له عن زوجة من أصل نبيل ذات مال وجاه وربما حتى القليل من الذكاء . قد يكون جيرالد قد فشل ـ نظرا لسوء التقدير ـ فى أن يكون كولونيل الفرقة العسكرية ولكننى لن أسمح بحدوث نفس الشىء لـ " جاى " ، أنا واثقة من ذلك " .

قال العقيد بصوت أجش : " إننى فقط لم أكن أتمتع بالكفاءة اللازمة . كان السير دانيفرز يفوقنى كفاءة وعلى أية حال أنت وحدك التى كنت تتطلعين لكى أكون كولونيل فى المقام الأول " .

" ومع ذلك أشعر أن جاى بعد حصوله على هذه النتائج فى ساندهورست ـــــ " .

" لقد نجح فى أن يكون من بين النصف الأعلى فى النتائج ، ولكن هذا يبعد كل البعد عن حمله سيف الشرف يا عزيزتى " .

" ولكنه حصل على الوسام الذهبى فى أرض المعركة وجاء تقريره ليؤكد أنه ـــــ " .

تنحنح العقيد على نحو يوحى بأنه قد سمع هذا الحديث عدة مرات من قبل .

واصلت السيدة تريتنام : " وهكذا ترين أننى واثقة تمام الثقة من أن جاى سوف يصبح مع الوقت كولونيل للفرق العسكرية كما أننى أود أن أضيف إليك أيضا أننى قد اخترت له فتاة مناسبة سوف تساعده فى تحقيق هذا الهدف . إن الزوجة هى التى تصنع أو تهدم زوجها ، ألا تعلمين ذلك يا دافنى " .

همس زوجها : " أوافقك الرأى تماما فى هذا على الأقل يا عزيزتى " .

سافرت عائدة إلى لندن وأنا أشعر بالارتياح بعض الشىء لأننى تأكدت بعد هذه المقابلة أن علاقة بيكى بـ " جاى " سوف تصل لا محالة إلى نهايتها . وبالطبع كنت كلما راقبت تصرفات هذا الرجل اللعين تراجعت ثقتى به .

عندما عدت إلى شقتى فى وقت متأخر من مساء نفس اليوم ، وجدت بيكى جالسة فوق الأريكة ترتجف وقد احمرت عيناها .

" إنها تكرهنى " ، كانت هذه هى كلماتها الأولى .

" إنها لا تقدرك بعد " ، كانت هذه هى الطريقة التى أعدت بها صياغة العبارة على ما أذكر . " ولكن مع ذلك يمكننى أن أؤكد لك أن العقيد يرى أنك فتاة رائعة " .

قالت بيكى : " كم هو لطف منه . لقد صحبنى فى جولة لمشاهدة أراضيه ، هل تعلمين ذلك ؟ " .

" يا عزيزتي نحن لا نطلق على أرض تصل مساحتها إلى سبعمائة فدان اسم أراضي . يمكن إننا نطلق عليها اسم الأطيان ربما ولكن بالطبع ليس الأراضي " .

" هل تعتقدين أن جاى سوف يكف عن مقابلتي بعد ما حدث في آشورست ؟ " .

وددت أن أجيبها بأنني أتمنى ذلك ولكنني مع ذلك نجحت في كبح جماح لساني فأجبتها بدبلوماسية : " لن يكف عن مقابلتك إن كان يتمتع بأقل قدر من قوة الشخصية " .

وبالفعل قابلها جاى في الأسبوع التالي وعلى حسب ما أذكر فإنه لم يتحدث في أمر والدته أبدا وما حدث أثناء عطلة نهاية الأسبوع المؤسفة .

ومع ذلك ، كنت مازلت مقتنعة أن خطتي طويلة المدى لـ " تشارلى " وبيكى كانت تسير على ما يرام إلى أن عدت إلى المنزل بعد عطلة نهاية أسبوع طويلة لأجد ثوبي المفضل ملقى فوق أرضية غرفة الاستقبال . سرت مقتفية أثر صف الملابس الملقاة على الأرض إلى أن وصلت إلى غرفة بيكى وفتحت باب الغرفة في شيء من التردد لأجد ـ لذهولي ـ المزيد من ملابسي ملقاة إلى جانب الفراش بالإضافة إلى جاى . لكم كنت أتمنى أن تكون بيكى قد رأته على حقيقته قبل أن تصل إلى هذه المرحلة بزمن طويل .

بدأ جاى رحلته إلى الهند في اليوم التالي وبمجرد أن غادر لم تكف بيكى عن إخبار الجميع بأنها قد خطبت إليه بالرغم من أنها لم تكن ترتدى خاتما في إصبعها فضلا عن عدم ظهور أى إشارة

للخطبة في أية صحيفة رسمية تدعم روايتها . " يكفيني وعد جاى " . هكذا كانت تؤكد مما كان يخرس كل الألسنة .

وصلت إلى المنزل في مساء ذلك اليوم لأجدها نائمة في سريرى . حكت لي بيكى أثناء تناول الإفطار أن تشارلى قد وضعها في فراشي بدون أن تقدم لي المزيد من الشرح .

وفي مساء يوم الأحد التالي ؛ دعوت نفسي ثانية لتناول الشاى عند أسرة ترينثام وأخبرتني والدته أن جاى قد أكد لها أنه قد قطع كل علاقته بالآنسة سالمون منذ رحيلها من آشورست أى منذ أكثر من ستة أشهر .

" ولكن هذا ليس ــ " بدأت حديثي ولكنني توقفت في منتصف العبارة عندما تذكرت وعدى لـ " بيكى " بعدم إخبار والدة جاى بأنهما كان لايزالان يقابلان بعضهما البعض .

بعدها بأسابيع قليلة ؛ أخبرتني بيكى أنها افتقدت دورتها الشهرية . أقسمت لها بأنني سوف أتكتم سرها ولكنني لم أتردد في إخبار تشارلى في نفس اليوم . وقع عليه النبأ وقوع الصاعقة . وما زاد الأمر سوءا هو أنه كان عليه أن يتظاهر دائما كلما وقع بصره على بيكى أنه غير مدرك لكل ما يجرى .

" أقسم أنه إن عاد هذا اللقيط ترينثام إلى إنجلترا فسوف أقتله " ، هكذا ظل تشارلى يردد هذه العبارة وهو يحوم في غرفة الاستقبال .

أجبته في تلقائية : " إن كان في إنجلترا لكان آباء ثلاث فتيات ممن عرفهن على الأقل ؛ على استعداد تام لإنجاز نفس المهمة " .

سألنى تشارلى : " إذن ما الذى يجب أن أفعله حيال ما يجرى ؟ " .

قلت له ناصحة : " ليس الكثير . أعتقد أن الزمن ومسافة ثمانية آلاف ميل هما أعظم حليف لك " .

كان الكولونيل هو الآخر ينتمى إلى تلك الزمرة التى سوف يسعدها أن تتخلص من جاى ترينشام؛ إن مُنح أية فرصة لإنجاز ذلك ؛ ولكنه كان على استعداد لذلك بدافع شرف الفرقة العسكرية . حتى إنه فى يوم من الأيام أسر بأنه على استعداد للذهاب للقاء السيد ترينشام وإخباره مباشرة بحقيقة ابنه المخزية . كان بوسعى أن أقول له بأن المشكلة لا تكمن فى العقيد . لم أكن واثقة - رغم كل شىء - أن الكولونيل حتى بعد خبرته الواسعة المتنوعة مع الأعداء كان قد قابل شخصًا فى روعة السيدة ترينشام .

فى مثل هذا التوقيت تقريبا كان بيرسى ويلتشاير قد سُرح أخيرا من خدمة الحرس الاسكتلندى . كنت قد توقفت مؤخرا عن القلق بشأن محادثات والدته الهاتفية . وأثناء هذه السنوات اللعينة ما بين عام ١٩١٦ ، ١٩١٩ ؛ كنت أتوقع دائما أن تصلنى رسالة محتواها أن بيرسى قد قتل فى الجبهة الغربية كما حدث لوالده وأخيه من قبله . مضت سنوات قبل أن أخبر المركيزة الأرملة أننى كنت أخشى سماع صوتها على الطرف المقابل .

ثم فجأة صارحنى بيرسى برغبته فى الزواج منى . أشعر من وقتها أننى أصبحت شديدة الانشغال بالإعداد لمستقبلنا معاً وزيارة الكثير من أفراد عائلته مما جعلنى أقصر فى حق بيكى حتى بالرغم من أننى سمحت لها بأن تعيش فى شقتى .

وعندئذ ؛ حتى قبل أن تتاح لى فرصة الالتفات حولى ؛ أنجبت بيكى دانيال الصغير . كنت أتضرع إلى الله فقط أن يمنحه قوة مواجهة العار الذى ينتظره .

وبعدها بشهور ؛ قررت أن أفاجئ بيكى بزيارتى لشقتها وأنا فى طريقى بعد عطلة نهاية أسبوع كنت قد قضيتها فى الريف مع والدة بيرسى .

عندما فتح باب الشقة الأمامى ؛ كان تشارلى هو الذى حيانى حاملاً صحيفة تحت إبطه بينما كانت بيكى تخيط جوربًا وهى جالسة على الأريكة . نظرت إلى أسفل لأجد دانيال يحبو نحوى بسرعة فائقة . حملت الصغير بين ذراعى قبل أن يقتنص فرصة هبوط الدرج إلى العالم الخارجى .

قالت بيكى وهى تقفز : " كم تسرنى رؤيتك . لقد مر زمن طويل . دعينى أعد لك بعض الشاى " .

" شكرا لك . لقد جئت فقط لكى أتأكد أنك مازلت حرة فى ـــــ " ثم استقرت عيناى على لوحة زيتية صغيرة معلقة فوق المدفأة .

قلت لها : " يالها من صورة جميلة " .

قالت بيكى : " ولكن لابد أنك قد رأيت الصورة عدة مرات من قبل . لقد كانت معلقة عند تشارلى فى ـــــ " .

رددت قائلة غير واثقة مما كانت ترمى إليه : " كلا لم يسبق لى رؤية الصورة من قبل مطلقاً " .

الفصل

١٤

فى اليوم الذى وصلتها فيها البطاقة ذات الإطار الذهبى فى ميدان لاوندر ، وضعت دافنى الدعوة بين طلب حضورها فى الإحاطة الملكية فى أسكوت ودعوة حضور حفل فى الحديقة المفتوحة فى قصر بيكنجهام . ومع ذلك فقد وضعت فى اعتبارها أن هذه الدعوة الخاصة يمكن أن تبقى فوق المدفأة لكى يحدق فيها الجميع طويلا ويعتدوا بها بعد المناسبة بكثير ، أما دعوة القصر فسوف يكون مصيرها هو سلة المهملات .

وبالرغم من أن دافنى كانت قد قضت أسبوعاً فى باريس لانتقاء الملابس التى سوف ترتديها فى المناسبات الثلاث ، فقد احتفظت بالثوب الأكثر أناقة لحفل تخرج بيكى الذى أصبحت تطلق عليه فى ذلك الوقت كلما تحدثت مع بيرسى اسم " الحدث الأعظم " .

وقد أقر خطيبها ـ بالرغم من أنها لم تكن بعد قد اعتادت أن تفكر فى بيرسى بهذه الطريقة ـ بأنه لم يسبق له أبدا حضور مناسبة كهذه من قبل .

وقد اقترح عليها والدها العميد هاركورت براون أن يقودهما هوسكينز إلى مقر مجلس الشيوخ فى السيارة الرولز بعد أن أعرب صراحة عن أنه كان يشعر ببعض الغيرة لعدم دعوته لحضور المناسبة .

عندما جاء أخيرا صباح اليوم الموعود ، اصطحب بيرسى دافنى لتناول الغداء فى فندق ريتز وبعد مراجعة قائمة المدعوين بدأوا يفكرون فى تفاصيل مناسبة الظهيرة .

قالت دافنى : " أتمنى ألا تطرح علينا أية أسئلة غير محسوبة لأن هناك شيئا أكيدا وهو أننى لن أعرف الإجابة عن مثل هذه الأسئلة " .

قال بيرسى : " أوه ، إننى متأكد أننا لن نتعرض لأى مأزق مثل هذا فى مثل هذه المناسبات ، فأنا لم أحضر أيًّا منها من قبل ولكن لأننا نحن سكان ويلت شاير اشتهرنا بعدم إزعاجنا للسلطات فى مثل هذه الأشياء " . وضحك وكانت ضحكته كثيرا ما تسمع على أنها سعال .

" يجب أن تتخلص من هذه العادة يا بيرسى . إن كنت تريد أن تضحك فاضحك . وإن كنت تريد أن تسعل فاسعل " .

" أمرك أيتها السيدة العجوز " .

" كف عن استخدام هذا اللقب فأنا مازلت فى الثالثة والعشرين من عمرى كما أن أهلى قد أطلقوا على اسمًا جميلاً " .

كرر بيرسى قائلاً : " أمرك أيتها السيدة العجوز "

" إنك لم تكن تنصت إلى أية كلمة مما كنت أقول " ، ثم نظرت دافنى فى ساعتها وقالت : " والآن أعتقد أنه قد حان وقت الذهاب . يجدر بنا ألا نتأخر عن هذه المناسبة " .

أجاب قائلاً : " أنت محقة تماما " ، وطلب من النادل أن يحضر فاتورة الحساب .

" هل لديك أية فكرة إلى أين نحن ذاهبون الآن يا هوسكينز ؟ " ، سألت دافنى وهو يفتح لها الباب الخلفى للسيارة الرولز .

" نعم يا سيدتى ؛ لقد سمحت لنفسى بأن أختبر الطريق الأسبوع الماضى عندما ذهبت مع سيادته إلى اسكتلندا فى الأسبوع الماضى " .

قال بيرسى : " صباح الخير يا هوسكينز ، لو لم يكن قد فعل ذلك لكنا قد بقينا ندور حول أنفسنا لباقى فترة الظهيرة ، أتعلمين ذلك ؟ " .

عندما أدار هوسكينز المحرك ؛ نظرت دافنى إلى الرجل الذى تحبه ولم تستطع إلا أن تفكر إلى أى مدى كانت محظوظة باختيارها . لقد وقع اختيارها عليه فى واقع الأمر وهى فى السادسة عشرة من عمرها ولم تشك يوما فى أنها قد اختارت الشريك المناسب حتى إن كان هو غير مدرك لذلك . لقد كانت ترى بيرسى دائما بأنه شاب رائع وطيب القلب ومتفهم ورقيق وحتى إن لم يكن وسيما فقد كان بالقطع راقيا . كانت دافنى تحمد الله فى كل ليلة على أنه نجا من أهوال الحرب المريعة وبقى صحيحا معافى . وعندما أخبرها بيرسى أنه مسافر إلى فرنسا للانضمام إلى الحرس الاسكتلندى ؛ قضت أتعس ثلاث سنوات من عمرها فى انتظار عودته . ومنذ لحظة

رحيله كانت تظن أن كل خطاب وكل رسالة وكل مكالمة سوف تحمل لها نبأ مقتله . حاول رجال آخرون التودد إليها أثناء غيابه ولكنهم فشلوا جميعا لأن دافنى بقيت فى انتظار عودة شريكها . لم تصدق أنه مازال حيا بالفعل إلا عندما شاهدته وهو يهبط سلم السفينة فى دوفر . وسوف تبقى دافنى دائما تتذكر وتعتز بالكلمات التى قالها لها لحظة وقوع بصره عليها .

" لقد غمرتنى السعادة برؤيتك هنا أيتها السيدة العجوز . إنها مفاجأة مذهلة ، ألا تعلمين ذلك ؟ " .

يتحدث بيرسى يوما عن أن والده كان نموذجا يحتذى به بالرغم من أن صحيفة التايمز كانت قد خصصت نصف صفحة لنعى الماركيز . أشادت الصحيفة بالدور الذى قام به الماركيز فى مارن حيث اجتاح بمفرده سرية ألمانية كاملة واعتبر أحد أعظم قادة الحرب . وعندما قتل أخو بيرسى فى يبرس بعدها بشهر ؛ أدركت دافنى كم كان حجم المحن الطاحنة التى كانت تعانى منها الكثير من العائلات . كان بيرسى الآن قد ورث لقب الماركيز الثانى عشر لـ " ويلت شاير " . من الماركيز العاشر إلى الماركيز الثانى عشر فى غضون أسابيع .

سألت دافنى والسيارة الرولز تدخل شارع شافتسبيرى : " هل أنت واثق من أننا نسير فى الاتجاه الصحيح ؟ " .

أجاب هوسكينز ؛ الذى كان قد قرر أن يخاطبها باللقب حتى قبل أن تتزوج رسميا من بيرسى . قائلاً : " نعم يا سيدتى " .

قال بيرسى قبل أن يسعل ثانية : " إنه فقط يساعدك على اعتياد اللقب يا سيدتى العجوز " .

سعدت دافنى سعادة غامرة عندما أخبرها بيرسى بأنه قد عزم على تقديم استقالته من العمل العسكرى فى الحرس الاسكتلندى لكى يدير ممتلكات العائلة . فبقدر ما كانت تحب ذلك الزى العسكرى ذى اللون الأزرق الحالك والأزرة النحاسية الأربعة المتراصة على مسافات متساوية والحذاء العالى وغطاء الرأس الأبيض والأزرق والأحمر ؛ فإنها كانت تريد أن تتزوج فلاحا وليس جنديا . لم تكن تريد أن تقضى حياتها فى الهند وإفريقيا والمستعمرات الأخرى .

وعندما وصلوا إلى شارع ماليت ؛ رأوا مجموعة من الأشخاص يصعدون الدرج الحجرى لدخول المبنى التاريخى ." لابد أن هذا هو مجلس الشيوخ " ، هكذا قالت دافنى فى إعجاب وكأنها قد اكتشفت هرما لم يكن معروفا من قبل .

قال هوسكينز : " نعم يا سيدتى " .

بدأت دافنى : " وتذكر أيضا يا بيرسى ـــ " .

" أجل يا سيدتى العجوز ؟ " .

" ـــــــ لا تتحدث إلا عندما يطلب منك . نحن فى هذه المناسبة تحديدا لا نملك الدراية الكافية لذا فإنى لا أحب أن نبدو كالحمقى . والآن هل تذكرت إحضار الدعوة والتذاكر الخاصة التى توضح الأماكن التى سنجلس فيها ؟ " .

" أعلم أننى وضعتها فى مكان ما " وبدأ يبحث فى جيوبه .

قال هوسيكنز وهو يوقف السيارة : " إنها فى الجيب العلوى الأيسر من سترتك يا سيدى " .

قال بيرسى : " أجل هى كذلك بالفعل . شكرا لك يا هوسكينز " .

" تحت أمرك يا سيدى " هكذا أجاب هوسيكنز على الفور .

قالت دافنى فى لهجة آمرة : " فقط ، اتبع الآخرين ، ويجب أن تبدو وكأنك معتاد على مثل هذه المناسبات " .

مروا بالعديد من الحرس والمرشدين إلى أن جاء موظف وتفحص تذاكرهما ثم قادهما إلى الصف رقم إم .

قالت دافنى : " لم يسبق لى من قبل أبدا الجلوس فى مكان بعيد كهذا فى المسرح " .

قال بيرسى : " لقد حاولت بالفعل أن أبتعد إلى هذا الحد فوق المسرح من قبل وذلك عندما احتل الألمان قلب المسرح " ، ثم سعل ثانية .

بقى الاثنان جالسين فى صمت وهما يحدقان فى المشهد أمامهما ؛ فى انتظار حدوث شيء ما . كان المسرح خاليا إلا من أربعة عشر مقعدا ؛ كان اثنان منهما موضوعين فى منتصف المسرح واللذان كان يمكن وصفهما أيضا بأنهما كراسى العرش .

فى الساعة الثانية وخمس خمسين ؛ ظهر عشرة رجال وسيدتان ؛ كانوا جميعهم يرتدون ملابس سوداء طويلة وأوشحة بنفسجية اللون متدلية من أعناقهم . سار الجمع فوق المسرح فى خطوات رقيقة صفًا واحدا إلى أن وصل كل منهم إلى مكانه المحدد . بقى كرسى العرش فقط بدون أن يشغله أحد . مع دقات الثالثة ؛ التفتت دافنى إلى الموسيقى المنبعثة من الفرقة الموسيقية حيث دقت الطبول إعلانا بحضور الزائرين ؛ نهض الجميع من مقاعدهم لتحية الملك والملكة اللذين شقا طريقهما فوق المسرح إلى أن وصلا إلى كرسى العرش فى قلب مجلس الشيوخ . وبقى الجميع باستثناء الملك والملكة واقفا بعد انتهاء عزف السلام الوطنى .

قال بيرسى وهو يجلس ثانية فوق مقعده : " يبدو بيرتى فى حالة جيدة " .

قالت دافنى : " اصمت . ليس هناك أحد آخر يعرفه " .

بقى الرجل كبير السن فى زيه الأسود الطويل ـ الشخص الوحيد الذى كان قد ظل واقفا ـ فى انتظار جلوس الجميع قبل أن يتقدم ويقدم التحية الملكية ثم يلقى خطبته على الجمهور .

بعدما تحدث نائب رئيس الجامعة السير راسيل روسيل ويلز لفترة طويلة ، سأل بيرسى خطيبته قائلاً : " كيف يتوقع أن يتمكن الشخص من متابعة كل هذا الهراء الذى يقوله بعد أن قرر التخلى عن اللاتينية فى النصف الأخير من خطبته ؟ " .

" أنا عن نفسى لم أطق سوى عام واحد من دراسة هذه المادة " .

قال بيرسى هامسًا : " أى أنك أنت أيضا لن تكونى بمثابة عون لى يا سيدتى العجوز ؟ " .

استدار أحد الأشخاص ممن كانوا يجلسون أمامهما ونظر إليهما فى غضب .

حاولت دافنى وبيرسى أن يلتزما الصمت لباقى مراسم الحفل بالرغم من أن دافنى قد وجدت من الضرورى أن تضع يدها على ركبة بيرسى الذى واصل استدارته من وقت إلى آخر فى عدم ارتياح فوق الكرسى الخشبى المسطح .

همس بيرسى قائلاً : " إن الأمر على ما يرام بالنسبة للملك ، فهو يجلس على وسادة مريحة " .

وأخيرا جاءت اللحظة التى كانا فى انتظارها .

كان نائب رئيس الجامعة الذى واصل قراءة قائمة الأسماء الحاصلة على مرتبة الشرف ، قد أعلن قائلا : " بكالوريوس الفنون

للسيدة تشارلى ترامبر من جامعة بيدفورد " . تضاعف التصفيق كما كان الحال دائماً عندما تصعد سيدة الدرج لكى تتسلم شهادتها من الملك . قدمت بيكى التحية للملك بينما وضع هو وشاح الشرف فوق ردائها وسلمها الشهادة الجامعية . حيته ثانية وخطت خطوتين للوراء قبل أن تعود إلى مقعدها ثانية .

قال بيرسى وهو يشارك فى التصفيق : " حتى أنا ، لم يكن بوسعى أن أصل إلى هذ المستوى فى الأداء المتميز " . احمر وجه دافنى بينما بقيا جالسين فى مكانهما لحين تسلم باقى الطلبة شهاداتهم إلى أن سمح لهم بالفرار إلى الحديقة لتناول الشاى .

" لا أرى أياً منهما هنا " ، قال بيرسى ذلك وهو يجول ببصره فى كل أنحاء المكان حوله .

قالت دافنى : " ولا أنا أيضا ولكن عليك أن تواصل المراقبة . سوف تجدهما فى مكان ما بكل تأكيد " .

" مساء الخير يا آنسة هاركورت براون " .

استدارت دافنى : " مرحبا يا سيدة سالمون؛ كم هو رائع أن أراك . قبعتك جميلة أنت والآنسة روش . بيرسى ؛ أقدم لك والدة بيكى السيدة سالمون وخالتها الآنسة روش . أقدم لكم خطيبى ــ " .

" سعيدة بمقابلتك أيها اللورد " ، قالت السيدة سالمون ذلك وهى تتساءل إن كانت أى من النساء فى رامفورد سوف تصدق أنها قد قابلت لوردا عندما تحكى لهن ذلك .

قالت السيدة سالمون : " بالطبع سيدى اللورد ، لابد أنك شديد الفخر بابنتك " .

تجمدت الآنسة رُوش فى مكانها كالتمثال ولم تبد أى رأى .

سألت دافنى : " وأين طالبتنا الصغيرة " .

قالت بيكى : " أنا هنا ، ولكن أين كنت ؟ " ، سألت ؛ وهى تخرج من وسط مجموعة من الطلبة حديثى التخرج .

" أبحث عنك " .

فتحت كل منهما ذراعيها لتحتضن الأخرى .

" هل رأيت أمى ؟ " .

قالت دافنى وهى تتلفت حولها : " كانت معنا منذ لحظة " .

قالت الآنسة روش : " لقد ذهبت لإحضار بعض الشطائر على ما أظن " .

قالت بيكى ضاحكة : " كعادتها دائما " .

قال تشارلى : " مرحبا يا بيرسى . كيف الأحوال ؟ " .

قال بيرسى وهو يسعل : " على خير ما يرام . ويجب أن أقول إنك قد أبليت بلاء حسنا يا بيكى " ، ثم عادت السيدة سالمون وهى تحمل طبقاً كبيراً ممتلئاً بالشطائر .

قالت دافنى وهى تنتقى شطائر الخيار لـ " بيرسى " : " إن كانت بيكى قد ورثت حس والدتها السيدة سالمون ، فسوف تبلى بلاء حسنا فى العالم الحقيقى لأننى أظن أنه لن يبقى الكثير من تلك الشطائر فى غضون خمس عشرة دقيقة " . اختارت بيكى إحدى شطائر السالمون المدخن لنفسها وسألت دافنى : " هل كنت تشعرين بالتوتر أثناء سيرك على خشبة المسرح ؟ " .

أجابت بيكى : " كنت كذلك بالفعل ، وعندما وضع الملك القلنسوة فوق رأسى ؛ ارتعدت فراصى وكدت أسقط . وما زاد الأمر سوءا هو أننى فى اللحظة التى عدت فيها إلى مكانى ؛ وجدت تشارلى يبكى " .

أجاب زوجها معترضا : " لم أكن أبكى " .

لم تنطق بيكى بكلمة واحدة واكتفت بتأبط ذراع زوجها .

قال بيرسى : " لقد أعجبتنى تلك القلنسوة المرصعة بالورود ، أعتقد أننى سوف أبدو رائعا عند ارتدائها فى حفل الصيد الراقص فى العام المقبل . ما رأيك يا سيدتى العجوز ؟" .

" لابد أن تبذل الكثير من الجهد قبل أن يسمح لك بمنح نفسك قلنسوة كهذه يا بيرسى " .

استدار الجميع لكى يتعرفوا على صاحب هذا التعليق

نكس بيرسى رأسه وقال : " جلالتكم محق دائما . ولكننى أخشى يا سيدى ـ أود أن أضيف ـ أن سجلى الحالى قد لا يسمح بمثل هذا التكريم " .

ابتسم الملك وأضاف قائلاً : " أشعر فى واقع الأمر أننى يجب أن أقول إنك قد ضللت ـ إلى حد ما ـ عن بيئتك المعتادة " .

شرح بيرسى قائلا : " إنها إحدى صديقات دافنى " .

قال الملك : " دافنى العزيزة ؛ كم تسرنى رؤيتك . لم تسنح لى الفرصة إلا الآن لكى أهنئك بنفسى على خطوبتك " .

" لقد وصلتنى بطاقة رقيقة من الملك بالأمس فقط يا صاحب الجلالة . لقد شرفنا نحن الاثنين بقبولكم لحضور حفل الزفاف " .

قال بيرسى : " أجل لقد أسعدنا ذلك أيما سعادة . هل لى أن أقدم لجلالتكم السيدة ترامبر التى حصلت على الشهادة اليوم ؟ وزوجها السيد تشارلى ترامبر ووالدتها السيدة سالمون وخالتها الآنسة روش " .

صافحهم الملك جميعا قبل أن يقول : " أحسنت صنعا يا سيدة ترامبر . أتمنى أن تستغلى شهادتك لتحقيق غاية قيمة " .

" سوف أنضم إلى طاقم التدريس فى سوثيباى يا صاحب الجلالة كمتدربة فى قسم الفنون الجميلة " .

" رائع . أتمنى لك دوام النجاح يا سيدة ترامبر . فى انتظار رؤيتك فى الزفاف ، إن لم يكن قبل ذلك يا بيرسى " ، وأومأ الملك ثم انتقل إلى مجموعة أخرى .

قال بيرسى : " رجل مهذب . كان تصرفا رقيقا من جانبه أن يأتى إلينا " .

بدأت بيكى تقول : " لم تكن لدىَّ أية فكرة أنك تعرف ـــ " .

قال بيرسى شارحاً : " حسنا . لكى أكون صادقا ، فإن جد جد جد جدى حاول أن يقتل جد جد جد جده . إن كان قد نجح فى ذلك لكانت الأدوار قد انقلبت الآن . وبالرغم من ذلك فقد كان دائما مقدرا ومتفهما للموقف " .

سأل تشارلى : " إذن ما الذى حدث لجد جد جد جدك ؟ " .

قال بيرسى : " نُفِىَ ، كما يجب أن أضيف أيضا أنه لو لم يكن قد نفى لكان قد أقدم على المحاولة ثانية " .

قالت بيكى ضاحكة : " يا إلهى " .

قال تشارلى : " ما الأمر ؟ " .

" لقد عرفت الآن من كان جد جد جد جد بيرسى " .

لم تتسن لـ " دافنى " فرصة لقاء بيكى ثانية قبل حفل الزواج نظرا لأن الأسابيع الأخيرة كانت تعج بالاستعدادات الخاصة بحفل الزواج ولم تترك لها دقيقة فراغ واحدة . ومع ذلك فقد نجحت دافنى فى الإلمام بكل ما يجرى فى حدائق تشيلسيا بعدما التقت بالكولونيل وزوجته فى حفل استقبال الليدى دينهام فى ميدان

أونسلو . وقد أخبرها الكولونيل ـ سرا ـ أن تشارلى قد بدأ يسحب على المكشوف بدرجة كبيرة من البنك حتى بعد أن سدد كل الديون الأخرى . ابتسمت دافنى عندما تذكرت أنها تسلمت آخر مبلغ مستحق لها من تشارلى قبل موعد السداد الواجب بعدة شهور ؛ كعادة تشارلى دائما . أضاف الكولونيل قائلاً : " كما أننى علمت مؤخرا أنه قد وضع عينيه على محل آخر " .

" أى متجر هذه المرة ؟ " .

" المخبز فى العقار ١٤٥ " .

قالت دافنى : " تجارة والد بيكى القديمة . وهل هم واثقون من أنهم سوف يحصلون على المتجر ؟ " .

" نعم ، أعتقد ذلك ، بالرغم من أننى أخشى أن تشارلى سوف يكون مطالبا بدفع أكثر من المبلغ المطلوب فى هذه المرة " .

" ولم ذاك ؟ " .

" إن المخبز يقع مباشرة إلى جانب محل الخضراوات والفاكهة الذى يملكه ، والسيد رينولدز يدرك جيدا مدى حرص تشارلى على امتلاك المتجر . ومع ذلك فقد قدم تشارلى للسيد رينولدز عرضا بأن يبقى مديرا للمحل مقابل حصوله على نسبة من الربح " .

" فهمت . وإلى أى مدى ترى أن هذا الترتيب سوف يدوم ؟" .

" إلى أن يتقن تشارلى فن الصنعة ثانية " .

" وماذا عن بيكى ؟ " .

" لقد تسلمت عملها فى سوثيباى كموظفة فى الاستقبال " .

قالت دافنى فى دهشة : " موظفة استقبال ؟ إن كان هذا ما تسعى إليه فلم كبدت نفسها عناء كل هذه الدراسة ؟ " .

أجاب الكولونيل : " يبدو أن الجميع يبدأون من عند هذه النقطة فى سوثيباى مهما كانت المواصفات التى تؤهله للعمل . لقد شرحت لى بيكى كل شىء . يجب البدء من هذه النقطة حتى إن كنت ابنة المدير أو كنت تملكين خبرة عدة سنوات من العمل فى أحد محلات التحف الفنية الكبرى فى الطرف الشرقى أو كنت لا تملكين أية مواصفات بالمرة . فى كل الأحوال يجب أن تبدئى كموظفة استقبال . وبمجرد أن تثبتى كفاءتك تتم ترقيتك إلى درجة إخصائية . الأمر يختلف عن الجيش تماما فى الواقع " .

" إذن ما هو القسم الذى تضعه بيكى نصب عينها ؟ " .

" يبدو أنها تريد أن تلتحق بالعمل مع رجل مخضرم يسمى بيمبرتون يملك خبرة واسعة فى لوحات عصر النهضة " .

قالت دافنى : " أراهن أنها لن تبقى فى مكتب الاستقبال لأكثر من بضعة أسابيع قليلة " .

قال الكولونيل : " ولكن تشارلى لا يشاركك هذا الرأى المتدنى عنها " .

" إذن ما هى المدة التى ستمكث فيها فى الوظيفة من وجهة نظره ؟ " .

ابتسم الكولونيل وأجاب قائلا : " عشرة أيام على الأكثر " .

الفصل ١٥

عند وصول البريد الصباحى إلى ميدان لاوندز ، كان الخادم وينتورث يقوم بوضع الخطابات على صينية فضية ويحملها إلى العميد فى مكتبه ليستخرج منها ما يخصه ثم يعيد الصينية ثانية إلى الخادم لكى يحملها بدوره إلى السيدات .

ومع ذلك فمنذ إعلان خطوبة ابنته فى صحيفة التايمز وما تلا ذلك من إرسال خمسمائة بطاقة دعوة لحضور حفل الزفاف المقبل ، سأم العميد من الخطابات وأصدر أوامره إلى وينتورث بقلب النظام المعمول به ، بحيث يتسلم فقط الخطابات الخاصة به.

كان صباح يوم الاثنين من شهر يونيو عام ١٩٢١ ، عندما طرق وينتورث باب غرفة الآنسة دافنى ودخل وسلمها باقة الخطابات . بعد أن استخرجت دافنى الخطابات الموجهة إليها وإلى والدتها ، أعادت الخطابات المتبقية إلى وينتورث الذى حياها تحية رقيقة وواصل طريقه فى اتجاه عكسى .

وبمجرد أن أغلق وينتورث الباب وراءه ؛ نهضت دافنى من فراشها ووضعت كومة الخطابات فوق مائدتها وتوجهت إلى الحمام . وبعد العاشرة وثلاثين دقيقة بقليل ؛ عندما شعرت أنها على استعداد لبدء برنامجها اليومى ؛ عادت على مائدتها وبدأت تفتح الخطابات . كان عليها أن تضع خطابات القبول والاعتذار عن دعوة الزفاف جانبا لكى تضع إشارات خطأ وصواب أمام الأسماء فى قائمة المدعوين لكى تمكن والدتها من حصر العدد الذى سوف يحضر مأدبة الطعام ومن ثم إعداد خطة الجلوس . كان عدد الخطابات الذى وصل إلى واحد وثلاثين خطابا فى هذا اليوم قد انقسم إلى اثنين وعشرين خطابا بالموافقة شملت أميرة ولوردين وسفيراً والكولونيل العزيز وزوجته الليدى هاميلتون . كانت تشمل أيضا أربعة خطابات رفض لزوجين سوف يكونان خارج البلاد أثناء حفل الزفاف وعمة مسنة كانت تعانى من مرض السكر ولكن فى حالة متقدمة وعمة أخرى كانت ابنتها قد جن جنونها وقررت إقامة حفل زواجها فى نفس التاريخ . وبعد أن وضعت العلامات اللازمة فى قائمة المدعوين الأساسية ، بدأت دافنى تتفحص الخطابات الخمسة الباقية .

كان أحد هذه الخطابات لعمتها أجاثا البالغة من العمر سبعة وثمانين عاما والتى كانت مقيمة فى كمبرلاند والتى كانت قد ذكرت من قبل أنها لن تحضر الزفاف لأن الرحلة إلى لندن سوف تكون بالغة المشقة بالنسبة لها . ومع ذلك فقد اقترحت العمة أجاثا عليها أن تزورها دافنى مع زوجها فى الشمال فور عودتهما من شهر العسل لأنها تود التعرف عليه .

قالت دافنى بصوت مرتفع : " بالطبع لا . فعندما أعود إلى إنجلترا سوف تكون لدىَّ الكثير من الأشياء الأخرى الأكثر أهمية

لكى أعتنى بها عن العمات المسنات " . ثم قرأت بعدها الملاحظة التى كانت العمة قد دونتها فى مؤخرة الخطاب .

وأثناء وجودك فى كمبرلاند يا عزيزتى ؛ سوف تتسنى لى فرصة استشارتك بشأن وصيتى لأننى لست واثقة من الأشخاص الذين يمكننى أن أترك لهم لوحاتى وخاصة لوحة لامبرتو التى أرى أنها تستحق بيتا جيدا .

يا لها من مسنة خبيثة ؛ فكرت دافنى بعد أن أدركت أن العمة أجاثا قد كتبت هذه الملحوظة لكل أقاربها مما يضمن لها شغل عطلات نهاية الأسبوع بشكل دائم .

كان الخطاب الثانى من شركة مايكل فيشلوك ؛ الشركة المتخصصة فى تقديم الطعام ، وكان الخطاب يحمل عرضا بإعداد حفل شاى لخمسمائة مدعو فى ميدان فينسنت بعد مراسم الزفاف مباشرة . ثلاثمائة جنيه ؛ يبدو مبلغا كبيرا لدافنى ولكنها بدون أن تفكر ثانية فى العرض ؛ نحت الخطاب جانبا لكى يدرسه والدها جديا فى وقت لاحق . كان هناك خطابان باسم والدتها من بعض الأصدقاء ليس لهما أية علاقة بها وقد نحتهما أيضا جانبا .

احتفظت دافنى بالخطاب الخامس حتى النهاية لأن مظروفه كان مزودا بأكثر الطوابع ازدهارا وألوانا كما كان التاج الملكى موضوعا فى شكل خماسى فى الجانب العلوى الأيمن من المظروف فوق كلمات " تن أناز " .

فتحت المظروف ببطء واستخرجت كل الأوراق الثقيلة التى كانت أول ورقة فيها مختومة بخاتم قوات الرماية الملكية .

" عزيزتى دافنى " هكذا بدأ الخطاب . ثم أسرعت إلى الصفحة الأخيرة لكى تعرف المرسل ، وقد كان " صديقك دائما جاى ".

وحينئذ عادت إلى الصفحة الأولى ونظرت على العنوان قبل أن تشرع فى قراءة كلمات جاى فى خوف .



الكتيبة الثانية
فرقة سلاح الرماية
الملكية الثانية
ثكنات ويلنجتون
بونا
الهند
١٥ مايو عام ١٩٢١

الخامس عشر من مايو عام ١٩٢١

عزيزتى دافنى ؛

أتمنى أن تسامحينى على تقصيرى فى عدم السؤال عنك ولكن ثمة مشكلة قد وقعت أعرف أنك على دراية تامة بها وأسالك المساعدة والنصيحة .

منذ فترة تلقيت رسالة من صديقتك ريبيكا سالمون .

نحت دافنى الصفحات التى لم تقرأها بعد جانبا فوق مائدتها متمنية لو كان الخطاب قد وصلها بعد زواجها ببضعة أيام قليلة بعد سفرها إلى شهر العسل وليس قبله . وأخذت تراجع قائمة المدعوين لبعض الوقت ولكنها وجدت نفسها فى النهاية تتوق إلى معرفة ما يريده جاى منها . فعاودت القراءة .

أخبرتنى فيه أنها حامل وأننى والد الطفل .

دعينى أؤكد لك فى البداية أن هذا هو أبعد ما يكون عن الحقيقة لأننى فى المرة الوحيدة التى بت فيها فى شقتك لم يحدث بينى وبينها أى اتصال جسدى .

بل إن ما حدث فى واقع الأمر هو أنها هى التى دعتنى للعشاء فى ٩٧ شارع تشيلسيا فى مساء ذلك اليوم بالرغم من أننى كنت قد حجزت بالفعل مائدة لنا فى مطعم ريتز .

وبمرور الوقت فى مساء ذلك اليوم ؛ بدا من الواضح لى أنها تريدنى أن أثمل حتى إننى عندما هممت بالمغادرة ، أعترف بأننى شعرت بالدوار ولم أكن واثقا من قدرتى على العودة إلى الثكنات آمنا .

اقترحت علىَّ ريبيكا على الفور أن أبيت فى الشقة معها ولكننى رفضت بالطبع إلى أن عرضت علىَّ أن أبيت فى غرفتك لأنك لن تعودى حتى عصر اليوم التالى . وهى الحقيقة التى أكدتها لى بعد ذلك .

وقد قبلت بالطبع عرض ريبيكا ، وبمجرد أن استلقيت فى الفراش رحت فى نوم عميق لأستيقظ على نقر على الباب .

ولصدمتى وجدتك واقفة أمامى ولكن ما زاد من وقع الصدمة هو أننى وجدت ريبيكا قد تسللت إلى الفراش بجوارى بدون أن أدرى .

وقد شعرت بالطبع بالحرج وغادرت الغرفة بدون أن تنطقى بكلمة واحدة . نهضت وارتديت ملابسى وعدت إلى الثكنات ووصلت إلى غرفتى هناك فى الواحدة وخمسين دقيقة على أقصى تقدير .

وفور وصولى إلى محطة ووترلو فى وقت لاحق من صباح اليوم التالى لكى أبدأ رحلتى إلى الهند ، فوجئت . لك أن تتصورى هذا ـ بوجود ريبيكا فى انتظارى فوق رصيف المحطة . بقيت معها لعدة دقائق قليلة فقط وأعربت لها عن مشاعرى حيال الخدعة التى أوقعتنى فيها فى الليلة السابقة . ثم صافحتها باليد وركبت القطار إلى ساونسجتون وأنا واثق تماما من أننى قد قطعت كل علاقة لى بها . كان أول اتصال لى مع الآنسة سالمون هو بعد هذا الموقف ببضعة أشهر قليلة عندما تلقيت خطابها المريب وهو السبب الذى دفعنى إلى طلب المساعدة منك .

أدارت دافنى الصفحة وتوقفت عن مراقبة نفسها فى المرآة . لم تكن لديها رغبة فى معرفة ما يريده منها جاى . كان قد نسى حتى فى أى غرفة وجدته ومع ذلك لم تمر سوى لحظات إلا وأدارت الصفحة لكى تشرع فى قراءة الصفحة التالية .

كان يمكن أن تنتهى الأمور عند هذا الحد ما لم يشرع السير دانيفرز هاميلتون فى إرسال خطاب إلى قائد القوات الجديد الكولونيل فوربس يخبره فيه برواية الآنسة سالمون مما تسبب فى مطالبتى بالدفاع عن نفسى أمام لجنة تحقيق خاصة .

وبالطبع أخبرتهم من جانبى بروايتى عما حدث فى هذه الليلة ولكن نظرا لقوة تأثير السير هاميلتون على القوات فقد بقى بعضهم غير مصدق لروايتى للأحداث . ولكن لحسن الحظ نجحت أمى فى مراسلة الكولونيل فوربس بعدها ببضعة أسابيع وأخبرته بأن الآنسة سالمون قد تزوجت من حبيبها القديم تشارلى ترامبر وأنه لم يكن ينكر أن الطفل هو ابنه . ولو لم يكن الكولونيل قد صدق رواية أمى لكنت قد أجبرت على تقديم استقالتى فى الحال ولكننى لحسن الحظ نجوت من هذا الظلم .

وقد أخبرتنى أمى مؤخرا بأنك سوف تزورين الهند فى شهر العسل (لك خالص تهانئى) أى أنك سوف تقابلين بكل تأكيد السير فوربس الذى أخشى أنه سوف يثير هذا الأمر معك ثانية لأن اسمك قد ذكر بالفعل أثناء التحقيق .

لذلك فإننى أرجوك ألا تقولى شيئا يمكن أن يدمر مستقبلى المهنى . بل إنك إن شعرت أنك قادرة على تأكيد قصتى ؛ فإن الأمور كلها سوف تعود إلى نصابها الصحيح .

صديقك دائما ؛

جاى

وضعت دافنى الخطاب ثانية فوق المائدة وبدأت تمشط شعرها وهى تفكر فيما ينبغى عليها عمله فى الخطوة التالية . لم تكن تريد أن تناقش المشكلة مع أمها أو أبيها وبالطبع لم يكن لديها أية رغبة فى إخبار بيرسى . كما أنها شعرت أيضا أنها لا تريد إخبار بيكى بقنبلة ترينثام إلى أن تفكر تحديدا فى التصرف الذى سوف تقدم عليه . وقد اندهشت مما افترضه فيها جاى من قصر الذاكرة نتيجة لإفراطه فى الخيال .

وضعت فرشاة الشعر ونظرت إلى نفسها فى المرآة قبل أن تعود إلى الخطاب للمرة الثالثة . وأخيرا وضعت الخطاب فى المظروف وحاوت أن تطرد الأمر برمته من رأسها ولكن بالرغم من محاولتها لصرف انتباهها عن الأمر بقيت كلمات جاى تدور فى رأسها . ولعل ما زاد الأمر سوءا بالنسبة لها هو أنه كان يراها ساذجة إلى هذا الحد .

وفجأة أدركت دافنى أنها بحاجة إلى النصيحة . فرفعت سماعة الهاتف واتصلت بالدليل لتستفسر عن رقم هاتف فى تشيلسيا وسعدت عندما وجدت الكولونيل موجوداً بالفعل فى هذا الرقم .

قال لها الكولونيل : " كنت على وشك المغادرة إلى النادى يا دافنى ولكن أخبرينى كيف يمكن أن أساعدك ؟ " .

قالت : " أريد أن أتحدث معك فى أمر ضرورى ولكن ليس عبر الهاتف " .

قال الكولونيل : " أتفهم ذلك " ، ثم صمت للحظة وأضاف قائلا : " هل بوسعك أن تتناولى معى الغداء اليوم فى مطعم إن آند أوت فى الغرفة الخاصة بالسيدات ؟ " .

قبلت دافنى العرض بامتنان ، وعندما فرغت من تزيين وجهها ، قادها هوسكينز إلى البيكاديلى حيث وصلت إلى النادى العسكرى بعد الواحدة بقليل .

كان الكولونيل يقف فى مدخل القاعة فى انتظار الترحيب بها : " يالها من مفاجأة سعيدة " ، قال لها السير داينفرز ذلك وأضاف : " نادرا ما أتناول الغداء مع شابة جميلة مثلك ؛ سوف أكتسب بلا شك سمعة جدية فى النادى . سوف ألوح لكل عميد وكل لواء يمر بى " .

لم تقابل دافنى تعليقه بضحكة مما دعا الكولونيل إلى أن يتحفظ ويغير على الفور لهجته فى الحوار . قاد ضيفته برفق من ذراعها إلى غرفة تناول الطعام الخاصة بالنساء . وعندما كتب الطلب وأعطاه إلى النادل ، أخرجت دافنى الخطاب من حقيبتها وبدون كلمة واحدة أعطته لضيفها .

ثبت الكولونيل نظارته الأحادية فوق عينه وبدأ يقرأ وينظر إلى دافنى من آن إلى آخر حيث لاحظ أنها لم تمس الحساء الموضوع أمامها .

" ياله من عمل حقير " ، قال ذلك وهو يضع الخطاب ثانية فى المظروف ويعيده ثانية إلى دافنى .

" أوافقك تماما ولكن ما الذى تقترح علىَّ عمله ؟ " .

" حسنا ، هناك شىء أكيد يا عزيزتى وهو أنك يجب ألا تبوحى بمحتوى الخطاب إلى تشارلى أو بيكى . كما أننى لا أدرى كيف يمكن أن تتجنبى إخبار عائلة ترينثام بحقيقة والد الطفل إن طلب منك ذلك بشكل مباشر " . وصمت واحتسى القليل من

الحسناء : " أقسم أننى لن أحادث السيدة ترينثام ثانية ما حييت " .

اندهشت دافنى بعض الشىء من هذه الملاحظة لأنها حتى تلك اللحظة لم تكن تعلم أن الرجل كان يعرف هذه السيدة أو قابلها قط فى حياته .

" ربما يمكننا أن نوظف جهودنا المشتركة لكى نصل إلى رد مناسب يا عزيزتى " ، هكذا قال الكولونيل بعدما فكر قليلا . ثم قطع الحديث لكى يسمح للنادلة بأن تقدم الطعام المطلوب .

قالت دافنى فى توتر : " إن كنت تشعر أنه بوسعك أن تقدم يد المساعدة ، فسوف أكون ممتنة لذلك . ولكن أولا أشعر أننى يجب أن أصارحك بكل ما أعرفه " .

أومأ الكولونيل .

" أعرف أنك على علم بمجريات الأمور ولكن أنا المسئولة عن لقائهما فى المقام الأول ... " .

وعندما وصلت دافنى إلى آخر قصتها كان الكولونيل قد أفرغ كل محتويات طبقه .

قال الكولونيل وهو يمسح فمه بمنشفة المائدة : " أعرف معظم ما قصصته علىَّ بالفعل . ومع ذلك فقد استوضحت منك أمراً أو أمرين كانا غائبين عنى . أعترف أننى لم أكن أعلم أن ترينثام مراوغ إلى هذا الحد . ولو عرفت من قبل لكنت قد حرصت على إجراء المزيد من التحقيق قبل أن أدرج اسمه فى قائمة الحاصلين على النيشان العسكرى " ، ثم نهض وقال : " والآن هل يمكنك أن تنتظرى بضع دقائق فى تصفح المجلات وتناول القهوة إلى أن أعد مسودة أولى للخطاب " .

قالت دافنى : " آسفة لكل هذا الإزعاج " .

" لا تكونى سخيفة . لقد سعدت لكونك اعتبرتنى أهلا للثقة " ، ثم وقف الكولونيل ومضى خارجاً إلى غرفة الكتابة .

لم يعاود الظهور ثانية إلا بعدها بساعة بعدما كانت دافنى قد أعادت قراءة كل الإعلانات الخاصة بالمربيات فى مجلة ليدى .

أسرعت بإعادة المجلة فوق المائدة وجلست فى استقامة على مقعدها . أعطاها الكولونيل نتائج جهوده وتفحصته دافنى لعدة دقائق قبل أن تتحدث ثانية .

قالت أخيراً : " يعلم الله كيف سيكون رد فعل جاى إن أرسلت له مثل هذا الخطاب " .

قال الكولونيل : " سوف يقدم استقالته يا عزيزتى . إن الأمر فى مثل هذه البساطة . كما أن هذا سوف يتحقق سريعا من وجهة نظرى . لقد حان وقت إدراك ترينثام لعواقب عمله السيئ وليس أقلها تحمل مسئولياته أمام بيكى وابنها " .

قالت دافنى فى استعطاف : " ولكنها متزوجة زواجا سعيدا الآن وهذا ليس منصفاً لـ " تشارلى " .

سأل الكولونيل وهو يخفض صوته : " هل رأيت دانيال مؤخرا ؟ " .

" منذ بضعة أشهر قليلة ، ولكن لماذا ؟ " .

" إذن يجدر بك أن تلقى نظرة أخرى عليه لأنه لا ينتمى إلى عائلة ترامبر أو سالمون ؛ إنه صاحب شعر أشقر وأنف رومانى وعيون شديدة الزرقة . أخشى أنه نسخة من عائلة آشورست فى بيكشاير . على أية حال يجب أن تخبر بيكى وتشارلى الطفل بالحقيقة فى النهاية وإلا فسوف تزداد الأمور سوءا فيما بعد .

أرسلى الخطاب " ، وأضاف الكولونيل وهو يدق بأصابعه على جانب المائدة : " هذه هى نصيحتى لك " .

وعندما عادت دافنى إلى بيتها فى ميدان لاوندز ؛ توجهت إلى غرفتها مباشرة . فجلست على مكتبها وتوقفت للحظة واحدة فقط ثم بدأت تنقل خطاب الكولونيل بخط يدها .

بعد أن أتمت مهمتها ؛ أعادت قراءة الفقرة الوحيدة الخاصة برواية الكولونيل والتى آثرت عدم نقلها وتمنت ألا تكون توقعاته الكئيبة صحيحة .

وبمجرد أن أتمت نسختها ؛ قطعت الخطاب المدون بخط يد الكولونيل ودقت الجرس إلى وينتورث .

" خطاب واحد يجب أن يتم إرساله " ، كان هذا هو كل ما قالته .

* * *

أصبحت الاستعدادات لحفل الزفاف محمومة إلى الحد الذى جعل دافنى تنسى تماما مشكلة جاى ترينثام بمجرد تسليم الخطاب إلى وينتورث . كانت مشغولة بكيفية انتقاء وصيفات الشرف على نحو لا يغضب نصف أفراد العائلة وبروفات الخياطة التى لا تنتهى لفستان الزفاف والتى كانت تبدو دائما متأخرة عن موعدها ، ودراسة أماكن الجلوس للتأكد من أن أفراد العائلة الذين لم يتقابلوا من فترة طويلة لا يجلسون على نفس المائدة - أو بمعنى أدق فى نفس المقصورة فى مثل هذه المناسبة - وأخيرا التعامل مع الحماة المستقبلية الماركيزة الأرملة التى كانت - بعد أن زوجت ثلاث من بناتها - لديها ثلاثة آراء لكل موضوع ؛ وقد تكالبت كل هذه الأمور على دافنى وأشعرتها بالإنهاك .

مع بقاء أسبوع واحد فقط على موعد الزفاف ؛ اقترحت دافنى على بيرسى أنهما يجب أن يمرا على أقرب مكتب سجلات لإنهاء كل المراسم بأسرع ما يمكن بل ويفضل أن يتم ذلك بدون إخبار أى أحد .

قال بيرسى الذى كان منذ زمن طويل قد توقف عن الاستماع إلى آراء الآخرين فى كل ما يخص شئون الزواج : " أمرك يا سيدتى العجوز " .

وفى السادس عشر من شهر يوليو ١٩٢١ ؛ استيقظت دافنى فى الخامسة وثلاث وأربعين دقيقة وهى تشعر أنها فى قمة الإجهاد ولكنها بمجرد أن خرجت فى شمس ميدان لاوندز فى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ؛ كانت مشرقة وكانت بالفعل تتطلع إلى المناسبة .

ساعدها والدها فى صعود الدرج إلى حيث كانت تقف العربة التى ركبتها والدتها وجدتها فى يوم زفافهما . وقفت مجموعة صغيرة من الخدم والمهنئين يهللون للعروس وهى تبدأ رحلتها إلى ويست مينيستر بينما أخذ يلوح لها آخرون من فوق الأرصفة . كان الجنود يرسلون لها التحية والفتيات يرسلن لها القبلات ثم يتنهدن بعد مرورها أمامهن .

دخلت دافنى - متأبطة ذراع والدها - قاعة الزفاف من الباب الشمالى بعدما دقت ساعة بيج بن الثانية ببضع ثوان ثم واصلت سيرها فى بطء فى المشى على إيقاع موسيقى الزفاف .

توقفت للحظة فقط قبل أن تقف بجوار بيرسى لكى تحيى الملك والملكة اللذين كانا يجلسان فى المقصورة الخاصة بجوار المذبح .

وبعد كل هذه الشهور التى قضتها فى انتظار هذا اليوم مر كل شيء فى لحظات . وعندما غنت الفرقة الموسيقية ، واقتيد الزوجان إلى غرفة جانبية للتوقيع على العقد ؛ كان رد فعل دافنى الوحيد هو أنها كانت تريد أن تجرى كل المراسم من جديد .

وبالرغم من أنها كانت قد تدربت - سرا - على التوقيع عدة مرات فى دفترها الخاص فى ميدان لاوندز ؛ فقد ترددت بعض الشيء قبل أن تكتب اسمها " دافنى ويلتشاير " .

غادر الزوج والزوجة قاعة الزفاف وسط أصوات الموسيقى التى كانت ترعد كالبرق وسارا فى شوارع ويست مينيستر فى شمس الظهيرة المشرقة . وبمجرد أن وصلا إلى السرادق الكبير الذى كان قد أقيم فوق حشائش ميدان فينسنت ، أخذا يرحبان بالمدعوين .

وفى محاولة منها للتحدث فى اقتضاب مع كل مدعو من المدعوين ؛ عجزت دافنى حتى عن تناول قضمة من كعكة زفافها وبمجرد أن نجحت فى قضم قضمة ، انقضت عليهما الماركيزة قائلة إنهما إذا لم يبدءا الخطبة على الفور فلن يكون لديهما وقت لإتمام المراسم فى الوقت المحدد للرحيل .

أشاد ألجرنون فيتزباتريك بضيفات الشرف وتناول الشراب العريس والعروس . كانت خطبة بيرسى بليغة إلى حد أثار الدهشة وقوبلت باستحسان كبير . ثم اقتيدت دافنى بعد ذلك إلى ٤٥ ميدان فينسنت - منزل أحد الأعمام الذى تربطها به قرابة بعيدة - لكى تغير ثوب الزفاف وترتدى ملابس الخروج .

وثانية احتشد الجمع فوق الرصيف لإلقاء الأرز والورود على العروسين بينما بقى هوسيكنز منتظرا لتوصيل العروسين إلى ساوث هامبتون .

وبعدها بثلاثين دقيقة كان هوسكينز يقود سيارته فى هدوء إلى العقار إيه ٣٠ مرورا بحدائق كيو ؛ تاركا المدعوين خلفه لمواصلة الاحتفال بدون العريس والعروس .

قالت دافنى لزوجها : " حسنا لقد أصبحت الآن ملازما لى طوال العمر يا بيرسى ويلتشاير " .

قال بيرسى : " لقد جاء كل هذا نتيجة لتخطيط أمهاتنا حتى قبل أن نقابل بعضنا البعض . إنه أمر سخيف فى واقع الأمر " .

" سخيف ؟ " .

" نعم . كان بوسعى أن أتصدى لمؤامراتهن على مر السنين فقط إن كنت قد أخبرتهن ببساطة أننى لم أكن أريد أن أتزوج أية امرأة فى المقام الأول " .

بدأت دافنى للمرة الأولى تفكر فى شهر العسل بشيء من الجدية عندما أوقف هوسيكنز السيارة الرولز عند رصيف الميناء قبل موعد إبحار السفينة موريتانيا بساعتين كاملتين . وبمساعدة العديد من الحمالين أفرغ هوسكينز الحقائب من المكان المخصص لها فى السيارة - كان قد تم إرسال أربع عشرة حقيبة فى اليوم السابق - بينما توجه بيرسى ودافنى إلى المعبر حيث كان ضابط السفينة واقفا فى انتظارهما .

عندما خطا ضابط السفينة لكى يقدم التحية للماركيز وزوجته صاح أحدهم قائلا : " حظا سعيدا أيها اللورد ! وأود أن أقول بالأصالة عن نفسى ونيابة عن كل الزوجات إن الماركيزة رائعة " .

استدار الاثنان وانفجرا فى الضحك عندما وجدا تشارلى وبيكى - وهما مازالا مرتديين ملابس زفافهما - يقفان وسط الحشد .

قاد الضابط الأربعة إلى المعبر ومنها إلى جناح نيلسون حيث وجدوا زجاجة شراب أخرى فى انتظارهم .

سألت دافنى : " كيف نجحتم فى الوصول إلى هنا قبلنا ؟ " .

قال تشارلى فى لهجته السوقية : " حسناً ، ربما لا نملك سيارة رولز يا سيدتى ولكننا نجحنا مع ذلك فى التقدم على هوسكينز داخل سيارتنا ثنائية المقاعد من الجانب الآخر من وينشستر ؛ أليس كذلك ؟ " .

ضحك الجميع باستثناء بيكى التى لم تستطع أن ترفع عينها من فوق البروش الماس الخرافى الذى كانت ترتديه دافنى على ثنية سترتها .

انطلق بوق السفينة وجاء الضابط ليطلب من آل ترامبر الرحيل علما منه بأنهما لن يسافرا مع العروسين إلى نيويورك .

" نراكما فى خلال عام أو ما يقرب من ذلك " ، هكذا صاح تشارلى وهو يستدير لكى يلوح لهما من فوق المعبر .

قال بيرسى مسراً إلى زوجته : " بحلول هذا الوقت نكون قد جبنا كل أنحاء العالم يا سيدتى العجوز " .

لوحت دافنى وهى تقول : " أجل وبحلول وقت عودتنا ؛ يعلم الله وحده ما يمكن أن يكون قد أنجزه هذان الزوجان " .

الكولونيل هاميلتون

١٩٢٠ - ١٩٢٢

الفصل

١٦

أنا بطبعى أجيد تذكر الوجوه ، وفى اللحظة التى وقع فيها بصرى على الرجل الذى يزن البطاطس عرفته على الفور . ثم تذكرت الإشارة المدونة أعلى المحل . هو ترامبر بالفعل ؛ وكيل العريف الذى ترقى حتى رتبة رقيب ـ حسبما أتذكر ـ وماذا كان اسم صاحبه الذى حصل على نيشان التكريم ؟ أجل ، كان اسمه بريسكوت ؛ المجند تومى . كان سبب وفاته غير منطقى بالمرة . إننى أعجب من كل هذه التفاصيل التى يراها العقل جديرة بالحفظ .

عندما وصلت إلى بيتى لتناول الغداء أخبرت زوجتى أننى قد قابلت الرقيب ترامبر ثانية ولكنها لم تبد أية بادرة اهتمام بما أقول إلى أن أعطيت لها الخضراوات والفاكهة . عندها فقط سألتنى عن اسم الرجل الذى اشتريت منه الخضر فأجبتها قائلا : " ترامبر " . أومأت ودونت الاسم بدون إضافة المزيد .

وفى اليوم التالى شددت على سكرتير الفرقة العسكرية بوجوب إرسال تذكرتين للعشاء والحفل الراقص السنوى إليه ولم أفكر فيه ثانية إلى أن وقع بصرى عليهما سويا جالسين على مائدة الرقباء فى ليلة الحفل . وأنا أقول " عليهما " لأن ترامبر كان قد اصطحب امرأة بالغة الجاذبية . ومع ذلك فقد بقى طوال الأمسية متجاهلا لها مركزا كل اهتمامه على فتاة شابة أخرى كانت تجلس على بعد بضعة مقاعد قليلة منى على إحدى الموائد الرئيسية . وعندما دعا المعاون إليزابيث لمشاركته الرقص ؛ اقتنصت الفرصة ؛ نعم يجب أن أعترف بذلك . سرت فوق حلبة الرقص مدركا بأن نصف المدعوين من جنود الفرقة كانوا قد ركزوا بصرهم علىَّ وقدمت لها التحية وطلبت منها أن تشرفنى بمشاركتى الرقص . كان اسمها - كما علمت وقتها - هو الآنسة سالمون ؛ وقد كانت ترقص مثل زوجات الضباط . كانت مشرقة غاية الإشراق كما أنها كانت ذات روح مرحة . لم أفهم وقتها ما الذى كان تشارلى يهدف إليه ؛ ولو كان يحق لى التدخل وقتها لكنت قد نوهت له بالأمر .

بعد انتهاء الرقص ؛ اصطحبت الآنسة سالمون للقاء إليزابيث التى بدت سعيدة هى الأخرى بنفس الدرجة . وقد أخبرتنى زوجتى بعدها فى وقت لاحق أنها قد سمعت بأن الفتاة كانت مخطوبة إلى النقيب ترينثام من نفس الفرقة العسكرية والذى كان يخدم وقتها فى الهند . ترينثام ؛ ترينثام ... أذكر أنه كان هناك ضابط شاب فى الكتيبة كان يحمل هذا الاسم - لقد حصل على نيشان فى معركة مارن - ولكن كان ثمة شىء آخر بشأنه لم أتذكره فى الحال . ياله من فتاة مسكينة ؛ فكرت فى نفسى - أذكر أننى جعلت إليزابيث تمر بنفس هذه المأساة عندما سافرت للخدمة فى أفغانستان فى عام

١٨٨٢ . لقد فقدت إحدى عينىَّ عند هؤلاء الأفغان وكدت أفقد المرأة الوحيدة التى أحببتها لنفس السبب . مازال من السيئ أن تتزوج قبل أن تكون نقيبا أو بعد أن تكون عقيدا بسبب هذا الأمر .

وفى طريق العودة إلى المنزل ؛ أخبرتنى إليزابيث أنها قد دعت الآنسة سالمون وترامبر إلى شارع جيلستون فى صباح اليوم التالى .

سألتها : " لماذا ؟ " .

" يبدو أن لديهما عرضا يريدان أن يقدماه لك " .

فى اليوم التالى وصلا إلى منزلنا الصغير فى شارع تريجنتر قبل أن تدق ساعة جدى الحادية عشرة وأجلستهما فى غرفة الاستقبال قبل أن أتوجه إلى ترامبر بحديثى قائلا : " ما الأمر إذن أيها الرقيب ؟ " ، فلم يسع للرد علىَّ واكتشفت أن الآنسة سالمون هى المتحدث الرسمى لهما . بدون أن تهدر كلمة واحدة قدمت لى عرضا مقنعاً للانضمام إلى شركتهما ولكن بدون سلطة فعلية مقابل مائة جنيه سنويا . وبالرغم من أننى شعرت أن العرض لم يكن متماشيا مع طبيعتى فإننى تأثرت بتلك الثقة الكبيرة التى أودعاها فى شخصى ووعدتهما بأننى سوف أدرس العرض جيدا . وقد أخبرتهما بأننى سوف أراسلهما بكل تأكيد لكى أخطرهما بالقرار الذى خلصت إليه فى المستقبل القريب .

كانت إليزابيث توافقنى الرأى تماما ولكنها نصحتنى بأننى على الأقل يجب أن أجرى بنفسى بحثا عمليا محدودا عن طبيعة عملهما قبل أن أتخذ قرارى النهائى برفض العرض .

وعلى مدى الأسبوع التالى كنت أحوم حول المتجر ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا صباح كل يوم . كنت كثيرا ما أجلس على الأريكة المقابلة للمتجر حيث كنت أراقب مجريات العمل . كنت أتخير

أوقاتاً مختلفة من اليوم لكى أراقب العمل ؛ لأسباب وجيهة . أحيانا كنت أذهب فى الصباح الباكر وفى أيام أخرى كنت أذهب ربما فى وقت متأخر من الظهيرة . وفى أحد الأيام شاهدت إغلاق المحل حيث اكتشفت أن الرقيب ترامبر لم يكن يلتفت إلى عدد الساعات التى يقضيها فى العمل . كان العقار ١٤٧ هو آخر المتاجر التى تغلق أبوابها فى صف المحلات . لا أجد غضاضة فى القول بأن ترامبر والآنسة سالمون قد تركا انطباعا جيدا لدىَّ . إنهما زوج نادر ؛ هكذا قلت لزوجتى بعد زيارتى الأخيرة .

كان أمين المتحف العسكرى الإمبراطورى قد طلب منى قبلها بأسابيع قليلة أن أنضم كعضو إلى مجلسهم ولكن بصراحة كان عرض ترامبر هو العرض الآخر الوحيد الذى تلقيته منذ تسريحى من الجيش . وبما أن أمين المتحف لم يكن قد أشار إلى أى أجر فقد اعتبرت أنه ليس هناك أجر مقابل العضوية ومن مراجعتى لأوراق المجلس التى طلب منى مراجعتها وتصفحها أدركت أن الوقت الذى سوف أستغرقه لتلبية مطالبه لن يتعدى ساعة واحدة أسبوعيا .

بعد بحث مستفيض ومحادثة مع الآنسة دافنى هاركورت براون وتشجيع إليزابيث - التى لم تكن تتحمل وجودى فى المنزل طوال ساعات النهار - أرسلت إلى الآنسة سالمون خطابا لأخطرها بموافقتى على العرض .

وفى صباح اليوم التالى اكتشفت تحديدا ما أوقعت نفسى فيه عندما جاءتنى السيدة المذكورة فى شارع تريجنتر وأخبرتنى بأول مهمة لى . لقد كانت ملاطفة لى - يجب أن أقول - أكثر من أى جندى مر علىَّ طوال فترة القيادة .

قالت بيكى - كانت قد طلبت منى أن أكف عن مخاطبتها باسم الآنسة سالمون بعد أن أصبحنا شركاء - إننا يجب أن نتعامل مع الزيارة الأولى إلى شارع فلييت باعتبارها " تجربة " لأن الصيد الحقيقى الذى كانت تتطلع لاقتناصه كان مزمعا فى الأسبوع التالى حيث سنتحرك عندها " للانقضاض على فريستنا " . وظلت تستخدم تعبيرات لم أكن أعرفها أو سمعت بها .

يمكننى القول بأننى قد خرجت وأنا أتصبب عرقا فى صباح أول لقاء لنا فى البنك بل إننى لكى أكون صادقا كدت أترك الأمر برمته حتى قبل أن أجرى اللقاء . وما لم أكن قد شاهدت هذين الوجهين المتحمسين الشابين فى انتظارى أمام البنك ؛ أقسم أننى كنت سأنسحب من الصفقة برمتها .

حسنا - بالرغم من تخوفى - فقد خرجنا من البنك بعدها بأقل من ساعة واحدة بعد أن أنجزنا مهمتنا بنجاح كما أننى أستطيع أن أؤكد بمنتهى الارتياح بأننى أديت دورى على نحو جيد . ولكن هادلو لم يترك انطباعا جيدا لدى ؛ كان غريب الأطوار كما أن هندامه لم يكن من ذلك النوع الذى يمكن أن نطلق عليه هنداما أنيقا . والأكثر من ذلك هو أن الرجل اللعين لم ينتبه إلى بريق عيونهم الذى أعتبره دائما من وجهة نظرى ؛ الطريقة التى يمكن أن يتم بها تقييم الشخص .

من هذه اللحظة فصاعدا أخذت أراقب نشاطات ترامبر عن كثب مصرا على إجراء لقاء أسبوعى فى المتجر لكى أكون على دراية بمجريات الأمور . حتى إننى شعرت أننى قادر على تقديم نصيحة أو حتى كلمة تشجيع من وقت إلى آخر . إن الشخص لا يمكن أن يقبل الحصول على أجر بدون أن يبذل جهدا .

بداية ؛ كانت كل الأمور تسير بسلاسة ثم طلب ترامبر فى أواخر شهر يونيو من عام ١٩٢٠ إجراء لقاء خاص . كنت أعلم أنه قد وضع عينه على متجر آخر فى حدائق تشيلسيا فى الوقت الذى كانت فيه حالتنا المادية غير مكبلة بالأعباء مما دفعه فى اعتقادى إلى الرغبة فى مناقشة الأمر معى .

وافقت على زيارة ترامبر فى شقته ، لأنه كان يبدو لى دائما فى حالة اضطراب كلما دعوته لزيارتى فى النادى أو فى شارع تريجنتر . وعندما وصلت إليه فى مساء نفس اليوم وجدته فى حالة يرثى لها فأدركت أنه لابد أن ثمة ما يزعجه فى أحد أو عدد من المتاجر ولكنه أكد لى أن هذا غير صحيح .

قلت له : " ما الخطب إذن يا ترامبر ؟ " .

أجاب : " الأمر ليس بهذه السهولة لكى أصدقك القول يا سيدى " ؛ لذا بقيت صامتا أملا فى أن يقوده هذا إلى الاسترخاء والإفصاح عما يجول فى نفسه .

قالها أخيراً : " إنها بيكى يا سيدى " .

قلت له مؤكدا : " فتاة رائعة " .

" نعم يا سيدى أوافقك الرأى ولكننى أخشى أنها تحمل جنينا " .

أعترف أننى كنت قد عرفت هذه المعلومة منذ أيام قليلة من بيكى نفسها ولكننى بما أننى كنت قد عاهدتها على عدم إخبار أحد ـ بما فى ذلك تشارلى ـ فقد تظاهرت بالدهشة . فبالرغم من أننى كنت أعرف أن الزمن كان قد تغير ؛ كنت أعرف أن بيكى قد تربت تربية صارمة وأنها ليست من ذلك الصنف من الفتيات ؛ تفهمون قصدى بالطبع .

قال تشارلى : " بالطبع أنت تريد معرفة الأب " .

بدأت أقول : " أفترض أنه ـــــ " ، ولكن تشارلى أومأ برأسه فى الحال .

قال : " ليس أنا . ليتنى كنت لأننى كنت سأتزوجها دون أن أزعجك بالأمر " .

سألته : " إذن من هو المتهم ؟ " .

تردد ثم أجاب قائلا : " إنه جاى ترينثام يا سيدى " .

" النقيب ترينثام ؟ ولكنه فى الهند كما أعرف " .

" هذا صحيح يا سيدى . وقد أخذت ألح على بيكى لكى أقنعها بالكتابة له وإخباره بما حدث ولكنها لا تزال مصرة على أن هذا سوف يدمر مستقبله المهنى " .

قلت فى تجهم : " ولكن عدم إخباره أيضا سوف يدمر حياتها كلها . فقط تصور العار الذى سوف يلحق بها إن بقيت أما بلا زواج ، ناهيك عن تربية طفل غير شرعى . على أية حال ؛ فإن النقيب ترينثام سوف يعرف فى نهاية المطاف ، أليس كذلك ؟ " .

" قد لا يعرف الحقيقة من بيكى أبدا كما أننى بالقطع لا أملك تأثيرا يمكن أن يدفعه إلى القيام بالتصرف اللائق " .

" هل تخفى أمورا أخرى عن ترينثام يجب أن أعرفها يا ترامبر ؟ " .

" كلا يا سيدى " .

هكذا أجاب ترامبر بسرعة خاطفة جعلتنى أتشكك فى صدقه .

قلت له : " إذن عليك أن تدع لى مشكلة ترينثام وتواصل أنت إدارة المحلات ولكن احرص على إخطارى عندما يصبح الأمر علنيا

حتى لا أبدو كالأبله الذى لا يعرف ما يجرى حوله " ، ثم نهضت لكى أرحل .

قال تشارلى : " سرعان ما سوف يعرف العالم بأسره " .

كنت قد طلبت منه أن يترك الأمر لى بدون أن تكون لدى أدنى فكرة عما يمكننى القيام به ولكننى عندما عدت إلى منزلى فى مساء نفس اليوم ؛ ناقشت الأمر كله مع إليزابيث التى نصحتنى بمحادثة دافنى التى كانت واثقة من أنها تعرف أكثر بكثير مما يعرفه تشارلى بشأن كل ما يجرى . ولكننى تشككت فيما تقول .

قمت أنا وإليزابيث بدعوة دافنى لتناول الشاى لدينا فى شارع تريجنتر بعدها بيومين تقريبا . وأكدت لى دافنى كل ما قاله تشارلى ، كما أنها أخبرتنى بمعلومة أو اثنتين كنت بحاجة ماسة إليهما لكى أحل اللغز .

كانت دافنى ترى أن ترينثام كان عشق بيكى الحقيقى الأول كما أنها أكدت لى أن بيكى لم تكن قد عاشرت أى رجل قبله كما أنها لم تعاشره هو نفسه سوى مرة واحدة فقط . لقد بقى النقيب ترينثام ـ كما أكدت لنا ـ عاجزا عن تطهير سمعته الموصومة .

أما باقى المعلومات التى قدمتها لنا فلم تجد فى التوصل إلى أى حل ؛ حيث أكدت لنا أن والدة جاى كانت مصرة على إنكار أية علاقة لابنها مع بيكى . بل على العكس ، كانت تسعى إلى إعداد عدتها بحيث تقنع الجميع بأن ترينثام لا يمكن أن يكون متورطا فى هذا الأمر .

سألتها : " ولكن ماذا عن والد ترينثام ؟ هل تظنين أننى يجب أن أحادثه فى الأمر . بالرغم من أننا كنا ننتمى إلى فرقة واحدة فإنه لم تجمعنا يوما كتيبة واحدة ؛ هل تعرفين ذلك ؟ " .

أقرت دافنى : " إنه الشخص الوحيد فى هذه الأسرة الذى يستحق الاهتمام . إنه زعيم بيكشاير ويست وهو رجل ليبرالى " .

أجبت : " إذن هذا هو الشخص الذى أبحث عنه . أنا لا أتفق مع الرجل فى اتجاهاته السياسية ولكن هذا لا يمنع من كونه يعرف الفارق بين الخطأ والصواب " .

أرسلت خطابا إلى الرجل على ورقة من أوراق النادى وتلقيت ردا فوريا منه يدعونى لتناول الشراب معه فى ميدان شيستر فى الاثنين التالى .

وصلت فى الموعد المحدد فى السادسة تماما واقتدت إلى غرفة الاستقبال حيث حيتنى سيدة جذابة قدمت لى نفسها على أنها السيدة ترينثام . كانت بعيدة كل البعد عما وصفته دافنى ؛ بل إننى وجدتها سيدة حسناء . بالغت فى تقديم الاعتذار متعللة بأن زوجها كان قد اضطر للبقاء فى مجلس العموم بسبب أمر طارئ ، وكنت أعلم أنه حتى عذر الوفاة لا يسمح له بمغادرة المجلس من أجله . عندها اتخذت قرارا فوريا ـ وهو ما أخطأت فى تقديره ـ أن هذا الأمر لا يمكن أن يرجأ لحظة واحدة وأننى بالتالى يجب أن أوصل رسالتى للعقيد من خلال زوجته .

بدأت حديثى قائلاً : " أجد الأمر محرجا بعض الشىء فى واقع الأمر " .

" يمكنك أن تتحدث بمنتهى الحرية أيها الكولونيل . أؤكد لك أننى أحظى بكل الثقة من زوجى ؛ نحن لا نخفى أسراراً عن بعضنا البعض " .

" حسنا ؛ يجب أن أصارحك يا سيدة ترينثام أن الأمر يتعلق بابنك جاى " .

" حسنا " ، كان هذا كل ما قالته .

" وخطيبته الآنسة سالمون " .

" إنها ليست خطيبته ولن تكون أبدا " ، هكذا قالت السيدة ترينثام وقد كشفت لهجتها عن ثورة مفاجئة .

" ولكننى فهمت أن ـــــ " .

" أن ابنى قد وعد الآنسة سالمون بذلك ؟ أؤكد لك أيها الكولونيل أن هذا ليس صحيحا بالمرة " .

ذُهلت بعض الشيء وشعرت أنه ليس هناك وسيلة دبلوماسية لإخبار السيدة بحقيقة الأمر الذى كنت أريد أن أقابل زوجها من أجله ، فأضفت ببساطة قائلا : " مهما كانت الوعود التى قالها أو لم يقلها يا سيدتى ، فإننى أشعر أنك يجب أن تعرفى أنت وكذلك سيادة العقيد أن الآنسة سالمون فى انتظار مولود " .

" وهل لى شأن بذلك ؟ " ، قالت السيدة ترينثام ذلك وهى تحدق فىّ مباشرة بعينين مجردتين من أية مخاوف .

" شأنك هو ببساطة أن ابنك هو والد الطفل المرتقب " .

" وأنت تعتمد على شهادتها فقط فى هذا الأمر أيها الكولونيل ؟ " .

قلت لها : " لم يكن هذا منصفا منك يا سيدتى ، لأننى أدرك تماما أن الآنسة سالمون هى سيدة مهذبة وشريفة . وعلى أية حال ؛ إن لم يكن ابنك هو والد الطفل ؛ فمن يمكن أن يكون ؟ " .

قالت السيدة ترينثام : " يعلم الله وحده ، يمكن أن يكون أى رجل آخر ؛ إن وضعنا سمعتها فى الاعتبار . إن أباها على أية حال كان مهاجرا " .

ذكرتها قائلاً : " وكذلك كان والد الملك يا سيدتى ومع ذلك فإنه يعرف تحديدا كيف سيتصرف بالشكل اللائق إن واجه موقفا كهذا " .

" أنا واثقة من أننى لا أفهم ما تقصده أيها الكولونيل " .

" أقصد يا سيدتى أن ابنك يجب إما أن يتزوج الآنسة سالمون أو على الأقل يقدم استقالته من الجيش وأن يهيئ نفسه جيدا لكى يعول هذا الطفل " .

" يبدو أننى يجب أن أؤكد لك ثانية أيها الكولونيل أن هذا الأمر ليس له أى شأن بابنى . أؤكد لك أن جاى كان قد توقف عن مقابلة هذه الفتاة قبل سفره بعدة شهور إلى الهند " .

" أعلم أن هذا ليس صحيحا يا سيدتى لأن ـــــ "

" هل تعلم ذلك حقا أيها الكولونيل ؟ إذن يجب أن تخبرنى ما شأنك أنت فى المقام الأول بهذا الأمر برمته ؟ " .

قلت لها موضحاً : " شأنى ببساطة هو أن الآنسة سالمون والسيد ترامبر شركائى " .

قالت : " فهمت ، وهذا يعنى أنك لست بحاجة لبذل المزيد من الجهد لكى تعرف والد الطفل الحقيقى " .

" سيدتى ؛ هذا أيضا غير منصف لأن تشارلى ترامبر ليس ـــــ " .

" لا أرى أى جدوى من مواصلة هذا الحديث معك أيها الكولونيل " ، قالت السيدة ترينثام ذلك وهى تنهض من مقعدها . بدأت تسير فى اتجاه الباب بدون حتى أن تزعج نفسها بالنظر صوبى وهى تقول : " يجب أن أحذرك أيها الكولونيل أننى إن

سمعت هذا الحديث يتكرر ثانية فى أى مكان فلن أتردد فى رفع دعوى لحماية سمعة ابنى الطيبة " .

بالرغم من أن النبأ كان له وقعه علىَّ فإننى سرت وراءها إلى البهو مصمما على ألا تقف الأمور عند هذا الحد . شعرت وقتها أن العقيد تريتثام هو أملى الوحيد . وعندما فتحت السيدة تريتثام الباب الأمامى لكى تفسح لى طريق الخروج ؛ قلت لها فى حزم : " أتوقع يا سيدتى أن تعيدى كل تفاصيل حوارنا بمنتهى الأمانة على زوجك ؟ " .

" لا تتوقع شيئا أيها الكولونيل " ، كانت هذه هى كلماتها الأخيرة التى قالتها وهى تصفع الباب فى وجهى . كانت آخر مرة عوملت فيها بهذه الطريقة من سيدة فى رانجون ولكن مبررها كان أقوى من ذلك بكثير .

عندما قصصت الحوار على إليزابيث ـ بأقصى قدر من الدقة ـ أشارت لى زوجتى بوضوحها ودقتها المعهودة أنه لم يعد أمامى سوى ثلاثة خيارات . الخيار الأول هو أن أراسل النقيب تريتثام بشكل مباشر وأطلب منه أن يتصرف بالشكل اللائق ، والثانى أن أخبر قائده بكل ما أعرفه .

سألتها : " والخيار الثالث ؟ " .

" أن تنسى الأمر كلية " .

فكرت فى كلماتها مليا واخترت الاقتراح الثانى وهو أن أرسل إلى رالف فوربس ؛ الذى كان ضابطا من الطراز الأول وكان قد خلفنى فى قيادة الفريق ؛ لكى أخبره بالأمر . تخيرت كلمات الخطاب بمنتهى التعقل واضعا فى اعتبارى احتمال رفع السيدة تريتثام لدعوى قضائية ؛ مما سيؤثر بدوره على سمعة الفرقة ، وقد

يصمها بالعار . ومع ذلك حرصت فى نفس الوقت أن أمنح بيكى رعاية أبوية لأنها كانت تبدو لى فى ذلك الوقت وكأنها تحمل شمعة مشتعلة من كلا الطرفين ناهيك عن كونها مشتعلة من الوسط أيضا . كانت الفتاة تتأهب لخوض الاختبارات وكانت تعمل فى نفس الوقت كسكرتيرة ومحاسبة فى شركتنا المزدهرة كما أن كل من يراها كان يمكن أن يدرك أنه لم يبق لها سوى أسابيع قليلة على الوضع .

وبمرور الأسابيع بدأ الهدوء السائد فى جبهة تريتثام يثير ريبتى بالرغم من أننى كنت قد تلقيت خطابا من فوربس أكد لى فيه أنه سوف يجرى تحقيقا فى الأمر . كما أننى فى نفس الوقت لم أعثر على المزيد من المعلومات لدى تشارلى ودافنى اللذين كانت معرفتهما قد توقفت عند حد معرفتى .

وفى منتصف شهر أكتوبر من ذلك العام ولد دانيال جورج وقد تأثرت فى واقع الأمر عندما طلبت منى بيكى أن أكون أبا بالكفالة لابنها أنا وبوب ماكينز ودافنى . وما زاد سعادتى هو أن بيكى أخبرتنى أنها قد قررت هى وتشارلى أن يتزوجا فى الأسبوع التالى . إن هذا الزواج لن يضع حدا للقيل والقال بالطبع ولكن الطفل سوف يكون على الأقل طفلا شرعيا من وجهة النظر القانونية .

حضرت إليزابيث وأنا ودافنى وبيرسى والسيدة سالمون والآنسة روش وبوب ماكينز مراسم الزواج المدنى فى مكتب سجلات تشيلسيا الذى أعقبه حفل صاخب فى شقة تشارلى الواقعة فوق المحل .

بدأت أعتقد أن كل شىء ربما قد سار على خير ما يرام إلى أن اتصلت بى دافنى هاتفيا بعد بضعة شهور وطلبت أن تقابلنى لأمر طارئ . صحبتها إلى الغداء فى النادى حيث أرتنى الخطاب الذى وصلها من النقيب ترِينثام فى صباح ذلك اليوم . عندما قرأت

الخطاب أدركت بمنتهى الأسى أن السيدة ترينثام كانت قد علمت بالقطع بمحتوى خطابى إلى فوربس وبأنه قد تكون هددته بعواقب خيانة العهد ومن ثم سيطرت على الموقف برمته . شعرت وقتها أن ابنها يجب أن يعلم أنه قد حان وقت تسديد ثمن أخطائه .

تركت ضيفتى تتناول القهوة بينما انزويت داخل غرفة الكتابة وبدأت أعد خطابا أشد قوة ؛ نعم يمكننى أن أقول ذلك .

وقد أثمرت جهودى المضنية عن تغطية شاملة لكل النقاط الأساسية بشكل دبلوماسى وواقعى إلى أكبر حد ممكن فى ظل الظروف . شكرتنى دافنى ووعدتنى أنها سوف ترسل الخطاب إلى ترينثام .

لم أتحدث معها ثانية إلى أن تقابلنا فى حفل زواجها فى الشهر التالى ولم تكن بالطبع المناسبة تسمح بالتطرق إلى موضوع النقيب ترينثام .

بعد انتهاء مراسم الزفاف ذهبت إلى ميدان فينسنت حيث أقيم حفل الاستقبال . أخذت أجوب بعينى بحثا عن السيدة ترينثام التى افترضت أنها سوف تكون بالطبع من بين المدعوين . ولم تكن لدى أية رغبة فى محادثة هذه المرأة ثانية .

ولكننى مع ذلك سعدت بلقاء تشارلى وبيكى فى السرادق الكبير الذى كان قد أعد خصيصا لهذه المناسبة . لم يكن قد سبق لى ورأيت بيكى مشرقة إلى هذا الحد . كما كان تشارلى يبدو وجيها فى معطفه الصباحى ورابطة عنقه الرمادية وقميصه . كانت سلسلة الساعة الأنيقة المتدلية من خصر معطفه هى هدية بيكى له بمناسبة زواجهما ؛ وكانت ملكا لوالدها كما أخبرتنى . أما باقى الملابس فقد

كانت يجب أن ترد إلى موس برازر فى صباح اليوم التالى كما أخبرنى تشارلى .

سألته قائلاً : " ألم يحن الوقت بعد يا تشارلى لأن تشترى لنفسك معطفا صباحيا خاصا ؟ لأنه من المنتظر أن تحضر المزيد من مثل هذه المناسبات فى المستقبل " .

أجاب تشارلى قائلاً : " بالطبع لا . سوف يكون هذا إهداراً للمال " .

سألت : " هل لى أن أعرف السبب ؟ إن ثمن معطف كهذا سوف ــــــ " .

قاطعنى قائلاً : " لأننى عازم على شراء محل الترزى . لقد وضعت عينى على العقار ١٤٣ منذ زمن طويل وقد سمعت من السيد كراوثر أنه قد يطرح فى السوق فى أى وقت " .

لم أستطع أن أناقشه فى هذا الأمر بالرغم من أن سؤاله التالى أثار حيرتى تماما .

" هل سبق وسمعت من قبل عن المارشال فيلد أيها الكولونيل ؟ " .

سألته ؛ وأنا أقدح زناد فكرى لكى أتذكره : " هل كان فى فرقتنا ؟ " .

أجاب تشارلى مبتسماً : " كلا . المارشال فيلد هو أحد المتاجر الكبرى فى شيكاغو حيث يمكنك أن تشترى كل ما تريد لباقى حياتك . أما الأهم فهو أنه يمتد لمساحة ٢ مليون قدم مربع تحت سقف واحد " .

لم أستطع أن أتصور متجرا ضخما إلى هذا الحد ولكننى مع ذلك لم أسع للتصدى لحماسه المتدفق . وأخبرنى قائلاً : " إن المتجر مؤلف من مبنى كبير كامل " .

" هل تتصور أن هناك متجرا له ثمانية وعشرون مدخلا ؟ طبقا لما نشر فى الإعلان يمكنك أن تجد كل ما تريده هناك من السيارة حتى التفاحة بأنواع مختلفة تحت سقف واحد . لقد أحدثوا ثورة فى عالم التقسيط فى الولايات المتحدة بكونهم أول متجر يبيع بالآجل . كما أنهم يؤكدون أيضا أنه إن كان هناك شىء غير موجود فيمكنهم تقديمه فى غضون أسبوع واحد وشعارهم هو " أعط السيدة ما تريده " .

سألته مباغتاً : " هل تريد أن تشترى المارشال فيلد فى مقابل المتجر ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا ؟ " .

" ليس على الفور أيها الكولونيل . ولكننى إن نجحت مع الوقت فى امتلاك كل متاجر تشيلسيا فيمكننا أن نطبق نفس الشىء فى لندن وربما نمحو العبارة الأولى من إعلانهم البراق المتباهى " .

كنت أدرك أننى لا أدرى ما كان يتحدث عنه فسألته فى حيرة عن محتوى العبارة .

أجابنى تشارلى : " أكبر متجر فى العالم " .

سألته وأنا أدير انتباهى إلى بيكى : " وما هو شعورك حيال كل هذا ؟ " .

قالت بيكى : " فى حالة تشارلى ، سوف يكون أكبر عربة خشبية نقالة فى العالم " .

الفصل ١٧

عقد أول اجتماع سنوى عام فوق متجر الخضراوات والفاكهة فى الغرفة الأمامية من العقار ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا . جلس الكولونيل وبيكى وتشارلى حول مائدة صغيرة غير واثقين من الكيفية التى يجب أن يبدأ بها الاجتماع إلى أن بادر الكولونيل بافتتاح الاجتماع قائلا :

" أعلم أن الاجتماع لا يضم إلا ثلاثتنا ولكننى مازلت أصر على أن تجرى كل اللقاءات المستقبلية بشكل رسمى " . رفع تشارلى حاجبيه ومع ذلك لم يسع لمقاطعة حديث الكولونيل الذى استطرد قائلاً : " لذا فقد سمحت لنفسى أن أعد أجندة خاصة بالاجتماعات وإلا فقد يسهل علينا إغفال بعض القضايا المهمة ". واصل الكولونيل مهامه ومنح كلاً منهما ورقة تشمل خمسة بنود مكتوبة بعناية بخط اليد وقال : " لكى نحقق هذا الهدف فإن أول بند من بنود المناقشة

يحمل عنوان " التقرير المالى " وسوف أبدأ بسؤال بيكى عن وضعنا المالى الحالى " .

كانت بيكى قد دونت بعناية تقريرها كلمة بكلمة بعد أن اشترت فى الشهر السابق دفترين كبيرين من الجلد ؛ أحدهما أحمر والثانى أزرق من المكتبة الكائنة فى العقار ١٣٧ وكانت قد استيقظت فى اليوم السابق على الاجتماع بعد خروج تشارلى بدقائق قليلة إلى كوفينت جاردن لكى تستعد للإجابة عن أى سؤال سوف يطرح فى اللقاء الأول . فتحت الدفتر الأحمر وبدأت تقرأ عليهم بتأن كل ما فيه بينما كانت تراجع الدفتر الأزرق من وقت إلى آخر والذى كان هو الآخر كبير الحجم شديد التنسيق . كان يحمل كلمة "حسابات " فقط مطبوعة باللون الذهبى على الغلاف .

" فى الحادى وثلاثين من ديسمبر لعام ١٩٢١ ؛ حققنا إجمالى مبيعات فى المحلات السبعة وصل إلى ألف وثلاثمائة واثنى عشر جنيها وأربعة شلنات ، وأرباح وصلت إلى مائتين وتسعة عشر جنيها وأحد عشر شلنا أى بنسبة سبعة عشر بالمائة أرباح على إجمالى المبيعات . ويبلغ ديننا فى البنك حاليا سبعمائة وواحدا وسبعين جنيها شاملة الضرائب السنوية ولكن قيمة المحلات تصل إلى ألف ومائتين وتسعين جنيها الذى هو السعر الحقيقى الذى سددناه بالفعل مقابل شرائها . أى أن هذا بالتالى لا يعكس قيمة المتاجر الحقيقية فى السوق حاليا " .

" لقد دونت كل الأرقام تفصيليا حتى يتسنى لكم مراجعتها " ، قالت بيكى ذلك وهى تعطى نسخة لـ " تشارلى " ونسخة أخرى للكولونيل حيث قام كل منهما بدراسة نسخته جيدا لعدة دقائق قبل أن ينطقا بكلمة واحدة .

" مازال متجر البقالة هو أكثر المتاجر تحقيقا للمكسب كما أرى " ، قال الكولونيل ذلك وهو يراجع بنظارته الأحادية بند الربح وبند الخسارة المقابل وأضاف قائلاً : " بينما وصل متجر الخردوات إلى نقطة اللامكسب واللاخسارة ، أما متجر الحياكة فهو المتجر الذى يلتهم كل أرباحنا " .

قال تشارلى : " نعم ؟ لقد كان الشخص الذى قابلته عند شراء المحل رجلا زائفا بحق " .

قال الكولونيل فى عدم فهم : " زائفاً ؟ " .

قالت بيكى بدون أن ترفع عينها من الدفتر : " أى كاذباً " .

قال تشارلى : " أخشى أنه كذلك . لقد دفعت ثمنا باهظا لشراء العقار ثم لشراء الأصول ثم تبين لى فى النهاية أن طاقم العمل متدنى الكفاءة . ولكن الأمور بدأت تتحسن بشكل ملحوظ بعدما تولى العقيد آرنولد إدارة المتجر " .

ابتسم الكولونيل عندما أدرك أن تعيين أحد رجال خدمته السابقين فى الجيش فى منصبه الجديد قد حقق نجاحا فوريا . كان توم آرنولد قد عاد إلى سافيل رو بعد الحرب مباشرة وفوجئ بأن هناك شخصا آخر قد حل محله فى هوكس كان قد أعفى هو الآخر من خدمته فى الجيش ولكنه كان قد سبقه بشهور قليلة ؛ وبالتالى كان من المتوقع أن يكون سعيدا بتعيينه فى وظيفة مساعد المدير ولكنه لم يكن كذلك . وعندما أخبره الكولونيل بأن هناك فرصة قد تكون متاحة له عند ترامبر ؛ ما كان منه إلا أن انقض عليها .

قالت بيكى وهى تراجع الأرقام : " يجب إن أقول إن الأشخاص يتعاملون مع تسديد أقساط الترزى بشكل مختلف تماما

عن تعاملهم مع باقى الأقساط المستحقة عليهم فى المتاجر الأخرى . فقط انظر إلى قائمة الديون " .

قال تشارلى : " أوافقك الرأى ، وأخشى أننا لن نتمكن من تحقيق تحسن كبير فى هذا الصدد قبل ثلاثة أشهر من الآن ؛ إلى أن ينجح العقيد آرنولد فى العثور على موظفين على درجة أفضل من الكفاءة لكى يحلوا محل الطاقم الحالى . لذا فإننى لا أتوقع أن يحقق أى ربح على مدى الستة أشهر القادمة ومع ذلك فإننى أتمنى أن يصل إلى نقطة اللامكسب واللاخسارة مع نهاية الربع الثالث من العام " .

قال الكولونيل : " جيد والآن ماذا عن متجر الخردوات ؟ أرى أنه قد حقق ربحا معقولا فى نهاية العام الماضى فما هو سبب تراجع الأرباح على هذا النحو البين هذا العام ؟ لقد تراجعت الأرباح بمعدل يزيد على الستين جنيها فى عام ١٩٢٠ أى أنه بدأ يخسر للمرة الأولى " .

قالت بيكى : " أخشى أن هناك سببا بسيطا وراء ذلك ، وهو أن النقود قد سرقت " .

" سرقت ؟ "

قال تشارلى : " أخشى ذلك ؟ لقد بدأت بيكى تلاحظ منذ شهر أكتوبر من العام الماضى أن الفواتير الأسبوعية بدأت تختفى ؛ وكانت فى البداية بنسبة بسيطة ثم بدأت الأمور تتفاقم بشكل ملحوظ " .

" وهل توصلنا إلى المتهم ؟ "

" نعم ؛ كان الأمر فى غاية البساطة . لقد نقلنا بوب ماكينز من متجر البقالة عندما تغيب أحد العاملين فى متجر الخردوات عن العمل وقد توصل إلى الثمرة العاطبة فى أسرع وقت " .

قالت بيكى : " كف عن التحدث بهذه الطريقة يا تشارلى . آسفة يا سيادة الكولونيل ، إنه يعنى أنه قد توصل إلى اللص " .

واصل تشارلى حديثة : " لقد تبين لنا أن المدير هو الذى كان يسرق . إنه مقامر كبير . وقد كان يستغل أموالنا لتسديد ديونه . وكلما زادت ديونه ؛ زادت حاجته لسرقة المال " .

قال الكولونيل : " وقد فصلتموه بالطبع ؛ أليس كذلك ؟ " .

قال تشارلى : " فى نفس اليوم ثارت ثائرته فى البداية وحاول أن ينكر الأمر . ولكننا لم نسمع عنه بالمرة منذ ذلك اليوم وعلى مدى الأسابيع الثلاثة الماضية بدأ المتجر يحقق ربحا بسيطا ثانية . ومع ذلك فمازلت أبحث عن مدير جديد لكى يحمل هذا العبء بأسرع ما يمكن . وقد وضعت عينى على شاب يعمل فى متجر كودسون المتفرع من شارع شارينج كروس " .

قال الكولونيل : " جيد هكذا نكون قد غطينا مشاكل العام الماضى يا تشارلى ، والآن يمكنك أن تصدمنا بمشاريع المستقبل " .

فتح تشارلى حقيبته الجلدية الأنيقة الجديدة التى كانت بيكى قد أهدتها له فى العشرين من يناير واستخرج منها آخر تقرير من جون دى . وود ، تنحنح بشكل مسرحى وكان على بيكى أن تضع يدها على فمها لكى تخفى رغبتها فى الضحك .

بدأ تشارلى حديثه : " لقد أعد السيد كراوثر بحثا شاملا بشأن كل المتلكات فى حدائق تشيلسيا " .

" وفى المقابل ـ ولأول مرة ـ كبدنا مبلغ عشرة جنيهات " ، هكذا قالت بيكى بعد أن راجعت الدفتر الموضوع أمامها .

قال الكولونيل : " ليس لدىَّ مشكلة فى ذلك ، إن تأكد لى أنه استثمار جيد " .

" قال تشارلى وهو يمد يده بنسخة من تقرير كراوثر : " هو كذلك بالفعل . كما تعرفان بالفعل هناك ستة وثلاثون متجرا فى حدائق تشيلسيا ونحن نملك منها بالفعل سبعة متاجر . ويتوقع كراوثر أن تطرح خمسة متاجر أخرى للبيع على مدى الاثنى عشر شهرا المقبلة . ومع ذلك ، كما يشير هو ، فإن كل أصحاب المتاجر فى تشيلسيا أصبحوا يعرفون أننى حريص على شراء كل المتاجر مما أصبح يحول دون التفاوض فيما يخص الأسعار " .

" أعتقد أن هذا كان من شأنه أن يحدث إن عاجلا أو آجلا " .

قال تشارلى : " أوافقك الرأى يا كولونيل ولكنه حدث فى وقت مبكر عما كنت أتمناه . بل إن سيد ريكسال رئيس لجنة المتاجر ، أصبح يراقبنا بحذر " .

سأل الكولونيل : " ولم هو تحديدا ؟ "

" إنه الجمهورى الذى يملك الموسيكتير فى الجانب المقابل من تشيلسيا . وقد بدأ يحكى لزبائنه أن هدفنا على المدى الطويل هو شراء كل المتاجر فى الحى والتخلص من كل أصحاب المتاجر الصغيرة " .

قالت بيكى : " إنه يرمى إلى شىء ما "

" ربما ، ولكننى لم أتوقع أبدا أن يشكل جبهة هدفها الوحيد هو منعى من شراء بعض الممتلكات . بل إننى كنت أتطلع إلى شراء

الموسيكتير نفسه ولكنه كان يجيب دائما على هذا الأمر بقوله : " على جثتى " .

قال الكولونيل : " قد يشكل هذا عقبة فى طريقنا " .

قال تشارلى : " كلا ألبتة لا يمكن أن نتوقع أن نمضى قدما فى الحياة بدون مواجهة أزمات . إن ما يجب أن نتوخاه هو أن نراقب ريكسال عن كثب ونتحرك سريعا فى الوقت المناسب . ولكن هذا يعنى فى الوقت الحالى أننا سوف ندفع ثمنا يفوق المتوقع لشراء أى متجر يعرض للبيع " .

قال الكولونيل : " للأسف ليس هناك الكثير مما يمكننا فعله حيال ذلك " .

قال تشارلى : " باستثناء كشف حيلهم من آن إلى آخر " .

" كشف حيلهم ؟ لست واثقا أننى فهمت ما تعنيه " .

" حسنا لقد عرض مؤخرا متجران للبيع ولكننى رفضت كلا العرضين ؟ " .

" لماذا ؟ " .

" لأن السعر المعروض ببساطة كان مفرطا فى المبالغة فضلا عن تذكير بيكى الدائم لى بأننا أصبحنا نسحب على المكشوف " .

" وهل دفعهما هذا إلى إعادة التفكير ؟ " .

قال تشارلى : " نعم ولا ، عاد أحدهما وعرض سعراً أكثر واقعية بينما بقى الآخر مصرا على سعره الأول " .

" ومن الذى بقى مصرا على سعره ؟ " .

" كوثبرت ، رقم ١٠١ ، بائع العصائر والمرطبات . ولكن ليس هناك داعٍ لأن نتحرك فى هذا الاتجاه فى الوقت الراهن لأن كراوثر يقول إنّ السيد كوثّبرت يسعى الآن لشراء بعض الممتلكات فى

بيميلكو وسوف يخطرنا بكل تطورات الموقف الخاصة بهذا الصدد . يمكننا عندها أن نتقدم بعرض معقول فى الوقت الذى يقدم فيها كوثبرت على الشراء " .

قال الكولونيل : " أحسنت صنعا يا تشارلى ؛ يمكننى أن أقول هذا . بالمناسبة من أين تستقى كل معلوماتك هذه ؟ " .

" من السيد بيلز صاحب متجر الصحف والمجلات وكذلك ريكسال نفسه " .

" ولكنك قلت إن ريكسال لا يسعى إلى مساعدتك وإنما على العكس من ذلك " .

قال تشارلى : " إنه لا يسعى لمساعدتى ، ولكنه مازال يعرض آراءه مقابل مبلغ من المال وقد أصبح بوب ماكينز زبونا مستديما فى طلب الاستشارة منه . إننى أحصل على نسخة من محاضر لجنة المحلات حتى قبل أن يحصلوا هم عليها " .

ضحك الكولونيل وقال : " وماذا عن متجر المزايدات فى العقار رقم واحد ؟ أمازلنا نتطلع إلى شرائه ؟ " .

" بالطبع أيها الكولونيل . إن السيد فورثيرجيل المالك مازال غارقا فى الديون وقد منى بالخسارة فى العام السابق أيضا ولكنه مع ذلك مازال صامدا ولكننى أتوقع أن يغرق تماما فى العام المقبل وعندها سوف يجدنى فى انتظاره لكى ألقى له بطوق النجاة وخاصة إن وجدت بيكى نفسها على استعداد لترك العمل لدى سوثباى مع حلول هذا الوقت " .

أقرت بيكى قائلة : " مازلت أتعلم الكثير . إننى أفضل أن أبقى لأطول فترة ممكنة . لقد أكملت عاما فى الفن القديم ، وأنا الآن أسعى لأن أنتقل إلى قسم التحف الحديثة أو التأثيرية وهو الاسم

الجديد الذى بدأ يطلق على هذا القسم . إننى كما ترى أسعى لاكتساب المزيد من الخبرة قبل أن يكتشفوا حقيقة أمرى . إننى أحضر كل مزاد يمكننى أن أحضره من مزادات الأوانى الفضية وحتى مزادات الكتب القديمة ومع ذلك فسوف يسعدنى إرجاء شراء المتجر رقم ١ لآخر وقت ممكن " .

" ولكن إن واصل فوثرجيل خسارته للمرة الثالثة يا بيكى ؛ فأنت طوق نجاتنا . فما الذى سنفعله إذن إن طرح المتجر فجأة للبيع فى السوق ؟ " .

" سوف أنجح بالكاد فى إدارته ؛ على ما أظن . لقد وضعت عينى بالفعل على الرجل الذى سوف نعينه مديرا عاما . سيمون ماثيوس . لقد ظل يعمل مع سوثباى على مدى الاثنى عشر عاما الماضية والذى يشكو دائما من كونه لا يحظى بوضعه اللائق الذى يستحقه فى العمل . كما أن هناك أيضا متدرباً شاباً فى منتهى الكفاءة يعمل هناك منذ ما يقرب من ثلاث سنوات والذى أتوقع له أن يكون نجما فى عالم المزادات على مستوى الجيل القادم . إنه يصغر ابن صاحب العمل بعامين فقط وسوف يسعد كثيرا بالانضمام إلينا إن قدمنا إليه عرضا مغريا " .

قال تشارلى : " وفى المقابل ؛ قد يكون من المناسب لنا أن تظل بيكى لدى سوثباى لأطول فترة ممكنة لأن السيد كراوثر قد طرح مشكلة يرى أنها سوف تواجهنا فى المستقبل القريب " .

سأل الكولونيل : " وما هى ؟ " .

" فى الصفحة التاسعة من التقرير ؛ يشير كراوثر إلى أن العقارات من ٢٥ إلى ٩٩ المؤلفة من ثمان وثلاثين شقة فى وسط

حدائق تشيلسيا ـ والتى كانت بيكى ودافنى تقطن إحداها منذ سنوات قليلة ـ قد تطرح للبيع فى المستقبل غير البعيد .

إن هذه العقارات مملوكة الآن لشركة خيرية أصبحت غير راضية عن العائد الذى تحصل عليه مقابل الاستثمار ويرى كراوثر أنهم سوف يسعون لطرحها للبيع بسبب ذلك . والآن إن وضعنا فى الاعتبار خطتنا المستقبلية فقد يكون من الحكمة شراء العقارات بأسرع ما يمكن بدلا من الانتظار لسنوات حيث سنضطر لدفع ثمن أعلى بكثير أو الأسوأ قد لا نكون قادرين على شرائها بالمرة " .

قال الكولونيل : " ثمان وثلاثون شقة ؟ هذا كثير ولكن ما هو المبلغ الذى يتوقع كراوثر أن يطلب مقابل الشراء ؟ " .

" إنه يرى أن السعر سوف يكون قرابة ألفى جنيه مع ملاحظة أنها لا تدر حاليا سوى مائتين وعشرة جنيهات سنويا وأنه بعد خصم تكاليف الصيانة والإصلاح فهذا يعنى أنها قد لا تدر أى ربح . وإن طرحت العقارات للبيع فى السوق وكنا نملك القدرة المادية لشرائها فإن كراوثر يقترح ألا تتعدى فترة الإيجار عشر سنوات فى المستقبل ومحاولة تأجير الشقق الخالية للعاملين فى السفارات والأجانب ممن لا يثيرون جلبة عند إخطارهم بإخلاء العقار " .

قالت بيكى : " هذا يعنى أن أرباح المتاجر سوف تسدد ثمن الشقق " .

قال تشارلى : " للأسف هو كذلك ، ولكن إن حالفنا الحظ فلن يستغرق هذا سوى عامين فقط وبعدها سوف تحقق أرباحا هائلة . كما أود أن أذكرك أنه طالما هناك مندوبون عن الجمعية الخيرية فهذا يعنى أن تخليص الأوراق سوف يستغرق وقتا " .

قال الكولونيل : " ومع ذلك فإننا بالنظر إلى وضعنا الحالى مع البنك أى السحب على المكشوف فضلا عن تجميد المصاريف لتمويل هذا الغرض فقد نكون بحاجة إلى مقابلة غداء أخرى مع هادلو " .

" أوافقك الرأى لأننا إن وضعنا أيدينا على الشقق فلن يبقى أمامنا الكثير من الخيارات . وقد نكون بحاجة أيضا إلى لقاء تشابى دوكورث فى النادى والتحدث معه قليلا فى هذا الصدد " . ثم صمت الكولونيل ، وأضاف : " لكى أكون منصفا ؛ فإن هادلو قد اقترح علينا فكرتين جديدتين أرى أن كليهما يستحق التفكير ولهذا فقد دونتهما فى أجندة الاجتماع " .

توقفت بيكى عن الكتابة ورفعت رأسها فى انتظار ما سوف يقوله .

" دعونى أبدأ بأن هادلو راض كل الرضا عن الأرقام التى حققناها على مدى أول عامين ولكن مع ذلك فهو يرى أنه نظرا لنسبة سحبنا على المكشوف ولأسباب ضريبية يجدر بنا أن ننهى الشراكة ونؤسس شركة " .

سأل تشارلى : " لماذا ؟ ما هى الميزة فى ذلك ؟ "

قالت بيكى : " إنه القانون المالى الجديد الذى أقره مجلس العموم . إن التغيير الذى طرأ على قانون الضرائب يمكن أن يعمل لصالحنا لأننا فى الوقت الراهن نعمل فى سبعة مجالات عمل مختلفة ولكننا إن دمجنا كل المحلات فى شركة واحدة فقد نضع خسارة ـ لنقل مثلا ـ محل تفصيل الملابس والخردوات مقابل مكسب متجر البقالة والجزارة مما سوف يقلل بالطبع من حجم الضرائب المفروضة علينا . وسوف يكون هذا مفيدا بشكل خاص فى السنوات السيئة " .

قال تشارلى : " يبدو هذا كله منطقيًّا بالنسبة لى . إذن لم لا نقدم عليه ؟ " .

قال الكولونيل وهو يضع نظارته الأحادية فوق عينه : " لأن الأمر ليس بهذه البساطة . بداية ؛ نحن إن شكلنا شركة فإن السيد هادلو سوف يطالبنا بوجوب تعيين مديرين جدد لتغطية كل المجالات التى لا نملك فيها إلا القليل من الخبرة أو لا نملك فيها خبرة بالمرة " .

سأل تشارلى فى حدة : " ولماذا يتوقع منا هادلو أن نفعل ذلك ؟ نحن لم نكن بحاجة من قبل لأن يتدخل أى شخص فى عملنا ؟ " .

" لأننا ننمو بسرعة يا تشارلى . كما أننا قد نكون بحاجة إلى أشخاص جدد لكى يسدوا لنا النصح والخبرة فى المستقبل وهو ما لا نحتاجه الآن . إن شراء الشقق قد يكون مثالا جيدا على صدق قوله " .

" ولكن لدينا السيد كراوثر وهو يمكن أن يفى بالغرض " .

وأضاف تشارلى متجهماً : " وربما يشعر بمزيد من الالتزام قبلنا إن تولينا شئون هذا الأمر بأنفسنا " .

استطرد الكولونيل حديثه : " أستطيع أن أتفهم ما تشعر به . إنها أملاكك أنت وأنت تعتقد أنك لست بحاجة لأى شخص دخيل يخبرك بما ينبغى عليك عمله لإدارة أعمال ترامبر . حسنا ؛ حتى إن شكلنا شركة سوف تبقى أملاكك لأن كل الحصص والأنصبة سوف تكون باسمك أنت واسم بيكى كما أن كل الأصول سوف تبقى جميعها تحت سيطرتك الكاملة . ولكنك مع ذلك سوف تحظى

بميزة وجود مديرين غير تنفيذيين يمدونك بالنصيحة كلما احتجت إليها " .

قال تشارلى : " ولإنفاق أموالنا وإلغاء قراراتنا . إن فكرة وجود دخلاء يملون علىَّ ما يجب فعله لا تروق لى " .

قالت بيكى : " إن الأمر لن يكون كذلك بالضرورة " .

" لا أظن أن الأمر سوف ينجح فى المقام الأول " .

" تشارلى يجب أن تصغى إلى نفسك ؛ أحيانا تكون عنيدا " .

قال الكولونيل فى محاولة لتهدئة الموقف : " قد نكون بحاجة إلى التصويت فى هذا الصدد . فقط لكى نتعرف على آراء بعضنا البعض " .

" تصويت ؟ تصويت على ماذا ؟ لماذا ؟ إن المتاجر ملكى " .

نظرت إليه بيكى وقالت : " ملكنا نحن الاثنين يا تشارلى ، كما أن الكولونيل قد اكتسب عن جدارة حقه فى أن يبدى رأيه " .

" آسف يا كولونيل ؛ لم أقصد ـــــ " .

" أعلم أنك لم تقصد يا تشارلى ولكن بيكى محقة . إن كنت تريد أن تحقق أهدافاً طويلة المدى فسوف تكون بلاشك بحاجة إلى مساعدة خارجية . يستحيل أن تحقق كل أحلامك بنفسك " .

" ولكننى سوف أنجح فى تحقيقها إن حصلت على بعض المساعدة الخارجية " .

قال الكولونيل : " انظر إليها على أنها مساعدة داخلية " .

قالت بيكى : " حسنا . يجب أن نصل إلى قرار فيما يخص أمر الشركة . إن وافقنا على ذلك فسوف نعين الكولونيل مديرا وسوف يقوم بدوره بتعيينك مديرا عاما وسوف يعيننى أنا سكرتيرة . أعتقد

أن السيد كراوثر يجب أن يدعى هو الآخر للانضمام إلى المجلس وكذلك يجب أن ندعو ممثلا عن البنك " .

قال تشارلى : " أرى أنك قد فكرت فى الأمر مليا " .

أجابت بيكى : " لقد كان هذا هو دورى فى الصفقة ؛ إن كنت تذكر الصفقة جيدا يا سيد ترامبر " .

" نحن لسنا المارشال فيلد كما تعلمين " .

قال الكولونيل بابتسامة : " ليس بعد تذكر أنك أنت يا تشارلى الذى علمتنا أن نفكر بهذه الطريقة " .

" أعلم أن الخطأ سوف يكون خطئى أنا فى النهاية " .

قالت بيكى : " إذن أقترح أن نقيم شركة . من يؤيد الفكرة ؟ " .

رفعت بيكى والكولونيل يديهما وبعدها بثوانٍ قليلة رفع تشارلى يده فى تردد وأضاف : " والآن ماذا ؟ " .

قالت بيكى : " عرضى الثانى وهو أن الكولونيل السير دانيفرز هاميلتون سوف يصبح أول رئيس للمجلس " .

فى هذه المرة رفع تشارلى يده على الفور .

قال الكولونيل : " شكرا لك ، وأول ما سوف أقوم به هو أننى سوف أعين السيد تشارلى ترامبر مديرا عاما والسيدة ترامبر سكرتيرة للشركة . واسمحوا لى بأن أطلب من السيد كراوثر والسيد هادلو الانضمام إلى المجلس " .

قالت بيكى التى كانت تدون بمنتهى الحرص كل ما يجرى فى دفتر الجلسات : " موافقون " .

سأل الكولونيل : " هل هناك شيء آخر ؟ " .

قالت بيكى : " هل لى أن أقترح يا سيدى الرئيس - لم يستطع الكولونيل أن يمنع نفسه من الابتسام - أن نحدد موعدا لأول اجتماع شهرى لنا بحضور كامل أعضاء المجلس ؟ " .

قال تشارلى : " أى وقت يناسبنى ؛ لأن هناك شيئا أكيدا أننا لن نتمكن من جمعهم جميعا حول المائدة فى وقت واحد ما لم تدعهم لعقد المجلس فى الرابعة والنصف صباحا . على الأقل سوف نعرف وقتها من الذى يعمل بكد " .

ضحك الكولونيل وقال : " حسنا ، هذه طريقة أخرى سوف تمكنك يا تشارلى من أن تمرر كل قراراتك بدون حتى أن نعلم . ولكننى يجب أن أحذرك أننا لم نعد نشكل النصاب القانونى " .

" النصاب القانونى ؟ " .

شرحت بيكى : " الحد الأدنى المطلوب من الأشخاص للموافقة على القرار " .

قال تشارلى فى حزن : " كان كل المطلوب من قبل هو موافقتى أنا " .

قال الكولونيل : " ربما كان هذا صحيحا أيضا بالنسبة للسيد ماركس قبل أن يقابل السيد سبنسر . دعنا إذن نحدد الموعد التالى للقائنا ، لنقل مثلا بعد شهر من اليوم " .

أومأ تشارلى وبيكى .

" والآن إن لم تكن هناك أمور أخرى مطروحة للمناقشة فاسمحوا لى بإغلاق المجلس " .

قالت بيكى : " بلى هناك شيء آخر ولكننى لا أظن أن هذه المعلومة يجب أن تسجل فى محضر الاجتماع " .

قال الكولونيل وقد بدت عليه علامات الحيرة : " كلنا آذان صاغية " .

مدت بيكى يدها عبر المائدة وأمسكت بيد تشارلى وقالت : " إنه أمر يمكن أن يدرج تحت بند نفقات نثرية . سوف أرزق بطفل آخر " .

بهت تشارلى وبقى صامتا للوهلة الأولى . ثم كسر الكولونيل حاجز الصمت أخيرا عندما تساءل إن كان من الممكن تناول مشروب بسبب هذه المفاجأة .

قالت بيكى : " مع الأسف ، لا يوجد " .

قال الكولونيل : " إذن يجب أن نسير إلى منزلى " . أضاف وهو ينهض من مقعده ويمسك بمظلته : " وهكذا سوف نسمح لزوجتى إليزابيث أن تشاركنا الاحتفال . إننى أعلن انتهاء الاجتماع " .

وبعدها بدقائق قليلة عندما هم ثلاثهم للخروج فى الشارع ، دخل ساعى البريد وسلم إلى بيكى خطابا .

" لابد أنه من دافنى ، نظرا لكل هذه الطوابع " قالت بيكى ذلك وهى تفتح مظروف الخطاب وتشرع فى قراءة محتواه .

" هيا ، أخبرينا إذن هل هناك جديد ؟ " ، هكذا سأل تشارلى وهما يسيران صوب شارع تريجانتر .

قالت بيكى : " لقد جابت أنحاء أمريكا والصين وسوف تتوجه إلى الهند فى محطتها التالية حسب ما أرى . لقد اكتسبت أيضا بعض الوزن كما أنها قابلت شخصًا يدعى السيد كلفين كوليدج ، أيًا كان هذا الرجل " .

قال تشارلى : " إنه نائب رئيس الولايات المتحدة " .

" هل هو كذلك ؟ نأمل أن يتمكنا من العودة فى شهر أغسطس أى أن وقت معرفة كل أخبارها منها مباشرة لن يتأخر كثيرا " .

ورفعت بيكى رأسها لتجد أن الكولونيل وحده هو الذى مازال يسير بجوارها .

" أين تشارلى ؟ استدار الاثنان حولهما ليجداه يحدق فى بيت صغير من بيوت المدينة يحمل لافته " للبيع " فوق جدرانه .

سارا نحوه ، فسأل وهو مازال يحدق فى المبنى : " ما رأيكما ؟ " .

" ما الذى تعنيه بـ " ما رأيكما " ؟ " .

" أظن يا عزيزتى أن تشارلى يريد أن يعرف رأيك فى المنزل " .

أخذت بيكى تتأمل المنزل الصغير المؤلف من ثلاثة طوابق . والذى كانت واجهته مغطاة بالنباتات المتسلقة .

" إنه رائع ، بالغ الروعة " .

قال تشارلى وهو يضع إبهاميه فى جيب معطفه : " بل هو أكثر من ذلك . إنه مثالى لزوجة وثلاثة أبناء ومدير عام لشركة متنامية مزدهرة فى تشيلسيا " .

" ولكننى لم أرزق بطفل ثان بعد ، ناهيك عن طفل ثالث " .

قال تشارلى : " إننى فقط أُخطط للمستقبل ، هذا هو ما تعلمته منك " .

" ولكن هل نملك ثمنه ؟ " .

قال : " كلا ، بالطبع لا ولكننى واثق من أن قيمة هذا العقار فى هذه المنطقة سوف تزداد بمجرد أن يعرفوا أن هناك مركزا تجاريا سوف يفتتح على بعد مسافة قليلة منهم يمكن أن يقطعوها سيرًا على

الأقدام . على أية حال ، لقد تأخر الوقت كثيرا الآن ، لأننى أودعت صباحا مقدم هذا المنزل " .

ثم وضع يده فى جيب سترته وأخرج المفتاح .

سألت بيكى : " ولكن لماذا لم تستشرنى أولا ؟ " .

" لأننى كنت أعلم أننا لا نملك ثمنه كما فعلت عند شراء المتجر الأول والثانى والثالث والرابع والخامس وكل المحلات الأخرى " .

سار نحو الباب الأمامى وسارت بيكى خلفه متأخرة قدر ياردة واحدة .

" ولكن ـــــ " .

قال الكولونيل : " سوف أترككما لكى تتفاهما سويا . تعالا إلى منزلى وتناولا معى الشراب بعدما تلقيان نظرة على بيتكما الجديد " .

واصل الكولونيل سيره فى شارع تريجانتر وهو يؤرجح مظلته تحت أشعة شمس الصباح ؛ وهو سعيد بنفسه وبالعالم من حوله ووصل منزله فى موعد تناول الشراب .

قص على زوجته كل ما جرى فأخذت تطرح عليه أسئلة عن الطفل والمنزل أكثر من الأسئلة الخاصة بوضع الشركة المالى حالياً وتعيين زوجها فى منصب رئيس المجلس . وبعد أن استوفى الإجابات بأحسن ما فى استطاعته ؛ طلب من خادمه أن يضع بعض الشراب فى دلو من الثلج . ثم انسحب إلى مكتبه لكى يتفقد بريده الصباحى فى انتظار وصول عائلة ترامبر .

كانت هناك ثلاثة خطابات غير مفتوحة فوق مكتبه ؛ فاتورة من الترزى ـ مما ذكره بحزم بيكى فى هذا الصدد ـ ودعوة إلى أشبورتون شيلد كانت مزمعة العقد فى بيسلى والتى كانت إحدى المناسبات

السنوية التى كان يستمتع دائما بحضورها ، وخطاب ثالث من دافنى والذى افترض أنه سوف يحمل نفس الأنباء التى حملها خطابها إلى بيكى والتى كانت بيكى قد قصتها عليه بالفعل .

كان المظروف يحمل طابع بريد ديلهى . فتح الكولونيل المظروف فى حماس . أعربت دافنى فى خطابها ثانية عن مدى سعادتها بالرحلة ولكنها لم تشر إلى مشكلة وزنها ثانية . ولكنها مع ذلك ؛ أشارت إلى أنها تحمل إليه بعض الأنباء السيئة الخاصة بـ " جاى تريننثام " . كتبت له أنه أثناء إقامتها فى بوونا ؛ قابله بيرسى مصادفة فى النادى العسكرى ووجده مرتديا زيا مدنيا . كان قد فقد الكثير من الوزن حتى كاد زوجها يعجز عن التعرف عليه . وقد أخبر بيرسى أنه أجبر على تقديم استقالته وأن هناك شخصاً واحداً فقط هو المسئول عن المأساة وهو الرقيب الذى كذب بشأنه فى الماضى والذى كان يسعده أن ينضم إلى قائمة المجرمين معتادى الإجرام . وقد زعم جاى أنه ضبطه متلبسا بتهمة السرقة وبأنه بمجرد أن يعود إلى إنجلترا سوف يسعى إلى ـــــ " .

دق جرس الباب .

قالت إليزابيث وهى تنحنى على الدرابزين : " أجب على الباب يا دانيفرز ؛ فأنا أنسق الزهور فى الدور العلوى " .

كان الكولونيل مازال مشحونا بالغضب عندما فتح باب المنزل الأمامى ليجد تشارلى وبيكى أمامه فوق الدرج العلوى وقد اعتراهما الحماس . لابد أنه قد ارتسمت عليه علامات الدهشة عندما شاهدهما مما دفعهما للقول : " الشراب أيها الرئيس أم أنك قد نسيت ؟ "

دس الكولونيل خطاب دافنى فى جيب سترته وقال : " أجل بالطبع ؛ آسف . لقد سرحت بعيدا فى أمر آخر " . وأضاف قائلا وهو يقود ضيوفه إلى غرفة الاستقبال : " لابد أن الشراب قد وصل إلى درجة الحرارة المثالية الآن " .

ثم صاح لكى يسمع زوجته فى الدور العلوى : " لقد وصلت عائلة ترامبر فى الثانية والربع " .

الفصل ١٨

كان الكولونيل يسعد دائما بمراقبة تشارلى وهو يقضى جل وقته فى التنقل بين المتاجر فى محاولة لمراقبة كل العاملين لديه عن كثب وفى الوقت نفسه يركز كل طاقته على أى متجر متعثر . ولكن بغض النظر عن نوعيات المشاكل المختلفة التى كان يتعرض لها فقد كان الكولونيل يدرك جيدا أن تشارلى لم يكن يقوى على مقاومة إغراء العمل فى متجر الخضراوات والفاكهة الذى بقى دائما مصدر فخره وسعادته . كان يخلع معطفه ويشمر عن أكمام قميصه ويستعيد لهجته الشعبية على أشدها ؛ وهكذا كان تشارلى يحل محل بوب ماكينز لمدة ساعة يوميا وكأنه قد عاد للعمل ثانية فى وايت شابيل فوق عربة جده النقالة .

" نصف رطل من الطماطم وبعض الفول ورطلك المعتاد من الجزر يا سيدة سيموندز ؛ حسب ما أذكر " .

" شكرا جزيلا لك يا سيد ترامبر وكيف حال السيدة ترامبر ؟ " .

" ليست فى أفضل حال " .

" وما هو التاريخ المتوقع للإنجاب ؟ " .

" قرابة الثلاثة أشهر كما يقول الطبيب " .

" لا أراك تعمل كثيرا فى المحل فى هذه الأيام " .

قال تشارلى : " أعمل فقط عندما أعلم أن هناك زبائن مهمين يا حبى . وأنت إحدى أوائل هؤلاء " .

" بالفعل كنت كذلك . هل وقعت عقد الشقق يا سيد ترامبر أم أنك لم توقعها بعد ؟ " .

أخذ تشارلى يحدق فى السيدة سيموندز وهو يرد لها الباقى وقد أعجزته المفاجأة عن الرد فقال : " الشقق ؟ " .

" نعم الشقق من ٢٥ إلى ٩٩ " .

" ولماذا تسألين يا سيدة سيموندز ؟ " .

" لأنك لست الشخص الوحيد الذى يرغب فى شرائها " .

" وكيف عرفت ذلك ؟ " .

" أعرف لأننى رأيت شابًا صغيرًا يحمل مجموعة مفاتيح يقف خارج المبنى فى انتظار زبون آخر صباح الأحد الماضى " .

تذكر تشارلى أن عائلة سيموندز تعيش فى منزل فى الجانب البعيد من الحدائق أمام المدخل الرئيسى للشقق " .

" وهل عرفت من يكون ؟ " .

" كلا . لقد رأيت سيارة تقف أمام المدخل ولكن زوجى قرر حينئذٍ أن إعداد إفطاره أهم من التدخل فى شئون الآخرين لذا لم أعرف الشخص الذى حضر " .

واصل تشارلى تحديقه فى السيدة سيموندز وهى تلتقط حقيبتها وتلوح له فى تفاؤل وتسير خارجة من المحل .

بالرغم من الصدمة المدوية التى ألقتها السيدة سيموندز فى وجهه وجهود سيد ريكسال لاحتوائه فقد ظل تشارلى يواصل جهوده لامتلاك هدفه التالى . وبتضافر جهوده مع حكمة الميجور آرنولد وحنكة السيد كراوثر وقرض السيد هادلو ؛ نجح تشارلى فى أواخر شهر يوليو من امتلاك محلين آخرين فى الحدائق وهما العقار رقم ١٣٣ الخاص بملابس النساء والعقار رقم ١٠١ ؛ الخاص بالمشروبات والمرطبات . وبحلول موعد اجتماع شهر أغسطس أوصت بيكى بترقية الميجور آرنولد إلى نائب المدير العام للشركة وأوكلت له مهمة مراقبة كل ما يجرى فى حدائق تشيلسيا عن كثب .

كان تشارلى بحاجة ماسة إلى عين وأذن إضافية لبعض الوقت ، ومع انشغال بيكى فى عملها لدى سوثباى أثناء النهار ؛ بدأ آرنولد يقوم بهذا الدور على أتم وجه . وقد سعد الكولونيل سعادة بالغة وهو يطلب من بيكى أن تدون فى محضر الاجتماع تعيين الميجور فى منصبه الجديد . سار الاجتماع الشهرى بمنتهى السلاسة إلى أن طرح الكولونيل السؤال التالى : " هل هناك أية موضوعات أخرى خاصة بالعمل ؟ " .

قال تشارلى : " نعم . ماذا عن الشقق ؟ " .

قال كراوثر : " لقد قدمت عرضا بألفى جنيه كما اتفقنا . لقد أخبرنى الوكيل أنه سوف ينصح العميل بالموافقة على هذا السعر ولكننى إلى الآن لم أتلق منه ردا " .

سأل تشارلى : " لماذا ؟ " .

" لأن سافيل اتصل بى هاتفيا هذا الصباح وأخبرنى بأنهم قد تلقوا عرضا آخر يفوق كثيرا السعر المتوقع للعقار . وقد رأى أنه ربما يجدر بى أن أخبر المجلس عن الوضع الحالى " .

قال تشارلى : " لقد كان محقا فى ذلك . ولكن ما هى قيمة العرض ؟ هذا هو ما أود معرفته " .

قال كراوثر : " ألفان وخمسمائة جنيه " .

مضى بعض الوقت قبل أن يتفوه أى من الأشخاص الملتفين حول المائدة بكلمة لإبداء رأى .

سأل هادلو أخيرًا : " وكيف يتوقع صاحب هذا العرض بحق السماء أن يحصل على عائد جيد مقابل هذا الاستثمار ؟ " .

قال كراوثر : " لا أدرى " .

" اعرض عليهم ثلاثة آلاف جنيه " .

" ما الذى قلت ؟ " قال الرئيس ذلك ، بينما استدار الجميع لينظروا إلى تشارلى .

كرر تشارلى : " اعرض عليهم ثلاثة آلاف جنيه " .

أوضحت بيكى : " ولكن يا تشارلى نحن اتفقنا منذ بضعة أسابيع فقط على أن ألفي جنيه كان مبلغا مرتفعا بما يكفى . كيف يمكن أن تساوى الشقق فجأة كل هذا المبلغ ؟ " .

أجاب تشارلى : " إنها تستحق القيمة التى يكون الشخص على استعداد لدفعها . لم يعد أمامى خيار " .

بدأ هادلو : " ولكن يا سيد ترامبر ـــــ " .

" إن حصلنا على باقى المتاجر فى البناء ولم نضع أيدينا على الشقق ؛ فإن كل ما كنت أسعى لتحقيقه سوف يضيع هباء . إننى

لست على استعداد للمجازفة بذلك مقابل ثلاثة آلاف جنيه ؛ أو ـ كما تقولون ـ خمسمائة جنيه " .

سأل الكولونيل : " نعم ولكن هل يمكن أن ندفع مثل هذا الثمن الآن ؟ " .

قالت بيكى وهى تراجع دفتر الحسابات : " هناك خمسة محلات أصبحت الآن تدر ربحا ومحلان وصلا إلى نقطة اللامكسب واللاخسارة ومحل واحد يواصل خسارته بشكل دائم " .

قال تشارلى : " يجب أن نملك شجاعة المضى قدما . اشتر الشقق ، واهدمها وسوف يكون بوسعنا أن نبنى نصف دستة محلات مكانها . سوف نجنى من ورائها بعد ذلك أرباحا بأسرع من الخيال " .

صمت كراوثر فترة لكى يمنح الجميع فرصة للتفكير فى استراتيجية تشارلى ثم سأل : " إذن ما هى تعليمات المجلس ؟ " .

" أرى أن نعرض عليهم ثلاثة آلاف جنيه ، كما أشار المدير العام . يجب أن نتحلى بنظرة مستقبلية بعيدة المدى ولكن فقط إن كان البنك على استعداد للتمويل يا سيد هادلو ؟ " .

" إن وضعكم المالى يكفى بالكاد لدفع هذا الثمن ولكن هذا يعنى فى المقابل أن حد السحب على المكشوف سوف يكون قد وصل إلى حده الأقصى وأنه لن يكون بوسعكم شراء المزيد من المحلات فى المستقبل القريب " .

قال تشارلى وهو ينظر إلى كراوثر مباشرة : " ليس لدينا خيار . هناك شخص آخر يسعى لشراء الشقق ولا نستطيع عند هذا الحد أن نسمح لأى منافس بأن يضع يده عليها " .

" حسنا ؛ إن كانت هذه هى توصيات المجلس فسوف أسعى لعقد الصفقة اليوم بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه " .

" أعتقد أن هذا هو تحديدا ما يريد المجلس أن تقوم به " ، أكد الرئيس ذلك وهو يجول ببصره على كل أعضاء المجلس وقال : " حسنا ؛ إن لم يكن هناك المزيد ؛ فأنا أغلق المجلس " .

وبمجرد أن انتهى المجلس ؛ انفرد الكولونيل بـ " كراوثر " وهادلو فى أحد الجوانب وقال : " هناك ما يريب فى صفقة الشقق هذه . عرض يظهر فجأة هكذا ؛ أعتقد أننا بحاجة لتبين ما يجرى " .

قال كراوثر : " أوافقك الرأى . أعتقد أن سيد ريكسال ولجنة المحلات هى التى تسعى للتصدى لـ " تشارلى " قبل أن يضع يده على البناء بالكامل " .

قال تشارلى وهو ينضم إليهم : " كلا . لا يمكن أن يكون ريكسال لأنه حتى لا يملك سيارة " ، وأضاف فى غموض : " على أية حال ؛ إن ريكسال وكل المتآمرين معه لا يملكون كل هذا المبلغ من المال ؛ إن قدرتهم المالية تتوقف قبل حد الألفين وخمسمائة جنيه بكثير " .

سأل هادلو : " إذن هل تعتقد أنه مقاول خارجى يسعى لتنفيذ مشروع خاص فى حدائق تشيلسيا " .

قال كراوثر : " أرى أنه على الارجح مستثمر على استعداد لأن يبذل كل جهده لكى يعرقل خططك إلى أن تدفع أعلى سعر " .

قال تشارلى : " لا أعلم من يمكن أن يكون وكيف يحدث هذا . كل ما أنا واثق منه هو أننى قد اتخذت القرار الصحيح لكى أقتنص الصفقة " .

قال الكولونيل : " أوافقك الرأى . كراوثر ؛ أخبرنى بمجرد عقد الصفقة . أخشى أنه ليس بوسعى أن أبقى لأكثر من ذلك لأننى سوف أصحب سيدة متميزة لتناول الغداء معى فى النادى " .

سأل تشارلى : " هل نعرفها ؟ " .

" دافنى ويلتشاير " .

قالت بيكى : " أبلغها تحياتى إلى أن نلتقى بها على العشاء المتفق عليه يوم الأربعاء المقبل " .

رفع الرئيس قبعته لـ " بيكى " وترك زملاءه الأربعة فى نقاشهم المحتدم حول الشخص الذى يمكن أن يكون قد اعترض طريقهم لشراء الشقق .

ونظرا لأن الاجتماع كان قد طال لأكثر مما توقعه الكولونيل فإنه لم ينجح إلا فى تناول كأس واحدة فقط من الشراب قبل أن تحضر دافنى لتشاركه الغداء فى القاعة المخصصة للسيدات . كانت - بالفعل - قد اكتسبت بعض الوزن ولكن الكولونيل لم ير أية غضاضة فى ذلك .

طلب كأسا من الشراب لضيفته من نادل النادى بينما أخذت تتحدث عن روعة أمريكا وسخونة إفريقيا ولكنه كان يشعر أن هناك قارة أخرى هى التى كانت تستحوذ على تفكيرها وتتوق إلى التحدث عنها .

سألها أخيراً : " وماذا عن الهند ؟ " .

قالت دافنى : " ليس جيدة بالمرة ؛ أخشى أن أعترف بذلك ؛ بل إنها كانت مفزعة " .

قال الكولونيل : " عجبا ؛ كنت أظن أن سكانها الأصليين أكثر ودا " .

قالت دافنى : " إن المشكلة ليست فى السكان الأصليين " .

" ترينثام ؟ " .

" أخشى ذلك "

" ألم يتلق خطابك ؟ " .

"بلى تلقاه ؛ ولكن الأحداث كانت قد احتدمت بالفعل قبلها يا كولونيل . ليتنى كنت قد عملت بنصيحتك ونقلت خطابك كلمة بكلمة وحذرته من أننى سوف أشهد ضده إذا سألنى أى شخص عن والد دانيال الحقيقى ؟ " .

" لماذا ؟ وما سر هذا التغير ؟ " .

ابتلعت دافنى محتوى كأسها دفعة واحدة وقالت : " آسفة يا كولونيل ؛ ولكننى كنت بحاجة إلى ذلك . حسنا عندما وصلت أنا وبيرسى إلى بوونا ، كان أول ما سمعناه من رالف فوربس الكولونيل المسئول عن الفرقة العسكرية أن ترينثام قدم استقالته " .

وضع الكولونيل شوكته جانباً وقال : " نعم ؛ لقد ذكرت هذا فى خطابك . إن ما أريد أن أعرفه هو السبب " .

" حدثت ثمة مشكلة مع زوجة الوكيل ، كما عرف بيرسى فيما بعد ولكن لم يكن هناك شخص على استعداد لقص التفاصيل . لقد أحاط الغموض بالأمر ؛ لأن الضباط لا يحبون إثارة مثل هذه الأمور " .

" ياله من وغد عديم الخلق . إن كان فقط بوسعى أن ــــ " .

" أوافقك الرأى تماما يا كولونيل ولكننى يجب أن أخبرك أن هناك ما هو أسوأ من ذلك " .

طلب الكولونيل كأسًا آخر من الشراب لضيفته ولنفسه أيضًا قبل أن تواصل دافنى حديثها .

" عندما قمت بزيارة آشورست فى عطلة الأسبوع الماضى ؛ أرانى العقيد ترينثام الخطاب الذى أرسله جاى لوالدته يشرح لها فيه سبب إجباره على تقديم الاستقالة . إنه يزعم بأن السبب هو الخطاب الذى أرسلته أنت إلى الكولونيل فوربس وتلك الفتاة من وايت شابيل التى وضعتها فى طريق العائلة . إننى أستخدم الكلمات كما جاءت فى الخطاب " .

انتفخت وجنتا الكولونيل من الغضب .

" فى الوقت الذى ثبت فيه أن ترامبر هو والد الطفل . على أية حال هذه هى القصة كما يرويها ترينثام " .

" ألا يملك هذا الرجل أية أخلاقيات ؟! " .

قالت دافنى : " مطلقًا ، على ما يبدو لى ، ولقد واصل حديثه فى الخطاب مشيرا إلى أن تشارلى ترامبر قد عينك الآن فى العمل لديه لكى يحافظ على ولائك له مقابل ثلاثين قطعة من الفضة . كان هذا هو تحديدا التعبير الذى استخدمه " .

" إنه يستحق الإعدام " .

" حتى العقيد ترينثام نفسه يمكن أن يوافقك فى ذلك . ولكننى لا أخشى عليك أو حتى على بيكى وإنما أخشى على تشارلى " .

" ما الذى تقصدين ؟ " .

" قبل أن نغادر الهند أخبر ترينثام بيرسى عندما تقابلا فى نادى أوفرسيز أن ترامبر سوف يندم على هذا لباقى حياته " .

" ولكن ما ذنب تشارلى ؟ " .

"سأله بيرسى نفس السؤال ، وأخبره جاى أن ترامبر قد استخدمك فى المقام الأول لكى يسوى حسابا قديما " .

" ولكن هذا ليس صحيحا " .

" لقد حاول بيرسى أن يشرح له ذلك ولكنه لم يستمع إليه " .

" وعلى أية حال ما الذى كان يقصده بتسوية الحساب القديم ؟ " .

" ليس لدى فكرة عن ذلك باستثناء أنه فى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ظل جاى يسألنى عن لوحة فنية تخص تشارلى " .

" تلك اللوحة المعلقة فى غرفة تشارلى ؟ " .

" هى تماما ، وعندما أقررت له فى النهاية أننى قد رأيتها ، لم يشر إلى الأمر ثانية " .

" لابد أن الرجل قد فقد عقله " .

قالت دافنى : " لقد بدا لى أيضا كذلك " .

" حسنا ؛ لنحمد الله على الأقل أنه قد بقى أمامنا بعض الوقت للتفكير فيما سوف نفعله " .

قالت دافنى : " لم نعد نملك كل هذا الوقت للأسف " .

" وكيف ذاك ؟ " .

" لأن العقيد ترينشام أخبرنى أن جاى سوف يعود إلى أرض الوطن فى وقت ما من الشهر المقبل " .

بعد تناول الغداء مع دافنى ؛ عاد الكولونيل إلى منزله . وكان مفعما بالغضب عندما فتح له خادمه باب المنزل ولكنه بقى غير واثق مما يمكن عمله . وأخبره الخادم بأن السيد كراوثر قد وصل وأنه ينتظره فى غرفة المكتب .

" كراوثر ؟ ما الذى يريده ؟ " ، هكذا همهم الكولونيل فى نفسه قبل أن يحتسى كأسا من الشراب فى البهو قبل أن يدخل المكتب .

قال كرواثر وهو ينهض من فوق مقعده : " عمت مساء أيها الرئيس . لقد طلبت منى أن أخبرك بأية تفاصيل خاصة بالشقق " .

قال الكولونيل : " أجل بالفعل هل عقدت الصفقة ؟ " .

" كلا يا سيدى . لقد عرضت سعر الثلاثة آلاف جنيه كما اتفقنا على سافيل ولكننى تلقيت منه اتصالا هاتفيا منذ ما يقرب من ساعة أخبرنى فيه أن الطرف الآخر عرض أربعة آلاف جنيه " .

قال الكولونيل وهو غير مصدق : " أربعة آلاف ؟ ولكن من هو هذا الطرف ــــ ؟ " .

" فأخبرته أننا لا نستطيع مجاراة مثل هذا السعر وحاولت أن أتعرف منه سرا على اسم هذا الطرف ، فأخبرنى أن الأمر ليس سرا ، فشعرت أننى يجب أن أخبرك على الفور أيها الرئيس باسمه ؛ إنها السيدة جيرالد ترينشام ؛ هل تعرف أحدًا بهذا الاسم ؟ " .

تشارلى

١٩١٩ - ١٩٢٦

الفصل

١٩

بينما كنت أجلس وحيدا على الأريكة المقابلة للمتجر الذى يحمل اسم ترامبر فى حدائق تشيلسيا ؛ كانت هناك آلاف الأسئلة تدور فى رأسى . ثم وقع بصرى على بوش بوركى ؛ أو لكى أكون دقيقا ، ظننت أنها لابد أن تكون هى ؛ لأنها إن كانت هى فهذا يعنى أنها قد تغيرت كثيرا أثناء فترة غيابى وأصبحت امرأة . ما هذا التغير الذى طرأ على السيقان النحيفة والوجه الملطخ بالبقع ؟ إن لم أكن قد شاهدت تلك العينين البنيتين المتأججتين بالحماس لظللت متشككا فى أمرها .

سارت إلى المحل مباشرة وتحدثت مع الرجل الذى كان يبدو عليه أنه المدير . رأيته يهز رأسه ، ثم استدارت نحو الفتاتين اللتين كانتا تقفان خلف النضد فوجدتهما يردان بنفس الطريقة . تجهمت قبل أن تتوجه إلى الدرج لكى تجذبه وتشرع فى حساب النقود .

كنت قد بقيت أراقب المدير وهو يؤدى مهام عمله على مدى ساعة قبل وصول بيكى . ولكى أكون منصفا ؛ فقد كان كفئا بالفعل باستثناء بعض الأشياء البسيطة التى كان يمكن أن يقوم بها لكى يعمل على تحسين المبيعات كان من بينها نقل النضد إلى الركن البعيد من المتجر ووضع بعض المنتجات داخل الصناديق فوق الرصيف لإغراء الزبائن . " يجب أن تعرض منتجاتك لا أن تبقى على أمل أن يراها الزبائن مصادفة " ، هكذا اعتاد جدى أن يقول . ومع ذلك ، بقيت جالسا فى صبر فوق الأريكة إلى أن بدأ العاملون يفرغون الأرفف قبل إغلاق المحل .

وبعدها بدقائق خرجت بيكى إلى الرصيف وأخذت تنظر يمنة ويسرة فى الشارع كما لو كانت فى انتظار شخص ما . ثم جاء الرجل الشاب الذى كان يحمل القفل والمفتاح واقترب منها وأومأ فى اتجاهى . نظرت بيكى فى اتجاه الأريكة للمرة الأولى .

وبمجرد أن وقع بصرها علىّ ، قفزت وعبرت الشارع . بقينا صامتين لبعض الوقت . شعرت أننى أريد أن أحتضنها ولكننا اكتفينا بمصافحة بعضنا البعض بالأيدى بشكل رسمى قبل أن أسألها قائلا : " إذن ما الخطب ؟ " .

" لم أتمكن من العثور على أى شخص يمكن أن يمنحنى فطائر القشطة بدون مقابل " ، هكذا قالت لى قبل أن تواصل شرحها وسردها لسبب بيعها للمخبز وكيف نجحنا فى امتلاك العقار ١٤٧ فى حدائق تشيلسيا . وعندما غادر طاقم العمل المتجر فى هذه الليلة ، صعدت معى لكى أعاين الشقة . لم أصدق عينى ، حمام بمرحاض ومطبخ بأوان فخارية وسكاكين وغرفة أمامية بكراسى

ومائدة وغرفة نوم ، ناهيك عن السرير الذى كان يبدو متينا ولن ينهار فوق الأرض .

وثانية شعرت برغبة فى احتضانها ولكننى اكتفيت بأن أطلب منها البقاء وتناول العشاء معى لأنه كان لايزال لدىّ مئات الأسئلة التى أردت أن أطرحها عليها .

" آسفة ليس الليلة " ، هكذا قالت وأنا أفتح حقيبتى لكى أستخرج الأمتعة ، وأضافت : " سوف أخرج لحضور حفل موسيقى مع صديق لى " . وبمجرد أن علقت على صورة تومى ابتسمت وغادرت . وفجأة وجدت نفسى وحيدا ثانية .

خلعت معطفى وطويت أكمامى وصعدت الدرج وعلى مدى ساعات أخذت أنسق الأشياء من جديد إلى أن وضعتها فى المكان الملائم بالنسبة لى . وعندما أفرغت محتويات آخر صندوق كان التعب قد بلغ منى مبلغه حتى إننى نجحت بالكاد من منع نفسى من الانهيار فوق سريرى وخلع ملابسى . ولم أغلق الستائر لكى أضمن استيقاظى فى الرابعة صباحا .

ارتديت ملابسى سريعا فى صباح اليوم التالى وأنا مفعم بالحماس لفكرة العودة إلى السوق الذى لم أكن قد رأيته منذ عامين . وصلت إلى الحدائق قبل وصول بوب ماكينز بدقائق قليلة والذى اكتشفت سريعا أنه كان يعرف عمله جيداً ولكنه لم يكن يعرف التفاصيل المحيطة به . كنت أعرف أننى بحاجة إلى بضعة أيام قبل أن أتعرف على الموردين الذين يمكن أن يمدونى بأكثر المنتجات جودة والموردين الذين يتمتعون بأفضل علاقات فى الموانئ ومنافذ التوريد والموردين الذين يقدمون أفضل أسعار يومياً ولكن الأهم من ذلك المورد الذى سوف يعتنى بأمرى عند حدوث أى نقص فى المنتجات على

مستوى السوق . لم تكن أى من هذا المشاكل تبدو وكأنها تؤرق بوب الذى كان يجوب السوق ببال خالٍ وبدون توقف وتفكير لجمع كل ما يريده .

أحببت المحل منذ اللحظة التى فتحته فيها فى أول صباح لى . ولم أستغرق سوى القليل من الوقت فقط للتعود على كلمة سير التى كان ينادينى بها بوب والفتاتان العاملتان معه ولكنهم استغرقوا المزيد من الوقت لإعداد النضد بالطريقة الجديدة ووضع الصناديق فوق الرصيف قبل استيقاظ الزبائن . ومع ذلك فحتى بيكى نفسها وجدت أنه من الحكمة أن نضع بضاعتنا أمام عين الزبون مباشرة بالرغم من أنها لم تكن واثقة من مدى قبول السلطات المحلية لوضع الصناديق فوق الرصيف عند اكتشاف الأمر .

سألتها : " ألم تسمع تشيلسيا من قبل بالتجارة الجوالة ؟" .

وفى غضون شهر كنت قد تعرفت على اسم كل زبون من الزبائن المستديمين فى المحل ، وفى خلال شهرين فقط كنت قد تعرفت على كل ما يحبون وما لا يحبون وحتى كل البضائع التى يحبون اقتناءها فى المناسبات الخاصة .

بعد جمع البضائع وإغلاق المحل مساء كل يوم ؛ كنت أعبر الطريق وأذهب للجلوس على الأريكة المقابلة فى الشارع لمراقبة كل ما يجرى فى تشيلسيا . لم أستغرق وقتا طويلا إلى أن أدركت أن التفاحة تبقى تفاحة لكل من أراد أن يقضم قضمة ، كما أن تشيلسيا لم تكن تختلف عن وايت شابيل فيما يخص فهم احتياجات العميل . أعتقد أن هذا هو الوقت الذى فكرت فيه فى اقتناء متجر آخر . ولم لا ؟ لقد كان محل ترامبر هو المحل الوحيد فى تشيلسيا الذى كان صف الزبائن أمامه يمتد حتى الشارع .

واصلت بيكى فى الوقت نفسه دراستها فى الجامعة وأخذت تتحين الفرصة لكى أقابل صديقها المهذب . ولكننى فى واقع الأمر كنت أبذل كل جهدى لكى أتلاشى هذه المقابلة كلية لأننى لم أكن أريد أن أقابل الرجل الذى كنت واثقا من أنه قد قتل تومى .

ولكن حججى وأعذارى نفدت أخيرا ووافقت على تناول العشاء معه .

عندما دخلت بيكى المطعم مع دافنى وترينثام ؛ تمنيت لو لم أوافق أبدا على قضاء الأمسية معهم فى المقام الأول وأعتقد أن الشعور كان متبادلا لأن وجه ترينثام كان ينم عن نفس المشاعر التى كنت أحملها له بالرغم من أن دافنى صديقة بيكى بذلت كل جهدها لكى تبدو ودودة . كانت فتاة جميلة ولم أندهش عندما عرفت أن الكثير من الرجال كانوا ينبهرون بضحكتها المرحة الصاردة من القلب . ولكنها كانت تملك عينين زرقاوين وشعراً أشقر متموجاً ولم تكن هذه أبدا هى السمات الشكلية التى تثير إعجابى . تظاهرت ـ للحفاظ على المظهر العام ـ بأننى لم ألتق بـ " ترينثام " من قبل .

قضيت إحدى أكثر الليالى بؤساً فى حياتى وقد سيطر علىّ الشعور بأننى أريد أن أقص على بيكى كل ما كنت أعرفه عن هذا النذل ، ولكننى أدركت أنها لن تصدق كلمة واحدة مما سوف أقوله عندما لاحظت مدى ولعها به . ولعل ما زاد الأمر سوءا هو تقطيب بيكى فى وجهى بدون سبب واضح . فما كان منى إلا أن نكست رأسى وأخذت أدس المزيد من البازلاء فى فمى .

واصلت زميلة بيكى فى الشقة ؛ دافنى هاكورت براون جهودها فى التخفيف من وطأة الموقف ولكن حتى شارلى شابلين نفسه كان سيعجز عن انتزاع ابتسامة من وجه أى منا .

وبعد الحادية عشرة بقليل طلبت فاتورة الحساب ؛ وبعدها بدقائق قليلة غادرنا جميعا المطعم . تركت بيكى وترينثام يتقدمان على أمل أن أنجح فى الإفلات بعيدا عنهما ولكن لدهشتى وجدت دافنى المثيرة للدهشة قد تأخرت هى الأخرى عن عمد متعللة أنها تريد أن تطلع على التغييرات التى قمت بها فى المتجر .

من سؤالها الأول الذى وجهته لى وأنا أفتح المحل أدركت أنها تتمتع بخبرة فى التوصل إلى دقائق الأمور .

سألتنى وكأنها تقر أمراً واقعاً : " أنت تحب بيكى ،أليس كذلك ؟"

" نعم " ، هكذا أجبتها بلا تردد بل واستطردت فى الإعراب عن كل مشاعرى على نحو كان لا يمكن أن أتحدث به مع شخص أعرفه جيدا .

ثم جاء سؤالها الثانى أشد وقعا من السؤال الأول : " ومنذ متى وأنت تعرف جاى ترينثام ؟ " .

بينما كنا نصعد الدرج إلى شقتى الصغيرة أخبرتها بأننا خدمنا معاً فى الجبهة الغربية ولكن نظرا لفارق الرتب العسكرية بيننا فإننا نادرا ما كنا نعترض طريق بعضنا البعض .

قالت دافنى وهى تجلس على المقعد المقابل لمقعدى : " إذن لماذا تكرهه إلى هذا الحد ؟" .

ترددت ثانية ثم اعترتنى فجاة ثورة عارمة دفعتنى لإفراغ كل ما فى جعبتنى فأخذت أقص عليها كل ما حدث لـ " تومى " عندما كدنا نصل إلى خطوطنا وكيف أننى كنت مقتنعا بأن جاى ترينثام هو الذى قتل أعز صديق لى .

بعدما انتهيت من حديثى ، جلسنا فى صمت لبعض الوقت قبل أن أضيف قائلا : " أرجو ألا تقصى هذا الأمر على بيكى مطلقاً لأننى لا أملك دليلا عليه " .

أومأت بالموافقة وواصلت حديثها معى وأخبرتنى بقصة الحب الوحيد الذى عرفته فى حياتها كما لو كان كل منا يفضى بسره إلى الآخر لكى ندعم أواصر صداقتنا . كان حبها للرجل صادقا إلى الحد الذى دفعنى إلى التأثر رغما عنى لا محالة .

وعندما غادرت دافنى فى منتصف الليل تقريبا ؛ وعدتنى بأنها سوف تبذل قصارى جهدها لكى تصرف جاى ترينثام . وأذكر جيدا كلمة " لصرفه " لأنه كان علىّ أن أسألها عن المعنى الذى تقصده من وراء هذه الكلمة . فأخبرتنى بما كانت تقصده وهكذا تلقيت أول دروسى ، كما حذرتنى من أن بيكى كان لديها خلفية كبيرة عنى لأن السنوات العشر الماضية لم تكن قد ضاعت هباء .

كان الدرس الثانى هو اكتشافى لسبب تجهم بيكى فى وجهى أثناء العشاء . كان يمكن أن أثور فى وجهها ولكننى أدركت أنها كانت محقة .

تعلمت الكثير من دافنى على مدى الشهور القليلة التالية بدون أن تدرك بيكى حقيقة العلاقة التى كانت تجمعنا . وقد علمتنى الكثير عن العالم من حولى كما صحبتنى فى جولات لشراء الملابس ودور السينما ومسارح الطرف الغربى لمشاهدة المسرحيات التى كانت خالية من أية عروض راقصة ومع ذلك كنت أستمتع بها . لم أبد أى اعتراض إلا عندما طلبت منى أن أكف عن قضاء عصر أيام السبت فى مشاهدة مباريات ويستهام ومشاهدة مباريات الرجبى لفريق يدعى كوينز بدلًا من ذلك . ومع ذلك فقد كان اصطحابها لى

فى جولة إلى المتحف القومى والخمسة آلاف لوحة من لوحات الكنفا هو ما استأثر بشغفى وقلبى . ولم تمض سوى شهور قليلة حتى بدأت أدعوها لحضور أحدث المعارض لرينوار ومانيه وحتى هذا الفتى الفنان الشاب بيكاسو الذى كان قد بدأ يجذب انتباه كل من فى المجتمع الراقى . كنت أتمنى أن تلاحظ بيكى ما طرأ علىَّ من تغير وأن تسعد به ولكنها لم تكن تحول انتباهها عن النقيب ترينتام .

وبعدما أصرت دافنى بدأت أواظب على قراءة جريدتين تخيرتهما هى لى هما الديلى إكسبريس والنيوز كرونيكل وأحيانا كانت تصطحبنى إلى ميدان لاوندز كما أننى بدأت أتطلع إلى إحدى مجلاتها وهى بنش أو ستراند . بدأت أعرف العالم من حولى عن كثب وأكتسب الخبرة كما أننى ذهبت إلى سوثباى للمرة الأولى وأخذت أتأمل إحدى التحف النادرة وهى تباع بسعر خيالى لم أكن قد سمعت به من قبل وهو تسعمائة جنيه . كان هذا الثمن يفوق محل ترامبر وكل مقتنياته وكل ممتلكاته مجتمعين . ولكن علىَّ أن أقر أن كل هذه المشاهد الرائعة وكل اللوحات التى رأيتها سواء فى المتاحف أو فى المزادات لم تكن تضاهى روعة اللوحة التى تركها لى تومى والتى كانت لاتزال معلقة فوق سريرى .

وعندما قدمت لى بيكى فى يناير عام ١٩٢٠ أول كشف حساب سنوى ؛ بدأ طموحى لشراء متجر ثان يتأكد ولم يعد دربا من الأحلام . ثم وبدون سابق إنذار طرح متجرين للبيع فى تشيلسيا فى نفس الشهر . أخطرت بيكى على الفور أنها يجب أن توفر المال اللازم لشرائها .

وقد أخبرتنى دافنى فيما بعد أن بيكى تجد صعوبة فى توفير المال اللازم ، وقد كنت أتوقع أن تخبرنى ببساطة أن هذا لن يكون ممكنا وخاصة بعد انشغالها التام بترينتام وسفره المرتقب إلى الهند. عندما أعلنت بيكى يوم سفره أنها أصبحت مخطوبة إليه رسميا كنت على استعداد للإجهاز عليه ثم الإجهاز على نفسى ولكن دافنى أكدت لى أن هناك عدة فتيات فى لندن عشن فى وهم أن جاى ترينتام سوف يتزوجهن . ومع ذلك فقد بقيت بيكى واثقة من صدق ترينتام فى طلبه مما أوقعنى فى حيرة بين الاثنين .

وفى الأسبوع التالى ظهر قائدى فى الجيش فى المتجر حاملا قائمة مشتريات أعدتها زوجته . لن أنسى أبدا تلك اللحظة التى استخرج فيها محفظته لكى يسدد ثمن المشتريات . حتى هذا الوقت لم يكن قد خطر ببالى أن الكولونيل يمكن أن يعيش مثل باقى الناس حياة طبيعية . وقد غادر المحل على وعد بأن يرسل لى دعوتين لحضور الحفل الخاص بالفرقة وقد وفى الرجل بالفعل بما وعدنى به .

دامت غبطتى ـ كلمة أخرى تعلمتها من دافنى هاركورت براون ـ للقاء الكولونيل ثانية على مدى أربع وعشرين ساعة . ثم أخبرتنى دافنى أن بيكى فى انتظار طفل . كان أول رد فعل لى هو : ليتنى قتلت الرجل على الجبهة الغربية بدلا من مساعدته على النجاة بحياته . لقد افترضت أنه بناء على ما حدث فإنه سوف يعود على الفور من الهند لكى يتزوج بيكى قبل أن يولد الطفل . كنت أكره فكرة عودته ثانية إلى حياتنا ولكن كان على أن أتفق مع الكولونيل فى أن هذا هو التصرف اللائق الصحيح ، وإلا فسوف تبقى بيكى منبوذة اجتماعيا لباقىّ حياتها .

كان هذا هو تقريبا الوقت الذى نوهت فيه دافنى إلى أننا إن كنا نسعى للاقتراض من البنوك فعلينا أن نعثر على رجل واجهة يمثلنا لديهم . كان جنس بيكى فى هذا الموقف يعرقل تقدمها ـ أحد كلمات دافنى الأخرى ـ ومع ذلك فقد امتنعت دافنى بدافع الأدب عن القول بأن لهجتى أنا الآخر كانت تعرقل تقدمى فى هذا الصدد .

فى طريق العودة إلى المنزل بعد الحفل الخاص بالفرقة أخبرت بيكى دافنى فى سعادة أنها قد اتخذت قرارا بأن الكولونيل هو الذى سوف يمثلنا ويكون بمثابة واجهة لنا فى البنوك . لم أكن متفائلا . ولكن بيكى أصرت بعد حديثها مع زوجة الكولونيل أن نذهب على الأقل لمقابلته وعرض طلبنا عليه .

شعرت أننا قد فشلنا فى تحقيق هذا الهدف ولكن ما أدهشنى هو أنه بعدها بعشرة أيام تلقيت خطاب موافقة من الرجل .

وبعدها ببضعة أيام ، اعترفت لى بيكى أنها على وشك إنجاب طفل . منذ هذه اللحظة كان كل همى هو أن أعرف موقف ترينثام من بيكى . ولكننى ارتدعت عندما اكتشفت أن بيكى لم تكن قد أخبرته بما حدث بالرغم من أنه كان قد مر أربعة أشهر على حملها . طلبت منها أن تقسم لى بأنها سوف ترسل الخطاب فى هذه الليلة حتى إن لم تكن تريد أن تهدده بأنها سوف ترفع عليه قضية نكوص فى العهد . وفى اليوم التالى أكدت لى دافنى أنها رأت بيكى من نافذة المطبخ وهى تلقى الخطاب فى صندوق البريد .

حددت موعدا للقاء الكولونيل وشرحت له تفصيلا حالة بيكى قبل أن يفتضح أمرها أمام الجميع ، فأجابنى على نحو غامض : " دعنى أهتم بأمر ترينثام " .

وبعدها بستة أسابيع أخبرتنى بيكى أنه لم يصلها بعد رد من الرجل وشعرت للمرة الأولى أن مشاعرها نحوه بدأت تتغير .

طلبت منها أن تتزوجنى ولكنها لم تأخذ عرضى على محمل الجد بالرغم من أننى لم أكن فى حياتى أكثر صدقا من ذلك . وبقيت ساهرا طوال الليل أسأل نفسى عما يمكننى أن أفعله لكى أشعرها بأننى جدير بها .

وبمرور الأسابيع بدأت أنا ودافنى نولى المزيد من الاهتمام والرعاية لـ " بيكى " حيث كانت علامات الإنهاك تزداد عليها يوما بعد يوم . لم تكن قد وصلتها بعد أية أنباء من الهند ولكنها كانت قبل موعد ميلاد الطفل بكثير قد كفت عن الإشارة إلى ترينثام باسمه .

وعندما شاهدت دانيال للمرة الأولى شعرت أننى أريد أن أكون والده وشعرت بسعادة ليس لها مثيل عندما أخبرتنى بيكى أنها تتمنى أن أكون مازلت باقيا على حبها .

تتمنى أن أكون مازلت باقيا على حبها !

تزوجنا فى الأسبوع التالى بعد موافقة الكولونيل وبوب ماكينز ودافنى أن يكونوا آباء روحانيين لـ " دانيال " .

وفى الصيف التالى تزوجت دافنى وبيرسى ليس فى مكتب سجلات تشيلسيا ولكن فى سانت مرجريت فى ويست مينيستر . أخذت أبحث عن السيدة ترينثام فقط لأننى كنت أريد أن أعرف كيف كانت تبدو ثم تذكرت أن بيرسى قد أخبرنى أنه لم يدعها لحفل الزفاف .

كبر دانيال سريعا وقد تأثرت بحق عندما سمعته يقول كلمة " أبى " ، كانت منّ بين الكلمات الأولى التى كان يقولها ويرددها

كثيرا ، ومع ذلك فإننى أخذت أسأل نفسى إلى متى سوف تطول هذه السعادة ومتى سيحين وقت إخباره بالحقيقة ." ابن غير شرعى " ياله من عار سوف يتحتم على هذا المخلوق البرىء أن يتعايش معه.

" لا يجب أن نشغل بالنا بهذا الأمر بعد " ، هكذا قالت بيكى فى إصرار ولكن هذا لم يقلل من خوفى من النتيجة المحتملة لتكتم الأمر لفترة أطول من اللازم ؛ لأن هناك أشخاصاً فى تشيلسيا كانوا بالفعل يعرفون الحقيقة .

أرسلت لى سال خطابا من تورنتو تهنئنى فيه وتخبرنى أنها قد توقفت عن الإنجاب . كانت قد رزقت ببنتين هما مورين وبابر وولدين هما دافيد وريكس ؛ كان هذا العدد يبدو كافيا للغاية حتى بالنسبة لها . كان زوجها ـ كما أخبرتنى ـ قد ترقى إلى مسئول مبيعات عن منطقة إى . بى . تيلور أى أنهما كانا بشكل عام فى حالة جيدة . لم تنوه فى خطابها إلى إنجلترا أو رغبتها فى العودة إلى بلدها الأم حيث اقتصرت ذكرياتها فيها على نوم ثلاثة على فراش واحد ، وأب مخمور وعدم امتلاك ما يكفى من طعام ؛ ولا يمكننى أن ألومها فى ذلك فى واقع الأمر .

واصلت خطابها تعاتبنى لأننى سمحت لـ " جريس " أن تتفوق علىّ فى كتابة الخطابات . لم يكن بوسعى أن أتعلل ـ كما قالت ـ لأن عمل أختى فى مجال التمريض فى المستشفى التعليمى فى " لندن " لم يترك لها إلا وقتاً يقل كثيرا عن الوقت المتاح . وبعدما قرأت بيكى الخطاب وأيدت ما تقوله أختى ، بدأت أبذل جهدا أكبر فى الكتابة على مدى الشهور القليلة التالية .

كانت كيتى تزورنى بشكل دورى فى تشيلسيا فقط لكى تبتز منى المزيد من المال ؛ وكانت تحرص دائما على التأكد من عدم وجود بيكى قبل الحضور . وقد كانت المبالغ التى تطلبها باهظة ولكنها مع ذلك كانت متاحة دائماً .

توسلت إلى كيتى أن تبحث عن عمل حتى إننى عرضت عليها شخصيا عملا ولكنها أجابتنى ببساطة أنه ليس هناك وفاق بينها وبين العمل . كانت حواراتنا نادرا ما تدوم طويلا لأنها كانت تختفى بمجرد أن أمنحها النقود . أدركت أنه مع افتتاح كل محل جديد أصبحت مهمة إقناعى لـ " كيتى " بأن تعتمد على نفسها أكثر صعوبة وبمجرد انتقالى مع بيكى للعيش فى بيتنا الجديد فى شارع جيلستون ، زاد عدد مرات زياراتها لنا .

وبالرغم من جهود سِيْد ريكسال للتصدى لطموحى ورغبتى فى شراء كل متجر يطرح للبيع فى الحدائق ؛ فقد تمكنت من امتلاك سبعة محلات بدون أن يعترض أحد طريقى ـ كنت قد وضعت عينى على العقارات من رقم ٢٥ إلى ٩٩ ؛ كانت عبارة عن مبنى كبير يضم شققاً وكنت قد عقدت العزم على شرائها بدون أن أخطر ريكسال بنيتى ، فضلا عن رغبتى فى شراء العقار رقم ١ فى حدائق تشيلسيا الذى كان نظرا لموقعه ؛ يعتبر إحدى الدعائم الأساسية فى خطتى طويلة المدى لامتلاك الحى بالكامل .

على مدى عام ١٩٢٢ بدا لى كل شيء ، وكأنه يسير وفق خطة محكمة وبدأت أتطلع لعودة دافنى من شهر العسل لكى أخبرها بكل ما جرى أثناء فترة غيابها .

وفى الأسبوع التالى وصلت دافنى إلى انجلترا ودعتنا لتناول العشاء معها فى منزلها الجديد فى ميدان إيتون . كنت أتحرق شوقا

لسماع كل أخبارها وكنت واثقا من أنها سوف تنبهر عندما تعلم أننى كنت قد امتلكت تسعة محلات بالفعل ومنزلاً جديداً فى شارع جيلستون فضلا عن تخطيطى لامتلاك العقار الذى يضم الشقق فى المستقبل القريب . ومع ذلك فقد كنت أدرك تماما السؤال الأول الذى سوف تطرحه علىَّ بمجرد أن تطأ قدمى عتبة منزلها ـ بقى أمامى عشر سنوات إلى أن أمتلك الحى بأكمله ـ ما لم تتعرض البلاد لخطر الفيضان أو تفشى وباء الطاعون أو إندلاع الحرب .

قبل أن أغادر أنا وبيكى منزلنا للذهاب إلى دعوة العشاء المرتقبة ، إذا بمظروف يصلنا عبر صندوق بريد ١١ شارع جليستون .

وحتى بالرغم من وجود الخطاب على المسحة فقد نجحت فى التعرف على صاحب الخط . فتحته وبدأت أقرأ السطور التى خطها الكولونيل . وعندما انتهيت من قراءة الخطاب ، شعرت فجأة بغثيان وأخذت أسأل نفسى عن سبب رغبته فى تقديم استقالته .

الفصل

٢٠

وقف تشارلى وحيدا فى البهو وقرر ألا يخبر بيكى بمحتوى خطاب الكولونيل لحين عودتهما من العشاء لدى دافنى . كانت بيكى تتطلع إلى هذه المناسبة منذ وقت طويل وخشى تشارلى أن تفسد استقالة الكولونيل غير المبررة عليها ليلتها .

سألت بيكى عندما وصلت أسفل الدرج : " هل أنت بخير يا عزيزى ، تبدو شاحبا بعض الشيء " .

" أنا على خير ما يرام " قال تشارلى ذلك وهو يعيد الخطاب فى توتر فى جيبه الداخلى وأضاف : " هيا بنا وإلا سوف نتأخر ولا يجدر بنا ذلك " . نظر تشارلى إلى زوجته ولاحظ أنها ترتدى الثوب الوردى ولاحظ أيضا هذا الانتفاخ الواضح فى مقدمة الثوب . قال لها : " تبدين رائعة . إن هذا الثوب سوف يملأ نفس دافنى حسدا " .

" تبدو رائعا أنت أيضا " .

قال تشارلى : " عندما أرتدى تلك البذلة التى تشبه البنجوان أشعر أننى نادل فى الريتز " ، وفى نفس الوقت كانت بيكى تضبط له رابطة عنقه البيضاء .

قالت بيكى ضاحكة :" وكيف عرفت ذلك وأنت لم تذهب يوما إلى الريتز ؟ " .

" ولكننى على الأقل أرتدى بذلة من متجرى هذه المرة " هكذا أجاب تشارلى وهو يفتح الباب الأمامى لزوجته .

" ولكن هل سددت الفاتورة بعد ؟ " .

وبينما كان يقود سيارته فى ميدان إيتون ؛ وجد تشارلى صعوبة فى الإصغاء إلى ثرثرة زوجته وهو يقدح زناد فكره لكى يتبين السبب الذى دفع الكولونيل إلى تقديم استقالته فى الوقت الذى كانت كل الأمور تسير فيه على ما يرام .

سألت بيكى : " إذن ما الذى يجب أن أفعله ؟ " .

بدأ تشارلى : " ما ترينه الأفضل لك " .

" أنت لم تكن تصغى إلى أى كلمة من كلامى منذ أن غادرنا المنزل يا تشارلى ترامبر . مع أنه لم يمضِ على زواجنا سوى أقل من عامين " .

وأضافت : " ليس بعد " .

" ولم لا ؟ " .

" أشعر أن السيد هادلو لن يتمكن من توفير القرض اللازم " .

فتح الخادم الباب لهما حتى قبل أن يصلا إلى الدرج العلوى ، وقال تشارلى : " لا أمانع فى امتلاك خادم كهذا أيضا " .

قالت بيكى : " تأدب " .

قال تشارلى : " بالطبع . يجب أن أعرف حدودى " .

سار بهما الخادم إلى أن وصل إلى غرفة الاستقبال حيث وجدا دافنى تحتسى كأسًا من الشراب .

قالت دافنى : " أعزائى " . أسرعت بيكى وفتحت ذراعيها عن آخرهما واحتضنت كل منهما الأخرى .

قالت بيكى : " لِمَ لم تخبرينى ؟ " .

" أردت أن أتكتم الأمر " ، قالت دافنى ذلك وهى تربت على بطنها .

" ومع ذلك تبدين متقدمة علىّ كدأبك دائما " .

قالت بيكى : " ليس كثيرا . إذن ما هو موعد الولادة المرتقب ؟ "

" يتوقع الدكتور جولد أن يكون فى وقت ما من شهر يناير . سوف أطلق على المولود اسم كلارنس إن كان ذكرا وكلاريسا إن كانت أنثى " .

ضحك ضيفاها .

" هل تجرؤان على الاعتراض . إنها أسماء أجداد بيرسى الوجهاء " .

قال بيرسى : " أقسم أنه صحيح بالرغم من أننى لا أعرف أدنى فكرة عن إنجازاتهما " .

قال تشارلى وهو يصافح بيرسى : " مرحبًا بكما فى أرض الوطن " .

قال بيرسى الذى صافح بدوره بيكى : " شكراً لك يا تشارلى . لا يمكن أن أصف لكما سعادتى برؤيتكما ثانية " ، وقدم له أحد الخدم الشراب وقال بيرسى : " والآن يا بيكى أخبرينى بكل ما حدث ؛ بمنتهى التفصيل " .

جلس الاثنان فوق الأريكة بينما انضمت دافنى إلى تشارلى الذى كان يجوب أنحاء الغرفة بتؤدة لتفحص كل اللوحات الكبيرة التى كانت تغطى الجدران .

قالت دافنى : " إنهم أجداد بيرسى . لقد تم رسمها على يد فنانين من الصف الثانى . أنا على استعداد للتضحية بها جميعًا مقابل اللوحة التى تعلقها فى غرفة الاستقبال لديك " .

" كلا لا أستطيع الاستغناء عنها " قال تشارلى ذلك وهو يقف أمام صورة ماركيزة ويلتشاير الثانية .

قالت دافنى : " أجل إنها الهولباين أنت محق ولكننى أخشى أن الأمور قد بدأت تتدهور منذ ذلك الحين " .

قال تشارلى بابتسامة : " لا أعرف ألبتة يا سيدتى فإن أجدادى كما تعلمين لا يعلمون شيئا عن اللوحات المرسومة كما أن هولباين لا يمكن أن تكون قد أثارت اهتمام باعة الخضراوات المتجولين فى الطرف الشرقى " .

ضحكت دافنى وقالت : " هذا يذكرنى يا تشارلى بما أصاب لهجتك الشعبية " .

" ما الذين تريدينه أيتها الماركيزة ، رطل من الطماطم أم نصف رطل من الجريب فروت أم قضاء ليلة صاخبة ؟ " .

" أجل هكذا تكون اللهجة الشعبية . يجب ألا ننسى فصولنا الليلية " .

قال تشارلى وهو ينظر فى اتجاه زوجته التى كانت تجلس فوق الأريكة : " صه إن بيكى لا تعرف شيئا ولن أعترف لها قبل أن ــ " .

قالت دافنى : " أتفهم ذلك وأعدك أنها لن تسمع كلمة واحدة منى . إننى حتى لم أخبر بيرسى بشىء . " ثم استرقت النظر إلى بيكى التى كانت مازالت منخرطة فى حديثها مع زوجها وقالت : " بالمناسبة ، كم بقى لك لكى ــــــ ؟ " .

" عشر سنوات على ما أظن " ، قال تشارلى ذلك وكأنه يقدم إجابة سابقة الإعداد .

قالت دافنى : " كنت أظن أن هذه الأشياء تستغرق فى العادة تسعة أشهر فقط ما لم تكن بالطبع فيلاً " .

ابتسم تشارلى بعد أن أدرك خطأه وقال : " أعتقد أنه قد بقى شهران . سوف أطلق على الطفل اسم تومى إن كان ذكرا وديبى إن كانت فتاة . أيًا كان ما سوف تضعه بيكى ؛ لنأمل أن يكون الشريك المناسب لكلارنس أو كلاريسا " .

قالت دافنى : " فكرة لطيفة ولكن الطريقة التى أصبح العالم يسير بها الآن قد اختلفت ؛ لذا فإننى لن أندهش إن انتهى المآل بابنى أن يعمل مساعد مبيعات لديكم " .

بالرغم من أسئلة دافنى المتواصلة لـ " تشارلى " لم يستطع أن يرفع عينه من على صورة الهولباين . ثم أغرته دافنى أخيرًا عندما قالت : " تعال يا تشارلى ؛ دعنا نتناول بعض الطعام . أصبحت شهيتى مفتوحة طوال الوقت هذه الأيام " .

وقف بيرسى وبيكى وسارا خلف دافنى وتشارلى نحو غرفة المائدة .

قادت دافنى ضيوفها عبر ممر طويل إلى أن وصلوا إلى غرفة أخرى متساوية فى الحجم والأبعاد تماما مع الغرفة التى كانوا

يجلسون فيها . كانت لوحات الكنفا الكبيرة لـ " رينولدز " تتدلى من كل أنحاء الغرفة .

" ولكن فى هذه المرة ، فقط الصورة القبيحة هى التى تربطنا بها صلة قرابة " ، هكذا قال بيرسى وهو يجلس فوق مقعده عند إحدى نهايات المائدة مشيرا إلى وجه رمادى طويل لسيدة كانت صورتها معلقة على الجدار من خلفه وأضاف : " كانت ستجد صعوبة بالغة فى الانتماء إلى ويلتشاير ما لم تكن قد قدمت مهرا قيما " .

جلس الجميع فى مقاعدهم حول المائدة التى كانت معدة لأربعة أشخاص مع أنها كانت تكفى لثمانية وشرعوا فى تناول العشاء الذى كان معدا من أربعة أطباق كانت تكفى لإطعام ستة عشر . كان هناك خادم يقف خلف كل كرسى لضمان تلبية الاحتياجات الكاملة لكل شخص . همس تشارلى لزوجته عبر المائدة : " كل بيت لائق يجب أن يكون لديه خدم كهؤلاء " .

غطى الحوار الدائر بين الأشخاص الأربعة على المائدة كل ما جرى خلال العام السابق . ومع حلول وقت تقديم فنجان القهوة الثانى ، تركت دافنى وبيكى الرجلين لتناول السيجار وشعر تشارلى وكأن عائلة ويلتشاير كانت موجودة بالمنزل دائما ولم تغادر مطلقاً .

قال بيرسى : " سعيد بانصراف الفتاتين لأن هناك شيئا مثيرا للضيق يجب أن أصارحك به " .

سعل تشارلى وهو ينفث دخان سيجارته الأولى وهو يسأله نفسه ما الذى يدفع الشخص إلى اجتياز كل هذه المعاناة يوميا .

استطرد بيرسى حديثه : " عندما سافرت أنا ودافنى إلى الهند قابلنا المدعى ترينثام " . سعل تشارلى بسبب مرور الدخان فى طريق خاطئ وبدأ يولى المزيد من الاهتمام للحديث الذى دار بين ترينثام

وبيرسى . قال بيرسى : " إنه يهدد بالنيل منك ؛ وهو ما شعرت أنه مجرد تهديد أجوف ولكن دافنى تشعر أن الأفضل هو أن تكون على دراية تامة بكل ما يجرى " .

" ولكن ما الذى يمكننى عمله حيال ذلك ؟ " ، قال تشارلى ذلك وهو ينفض رماد سيجارته فى صحن فضى وضع أمامه فى الوقت المناسب تماما .

قال بيرسى : " ليس الكثير على ما أرى ولكن الحذر فى حد ذاته سوف يكون مجديا . إنه على وشك العودة إلى انجلترا ؛ من المتوقع أن يرجع فى أى وقت . كما أن والدته أصبحت تخبر الجميع بأن جاى قد تلقى عرضا لا يقاوم فى المدينة مما دفعه إلى تقديم استقالته فى الجيش . لا أظن أن هناك من يصدقها كما أعتقد أن أحسن الناس عقلاً يرون أن المدينة هى أكثر الأماكن مناسبة لأمثال ترينثام " .

" هل تظن أننى يجب أن أخبر بيكى ؟ " .

قال بيرسى : " كلا ؛ لا أظن ذلك ؛ بل إننى لم أخبر دافنى أبدا بشأن مقابلتى الثانية مع ترينثام فى نادى أوفرسيز ؛ فلا تزعج بيكى بهذه التفاصيل . لقد أيقنت مما سمعته منها اليوم أن لديها من المشاغل ما يكفيها " .

قال تشارلى : " ناهيك عن كونها قد أوشكت على الوضع " .

قال بيرسى : " تماما . إذن دعنا نقف عند هذا الحد . والآن ما رأيك بأن ننضم إلى السيدتين ؟ " .

أثناء تناول الشراب فى غرفة أخرى زاخرة هى الأخرى بلوحات الأجداد بما فيها صور الأمير تشارلى الصغير ، أخذت بيكى تنصت إلى دافنى وهى تصف لها الأمريكيين الذين كانت تكن لهم كل

العشق والتى شعرت أن الإنجليز يجب أن يتمسكوا بهم ، والأفارقة الذين كانت ترى أنهم مثيرون للغبطة ، والهنود الذين أدركت أنهم يتوقون إلى التحرر كما كان يردد الرجل الصغير الذى كان لا يكف عن الحضور إلى مقر الحكومة فى الزى الشعبى .

سأل تشارلى وهو ينفث دخان السيجارة بمزيد من الثقة : " هل تقصدين بكلامك هذا غاندى ؟ أرى أنه رجل جدير بالاحترام " .

فى طريق العودة إلى شارع جيلستون ، أخذت بيكى تقص على تشارلى فى سعادة الحوار الذى دار بينها وبين دافنى . وقد أدرك تشارلى من خلال حديثها أن السيدتين لم تثيرا موضوع ترينثام أو التهديد الذى يلوح به .

قضى تشارلى ليلة مؤرقة ؛ وكان ذلك يرجع جزئيا إلى إفراطه فى تناول الطعام الدسم ولكنه كان يرجع بشكل أساسى إلى أن عقله ظل يتأرجح بين المبرر غير المفهوم الذى دفع الكولونيل لتقديم استقالته ومشكلة مجابهة عودة ترينثام الفجائية لإنجلترا .

فى الرابعة صباحا ، نهض تشارلى وارتدى ملابسه القديمة قبل أن يتوجه إلى السوق ؛ وهو ما كان يحرص على عمله مرة واحدة على الأقل أسبوعيا بدافع الاقتناع بأنه ليس هناك شخص يمكن أن يؤدى هذه المهمة بنفس درجة كفاءته ، إلى أن عثر أخيرا على تاجر فى السوق يدعى نيد دينينج نجح فى أن يبيع له صندوقين من الأفوكادو الناضج متبوعين بصندوق من البرتقال لم يكن تشارلى يرغب بالمرة فى شرائه فى اليوم التالى . قرر تشارلى أن ينهض فى وقت مبكر للغاية فى اليوم الثالث لكى يقنع الرجل على ترك عمله لكى يعمل لديه .

وفى يوم الاثنين التالى انضم نيد دينينج إلى العمل كمدير عام أول لمتجر البقالة .

أبلى تشارلى فى صباح ذلك اليوم بلاء حسنا فى تخزين كل مستلزمات المتجرين ١٣١ و١٤٧ ووصل بوب ماكينز فى ساعة متأخرة لكى يقوده هو ونيد إلى حدائق تشيلسيا فى سيارته الجديدة .

وبمجرد أن وصلوا إلى متجر الخضراوات والفاكهة ؛ ساعد تشارلى فى إنزال البضائع قبل أن يعود لتناول الإفطار فى المنزل بعد السابعة بدقائق . كان يرى أن الوقت مازال مبكرا للاتصال هاتفيا بالكولونيل .

قدم له الطاهى البيض واللحم على الإفطار وقام بتناوله مع دانيال ومربيته . لم تكن بيكى موجودة حيث كانت لا تزال نائمة إثر الليلة السابقة .

قضى تشارلى معظم وقت الإفطار وهو سعيد بالرد على أسئلة دانيال المتواصلة غير المترابطة إلى أن نهرته المربية واقتادته رغم اعتراضه إلى غرفة اللعب فى الطابق العلوى . فتح تشارلى غطاء ساعته المعلقة لكى يعرف الوقت . بالرغم من أن الساعة كانت مازالت قبل الثامنة بدقائق ، فقد شعر أنه لم يعد بوسعه أن ينتظر لوقت أطول فسار إلى أن وصل إلى البهو ورفع سماعة الهاتف وطلب من عامل الهاتف أن يتصل له بـ " فلاكسمان " فى ١٧٢ . وبعدها بدقائق جاءته المكالمة .

" هل يمكننى أن أحادث الكولونيل ؟ " .

" سوف أخبره أنك تود التحدث معه يا سيد تشارلى . " ، هكذا جاءه الرد من الطرف المقابل . وسعد تشارلى بأنه لن يكون قادرا بعد اليوم عن إخفاء شخصه عند الاتصال هاتفيا .

جاءه الصوت الذى كان يعرفه جيدا على الطرف الآخر قائلاً : " صباح الخير يا تشارلى " .

سأل تشارلى : " هل يمكننى أن أحضر للقائك اليوم يا سيدى ؟ " .

قال الكولونيل : " بالطبع ولكن هل يمكن أن نرجئ الموعد حتى العاشرة يا عزيزى ؟ لأن إليزابيث وقتها سوف تكون قد خرجت لزيارة أختها فى كامدن هيل " .

قال تشارلى : " سوف أصل فى تمام العاشرة " . وبعد أن أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها ؛ قرر أن يشغل الساعتين الباقيتين فى القيام بجولة كاملة على المحلات . للمرة الثانية خلال هذا الصباح وقبل أن تستيقظ بيكى ؛ غادر تشارلى إلى تشيلسيا .

صحب تشارلى العقيد آرنولد من متجر الخردوات قبل أن يبدأ جولته إلى المتاجر التسعة . مر أثناء سيره على المبنى الذى كان يحتوى على الشقق وبدأ يشرح لنائبه كل تفاصيل خطته لاستبدال المبنى بستة محلات جديدة .

بعدما اجتازوا العقار ١٢٩ ؛ باح تشارلى لـ " آرنولد " بمخاوفه من متجر المشروبات والذى كان مازال مقتنعا بأنه لم يصل بعد إلى الحد الآمن . بالرغم من أنهم كانوا قد بدأوا يستفيدون بالفعل من خدمة التوصيل للمنازل التى كانت حتى ذلك الوقت مقتصرة على متجر الخضراوات والفاكهة .

كان تشارلى فخورا بأنه من بين أوائل من أدخلوا خدمة التوصيل فى لندن عن طريق الهاتف فى نفس اليوم للزبائن . كانت هذه هى إحدى الأفكار الأخرى التى كان قد سرقها من الأمريكيين ، وكان كلما سمع عما يجرى فى نفس دائرة مجال عمله فى أمريكا زادت رغبته فى زيارة هذا البلد ليرى بنفسه ما يجرى هناك .

ومازال تشارلى يتذكر أول خدمة توصيل قام بها عندما استخدم عربة جده النقالة للتوصيل بينما بقيت كيتى لتلقى الطلبات . أما الآن فقد أصبح يعمل بواسطة سيارة أنيقة مدون عليها من كلا الجانبين باللونين الأزرق والذهبى الأنيقين اسم " ترامبر ؛ التاجر الأمين ؛ تأسس عام ١٨٢٣ " .

توقف عند أحد أركان شارع تشيلسيا وأخذ يحدق فى المحل الذى سيبقى دائما محط أنظار تشيلسيا بنافذة عرضه الضخمة وبوابته الفارهة . كان يعلم أن الوقت قد أوشك لكى يدخل على السيد فوثرجيل بشيك قيم يغطى كل ديونه . وقد أكد موظف سابق لدى السيد فوثرجيل لـ " تشارلى " أن نسبة سحبه على المكشوف فى البنك وصلت إلى ما يزيد على ألفى جنيه .

سار تشارلى نحو العقار رقم ١ لكى يسدد ثمن فاتورة تقل قيمتها كثيرا عن المبلغ السابق وسأل الفتاة الجالسة خلف النضد إن كانت قد أعادت تأطير لوحته التى كان قد انقضى على موعد تسلمها الأصلى ثلاثة أسابيع .

لم يشك من التأخير لأن هذا كان يمنحه فرصة لأن يحوم حول المحل . كان الورق مازال مقشرا فوق الجدار فى منطقة الاستقبال ولم تكن هناك سوى فتاة استقبال واحدة قد بقيت هناك خلف

المكتب مما أكد لـ " تشارلى " أن الأجور الأسبوعية لا تسدد بشكل دائم .

ظهر السيد فوثرجيل أخيرا حاملا اللوحة فى إطارها الجديد وأعطاها لـ " تشارلى " .

" شكرا لك " ، قال تشارلى ذلك وهو يتأمل ثانية اللونين الأحمر والأزرق داخل اللوحة وقد أدرك وقتها كم افتقد اللوحة .

" كم تبلغ قيمة هذه اللوحة ؟ " ، هكذا سأل فوثرجيل بشكل عابر وهو يمد يده بالعشرة شلنات .

قال الخبير وهو يضبط رابطة عنقه : " بضعة جنيهات على الأكثر ، يمكنك أن تجد نسخاً لا حصر لها من نفس اللوحة لفنانين مجهولين فى كل أنحاء أوروبا " .

" أشك فى ذلك " ، هكذا قال تشارلى وهو ينظر إلى ساعته ويضع الفاتورة فى جيبه . كان قد بقى أمامه وقت كاف لكى يسير فى تؤدة واسترخاء عبر حدائق برينسيس إلى منزل الكولونيل حيث سيصل قبل موعده المحدد ببضع دقائق فقط . ألقى تحية الصباح مودعا السيد فوثرجيل وغادر المحل .

بالرغم من أن الوقت كان مازال مبكرا ، فإن الأرصفة فى تشيلسيا كانت تعج بالمارة حتى إن تشارلى رفع قبعته محييا العديد منهم .

" صباح الخير يا سيد ترامبر " .

" صباح الخير يا سيدة سيموندز " ، قال تشارلى ذلك وهو يعبر الطريق لكى يسلك طريقا مختصرا عبر الحدائق .

بدأ يعد فى عقله ما سيقوله للكولونيل بمجرد أن يكتشف السبب الذى دفعه إلى تقديم استقالته . مهما كان السبب ؛ كان

تشارلى مصرا على الاحتفاظ بهذا الضابط المحنك . أغلق بوابة المنتزه خلفه وبدأ يسير فى طريق المشاة .

وقف فى جانب الطريق لكى يسمح لسيدة تدفع عربة أطفال بالمرور قبله ثم ألقى تحية عسكرية مازحة على أحد الضباط القدامى الذى كان يجلس فوق أريكة الحديقة يعبث بقطعة من العشب . وبمجرد أن تخطى منطقة الحشائش الصغيرة وصل إلى شارع جيلستون وأغلق البوابة وراءه .

واصل تشارلى سيره نحو شارع تريجنتر وبدأ يسرع الخطى . ابتسم وهو يمر أمام منزله الصغير ناسيا تماما أنه مازال يحمل الصورة تحت ذراعه بينما كان عقله مازال مشغولا بالسبب الذى دفع الكولونيل إلى تقديم استقالته .

استدار تشارلى فى الحال عندما سمع صوت الصراخ وصفعة باب من مكان ما وراءه كرد فعل أكثر منها رغبة حقيقية فى معرفة ما يجرى .تسمر فى مكانه عندما شاهد وجهًا أشعث يهرع إلى الطريق ويشرع فى العدو نحوه .

وقف تشارلى مشدوها بينما أخذ الشخص الشريد يقترب منه شيئا فشيئا إلى أن توقف فجأة على بعد أقدام قليلة منه . على مدى ثوان ؛ بقى الرجلان واقفين يحدق كل منهما فى الآخر بدون أن ينطق أى منهما بكلمة . ارتسم على وجه كل من الشريد والرجل المهذب علامات الحيرة والارتباك . ثم سرعان ما تعرف كل منهما على الآخر مما أعقبه على الفور شعور بعدم التصديق .

لم يصدق تشارلى أن الرجل الأشعث النحيف الذى كان يقف أمامه مرتديًا معطفًا عسكريًا قديمًا وقبعة مهملة فوق رأسه هو نفس

الرجل الذى شاهده فى محطة إيدنبرج منذ ما يقرب من خمس سنوات مضت .

كانت الذكرى التى قفزت بوضوح فى رأس تشارلى فى هذه اللحظة تحديدا هى الثلاث دوائر النظيفة على كتفى معطف ترينشام الأنيق والتى لابد أنها قد نزعت منه مؤخرا .

نكس ترينشام عينه وهو يحدق فى اللوحة لثانية وفجأة وبدون سابق إنذار انقض على تشارلى مباغتا إياه واقتنص اللوحة من قبضته . استدار وبدأ يعدو فى الشارع فى الاتجاه الذى جاء منه . بدأ تشارلى على الفور يركض لملاحقته وسرعان ما كاد يقبض عليه نظرا لثقل معطفه الكبير وتشبثه باللوحة فى وقت واحد .

كان تشارلى على بعد ياردة واحدة من الطريد وعلى وشك الانقضاض على وسطه عندما سمع صيحة أخرى . تردد للحظة عندما أدرك أن الصيحة منبعثة من منزله . وأدرك وقتها أنه لم يعد أمامه خيار إلى أن يسمح لـ " ترينشام " أن يفلت باللوحة وهو يغير اتجاهه ويسرع خطاه فوق درج العقار رقم ١٧ . هرع إلى غرفة الاستقبال فإذا بالطاهى والمربية يقفان بجوار بيكى التى كانت ملقاة على الأريكة تصيح من شدة الألم .

لمعت عينا بيكى عندما رأت تشارلى وقالت : " أنا على وشك الوضع " ، وكان هذا هو كل ما قالته .

قال تشارلى : " ارفعها بتؤدة ، أيها الطاهى ، وساعدنى فى وضعها داخل السيارة " .

حملوا بيكى خارج المنزل وساروا بها فى الطريق بينما سبقتهم المربية لكى تفتح لهم باب السيارة حتى يضعوها فى المقعد الخلفى .

أخذ تشارلى يحدق فى زوجته ؛ كان وجهها قد شحب تماما وعيناها قد تجمدتا . بدت فاقدة للوعى وهو يغلق باب السيارة .

قفز تشارلى فى المقعد الأمامى من السيارة وصاح فى الطاهى الذى كان قد أدار المحرك بالفعل .

" اتصل بأختى فى مستشفى جاى وأخبرها بأننا فى الطريق لكى تستعد لحالة طوارئ " .

دار محرك السيارة وقفز الطاهى على أحد الجوانب بينما قاد تشارلى السيارة فى منتصف الطريق وهو يحاول أن يسير بسرعة ثابتة مع تجنب كل المشاة والدراجات وعربات الترام والجياد والسيارات الأخرى وهو يتنقل بين سرعات السيارة المختلفة صوب الجنوب جهة التامز .

كان يدير رأسه كل بضع ثوان لكى يلقى نظرة على زوجته وهو غير واثق من أن زوجته باقية على قيد الحياة . قالها بأعلى صوته : " أتمنى أن يعيش كلاهما " . واصل رحلته إلى إمبانكمنت بأقصى سرعة ممكنة وهو يصدر نفير السيارة ويصيح من آن إلى آخر فى المشاة ممن كانوا يعبرون الطريق غير مدركين للمأزق الذى كان فيه . بينما كان يقود سيارته فوق جسر ساوث راك ؛ سمع بيكى تنوح للمرة الأولى .

قال مؤكدًا : " شارفنا على الوصول يا عزيزتى ، فقط تماسكى قليلا " .

وبمجرد أن عبر الجسر استدار جهة أول يسار وحافظ على سرعته إلى أن أصبحت البوابات الحديدية الضخمة لمستشفى جاى على مرمى بصره . بينما قاد السيارة فى فناء المستشفى حول حوض الزهور فى المنتصف ؛ وقع بصره على جريس ورجلين فى معاطف

بيضاء طويلة ونقالة بجوارهما . أوقف تشارلى السيارة بجوارهما تماما حتى كاد يدهس أصابع أقدامهما .

رفع الرجلان بيكى برفق ووضعاها فوق النقالة قبل أن يهرعا بها إلى أعلى داخل المستشفى . قفز تشارلى من السيارة وسار خلف النقالة وهو يمسك بيد بيكى وهم يصعدون الدرج . ركضت جريس بجواره وهى تشرح له أن السيد آرميتاج ، كبير إخصائى النساء والتوليد فى المستشفى سوف يكون فى انتظارها فى غرفة الجراحة فى الطابق الأول .

وعندما وصل تشارلى إلى الطابق الأول كانت بيكى قد دخلت بالفعل غرفة العمليات . تركوه وحيدا فى الرواق . بدأ يسير ذهابا وإيابا تائهًا عن كل من يمر بجواره .

خرجت جريس بعد دقائق قليلة لكى تطمئنه أن كل الأمور تحت السيطرة وأن بيكى فى أيد أمينة . كان من المتوقع وصول الطفل فى أى لحظة . ضغطت على يد أخيها ثم اختفت ثانية داخل غرفة العمليات . واصل تشارلى سيره وقد ركز كل تفكيره فى زوجته وأول طفل لهما ، فجأة أصبحت صورة ترينشام مشوشة فى عقله . أخذ يدعو الله أن تنجب ولدا لكى يكون أخا لـ " دانيال " وربما يحل محله يوما فى منشأة ترامبر . أخذ يدعو الله أيضا ألا تتعرض بيكى للكثير من المعاناة والألم أثناء الوضع . أخذ يسير ذهابًا وإيابا بطول الرواق الأخضر وهو يحادث نفسه وقد اعتراه ثانية الشعور بكم الحب الذى يكنه لزوجته .

مضت نصف ساعة أخرى قبل أن يظهر رجل طويل نحيف خلفه تتبعه جريس ، استدار تشارلى لمواجهتما ولكن الجراح كان يضع كمامة على وجهه فلم يتبين ما حدث فى غرفة العمليات .

خلع السيد آرميتاج الكمامة وجاء التعبير على وجهه يعكس استجابة دعاء تشارلى الصامت .

قال الطبيب : " لقد نجحت فى إنقاذ حياة زوجتك . ولكن مع الأسف يا سيد ترامبر لم أنجح فى إنقاذ ابنتك التى لم تكن قد أكملت نموها بعد " .

الفصل

٢١

على مدى عدة أيام بعد الجراحة ؛ بقيت بيكى ملازمة لغرفتها فى المستشفى .

عرف تشارلى فى وقت لاحق من جريس أنه بالرغم من أن السيد آرميتاج كان قد أنقذ حياة زوجته فإنها سوف تكون بحاجة إلى أسابيع قبل أن تستعيد صحتها كاملة وخاصة بعد أن عرفت أنها لن تتمكن من الإنجاب ثانية إلا إن جازفت بحياتها .

كان تشارلى يزورها كل صباح ومساء ولكنها لم تتمكن قبل أسبوعين من إخبار تشارلى بأن جاى ترينثام قد اقتحم عليها المنزل ثم هددها بالقتل إن لم تخبره بمكان الصورة .

قال تشارلى : " لماذا ؟ إننى لا أفهم السبب " .

" هل عثروا على الصورة فى أى مكان ؟ " .

" لم يجدوا لها أثرا " ، قال تشارلى ذلك فى الوقت الذى دخلت فيه دافنى الغرفة حاملة سلة من المستلزمات . قبلت بيكى

على خدها قبل أن تؤكد لهما أنها قد اشترت الفاكهة من متجر ترامبر فى صباح نفس اليوم . تمكنت بيكى بالكاد من رسم ابتسامة على وجهها وهى تقضم الخوخ . جلست دافنى على حافة السرير وأخبرت بيكى بآخر الأنباء .

وقد أخبرتهم دافنى بعد إحدى زياراتها الدورية لعائلة ترينثام أن جاى كان قد اختفى وسافر إلى أستراليا وأن والدته تدعى أنه لم يطأ بقدمه إنجلترا فى المقام الأول وإنما سافر من الهند إلى سيدنى مباشرة .

قال تشارلى : " عبر شارع جيلستون " .

قالت دافنى : " ولكن الشرطة لا تصدق هذه الرواية . إنهم مقتنعون أنه غادر إنجلترا عام ١٩٢٠ ولم يعثروا على دليل واحد يثبت عودته منذ ذلك الحين " .

قال تشارلى وهو يمسك يد زوجته : " حسنا ونحن بالطبع لن نكشف لهم عن هذا الدليل " .

سألت دافنى : " ولم لا ؟ " .

" لأننى أعتقد أن أستراليا بعيدة بما يكفى لتكون منفى له . على أية حال نحن لن نجنى شيئا من وراء ملاحقته . بل إن الأستراليين إذا منحوه كمية كافية من الحبال فإننى واثق من أنه سوف يشنق نفسه " .

سألت بيكى : " ولكن لماذا أستراليا ؟ " .

" إن السيدة ترينثام تخبر الجميع بأن جاى قد تلقى عرضا لا يمكن رفضه لدى تاجر ماشية ؛ عرضا مغريا حتى عن البقاء فى الجيش . يبدو أن مسئول دار العبادة هو الرجل الوحيد الذى صدق

هذه الرواية " . ولكن حتى دافنى لم يكن لديها أية إجابة منطقية للسبب الذى دفع ترينشام إلى سرقة اللوحة الزيتية الصغيرة .

زار الكولونيل وزوجته أيضا بيكى فى عدة مناسبات وبما أنه لم يكن له حديث إلا عن مستقبل الشركة ولم ينوه مرة واحدة إلى خطاب الاستقالة الذى قدمه لـ " تشارلى " ؛ فقد أحجم تشارلى عن إثارة الأمر معه .

وكان كرواثر هو الذى كشف لـ " تشارلى " فى النهاية النقاب عن الشخص الذى اشترى الشقق .

وبعد ستة أسابيع ؛ قاد تشارلى زوجته عائدا إلى منزلهما فى شارع جيلستون - بسرعة أكثر هدوءا . كان الدكتور آرميتاج قد نصحها بالراحة لمدة شهر كامل قبل أن تعود إلى عملها . وقد وعد تشارلى الطبيب أنه لن يسمح لها بعمل أى شىء إلى أن يتأكد من شفائها التام .

فى الصباح الذى عادت فيه بيكى إلى المنزل ؛ تركها تشارلى تستريح فى فراشها وتقرأ كتابا وعاد ثانية إلى شارع تشيلسيا حيث توجه إلى محل المجوهرات مباشرة الذى كان قد اشتراه فى غياب زوجته .

قضى تشارلى وقتا طويلا فى انتقاء عقد من اللؤلؤ الحر وسوار ذهبى وساعة نسائية من الطراز الفيكتورى ثم أمر بإرسالها إلى جريس والممرضة وكبيرة الممرضات التى اعتنت ببيكى أثناء فترة مرضها فى مستشفى جاى . توقف تشارلى بعدها عند متجر الخضراوات والفاكهة حيث طلب من بوب أن يعد سلة من أفضل أنواع الفاكهة ثم انتقى بنفسه زجاجة شراب غالية من المتجر رقم

١٠١ وأودعها بالسلة وقال : " أرسل السلة إلى السيد آرميتاج فى العقار ٧ من ميدان كادوجان ، لندن إس دبليو ١ " ؛ مع تحياتى " .

قال بوب : " أمرك . هل هناك شىء آخر تود أن أقوم به ؟ " .

" نعم ؛ أريدك أن ترسل هذه السلة يوم الاثنين من كل أسبوع لباقى حياته " .

بعدها بشهر تقريبا ؛ فى شهر نوفمبر عام ١٩٢٢ ؛ علم تشارلى بالمشكلة التى كان يواجهها آرنولد فى اختيار مساعد للعمل فى المحل . كان انتقاء طاقم عمل قد أصبح من بين أكبر المشاكل التى يواجهها آرنولد حيث كان يتقدم لكل وظيفة شاغرة ما يتراوح بين خمسين إلى مائة شخص . وكان على آرنولد أن يعد قائمة مختصرة بالأشخاص ذوى أفضل المؤهلات لكى يطلع عليها تشارلى الذى كان يصر على مقابلة المرشحين النهائيين بنفسه قبل تأكيد تعيينهم لديه .

فى صباح ذلك اليوم تحديدا ؛ كان آرنولد قد انتقى بعض الفتيات لشغل وظيفة مساعد مبيعات فى محل الورود إثر تقاعد بعض الموظفين ممن كانوا يعملون بالشركة منذ فترة طويلة .

قال آرنولد : " بالرغم من أننى قد دونت ثلاثة أسماء من بين كل المتقدمات ، فإننى أرى أن هناك مترشحة من بين المستبعدات التى قد تود مقابلتها . لم تكن تحمل المؤهلات المناسبة لهذه الوظيفة ولكنها مع ذلك ـــــ " .

ألقى تشارلى نظرة على الورقة التى أعطاها له آرنولد . بدأ تشارلى حديثه قائلاً : " جوان مور ؛ وما السبب الذى يمكن

أن ـــ ؟ " ، بينما كانت عيناه تمران سريعا على محتوى طلب العمل الذى كان يحمله ثم قال : " أجل فهمت . أنت لماح يا توم " . وقرأ بعض السطور القليلة ، وأضاف : " ولكننى لست بحاجة إلى ـــ حسنا ؛ ولكن فى المقابل ربما أكون بحاجة إليها " . رفع رأسه وقال : " رتب لى لقاء مع الآنسة مور فى خلال الأسبوع المقبل " .

وفى يوم الخميس التالى ، استجوب تشارلى جوان مور على مدى أكثر من ساعة فى منزله فى شراع جيلستون وكان الانطباع الأول الذى كونه عنها هو أنها دمثة الخلق ؛ حسنة الطابع بالرغم من أنها لم تكن تتمتع بدرجة كافية من النضج . ولكنه مع ذلك قبل أن يعرض عليها وظيفة العمل كخادمة نسائية للسيدة ترامبر ؛ طرح عليها سؤالين كان يعتقد أنهما بحاجة إلى إجابة .

سأل تشارلى : " هل تقدمت لطلب وظيفة لدينا لأنك تعرفين بأمر العلاقة التى كانت تربط بين زوجتى ورئيستك السابقة ؟ " .

نظرت الفتاة فى عينيه مباشرة وقالت : " نعم يا سيدى " .

" وهل طردتك ؟ "

" ليس تماما يا سيدى ولكننى عندما تركت العمل لديها ؛ رفضت أن تمنحنى شهادة خبرة " .

" وما هو السبب الذى دفعها إلى ذلك ؟ " .

" لأننى كنت على علاقة بالخادم الثانى ولم أتمكن من إخبار الساقى المسئول عن شئون المنزل " .

" وهل مازلت على علاقة بالخادم الثانى ؟ " .

ترددت الفتاة : " نعم يا سيدى ، سوف نتزوج قريبا بمجرد أن ندخر المال الكافى " .

قال تشارلى : " جيد ، إذن يمكنك تسلم العمل لدينا بدءا من صباح الاثنين ؛ سوف يعتنى السيد آرنولد بكل التجهيزات اللازمة " .

عندما أخبر تشارلى بيكى أنه قد عين لها خادمة ؛ ضحكت فى البداية ثم سألته : " وما الذى ستقوم به من أجلى ؟ " ، فأخبرها تشارلى تحديدا بما سوف تقوم به . وبعدما انتهى من حديثه ما كان من بيكى إلا أن أجابته قائلة : " أنت بحق رجل شرير يا تشارلى ترامبر ؛ هذا أكيد " .

كان اجتماع مجلس الإدارة فى شهر فبراير من عام ١٩٢٤ هو التاريخ الذى أخبر فيه السيد كراوثر زملاءه أن العقار رقم ١ فى تشيلسيا سوف يطرح للبيع فى السوق فى موعد مبكر عما اتفق عليه .

سأل تشارلى فى شيء من التوجس : " ولماذا ذلك ؟ " .

" لأن العامين الذين قدرتهما أنت قبل أن يضطر فوثرجيل إلى هذا أصبحا دربا من الخيال " .

" إذن كم يريد ؟ " .

" الأمر ليس بهذه البساطة " .

" ولم لا ؟ " .

" لأنه قرر أن يعرض المتجر للبيع فى المزاد العلنى " .

قالت بيكى : " سوف يعرضه للبيع فى المزاد ؟ " .

قال كراوثر : " نعم ، ولذلك يتجنب دفع أية أتعاب لأى وكيل خارجى " .

سأل الكولونيل : " فهمت ، إذن كم سيصل ثمن المتجر من وجهة نظرك ؟ " .

أجاب كراوثر : " ليس سؤالا يسهل الرد عليه . إن مساحته تبلغ أربع مرات مساحة أى متجر آخر فى الحدائق ، كما أنه مؤلف من خمسة طوابق حتى إنه أكبر من حانة سيْد ريكسال نفسها فى الطرف المقابل . كما أنه يملك أكبر واجهة بين محلات تشيلسيا ومدخلاً مزدوجًا فى إحدى الزوايا يطل على شارع فولهام . ونظرا لكل هذه الأسباب ، فإنه لن يسهل علينا تقدير قيمة المحل " .

قال الرئيس : " ومع ذلك هل يمكنك أن تتنبأ بسعر معين ؟ " .

" إن كان لابد من الرد على السؤال فإننى أعتقد أن قيمته سوف تصل إلى ما يقرب من ألفى جنيه ولكنه قد يصل إلى ثلاثة آلاف إن أبدى أى طرف آخر رغبته فى الشراء " .

سألت بيكى : " وماذا عن البضاعة التى يحويها المحل ؟ ما هو مصيرها ؟ " .

" سوف تباع مع المبنى " .

سأل تشارلى : " وكم تساوى ؟ أعنى تقريبا " .

قال كراوثر : " أعتقد أن السيدة ترامبر هى الأجدر فى الرد على هذا السؤال " .

قالت بيكى : " لم يعد يملك الكثير من المقتنيات الثمينة . لقد انتقلت مقتنياته الأكثر قيمة بالفعل إلى سوثباى وأظن أن تشارلى قد رأى الكثير منها على مدى العام الماضى . ومع ذلك ، أعتقد أن قيمة ما بقى من مقتنيات يمكن أن يصل إلى ألف جنيه " .

قال هادلو : " أى أن قيمة المتجر والبضاعة تصل إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف جنيه " .

قال تشارلى : " ولكن المتجر رقم ١ سوف يباع بثمن أكثر من ذلك بكثير " .

سأل هادلو : " لماذا ؟ " .

" لأن السيدة ترينثام سوف تحضر المزاد " .

سأل الرئيس : " وكيف تأكدت من ذلك ؟ " .

" لأن خادمتنا النسائية مازالت تقابل الخادم الذى يعمل لدى عائلة ترينثام " .

ضحك باقى أعضاء المجلس وكان التعليق الوحيد هو الذى قاله الرئيس : " ليس ثانية . فى البداية كانت الشقق ؛ إلى أى حد سوف تصل الأمور ؟ " .

قال تشارلى : " ليس قبل أن تموت وتدفن على ما أظن " .

قالت بيكى : " ربما حتى لن يقف الأمر عند هذا الحد " .

قال الكولونيل : " إن كنت تقصدين بذلك الابن ، فلا أظن أنه يمكن أن يسبب لنا أذى من على بعد اثنى عشر ألف ميل . أما بالنسبة للأم فيعلم الله وحده إلى أين سوف يقودها غضبها ــــ " .

قال تشارلى : " هذا يذكرى بأبيات شعرية " .

سأل الرئيس : " وما هى هذه الأبيات ؟ " .

" إنها مقتبسة من الكونجريف أيها الكولونيل . إن الأبيات تقول بأن السماء تثور عندما يتحول الحب إلى كراهية ليس هناك غضب يفوق ثورة المرأة " . بقى الكولونيل فى حالة ذهول واستطرد تشارلى : " ومع ذلك فإن كل ما أريد معرفته لكى أكون أكثر تحديدا هو : ما السعر الذى سوف يسمح لى المجلس بأن أقتنى العقار مقابله ؟ " .

قالت بيكى : " أعتقد أن خمسة آلاف جنيه سوف تكون كافية نظرا للظروف " .

قال هادلو وهو يدرس الأوراق الموضوعة أمامه : " ولكن ليس أكثر من ذلك " .

قالت بيكى : " يجب أن نزايد على السعر الأعلى " .

قال هادلو : " لا أظن أننى فهمت ما تقصدين ؟ ما الذى تعنين بالمزايدة على السعر الأعلى ؟ " .

" إن المزايدة لا تسير أبدا فى اتجاه السعر المتوقع لها يا سيد هادلو . إن معظم الأشخاص الذين يحضرون المزادات يضعون فى تصورهم رقما محددا يقودهم لا محالة إلى سعر محدد ؛ فإن رفعت أنت السعر على ذلك فهذا يعنى أنك على الأرجح سوف تكسب المزاد " .

حتى تشارلى أومأ بالموافقة بينما أضاف السيد هادلو فى إعجاب : " إذن أوافقك على رأيك " .

قال الرئيس : " هل لى أيضا أن أقترح أن تتولى السيدة ترامبر المزايدة لأن خبرتها سوف تسمح لنا بـ ـــــ " .

قالت بيكى بابتسامة : " هذا لطف منك أيها الكولونيل ولكننى مع ذلك سوف أكون بحاجة إلى مساعدة زوجى بل والمجلس بأسره ؛ لقد وضعت بالفعل خطة مسبقة " ، ثم شرحت الخطة لزملائها .

قال الرئيس بعدما انتهت من حديثها : " يا له من أمر ممتع ولكن هل سيسمح لنا بحضور الإجراءات ؟ " .

قالت بيكى : " أجل بالطبع ، يجب أن تكونوا جميعا حاضرين ، وباستثناء تشارلى وأنا سوف يلزم الجميع الصمت فى

الصف الذى يلى السيدة ترينشام مباشرة قبل بدء المزايدة بدقائق قليلة " .

" يالها من سيدة شريرة " قال الكولونيل ذلك قبل أن يبادر بالاعتذار .

" هذا صحيح ولكن الأهم من ذلك أننا يجب ألا ننسى أنها أيضا هاوية " .

سأل هادلو : " ماذا تقصدين بذلك ؟ " .

" أحيانا يجمح الهاوى بعيدا وعندها يدرك المحترف أنه لم يعد أمامه فرصة بسبب هذا الجموح غير المحسوب . يجب أن نضع فى اعتبارنا جميعاً أن هذا هو مزاد للسيدة ترينشام وبما أن رغبتها فى اقتناء المكان لا تقل عن رغبتنا فى اقتنائه فضلا عن أنها تتمتع بالتفوق المادى فعلينا أن نلجأ إلى الحيلة لكى نضمن الحصول على ما نريد " . لم يبد أى من الحضور اعتراضه على هذه العبارة .

بمجرد انتهاء الاجتماع أخذت بيكى تشرح لـ " تشارلى " تفاصيل الخطة الموضوعة بمنتهى الدقة حتى إنها جعلته يذهب لحضور أحد المزايدات فى سوثباى فى صباح أحد الأيام لطرح ثلاث قطع من الفضة الألمانية . طبق تشارلى تعليمات زوجته ومع ذلك انتهى به المآل إلى اقتناء إناء لم يكن يريد شراءه فى المقام الأول .

قالت بيكى مؤكدة : " ليست هناك وسيلة أفضل من ذلك للتعلم . فقط احمد الله على أنك لم تكن تزايد على قطع خاصة بـ " ريمبراندت " " .

واصلت بيكى شرحها لـ " تشارلى " كل ما يخص المزايدات على العشاء فى تلك الليلة بدقة وتفصيل يزيد عن الشرح الذى طرحته أمام المجلس . أدركَ تشارلى أن هناك ثلاث إشارات مختلفة يمكنك

أن ترسلها إلى الخبير القائم بالمزاد بدون أن تكشف لمنافسيك عن كونك مستمرًا فى المنافسة وفى نفس الوقت تتعرف على كل منافسيك " .

" ولكن ألن تتعرف عليك السيدة ترينثام لا محالة ؟ " ، قال تشارلى ذلك بعدما قطع لزوجته شريحة خبز وأضاف : " لأنك سوف تكونين الشخص الوحيد المتبقى فى المزايدة " .

قالت بيكى : " كلا ؛ إن أفقدناها توزانها قبل ظهورى " .

" ولكن المجلس اتفق على أن ـــ " .

" يسمح لى بأن أزايد لأكثر من خمسة آلاف " .

" ولكن ـــ "

قالت بيكى وهى تقدم لزوجها قطعة أخرى من الفطير الأيرلندى : " ليس هناك ، لكن يا تشارلى فى صباح يوم المزاد أريدك هناك فى قاعة المزادات ؛ فى أبهى حلة لديك جالسا فى الصف السابع وأنت تبدو عليك علامات السعادة والرضا عن نفسك . سوف تبدأ المشاركة فى المزاد وتواصل المشاركة فى منتهى التباهى إلى ما يزيد على الثلاثة آلاف جنيه بنقطة واحدة . وعندما تواصل السيدة ترينثام رفع السعر ـ وهو ما سوف تفعله بكل تأكيد ـ يجب أن تقف وتنسل خارج القاعة وأنت تبدو عليك علامات الهزيمة بينما سوف أواصل أنا المزاد فى غيابك " .

قال تشارلى وهو يضع شوكته لالتقاط بعض حبات البازلاء : " ليس سيئا ، ولكن السيدة ترينثام سوف تعرف لا محالة ما تسعين لعمله " .

قالت بيكى : " كلا ليس أمامها أدنى فرصة لذلك ؛ لأننى سوف أتفق مع القائم بالمزاد على شفرة خاصة لن تنجح أبدًا فى التقاطها ناهيك عن حلها " .

" ولكن هل سأفهم أنا ما أنت بصدد عمله ؟ " .

قالت بيكى : " أجل بالطبع ؛ لأنك سوف تعرف تحديدا ما أنا بصدد عمله عندما أستخدم خدعة النظارة " .

" خدعة النظارة ؟ ولكنك لا ترتدين نظارة " .

" سوف أرتدى يوم المزاد نظارة وعندما أضعها على عينى فسوف تفهم أننى مازلت أزايد . أما إن خلعتها فهذا يعنى أننى قد توقفت عن المزايدة . وهذا يعنى أنك عندما تترك القاعة فإن كل ما سوف يراه القائم على المزايدة أننى أرتدى النظارة . سوف تظن السيدة ترينثام أنك قد غادرت وسوف تسعد ـ على ما أظن ـ بترك المزاد لشخص آخر طالما بقيت واثقة من أن هذا الشخص لا يمثلك أنت " .

قال تشارلى وهو ينهض من فوق مقعده لكى يحمل الأطباق : " أنت عبقرية يا سيدة ترامبر ، ولكن ماذا لو رأتك وأنت تتحدثين مع القائم بالمزاد أو الأسوأ تمكنت من معرفة الشفرة المتفق عليها قبل أن يطلق السيد فوثرجيل نداءه الأول فى المزاد ؟ " .

قالت بيكى : " لا تستطيع ، لأننى سوف أتفق على الشفرة مع السيد فوثرجيل قبل بدء المزاد بدقائق قليلة . وعلى أية حال ؛ سوف تدخل أنت فى نفس اللحظة محدثا جلبة لاجتذاب الأنظار ؛ وبعد جلوس باقى أعضاء المجلس خلف السيدة ترينثام مباشرة بثوان ؛ أى أنها سوف تنشغل على الأرجح بكل ما يجرى حولها ولن تلحظنى " .

قال تشارلى : " لقد تزوجت من سيدة بالغة الذكاء " .

" لم تكن تعترف بذكائى هذا عندما كنا فى مدرسة جوبيلى الابتدائية " .

فى صباح يوم المزاد ؛ اعترف تشارلى لبيكى على الإفطار أنه يشعر بتوتر شديد بالرغم من أن بيكى كانت تبدو فى قمة الهدوء وخاصة بعدما أخبرتها جوان أن الخادم الثانى لدى السيدة ترينثام قد أخبرها أنها لن تزيد على أربعة آلاف جنيه للمزايدة .

قال تشارلى : " إننى فقط أشك فى ...." .

قالت بيكى : " إن كانت قد تعمدت أن تنقل إليه هذه المعلومة ؟ ربما ؛ فهى أيضا تتمتع بمكر شديد . ولكن طالما بقينا متفقين على خطتنا فسوف ننجح فى إنجاز المهمة . كما يجب أن تتذكر أيضا أن لكل شخص حدوده المادية حتى السيدة ترينثام نفسها " .

كان الوقت المزمع لبدء المزاد هو الساعة العاشرة صباحا ؛ مضت عشرون دقيقة كاملة قبل بدء المزاد . دخلت السيدة ترينثام القاعة وسارت فى شموخ فى المشى إلى أن وصلت إلى مجلسها فى منتصف الصف الثالث ووضعت حقيبة يدها على أحد المقاعد ووضعت كتيبا على المقعد الآخر لكى تضمن عدم جلوس أحد بجانبها . دخل الكولونيل وزميلاه القاعة نصف المتلثة فى التاسعة وخمسين دقيقة وجلسوا كما تم الاتفاق عليه مسبقا على مقاعدهم خلف خصمتهم . لم تبد السيدة ترينثام أى اكتراث بوجودهم . وبعدها بخمس دقائق دخل تشارلى القاعة . سار فى وسط المشى ورفع قبعته محييا سيدة كان يعرفها وصافح أحد زبائنه الدائمين وأخيرا جلس فى مكانه فى

نهاية الصف السابع . واصل ثرثرته بصوت مرتفع مع الشخص الجالس بجواره عن جولة فريق إنجلترا للكريكيت فى استراليا شارحا له ثانية أنه لم يكن ينتمى إلى ضارب الكرة الاسترالى الشهير الذى كان يحمل اسمه . تحرك عقرب الدقائق فى الساعة العتيقة خلف المكان المخصص للقائم بالمزاد وسار ببطء إلى أن وصل إلى الموعد المحدد .

بالرغم من أن القاعة لم تكن تزيد فى مساحتها كثيرا عن قاعة دافنى فى ميدان إيتون ، فقد نجحوا فى وضع ما يزيد على مائة كرسى مختلفة الأشكال والأحجام بداخلها . كانت الجدران مغطاة بنسيج رمادى كان قد خبا لونه وكانت هناك آثار لكلابات يبدو أنها كانت تستخدم لتعليق الصور فى الماضى كما أن السجادة كانت فى حالة رثة إلى الحد الذى مكن تشارلى من رؤية الأرض تحتها . بدأ يعتريه الشعور بأن تكلفة تجهيز العقار رقم ١ إلى المستوى اللائق سوف تكبده أكثر مما كان يتوقع .

نظر تشارلى حوله وقدر عدد الحضور بسبعين شخصا كانوا يجلسون جميعا فى قاعة المزاد ؛ كان يعرف أن هناك الكثيرين ممن لا يكترثون بالمزاد وأنهم جاءوا فقط لمشاهدة العرض الدائر بين عائلة ترامبر والسيدة ترينثام .

كان سِيْد ريكسال ـ نائب لجنة المتاجر ـ يجلس فى الصف الأول عاقدًا ذراعيه يحاول أن يبدو رابط الجأش وقد أوشك جسده لضخامته أن يحتل مقعدين . كان تشارلى يرى أنه على الأرجح لن يزايد لأكثر من المزايدة الثانية أو الثالثة . ثم سرعان ما وقع نظره على السيدة ترينثام فى الصف الثالث ؛ وقد ثبتت نظرها على الساعة العتيقة .

وبعدها بدقيقتين ؛ وصلت بيكى إلى قاعة المزايدة . كان تشارلى يجلس على حافة مقعده فى انتظار تنفيذ التعليمات بمنتهى الدقة . نهض من فوق مقعده وسار عن عمد فى اتجاه الخروج . وفى هذه المرة استدارت السيدة ترينثام لكى تتبين ما كان تشارلى بصدده . التقط تشارلى ببراءة بطاقة أخرى تتضمن شروط البيع من مؤخرة الغرفة ثم عاد إلى مقعده فى تؤدة ؛ بعد أن توقف فى طريقه لكى يحادث أحد أصحاب المتاجر الذى يبدو أنه قد اقتطع من وقته ساعة راحة لكى يراقب مجريات الأمور .

عندما عاد تشارلى إلى مكانه لم ينظر فى اتجاه زوجته التى كان يعلم أنها مختبئة فى مكان ما فى مؤخرة القاعة . كما أنه لم يلق ولو نظرة واحدة على السيدة ترينثام بالرغم من أنه شعر أنها كانت قد ثبتت بصرها عليه .

عندما دقت الساعة العاشرة ؛ صعد السيد فوثرجيل ـ كان رجلا طويلا نحيفا ذا شعر فضى منمق وزهرة فى عروته ـ الدرجات الأربع للصندوق الخشبى المستدير . وقد شعر تشارلى أنه كان يبدو مهيبا أثناء صعوده . وبمجرد أن تمالك نفسه وضع إحدى يديه فوق حافة الصندوق وابتسم للحضور والتقط المدقة وقال : " صباح الخير أيها السيدات والسادة ". ساد الصمت كل أرجاء المكان .

" سوف نطرح اليوم العقار رقم ١ من حدائق تشيلسيا للبيع بكل أثاثه ومقتنياته ومحتوياته التى كانت معروضة للجمهور العام على مدى الأسبوعين الماضيين . سوف يطلب من الشخص الذى سوف يفوز بالمزاد أن يضع مقدم ١٠ بالمائة من قيمة العقار بعد انتهاء المزاد مباشرة ثم استكمال التعاقد فى غضون تسعين يوما . هذه هى الشروط

المنصوص عليها فى شروط البيع وأنا أكررها فقط لكى لا يحدث أى سوء تفاهم " .

تنحنح السيد فوثرجيل وشعر تشارلى عندها أن دقات قلبه بدأت تتسارع . أخذ يراقب الكولونيل وهو يقبض يده وبيكى وهى تستخرج نظارتها من حقيبتها وتضعها فى حجرها .

" سوف نبدأ بسعر ألف جنيه " ، وهكذا أعلن فوثرجيل للحضور ؛ كان العديد منهم يقف فى أحد أركان القاعة أو متكئا على الجدار حيث لم يكن قد بقى سوى عدد قليل من المقاعد الخاوية . بقى تشارلى مثبتا نظره على القائم بالمزاد . ابتسم السيد فوثرجيل فى اتجاه سِيْد ريكسال الذى بقى عاقدًا ذراعيه فى تصميم وقال : " هل هناك من سيزيد على ألف جنيه ؟ " .

" ألف وخمسمائة " ، هكذا قال تشارلى بصوت مرتفع قليلا عما يجب أن يكون عليه . استدار كل من لم يكن له شأن بما يجرى لكى يلقى نظرة على المتحدث . واستدار العديد من الحضور إلى الأشخاص الذين كانوا يجلسون بجوارهم وبدءوا يتهامسون مما أثار ضوضاء فى القاعة .

قال القائم بالمزاد : " ألف وخمسمائة . هل هناك من سيعرض ألفين ؟ " ، فك سِيْد ريكسال ذراعيه ورفع إحدى يديه وكأنه تلميذ فى المدرسة مصمم على إثبات قدرته على الإجابة عن السؤال الذى طرحه المدرس .

قال تشارلى حتى قبل أن ينكس ريكسال يده : " ألفان وخمسمائة جنيه " .

" ألفان وخمسمائة جنيه هنا فى منتصف القاعة ؛ هل لنا بثلاثة آلاف ؟ " .

ارتفعت يد سيِّد ريكسال قدر بوصة فوق ركبته ثم سقطت ثانية بينما ارتسمت علامات التجهم العميقة على وجهه : " هل لنا بثلاثة آلاف ؟ " ، هكذا سأل السيد فوثرجيل للمرة الثانية . لم يصدق تشارلى نفسه . كان على وشك الحصول على العقار رقم ١ مقابل ألفين وخمسمائة جنيه . كانت كل ثانية تمر عليه وكأنها دقيقة كاملة وهو فى انتظار طرق المطرقة .

" هل لنا بثلاثة آلف جنيه " ، قال السيد فوثرجيل ذلك وصوته ينم عن قدر من خيبة الأمل وأضاف : " إذن أنا أعرض العقار رقم ١ من حدائق تشيلسيا مقابل ألفين وخمسمائة جنيه للمرة الأولى .... " . كتم تشارلى أنفاسه . " ثم للمرة الثانية " ، بدأ القائم بالمزاد يرفع مطرقته : " ثلاثة آلاف جنيه " ، أعلن السيد فوثرجيل ذلك فى تنهيدة ارتياح مسموعة والسيدة ترينثام تعيد يدها التى كانت تغطيها بالقفاز فى حجرها .

قال تشارلى : " ثلاثة آلاف وخمسمائة " بينما ابتسم السيد فوثرجيل وهو ينظر فى اتجاهه ولكنه عندما أدار بصره ثانية جهة السيدة ترينثام ؛ وجدها تومئ برأسها موافقة على زيادة السعر إلى أربعة آلاف جنيه .

تعمد تشارلى مرور ثانية أو ثانيتين بعدها ثم نهض وضبط رابطة عنقه ورسم على وجهه علامات الحزن وسار ببطء فى المشى إلى خارج القاعة نحو الشارع . لم ير بيكى وهى تضع نظارتها أو نظرة الانتصار التى ارتسمت على وجه السيدة ترينثام .

سأل القائم بالمزاد : " هل لنا بأربعة آلاف وخمسمائة ؟ " ؛ وبنظرة واحدة جهة بيكى أعلن قائلاً : " بالفعل وصل السعر إلى ذلك " .

عاد فوثرجيل لينظر إلى السيدة ترينثام ويسألها : " خمسة آلاف جنيه يا سيدتى ؟ " ، أخذت عيناها بسرعة تدوران فى كل أرجاء القاعة ومع ذلك فقد بدا لكل الحاضرين أنها قد عجزت عن تحديد صاحب العطاء . علت الهمسات داخل القاعة وتحولت إلى ثرثرة حيث بدأ كل من فى القاعة يبحث عن صاحب العطاء . وبقيت بيكى وحدها فى مقعدها فى الصف الخلفى لا تحرك ساكنا .

قال القائم بالمزاد : " هدوء من فضلكم . لدينا الآن عطاء بأربعة آلاف وخمسمائة جنيه . هل لنا بخمسة آلاف جنيه ؟ " ثم عاد ببصره ثانية إلى السيدة ترينثام . فرفعت يدها ببطء ولكنها فى أثناء ذلك استدارت سريعا لعلها تتعرف على خصمها فى المزاد ، ومع ذلك لم يتحرك أحد عندما أعلن القائم بالمزاد قائلا : " خمسة آلاف وخمسمائة . الآن أصبح لدينا خمسة آلاف وخمسمائة جنيه " .

أخذ السيد فوثرجيل يحول ببصره بين الحضور ويسأل : " هل هناك المزيد ؟ " ، نظر جهة السيدة ترينثام ولكنها بدت مضطربة وبقيت يدها بدون حراك فى حجرها .

قال السيد فوثرجيل : " إذن وصلنا إلى خمسة آلاف وخمسمائة للمرة الأولى ، خمسة آلاف وخمسمائة للمرة الثانية " ، ضغطت بيكى على شفتها لكى تمنع نفسها من الابتسام . " وللمرة الثالثة والأخيرة " قال ذلك وهو يرفع المطرقة .

"ستة آلاف " ، هكذا قالت السيدة ترينثام بصوت واضح وهى تحرك يدها فى نفس الوقت . كتم كل الحضور أنفاسهم وخلعت بيكى نظارتها وهى تتنهد بعد أن أدركت أن حيلتها قد فشلت بالرغم من أن السيدة ترينثام كانت ستدفع لشراء المتجر ثمناً يفوق أى متجر فى حدائق تشيلسيا بثلاث مرات كاملة .

عادت عينا القائم على المزاد إلى مؤخرة القاعة حيث كانت بيكى قد أعادت نظارتها وأمسكتها بيدها فى إحكام فحول بصره إلى السيدة ترينثام التى كانت تجلس فى فخر بعد أن ارتسمت علامات الرضا على وجهها .

" ستة آلاف للمرة الأولى " ، هكذا قال القائم بالمزاد وعيناه تجوبان أنحاء القاعة ، ثم أضاف : " ستة آلاف للمرة الثانية ؛ إن لم تكن هناك مزايدة هى إذن ستة آلاف جنيه للمرة الأخيرة ..." ، وثانية رفع المطرقة .

جاء صوت من مؤخرة القاعة : " سبعة آلاف جنيه " . استدار الجميع ليجدوا تشارلى قد عاد ليقف فى المشى ، رافعًا يده اليمنى عالية فى الهواء .

تلفت الكولونيل حوله وعندما وقع بصره على المزايد الجديد بدأ يتصبب عرقا وهو الشىء الذى كان يتجنب حدوثه على الملأ . أخرج منديله من جيبه العلوى وأخذ يجفف حاجبه .

قالت السيدة ترينثام وهى تنظر إلى تشارلى فى حدة : " ثمانية آلاف " .

صاح تشارلى : " تسعة آلاف " .

تحولت الهمهمة فى أنحاء القاعة إلى جلبة . شعرت بيكى أنها تريد أن تنقض على زوجها وتدفعه إلى قارعة الطريق .

قال السيد فوثرجيل : " هدوء من فضلكم ، هدوء ! " ، قال ذلك راجيا فى صوت أشبه بالصياح . بقى السيد كراوثر فاغرًا فاه عن آخره إلى الحد الذى يسمح بالتقاط أى ذبابة عابرة ، بينما دفن السيد هادلو رأسه بإحكام فى راحة يديه .

قالت السيدة ترينثام التى كانت ـ كما رأت بيكى ـ قد خرجت تماما مثل تشارلى خارج نطاق السيطرة : " عشرة آلاف " .

سأل القائم بالمزاد " هل لنا بأحد عشر ألفا ؟ "

ارتسمت علامات القلق على وجه تشارلى ولكنه عقد حاجبيه وهز رأسه ووضع يده فى جيبه .

تنهدت بيكى فى ارتياح وفكت يديها وبدون وعى أعادت النظارة ثانية فوق عينيها .

قال السيد فوثرجيل وهو ينظر ناحية بيكى : " أحد عشر ألفا " سادت عاصفة من الهرج والمرج بينما نهضت بيكى لكى تعترض وخلعت نظارتها سريعا وتملك تشارلى الارتباك الكامل .

وهنا استقرت عينا السيدة ترينثام أخيرا على بيكى وتعرفت عليها وقالت بابتسامة رضا : " اثنا عشر ألفا " .

نظر القائم بالمزاد ثانية جهة بيكى التى كانت قد أعادت نظارتها إلى حقيبتها وأغلقتها تماما . ثم نظر جهة تشارلى الذى كان قد دس يديه بإحكام داخل جيوبه .

سأل القائم بالمزاد : " لقد رسا المزاد على السيدة فى مقدمة القاعة مقابل اثنى عشر ألف جنيه ؛ هل من مزيد ؟ " . وأدار عينيه ثانية ما بين بيكى وتشارلى قبل أن يعود ثانية لينظر إلى السيدة ترينثام . " أعلن قائلاً : " إذن اثنا عشر ألفا للمرة الأولى " ، ثم نظر ثانية حوله " للمرة الثانية ؛ ثم للمرة الثالثة والأخيرة ... " رفع مطرقته ثم طرقها وصاح قائلاً : " أعلن أن الملكية قد آلت إلى السيدة جيرالد ترينثام مقابل اثنى عشر ألف جنيه " .

جرت بيكى صوب الباب ولكن تشارلى كان قد خرج بالفعل إلى الرصيف .

سألته حتى قبل أن تصل إليه : " ما الذى فعلته هذا يا تشارلى ؟ " .

قال تشارلى : " كنت أعلم أنها سوف تزايد إلى حد العشرة آلاف جنيه لأن هذا هو المبلغ الذى تملكه فى البنك " .

" ولكن كيف عرفت ذلك ؟ " .

" أخبرنى خادمها الثانى بهذه المعلومة هذا الصباح . وبالمناسبة ، سوف يأتى للعمل فى منزلنا " .

فى هذه اللحظة خرج الرئيس إلى الشارع ، وقال : " لابد أن أعترف يا ريبيكا أن خطتك كانت رائعة . لقد خدعتنى تماما " .

قال تشارلى : " وأنا أيضا " .

قالت بيكى مصرة على ألا تدع زوجها يفلت من فعلته : " لقد أقدمت على مجازفة رهيبة يا تشارلى ترامبر " .

" ربما ولكننى على الأقل كنت أعرف حدودها ، لم تكن لدى أى فكرة عما كنت ترمين إليه " .

قالت بيكى : " لقد اقترفت خطأ فادحا عندما أعدت نظارتى فوق وجهى ... ما الذى يضحكك يا تشارلى ترامبر؟ "

" حمدا لله على وجوده هؤلاء الهواة " .

" ما الذى تقصده ؟ " .

" لقد ظنت السيدة ترينثام أنك تزايدين عليها بحق وقد سقطت فى شراك الخدعة مما دفعها إلى الانجراف حتى هذا الحد البعيد . بل إنها فى واقع الأمر لم تكن هى الشخص الوحيد الذى جمح . لقد بدأت أشعر بالفعل بالأسف من أجل ... " .

" من أجل السيدة ترينثام ؟ " .

قال تشارلى : " بالطبع لا . من أجل السيد فوثرجيل . سوف يحلق فى آفاق الجنة على مدى تسعين يوما قبل أن يسقط سقوطا مروعًا على أرض الواقع " .

السيدة ترينثام

١٩١٩ - ١٩٢٧

الفصل

٢٢

لا أصدق أن أحدا يمكن أن ينعتنى بالمتعجرفة . ومع ذلك فإننى أؤمن بالحكمة القائلة بأن " هناك مكانًا لكل شيء وكل شيء يجب أن يوضع فى موضعه " ، وأن هذه الحكمة تنطبق بنفس الدرجة على بنى البشر .

ولدت فى يوركشاير فى العصر الذهبى للإمبراطوية الفيكتورية وأستطيع أن أقول بمنتهى الصدق إن أسرتنا قد لعبت دورا فعالا أثناء هذه الحقبة التاريخية للجزيرة .

لم يكن والدى السير رايموند هاردكاسيل مخترعا فحسب وإنما كان رجل صناعة صاحب قدرة عظيمة على التخيل وصاحب مهارات فائقة ، كما أنه قد بنى أيضا إحدى أكبر الشركات الناجحة فى البلاد . فى نفس الوقت كان يعامل دائما عماله كما لو كانوا جزءًا من أفراد عائلته ، وكان هذا هو تحديدا النموذج الذى

وضعه واتبعه مع كل من هم أقل منه حظا أو قدرا وكانت هذه هى أهم القيم المميزة التى حاولت أن ألتزم بها فى حياتى .

لم يكن لدىَّ إخوة من الذكور وإنما فقط أخت واحدة تدعى إيمى .

وبالرغم من أنه لم يكن يفصل بيننا سوى عامين فقط فإننى لا يمكن أن أدعى أننا كنا مقربتين من بعضنا البعض ، ربما لأننى كنت شخصية منفتحة بل وكنت طفلة منطلقة بينما كانت هى خجولة ومتحفظة إلى حد الانطواء وخاصة عند التعامل مع الجنس الآخر . حاولت أنا وأبى أن نتخير لها زوجا مناسبا ولكن بدت لنا هذه المهمة مستحيلة حتى إن أبى كان قد يئس تماما بعدما تخطت إيمى الأربعين من عمرها . وقد استعاضت إيمى عن الزواج بشغل وقتها منذ وفاة أمى غير المتوقعة بالعناية بأبى الحبيب فى سن الشيخوخة ، وهو ما يجب أن أقر أنه كان الوضع الأمثل لكليهما .

أما أنا فى المقابل ، فلم تكن لدىَّ مشكلة فى العثور على زوج . كان جيرالد ـ حسبما أذكر ـ هو رابع أو ربما خامس شخص تقدم للزواج منى . تقابلت أنا وجيرالد للمرة الأولى عندما كنا فى استضافة اللورد والليدى فانشو فى منزلهما الريفى فى نورفولك . كانت هناك صداقة قديمة تربط بين عائلة فانشو وأبى وقد بقيت أواعد ابنهم آنطونى لبعض الوقت . ولكنى عندما عرفت أنه لن يرث ثروة أو لقب أبيه ، لم أجد هناك مدعاة لأن أمد له حبل أمل الارتباط بى .

لم يكن أبى سعيدا بتصرفى على ما أذكر بل يمكننى القول بأنه عاتبنى فى ذلك الوقت ولكننى حاولت أن أفهمه باستفاضة أنه بالرغم من أن جيرالد لم يكن الأكثر جاذبية من بين كل من تقدموا للزواج منى ، فإنه كان يملك ميزة بارزة وهو أنه كان ينتمى إلى

عائلة تملك أراضى زراعية فى ثلاث دول فضلا عن ممتلكاتهم فى أبردين .

تزوجنا فى سانت بـ " مارى جريت أشتون " فى شهر يوليو من عام ١٨٩٥ ورزقنا بابننا جاى بعد زواجنا بعام ، فنحن نفضل أن تمر فترة مناسبة من الوقت قبل إنجاب الطفل الأول لخرس كل الألسنة .

كان أبى يحرص دائماً على معاملتى أنا وأختى على قدم المساواة بالرغم من أنه كان يشعرنى دائما بأننى الابنة المفضلة لديه . ولو لم يكن يسعى دائما للإنصاف لكان بكل تأكيد جعلنى أستأثر بكل شىء لأنه كان يعشق جاى ومع ذلك فإن إيمى كانت سترث نصف ثروته الضخمة . ويعلم الله وحده ما الذى كان يمكن أن تفعله بهذه الثروة الطائلة مع اقتصار هواياتها على العناية بالحديقة وأعمال الكروشيه وزيارة مهرجان سكاربوروف من آن إلى آخر .

ولكن عودة إلى جاى ؛ كان كل من يراه فى سنواته الأولى يعلق دائما على مدى وسامته ، وبالرغم من أننى لم أسع لتدليله فقد كنت أشعر أن واجبى يحتم علىّ أن أنشئه فى بداية حياته على نحو يؤهله للدور الذى كنت واثقة من أنه سوف يضطلع به فى يوم من الأيام . وبمجرد أن وضعت هذا فى اعتبارى ، سجلت اسمه فى مدرسة أسجارث ثم مدرسة هارو حيث توقعت له أن يلتحق بعدها بالأكاديمية العسكرية الملكية . كان جده لا يدخر مالا فى الإنفاق على الدراسة وكان بالطبع أكثر حرصا على الإنفاق على تعليم حفيده الأكبر ؛ كان بالغ السخاء .

وبعدها بخمس سنوات أنجبت ابنى الثانى نيجيل الذى ولد قبل اكتمال نضجه بقليل مما فسر استغراقه لوقت أطول فى التعلم

عن أخيه الأكبر . كان جاى فى نفس الوقت يتلقى العلم على أيدى مدرسين خصوصيين بالرغم من أن واحدًا أو اثنين من هؤلاء المدرسين كانوا يجدونه مشاغبًا لحد غير محتمل . كان يلهو شأنه شأن باقى الأطفال أى بوضع ضفدع فى المرحاض أو شق رباط الحذاء إلى نصفين .

فى سن التاسعة التحق جاى عن جدارة بمدرسة أسجاوث ومنها إلى هارو . كان المبجل أنطونى وود هو ناظر مدرسته فى ذلك الوقت وقد ذكرته أن جاى كان ينتمى إلى الجيل السابع من الأبناء الذين التحقوا بمدرسته .

وقد نبغ جاى أثناء دراسته فى هارو فى القوات العسكرية - حتى أصبح رقيبًا أول فى السنة الدراسية الأخيرة - وفى حلبة الملاكمة حيث هزم كل منافسيه باستثناء مباراته ضد رادلى حيث قابل منافسا من نيجيريا تبينتُ فيما بعد أنه كان فى منتصف العشرينات من العمر .

وقد أحزننى أن جاى لم يحقق النتائج المثالية التى كنت أتطلع إليها فى الفصل الدراسى الأخير له . وقد أدركت أن السبب أنه كان قد انخرط فى الكثير من الأنشطة الأخرى التى لم تكن فى صالحه . وبالرغم من أننى كنت أتمنى أن تأتى النتائج النهائية أفضل من ذلك فقد كنت أرى دائما أنه أحد هؤلاء الأطفال الذين يمكن وصفهم بأنهم يتمتعون بذكاء فطرى أكثر من التفوق الأكاديمى . وبالرغم من التقرير المتحيز الذى أصدره ناظر المدرسة فى حقه والذى أعرب فيه عن دهشته من بعض النتائج التى حققها جاى فى اختباراته النهائية ، فقد نجح ابنى فى الالتحاق بـ " ساند هورست " .

وقد أثبت جاى فى هذه الأكاديمية تفوقه عن جدارة فى الدراسات العسكرية كما أنه وجد وقتاً لمواصلة ممارسة الملاكمة وأصبح بطل الأكاديمية العسكرية فى الملاكمة . وبعدها بعامين فى شهر يوليو عام ١٩١٦ ، تخرج جاى من بين ضباط النصف المتفوق من الطلبة من الحاصلين على شهادة شرفية قبل أن ينضم إلى الفرقة التى كان يخدم فيها والده .

كان جيرالد - يجب أن أشير إلى هذا الأمر - قد ترك سلاح الرماية إثر وفاة أبيه لكى يرجع إلى بيكشاير ويتولى إدارة ممتلكات العائلة . كان كولونيل ممتازا عندما وجد نفسه مجبرا على تقديم استقالته كما كان يمكن أن يعتبر الخليفة الطبيعى للقائد العام للفرقة العسكرية . ولكن القيادة آلت إلى ضابط لم يكن حتى من الكتيبة الأولى ، يدعى دانيفرز هاميلتون . وبالرغم من أننى لم أكن قد قابلت السيد المهذب من قبل فإن العديد من الضباط الذين كنا نعرفهم أخبرونا أن تعيينه فى هذا المنصب كان غير منصف . ومع ذلك فقد كنت واثقة كل الثقة من أن جاى سوف يستعيد شرف العائلة وسوف يتولى قيادة الفرقة بنفسه فى يوم من الأيام .

وبالرغم من أن جيرالد لم يشارك مباشرة فى الحرب الكبرى فقد خدم بلاده أثناء هذه السنوات العجاف بأن ترشح للبرلمان فى بيكشاير ويست ، وهى الدائرة الانتخابية التى مثلها جده فى منتصف القرن الماضى نيابة عن الليبراليين تحت رئاسة بالميرستون . لم يواجه أى منافسة فى الانتخابات الثلاثة وعمل بمنتهى الاجتهاد لخدمة مصالح حزبه من موقعه وأوضح لكل من كان يهمه الأمر أنه لم تكن لديه رغبة فى الاستئثار بالسلطة .

بعدما تلقى جاى التكليف الملكى ؛ أرسل إلى ألدرشوت كملازم ثان حيث واصل تدريبه استعداداً للالتحاق بفرقته العسكرية فى الجبهة الغربية . بعدما حصل على ترقيته الثانية فى أقل من عام تم نقله إلى إيدنبرج ثم الكتيبة الخامسة قبلما تصدر إليهم أوامر الإبحار إلى فرنسا بأسابيع قليلة .

كان نيجيل فى هذا الوقت قد نجح بالكاد فى الالتحاق بـ " هارو " وكان يحاول أن يحذو حذو أخيه ولكن ليس للأسف بنفس درجة الكفاءة . بل إنه اشتكى لى ذات مرة فى إحدى العطلات التى كانت لا تنتهى أنه تعرض للتطاول من قبل بعض الأطفال . فقلت له إنه يجب أن يدافع عن نفسه وذكرته أننا فى حالة حرب . كما أشرت له أننى لا أذكر أبدا أن جاى قد شكا لى من مثل هذه الأشياء .

راقبت ولدىَّ عن كثب فى صيف عام ١٩١٧ الطويل ولا أستطيع أن أدعى أن جاى كان يسعد بصحبة أخيه نيجيل أثناء وجوده فى المنزل أثناء الإجازات بل إنه على العكس كان يطيقه بشق الأنفس . أخذت أقول لـ " نيجيل " إن عليه أن يناضل لكى يكسب احترام أخيه وكانت النتيجة هى أنه هرب لكى يختبئ فى الحديقة على مدى ساعات .

أثناء عطلته فى صيف ذلك العام ؛ طلبت من جاى أن يذهب لزيارة جده كما أننى عثرت - فضلا عن ذلك - على نسخة من كتاب سونجس أوف إينوسنس وطلبت منه أن يقدمها هدية لجده الذى كان يتوق إلى ضمها إلى مجموعته . عاد جاى بعدها بأسبوع واحد ليؤكد لى بأن الهدية قد أحدثت مفعولها وأن جده راضٍ عنه كل الرضا .

وكأى أم طبيعية فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا ؛ كنت حريصة على أن يبلى بلاء حسنا فى مواجهة العدو ، وفى نفس الوقت كنت أدعو الله أن يعود لى سالما . أعتقد أنه يمكننى القول إن أى أم - مهما كانت تشعر بالفخر - كان لا يمكن أن تتطلع إلى ما هو أكثر من ذلك من ابنها .

ترقى جاى إلى رتبة نقيب فى سن مبكرة جدًا كما حصل عقب المعركة الثانية فى مارن على الوسام العسكرى . وقد ذكر الكثيرون ممن قرأوا التقرير الخاص بإنجازاته أن الحظ قد خذله بعض الشيء لأنه لم يحصل على جائزة تكريم أعلى منزلة . منعت نفسى من أن أبرر ذلك بأن أى تكريم يحصل عليه يجب أن يحظى بموافقة قائده الذى لم يكن منصفا ؛ مما برر عدم حصوله على التكريم اللائق به .

بعد توقيع الهدنة بوقت قصير ؛ عاد جاى إلى أرض الوطن لكى يخدم فى ثكنات الفرقة فى هاونسلو . وبينما كان يقضى العطلة طلبت من سبينكز أن يحفر البادئة الحرفية لاسمه على الوسام العسكرى وزيه العسكرى . وقد قبل أخوه نيجيل فى نفس الوقت - بعد توصية من أبيه - فى الأكاديمية العسكرية الملكية .

فى هذه الأثناء كان جاى قد عاد إلى لندن ؛ شعرت أنه يمر ببعض التجارب العاطفية - ومن من الشباب لا يمر بمثل هذه التجارب فى هذا السن ؟ - ولكنه سوف يفهم أن الزواج قبل الثلاثين لن يعود عليه إلا بالضرر لأنه سوف يقلل من فرصته فى الترقى .

بالرغم من أنه كان يصحب الكثير من الفتيات إلى منزلنا فى آشورست فى عطلة نهاية الأسبوع ؛ كنت أدرك تماما أنه لم يكن يتعامل مع أى منهن على محمل الجدية كما أننى كنت قد ركزت انتباهى بالفعل على فتاة من قرية مجاورة كنا على معرفة عائلية بها

منذ فترة طويلة . وبالرغم من أن تلك الفتاة لم تكن تحمل لقبا فإن جذور عائلتها كانت ترجع إلى الغزو النورمانى . ولكن الأهم من ذلك هو أنهم كانوا يملكون أراضى شاسعة أى أنهم كان يمكن أن يسيروا فوق أراضيهم من آشورست إلى هاستينجس .

ولكن ما فاجأنى فى إحدى عطلات نهاية الأسبوع هو اصطحاب جاى لفتاة تدعى ريبيكا سالمون كانت - لدهشتى - تشارك ابنة هاركورت براون نفس المنزل .

وكما سبق وشرحت بمنتهى الوضوح ؛ فأنا لست سيدة متعجرفة ، ولكن الآنسة سالمون - للأسف - كانت تنجح دائما فى إخراج أسوأ ما فىَّ . لا تسيئوا فهمى . أنا لا أملك أى اعتراض على شخص يسعى لتحسين مستواه التعليمى . بل إننى فى واقع الأمر أؤيد هذا الاتجاه على أن يبقى دائما فى حدود المعقول والمقبول . ولكن هذا لا يسمح للشخص أن يتعدى حدوده ويفترض بشكل تلقائى أنه قد اكتسب مكانة معينة فى المجتمع . إننى لا أطيق فى واقع الأمر أن يسعى شخص للتظاهر بمكانة لا يملكها فى الواقع ؛ وقد شعرت حتى قبل أن ألتقى بالآنسة سالمون أنها كانت تسعى لتحقيق هدف معين فى عقلها .

كنا جميعا نعلم أن جاى يمر بعلاقة عابرة أثناء تواجده فى لندن . وقد كانت الآنسة سالمون بالقطع من النوع الذى يقبل بمثل هذه العلاقات . عندما أتيحت لى فرصة التحدث مع جاى فى عطلة نهاية الأسبوع التالى ، حذرته ألا يسمح لأمثال الآنسة سالمون أن يلقين بشباكهن عليه ؛ كان لابد أن يدرك أنه يعتبر صيدا ثمينا بالنسبة لأى شخص ينتمى إلى هذه الطبقة .

ضحك جاى عند سماعه هذا الكلام وأكد لى أنه لم تكن لديه أى خطط طويلة المدى للارتباط بابنة الخباز . على أية حال ؛ لقد ذكرنى بأنه سوف يسافر إلى الهند بعد فترة قصيرة أى أنه لم تكن هناك أى خطط خاصة بالزواج . لابد أنه شعر - رغم هذا - أننى كنت لا أزال أتوجس خيفة من الأمر ؛ لأنه بعد أن فكر قليلا أضاف قائلا : " قد يعنيك أن تعرفى يا أمى أن الآنسة سالمون أصبحت تواعد الآن رقيبا كان يخدم فى نفس فرقتى وأنها تقيم علاقة معه " .

وبالفعل ظهر جاى بعدها بأسبوعين فى آشورست مع فتاة تدعى الآنسة فيكتوريا بيركلى ؛ والتى رأيت أنها اختيار أفضل بكثير ؛ وقد كنت أعرف والدتها منذ زمن طويل . ولو لم يكن لديها أربع أخوات أخريات ، لكانت قد ناسبته تماما .

ولكى أكون منصفة ؛ بعد تلك المناسبة المؤسفة لم يذكر جاى اسم ريبيكا سالمون ثانية فى حضورى ثم سافر بعدها بشهور قليلة إلى الهند ، وافترضت وقتها أن هذا هو آخر عهدى بتلك الفتاة اللعينة .

عندما تخرج نيجيل أخيرا من ساندهورست لم يلحق بأخيه فى الفرقة العسكرية لأنه بدا من الواضح تماما على مدى العامين الأولين من دراسته فى الأكاديمية أنه لم يخلق ليكون جنديا . ومع ذلك فقد نجح جيرالد فى أن يلحقه بوظيفة فى إحدى شركات المضاربة بالأسهم فى المدينة حيث كان ابن عمه يشغل منصبًا كبيرًا هناك . بقى نيجيل ثابتا بدون ترقية ولكننى عندما أخبرت ابن عم جيرالد أننى سوف أكون بحاجة إلى مدير لممتلكات والدى ؛ بدأ نيجيل يترقى شيئا فشيئا فى السلم الوظيفى .

مرت ستة أشهر تقريبا قبل أن يبعث السير دانيفرز هاميلتون إخطارا عن طريق صندوق بريد ١٩ ميدان شستر . فى اللحظة التى أخبرنى فيها جيرالد أن هاميلتون يريد أن يحادثه فى أمر ما ؛ شعرت أن ثمة ما يريب . كنت على مر السنين قد قابلت العديد من زملاء جيرالد الضباط وكنت أعرف كيف أتعامل معهم . كان جيرالد - فى المقابل - ساذجا فى تعامله فى الأمور الشخصية وكان يسمح دائما للطرف المقابل أن ينال منه . فحصت على الفور جدول مواعيد زوجى للأسبوع التالى وحددت موعدا للسير دانيفرز مساء الاثنين فى السادسة لأننى كنت أعلم جيدا أن جيرالد سوف يكون مشغولا فى هذا الوقت فى مجلس العموم مما سوف يضطره لا محالة إلى إلغاء المقابلة فى آخر لحظة .

اتصل جيرالد بالفعل بعد الخامسة من نفس اليوم لكى يبلغنى بأنه سوف يتعذر عليه التواجد فى الموعد ويقترح ذهاب الكولونيل إليه فى مقر مجلس العموم ، فأجبته بأننى سوف أرى ما يمكننى عمله فى ذلك . بعدما اعتذرت وشرحت للكولونيل سبب غياب زوجى ؛ تمكنت من إقناعه بأن يفضى إلىَّ بكل ما يريد قوله . عندما أخبرنى الكولونيل أن الآنسة سالمون سوف تلد طفلا سألته بالطبع كيف يمكن أن يكون لمثل هذا الأمر علاقة بى أو بـ " جيرالد " ، فتردد للحظة ثم أخبرنى بأن جاى هو والد الطفل . أدركت على الفور أنه إن ذاع هذا النبأ بين الناس فقد يصل إلى مسامع المسئولين فى الفرقة العسكرية مما قد يضر بمستقبل ابنى ويعوق فرص ترقيه . لذا قررت أن ألفظ هذا الاحتمال وألفظ الكولونيل نفسه فى آن واحد .

بعدها بأسابيع قليلة كنت قد دعيت للعب الورق فى منزل سيبليا ليتل تشايلد وعرفت يومها أنها كانت قد استأجرت محققا خاصا يدعى هاريس لكى يتجسس على زوجها الأول عندما شكت فى خيانته لها . وبعدما عرفت هذه المعلومة وجدت نفسى عاجزة عن التركيز فى اللعب مما أثار إزعاج زملائى .

وعندما عدت إلى المنزل بحثت عن اسم المحقق فى الدليل . ها قد وجدت الاسم " هاريس ؛ المحقق الخاص السابق فى سكوتلاند يارد ، لحل كل أنواع المشاكل " ، وبعد بضع دقائق أخذت خلالها أحدق فى الهاتف ؛ أخيرا التقطت السماعة وطلبت من عامل التشغيل أن يتصل لى بـ " بادينجتون ٣٧٢٠ " . بقيت منتظرة لعدة دقائق قبل أن يصلنى صوت الطرف الآخر .

جاءنى صوت أجش بدون أن يضيف كلمة واحدة قائلاً : " هاريس " .

" هل هذا هو مكتب التحقيق الخاص ؟ " ، هكذا سألت وأنا أكاد أعيد السماعة إلى مكانها قبل أن أمنح الرجل أى فرصة للرد .

قال الرجل وقد بدأ صوته يزداد حماسا : " نعم يا سيدتى ؛ إنه أنا " .

قلت وأنا أشعر بشىء من الحرج : " قد أكون بحاجة لمساعدتك من أجل أحد الأصدقاء ، كما تفهم " .

رد الصوت : " من أجل صديق ؟ ، بالطبع ؛ ربما يجدر بنا إذن أن نتقابل " .

قلت فى إصرار : " ولكن ليس فى مكتبك "

" أفهم ذلك تماما يا سيدتى . هل يمكنك مقابلتى فى فندق سانت آجنيس فى شارع بورى ، ساوث كينسينجتون ، فى الرابعة عصر الغد ؟ " .

" نعم " ، وهكذا أجبته وأنا أضع السماعة ثم أدركت بعدها فجأة أننى لم أخبره باسمى وأننى لم أكن أعرف شكله .

عندما وصلت فى اليوم التالى إلى سانت آجنيس ، كان مكانًا مريعًا متفرعًا من شارع برومبتون ، سرت حوله عدة مرات قبل أن أدخل بهو الاستقبال فى آخر المطاف . كان هناك رجل فى قرابة الثلاثين ، ربما فى الخامسة والثلاثين من العمر متكئا على مكتب الاستقبال . وقف فى استقامة فى اللحظة التى وقع فيها بصره علىّ .

سألنى : " هل تبحثين عن السيد هاريس ؟ " .

أومأت الموافقة فقادنى سريعا إلى غرفة تناول الشاى وأجلسنى على مقعد فى أحد الأركان البعيدة . وبمجرد أن جلس فى المقعد المقابل لى بدأت أتفحصه بعناية . بدا لى طوله قرابة الخمسة أقدام ، ممتلئ الجسم ، له شعر بنى داكن وشارب أكثر سوادا . كان يرتدى معطفاً من التويد البنى وقميصًا أصفر ورابطة عنق صفراء رفيعة . عندما بدأت أشرح له سبب احتياجى إليه بدأ يقرقع مفاصل أصابعه ، بدأ باليد اليسرى ثم اليد اليمنى . شعرت أننى أريد أن أنهض وأرحل وكنت على وشك أن أفعل ذلك بالفعل لو أننى كنت واثقة من أننى سوف أعثر على محقق أقل غرابة لأداء المهمة .

استغرقت الكثير من الوقت لكى أقنع هاريس أننى لم أكن أسعى للطلاق . وشرحت له فى لقائنا الأول المأزق الذى كنت فيه . وقد فوجئت به يطلب ثمنا باهظا يصل إلى خمسة شلنات مقابل الساعة

الواحدة فقط لكى يبدأ التحقيق . ومع ذلك شعرت أنه لم يعد يبقى لى الكثير من الخيارات فى هذا الصدد . وافقت على أن يبدأ عمله من اليوم التالى على أن نتقابل ثانية فى الأسبوع الذى يليه .

جاءنى تقرير السيد هاريس الأول يخبرنى فيه بوجهة نظر الأشخاص الذين كانوا يقضون جل ساعات عملهم فى إحدى حانات تشيلسيا التى يطلق عليها اسم موسكيتير ، والتى ترى بأن تشارلى ترامبر هو والد الطفل الذى سوف تلده ريبيكا سالمون وقد أكد لى من خلال التقرير أن تشارلى لم يكن يسعى لإنكار الأمر كلما أثير أمامه . ولعل ما أكد صدق هذا التنبؤ هو زواجه من الآنسة سالمون بعد الولادة ببضعة أيام وقد تم ذلك فى هدوء فى مكتب التسجيلات .

لم يجد السيد هاريس صعوبة فى الحصول على نسخة من شهادة ميلاد الطفل التى أكدت أن الطفل دانيال جورج ترامبر كان ابن ريبيكا سالمون وتشارلى جورج ترامبر اللذين يقطنان ١٤٧ شارع تشيلسيا . كما أننى لاحظت بدورى أنه كان يحمل اسم جديه من كلا الجانبين . فى خطابى التالى إلى جاى أرسلت له نسخة من شهادة ميلاد الطفل بالإضافة إلى بعض المعلومات الأخرى التى كان هاريس قد أمدنى بها مثل بعض تفاصيل الزواج وتعيين السير هاميلتون رئيسا لمجلس إدارة شركة ترامبر . يجب أن أعترف أننى افترضت أن الأمر قد توقف عند ذلك الحد .

ومع ذلك فبعد ذلك بأسبوعين تلقيت خطابا من جاى افترضت أنه لابد أنه قد أرسله فى نفس الوقت الذى أرسلت له فيه خطابى . شرح لى فى الخطاب كيف اتصل السير دانيفرز بقائده فى الجيش ، الكولونيل فوربس ، ونظرا لأن الكولونيل قد شك فى أن الأمر يمكن أن يكون بمثابة قضية نكث فى العهد فقد كان على

جاى أن يمثل أمام زملائه الضباط لكى يشرح لهم طبيعة العلاقة التى كانت تربطه بالآنسة سالمون .

جلست على الفور وكتبت خطابا طويلا إلى الكولونيل فوربس ؛ لم يكن جاى على ما يبدو فى وضع يسمح له بالدفاع عن نفسه وتقديم الدليل الذى نجحت فى توفيره له . فأرسلت نسخة من شهادة ميلاد الطفل حتى لا يكون هناك أى شك بتورط ابنى فى علاقة مع ابنة سالمون هذه بأى شكل من الأشكال . وأضفت - بدون أن أبدى أى رأى فى الأمر - أن الكولونيل هاميلتون قد عُيِّن رئيسا لمجلس إدارة شركة ترامبر وهى الوظيفة التى كان يحصل مقابلها بالطبع على قدر من المكافأة . كانت المعلومات الأسبوعية المطولة التى كنت أتلقاها من خلال تقارير السيد هاريس الأسبوعية مفيدة للغاية .

عادت الأمور إلى طبيعتها لبعض الوقت وشغل جيرالد نفسه بمهامه البرلمانية بينما ركزت أنا اهتمامى على المسئول الدينى الجديد ولعب الورق .

ولكن المشكلة - مع ذلك - تفاقمت إلى حد لم أكن قد حسبت حسابه عندما اكتشفت مصادفة أننا لم نكن ضمن المدعوين لحضور حفل زفاف دافنى هاركورت براون إلى المركيز ويلتشاير . لم يكن بيرسى بالطبع سيحصل على هذا اللقب ما لم يكن والده وأخوه قد ضحيا بحياتهما فى الجبهة الغربية . ومع ذلك فقد عرفت من بعض الحضور أن الكولونيل هاميلتون وعائلة ترامبر كانوا قد حضروا مراسم الزفاف فى قاعة سانت مارجريت كما حضروا حفل الاستقبال الذى أقيم بعده .

أثناء هذه الفترة واصل السيد هاريس إرسال التقارير الخاصة بشئون عائلة ترامبر وامبراطوريتهم المتنامية فى مجال العمل . لابد أن أقر أننى لم أكن مهتمة بكل تعاملاتهم التجارية ؛ لأن عالمهم هذا كان عالما مبهما تماما بالنسبة لى ولكننى مع ذلك لم أسع لمنع السيد هاريس من إرسال تقاريره لأنها كانت تجعلنى على دراية بكل ما يقوم به خصوم ابنى .

وبعدها بشهور قليلة تلقيت خطابا من الكولونيل فوربس يؤكد فيه تسلم خطابى وفيما عدا ذلك لم تصلنى أية معلومة عن مصير جاى التعس . فافترضت بناء على ذلك ؛ أن كل شىء قد عاد إلى طبيعته وأن خدعة الكولونيل هاميلتون قد قوبلت بالاحتقار والتجاهل الذى تستحقه .

ولكن بعد ذلك فى صباح أحد الأيام من شهر يونيو فى السنة التالية ؛ استدعى جيرالد إلى المكتب الحربى الذى افترض وقتها أنه أحد المهام الروتينية لعمله فى البرلمان .

عندما عاد زوجى إلى ميدان شستر على غير توقع فى عصر نفس اليوم طلب منى أن أجلس وأتناول كأسًا من الشراب قبل أن يقص علىّ الأنباء المؤسفة التى يحملها لى . نادرا ما رأيت زوجى متجهما إلى هذا الحد فجلست فى صمت أسأل نفسى عن الخطب وما الذى يمكن أن يكون قد دفعه إلى العودة إلى المنزل أثناء النهار .

أعلن جيرالد فى مرارة : " لقد قدم جاى استقالته من الخدمة ، سوف يعود إلى إنجلترا فور استكمال كل الأوراق اللازمة " .

سألته وأنا فى حالة ذهول : " لماذا ؟ " .

أجاب جيرالد : " لم يبد أية أسباب . لقد استدعيت للتوجه إلى المكتب العسكرى فى الصباح وقابلت بيلى كاثبيرت ، أحد زملائى فى سلاح الرماية . وأخبرنى على انفراد أن جاى إن كان قد قدم استقالته فهذا يعنى أنه لابد أن يكون قد طرد من الخدمة " .

فى الوقت الذى بقيت فيه فى انتظار عودة جاى إلى إنجلترا ، أخذت أتابع عن كثب كل تفاصيل ازدهار إمبراطورية ترامبر من خلال السيد هاريس مهما بدت المعلومات صغيرة أو تافهة فى ذلك الوقت . ومن بين الصفحات التى كان يرسلها لى المحقق ـ لكى يبرر تقاضى الثمن الباهظ الذى كنت أدفعه له ـ التقطت معلومة شعرت أنها تمثل لعائلة ترامبر نفس الأهمية التى تمثلها لى سمعة ابنى .

توليت مهمة البحث بنفسى عن كل التفاصيل وتفقدت المبنى بنفسى يوم الأحد ثم اتصلت بـ " سافيل " يوم الاثنين وقدمت عرضا بألفين وخمسمائة جنيه . اتصل بى الوكيل فى وقت لاحق من نفس الأسبوع لكى يبلغنى بأن هناك شخصاً ما ـ والذى أدركت أنه لابد أن يكون ترامبر ـ قد قدم عطاء بثلاثة آلاف جنيه . قلت له قبل أن أضع سماعة الهاتف : " إذن قدم عرضاً بأربعة آلاف جنية " .

أكد لى الوكيل فى وقت لاحق من عصر نفس اليوم أننى قد امتلكت بالفعل العقارات ٢٥ إلى ٩٩ من تشيلسيا والمؤلفة من ثمانية وثلاثين شقة . وسوف يعرف ممثل ترامبر ـ كما أكد لى ـ فى الحال هوية جاره .

الفصل ٢٣

عاد جاى ترينثام إلى أعتاب ١٩ ميدان شستر عصر يوم شديد البرودة من شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ بعد أن انتهى جيبسون مباشرة من تقديم شاى الظهيرة ، لن تنسى أمه أبدا ذلك اليوم لأنه عندما دخل عليها جاى غرفة الاستقبال تعرفت عليه بالكاد . كانت السيدة ترينثام تكتب خطابا فوق مكتبها عندما ظهر جيبسون معلنا وصول النقيب جاى .

استدارت فوجدت ابنها يدخل الغرفة ويسير ليقف عند المدفأة منفرج الساقين معطيا ظهره للنار . أخذ يحدق بعينين متسعتين بدون أن ينطق بكلمة واحدة .

حمدت السيدة ترينثام الله أن زوجها لم يكن حاضرا فى ذلك الوقت وأنه كان مشغولا فى أحد اجتماعاته فى مجلس العموم عصر ذلك اليوم وأنه لم يكن يتوقع حضوره إلا بعد تصويت العاشرة مساء .

كان من الواضح أن جاى لم يكن قد حلق ذقنه لعدة أيام فضلا عن أنه كان فى أمس الحاجة إلى تمشيط شعره بينما كانت بذلته فى حالة يرثى لها ولا تشبه بحال البذلة التى كان قد حاكها له جيفز منذ ثلاث سنوات . وقف فى هيئته الرثة موجها ظهره لنيران المدفأة المشتعلة . كان جسده يرتعد بوضوح عندما استدار فى مواجهة والدته . للمرة الأولى لاحظت السيدة تريندام أن ابنها كان يحمل لفافة ورقية بنية اللون تحت ذراعه .

وبالرغم من أنها لم تكن تشعر بالبرودة فإن السيدة تريندام هى الأخرى بدأت ترتعش . بقيت جالسة أمام مكتبها وقد تملكها الشعور بعدم الرغبة فى إحراج ابنها الكبير أو أن تكون الطرف البادئ بالحديث .

قال جاى أخيرا فى نبرة مهزوزة تنم عن عدم الثقة : " ما الذى قيل لك يا أمى ؟ " .

قالت وهى تنظر إليه فى تساؤل : " لا شىء ذا أهمية . ليس أكثر من أنك قد قدمت استقالتك من الخدمة وأنك قد فعلت ذلك لأنه قد تم فصلك " .

اعترف قائلا ، بعد أن تخلص أخيرا من اللفافة التى كان يحملها ووضعها فوق المنضدة المجاورة له : " هذا صحيح ، ولكن فقط لأنهم تآمروا ضدى " .

" تآمروا ؟ " .

" نعم الكولونيل هاميلتون وترامبر وتلك الفتاة " .

سألت السيدة تريندام وهى تشعر بغصة فى حلقها : " هل فضل الكولونيل فوربس شهادة الآنسة سالمون على شهادتى حتى بعد أن كتبت له ؟ " .

" نعم ، نعم ، هذا هو ما حدث . إن الكولونيل هاميلتون مازال رغم كل شىء له أصدقاء كثيرون فى الفرقة ومازال بعضهم يسعد بإسداء الخدمات له إن كان الأمر ينطوى على التخلص من منافس " .

أخذت تتأمله للحظات وهو يتكىء فى توتر على ساقه اليمنى ثم اليسرى وقالت : " ولكننى ظننت فى نهاية المطاف أن الأمر قد سوى . فشهادة الميلاد هذه ــــ " .

" كان يمكن أن يكون الأمر كذلك إن كانت شهادة الميلاد تحمل توقيع تشارلى ترامبر إلى جانب توقيعها ولكن الشهادة لم تكن تحمل سوى توقيعها هى فقط . وما زاد الأمر سوءا هو أن الكولونيل هاميلتون كان قد نصح الآنسة سالمون أن ترفع دعوى خيانة عهد ضدى ولكن بالرغم من براءتى ، فإن اعتراض هذه التهمة طريقى سوف يلوث سمعة الفرقة . لذا فقد شعرت أنه لم يعد أمامى خيار سوى أن أحفظ ماء وجهى وأقدم استقالتى بنفسى " . اكتسبت نبرة صوته المزيد من المرارة وهو يضيف قائلا : " كل هذا حدث لأن ترامبر يخشى أن يعترف بالحقيقة " .

" ما الذى تريد قوله يا جاى ؟ " .

تجنب النظر مباشرة فى عين أمه وهو يتحرك من مكانه أمام المدفأة إلى خزانة المشروبات حيث صب لنفسه كأسا كبيرا من الشراب . لم يلمس زجاجة الصودا وأخذ جرعة كبيرة ، بينما بقيت أمه فى صمت فى انتظار ما سوف يقوله .

قال جاى وهو يتحرك عائدا إلى المدفأة : " بعد معركة مارن الثانية طلب منى الكولونيل هاميلتون أن أجرى تحقيقا عن جبن ترامبر فى ميدان القتال ، رأى الكثيرون أنه يجب أن يقدم إلى

المحاكمة العسكرية . ولكن الشاهد الوحيد الذى كان قد بقى ـ المجند بريسكوت ـ قتل برصاصة طائشة على بعد بضع ياردات قليلة من خنادقنا . كنت أنا الذى سمحت لنفسى للأسف بأن أقود بريسكوت وترامبر نحو خطوطنا وعندما سقط بريسكوت استدرت لكى أجد ابتسامة مرسومة على وجه ترامبر . كان كل ما قاله وقتها هو : " حظ سيئ أيها النقيب ؛ الآن لم يعد لديك شاهد ؛ أليس كذلك ؟ " .

" هل أخبرت أحدًا بما حدث فى ذلك الوقت ؟ " .

عاد جاى إلى خزانة المشروبات لكى يملأ كأسه من جديد وقال : " من الذى كان يمكن أن أقص عليه ما حدث بعد مقتل بريسكوت ؟ كان أقل شىء يمكننى عمله هو أن أضمن حصول بريسكوت على نيشان تكريم . حتى إن كان هذا يعنى أن أدع ترامبر يفلت من قبضتى . ثم اكتشفت فيما بعد أن ترامبر حتى لم يؤكد صحة روايتى لما حدث فى ميدان المعركة مما حال دون حصولى على أعلى درجة تكريم " .

" والآن بعد أن أجبرك على الاستقالة من الخدمة فلن يكون لك أى سبق عليه أى أنها ستكون شهادتك مقابل شهادته " .

" كان يمكن أن يكون الوضع كذلك ما لم يكن ترامبر قد أقدم على خطأ أحمق يمكن أن يكون سبب سقوطه " .

" ما الذى تقصده ؟ " .

استطرد جاى فى حديثه بعد أن بدأ يتمالك نفسه : " حسنا . بينما كانت المعركة على أشدها أنقذت هذين الرجلين . وجدتهما مختبئين فى دار عبادة تعرضت للقذف . فقررت أن نبقى نحن الثلاثة إلى أن يحل الظلام بداخلها ؛ حيث كنت عازما على إعادتهما إلى معسكرنا فى أمان . بينما بقينا فى انتظار غروب الشمس فوق سطح دار العبادة رأيت ترامبر الذى ظن أننى كنت نائما وهو يعود إلى دار العبادة ويسرق صورة رائعة منها . واصلت مراقبته وهو يضع الصورة الزيتية الصغيرة فى جرابه . لم أتفوه بكلمة وقتها لأننى أدركت أننى أملك الدليل على صدق كلامى فضلا عن أنه كان يمكن إرجاع الصورة إلى دار العبادة فى أى وقت لاحق . وعندما وصلنا إلى مؤخرة خطوطنا وضعت يدى على معدات ترامبر حتى يتسنى لنا اعتقاله . ولكننى لدهشتى لم أجد أثرا للصورة " .

" إذن كيف يمكن أن تستخدم هذا كدليل الآن ؟ " .

" لأن الصورة ظهرت ثانية فيما بعد " .

" ظهرت ثانية ؟ " .

قال جاى بعد أن علّى صوته : " نعم لقد أخبرتنى دافنى هاركورت براون أنها قد شاهدت هذه اللوحة معلقة فى غرفة الاستقبال فى منزل ترامبر كما أنها وصفتها لى بالتفصيل مما لا يدع مجالاً للشك فى أن الصورة هى الصورة المقصودة التى سرقت من قبل من دار العبادة " .

" ولكن ليس بوسع أحد أن يقدم على فعل شىء طالما بقيت الصورة معلقة فى منزله " .

" لم تعد كذلك . وهذا هو سبب تنكرى فى هذا الزى " .

قالت له أمه : " كف عن التحدث بالألغاز . وأفصح عما تريد قوله مباشرة يا جاى " .

" لقد زرت عائلة ترامبر صباح اليوم فى منزلهم وأخبرت مديرة المنزل أننى قد خدمت مع سيدها فى الجبهة الغربية " .

" وهل كان هذا تصرفا حكيما يا جاى ؟ " .

" أخبرتها أن اسمى هو فاولر ، العريف دنيس فاولر وأننى كنت أسعى للاتصال بـ " تشارلى " لبعض الوقت . كنت أعلم أنه لم يكن موجودا لأننى شاهدته وهو يغادر لتفقد محلاته فى تشيلسيا قبل ذهابى إلى منزله بدقائق . سألتنى الخادمة - التى بقيت تحدق فىّ فى تشكك - إن كان بوسعى انتظاره فى البهو إلى أن تخبر السيدة ترامبر بوجودى . وقد منحنى هذا وقتًا كافيًا للتوجه إلى الغرفة الأمامية واستعادة الصورة من الموضع الذى وصفته لى دافنى . ثم غادرت المنزل قبل حتى أن يعرفا ما كنت قد جئت من أجله " .

" كن واثقا من أنهم سوف يخطرون الشرطة وأنهم سوف يسعون للقبض عليك " .

قال جاى وهو يلتقط اللفافة البنية الورقية من فوق المائدة ويشرع فى فكها : " لا يمكن أن يحدث هذا . إن آخر شىء يريده ترامبر هو أن تضع الشرطة يدها على هذه اللوحة " . ثم مد يده لوالدته بالصورة .

أخذت السيدة ترامبر تتأمل اللوحة وقالت : " من الآن فصاعدا يمكنك أن تترك أمر السيد ترامبر لى " ، ولم تفصح عن المزيد . ابتسم جاى للمرة الأولى منذ أن وطئت قدمه المنزل . وواصلت حديثها : " مع ذلك يجب أن نركز على المشكلة الحالية الخاصة بمستقبلك . مازلت واثقة من أننى يمكن أن أعثر لك على عمل مناسب فى المدينة . لقد تحدثت بالفعل مع ـــــ " .

" لن يجدى هذا يا أمى وأنت تعلمين ذلك جيدا . لم يعد لدىّ مستقبل فى إنجلترا فى الوقت الحالى أو على الأقل علىّ أن أدفع التهمة عن نفسى . على أية حال ، لا أريد أن أبقى فى لندن لكى

أكون مطالبا بتفسير سبب تركى الخدمة لكل من أقابله . كلا ، يجب أن أسافر إلى الخارج إلى أن تهدأ الأمور قليلا " .

قالت والدة جاى : " إذن سوف أكون بحاجة إلى المزيد من الوقت للتفكير ، وفى هذه الأثناء اصعد واستحم واحلق وابحث لنفسك عن ملابس ترتديها وسوف أفكر فيما يجب علىّ عمله " .

وبمجرد أن غادر جاى الغرفة عادت السيدة ترينثام إلى مكتبها ووضعت اللوحة الزيتية الصغيرة فى درج مكتبها الأيسر السفلى وأغلقت عليها الدرج بالمفتاح . ثم بدأت تفكر فى المشكلة الأكثر أهمية وما يجب عمله لحماية اسم ترينثام .

بينما كانت تحدق من خلال النافذة ، بدأت الخطة تتبلور فى رأسها . بالرغم من أن الخطة كانت ستستنزف الكثير من مواردها المالية فإنها يمكن أن تمنحها على الأقل الإيقاع الأكثر هدوءا الذى كانت تتطلع إليه لكى تنال من ترامبر وتكشف حقيقة أمره كسارق وكاذب وتبرئ ساحة ابنها .

أدركت السيدة ترينثام أنها لا تملك سوى خمسين جنيها نقدا فى خزانة غرفة نومها ولكنها كانت مازالت تملك ستة عشر ألف جنيه من العشرين ألفا التى منحها إياها والدها فى يوم زواجها . " سوف تكون دائما موجودة لمواجهة أى حالة طوارئ " . هكذا قال لها والدها فى حكمة .

أخرجت السيدة ترينثام قطعة ورق من الدرج وبدأت تدون بعض الملاحظات . كانت تعلم جيدا أنه بمجرد أن يغادر ابنها ميدان شستر فى مساء نفس اليوم فإنه لن يتسنى لها رؤيته ثانية قبل مرور وقت طويل . وبعدها بأربعين دقيقة أخذت تراجع ما دونته :

٥٠ جنيهاً (نقدا)
سيدنى
العودة
المعطف العسكرى
٥٠٠٠ جنيه (شيك)
مزاد سوثباى
الصورة
الشرطة المحلية

انقطع حبل أفكارها بدخول جاى عليها وقد بدا لها فى هذه المرة أكثر شبها بابنها الذى تذكره . كان يرتدى سترة وبنطال فروسية بدلا من البدلة الرثة التى كان يرتديها عندما دخل عليها ، كما أن بشرته بالرغم من أنها كانت تبدو شاحبة فإنها كانت على الأقل نظيفة وحليقة . طوت السيدة ترينثام قطعة الورق بعد أن استقر رأيها أخيرا على الخطة التى يجب أن تتبعها .

قالت : " والآن اجلس وأنصت إلىّ جيدا " .

غادر جاى ترينثام ميدان شستر بعد التاسعة بقليل ؛ قبل موعد رجوع والده من مجلس العموم بساعة . كان يحمل ثلاثة وخمسين جنيها نقدا ، ومعه شيك بخمسة آلاف جنيه فى جيبه الداخلى . كان قد اتفق مع والدته أنه سوف يرسل خطابا لأبيه فى اللحظة التى تطأ فيه قدمه سيدنى لكى يشرح له فيه سبب سفره مباشرة إلى هناك . وقد تعهدت له والدته قبل رحيله أنها سوف تبذل كل ما فى وسعها لكى تبرئ ساحته حتى تتسنى له العودة ثانية إلى إنجلترا مرفوع الرأس ويتخذ مكانه المستحق كرأس للعائلة .

كانت التعليمات قد صدرت للخادمين الوحيدين اللذين شاهدا النقيب ترينثام فى تلك الليلة هى تكتم هذه الزيارة عن أى شخص وخاصة زوج السيدة ترينثام حتى لا يفقدا عملهما فى المنزل .

كانت المهمة الوحيدة التى بقيت أمام السيدة ترينثام قبل عودة زوجها إلى المنزل فى مساء ذلك اليوم هى الاتصال بالشرطة المحلية . رد عليها الشرطى ريجلى ودون البلاغ .

على مدى الأسابيع التى بقيت فيها فى انتظار وصول خطاب ابنها ، لم تستسلم السيدة ترينثام للراحة بدون أن تفعل شيئا . فى نفس اليوم الذى أبحر فيه جاى إلى أستراليا قامت بإحدى زياراتها الدورية إلى فندق سانت آجنيس حاملة لفافة تحت ذراعها . سلمتها للسيد هاريس قبل أن تقدم له مجموعة من التعليمات المفصلة .

وبعدها بيومين ؛ أخبرها المحقق أن اللوحة قد سلمت لدار مراهنات بنتلى وأنها لا يمكن أن تطرح للبيع قبل ما لا يقل عن خمس سنوات بعد انتهاء تاريخ الرهن المدون على التذكرة ، سلمها صورة للوحة وفاتورة تثبت ملكيتها لها . وضعت السيدة ترينثام الصورة فى حقيبتها ولم تزعج نفسها بسؤال هاريس عن الخمسة جنيهات التى سددها للصورة .

قالت وهى تضع حقيبتها على الكرسى المجاور لها : " جيد ، بل جيد للغاية " .

سألها هاريس : " إذن هل تحبين أن أرشدك إلى الرجل الصحيح فى سكوتلاند يارد الذى يوجد فى اتجاه بنتلى ؟ " .

قالت السيدة ترينثام : " بالطبع لا ، أريدك أن تجرى لى بحثا صغيرا عن اللوحة قبل أن تقع عين أى أحد عليها ، فإن كانت معلوماتى صحيحة فهذا يعنى أن المرة التالية التى سوف تعرض فيها هذه اللوحة على الجمهور سوف تكون يوم المزاد الذى سيقيمه سوثباى " .

الفصل ٢٤

" صباح الخير يا سيدتى ، أعتذر عن هذا الإزعاج " .

قالت السيدة ترينثام للشرطى الذى أعلن لها جيبسون أنه المحقق ريتشاردز : " ليس هناك إزعاج " .

قال المحقق : " لست أنت ما كنت أود أن أراه فى الواقع يا سيدتى وإنما ابنك ، النقيب جاى ترينثام " .

" إذن عليك أن تقطع رحلة طويلة إلى أن تعثر عليه أيها المحقق " .

" ماذا تقصدين يا سيدتى " .

قالت السيدة ترينثام : " إن ابنى أصبح يدير أعمال العائلة فى استراليا حيث أصبح شريكا فى إحدى شركات تجارة الماشية هناك " .

عجز ريتشاردز عن إخفاء دهشته وهو يقول : " ومنذ متى سافر إلى هناك يا سيدتى ؟ " .

" منذ وقت طويل أيها المحقق " .

" هل يمكن أن تكونى أكثر دقة ؟ " .

" لقد غادر النقيب تريننثام إنجلترا إلى الهند فى فبراير من عام ١٩٢٠ مع فرقته العسكرية . كان قد فاز بنيشان تكريم فى معركة مارن الثانية ؛ كما تعلم " ، ثم نظرت إلى المحقق . كانت العبارة قد تركت لديه انطباعًا لا بأس به ثم استطردت حديثها :

" بالطبع لم تكن لديه أية نية للبقاء فى الجيش ولكننا كنا قد قررنا أن يقوم بجولة فى المستعمرات قبل أن يعود لتولى إدارة أعمال العائلة فى بيكشاير " .

" ولكن هل عاد إلى إنجلترا قبل أن يتولى شئون العائلة فى أستراليا ؟ " .

قالت السيدة تريننثام : " للأسف لا ؛ أيها المحقق ، فبمجرد أن قدم استقالته ؛ سافر مباشرة إلى أستراليا لكى يتولى مهام منصبه الجديد . إن زوجى - عضو برلمان بيكشاير كما تعرف - يمكن أن يوافيك بكل التفاصيل الخاصة بالتواريخ " .

" لسنا بحاجة إلى إزعاجه بهذا الأمر يا سيدتى " .

" ولماذا — إن سمحت لى - تريد أن تقابل ابنى فى المقام الأول ؟ " .

" نحن نجرى تحقيقا بشأن سرقة لوحة فى تشيلسيا " .

لم تعلق السيدة تريننثام بكلمة ؛ فواصل المحقق حديثه : " هناك شخص ما تنطبق عليه مواصفات ابنك كان قد شوهد فى الجوار مرتديا زيًا عسكريًا قديمًا . كنا نأمل أن يساعدنا فى التحقيقات الجارية " .

" ومتى وقعت الجريمة ؟ " .

" فى شهر سبتمبر الماضى يا سيدتى ، وبما أننا لم نعثر بعد على اللوحة فإننا مازلنا نواصل التحقيق فى هذا الأمر " ، نكست السيدة تريننثام رأسها قليلا وهى تتلقى هذه المعلومة وواصلت استماعها بإمعان عندما واصل قائلاً : " ولكننا علمنا الآن أن الشخص المذكور لم يكن موجودا ؛ ربما يعنى هذا أننا سوف نغلق ملف القضية عما قريب . هل هذا ابنك ؟ " .

سأل المحقق وهو يشير إلى صورة جاى فى زيه العسكرى الكامل الموضوعة فوق المنضدة الجانبية .

" هو بالفعل أيها المحقق " .

" لا تنطبق عليها تماما المواصفات التى سجلت لدينا " . هكذا قال الشرطى وقد ارتسمت عليه علامات الحيرة . " على أية حال ؛ كما تقولين ؛ لابد أنه كان فى استراليا فى وقت وقوع الحادث . إنها حجة دامغة " . ابتسم المحقق فى تملق ومع ذلك لم تغير السيدة تريننثام من تعبير وجهها .

سألت فى برود : " أنت لا تعنى بذلك أن ابنى قد تورط بشكل أو بآخر فى حادث السرقة ؛ أليس كذلك ؟ .

" بالطبع لا يا سيدتى . ولكننا فقط عثرنا على معطف يحمل علامة جيفز ؛ ترزى سافيل وقد أكد لنا أنه كان هناك جندى كبير فى السن هو الذى —— " .

قالت السيدة تريننثام فى احتقار : " إذن لابد أنك قد عثرت على السارق الذى تبحث عنه " .

" كلا يا سيدتى ؛ لأن الرجل الذى عثرنا عليه كان بساق واحدة " .

لم تبد السيدة تريتثام أى بادرة اهتمام ، وقالت : " إذن أعتقد أنك يجب أن تتصل بشرطة تشيلسيا ، لأننى واثقة من أنهم سوف يمدونك بالمزيد من المعلومات عن الأمر " .

أجاب المحقق وقد بدا أكثر تحيرا : " ولكننى من نقطة شرطة تشيلسيا " .

نهضت السيدة تريتثام من فوق الأريكة وسارت ببطء نحو مكتبها وفتحت أحد الأدراج واستخرجت ورقة . قدمتها للمحقق . احمر وجه المحقق وهو يقرأ محتويات الورقة . وبعد أن استكمل القراءة ، أعادها إليها ثانية .

" أعتذر بشدة يا سيدتى . لم تكن لدىّ فكرة عن أنك قد أبلغت عن اختفاء المعطف فى نفس يوم الحادث . سوف أوبخ الشرطى ريجلى بشدة على ما بدر منه عندما أعود إلى القسم " . لم تبد السيدة تريتثام أى استجابة لكى تخفف من وطأة حرج المحقق .

قال : " حسنا ، لن أهدر المزيد من وقتك ، سوف أخرج بنفسى " .

انظرت السيدة تريتثام إلى أن سمعت الباب وهو يغلق وراءه قبل أن تلتقط سماعة الهاتف لكى تطلب رقمًا معينًا فى بادينجتون .

طلبت من المحقق طلبا واحدا فقط قبل أن تعيد السماعة إلى مكانها .

كانت السيدة تريتثام تعرف أن جاى لابد أن يكون قد وصل بسلام إلى أستراليا عندما تأكدت من أن الشيك قد صرف من كوتس من خلال أحد البنوك فى سيدنى . وصل الخطاب الموعود إلى أبيه بعد سفره بستة أسابيع . عندما أخبرها جيرالد بمحتوى الخطاب

وبأن جاى قد التحق للعمل بشركة تجارة مواشى فى سيدنى ، تظاهرت بالدهشة أمام تصرف ابنها غير المتوقع ، ولكن زوجها لم يبد على أية حال أى قدر من الاهتمام من جانبه .

على مدى الشهور التالية ، جاءت تقارير هاريس الشهرية تؤكد على أن شركة ترامبر الجديدة أصبحت تنتقل من نجاح إلى نجاح ومع ذلك فقد كانت الابتسامة ترتسم دائما على وجه السيدة تريتثام كلما تذكرت مدى نجاحها بمبلغ لا يتعدى أربعة آلاف جنيه فى التصدى لطموحات تشارلى ترامبر .

لم ترتسم هذه الابتسامة ثانية على وجه السيدة تريتثام إلا عندما تلقت خطابا من سافيل بعد مرور بعض الوقت يقدم لها فرصة لتسديد نفس الضربة ثانية لـ " ريبيكا ترامبر " والتى كانت قد سددتها من قبل لـ " تشارلى ترامبر " حتى إن كان السعر فى هذه المرة مرتفعا قليلا عنه ذى قبل . تفقدت حسابها فى البنك وشعرت بالارتياح عندما أدركت أنه سوف يفى بتحقيق الهدف الذى وضعته نصب عينها .

على مدى السنوات كان سافيل يحرص على إخطار السيدة تريتثام بكل متجر يطرح للبيع فى تشيلسيا ولكنها مع ذلك لم تسع للتصدى لترامبر عند إقدامه على شراء أى منها اقتناعا منها بأن صفقة الشقق كانت كافية لتدمير خطته طويلة المدى فيما يخص حدائق تشيلسيا . ومع ذلك فإنه عندما تم إرسال تفاصيل العقار رقم ١ فى شارع تشيلسيا أدركت أن الظروف المحيطة بالصفقة مختلفة تماما عن الصفقات السابقة . لم يكن العقار رقم ١ المتجر الذى يحتل زاوية الشارع فى مقابل شارع فولهام وأكبر عقار فى الشارع فحسب وإنما كان أيضا منشأة ذات ثقل ومعرضا للتحف والمزادات . كما أنه

كان فضلا عن ذلك الهدف الذى أعدت له السيدة ترامبر والذى عملت من أجله على مدى سنوات فى جامعة بيدفورد وسوثباى فيما بعد .

كان هناك خطاب مرفق بفاتورة البيع يسأل إن كنت السيدة ترينثام تود أن تنيب عنها من يشارك فى المزاد الذى سوف يعقده السيد فوثرجيل صاحب المتجر الحالى بنفسه .

أعادت الرد فى نفس اليوم معربة عن شكرها لـ " سافيل " ومؤكدة على رغبتها فى القيام بالمزايدة بنفسها ومعرفة السعر التقريبى الذى يمكن أن يصل إليه العقار .

جاء رد سافيل مشتملا على الكثير من الافتراضات والتحفظات نظرًا لأن العقار كان فريدًا فى ذاته . كما أنه أشار أيضاً إلى أنه لم يكن مؤهلا للإعراب عن رأيه فيما يخص قيمة العقار . ومع ذلك فقد خلص إلى أن السعر سوف يقارب الأربعة آلاف جنيه .

على مدى الأسابيع التالية ؛ حرصت السيدة ترينثام على حجز مقعد خلفى فى كل المزادات التى تقام فى قاعة كريستى بشكل منتظم ومراقبة كل ما يجرى عن كثب وطريقة سير المزاد . لم تومئ أو ترفع يدها مرة واحدة . كانت تريد أن تكون واثقة من أنه عندما يحين الوقت المناسب للمزايدة سوف تكون قد امتلكت كل المعرفة اللازمة ببروتوكولات مثل هذه الأمور .

وفى صباح المزاد الخاص بالعقار رقم ١ من حدائق تشيلسيا ؛ دخلت السيدة ترينثام القاعة مرتدية ثوبًا أحمر غامقاً طويلاً يصل إلى الأرض . وتخيرت مقعدا فى الصف الثالث وجلست فوقه قبل بدء المزاد بعشرين دقيقة . ظلت عيناها تدوران فى كل اتجاه وهى تراقب كل المشاركين فى اللعبة وهم يدخلون القاعة ويتخذون

مجالسهم . وصل ريكسال متأخرا بضع دقائق بعدها وجلس فى منتصف الصف الأمامى . بدا متجهما ولكن مصمما . كان يبدو تماما مثلما وصفه السيد هاريس ؛ كان فى منتصف الأربعينات من العمر ؛ شديد البنيان ؛ وأصلع الرأس . ونظرا لزيادته المفرطة فى الوزن فقد بدا لها أكثر من سنه الحقيقى بسنوات . كانت بشرته داكنة وكان كلما نكس رأسه بدا وكأن له عدة ذقون . عندها قررت السيدة ترينثام أنها إن فشلت فى اقتناء العقار رقم ١ من تشيلسيا فإنه يجدر بها أن تسعى للقاء السيد ريكسال .

فى التاسعة وخمسين دقيقة تحديدا وصل الكولونيل هاميلتون وزميلاه وساروا فى المشى إلى أن جلسوا فى المقاعد الخالية خلف السيدة ترينثام مباشرة . وبالرغم من أنها نظرت إلى الكولونيل فإنه لم يبد أية إشارة تنم عن معرفته بها . وفى التاسعة وخمسين دقيقة لم يكن قد ظهر أى أثر للسيد أو السيدة ترامبر .

كان سافيل قد حذر السيدة ترينثام من أن ترامبر يمكن أن ينيب عنه ممثلا خارجيا ، ولكن من كل المعلومات التى كانت قد جمعتها هى عن الرجل على مدى سنوات ؛ تأكد لها أنه لا يمكن أن يسمح لشخص خارجى أن يجرى المزاد نيابة عنه . لم تشعر بالإحباط عندما دقت الساعة خلف صندوق المزاد العاشرة إلا خمس دقائق حيث وجدت ترامبر يشق طريقه داخل القاعة . وبالرغم من أنه كان قد كبر عدة سنوات عما كان عليه فى الوقت الذى التقطت له فيه الصورة التى كانت تحملها بين يديها فإنها كانت واثقة من أنه تشارلى ترامبر . كان يرتدى بذلة أنيقة جيدة الحياكة ساعدته على إخفاء مشكلة الوزن الذى كان قد اكتسبه مؤخرا . كانت الابتسامة لا تفارق فمه إلا نادرا بالرّغم من أنها كانت قد خططت للتخلص

منها . بدا وكأنه يريد أن يُعلم كل شخص أنه قد حضر ، حيث كان يحرص على مصافحة كل من يعرفه ويثرثر مع العديد من الأشخاص قبل أن يجلس فى مقعده المحجوز على بعد أربعة صفوف منها . أدارت السيدة ترينثام مقعدها قليلا لكى تراقب كلاً من ترامبر والقائم بأعمال المزاد بدون أن تكون بحاجة لأن تستدير فى كل مرة .

وفجأة نهض السيد ترامبر من مقعده وسار نحو مؤخرة القاعة ، فقط لكى يلتقط فاتورة البيع من عند مائدة الدخول قبل أن يعود ثانية إلى كرسيه على جانب المر . شكت السيدة ترينثام فى أن هذا السلوك كان وراءه دافع معين . أخذت عيناها تدوران فى كل مكان وتتفقدان كل صف . وبالرغم من أنها لم تتبين أى شىء ذا أهمية فإنها شعرت بحالة من عدم الارتياح .

مع حلول الوقت الذى صعد فيه السيد فوثرجيل درجات السلم إلى منصة المزاد ، كانت القاعة قد امتلأت بالفعل . وبالرغم من أن كل المقاعد قد امتلأت بقيت السيدة ترينثام غير قادرة على تبين ما إن كانت السيدة ترامبر موجودة من بين الحضور أم لا .

ومنذ اللحظة التى نادى فيها السيد فوثرجيل على المزايدة الأولى ، سارت المزايدة على نحو غير الذى تصورته السيدة ترينثام أو الذى خططت له . لم يكن أى شىء شهدته لدى قاعة كريستى قد مكنها من التنبؤ بما سوف تؤول إليه الأمور فى نهاية المطاف . أعلن السيد فوثرجيل بعدها بما يقرب من ست دقائق قائلاً : " بيع العقار مقابل اثنى عشر ألف جنيه للسيدة جيرالد ترينثام " .

شعرت السيدة ترينثام بالحنق من نفسها لأنها أثارت كل هذه الجلبة على الملأ حتى بالرغم من أنها نجحت فى اقتناء محل

التحف وتسديد ضربة موجعة لـ " ريبيكا ترامبر " . ولكنها كانت قد حققت هذا الهدف مقابل سعر باهظ حتى إنها لم تكن واثقة من أنها تملك المال الكافى فى حسابها الخاص لتغطية المبلغ الذى ألزمت نفسها بدفعه .

بعد ثمانين يوما من البحث المستفيض فكرت خلالها فى مفاتحة زوجها فى الأمر وحتى والدها لكى يقرضها فارق الثمن ولكنها قررت أخيرا أن تضحى بالألف ومائتى جنيه التى أودعتها كمقدم شراء وأن تنسحب وتضمد جراحها . كان البديل هو أن تعترف لزوجها بما حدث لشراء العقار رقم ١ فى تشيلسيا فى ذلك اليوم .

لم يكن هناك تعويض مع ذلك . فهى لن تعود بحاجة لاستخدام سوثباى عندما يحين وقت طرح اللوحة المسروقة .

على مر الشهور ، بقيت السيدة ترينثام تتلقى بانتظام خطابات من ابنها ، من سيدنى فى بادئ الأمر ثم من ميلبورن يخبرها فيها بمدى ما أحرزه من تقدم . كان يطالبها فى معظم خطاباته أن ترسل له المزيد من المال لأن شركته ـ كما كان يروى لها ـ كانت كلما نمت ، كانت بحاجة لمزيد من رأس المال لكى يضمن حصته الأصلية . حصل بشكل إجمالى على ستة آلاف جنيه تسلمها من خلال البنك فى سيدنى على مدى أكثر من أربع سنوات ؛ وهو ما لم يثر يوما ضيق السيدة ترينثام طالما بقيت واثقة من أن جاى كان يحرز نجاحا فى مهنته الجديدة . شعرت أيضا أنها واثقة أنها بمجرد أن تكشف حقيقة تشارلى ترامبر كلص وكاذب سوف يكون ابنها قادرا على العودة على إنجلترا بعد تبرئة ساحته حتى أمام والده .

وفجأة ، وتحديدا فى اللحظة التى بدأت تشعر فيها السيدة ترينثام أن الوقت قد حان لتنفيذ خطتها إذا ببرقية تصلها من ميلبورن . لم يترك العنوان الذى أرسل منه هذا النبأ الصاعقة خيارا للسيدة ترينثام إلا أن تغادر إلى هذه المدينة البعيدة بدون أى تأخر .

عندما أخبرت جيرالد على العشاء فى تلك الليلة أنها قد عزمت على الرحيل إلى الجهة المقابلة من الأرض فى أول فرصة ممكنة ، قوبل النبأ بتجاهل مهذب من جانبه . لم يكن هذا بمثابة مفاجأة لأن اسم جاى كان نادرا ما يأتى على شفاه زوجها منذ اليوم الذى زار فيه المكتب الحربى منذ أكثر من أربع سنوات . بل إن العلامة الوحيدة التى كانت قد بقيت على وجه الأرض لـ " جاى " فى آشورست هول أو ميدان شيستر هى صورته الوحيدة فى كامل ملابسه العسكرية والتى كانت موضوعة فوق منضدة غرفة نومها ونيشان التكريم الذى سمح جيرالد ببقائه فوق المدفأة .

كان جيرالد ينظر إلى نيجيل باعتباره ابنه الوحيد .

كان جيرالد ترينثام يعرف جيدا أن زوجته قد أخبرت كل أصدقائه وأصدقائها أن جاى كان شريكا ناجحا فى إحدى شركات تجارة المواشى فى أستراليا ومع ذلك فإنه كان قد كف منذ زمن طويل عن تصديق مثل هذه الروايات حتى إنه كف مؤخرا عن الاستماع إليها . وكلما كان الخطاب المألوف يصله فى نفس اليد المألوفة عن طريق صندوق بريد ميدان شيستر ، لم يكن جيرالد ترينثام يسعى لاستقصاء أخبار ابنه ومدى ما أحرزه من تقدم .

كانت السفينة التالية المتوجهة إلى أستراليا هى إس إس أورنتيس والتى كان من المزمع أن تبحر من ساوتهامبتون فى الاثنين

التالى . أبرقت السيدة ترينثام إلى نفس العنوان الذى أرسل لها من ميلبورن لكى تخطرهم بموعد وصولها المرتقب .

بدت الرحلة الممتدة لخمسة أسابيع عبر محيطين لا نهائية للسيدة ترينثام وخاصة أنها كانت قد آثرت العزلة داخل كبينتها بدون أن يكون لديها أية رغبة فى اكتساب معارف عابرة مع أى شخص على متن السفينة ، أو الأسوأ من ذلك أن تقابل أى شخص يعرفها بالفعل . فضلا عن أنها رفضت عدة دعاوى على مائدة عشاء القبطان .

وبمجرد أن رست السفينة فى سيدنى ؛ استراحت السيدة ترينثام ليلتها فى المدينة قبل أن تواصل رحلتها إلى ميلبورن . وفور وصولها إلى شارع سبنسر ركبت سيارة أجرة قادتها مباشرة إلى مستشفى رويال فيكتوريا حيث أخبرتها الممرضة وكأنها تقر أمرًا واقعًا أن ابنها لم يبق له إلا أسبوع واحد لكى يعيشه .

سمحوا لها على الفور برؤيته كما قادها الشرطى إلى الجناح الخاص بالسجناء . وقفت بجواره وهى تحدق فى عدم تصديق فى هذا الوجه الذى عرفته بالكاد . كان معظم شعره قد تساقط كما كان قد اكتسب لونا رماديا وكانت الخطوط فوق وجهه عميقة إلى الحد الذى جعل السيدة ترينثام تشعر وكأنها تقف بجوار زوجها وهو على فراش موته .

أخبرها الطبيب أن هذه الحالة التى لم تكن من الحالات غير الشائعة تحدث فور صدور الحكم ويدرك الشخص أنه حكم نهائى لا أمل فى استئنافه . بعدما وقفت عند نهاية فراشه لما يقرب من ساعة ، غادرت بدون أن تتمكن من استخراج كلمة واحدة من فم

ابنها . ولم تسمح فى أى وقت لأى شخص من العاملين فى المستشفى أن يتبين مشاعرها الحقيقية .

فى هذه الليلة ؛ حجزت السيدة ترينثام لنفسها غرفة فى أحد الأندية الريفية على حدود ميلبورن . وطلبت طلبا واحدا فقط من صاحب المكان الشاب المهاجر وكان يدعى السيد سنكلير سميث قبل أن تنزوى فى غرفتها .

فى صباح اليوم التالى ؛ توجهت إلى أقدم شركة محاماة فى ميلبورن وتدعى أسجارث وجينكنز وشركاه . جاءها شاب صاحب وجه غير مألوف وسألها : " ما الخطب ؟ "

ردت السيدة ترينثام : " أود أن أتحدث مع شريكك الأكبر سنًا " .

قال لها : " إذن عليك بالانتظار فى غرفة الاستقبال " .

جلست السيدة ترينثام وحيدة لبعض الوقت قبل أن يتمكن السيد أسجارث من مقابلتها .

جاء الشريك الأكبر سنا ـ كان رجلا كبير السن وكانت ملابسه توحى بأنه تلقى تعليمه فى لينكولن إين فيلدز وليس شارع فيكتوريا ؛ ميلبورن ـ واستمع فى صمت إلى قصة السيدة ترينثام المؤسفة ووافق على أن يحل لها مشاكلها فيما يتعلق بممتلكات جاى ترينثام . ثم وعدها فى النهاية أنه سوف يتقدم بطلب للسماح بنقل الجثمان إلى إنجلترا .

ظلت السيدة ترينثام تزور ابنها فى المستشفى يوميًا على مدى الأسبوع الذى سبق وفاته . وبالرغم من الحوارات المقتضبة التى كانت تدور بينهما إلا أنها أدركت أن هناك مشكلة واحدة كان عليها أن تتعامل معها قبل أن تأمل فى الرجوع إلى إنجلترا .

فى عصر يوم الأربعاء ؛ عادت السيدة ترينثام إلى مكتب أسجارث وجينكنز وشركاه طلبا لنصيحة الشريك الأكبر سنا فيما يمكن عمله فى الأمر الذى كان يشغل بالها . أجلس المحامى كبير السن موكلته فوق أحد المقاعد قبل أن يصغى إليها جيدا . كان ـ من آن إلى آخر ـ يقوم بتدوين بعض ما تقوله فى إضمامة موضوعة أمامه . وعندما انتهت السيدة ترينثام من حديثها ؛ بقى لوقت طويل صامتا بدون أن يطرح رأيا .

قال المحامى : " يجب أن يكون هناك تغيير فى الاسم ، إن كنت لا تريدين ألا يعرف أى شخص بما يدور فى رأسك " .

قالت السيدة ترينثام : " كما يجب أن نتأكد أنه ليس هناك سبيل لاقتفاء أثر والدها فى أى وقت فى المستقبل " .

تجهم المحامى كبير السن وقال : " سوف يتطلب هذا منك أن تبذلى مبلغا كبيرا من المال للـــ " ، ثم راجع الاسم الذى كان قد دونه على عجل فى الإضمامة أمامه " آنسة بنسون " .

قالت السيدة ترينثام : " ادفع لها كل ما تريد حتى نضمن سكوتها . سوف يتولى كوتس فى لندن كل الأمور المالية " .

أومأ المحامى وعكف على ملازمة مكتبه إلى ما يقرب من منتصف الليل على مدى أربعة أيام متتالية إلى أن نجح فى إعداد كل الأوراق اللازمة لموكلته قبل موعد سفرها المحدد إلى لندن ببضع ساعات .

أعلن الطبيب وفاة جاى ترينثام فى السادسة وثلاث دقائق فى صباح الثالث والعشرين من أبريل عام ١٩٢٧ ، وفى اليوم التالى بدأت السيدة ترينثام رحلتها الحزينة إلى إنجلترا مصحوبة بجثمان ابنها . كانت تشعر بالارتياح لكون شخصين فقط فى تلك القارة هما

تشارلى

١٩٢٦ - ١٩٤٥

اللذين يعرفان ما كانت تعرفه ؛ كان أحدهما رجلاً مسناً على بعد بضعة أشهر فقط من سن التقاعد ، والشخص الثانى سيدة أصبح بوسعها الآن أن تقضى باقى حياتها فى ترف لم تكن تحلم به منذ عدة أيام قليلة فقط .

أرسلت السيدة ترينشام برقية إلى زوجها قبل إبحارها من ساوثهامبتون أخبرته فيها بأقل قدر ممكن من التفاصيل وغادرت فى نفس السرية التى وصلت بها . وعندما وطئت الأراضى الإنجليزية بقدمها ؛ اقتيدت على الفور إلى منزلها فى ميدان شستر . أخبرت زوجها بكل تفاصيل المأساة ووافق على مضض على إصدار نعى فى صحيفة التايمز فى اليوم التالى وكان هذا نصه :

" إعلان نبأ وفاة النقيب جاى ترينشام ؛ الحاصل على نيشان التكريم العسكرى ؛ بعد معاناة طويلة مأساوية مع مرض السل . تقام الجنازة فى قاعة سانت مارى ؛ آشورست ؛ بيكشاير فى الثلاثاء الثامن من شهر يونيو ؛ ١٩٢٧ " .

تمت مراسم الجنازة للعزيز الراحل . وكانت وفاته - كما أكد فى رثائه للراحل - مأساة لكل من عرفه .

وورى جاى ترينشام الثرى فى المدفن الذى كان من المفترض أن يدفن فيه أبوه من قبله . غادر العقيد والسيدة ترينشام والأقارب والأصدقاء والخدم المدفن ناكسى الرأس .

على مدى الأيام التالية ؛ تلقت السيدة ترينشام مئات من خطابات التعازى ؛ أشار واحد أو اثنان منها إلى أن عزاءها الوحيد هو أن لها ابناً ثانياً يمكن أن يحل محل جاى .

وفى اليوم التالى حلت صورة نيجيل محل صورة أخيه الأكبر فوق المنضدة الجانبية .

الفصل

٢٥

كنت أسير فى حدائق تشيلسيا بصحبة توم آرنولد فى جولة صباح الاثنين عندما بادرنى معرباً عن رأيه .

قلت له : " لن يحدث هذا أبدا " .

" قد تكون محقا يا سيدى ولكن هناك الكثير من أصحاب المحلات ممن بدأ يعتريهم الذعر " .

قلت له : " إنهم زمرة جبناء . مع وجود ما يقرب من مليون عاطل ؛ لابد أن تكون الحفنة القليلة العاملة قد فقدت صوابها لكى تقدم على الاشتراك فى إضراب عام " .

" ربما ولكن لجنة التاجر مازالت تنصح أعضاءها بتوخى الحذر " .

" سيْد ريكسال سوف ينصح أعضاءه بتوخى الحذر من أن يرفع كلب ساقه لكى يبول على جدار الموسكيتير . أى أن الحيوان المسكين لن تتسنئ له حتى فرصة التبول " .

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفاه توم وقال : " إذن لقد تأهبت من أجل المعركة يا سيد ترامبر ؟ " .

" بكل تأكيد . سوف أساند السيد تشرشل على طول الطريق " ، ثم توقفت لكى أتفقد نافذة عرض محل القبعات والكوفيات وسألت : " كم يبلغ عدد الموظفين العاملين لدينا حاليا ؟ " .

" واحداً وسبعين " .

" وكم من بينهم تعتقد أنه سوف يشارك فى الإضراب ؟ " .

" نصف دستة أو عشرة على الأكثر ، وفقط هؤلاء المنتمون إلى اتحاد العاملين فى المتاجر . ولكن هناك مشكلة مازالت ستواجه على الأرجح باقى الموظفين وهى أنهم لن يجدوا وسيلة مواصلات تقلهم إلى العمل بسبب توقف وسائل النقل " .

" إذن ، أعد لى قائمة بأسماء الأشخاص المحتمل تورطهم الليلة وسوف أتحدث مع كل واحد منهم على مدى هذا الأسبوع . قد يتسنى لى على الأقل إقناع واحد أو اثنين بمستقبلهم على المدى الطويل فى شركتنا " .

" وماذا عن المستقبل طويل المدى للشركة إن حدث الإضراب بالفعل ؟ " .

" متى ستثوب إلى رشدك يا توم ؟ ليس هناك شىء يمكن أن يؤثر على شركة ترامبر " .

" ولكن سيْد ريكسال يرى أن — " .

" أؤكد لك أنه لا يدرى شيئا عن هذا الأمر تحديدا " .

" يعتقد أن هناك ثلاثة محلات على الأقل سوف تطرح للبيع على مدى الشهر التالى ، أما إن حدث إضراب فسوف يزيد هذا العدد فجأة بدرجة كبيرة . إن عمال المناجم يسعون لإقناع — " .

أجبته مقاطعاً : " ليس هناك شخص يمكن أن يؤثر على تشارلى ترامبر . لذا احرص على إخبارى فورا بأى شخص يريد أن يبيع ؛ لأننى مازلت مشتريا " .

" فى الوقت الذى سيكون فيه الكل بائعين ؟ " .

" هذا هو تحديدا الوقت الذى يجب أن تقدم فيه على الشراء " .

" إن الوقت الذى يجب أن تركب فيه الترام هو الوقت الذى يقدم فيه الآخرون على مغادرته . أعد لى قائمة الأسماء يا توم وسوف أذهب فى هذه الأثناء إلى البنك " ، ثم سرت فى اتجاه نايتسبريدج .

داخل مكتبه الجديد فى شارع برومبتون ؛ أخبرنى هادلو أن شركة ترامبر أصبحت تملك ما يزيد قليلا على اثنى عشر ألف جنيه فى حسابها ؛ إنه مبلغ معقول جدا - على حد قوله فى حالة وقوع إضراب .

قلت له فى إعياء : " وأنت أيضا تقول إضراب ؟ إن الإضراب لن يحدث أبدا ، وحتى إن حدث فسوف ينتهى فى غضون أيام " .

قال هادلو وهو يحدق فىَّ من خلال نظارته : " مثل الحرب السابقة ؟ أنا بطبعى رجل حذر يا سيد ترامبر — " .

قلت له مقاطعا : " ولكننى لست كذلك . احرص على استخدام هذا النقد على أكمل وجه " .

" لقد رصدت بالفعل نصف المبلغ لشراء العقار رقم ١ إن فشلت السيدة ترينشام فى تسديد ثمنه " . ذكرنى قائلا : " مازال أمامها " ، ثم تفقد النتيجة أمامه ، " اثنان وخمسون يوما على السداد " .

" إذن علينا أن نكتم أنفاسنا على مدى هذه الفترة " .

" إن انهار السوق ؛ قد يكون من الحكمة أن نقدم على المجازفة بكل شىء . ألا تتفق معى يا سيد ترامبر ؟ " .

" كلا لا أتفق معك ؛ ولكن لعل هذا هو ما يدفعنى إلى ـــ " ، وبدأت حديثى ثم نجحت بالكاد فى منع نفسى من الإفصاح عن مشاعرى الحقيقية .

" هو بالفعل كذلك " قال هادلو ذلك مما أشعرنى بمزيد من الحرج ، ثم أضاف فى حماس : " ولعل هذا هو السبب الذى جعلنى أساندك بكل حماس فى الماضى " .

وبمرور الأيام ؛ كان علىّ أن أقر أن هناك بالفعل إضرابا على وشك الوقوع . كانت أجواء الشك والريبة وفقدان الثقة فى المستقبل قد زجت أولا بمتجر واحد ثم اثنين بالبيع فى السوق .

اشتريت أول محلين بأسعار زهيدة شريطة أن يتم السداد فوريا ولعل الفضل يرجع فى ذلك إلى سرعة كراوثر فى استكمال الأوراق اللازمة وهادلو فى توفير المال النقدى ، كما نجحت أيضا فى شراء محل الأحذية ثم محل المواد الكيميائية .

عندما اندلع الإضراب العام فى نهاية المطاف ـ فى الاثنين الرابع من مايو عام ١٩٢٦ ـ خرجت أنا والكولونيل فى الشارع مع بزوغ أول خيوط الفجر . تفقدنا كل متجر من متاجرنا من الشمال حتى الجنوب . كان كل أعضاء لجنة ريكسال قد أغلقوا متاجرهم

بالفعل وهو ما اعتبرته بمثابة إذعان لمطالب المضربين . ولكننى مع ذلك وافقت على خطة الكولونيل التى كانت تقضى بإغلاق المحلات الثلاثة عشر فى غضون ثلاث دقائق فور صدور إشارة متفق عليها . فى يوم السبت السابق ؛ شاهدت توم وهو يجرى عدة " تجارب " للتدرب على هذا الإجراء مما أثار روح المرح بين المارة .

بالرغم من أنه فى أول يوم من الإضراب كان الجو جيدا وكانت الشوارع تعج بالمارة فإن التنازل الوحيد الذى أقدمت عليه أمام الزمرة الهادرة هو أننى منعت وضع أى صناديق طعام خاصة بالمحلين رقم ١٤٧ و١٣١ فوق الرصيف .

فى الثامنة أخبرنى توم آرنولد أن خمسة موظفين فقط هم الذين أخفقوا فى الذهاب إلى العمل فى ذلك اليوم بالرغم من توقف المواصلات لساعات فضلا عن أن أحدهم كان مريضا للغاية .

وبينما كنت أسير بصحبة الكولونيل فى شارع تشيلسيا كنا نتلقى السباب من آن إلى آخر ولكننى لم أجد فى نفسى أى نزوع إلى العدوانية كما أن معظم الناس كانوا ـ وهو ما أثار دهشتى ـ فى حالة مزاجية جيدة حتى إن بعض الصبية بدءوا يلعبون كرة القدم فى الشارع .

جاءت أول إشارة تنم عن الاضطراب الحقيقى فى اليوم الثانى عندما ألقى حجر على نافذة المتجر رقم ٥ ؛ متجر المجوهرات والساعات . رأيت ثلاثة لصوص ينقضون على محتويات نافذة العرض ويسرقون أكبر كم ممكن منها قبل أن يلوذوا بالفرار فى تشيلسيا . سادت حالة من الثورة والاضطراب بين المتظاهرين وبدءوا يصيحون بهتافات فأصدرت الإشارة إلى توم آرنولد ؛ فأصدر بدوره ست صافرات . فىّ غضون ثلاث دقائق تأكد الكولونيل من إغلاق

كل متجر من متاجرنا بإحكام . بقيت واقفا فى الموقع بينما وصلت الشرطة وتم اعتقال عدة أشخاص . وبالرغم من الثورة العارمة ، ففى غضون ساعة واحدة طلبت من توم أن يعيد فتح المحلات ثانية لكى نواصل خدمة الزبائن وكأن شيئا لم يكن . وفى غضون ثلاث ساعات كان محل الخردوات قد أصلح نافذة عرض المحل رقم ٥ ، فلم يكن على أية حال يوما مناسبا لشراء المجوهرات .

مع حلول يوم الخميس ، لم يخفق سوى ثلاثة أشخاص فقط فى الحضور إلى العمل ومع ذلك أغلقت أربعة متاجر إضافية فى الشارع أبوابها . بدت الشوارع أكثر هدوءا . وخلال إفطار سريع ، عرفت من بيكى أن طبعة صحيفة التايمز لن تصدر فى ذلك اليوم لأن المطابع كانت قد شاركت فى الإضراب ولكن الحكومة قد أصدرت فى المقابل جريدتها الخاصة التى تحمل اسم بريتيش جازيت ، إحدى بنات أفكار السيد تشرتشل والتى كتبت تؤكد للقراء أن محطات القطار وعمال النقل سوف يعودون إلى عملهم . بالرغم من ذلك ، أخبرنى نورمان كوسجريف ـ تاجر السمك فى العقار ١١ ـ أنه قد بلغ منه اليأس مبلغه وسألنى عن السعر الذى يمكن أن أقدمه له مقابل متجره وتجارته . بعد أن اتفقنا على السعر فى الصباح ، توجهنا إلى البنك فى الظهيرة لعقد الصفقة . وبمكالمة هاتفية واحدة كلفت كراوثر بإعداد كل الأوراق اللازمة على الآلة الكاتبة بينما كان هادلو قد أعد الشيك عند وقت وصولنا ، وبالتالى كان كل المطلوب منى هو التوقيع . عندما عدت إلى حدائق تشيلسيا كلفت توم آرنولد فى الحال بتولى إدارة محل السمك إلى أن يعثر على المدير المناسب . لم أقل له شيئا بالمرة فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فقد مضت عدة

أسابيع بعدها قبل أن يكلف توم رجلا من بيلينجسجيت بإدارة شئون المحل وتخلص أخيرا من رائحة الأسماك النفاذة .

انتهى الإضراب العام رسميا فى صباح اليوم التاسع وبحلول اليوم الأخير من الشهر . وكنت قد اشتريت سبعة محلات فى الإجمالى . بدوت وقتها وكأننى لا أكف عن المضى ذهابا وإيابا من وإلى البنك ولكن كان كل سعر ينتزع ابتسامة من فم هادلو حتى بالرغم من أنه ظل يحذرنى من أننا نعانى من نقص فى السيولة .

أثناء اجتماع مجلس الإدارة التالى ، أخبرت المجلس أننا أصبحنا نملك عشرين محلا فى حدائق تشيلسيا أى ما يفوق إجمالى ما تملكه لجنة المتاجر مجتمعة . ومع ذلك فقد اقترح هادلو على المجلس أن نخوض فترة اندماج طويلة المدى إن كنا نسعى لضمان نفس مستوى جودة المحلات الثلاثة عشر للمحلات السبعة الجديدة . وقد تقدمت أنا الآخر بعرض واحد لاقى تأييد المجلس بالإجماع وهو دعوة توم آرنولد للانضمام إلى مجلس الإدارة .

كنت مازلت لا أقوى على مقاومة قضاء ساعة الراحة جالسا على الأريكة المقابلة للمحل رقم ١٤٧ لمراقبة كل التحولات التى حدثت فى تشيلسيا وهى تجرى أمام عينى . للمرة الأولى تمكنت من التمييز بين المحلات التى كنت أملكها والمحلات الأخرى التى مازلت بحاجة لامتلاكها والتى كانت تشمل المحلات الأربعة عشر المملوكة لأعضاء مجلس ريكسال ، فضلا عن المحل الفخم رقم ١ والموسكيتير .

مر اثنان وسبعون يوما على المزاد وبالرغم من أن السيد فوثرجيل كان مازال يشترى الفاكهة والخضراوات من المتجر رقم ١٤٧ ، لم

ينطق بكلمة واحدة فيما يخص السيدة ترينشام وما إن كانت قد سددت المبلغ المطلوب كاملا . وقد أخبرت جوان مور زوجتى أن سيدتها السابقة قد تلقت مؤخرا زيارة من السيد فوثرجيل وبالرغم من أن الطباخ لم يتمكن من سماع الحديث الدائر بالكامل إلا أن الأصوات كانت قد علت فى بعض الأوقات .

وعندما جاءت دافنى لزيارتى فى محل الخضراوات فى الأسبوع التالى ؛ سألتها إن كان لديها أية معلومات عن السيدة ترينشام وما قد عزمت عليه .

" كف عن التفكير فى تلك المرأة اللعينة " ، كان هذا هو كل ما قالته لى دافنى عن الأمر وأضافت قائلة : " على أية حال ، فإن التسعين يوما سوف تنتهى عما قريب كما أنك - بصراحة — يجب أن تشغل بالك أكثر بالجزء الثانى من مشاكلك المالية يا سيد ترامبر " .

" أوافق . ولكننى إن ظللت بهذا المعدل فلن أستكمل العمل اللازم قبل الأسبوع المقبل " ، قلت لها ذلك بعد أن انتقيت اثنتى عشرة ثمرة خوخ ممتازة ووضعتها فوق الميزان " .

" أنت دائما على عجل يا تشارلى . لماذا تعتقد أن الأشياء يجب أن تنتهى دائما فى موعد محدد ؟ "

" لأن هذا هو سر نجاحى " .

" ولكن بيكى سوف تفخر بإنجازك أيضا حتى إن استكملته بعد عام آخر " .

قلت لها : " ولكن لن يكون للإنجاز نفس الوقع . يجب أن أبذل المزيد من الجهد " .

قالت دافنى مذكرة إياى : " هناك عدد محدود من الساعات فقط فى كل يوم حتى بالنسبة لك أنت أيضا " .

" حسنا ؛ هذا شىء لا يمكن أن ألوم نفسى عليه " .

ضحكت دافنى وقالت : " وكيف حال رسالة الدراسات العليا التى تعدها بيكى عن لوينى ؟ "

" لقد فرغت من استكمال الرسالة اللعينة . وعلى وشك مراجعة المسودة النهائية التى تضم ثلاثين ألف كلمة . أى أنها مازالت متقدمة عنى بكثير . ولكن كان علىّ أن أواجه حالة الإضراب العام وامتلاك كل هذه المتاجر الجديدة ، ناهيك عن السيدة ترينشام ؛ إننى حتى لم أصحب دانيال لمشاهدة مباراة ويستهام لهذا الموسم " .

بدأ تشارلى يقص عليها ذلك وهو يضع الطلبات فى حقيبة ورقية كبيرة .

سألت دافنى : " هل اكتشفت بيكى بعد ما أنت عازم عليه ؟ "

" كلا ؛ لأننى أحرص على الاختفاء فقط عندما تكون منهمكة فى العمل حتى وقت متأخر فى سوثباى أو أثناء تصفح كتالوجات لبعض المجموعات الفنية المهمة . لم تلحظ بعد أننى أنهض كل صباح فى الرابعة والنصف عندما أبدأ العمل الجاد " ، وقدمت لها حقيبة الخوخ وعشر بنسات .

قالت دافنى : " نحن زوج من المخادعين بحق ؛ أليس كذلك ؟ إننى لم أخبر بيرسى بعد بسرنا هذا ؛ ولكننى أتحرق إلى رؤية أثر المفاجأة على وجهيهما عندما — " .

" صه ؛ ولا كلمة واحدة ... " .

عندما تلهث وراء شيء لفترة طويلة قد تندهش من تحقق الهدف بسهولة وكأنه سقط فى حجرك فى أقل الأوقات توقعا .

كنت أعمل فى المتجر رقم ١٤٧ فى صباح ذلك اليوم . كان بوب ماكينز ينزعج دائما عندما يجدنى أشمر عن ساعدىَّ ، ولكننى كنت أستمتع دائما بالتحدث مع زبائنى القدامى فضلا عن أن هذا الحديث قد أصبح مؤخرا وسيلتى الوحيدة للتعرف على كل ما يجرى وراء ظهرى والتعرف على آراء الزبائن فى محلاتى الجديدة . ومع ذلك؛ فإننى أقر أنه مع حلول دور السيد فوثرجيل كان صف الزبائن قد امتد بطول الطريق حتى متجر البقالة الذى كنت أعرف أن بوب كان مازال ينظر إليه باعتباره متجراً منافساً .

قلت عندما وصل فوثرجيل إلى مقدمة الصف : " صباح الخير ، ما الذى يمكن أن أقدمه لك اليوم يا سيدى ؟ لدى بعض — " .

" هل يمكن أن نتحدث على انفراد يا سيد ترامبر ؟ "

صدمت من سؤاله حتى عجزت عن الرد مباشرة . كنت أعلم أن السيدة ترينثام كان مازال قد بقى أمامها تسعة أيام قبل إبرام العقد وكنت أفترض أننى لن أسمع أى جديد فى هذا الصدد قبل هذا الموعد . كنت واثقا من أنها هى الأخرى لديها كل من يعتنى بالأمور المالية والعقارية لإنجاز الأوراق المطلوبة .

قلت له محذراً : " أخشى أن يكون المخزن هو المكان الوحيد المتاح الآن " . ثم خلعت مريلتى الخضراء وفردت أكمام قميصى وارتديت سترتى ، وشرحت له وأنا أقوده إلى مؤخرة المتجر : " لقد أصبح مديرى الآن يقيم فى الشقة العلوية " .

قدمت له مقعدا فوق صندوق برتقال مقلوب ثم سحبت لنفسى صندوقاً آخر قبالته . جلسنا فى مواجهة بعضنا البعض على بعد

بضع أقدام قليلة فقط كما لو كنا خصمين فى مباراة شطرنج . يا لها من بيئة غريبة لمناقشة أكبر صفقات حياتى . حاولت أن أبقى محتفظا بهدوئى .

قال فوثرجيل : " سوف أفاتحك فى الأمر مباشرة . لم تتصل بى السيدة ترينثام منذ عدة أسابيع وأخيرا امتنعت عن الرد على مكالماتى . ولكن الأكثر من ذلك هو أن سافيل لم يتلق أى طلب واضح بإتمام الصفقة . بل على العكس أصبح يرى أنها ليست لديها رغبة فى إتمامها " .

" ولكنك مع ذلك مازلت تملك الألف ومائتى جنيه التى دفعتها كمقدم " . هكذا ذكرته وأنا أحاول أن أمنع نفسى من الابتسام .

أجاب فوثرجيل : " لا أنكر ذلك ، ولكننى تعهدت بعدد من الالتزامات منذ عقد الصفقة ، كما أن الإضراب العام هذا — " .

شعرت أن راحة يدى بدأت تعرق : " إنه وقت عصيب ؛ أوافقك الرأى " .

" ولكنك لم تخفِ رغبتك فى اقتناء المتجر رقم ١ " .

" هذا صحيح تماما ولكننى من يوم المزاد وحتى الآن اقتنيت عدة محلات أخرى بالنقد الذى كنت قد أعددته لشراء متجرك " .

" أعرف ذلك يا سيد ترامبر ؛ ولكننى أصبحت الآن على استعداد لعقد الصفقة بسعر أكثر تهاودا عن — " .

" ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه كان هو السعر النهائى الذى كنت على استعداد لدفعه كما تذكر " .

" اثنا عشر ألفا كان سعرك الأخير إن كنت أذكر جيدا " .

" كان هذا خدعة يا سيد فوثرجيل ؛ ليس أكثر من ذلك . لم تكن لدى أية نية لدفع اثنى عشر ألفا وأنا واثق أنك تعلم ذلك جيدا " .

" ولكن زوجتك وقعت عطاء بخمسة آلاف وخمسمائة جنيه ؛ كما أننى نسيت أيضا عطاءها الأخير بأربعة عشر ألفا " .

" لا يمكن أن أنكر ذلك " ، قلت له ذلك بعد أن استعدت لهجتى الشعبية وأضفت : " ولكنك إن كنت قد تزوجت يا سيد فوثرجيل لكنت قد علمت جيدا لماذا نطلق على النساء دائما فى الطرف الشرقى الجنس المسبب للمشاكل " .

قال : " يمكننى أن أبيع المتجر لك بسبعة آلاف جنيه ؛ ولكن هذا سعر خاص لك أنت فقط " .

أجبته : " سوف تبيعه لى بخمسة آلاف جنيه ، أو أى شخص يمكن أن يسدد لك هذا الثمن " .

قال فوثرجيل : " مستحيل " .

أضفت وأنا أميل إلى الأمام وكأنى على وشك السقوط : " فى غضون تسعة أيام على ما أرى ولكننى سوف أخبرك بما عقدت العزم عليه . وسوف أدعم التزام زوجتى بخمسة آلاف وخمسمائة جنيه وهو السعر الذى يجب أن أقر أنه كان الحد الأقصى الذى سمح به مجلس الإدارة ولكن فقط إن وافقت على استكمال كل الأوراق اللازمة اليوم قبل منتصف الليل " . فتح السيد فوثرجيل فمه فى ازدراء . أضفت قبل أن أمنحه فرصة الاعتراض : " بالطبع لن تكون هذه مهمة شاقة بالنسبة لك . لأن العقد معد بالفعل فوق مكتبك منذ واحد وثمانين يوما . كل ما عليك عمله هو تغيير الاسم

ومحو السعر القديم . والآن إن سمحت لى يا سيد فوثرجيل ؛ يجب أن أعود إلى زبائنى " .

" لم يسبق لأحد قط أن عاملنى بكل هذه العجرفة " . قال السيد فوثرجيل ذلك وهو ينهض فى غضب . ثم استدار وسار خارجا وتركنى جالسا فى المخزن وحدى .

" لم أنظر إلى نفسى يوما باعتبارى متعجرفا " ، قلتها للصندوق المقلوب أمامى وأضفت : " وإنما أن مدوِّر الرأس ؛ على ما أرى " .

بعد أن استكملت قراءة فصل آخر من كتاب Though the Looking–Glass لـ " دانيال " وبقيت فى انتظاره إلى أن يستسلم للنوم ؛ نزلت إلى الدور السفلى لكى أتناول العشاء مع بيكى . وبينما كانت تقدم لى إناء من الحساء أخبرتها بتفاصيل المحادثة التى دارت بينى وبين فوثرجيل .

" خسارة " ، كان هذا هو رد فعلها الأول ثم أضافت : " ليته كان قد فاتحنى فى الأمر قبلك . هذا يعنى أننا قد لا نمتلك المتجر رقم ١ أبدا " . وهو الشعور الذى أكدته لى ثانية قبل أن تؤوى إلى الفراش . أطفأت المصباح المجاور لى ، وقد تملكنى الشعور بأنها ربما قد تكون محقة . كان النعاس قد بدأ يغلبنى عندما سمعت جرس الباب .

قالت بيكى بصوت ناعس : " لقد تخطينا الحادية عشرة والنصف ، من يمكن أن يكون ؟ " .

" رجل يعى معنى المواعيد النهائية " ، قلت لها ذلك وأنا أضىء المصباح ثانية . ونهضت من الفراش وارتديت ملابسى وهبطت الدرج لكى أجيب الباب .

قلت بعدما رحبت بالسيد فرثرجيل : " تفضل إلى مكتبى يا بيرجرين " .

أجابنى : " شكرا لك يا تشارلى " . كدت أضحك وأنا أزيح نسخة من الجزء الثانى من كتاب الرياضيات فوق مكتبى لكى أفتح الدرج الذى كان يحتوى على شيكات الشركة .

" خمسة آلاف وخمسمائة جنيه على ما أذكر " ، قلت له ذلك وأنا أنزع غطاء قلمى وأنظر إلى الساعة فوق المدفأة . فى الحادية عشرة وسبع وثلاثين دقيقة سلمت العقد النهائى إلى السيد فوثرجيل مقابل العقار رقم ١ فى حدائق تشيلسيا .

تصافحنا بالأيدى وأوصلته إلى الباب . وبمجرد أن صعدت الدرج وعدت إلى غرفة نومى ، وجدت ـ لدهشتى ـ بيكى جالسة على مكتبها .

سألتها : " ما الذى تفعلين ؟ " .

" أكتب خطاب استقالتى إلى سوثباى " .

بدأ توم آرنولد يبذل كل جهده لكى يعد المتجر رقم ١ استعدادا لانضمام بيكى إليه بعدها بشهر لشغل منصب مدير عام لشركة ترامبر للمزادات والفنون الجميلة . وقد أدركت أنه ينظر إلى المتجر الجديد باعتباره العلامة المميزة لإمبراطوية ترامبر بأسرها حتى بالرغم من أن التكاليف كانت قد بدأت تزعج هادلو بدرجة كبيرة .

استكملت بيكى فترة خدمتها لدى سوثباى فى السادس عشر من شهر يوليو عام ١٩٢٦ وقد لحقت بعملها فى شركة ترامبر فى صباح اليوم التالى فى السابعة لكى تتولى مهمة إضفاء الرتوش المتخصصة الأخيرة على المبنى وفى نفس الوقت تحرير توم لكى يستعيد مهامه

الأصلية . أحالت بيكى فى الحال الدور السفلى إلى مخزن مع الإبقاء على غرفة الاستقبال الأساسية فى الدور الأرضى وقاعة المزادات فى الدور الأول .

استقرت بيكى مع طاقم المتخصصين الذى يعمل معها فى الطابقين الثانى والثالث من المبنى بينما بقى الطابق العلوى الذى كان يقطن فيه السيد فوثرجيل المقر الإدارى لشركة ترامبر ، وبقيت منه غرفة واحدة كانت بمثابة غرفة اجتماعات ممتازة .

انعقد المجلس كاملاً للمرة الأولى فى العقار رقم ١ من تشيلسيا فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٢٦ .

فى غضون ثلاثة أشهر بعد استقالة بيكى من سوثباى كانت قد نجحت فى اجتذاب أحد عشر عاملا سابقا لديه بالإضافة إلى أربعة آخرين من بونهام وفيليبس . وفى اجتماعها الأول أعلنت على الملأ أن تسديد نفقات شراء وإعادة تصميم العقار رقم ١ يمكن أن يستغرق ثلاثة أعوام كاملة قبل أن تشرع فى تحقيق أرباح حقيقية سوف تكون بمثابة إضافة مبهرة إلى المجموعة .

قلت للمجلس : " بخلاف متاجرى الأولى ، لقد حققت أرباحا خلال ثلاثة أسابيع كما تعرف يا سيدى الرئيس " .

قالت لى زوجتى : " كف عن التباهى بنفسك يا تشارلى ترامبر وحاول أن تتذكر أننا لا نبيع بطاطس هنا " .

أجبتها : " كلا ، لا أستطيع " ، وفى الحادى والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٢٦ ـ لكى أحتفل بعيد زواجنا السادس ـ قدمت لها لوحة زيتية للرسام فان جوخ تحمل اسم آكلى البطاطس .

كان السيد ريد من متحف ليفيفر صديقا شخصيا للفنان ؛ وقد أكد لى أن النسخة كانت تضاهى فى جودتها النسخة الأصلية المعلقة فى المتحف .

كان علىَّ أن أوافقه الرأى حتى بالرغم من أننى شعرت أن سعر اللوحة كان مبالغا فيه بدرجة كبيرة ولكن بعد التفاوض اتفقنا على مبلغ ستمائة جنيه .

ظلت الأمور لكثير من الوقت مستقرة وهادئة على جبهة السيدة ترينثام . وقد كانت هذه الحالة تثير قلقى دائما لأننى كنت أشعر فى أوقات الهدوء هذه أنها لابد تخطط لأمر جلل . كان كلما طرح متجر للبيع أتوقع أن أجدها تشارك فى المزاد ضدى وإن حدثت أية مشاكل فى تشيلسيا كنت أشعر أنها هى التى تقف وراءها . وقد أيدت بيكى دافنى فى أننى أصبحت مصابا بهوس تجاه تلك المرأة إلى أن أخبرنى آرنولد أنه عندما كان يتناول الشراب فى الحانة تلقى سِيْد ريكسال مكالمة هاتفية من السيدة ترينثام ولكنه عجز عن التقاط أى شىء ذى أهمية من المكالمة لأن سِيْد توجه إلى غرفة خلفية لكى يحادثها . وبعدها أقرت لى زوجتى أن مرور الوقت لم يقلل من رغبة المرأة على النيل منا .

وفى وقت ما من شهر مارس عام ١٩٢٧ أخبرتنا جوان أن سيدتها السابقة قضت يومين فى حزم أمتعتها لتسافر إلى ساوثهامبتون بالسيارة لكى تقلها الباخرة من هناك إلى أستراليا . وقد أكدت لنا دافنى هذه المعلومة عندما جاءت لتناول العشاء معنا فى شارع جيلستون فى الأسبوع التالى .

" إذن هى مسافرة لزيارة ابنها البشع هذا يا عزيزى " .

" فى الماضى كانت لا تكف عن ذكر تقارير مفصلة عن مدى التقدم الذى كان يحرزه هذا اللعين لكل من هب ودب . ترى ما الذى حال دون ذكرها لسبب سفرها فى هذه المرة ؟ " .

قالت دافنى : " لا أدرى "

" هل تظنين أن جاى ربما يخطط للعودة إلى إنجلترا الآن بعد أن استقرت الأمور قليلا ؟ " .

قالت دافنى وهى ترفع حاجبيها إلى أعلى : " أشك فى ذلك وإلا لكانت السفينة تبحر فى الاتجاه المعاكس . أليس كذلك ؟ على أية حال إن كانت مشاعر والده تجاهه صادقة ؛ فإن جاى إن جرؤ على الظهور ثانية فى آشورست هول فإنه بالقطع لن يعامل معاملة الوريث المدلل " .

قلت لها : " هناك ما يريب . إن هذا السياج من التكتم الذى أصبحت السيدة ترينثام تحيط به نفسها مؤخرا بحاجة لمزيد من التوضيح " .

وبعدها بثلاثة أشهر ؛ فى شهر يونيو من عام ١٩٢٧ ؛ كان الكولونيل هو الذى لفت نظرى إلى إعلان نبأ وفاة جاى ترينثام فى صحيفة التايمز .

" يا لها من وفاة بشعة " هكذا تعليق الكولونيل الوحيد .

حضرت دافنى الجنازة فى آشورست ؛ كما ذكرت لنا فيما بعد ؛ وكانت تريد أن تشاهد الجثمان وهو يوضع فى القبر لكى تقتنع أن جاى ترينثام لم يعد موجودا بيننا .

أخبرنى بيرسى فيما بعد أنه نجح بالكاد فى منعها من مشاركة حافرى القبر فى حث التراب على جثمانه . ومع ذلك فقد أكدت لنا دافنى أنها مازلت تشك فى سبب وفاته بالرغم من عدم وجود أى دليل يشير إلى عكس الرواية الشائعة .

" على الأقل لم تعد هذه الجهة بمثابة مصدر إزعاج بالنسبة لك " ، كانت تلك هى كلمات بيرسى الأخيرة فى هذا الصدد .

قطبت جبينى وقلت : " يجب أن يدفنوا السيدة ترينثام بجانب ابنها قبل أن أصدق ذلك " .

الفصل ٢٦

فى عام ١٩٢٩ ، انتقلت عائلة ترامبر إلى منزل جديد فى ليتل بولتونز . وقد أكدت لهم دافنى أنه بالرغم من أنه كان صغيرا فإنها على الأقل خطوة فى الاتجاه الصحيح . ثم نظرت إلى بيكى وأضافت : " ومع ذلك فقد بقى الطريق طويلا على ميدان إيتون يا أعزائى " .

كان الحفل الدافئ الذى أقامته عائلة ترامبر فى منزلهم الجديد يحمل معنى مزدوجاً لـ " بيكى " ؛ لأنه فى اليوم التالى كانت ستحصل على شهادة الدكتوراة فى الفنون . وعندما مازحها بيرسى مذكراً إياها بأنها قد استغرقت وقتا طويلا فى إتمام رسالتها عن حبيبها بيرناردينو لوينى الذى كانت مولعة به ؛ ذكرته بأن زوجها هو السبب .

لم يسع تشارلى للدفاع عن نفسه وإنما اكتفى بصب كأس آخر من الشراب لـ " بيرسى " . قبل أن يطفئ سيجارته .

قالت دافنى : " سوف يقودنا هوسكينز إلى الحفل . إذن سوف نقابلكم هناك . يجب أن يترفقوا بنا هذه المرة ويجلسونا ضمن الثلاثين صفا الأولى " .

سعد تشارلى عندما وجد أن دافنى وبيرسى قد جلسا وراءهم مباشرة حيث كانا فى هذه المرة قريبين إلى الحد الذى يسمح لهما بمراقبة كل الإجراءات التى تتم فوق خشبة المسرح .

سأل دانيال عندما سار أربعة عشر رجلاً فى وقار فوق خشبة المسرح مرتدين الحلل السوداء الطويلة والأوشحة البنفسجية وجلسوا فوق المقاعد الخالية : " من هؤلاء ؟ " .

قالت بيكى لابنها البالغ من العمر ثمانى سنوات : " إنهم أعضاء مجلس الشيوخ . سوف يوصون بأسماء من يستحقون الحصول على درجات علمية ولكن يجب ألا تطرح الكثير من الأسئلة يا دانيال وإلا فسوف تزعج كل من حولك " .

عند هذا الحد ، نهض نائب رئيس الجامعة من مجلسه لكى يقدم الشهادات .

قالت بيكى : " أخشى أننا يجب أن نستمع لأسماء كل الحاصلين على الشهادات قبل أن يصلوا إلى دورى " .

قالت دافنى : " كفى عن هذا التكلف يا عزيزتى بعضنا يتذكر أنك عندما فكرت فى الحصول على درجة علمية كان هذا أهم يوم فى حياتك " .

سأل دانيال وهو يلتقط برنامج بيكى من فوق الأرض : " لماذا لم يحصل أبى على درجة علمية ؟ إنه لا يقل ذكاء عنك يا أمى " .

قالت بيكى : " هذا صحيح . ولكن أباه لم يسمح له بالبقاء فى المدرسة كما فعل أبى " .

مال تشارلى نحوهما : " ولكن جده علمه بدلا من ذلك بيع الخضراوات والفاكهة لكى يفعل شيئا نافعا لباقى حياته " .

بقى دانيال صامتا لدقيقة وهو يوازن بين وجهتى النظر المتضادتين .

" سوف يستغرق الحفل وقتا مروعا إن واصل سيره وفق هذا الإيقاع " ، هكذا همست بيكى عندما وصل المجلس إلى حرف الباء بعد مرور نصف ساعة .

همست دافنى فى تفاؤل : " يمكننا أن ننتظر " .

" ليس لدىَّ أنا وبيرسى خطط كثيرة قبل الذهاب إلى جود وود " .

قال دانيال : " آه ، انظرى يا أمى ، لقد عثرت على آرنولد آخر ومور آخر وترامبر آخر فى قائمتى " .

" كلها جميعا أسماء مألوفة " ، قالت بيكى ذلك بدون أن تزعج نفسها بمراجعة البرنامج وهى تضع دانيال على حافة مقعدها .

سأل دانيال : " ترى كيف سيكون شكله ؟ هل يشبه كل الأشخاص الذين يحملون اسم ترامبر بعضهم البعض يا أمى ؟ "

" كلا يا أحمق ، بل لديهم أشكال وأحجام مختلفة " .

قالت بيكى عندما استدار واحد أو اثنان من الحضور ونظروا تجاههم : " اصمت " .

أعلن نائب الرئيس : " بكالوريوس الفنون فى الرياضيات ، الفصل الثانى ، تشارلى جورج ترامبر " .

قال تشارلى وهو ينهض من مقعده ويسير لكى يتسلم شهادته من نائب الرئيس : " كما أنه يشبه والدك أيضاً " . ارتفع دوى التصفيق عندما أدرك الحضور سن الشخص الحاصل على الشهادة .

بقيت بيكى فاغرة فاها فىعدم تصديق بينما مسح بيرسى نظارته فى الوقت الذى لم تبد فيه دافنى أى علامة تنم عن الدهشة .

سألت بيكى من بين أسنانها المزمومة : " منذ متى وأنت تعرفين ؟ " .

" لقد سجل اسمه فى بيرك بيك كوليدج فى اليوم التالى لحصولك على شهادتك " .

" ولكن كيف عثر على الوقت اللازم ؟ " .

" لقد استغرق ما يقرب من ثمانى سنوات والكثير من الاستيقاظ المبكر بينما كنت أنت نائمة " .

مع نهاية عامها المالى الثانى فى العقار رقم ١ ؛ بدأت علامات التفاؤل تظهر على بيكى وبمرور كل شهر بدأت نسبة السحب على المكشوف تقل تباعا ومع ذلك فإنها لم تنجح فى اختراق دين رأس المال إلا بعد مرور سبعة وعشرين شهرا .

وقد شكت للمجلس أن المدير المنتدب كان يسهم فى زيادة إجمالى المبيعات إلا أنه لم يكن يسهم فى تحقيق الأرباح لأنه كان يسعى دائما لشراء السلع المنتقاة بأسعار غالية .

قال لها مذكراً : " ولكننا فى نفس الوقت نقتنى مجموعة نفيسة من الأعمال الفنية الكبرى يا سيدة ترامبر " .

وقال هادلو : " كما أننا نوفر الكثير من الضرائب ونقوم باستثمار جيد . كما أن هذه المقتنيات يمكن أن تستخدم كضمان إضافى فى وقت لاحق " .

" ربما ولكنها فى الوقت الحالى لا تفيد الميزانية أيها الرئيس لأن المدير المنتدب يسلبنى رأسمالى الأكثر مبيعا كما أن معرفته لشفرة

البائعين بالمزاد ليست مجدية بالمرة لأنه يعرف دائما السعر الخاص بنا " .

قال تشارلى بابتسامة : " يجب أن تنظرى إلى نفسك بصفتك جزءاً من الشركة وليس شخصاً منفصلاً يا سيدة ترامبر " ، ثم أضاف قائلا : " مع أننى يجب أن أقر أنك كنت أقل تكلفة كثيرا عندما كنت تعملين لدى سوثباى " .

قال الرئيس : " لا تسجل ذلك . بالمناسبة ؛ ما هى شفرة البائع بالمزاد ؟ " .

" إنها سلسلة من الحروف من كلمة مختارة أو كلمات تشير إلى الأعداد أى أن اسماً كاسم تشارلى يمكن أن يشفر كالتالى ؛ التاء ١ والشين ٢ والراء ٣ ولكن إن تم تكرار أى حرف فهذا يعنى وجوب تجاهله . أى أنك بما أن تتعرف على الكلمتين اللتين سوف تحلان محل واحد إلى صفر وتضع يدك على الكتالوج ؛ سوف تعرف دائما السعر الذى حددناه لكل لوحة " .

" إذن لم لا تغيرون الكلمات من وقت إلى آخر ؟ " .

" لأنك بمجرد أن تتقن الشفرة سوف يكون بوسعك أن تتعرف على الكلمات الجديدة . على أية حال ؛ سوف يستغرق الأمر ساعات لكى تنظر إلى حروف مثل كيو ؛ إن إتش إتش ؛ وتتبين فى الحال كونها ـــ " .

قال تشارلى بابتسامة رضا : " ألف وثلاثمائة جنيه " .

* * *

بينما كانت بيكى تسعى لإنعاش العقار رقم ١ ؛ كان تشارلى قد اقتنى أربعة محلات بما فى ذلك محل الحلاق والصحف بدون أن

تعترض السيدة ترينثام طريقه . وكما أخبر زملاءه المديرين : " لا أعتقد أنها تملك المال اللازم لتحدينا " .

قالت بيكى : " إلى أن يتوفى والدها ، فبمجرد أن ترث ثروة أبيها سوف يكون بوسعها أن تنافس السيدة سلفريدج نفسها ولن يجد تشارلى نفسه قادرا على التصدى لها " .

وافقها تشارلى الرأى ولكنه واصل تأكيده للمجلس بأنه قد وضع خطة لوضع يده على باقى المتاجر بالحى قبل أن يحدث ذلك بفترة طويلة وقال : " ليس هناك ما يدعونا للتفكير بأن الرجل لم يبق له سوى سنوات قليلة لكى يعيشها " .

قال الكولونيل : " مما يذكرنى بأننى سوف أبلغ الخامسة والستين فى مايو القادم وأعتقد أن هذا سوف يكون وقتا مناسبا لتقاعدى " .

أصاب القرار المفاجئ بيكى وتشارلى بصدمة مدوية . لم يكن أى منهما قد فكر من قبل فى السن الذى قد يتقاعد فيه الرئيس .

سأله تشارلى فى هدوء : " ألا يمكنك أن تبقى على الأقل إلى أن تبلغ السبعين ؟ " .

" كلا يا تشارلى بالرغم من أننى أقدر لك عرضك الكريم هذا . ولكننى كنت قد وعدت إليزابيث أننا سوف نمضى ما تبقى لنا من سنوات قليلة فى جزيرة سكاى . على أية حال أعتقد أنه قد حان وقت توليك رئاسة المجلس " .

تقاعد الكولونيل رسميا فى شهر مايو التالى . وأقام تشارلى حفلا للكولونيل فى سافوى دعا إليه كل أعضاء المجلس وزوجاتهم . وقدم

عشاء مؤلفاً من خمس أكلات وثلاث دورات من الشراب فى أمسية تمنى أن تبقى راسخة فى ذاكرة الكولونيل .

عندما انتهى العشاء ، نهض تشارلى من مقعده لكى يحيى الرئيس الأول لشركة ترامبر قبل أن يقدم له عربة جرارة من الفضة . هلل كل الجالسين من طاقم العمل فوق المائدة مناشدين الرئيس بوجوب الرد .

نهض الكولونيل ـ وهو مازال شامخا ـ وبدأ بتوجيه الشكر لكل من شارك فى حفل تقاعده . وواصل حديثه مذكرا كل الحاضرين أنه عندما انضم فى بادئ الأمر إلى السيد ترامبر والآنسة سالمون عام ١٩٢٠ ، كانا لا يملكان إلا متجرا واحدا وهو العقار رقم ١٤٧ . كان يبيع الخضراوات والفاكهة وكانا قد اشترياه مقابل مائة جنيه . وقد أدرك تشارلى بنظرة على الحضور حول الموائد أن الكثيرين من طاقم العاملين الجدد ـ ودانيال الذى كان يرتدى بنطالا طويلا للمرة الأولى ـ لم يكن مصدقا لما يرويه هذا المحارب القديم .

واصل الكولونيل حديثه : " والآن أصبحنا نملك عشرين متجرا وطاقم عمل مؤلفاً من مائة واثنين وسبعين شخصا . وقد كنت دائم القول لزوجتى على مدى السنوات الماضية إننى أتمنى أن أعيش إلى أن أرى تشارلى " ـ فانفجر الجميع فى الضحك ـ " أعنى السيد ترامبر يمتلك الحى بأكمله ليبنى مكانه أكبر مركز تجارى فى العالم . وقد أصبحت الآن مقتنعا أننى سوف أحيا إلى أن أشهد هذا اليوم " .

استدار الرئيس جهة تشارلى وقال : " وأتمنى لك حظا موفقا يا سيدى " .

هلل الجميع عندما عاد الرئيس ليجلس على مقعده للمرة الأخيرة .

نهض تشارلى وأجاب قائلا : " سيدى الرئيس " ، ثم تابع قائلاً : " أريد أن أؤكد لكل الحاضرين فى هذه القاعة أن بيكى وأنا ما كنا لنملك كل ما نتمتع به اليوم بدون مساندتك . بل الحق هو أننا كان لا يمكن أن نقتنى المتجرين ٢ و ٣ . أنا فخور أنى سوف أخلفك وسوف أكون الرئيس الثانى للشركة وعندما أقدم على اتخاذ أى قرار ذى أهمية سوف أضع فى اعتبارى دائما أنك تنظر إلىّ وتراقبنى . سوف يطبق آخر العروض التى تقدمت بها كرئيس للشركة فى الغد . وسوف يعين توم آرنولد مديرا عاما وسوف ينضم نيد دنينج وبوب ماكينز إلى مجلس الإدارة لأن سياسة شركة ترامبر تعتمد على ترقية العاملين بداخلها وسوف تبقى كذلك دائماً .

" أنتم الجيل الجديد " ، قال تشارلى ذلك ، وهو ينظر إلى طاقم العاملين لديه المحتشدين داخل القاعة وأضاف : " وهذه هى أول مناسبة تجمعنا تحت سقف واحد . لذا دعونا نحدد الليلة موعدا لكى نعمل جميعاً تحت سقف واحد ؛ تحت اسم شركة ترامبر فى حدائق شيلسيا . سوف أمنحكم ـ ١٩٤٠ " .

نهض كل طاقم العاملين وصاحوا جميعا : " ١٩٤٠ " وحيوا رئيسهم الجديد . عندما جلس تشارلى ؛ رفع قائد الفرقة الموسيقية عصاه إيذانا ببدء الرقص .

نهض الكولونيل من مقعده ودعا بيكى لتشاركه رقصة الفالس الافتتاحية وقادها إلى حلبة الرقص الخالية .

قالت بيكى : " هل تذكر أول مرة دعوتنى فيها لمشاركتك الرقص ؟" .

قال الكولونيل : " نعم ؛ بكل تأكيد كما أتذكر ما قاله لى السيد هاردى حيث قال : " لقد أتيت لنا بفتاة جميلة أخرى " .

" وبخه على ذلك " ، قالت بيكى ذلك عندما مر تشارلى بجانبهما وهو يراقص إليزابيث هاميلتون فوق حلبة الرقص .

ابتسم الكولونيل وقال : " يالها من خطبة تلك التى سوف تقال عند تقاعد تشارلى " ، ثم أضاف فى أسى إلى بيكى : " ولا أستطيع أن أتصور الشخص الذى سوف يجرؤ على أن يخلفه " .

" ربما تكون امرأة " .

الفصل

٢٧

حل اليوبيل الفضى لحكم الملك جورج الخامس والملكة مارى عام ١٩٣٥ واحتفل به الجميع فى شركة ترامبر . كانت هناك ملصقات ملونة وصور للزوج الملكى فى نافذة عرض كل متجر من المتاجر وأقام توم آرنولد مسابقة لكى يحفز المتاجر على ابتكار أفضل ما لديها تخليدا لهذه المناسبة .

تولى تشارلى مهمة إعداد المتجر رقم ١٤٧ الذى كان مازال ينظر إليه باعتباره متجره المفضل وذلك بمساعدة ابنة بوب ماكينز التى كانت تدرس فى كلية تشيلسيا للفنون فى العام الأول ، وقد شكلا نموذجا للملك والملكة من كل أنواع الفاكهة والخضراوات التى كانت تنتجها الإمبراطورية الملكية .

وقد صدم تشارلى عندما منح الحكام - الكولونيل وماركيز وماركيزة ويلتشاير - المتجر رقم ١٤٧ المركز الثانى بعد متجر الورود الذى كان قد حقق مكاسب ضخمة ببيع أطنان من زهور الأقحوان

الأحمر والأبيض والأزرق والذى كان قد استحق المركز الأول نظير خريطة العالم الضخمة التى أعدها احتفالا بهذه المناسبة والتى كانت مؤلفة بالكامل من الزهور بينما كانت الإمبراطورية الإنجليزية معدة من الزهور الحمراء الخالصة .

منح تشارلى عطلة رسمية لكل العاملين لديه فى ذلك اليوم وقاد بيكى ودانيال إلى الحديقة الشاسعة فى الرابعة وثلاثين دقيقة من صباح ذلك اليوم لكى يعثر على مكان جيد يستطيع من خلاله أن يشاهد الملك والملكة وهما يتقدمان فى الموكب من قصر باكينجهام إلى قاعة سانت بول .

وصلوا إلى الحديقة ليجدوا آلافاً من الجماهير قد احتشدت بالفعل وغطت كل شبر من الأرصفة بحقائب النوم والملاءات وحتى الخيام حتى إن بعضهم قد بدأ يتناول إفطاره بالفعل أو بقى واقفا فى مكانه .

مضت ساعات الانتظار بسرعة حيث كان تشارلى قد كون صداقات مع بعض الزائرين ممن كانوا قد جاءوا من كل أنحاء الإمبراطورية . وعندما ظهر الركب أخيرا ؛ بقى دانيال دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة فى حالة انبهار وهو يراقب الجنود من كل مكان ؛ من الهند وأفريقيا وكندا وست وثلاثين دولة أخرى وهم يمرون أمامه . عندما مر الملك والملكة فى مركبتهم الملكية ؛ وقف تشارلى معطيا التمام وخلع قبعته ؛ تلك الحركة التى كان قد اعتاد أن يقوم بها أثناء خدمته فى سلاح الرماية الملكية عند عزف النشيد الوطنى . وبمجرد أن اختفى الركب عن الأنظار ؛ تذكر تشارلى فى حسد دافنى وبيرسى اللذين كانا قد دعيا لحضور الحفل فى سانت بول .

بعدما عاد الملك والملكة إلى قصر باكينجهام - فى الوقت المحدد لتناول الغداء ؛ كما شرح دانيال لكل المحطين به - بدأت عائلة ترامبر رحلة العودة إلى منزلهم . فى طريق العودة ؛ مروا على حدائق تشيلسيا حيث رأى دانيال عبارة " المركز الثانى " مدونة على نافذة عرض المتجر رقم ١٤٧ .

سأل دانيال فى الحال : " لم ذاك يا أبى ؟ " . سعدت أمه كثيرا فى شرح مجريات المنافسة لابنها .

" وأين جاء ترتيبك يا أمى ؟ " .

قال تشارلى : " السادس عشر من بين ستة وعشرين ، وذلك فقط لأن الحكام الثلاثة من أصدقائنا القدامى " .

وبعدها بثمانية أشهر توفى الملك .

تمنى تشارلى بدء عهد جديد مع تولى إدوارد الثامن الحكم وقرر أنه قد حان وقت سفره إلى أمريكا وأبلغ مجلس الإدارة بما عقد العزم عليه فى الاجتماع التالى .

سأل الرئيس مديرة : " هل هناك ما يمكن أن يثير قلقى أثناء غيابى ؟ " .

أجاب آرنولد : " مازلت أبحث عن مدير جديد لمحل المجوهرات وموظفتين للعمل فى متجر ملابس النساء . فيما عدا ذلك فكل الأمور تسير على ما يرام " .

بعد أن تأكد تشارلى أن توم آرنولد ومجلسه سوف يتولى مهمة إدارة قلعته على أتم وجه أثناء فترة غيابه على مدى شهر كامل ؛ اقتنع تشارلى أخيرا بوجوب السفر إلى هناك وخاصة مع تدشين السفينة كوين مارى . حجز كابينة لاثنين فى أول رحلة للسفينة .

قضت بيكى خمسة أيام رائعة على سطح السفينة كوين طوال مدة الرحلة ، بل ووجدت أن زوجها بدأ ينعم بالاسترخاء عندما تأكد أنه لم تعد هناك وسيلة اتصال تربطه بـ " تون آرنولد " أو حتى دانيال الذى كان قد مضى فى طريقه لأول مدرسة داخلية . بعدما تأكد تشارلى أنه لم يعد قادرا على إزعاج أحد بدأ يستمتع بوقته ويكتشف الإمكانات العديدة التى تقدمها السفينة لشخص متوسط العمر مفتقر إلى اللياقة ، زائد الوزن بعض الشىء .

رست السفينة كوين فى ميناء نيويورك فى صباح يوم اثنين وقوبلت بالتهليل والترحيب من قبل آلاف المحتشدين . طرأ على ذهن تشارلى وقتها الاختلاف البين بين هذا الاستقبال الحافل والكيفية التى استقبل بها آباؤه المهاجرون من المسافرين على متن سفينة ماى فلاور ممن لم يقابلوا بأية حفاوة بل كانوا يجهلون مصيرهم على يد السكان الأصليين . لم يكن تشارلى - فى واقع الأمر - واثقا من الكيفية التى سيعامله بها السكان الأصليون هو الآخر .

كان تشارلى قد حجز فى فندق والدورف أستوريا بناء على توصية دافنى ولكن بمجرد أن فك حقائبه هو وبيكى لم تعد هناك مدعاة لأن يجلس ويسترخى . نهض فى صباح اليوم التالى فى الرابعة والنصف وتصفح صحيفة نيويورك تايمز وعرف اسم السيدة واليس سيمبسون للمرة الأولى . بعدما التهم الصحف ؛ غادر الدورف أستوريا وتوجه إلى شارع فيفث آفنيو وأخذ يتفقد كل نوافذ العرض . سرعان ما وجد نفسه مشدوها بمدى جاذبية وتفرد محلات مانهاتن مقارنة بمثيلاتها فى شارع أكسفورد .

وعندما فتحت المحلات أبوابها فى التاسعة ، أصبح قادرا على سبر أغوار كل شىء بمزيد من التفصيل . سار فى هذه المرة لتفقد كل أجنحة المتاجر الحديثة التى كانت تحتل أركان الشوارع . تفقد البضائع والعاملين حتى إنه سار خلف بعض الزبائن لتفقد مشترياتهم . بعد كل جولة من جولاته على مدى يومين فى نيويورك ، كان يعود إلى الفندق فى حالة إعياء تام فى المساء .

لم يستكمل تشارلى جولته فى فيفث آفنيو ومديسون قبل صباح اليوم الثالث وانتقل إلى شارع ليكسنجتون حيث اكتشف متجر بلومينجندل ، ومن هذه اللحظة أدركت بيكى أنها قد فقدت زوجها لباقى فترة بقائهما فى نيويورك .

على مدى أول ساعتين لم يفعل تشارلى شيئا إلا الصعود والهبوط على السلم المتحرك إلى أن استوعب كلية أبعاد المكان . ثم بدأ بعدها يدرس كل طابق على حدة ، قسماً بقسم ، مع تدوين ملاحظات دقيقة . فى الطابق الأرضى ، كانوا يبيعون العطور والمنتجات الجلدية والمجوهرات وفى الطابق الأول كانوا يبيعون الكوفيات والقبعات والقفازات والأدوات المكتبية وفى الطابق الثانى ملابس الرجال وفى الطابق الثالث ملابس النساء وفى الطابق الرابع المستلزمات المنزلية وهكذا إلى أعلى إلى أن وصل إلى الطابق الثانى عشر حيث مقر الإدارة مختبئ فى سرية وراء عبارة " ممنوع الدخول " . حاول تشارلى أن يتفقد هذا الطابق ولكنه لم يجد سبيلا إلى ذلك .

فى اليوم الرابع ، أخذ يدرس أوضاع النضد وبدأ يرسم تصميمات لها . بينما كان يصعد على السلم الكهربائى على الطابق الثالث فى صباح ذلك اليوم ، وجد رجلين يقفان فى طريقه . لم

يكن أمام تشارلى خيار إلا أن يتوقف أو يعود أدراجه فى الاتجاه الخاطئ فوق السلم الكهربى .

" هل هناك خطأ ؟ " .

قال أحد الرجال الأكثر ضخامة : " لا ندرى يا سيدى . نحن من قسم التحقيق الخاص بالمتاجر ونود أن تأتى معنا لبعض الوقت من فضلك " .

قال تشارلى غير مدرك لما يجرى من حوله : " يسعدنى ذلك " .

اقتيد فى مصعد إلى الطابق الأول بدون أن يمنح فرصة للالتفات حوله ثم سار فى رواق طويل عبر باب لا يحمل أى اسم إلى غرفة خاوية تماماً . كان الغرفة مجردة من الصور والسجاجيد وكان الأثاث الوحيد مؤلفا من ثلاثة كراسى خشبية ومائدة . تركوه وحيدا . وبعدها بلحظات ، جاءه رجلان .

بادره الرجل الأطول قائمة : " هل تمانع فى الإجابة عن بعض الأسئلة يا سيدى ؟ " .

" بكل تأكيد " ، قال تشارلى ذلك وقد اندهش من الطريقة التى كان يعامل بها .

سأله الأول : " من أين أنت ؟ " .

" من إنجلترا " .

سأله الثانى : " وكيف وصلت إلى هنا ؟ " .

" وصلت فى مارى " ، وقد لاحظ أن روح التوتر قد سيطرت عليهما عند معرفة هذه المعلومة .

" إذن ما هو سبب تجولك بين أرجاء المتاجر على مدى يومين وتدوين ملاحظات بدون أن تسعى لشراء شيء واحد ؟ " .

انفجر تشارلى فى الضحك وقال موضحاً : " لأننى أملك عشرين محلا فى لندن ؛ لقد كنت فقط أقارن بين طريقة العمل فى أمريكا والطريقة التى أؤدى بها عملى فى لندن " .

بدأ الرجلان يهمسان لبعضهما البعض فى توتر وعصبية .

" هل لى أن أعرف اسمك يا سيدى ؟ " .

" ترامبر ؛ تشارلى ترامبر " .

نهض أحد الرجلين وغادر الغرفة . شعر تشارلى فى الحال أن الرجلين كانا يجدان صعوبة فى تصديقه . كان الحديث قد أعاد له ذكرى الوقت الذى حكى فيه لـ " تومى " عن محله الأول . ظل الرجل الذى كان يجلس قبالته صامتا بدون أن يقدم رأيا وهكذا بقى الرجلان جالسين فى صمت فى مواجهة بعضهما البعض إلى أن دخل رجل طويل القامة أنيق الملبس فى بذلة بنية غامقة وحذاء بنى ورابطة عنق ذهبية . كاد الرجل يركض فاتحا ذراعيه لكى يحتضن تشارلى .

" يجب أن أقدم اعتذارى يا سيد ترامبر " ، كانت هذه هى أول كلمات نطق بها وأضاف : " لم تكن لدينا أدنى فكرة أنك قد جئت إلى نيويورك ؛ ناهيك عن مجيئك هنا . اسمى جون بلومينجدل وهذا هو متجرى الصغير الذى كنت تتفقده " .

قال تشارلى : " بالفعل كنت أفعل ذلك " .

قبل أن ينطق بكلمة ؛ أضاف السيد بلومينجدل : " افعل ما شئت ، فقد فعلت نفس الشىء عندما زرت محلاتك الشهيرة فى شارع تشيلسيا وسرقت فكرة أو اثنتين منها " .

قال تشارلى فى عدم تصديق : " من محلات ترامبر ؟ " .

" أجل بالطبع ؛ ألم تر علم أمريكا على النافذة الأمامية وألوان الزهور المختلفة التى تمثل الثمانى والأربعين ولاية ؟ " .

قال تشارلى : " بلى رأيتها " ولكن — " .

" لقد سرقت هذه الفكرة منك عندما ذهبت أنا وزوجتى فى رحلة إلى لندن لكى نشهد الاحتفال باليوبيل الفضى . أنا فى خدمتك يا سيدى " .

تنفس المحققان الصعداء فى ذلك الوقت وارتسمت الابتسامة على وجهيهما .

فى مساء ذلك اليوم ذهبت بيكى وتشارلى لتناول العشاء فى منزل بلومينجدل المبنى من الحجر البنى فى واحد وستين من شارع مديسون وأجاب جون بلومينجندل عن كل أسئلة تشارلى حتى الساعات الأولى من الصباح .

وفى اليوم التالى ؛ اصطحب تشارلى فى جولة رسمية فى متجر ماى ليتل ستور مع صاحب المحل بينما صحبت باتى بلومينجندل بيكى إلى متحف الميتروبوليتان للفنون وأمطرتها بوابل من الأسئلة عن السيدة سيمبسون عجزت بيكى عن الإجابة عنها جميعا لأنها لم تكن قد سمعت بقصتها بالمرة قبل أن تطأ أمريكا .

شعرت عائلة ترامبر بالأسف لتوديع عائلة بلومينجندل قبل أن يواصلا رحلتهما إلى شيكاغو بالقطار حيث كانا قد حجزا فى فندق ستيفنز . فور وصولهما إلى المدينة كثيرة الرياح وجدا غرفتهما قد رقيت إلى جناح ووجدا بطاقة مكتوبة بخط اليد من السيد جوزيف فيلد صاحب محلات المارشال فيلد فى انتظارهما يدعوهما فيها لتناول العشاء معه هو وزوجته فى مساء اليوم التالى .

أثناء العشاء فى منزل عائلة فيلدز المطل على شاطئ البحيرة ؛ ذكر تشارلى السيد فيلد بالإعلان الذى ذكر فيه أنه يذكر أكبر متجر فى العالم علما بأن متاجر تشيلسيا كانت تفوقه ارتفاعا بسبعة أقدام .

" ولكن هل سيسمحون لك ببناء الطابق الواحد والعشرين يا سيد ترامبر ؟ "

" الطابق الثانى والعشرون " هكذا أجاب تشارلى فى الحال بدون أن تكون لديه أدنى فكرة إن كانت السلطات الإنجليزية سوف تسمح له بذلك أم لا .

وفى اليوم التالى أضاف تشارلى إلى معلوماته المتنامية قدرا كبيرا من المعرفة بتفقده لمتجر المارشال فيلد من الداخل . أعجب تشارلى بشكل خاص بروح الفريق التى كان يعمل بها طاقم العاملين هناك وبالملابس الخضراء التى كانت تحمل رمز المحل باللون الذهبى وبالزى الرمادى لعمال النظافة والزى الأزرق الغامق مزدوج السترة الذى كان يرتديه المديرون .

قال السيد فيلد : " إن هذا يسهل على العملاء التعرف على طاقم العاملين فى حالة احتياجهم لأية مساعدة وخاصة عندما يكون المحل مزدحما بالزبائن " .

وبينما كان تشارلى منهمكا فى محلات المارشال فيلد كانت بيكى تمضى الساعات الطويلة فى معهد الفنون فى شيكاغو حيث أعربت عن إعجابها الكبير بأعمال ويث وريمنجتون التى شعرت أنهما يجب أن يقيما معارض فى لندن . كان عليها أن تعود إلى إنجلترا حاملة نموذجا لعمل كل منهما فى حقيبة جديدة لكل لوحة ، ومع ذلك فإن اللوحة والتمثال لم يعرضا على الجمهور الانجليزى إلا بعد

سنوات فيما بعد لأن تشارلى بمجرد أن رآهما لم يسمح بخروجها من المنزل .

ومع نهاية الشهر ، كان كلاهما قد تملكه الإجهاد وكانا واثقين من شيء واحد فقط وهو أنهما يجب أن يواظبا على زيارة أمريكا كما أنهما لن يتمكنا من رد كل هذا الترحاب والضيافة التى قوبلا بها فى أمريكا بنفس الدرجة ، إن قررت عائلة فيلدز أو بلومينجندل زيارتهما فى أى وقت فى حدائق تشيلسيا . ومع ذلك فقد طلب جوزيف فيلد من تشارلى أن يسدى له خدمة بسيطة ووعده تشارلى أن يقوم بها شخصيا فور عودته إلى لندن .

كانت الإشاعات الدائرة حول علاقة الملك بالسيدة سيمبسون والتى كان تشارلى قد تعرف عليها بكل تفاصيلها من خلال الصحافة الأمريكية قد بدأت تصل إلى مسامع الإنجليز وقد حزن تشارلى عندما قرر الملك أخيرا أن يتنازل عن العرش . كانت المسئولية غير المتوقعة قد ألقيت فجأة على عاتق دوق يورك غير المتأهب الذى أصبح بين يوم وليلة الملك جورج الخامس .

كان النبأ الآخر الذى عرفه تشارلى من خلال متابعة الصفحات الأولى للصحف هو وصول هتلر فى ألمانيا إلى مقاليد السلطة . لم يفهم إطلاقا السر الذى منع رئيس الوزراء الألمانى السيد تشامبرلين من تفعيل منطق العامة وتسديد لكمة للرجل فى أنفه .

قالت بيكى لزوجها على الإفطار : " إن نيفيل تشامبرلين ليس تاجراً جوالاً من الطرف الشرقى ؛ إنه رئيس الوزراء " .

قال تشارلى : " وهذا هو الشيء المؤسف ؛ لأن هذا هو تحديدا ما سيحدث للسيد هتلر إن جرؤ على الذهاب إلى وايت شابيل " .

لم يكن لدى توم آرنولد الكثير ليخبر بـه تشارلى عقب عودتـه ولكنه سرعان ما لاحظ الأثر الذى تركته زيـارة أمريكـا علـى رئيسـه وذلك من خلال الأوامر والأفكار السريعة المتتالية التـى توالـت عليـه بلا هوادة على مدى الأيام التالية لوصول تشارلى .

" لجنة المتاجر " ، هكذا قال آرنولد محذرا رئيسه فـى اجتمـاع صباح الاثنين ؛ بعدما انتهى تشارلى من قصائد المدح المعتادة لأمريكا وأضاف : " أصبحت تنظر بجدية إلى تأثير الحرب مع ألمانيـا علـى مجريات الأعمال " .

قال تشارلى وهو يجلس خلـف مكتبـه : " يـا لهـذه الزمـرة من الرجال ، إنها لا تكف عن إثارة الذعر . على أية حال ؛ إن ألمانيـا لن تعلن الحرب على إنجلترا أو أى من حلفائها ؛ إنها لن تجـرؤ . إنهم لن ينسوا أبـدا الـدرس الـذى لقنـاه إيـاهم فـى المرة الأخـيرة . أخبرنى إذن هل هناك مشاكل أخرى ؟ " .

قال توم من الطرف المقابل للمكتب : " على مستوى المتـاجر ، لم أجـد بعـد مـديراً مناسباً لمتجـر المجـوهرات منـذ تقاعـد جـاك سليك " .

" انشر إعلانا فى المجلات التجارية وأخطرنى إن عثرت علـى شخص مناسب لكى أقابله بنفسى . هل هناك شىء آخر ؟ " .

" نعم هناك رجل يدعى السيد بين شوبرت يريد أن يقابلك منـذ فترة " .

" وما الذى يريده ؟ " .

" إنه لاجئ من ألمانيا ولكنه رفض أن يفصـح عـن سـبب رغبتـه فى مقابلتك " .

" حدد لى إذن موعدا للقائه عندما يتصل بك " .

" ولكنه ينتظرك فى غرفة الاستقبال خارج مكتبك الآن " .

قال تشارلى فى عدم تصديق : " فى غرفة الاستقبال ؟ " .

" أجل ؛ إنه يأتى كل صباح ويجلس هناك فى صمت " .

" ولكن ألم تخبروه أننى كنت فى أمريكا ؟ " .

قال توم : " بالفعل أخبرته ؛ ولكن هذه المعلومة بدت وكأنها لم تشعره بأى فارق " .

همس تشارلى : " المعاناة هى مصير جنسنا . أدْخِل الرجل " .

دخل رجل صغير الحجم ؛ محنى الجسـم تبـدو عليـه علامـات الإعياء ؛ بدا لـ " تشارلى " أنه فى مثـل عمـره وبقـى منتظـرا إلى أن عرض عليـه تشـارلى الجلـوس . نهـض تشـارلى مـن مقعـده مـن وراء المكتب وقدم للرجل مقعـدا بـالقرب مـن المـدفأة قبـل أن يسـأله عمـا يمكن أن يسديه له .

استغرق السيد شوبرت بعض الوقت لكـى يشـرح لـ " تشـارلى " كيف نجح فى الهروب من هامبورج مع زوجته وابنتيه بعـدما اقتيـد الكثير من أصدقائه إلى معسكرات الاعتقال ولم يسمع عنهم ثانية .

استمع تشارلى إلى السيد شوبرت وهو يحكى له ما حدث له على أيدى النازيين بدون أن ينطق بكلمـة . كانـت قصـة هـروب الرجـل ووصفه لما كان يجرى فى ألمانيـا تسـتحق بجـدارة أن تكـون إحـدى روايات جون بوخـان كمـا أنهـا كانـت أكثـر حيويـة مـن أى تقريـر صحفى نشر فى الشهور الأخيرة .

سأل تشارلى عندما شعر أن الرجل قـد انتهـى مـن روايـة قصته الحزينة : " كيف يمكن أن أساعدك ؟ " .

ابتسم اللاجئ للمرة الأولى وكشف عن سنتين مـن ذهـب . التقط الحقيبة الصغيرة مِّن جانبه ووضعها على مكتـب تشـارلى ثـم فتحهـا

بتؤدة . أخذ تشارلى يتأمل مجموعة الأحجار الرائعة التى لم يكن قد شاهد مثلها من قبل ، كانت تحتوى على أحجار من الماس واللؤلؤ ، كان بعضها معروضاً داخل إطار فائق الجمال . ثم أزاح الزائر شيئاً ما تبين تشارلى أنه لم يكن سوى صينية صغيرة لكى يعرض عليه المزيد من الأحجار الكريمة والتوباز والماس واللؤلؤ والمرجان التى كانت تملأ الصندوق العميق عن آخره .

" كل هذا لا يعدو نموذجا ضئيلا لما خلفته ورائى فى إطار تجارة كان قد بناها أبى ومن قبله جدى . ولكننى الآن يجب أن أبيع كل شىء قد بقى لى لكى لا تتضور أسرتى جوعا " .

" هل كنت تعمل فى تجارة المجوهرات ؟ " .

أجاب شوبرت : " على مدى ستة وعشرين عاما ، منذ كنت غلاما صغيرا " .

" وكم تود أن تحصل مقابل هذه المجموعة ؟ " ، وأشار تشارلى إلى الحقيبة المفتوحة .

قال السيد شوبرت بدون أى تردد : " ثلاثة آلاف جنيه ، وهذا سعر يقل كثيرا عن قيمتها الحقيقية ولكن لم يعد لدى وقت أو رغبة فى المقايضة " .

فتح تشارلى درج مكتبه بيده اليمنى واستخرج دفتر الشيكات وكتب الكلمات التالية " ادفعوا للسيد شوبرت ثلاثة آلاف جنيه " ، ثم مد يده بالشيك .

قال السيد شوبرت : " ولكنك لم تتحقق من قيمة المجوهرات " .

قال تشارلى ، وهو ينهض من فوق كرسيه : " لا يهم ، لأنك سوف تبيعها بنفسك عندما تتولى إدارة محل المجوهرات . وهو ما

يعنى أيضا أنك أنت الذى سيثبت أنها بالفعل تستحق القيمة التى تزعمها . وبمجرد أن تسدد المقدم ، سنناقش بعدها نسبتك فى العمولة " .

ظهرت ابتسامة على وجه السيد شوبرت وقال : " لقد علموك جيدا فى الطرف الشرقى يا سيد ترامبر " .

أجاب تشارلى بابتسامة : " هناك الكثيرون من أمثالك ممن يبقوننا على أطراف أصابعنا ، ولا تنس أن حماى كان واحدا من هؤلاء " .

وقف بن شوبرت واحتضن مديره الجديد .

وكان الشىء الذى لم يتوقعه تشارلى هو عدد اللاجئين الذى توافد على محل ترامبر للمجوهرات لعقد صفقات مع السيد شوبرت مما أكد له أنه لا يجب أن يقلق ثانية بشأن هذه التجارة .

وبعدها بما يقرب من أسبوع ، اقتحم توم آرنولد مكتب الرئيس بدون أن يطرق الباب . وقد لاحظ تشارلى تلك الحالة المرتبكة لمديره مما دفعه إلى سؤاله مباشرة : " ما الخطب يا تومى ؟ "

" حالة سرقة " .

" أين ؟ " .

" فى المتجر رقم ١٣٣ ، ملابس السيدات " .

" ما الذى سُرق ؟ " .

" زوجان من الحذاء وقميص " .

" إذن اتخذ كل الإجراءات المعتادة طبقا للائحة الشركة . أول شيء يجب أن تفعله هو الاتصال بالشرطة " .

" الأمر ليس بهذه السهولة " .

" بالطبع هو كذلك . اللص هو اللص " .

" ولكنها تدعى أنها ــــ " .

" أن والدتها فى التسعين من عمرها وأنها مصابة بداء السرطان ؛ ناهيك عن الأبناء المصابين بأمراض عضال " .

" كلا ؛ إنها تدعى أنها أختك " .

تراجع تشارلى فى مقعده وصمت للحظة ثم تنهد بعمق وسأل : " ما الذى فعلته ؟ " .

" لا شىء بعد . لقد طلبت من المدير ألا يقدم على أى إجراء لحين إبلاغك " .

قال تشارلى : " إذن دعنا نسوى الأمر " ، ثم نهض من وراء مكتبه وبدأ يسير نحو الباب .

لم يتحدث أى من الرجلين ثانية إلى أن وصلا إلى العقار رقم ١٣٣ حيث كان المدير الحانق يقف فى انتظارهما عند الباب الأمامى .

" آسف يا سيدى الرئيس " ، كانت تلك هى كلماته الأولى .

" ليس هناك مدعاة للأسف يا جيم " . قال تشارلى ذلك وهو يقتاد إلى غرفة فى مؤخرة المتجر حيث وجد كيتى جالسة على إحدى الموائد وهى تتفقد أحمر شفاتها فى مرآة يدوية .

فى اللحظة التى وقع فيها بصرها على تشارلى أغلقت المرآة وأعادتها إلى حقيبتها . فى المائدة أمامها كان هناك زوجان من الأحذية الجلدية المسايرة لآخر خطوط الموضة وقميص بنفسجى اللون . كانت كيتى على ما يبدو لا تزال تحب الأفضل حيث كانت المقتنيات من البضاعة الأغلى سعرا . ابتسمت لأخيها . ولكن أحمر الشفاة لم يجد .

" الآن بعد أن وصل صاحب الشأن شخصيا سوف تعرفون جيدا من أكون " ، قالت كيتى ذلك وهى تحدق فى جيم جراى .

قال تشارلى : " أنت لصة . هذه هى حقيقتك " .

" هدئ من روعك يا تشارلى ؛ يمكنك أن تتحمل هذه الكلفة " . ولم يكن صوتها ينم عن أى شعور بالندم .

" هذا ليس ما أقصد يا كيتى . إن ــــ " .

" إن قبضت علىَّ بالتهمة التى تدعيها سوف يكون لديك يوم حافل . أنت لا تجرؤ على القبض علىَّ يا تشارلى وأنت تدرك ذلك جيدا " .

قال تشارلى : " ليس هذه المرة ربما ، ولكن هذه هى آخر مرة ؛ ثقى بذلك " واستدار جهة المدير وأضاف : " إن حاولت هذه السيدة أن تغادر بدون أن تسدد ثمن المشتريات اتصلوا بالشرطة فى الحال بدون الرجوع إلىَّ . هل هذا الكلام واضح يا سيد جراى ؟ " .

" نعم يا سيدى " .

" نعم يا سيدى ؛ كلا يا سيدى ؛ ثلاث حقائب ممتلئة يا سيدى . لا تزعج نفسك يا تشارلى لأنى لن أضايقك ثانية " .

بدا تشارلى غير مقتنع .

" سوف أسافر إلى كندا فى الأسبوع المقبل حيث سأقابل هناك الشخص الوحيد الذى مازال معنيا بشأنى " .

كان تشارلى على وشك الانفجار عندما التقطت كيتى القميص وزوجى الحذاء ووضعتهما فى الحقيبة . وسارت تشق طريقها وسط الرجال الثلاثة .

قال توم آرنولد : " تمهلى " .

قالت كيتى بدون أن تستدير وهى تسير عبر بوابة المحل : " أفسحوا لى الطريق " .

استدار توم جهة الرئيس الذى كان يقف مراقبا لأخته وهى تخطو فوق الرصيف بدون أن تلتفت وراءها .

" لا تزعج نفسك يا توم . إنها بضاعة رخيصة الثمن " .

فى الثلاثين من سبتمبر عام ١٩٣٨ ؛ عاد رئيس الوزراء من ميونخ حيث كان يجرى محادثات مع القنصل الألمانى . بقى تشارلى غير مقتنع بوثيقة " السلام العصرى والسلام الشريف " التى ظل تشامبرلين يرددها أمام الكاميرات لأنه بعد أن استمع لرواية بن شوبرت ووصفه لما كان يجرى هناك فى الرايخ الثالث كان واثقاً من أنه ليس هناك سبيل لتجنب مواجهة ألمانيا . كان التجنيد الخاص بمن تعدوا العشرين قد طرح بالفعل فى البرلمان وبما أن دانيال كان يدرس فى عامه الأخير فى سانت بول ، أى على أعتاب الجامعة لم يطق تشارلى فكرة التضحية بابنه فى حرب أخرى مع الألمان . عندما حصل دانيال بعدها بأسابيع قليلة على منحة دراسية فى ترينيتى كولدج فى كمبريدج ؛ ازدادت مخاوفه .

تقدم هتلر نحو بولندا فى الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩ فأدرك تشارلى أن قصص بن شوبرت لم تكن ضرباً من المبالغة . وبعدها بيومين ؛ دخلت بريطانيا الحرب .

بعد إعلان الحرب بأسابيع قليلة بين الجانبين سادت حالة من الهدوء والهبوط المفاجئ ، وما لم يكن هناك عدد متزايد من الرجال يرتدون الزى العسكرى يجوبون تشيلسيا وهبوط فى المبيعات لكان

تشارلى قد وجد كل العذر فى عدم إدراك كون بلاده فى حالة حرب .

أثناء هذه الفترة ؛ كان المطعم هو المكان الوحيد الذى عرض للبيع . قدم تشارلى للسيد سالينى ثمنا عادلا قبله الرجل بدون تردد قبل أن يفر عائدا إلى بلده فلورنسا . كان أكثر حظا من البعض الذين تم اعتقالهم ليس لشىء أكثر من أنهم كانوا يحملون اسماً ألمانياً أو إيطالياً . أغلق تشارلى المطعم فى الحال لأنه لم يكن واثقا ما يجب عمله فى ذلك الوقت ؛ كان تناول الطعام فى الخارج هو آخر ما يطرأ على بال سكان لندن فى عام ١٩٤٠ . وبمجرد أن انتقلت ملكية المطعم إلى تشارلى لم يبق سوى محل الكتب العتيق والنقابة التى كان يرأسها سِيدْ ريكسال تحت قبضة تجار آخرين ولكن دلالة المبنى الكامل من الشقق الخالية التى كانت تملكها السيدة ترينثام كانت تزداد وضوحا للجميع يوما بعد يوم .

وفى السابع من سبتمبر عام ١٩٤٠ انتهت حالة الهدوء الكاذب الذى كانت تعيشه البلاد عندما شنت القوات المعادية هجوما شرسا على العاصمة . بعدها بدأ سكان لندن ينزحون فى جماعات . ولكن تشارلى مع ذلك رفض أن يذعن بل إنه قرر وضع لافتة " جارى العمل كالعادة " فى كل نوافذ العرض بمحلاته . كان التنازل الوحيد الذى قدمه للهير هتلر هو أنه نقل غرفة نومه إلى الدور السفلى واستبدل ستائر المنزل بستائر سوداء .

وبعدها بشهرين وفى منتصف الليل ؛ استيقظ تشارلى على صوت قرع أحد أفراد الشرطة على بابه حيث أخبره أن أول قنبلة كانت قد سقطت على شارع تشيلسيا . ركض بطول الطريق من ليتل

بولتنونز إلى شارع تريجنتر فى ملابس نومه ليتحقق من الأضرار التى وقعت .

سأل وهو يتحرك : " هل قتل أحد ؟ "

أجاب الشرطى وهو يحاول أن يجارى تشارلى فى سرعته : " لا أحد نعرفه " .

" ما هو المتجر الذى سقطت عليه القنبلة ؟ " .

" لا يمكننى أن أخبرك الآن يا سيد ترامبر . إن كل ما أعرفه هو أن شارع تشيلسيا يبدو كله وكأنما اشتعلت فيه النيران " .

عندما انعطف تشارلى من شارع فولهام قوبل بألسنة من اللهب ودخان أسود كثيف يتصاعد إلى السماء . كانت القنبلة قد استقرت فى منتصف الشقق التابعة للسيدة ترينثام ؛ كانت قد دمرتها تماما بينما كانت قد كسرت ثلاثاً من نوافذ عرض محلات تشارلى وألحقت أضراراً جسيمة بسقف محل القبعات والكوفيات .

فى الوقت الذى انصرفت فيه سيارات الإطفاء أخيرا من الشارع كان كل ما تبقى من الشقق هو دخان رمادى من أطلال المبنى الذى أصابته القنبلة فى قلبه . عندها أدرك تشارلى ما كان واضحا للعيان وهو أن السيدة ترينثام لم تكن لديها نية لإصلاح كومة الركام التى كانت تقف فى منتصف شارع تشيلسيا .

* * *

فى مايو من عام ١٩٤٠ ؛ حل السيد تشرشل محل السيد شامبرلين كرئيس للوزارة ؛ مما منح تشارلى المزيد من الثقة فى المستقبل ؛ حتى إنه حادث بيكى فى الالتحاق بالجيش .

سألته زوجته مازحة : " هل نظرت إلى نفسك مؤخرا فى المرآة ؟ "

قال تشارلى وهو يشد معدته إلى الداخل : " يمكننى أن أستعيد لياقتى ثانية ؛ أعلم أننى أستطيع على أية حال . إن المشاركة فى الحرب لا تقتصر على العمل فى الجبهة الأمامية " .

" يمكنك أن تقوم بعمل أكثر قيمة بالحفاظ على دوام العمل فى المحلات وتقديم الخدمات للجمهور " .

قال تشارلى : " إن آرنولد يستطيع هو الآخر أن يقوم بهذه المهمة والأكثر من ذلك هو أنه أكبر منى بخمسة عشر عاما " .

ومع ذلك فقد خلص تشارلى فى النهاية فى شىء من التردد إلى أن بيكى كانت محقة عندما أخبرتهم دافنى أن زوجها كان يريد أن يلتحق ثانية بفرقته القديمة ، ولكنهم أخبروه - بفضل الله - أن سنه لم تعد تسمح له فى هذه المرة أن يلتحق بالجبهة الخارجية ، هكذا أخبرتهم وأضافت : " لذا فقد تسلم عملاً عسكرياً إداريًا " .

وفى عصر اليوم التالى ؛ بينما كان تشارلى يتفقد بعض الإصلاحات بعد ليلة قصف ثانية . حذره توم آرنولد من أن لجنة سِيْد ريكسال بدأت تبحث فى بيع الأحد عشر محلاً المتبقية بما فى ذلك الموسكيتير نفسه .

قال تشارلى : " ليس هناك ما يدعو للتسرع فى هذا الشأن ، سوف يبيع هذه المحلات فى غضون عام واحد " .

" ولكن بحلول هذا الوقت قد تتمكن السيدة ترينثام من شرائها جميعا بثمن بخس " .

" إنها لن تقدم على ذلك أثناء الحرب . على أية حال ؛ إن هذه السيدة اللعينة تعلم جيدا أننى لا أملك فعل الكثير طالما بقيت هذه الكومة من التراب فى منتصف شارع تشيلسيا " .

قال توم عندما انطلقت صافرات الإنذار : " اللعنة ، لابد أنهم فى طريقهم ثانية " .

قال تشارلى وهو ينظر إلى السماء : " هم بالفعل كذلك . يجدر بنا أن ننقل كل طاقم العاملين إلى الدور السفلى على الفور " . هرع تشارلى إلى الشارع ؛ فإذا برجل من الدورية يمتطى دراجته فى منتصف الطريق ويصدر تعليماته للجميع بوجوب التوجه بأسرع وقت نحو أقرب مخبأ . كان توم آرنولد قد درب كل مديرى المحلات على كيفية إغلاق المحال وإجلاء العاملين والعملاء بسلام باستخدام المصابيح فقط مع حمل كمية قليلة من الطعام إلى الأدوار السفلية فى غضون خمس دقائق . كان هذا يذكر تشارلى دائما بأيام الإضراب العام . بينما كان الجميع جالسين فى المخبأ أخذ تشارلى يدير بصره بين سكان لندن من المحتشدين حوله ، وعندها أدرك كم ما فقده من أفضل العناصر الشابة العاملة لديه ممن التحقوا بالخدمة العسكرية حتى تراجع عدد طاقم العاملين إلى أقل من ثلثى العاملين الدائمين فضلا عن أن معظمهم كان من النساء .

كانت بعض النساء يحملن أطفالاً بينما كان البعض الآخر يحاولن أن يخلدن إلى النوم . واصل جنديان نظاميان لعب الشطرنج وكأن الحرب لا تعدو بالنسبة لهما إلا عاملاً مثير للإزعاج . كان هناك فتاتان تتدربان على خطوات آخر صيحة فى عالم الرقص فى المكان الصغير الذى بقى شاغرا فى وسط الطابق السفلى بينما كان الجميع قد استسلم للنوم .

كان بإمكان الجميع سماع صوت سقوط القنابل من فوقهم وأخبرت بيكى تشارلى أنها كانت واثقة من أن هناك قنبلة كانت قد استقرت فى مكان قريب منهم . " فوق حانة سيد ريكسال ؛

ربما ؟ " ، هكذا قال تشارلى وهو يحاول أن يخفى ابتسامته وأضاف : " سوف يلقنه هذا درسا جيدا " ، وأخيرا جاء صوت صافرة انتهاء الغارة فخرج الجميع فى الهواء المفعم برائحة التراب والرماد .

" لقد كنت محقا بشأن حانة سيد ريكسال " ، قالت بيكى ذلك وهى تنظر إلى أحد جوانب المبنى ولكن عين تشارلى لم تكن مثبتة على الموسكيتير .

أدارت بيكى نظرها إلى حيث كان يحدق تشارلى . كانت هناك قنبلة قد استقرت فى منتصف محل الخضراوات والفاكهة .

قال تشارلى : " هؤلاء الأوغاد ، لقد تمادوا فى هذه المرة . الآن سوف أتطوع " .

" ولكن هل تعتقد أن هذا سوف يجدى ؟ "

قال تشارلى : " لست أدرى ، ولكن على الأقل سوف أشعر أننى مشارك فى الحرب ولست متفرجا " .

" وماذا عن المتاجر ؟ من الذى سوف يعتنى بها ؟ "

يستطيع آرنولد أن يتولى هذه المهمة أثناء غيابى " .

سألته بعد أن علا صوتها : " ولكن ماذا عن دانيال وعنى ؟ هل سيتولى توم أيضا هذه المهمة أثناء غيابك ؟ " .

بقى تشارلى صامتا للحظة يفكر فيما قالته بيكى : " لقد كبر دانيال بما يكفى لكى يعتنى بنفسه . أما أنت فسوف يكون وقتك مشغولا عن آخره فى إدارة المتاجر لكى يبقى العمل فيها جاريا . لا تزيدى كلمة واحدة يا بيكى لأننى قد حسمت أمرى " .

باءت كل محاولات بيكى بعد ذلك فى إثناء زوجها عما عزم عليه بالفشل . وقد فاجأها ترحيب سلاح الرماية بانضمام رقيبهم

القديم إليهم ثانية حيث تم إرساله على الفور إلى معسكرات التدريب بالقرب من كرديف .

بينما ارتسمت علامات القلق على توم آرنولد ؛ قبل تشارلى زوجته واحتضن ابنه مودعاً ثم صافح كل مديريه قبل أن يلوح بيده لثلاثتهم .

أثناء سفره داخل القطار إلى كرديف كان القطار يعج بالوجوه الشابة المفعمة بالحماس التى لم يكن عمرها يتعدى عمر دانيال بكثير - كان معظمهم قد أصر على مخاطبته بلقب سير - شعر تشارلى أنه قد أصبح رجلا كبيرا . كانت هناك شاحنة عسكرية فى انتظار الجنود فى المحطة قادته بأمان إلى الثكنات .

" سعدنا بعودتك ثانية يا ترامبر " ، هكذا جاءه صوت أحدهم بينما كان تشارلى يخطو داخل أرض الملعب للمرة الأولى بعد أكثر من عشرين عاما .

" ستان راسيل . يا إلهى ؛ هل أصبحت أنت العقيد المسئول الآن ؟ لقد كنت عريفا مساعدا فقط عندما ـــــــ " .

قال ستان : " إنه أنا يا سيدى " : ثم خفض صوته وتحدث هامسا : " وسوف أحرص على ألا تعامل بنفس الطريقة التى يعامل بها الآخرون يا زميلى القديم " .

قال تشارلى وهو يضع يده فوق بطنه : " كلا . يجدر بك ألا تفعل . إننى أريد أن أتعامل على نحو أقل مما يعامل به الآخرون " .

بالرغم من أن تشارلى كان يتلقى معاملة أكثر لطفا من المعاملة التى كان يتلقاها صغار المجندين إلا أنه مع ذلك وجد فى الأسبوع الأول من التدريب الأساسى مشقة أشعرته بالأسف على القدر

الضئيل من التدريبات التى مارسها على مدى العشرين عاما الماضية . وعندما شعر بالجوع ؛ أدرك أن كل ما يمكن تقديمه من طعام لا يعدو بالكاد كونه مجموعة من المقبلات كما أن محاولته النوم كل ليلة على فراش صلب مغطى بحشوة من شعر الحصان لا يعدو سمكها بوصتين زاد من حنقه على هتلر .

مع نهاية الأسبوع الثانى كان تشارلى قد ترقى إلى رتبة عريف وكان قد أخبر بأنه إن كان يبقى فى كرديف كمدرب فسوف يصبح على الفور ضابط تدريب وسوف يرقى إلى رتبة نقيب .

سأل تشارلى : " سوف يصل الألمان إلى كرديف ؛ أليس كذلك ؟ لم أكن أعلم أنهم يلعبون كرة الرجبى " .

وصلت كلماته كلمة بكلمة فى هذا الصدد إلى القائد فبقى تشارلى عريفا واستكمل تدريبه الأساسى . فى الأسبوع الثامن كان تشارلى قد رقى إلى رتبة رقيب وتولى مهمة تدريب فصيلته وتجهيزها لكى تكون متأهبة لكل ما يطلب منها . ومن هذه اللحظة فصاعدا ؛ لم يعد هناك مجال للمنافسة ؛ من الرماية وحتى حلبة الملاكمة ؛ كان رجاله هم الأفضل ؛ كانوا لا يعرفون الخسارة ، وهكذا تحول " فريق ترامبر " إلى القدوة التى يحتذى بها الجميع على مدى الأسابيع الأربعة المتبقية .

قبل انتهاء فترة التدريب بعشرة أيام فقط ؛ أخبر ستان راسل تشارلى أن الفرقة سوف ترسل إلى أفريقيا حيث سينضمون إلى ويفيل فى الصحراء . وقد شعر تشارلى بسعادة غامرة إثر سماع هذه الأنباء لأنه طالما أعجب بهذا الجنرال الشاعر .

قضى الرقيب ترامبر أسبوعه الأخير فى مساعدة زملائه فى كتابة خطابات إلى عائلاتهم وصديقاتهم . لم يكن قد عقد العزم على

الكتابة لنفسه إلا فى اللحظة الأخيرة . بعدما بقى أسبوع واحد على الرحيل ؛ اعترف تشارلى لـ " ستان " بأنه لم يكن متأهبا لأكثر من معركة لفظية مع الألمان .

وبينما كان تشارلى منهمكا فى شرح بعض قواعد الطهى وإعادة الحمل لأفراد فصيلته جاءه ملازم قد احمر وجهه من شدة العدو .

" ترامبر " .

قال تشارلى وهو يوليه كل انتباهه : " سيدى " .

" القائد يريد أن يراك فى الحال " .

قال تشارلى : " تمام يا سيدى " . طلب تشارلى من عريفه أن يواصل الدرس ثم سار مسرعا خلف الملازم .

سأل تشارلى : " لماذا نجرى بهذه السرعة ؟ " .

" لأن القائد كان يعدو عندما خرج للبحث عنى " .

قال تشارلى : " إذن لابد أن هناك على الأقل خيانة عظمى " .

" يعلم الله وحده أيها الرقيب ولكنك سرعان ما سوف تعرف " ، قال الملازم ذلك بينما كانا قد وصلا إلى باب القائد . دخل الملازم مكتب القائد متبوعا بـ " تشارلى " بدون أن يطرقا الباب .

" الرقيب ترامبر ؛ ٧٣١٢٠٨٧ يا فندم ــــــ " .

" يمكنك أن تنحى كل هذه الأشياء التافهة جانبا يا ترامبر " ، قال الكولونيل ذلك بينما أخذ تشارلى يراقب القائد وهو يسير ذهابا وإيابا داخل المكتب وهو يضرب جانبه بالعصا . " سيارتى تنتظرك

عند السور وسوف تقودك إلى لندن مباشرة " .

" لندن يا سيدى ؟ " .

" أجل يا ترامبر ؛ إلى لندن . لقد جاءنا أمر عاجل من السيد تشرشل . إنه يريد أن يقابلك فى أسرع وقت ممكن " .

الفصل

٢٨

بذل سائق الكولونيل كل جهده لكى يوصل الرقيب ترامبر إلى لندن بأسرع وقت ممكن . أخذ يضغط بقدمه على أرضية السيارة مرارا وتكرارا لكى يبقى مؤشر السرعة أعلى من ثمانين كيلومترا . ومع ذلك كانت مهمته بالغة المشقة ولاقت الكثير من الصعوبات لأنها كانت تتوقف بشكل دائم بسبب شاحنات الجنود وعربات النقل وفى بعض الأوقات بسبب الدبابات العسكرية . عندما وصل تشارلى أخيرا إلى شيسويك على أطراف لندن ؛ فوجئوا بدخان كثيف تلته غارة جوية تلتها صفارة انتهاء الغارة تلاها عدد لا يحصى من العراقيل التى تراكمت فوق الطريق المؤدى إلى شارع داونينج .

وبالرغم من أنه كان قد قضى ست ساعات فى التفكير مليا فى السبب الذى دفع السيد تشرشل إلى طلب لقائه ؛ لم يكن قد توصل إلى شيء يفوق ما جال بذهنه عصر ذلك اليوم وقت مغادرة ثكنات كرديف عندما توقفت السيارة أمام العقار رقم ١٠ .

عندما قدم نفسه للشرطى الواقف أمام الباب ؛ تفحص الأخير اللائحة ثم طرق المطرقة النحاسية بحزم قبل أن يدعو الرقيب ترامبر إلى الدخول . كان أول انطباع لدى تشارلى عندما ولج بداخل العقار رقم ١٠ هو الدهشة التى اعترته من حجم المنزل الذى كان يبدو صغيرا مقارنة بمنزل دافنى فى ميدان إيتون .

جاءت ضابطة شابة وقدمت التحية للرقيب متوسط العمر قبل أن تقوده إلى حجرة الانتظار .

قالت : " رئيس الوزراء لديه مقابلة مع السفير الأمريكى الآن ، ولكنه لا يتوقع أن يطول لقاؤه مع السيد كينيدى لأكثر من ذلك " .

قال تشارلى : " شكرا لك " .

" هل تود تناول قدح من الشاى ؟ " .

" كلا ؛ شكرا لك " . كان تشارلى فى حالة من التوتر تحول دون تفكيره فى تناول الشاى . وعندما أغلقت الباب ؛ التقط تشارلى نسخة من صحيفة ليليبوت من فوق منضدة جانبية وأخذ يقلب الصفحات بدون أن يسعى لاستيعاب الكلمات .

بعدما تصفح كل المجلات الموضوعة على المنضدة ـ والتى كانت أقدم من تلك المجلات التى كان يجدها لدى طبيب أسنانه ـ بدأ يوجه انتباهه إلى الصور المعلقة فوق الحائط . وكانت هذه الصور لـ " ويلنجتون " و " بالمرستون " و " ديزرايلى " ، وكانت كلها صوراً منخفضة المستوى لن تزعج بيكى نفسها حتى بطرحها للبيع فى العقار رقم ١ . بيكى ؛ يا إلهى ـ هكذا فكر تشارلى ـ إنها حتى لا تعلم أننى هنا فى لندن . أخذ يحدق فى الهاتف الكائن فوق المائدة موقنا بأنه لا يستطيع أن يجرى مكالمة هاتفية من العقار رقم

١٠ . بدأ يحوم فى الغرفة ذهابا وإيابا بعد أن تملكه الإحباط وكأنه مريض فى انتظار أن يخبره الطبيب بأن حالته ميئوس منها . وفجأة فتح باب الحجرة وظهرت الموظفة الشابة ثانية .

قالت : " سوف يقابلك رئيس الوزراء الآن يا سيد ترامبر " ، ثم تقدمت لكى تقوده إلى درج ضيق بعدما اجتازا صوراً معلقة لرؤساء الوزراء السابقين . وعندما وصل إلى مكتب تشرشل وجد نفسه أمام رجل يبلغ طوله خمس أقدام وتسع بوصات وقد وقف واضعا يديه على فخذيه . ويحدق إليه بتحدٍ .

قال تشرشل وهو يمد يديه : " ترامبر ، يسعدنى أنك قد حضرت فى أسرع وقت . أتمنى ألا أكون قد انتزعتك من عمل مهم " .

لم يكن سوى درس فى الطهى ؛ هكذا فكر تشارلى ؛ ولكنه قرر ألا يشير إلى الأمر وهو يتبع الرجل فى مشيته المتثاقلة نحو مكتبه . دعا تشرشل ضيفه للجلوس على كرسى ذى أذرع بالقرب من نيران المدفأة المشتعلة . أخذ تشارلى يتأمل جذوع الأخشاب المحترقة وتذكر تعليمات رئيس الوزراء التى كانت تشدد على عدم إهدار الفحم .

" لابد أنك تتساءل عن سر كل هذه الجلبة " ، قال رئيس الوزراء ذلك وهو يشعل سيجاره ويفتح ملفا كان موضوعا فوق ركبتيه . وبدأ يقرأ .

قال تشارلى : " نعم يا سيدى " ، ولكن رده مع ذلك لم ينجح فى انتزاع أى توضيح من رئيس الوزراء . واصل تشرشل قراءة الملاحظات المستفيضة الموضوعة أمامه .

" أرى أن هناك شيئا مشتركا يجمع بيننا " .

" بالفعل يا سيدى الرئيس " .

" لقد خدم كلانا فى الحرب الكبرى " .

" الحرب التى ستضع حدا لكل الحروب " .

قال تشرشل : " أجل ؛ لقد أخطأ ثانية ؛ أليس كذلك ؟ ولكنه كان رجل سياسة " . ضحك رئيس الوزراء ضحكة خافتة قبل أن يواصل قراءة الملفات . وفجأة رفع رأسه وقال : " ومع ذلك فهناك دور مهم سوف يلعبه كلانا فى هذه الحرب يا ترامبر . وأنا لا أستطيع أن أهدر وقتك فى تلقين المستجدين دروس الطهى فى كرديف " .

فكر تشارلى قائلاً فى نفسه : هذا الرجل اللعين يعلم كل ما يجرى .

قال رئيس الوزراء وهو يغلق الملف : " عندما تكون الأمة فى حالة حرب يا ترامبر فإن الناس يتصورون أن النصر سوف يكون حليفنا طالما تملك عددا أكبر من القوات والعتاد الحربى يفوق ما يملكه العدو . ولكن المعارك تخسر وتكسب من خلال أشياء لا يملك جنرالات الحرب أى سيطرة عليها . وهناك أشياء ثانية يمكن أن تعرقل رحى الحرب . لقد أنشأت اليوم فقط قسما جديدا فى المكتب الحربى لمواجهة كسر القوانين . لقد سرقت أفضل أستاذين من جامعة كمبريدج ومساعديهم للمساعدة فى حل هذه المشكلة . نحن فى غنى عن هذه المشاكل الثانوية يا ترامبر " .

قال تشارلى بدون أن تكون لديه أدنى فكرة عما يتحدث عنه رئيس : " نعم يا سيدى " .

" كما أن لدىَّ مشكلة ثانوية أخرى يا ترامبر وقد أخبرنى مستشارىَّ أنك أفضلُ رجل يمكن أن يحل هذه المشكلة " .

" شكرا لك يا سيدى " .

" الطعام يا ترامبر والأهم من الطعام هو توزيع الطعام . لقد أبلغنى اللورد وولتون ـ الوزير المسئول ـ أن المؤن تنفد سريعا . بل إننا نعجز حتى عن الحصول على ما يكفينا من البطاطس من أيرلندا بحرا . وهذا يعنى أن إحدى أكبر المشاكل التى أصبحت تواجهنا الآن هى كيفية تلبية احتياجات الأمة من الغذاء بينما نشن حربا على سواحل العدو فى الوقت الذى يجب أن نبقى فيه الطريق البحرى مفتوحا أمام الإمدادات الغذائية . وقد أخبرنى الوزير أنه عندما يصل الطعام إلى الموانئ فقد يستغرق الأمر أسابيع إلى أن يتم نقل الطعام اللعين وأحيانا قد ينتهى به المآل إلى الوصول إلى المكان الخطأ " .

واصل رئيس الوزراء حديثه : " أضف إلى ذلك أن زراعنا يشكون من أنهم غير قادرين على أداء عملهم كما ينبغى لأننا قد جندنا أفضل رجالهم فى الحرب كما أنهم لم يتلقوا أى مساندة من قبل الحكومة فى المقابل " ، ثم صمت للحظة لكى يعيد إشعال سيجاره وأضاف : " إن ما أبحث عنه هو رجل قضى حياته فى شراء وبيع وتوزيع الطعام ؛ شخص عاش فى السوق ويحظى باحترام كل من المورد والمستهلك . باختصار يا ترامبر أنا بحاجة إليك . أريد أن تنضم إلى وولتون كمساعده الأول وتضمن توريد الغذاء وتوزيعه على الأماكن الصحيحة . هذا عمل بالغ الأهمية . أتمنى أن تقبل هذا التحدى " .

ويبدو أن علامات الترحيب والتحمس كانت قد ارتسمت على وجه ترامبر مما دفع رئيس الوزراء إلى مبادرته قائلا حتى قبل أن يوافيه بإجابة : " حسنا ؛ أرى أنك قد استوعبت الفكرة

الأساسية . أريدك أن تتسلم عملك فى وزارة التغذية فى الثامنة من صباح الغد . سوف تمر عليك السيارة غدا فى السابعة وخمس وأربعين دقيقة " .

" شكرا لك يا سيدى " قال تشارلى ذلك بدون أن يزعج نفسه بإخبار رئيس الوزراء أن السيارة عندما ستأتى فى موعدها فى السابعة وخمس وأربعين دقيقة سوف تكون قد تأخرت عليه بالفعل بأكثر من ثلاث ساعات " .

" كما أننى أود أن أضيف يا ترامبر أنك سوف ترقى إلى رتبة عقيد لكى تحظى بالتقدير اللائق " .

" إننى أفضل يا سيدى أن أبقى تشارلى ترامبر بدون أية ألقاب " .

" لماذا ؟ " .

" قد أكون بحاجة فى أحد الأوقات لأن أحتد على أحد اللواءات " .

انتزع رئيس الوزراء سيجاره من فمه وعلا صوته بالضحك قبل أن يقود ضيفه إلى الباب . قال رئيس الوزراء وهو يضع يده على كتف تشارلى : " ترامبر . إن تطلب الأمر الاتصال بى مباشرة فلا تتردد فى ذلك إن كنت ترى ذلك ضروريا . اتصل بى ليلا أو نهارا . فأنا لا أكترث بالنوم كما تعلم " .

قال تشارلى وهو يهبط الدرج : " شكرا لك يا سيدى " .

" حظاً سعيداً يا ترامبر واحرص على تغذية الشعب " .

قادت الموظفة تشارلى إلى سيارته وحيته وهو يجلس فى المقعد الأمامى مما أثار دهشته لأنه كان مازال يرتدى الزى العسكرى كرقيب .

طلب تشارلى من السائق أن يعيده إلى ليتل بولتونز عبر حدائق تشيلسيا . وبينما سافرا ببطء عبر شوارع الطرف الغربى ؛ حزن تشارلى عندما شاهد كل الأضرار الجسيمة التى أصابت كل العلامات المميزة المألوفة على يد الألمان بالرغم من أنه أدرك أنه لم ينج شيء فى لندن من القصف الجوى الألمانى .

عندما وصل إلى المنزل ، فتحت له بيكى الباب الأمامى وأحاطت زوجها بذراعيها وكان سؤالها الأول : " لماذا كان يريدك السيد تشرشل ؟ " .

" كيف عرفت أننى ذهبت لمقابلة رئيس الوزراء ؟ " .

" لقد اتصلوا بك هنا لكى يعرفوا أين يمكن أن يعثروا عليك . إذن ما الذى كان يريده منك ؟ " .

" كان يريد شخصا يستطيع أن يورد الخضراوات والفاكهة بشكل منتظم " .

أعجب تشارلى برئيسه الجديد منذ اللحظة التى التقى فيها به . وبالرغم من أن جيمس وولتون كان قد عين فى وزارة التغذية باعتباره رجل أعمال بارزاً ؛ فقد اعترف لـ " تشارلى " بأنه لم يكن خبيرا فى هذا المجال تحديدا ولكنه أكد له أنه سوف يحرص على توفير كل ما يحتاج إليه ويقدم له كل المساعدة .

وقد خصص لـ " تشارلى " مكتباً كبيراً فى نفس الرواق الذى كان يقع فيه مكتب الوزير وخصص له أيضا طاقم عمل مؤلفاً من أربعة عشر موظفا يرأسهم مساعد شخصى يدعى آرثر سيلوين كان قد تخرج حديثا من أكسفورد .

وسرعان ما أدرك تشارلى أن سيلوين كان يتمتع بذكاء حاد وبالرغم من أنه كان لا يملك خبرة فى مجال عمل تشارلى إلا أنه كان يستوعب كل ما يقال من الوهلة الأولى .

وقد وفرت البحرية لـ " تشارلى " سكرتيرة خاصة تدعى جيسيكا آلان بدت على استعداد للعمل لنفس الساعات التى كان يعملها تشارلى . وقد كان تشارلى يتعجب كيف لا تتمتع فتاة فى مثل جاذبيتها وذكائها بحياة اجتماعية رغدة إلى أن درس ملفها جيدا بعناية واكتشف أن خطيبها الشاب كان قد قتل على شاطئ دندريك .

وسرعان ما استعاد تشارلى نظامه القديم المعهود وهو الذهاب إلى مكتبه فى الرابعة والنصف صباحا حتى قبل وصول السعاة الذين يتولون مهمة التنظيف مما كان يمنحه فرصة لقراءة كل أوراقه حتى الثامنة بدون أى عوامل إزعاج .

ونظرا لطبيعة المهمة الخاصة ومساندة الوزير الواضحة له كانت كل الأبواب تفتح له . وفى غضون شهر واحد كان كل أفراد طاقم عمله يصلون إلى مكاتبهم فى الخامسة صباحا ومع ذلك فقد كان سيلوين وحده هو الذى يملك القدرة والهمة على مواصلة العمل معه طوال الليل .

وعلى مدى الشهر الأول لم يفعل تشارلى شيئا سوى قراءة التقارير والإنصات إلى تقييم سيلوين المفصل للمشاكل التى كانت تواجههم لمعظم أوقات السنة بينما كان يمر أحيانا للقاء الوزير لاستيضاح بعض النقاط التى لم يكن قد استوعبها بشكل جيد .

وعلى مدى الشهر الثانى قرر تشارلى زيارة كل الموانئ الكبرى فى المملكة لكى يتبين كل من يتولى مهمة توزيع الغذاء ؛ الغذاء

الذى كان فى بعض الأحيان يترك للعطب فى المخازن فوق المرسى فى كل أنحاء البلاد . وعندما وصل إلى ليفربول اكتشف أن الطعام لا يملك أولوية النقل عن الشاحنات الحربية أو الرجال لذا طالب بوجوب توفير أسطول نقل تابع لوزارته تكون مهمته الوحيدة نقل وتوزيع المؤن الغذائية فى كل أنحاء البلاد .

وقد نجح وولتون بطريقة ما فى توفير اثنتين وستين شاحنة كان معظمها من الفائض الحربى . وكان تشارلى يقول : " إنه يشبهنى كثيراً " . ولكنه مع ذلك عجز عن توفير سائقين لقيادة هذه المركبات .

قال تشارلى : " إن لم يكن هناك رجال أيها الوزير ؛ فأنا بحاجة إلى مائتى سيدة " ، وبالرغم من السخرية التى قوبل بها فى هذا الشأن فلم يمض شهر آخر إلا وكان الطعام قد بدأ يغادر الموانئ بعد وصوله بساعات .

كان العاملون فى الموانئ قد أبدوا تجاوبا جيدا مع السائقات فى الوقت الذى لم تكتشف فيه رابطة التجار أبدا أن تشارلى كان يتحدث معهم بلهجة بينما كان يتحدث فى الوزارة بلهجة مختلفة تماما .

وعندما بدأ تشارلى يحل مشكلة توزيع الطعام ؛ واجهته معضلتان آخريان . من ناحية شكا له الزراع من عجزهم عن إنتاج ما يكفى من غذاء لأن القوات المسلحة كانت قد سلبتهم أفضل رجالهم ، ومن ناحية أخرى ؛ اكتشف تشارلى أنه لا يحصل على ما يكفى من مؤن من الخارج بسبب نجاح الحملة البحرية للقوات الألمانية .

وقد توصل فى هذا الصدد إلى حلين طرحهما على وولتون .

قال تشارلى : " لقد قدمت لى فتيات لقيادة الشاحنات وأنا الآن بحاجة إلى فتيات لزراعة الأرض . أريد خمسة آلاف فتاة هذه المرة لأن هذا هو تحديدا العدد الذى أخبرنى الزراع أنهم بحاجة إليه " .

فى اليوم التالى ؛ أجرى وولتون لقاء فى التلفاز وناشد الأمة أنهم بحاجة إلى فتيات للعمل فى زراعة الأرض . تقدمت خمسمائة فتاة للعمل فى الأربع والعشرين ساعة الأولى واستطاع الوزير أن يوفر لـ " تشارلى " الخمسة آلاف فتاة اللاتى كان يحتاج إليهن فى غضون عشرة أسابيع . وقد ترك تشارلى الباب مفتوحا لتلقى طلبات الالتحاق بالعمل إلى أن حصل على سبعة آلاف فتاة وإلى أن ارتسمت ابتسامة الرضا بوضوح على وجه رئيس اتحاد الزراع القومى .

أما بالنسبة للمشكلة الثانية المتعلقة بنقص الموارد ؛ فقد نصح تشارلى وولتون بشراء الأرز كبديل غذائى عن البطاطس . سأل وولتون : " ولكن من أين نحصل على هذه السلعة ؟ إن الصين والشرق الأقصى من الرحلات الخطيرة التى يستحيل علينا أن نجازف بها الآن " .

قال تشارلى : " أعلم ذلك ، ولكننى أعرف مُورداً فى مصر يمكن أن يوفر لنا مليون طن شهرياً " .

" هل يمكن الوثوق به ؟ "

قال تشارلى : " بالطبع لا ، ولكن أخاه مازال يعمل فى الطرف الشرقى ؛ فإن كان بوسعنا اعتقاله لعدة أشهر قليلة أعتقد أننا سوف ننجح فى عقد صفقة مع أسرته " .

" ولكن الصحافة إن اكتشفت هذا الأمر فسوف يمثلون بى فى ميدان عام " .

" لن أخبرهم أيها الوزير " .

وفى اليوم التالى وجد إيلى كاليل نفسه مسجونا فى سجن بريكستون بينما طار تشارلى إلى القاهرة لكى يعقد الصفقة مع أخيه لكى يورد لهم مليون طن من الأرز شهريا كانت قد خصصت بالفعل للإيطاليين .

وقد اتفق تشارلى مع نسيم كاليل على أن يتم نصف الدفع بالجنيه الاسترلينى والنصف الآخر بالقروش وعلى أنه طالما كان التوريد يصل بانتظام فى الموعد المحدد فلن تكون هناك حاجة لاستصدار أوراق خاصة بالسداد فى القاهرة . فإن عجز كاليل عن الوفاء بالموعد المحدد فسوف يتم إبلاغ الحكومة فى مصر بكل تفاصيل الصفقة .

سأل نسيم : " جيد جدا يا تشارلى ، هكذا أنت دائما . ولكن ماذا عن أخى إيلى ؟ " .

" سوف نطلق سراحه فى نهاية الحرب ولكن فقط إن وصلت كل الشحنات فى موعدها المحدد " .

أجاب نسيم : " هذا ذكاء منك ، كما أن عامين فى السجن لن يضيرا إيلى . إنه ـ على أية حال ـ من الأشخاص القلائل فى عائلتنا الذين لم يتعرضوا للاعتقال " .

حاول تشارلى أن يقضى على الأقل ساعتين أسبوعيا مع توم آرنولد لتفقد كل ما يجرى فى تشيلسيا . كان على توم أن يخبره بأن متاجر ترامبر كانت تحقق خسائر بشكل منتظم مما اضطره إلى إغلاق خمسة متاجر مما أثار حزن تشارلى لأن سيد ريكسال كان قد بعث له خطابا يعرض عليه فيه شراء سلسلة المحلات وحانة

الزاوية مقابل ستة آلاف جنيه وهو المبلغ الذى زعم ريكسال أن تشارلى كان قد أكد له أنه على استعداد لعقد الصفقة مقابله . كان كل ما على تشارلى عمله الآن ـ كما ذكر ريكسال فى خطاب مرفق ـ هو توقيع الشيك .

تفحص تشارلى العقد الذى كان ريكسال قد ألحقه بالخطاب وقال : " كنت قد تقدمت بهذا العرض قبل اندلاع الحرب بكثير . أعد كل الأوراق ثانية . أنا واثق أنه سوف يبيع هذه المحلات مقابل أربعة آلاف جنيه فى نفس هذا الوقت من العام المقبل . ولكن حاول أن ترضيه يا توم " .

أجاب توم : " قد يكون هذا صعبا بعض الشيء . منذ أن استقرت تلك القنبلة فوق الموسكيتير ؛ انتقل سيِّد للعيش فى تشيسهاير . لقد أصبح الآن يمتلك حانة فى مكان ما يدعى هاثرتورن " .

قال تشارلى : " هذا أفضل ، أى أننا لن نراه ثانية . وهذا يزيد من ثقتى فى أنه فى غضون عام سوف يكون على استعداد لعقد الصفقة . تجاهل هذا الخطاب إذن لبعض من الوقت الراهن . إن البريد ـ على أية حال ـ ليس منضبطا هذه الأيام " .

كان تشارلى مضطرا إلى ترك توم والسفر إلى ساوثهامبتون حيث كانت قد وصلت أول شحنة أرسلها كاليل . كانت فتيات الشاحنات قد وصلن إلى هناك لنقل البضائع ولكن مدير الميناء كان يرفض الإفراج عن البضائع بدون أوراق موثقة . كانت الرحلة شاقة على تشارلى كما أنه لم يكن ـ بكل تأكيد ـ عازما على القيام بها شهريا .

عندما وصل إلى الميناء سرعان ما اكتشف أنه لم تكن هناك مشكلة مع اتحاد التجار ممن كانوا على استعداد لإنزال الشحنة كاملة أو مع الفتيات اللاتى كن يجلسن خلف عجلات القيادة فى انتظار تسلم الشحنة .

أثناء احتساء بعض الشراب فى إحدى الحانات المحلية ، أخبر ألف ريدوود ـ رئيس العاملين فى الميناء ـ تشارلى أن السيد سيمكينز ـ المدير العام للموانئ وميناء هاربور ـ كان رجلاً شديد الالتزام بالروتين والأعمال الورقية وكان يحب أن تنجز كل هذه الأمور بمنتهى الدقة وفق القواعد المنصوص عليها .

قال تشارلى : " أهو بالفعل كذلك ؟ هذا يعنى أيضا أننى يجب أن ألتزم بكل القواعد المنصوص عليها ، أليس كذلك ؟ " ، بعدما سدد الحساب ، نهض وتوجه إلى المقر الإدارى للميناء حيث طلب مقابلة السيد سيمكينز .

" إنه مشغول للغاية الآن " ، قالت موظفة الاستقبال ذلك بدون أن تزعج نفسها برفع عينها عن طلاء أظافرها . سار تشارلى متخطيا إياها إلى مكتب سيمكينز مباشرة ليجد رجلا نحيلا أصلع جالسا خلف مكتب كبير منهمكا فى غمس البسكويت فى كوب من الشاى .

" من أنت إذن ؟ " هكذا سأل مدير الميناء تشارلى بعد أن فاجأته الدهشة وجعلته يسقط قطعة البسكويت فى الشاى .

" تشارلى ترامبر وأنا هنا لكى أعرف سبب عدم الإفراج عن شحنة الأرز " .

قال سيمكينز وهو يحاول أن ينقذ قطعة البسكويت التى كانت فى ذلك الوقت تطفو فوق سطح كوب مشروبه الصباحى : " أنا لا

أملك ذلك . لم تصلنى أية أوراق رسمية من القاهرة كما أن الأوراق التى وصلتنى من لندن ليست كافية ، ليست كافية بالمرة " ، ثم ابتسم ابتسامة رضا .

" ولكننى قد أكون بحاجة إلى أيام لإعداد الأوراق اللازمة " .

" هذه ليست مشكلتى " .

" ولكننا فى حالة حرب يا رجل " .

" هذا يعنى أننا يجب أن نسعى جميعاً لأن نحافظ على اللوائح . أنا واثق أن الألمان يفعلون نفس الشىء " .

قال تشارلى : " أنا لا أكترث ألبتة بما يفعله الألمان . سوف يصلنى مليون طن من الأرز شهريا عن طريق هذا الميناء وأريد أن أوزع كل حبة منها بأسرع ما يمكن . هل هذا واضح ؟ " .

" بالطبع يا سيد ترامبر ولكننى مازلت بحاجة لأوراق رسمية دقيقة للإفراج عن الشحنة قبل أن تحصل عليها " .

" إننى آمرك أن تفرج عن شحنة الأرز فى الحال " ، قال تشارلى ذلك وهو يصيح فى وجهه للمرة الأولى .

" لا يجب أن ترفع صوتك يا سيد ترامبر لأنك كما سبق وشرحت لك بالفعل لا تملك سلطة الأمر والنهى بأى شىء . هذا هو مجلس إدارة الموانئ وهو غير خاضع ـ كما أنا واثق من أنك تعلم ـ لسلطة وزارة الغذاء . يجب أن أعود إلى لندن لكى أبذل جهداً أكبر فى هذه المرة لكى أستوفى الأوراق المطلوبة كما ينبغى " .

شعر تشارلى أنه أكبر من أن يضرب الرجل فما كان منه إلا أن التقط ببساطة سماعة الهاتف الموضوع على مكتب سيمكينز وطلب الاتصال بأحد الأرقام .

سأل سميكينز : " ما الذى تفعله ؟ هذا هاتفى - أنت لا تملك حق استخدامه " .

بقى تشارلى ممسكا بالهاف وأدار ظهره له . وعندما سمع صوتا فى الطرف المقابل قال : " أنا تشارلى ترامبر ؛ هل يمكننى أن أحادث رئيس الوزراء ؟ " .

اكتست وجنتا سيمكينز فى البداية باللون الأحمر ثم الأبيض عندما هربت الدماء من وجهه كلية ، وبدأ يقول : " ليس هناك فى واقع الأمر حاجة لأن ... " .

قال تشارلى : " صباح الخير يا سيدى ، أنا هنا فى ساوتهامبتون بسبب مشكلة الأرز التى ذكرتها لك فى الليلة الماضية . ولكننا نواجه مشكلة . يبدو أننى غير قادر ـــــ " .

كان سيمكينز عند هذا الحد قد بدأ يلوح بكلتا يديه فى اضطراب وكأنه بحار ضال فى محاولة لاجتذاب انتباه تشارلى بينما كان يومئ برأسه بسرعة إلى أعلى وأسفل .

" هناك مليون طن من الأرز ترد إلينا شهريا أيها الرئيس والفتيات فى انتظار ـــــ " .

همس سيمكينز بعد أن اقترب من تشارلى : " كل شىء على ما يرام . كل شىء سوف يكون على ما يرام ؛ أؤكد لك " .

" هل تريد أن تحادث الشخص المسئول يا سيدى ؟ " .

قال سيمكينز : " كلا كلا ؛ لن يكن هذا ضروريا ؛ فأنا لدى كل الصيغ المطلوبة ؛ كل الصيغ التى تحتاج إليها " .

قال تشارلى بعد أن صمت للحظة : " سوف أخطره يا سيدى . سوف أعود إلى لندن مساء اليوم يا سيدى ؛ وسوف أوافيك بكل التفاصيل فور عودتى . إلى اللقاء يا سيدى الرئيس " .

قالت بيكى وهى تعيد سماعة الهاتف : " إلى اللقاء ، وسوف تخبرنى بالطبع بسر كل هذه الجلبة فور عودتك إلى المنزل الليلة " .

غرق الوزير فى الضحك عندما قص عليه تشارلى وعلى جيسكيا آلان كل ما جرى فى وقت لاحق من مساء ذلك اليوم .

قال وولتون : " هل تعلم أن رئيس الوزراء كان سيسعده أن يحادث الرجل إن كنت تريد ذلك ؟ " .

قال تشارلى : " إن كان قد فعل لكان سيمكينز قد أصيب بنوبة قلبية . كما أن أرزى وكذلك سائقتى كانوا سيبقون رهن الحبس فى الميناء إلى الأبد . على أية حال ؛ فى ظل ما نحن فيه من نقص فى الموارد الغذائية كان لا يمكن أن أبقى لأشاهد الرجل الخبيث وهو يهدر قطعة بسكويت أخرى " .

كان تشارلى فى كرليسل يحضر أحد اجتماعات الزراع عندما جاءته محادثة هاتفية عاجلة من لندن .

سأل وهو يحاول أن يركز على حديث أحد المندوبين الذى كان يشرح له مشاكل زيادة محصول اللفت : " من المتحدث ؟ " .

همس آرثر سيلوين : " إنها ماركيزة ويلتشاير " .

قال تشارلى : " سوف أتلقى المكالمة إذن " ، وغادر غرفة الاجتماعات إلى غرفته حيث أوصله عامل الهاتف فى الفندق بالمتحدثة .

" دافنى ؛ ما الذى يمكن أن أسديه لك يا حبى ؟ " .

" كلا يا عزيزى ؛ أنا التى سوف أسدى لك كالعادة . هل قرأت صحيفة التايمز صباح اليوم ؟ " .

قال تشارلى : " ألقيت نظرة على العناوين الكبرى فقط ؛ ولكن لماذا ؟ " .

" يجدر بك إذن أن تقرأ جيدا صفحات الوفيات بمزيد من العناية . وخاصة السطر الأخير من واحد منها . لن أهدر وقتك أكثر من ذلك يا عزيزى لأن رئيس الوزراء لا يكف عن تذكيرنا بالدور الحيوى الذى تلعبه فى كسب الحرب " .

ضحك تشارلى بينما كانت دافنى قد وضعت السماعة .

سأل سيلوين : " هل هناك أى شيء يمكننى القيام به ؟ "

" نعم يا آرثر ؛ أريد نسخة من جريدة التايمز " .

عندما عاد سيلوين يحمل نسخة من الجريدة الصباحية ؛ تصفح تشارلى الجريدة سريعا إلى أن وصل إلى صفحات الوفيات حيث وجد اسم الأدميرال سير ألكسندر دكستر ؛ أحد أكبر قادة الحرب فى الحرب العالمية الأولى ، والذى كان يتمتع بمهارات مناورة فائقة ثم اسم جى . تى . ماكفرسون ؛ راكب المنطاد والمؤلف ؛ وسير رايموند هارد كاسيل ؛ رجل الصناعة .....

أخذ تشارلى يدقق فى كل التفاصيل الدقيقة المدونة عن الحياة العملية للسير رايموند ؛ ولد وتلقى تعليمه فى يورك شاير وطور شركة والده الهندسية فى مطلع القرن العشرين . وفى العشرينات قام بتوسيع الشركة الصغيرة وحولها إلى صرح صناعى كبير فى شمال إنجلترا . وفى عام ١٩٣٧ ؛ باع هاردكاسيل حصته إلى جون براون والشركة مقابل سبعمائة وثمانين ألف جنيه . ولكن دافنى كانت محقة ؛ فالسطر الأخير كان هو السطر الوحيد الذى يهم تشارلى .

" سير رايموند ؛ الذى توفيت زوجته عام ١٩١٤ ؛ له ابنتان مازالتا على قيد الحياة وهما الآنسة إيمى هارد كاسيل والسيدة جيرالد ترينثام " .

التقط تشارلى سماعة الهاتف الموضوع فوق المنضدة الجانبية وطلب من الموظف الاتصال برقم ما فى شارع تشيلسيا . وبعدها بلحظات قليلة جاءه صوت توم آرنولد على الطرف الآخر .

كان السؤال الوحيد الذى سأله تشارلى هو : " أين هو - بحق السماء - المكان الذى سبق وأخبرتنى أننى يمكن أن أعثر على ريكسال فيه ؟ " .

" كما شرحت لك فى آخر مرة سألتنى فيها أيها الرئيس ؛ إنه يدير الآن حانة فى تشيسهاير ، تدعى هابى بوتشر ؛ فى بلدة تدعى هاثرتون " .

شكر تشارلى مديره التنفيذى ووضع السماعة بدون أن يضيف كلمة أخرى .

سأل سيلوين بجفاف : " هل يمكننى المساعدة ؟ "

" ما هو برنامجى لباقى اليوم يا آرثر ؛ هل لدىَّ ارتباطات ؟ "

" حسنا ؛ لم تحسم مشكلة اللفت بعد ، أى أنك من المفترض أن تحضر المزيد من الجلسات عصر اليوم . كما أنك اليوم سوف تتقدم بتقرير للحكومة عن الاجتماع المزمع عقده على العشاء بعدما تقوم بمنح مكافآت الألبان السنوية أخيرا صباح الغد " .

قال تشارلى : " إذن ادعو لى أن أتمكن من العودة على موعد العشاء اليوم " ، ثم نهض واقفا والتقط معطفه .

سأله سيلوين محاولا مجاراة رئيسه : " هل تريدنى أن آتى معك ؟ " .

" كلا ؛ شكرا لك يا آرثر . إنه أمر شخصى . فقط قم بتغطيتى إن لم أنجح فى العودة فى الوقت المناسب " .

طار تشارلى فوق الدرج ومنه إلى المنتزه . كان سائقه قد غفا فى سلام وراء عجلة القيادة .

قفز تشارلى داخل العربة وصفع الباب وأيقظ السائق قائلاً : " إلى هاثرتون " .

" هاثرتون يا سيدى ؟ " .

" أجل . هاثرتون . إلى الجنوب من كارليسلى وعندها سوف أتمكن من إرشادك إلى الوجهة الصحيحة " . فتح تشارلى خارطة الطريق واستدار وبدأ يحرك إصبعة بحثا عن المدن التى تبدأ بحرف " إتش " . وجد خمسة أماكن تحمل اسم هاثرتون ولكن حمد الله ؛ لقد أسعفه الحظ وكانت هناك بلدة واحدة فقط من بينها تقع فى تشيسهاير . كانت الكلمة الوحيدة الأخرى التى نطق بها تشارلى أثناء الرحلة هى كلمة " أسرع " وهى الكلمة التى كررها عدة مرات . مرا بـ " لانشستر " ثم بريستون وأخيراً وارينجتون قبل أن يتوقفا عند حانة هابى بوتشر قبل موعد إغلاقها بنصف ساعة فقط لاستراحة العصر .

كادت عينا سيد ريكسال تقفزان خارج رأسه عندما وجد تشارلى عند الباب الأمامى .

" بيضة اسكتلندية وبعض الشراب يا صاحب الحانة وبأسرع ما يمكن " ، قال تشارلى ذلك مبتسما وهو يضع حقيبته الشخصية بجانبه .

" يدهشنى أن أراك فى مثل هذه المناطق يا سيد ترامبر " . قال سيد ذلك بصوت مرتفع بعدما صاح قائلا : " هيلدا ؛ بيضة اسكتلندية وبعض الشراب وهلمى لترى من جاءنا هنا " .

قال تشارلى موضحاً : " كنت فى طريقى لحضور اجتماع للزراع فى كارليسلى ، وفكرت فى أن أمر لتناول بعض الشراب ووجبة خفيفة مع أحد الأصدقاء القدامى " .

قال سيد وهو يضع الشراب أمامه : " هذا لطف منك " .

" نحن نقرأ الكثير عنك هذه الأيام فى الصحف وكل هذا العمل الذى تقوم به مع اللورد وولتون من أجل الحرب . لقد أصبحت من بين المشاهير البارزين " .

قال تشارلى : " إنه عمل مدهش ؛ هذا العمل الذى كلفنى به رئيس الوزراء " ، وأضاف ؛ آملا أن تكون نبرته رنانة بشكل كاف : " أتمنى فقط أن أكون قد أبليت بلاءً حسناً " .

" ولكن ماذا عن متاجرك يا تشارلى ؟ من الذى يعتنى بها طوال هذا الوقت ؟ " .

" إنه آرنولد ؛ يحاول أن يبذل قصارى جهده فى ظل هذه الظروف . ولكننى مع ذلك اضطررت لإغلاق أربعة أو خمسة متاجر فى الوقت الراهن ناهيك عن المتاجر التى كانت تعانى بالفعل من الكساد . يمكننى أن أسر لك يا سيد أنه إن بقيت الأشياء على ما هى عليه الآن بدون تحسن فسوف أبحث أنا شخصيا عن مشتر " .

ثم جاءت زوجة ريكسال مسرعة وهى تحمل طبقا من الطعام .

قال تشارلى لها وهى تضع طبق البيض الاسكتلندى والسلاطة أمامه : " مرحباً بك يا سيدة ريكسال ، تسرنى رؤيتك ثانية . لم لا تطلبين لزوجك مشروبا على حسابى ؟ " .

" لا أمانع يا تشارلى . هلا أحضرت لى طلبى يا هيلدا ؟ " ، قال ريكسال ذلك وهو ينحنى فوق البار بنبرة تآمرية وأضاف : " هل هناك شخص تعرفه يرغب فى شراء الحانة والمحلات التابعة للرابطة ؟ " .

قال تشارلى : " لا أعتقد ذلك ، لقد كنت على ما أذكر - يا سيد - تطلب ثمنا باهظا للموسكيتير الذى لا يعدو الآن كونه موقعا مقصوفا . ناهيك عن الحالة المتردية التى وصلت إليها باقى المتاجر التابعة للرابطة " .

" لقد عرضت عليك سعر ستة آلاف جنيه التى أعتقد أنه قد سبق لنا الاتفاق عليه من قبل ولكن آرنولد مع ذلك أخبرنى أنك لم تعد مهتما بشراء المتاجر " . قال سيد ذلك بينما كانت زوجته تضع كوبين من الشراب قبل أن تمضى لخدمة زبائن آخرين .

قال تشارلى محاولا أن يبدى دهشته : " هل قال لك هذا ؟ "

قال ريكسال : " أجل ؛ فعل ، لقد قبلت عرضك بستة آلاف جنيه حتى إننى أرسلت إليك عقدا موقعا لكى تصدق عليه ولكن المستندات أعيدت إلىّ بدون أى رد " .

قال تشارلى : " لا أصدق ذلك بعدما وعدتك يا سيد . ولكن لماذا لم تسع للاتصال بى شخصيا بشكل مباشر ؟ " .

قال ريكسال : " لم يعد الاتصال هذه الأيام بهذه السهولة . كما أن منصبك المرموق الذى أصبحت تشغله هذا الأيام لم يبق لك وقتا متاحا لأمثالى " .

قال تشارلى : " لم يكن آرنولد يملك حق فعل ذلك ، يبدو أنه لم يقدر العلاقة القديمة التى جمعتنا من زمن . أعتذر يا سيد وتذكر

أنه يمكن دائما الاتصال بى وقتما شئت . ولكنك مازلت تحتفظ بالعقد ؛ أليس كذلك ؟ " .

قال ريكسال : " بالطبع ؛ وهو ما يثبت أننى دائما أفى بوعودى " ، ثم اختفى تاركا تشارلى لتناول البيض والشراب .

عاد أمين رابطة التجار بعدها بدقائق ووضع المستندات على النضد وقال : " ها هى المستندات أمامك يا تشارلى مثلما أقف أنا تماما " .

تفحص تشارلى العقد الذى كان آرنولد قد قدمه له من ثمانية عشر شهراً . كان يحمل بالفعل توقيع سيدنى ريكسال ويحمل رقم ستة آلاف بعد عبارة " لعناية السيد ——— " .

قال ريكسال : " كل ما هو مطلوب هو تدوين التاريخ وتوقيعك ، لم أكن أصدق أن تفعل بى هذا يا تشارلى ؛ بعد كل هذه السنين " .

" كما سوف يتأكد لك يا سيِّد . أنا رجل يفى بوعوده . إننى فقط أشعر بالأسف لأن مديرى التنفيذى لم يكن يملك معلومات دقيقة عن اتفاقنا الشخصى " . قال تشارلى ذلك ثم استخرج محفظته من جيبه وأخرج دفتر شيكاته ودون اسم " سيد ريكسال " على السطر العلوى ، ثم كتب " ستة آلاف جنيه " فى السطر الذى يليه قبل أن يوقع على الشيك بمنتهى الفخر .

" أنت رجل نبيل يا تشارلى . لقد كان هذا هو دائما رأيى فيك . ألم أكن أقول ذلك دائما يا هيلدا ؟ " .

أومأت السيدة ريكسال فى حماس بينما ابتسم تشارلى والتقط العقد ووضعه بين حافظة أوراقه داخل حقيبته وصافح السيد ريكسال وزوجته .

سأل تشارلى قبل أن يحتسى آخر قطرة من الشراب : " كم الحساب ؟ " .

قال ريكسال : " سوف يسدد المحل الحساب " .

" ولكن يا سيد ــــــ " .

" كلا ، أنا أصر ، لا يمكن أن أعامل صديقى القديم وكأنه أحد الزبائن العاديين يا تشارلى . سوف يسدد المحل الحساب " كرر سيد ذلك بينما دق جرس الهاتف وذهبت هيلدا ريكسال لكى تجيبه .

قال تشارلى : " حسنا ، يجب أن أذهب الآن وإلا فسوف أتأخر عن موعد الاجتماع . كما أننى يجب أن ألقى خطبة الليلة . سرنى العمل معك يا سِيْد " .

" هناك سيدة تريد أن تحادثك يا سِيْد . إنها مكالمة خارجية . تقول إن اسمها هو السيدة ترينثام " .

بمرور الشهور اكتسب تشارلى خبرة لا تبارى فى عمله . لم يكن أى مدير ميناء يعلم فى أى وقت سوف ينقض عليه ، ولم يكن أى مورد يفاجأ عندما يطالبه بمراجعة الفواتير ، كما أصبح رئيس لجنة الزراع المحليين ينتشى ويثنى على تشارلى كلما جاء ذكره فى أى حديث " .

لم يجد تشارلى فى أى مواقفة ضرورة تفرض عليه الاتصال برئيس الوزراء ، ومع ذلك فقد اتصل به تشرشل ذات مرة . كانت الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح أحد الأيام عندما التقط تشارلى سماعة الهاتف من فوق مكتبه .

قال : " صباح الخير " .

" هل أنت ترامبر ؟ " .

" أجل ، من المتحدث ؟ " .

" تشرشل " .

" صباح الخير يا سيدى الرئيس . ما الذى يمكننى أن أسديه لك ؟ " .

" لا شىء . كنت فقط أتأكد من صحة ما يقال عنك . بالمناسبة ، شكرا لك " ، ثم أغلق السماعة .

وقد نجح تشارلى من آن إلى آخر فى تناول الغداء مع دانيال . كان الفتى يعمل فى ذلك الوقت فى المكتب الحربى ولكنه لم يكن يتحدث أبدا عما يجرى فى العمل . وبعدما ترقى إلى رتبة نقيب ، كان الشىء الوحيد الذى يؤرق تشارلى هو رد فعل بيكى إن لم تره أبدا وهو فى زيه العسكرى .

وعندما زار تشارلى توم آرنولد فى نهاية الشهر ، علم أن السيد هادلو كان قد تقاعد من منصبه فى البنك وأن الشخص الذى حل محله وهو السيد بول ميريك لم يكن سهل المراس مثله . وقد شرح تومى قائلاً : إنه يقول إن سحبنا على المكشوف قد وصل إلى معدلات لم تعد مقبولة وأنه ربما قد حان وقت قيامنا بشىء حيال هذا الأمر " .

قال تشارلى : " هل قال ذلك بالفعل ؟ " هذا يعنى أننى يجب أن أذهب لمقابلة السيد ميريك هذا ولكى أكشف له عن بعض الحقائق " .

بالرغم من أن تشارلى كان قد امتلك كل محلات تشيلسيا باستثناء متجر الكتب ، فقد كان لايزال يواجه مشكلة السيدة ترينثام وشققها التى تعرضت للقصف والدمار ، بالإضافة إلى مشاكل

هتلر وحربه المتواصلة ؛ وقد كان تشارلى يضع هذين الاعتبارين دائما على قدم المساواة وبنفس الترتيب فى معظم الوقت .

بدأت الحرب مع هتلر تسير فى الاتجاه الصحيح مع نهاية عام ١٩٤٢ بانتصار الجيش الإنجليزى فى موقعة العلمين . وبدأ تشارلى يشعر بالثقة فى تشرشل وما سبق وذكره له ذات مرة وهو أن الأمور قد انقلبت فى الاتجاه المعاكس حيث تم اجتياح أفريقيا ، تلتها إيطاليا ثم فرنسا وأخيرا ألمانيا .

ولكن بحلول ذلك الوقت كان السيد ميريك هو الذى يصر على مقابلة تشارلى .

عندما دخل تشارلى مكتب السيد ميريك للمرة الأولى ؛ اندهش لصغر سن هذا الشخص الذى حل محل السيد هادلو . كما أنه استغرق أيضا بعض الوقت لكى يعتاد على رؤية مدير بنك لا يرتدى الزى الكلاسيكى المعروف لرجال المصرف المؤلف من الصديرية ورابطة العنق السوداء . كان بول ميريك يفوق تشارلى طولا قليلا وكان كل شيء فيه كبيرا باستثناء ابتسامته . وسرعان ما اكتشف تشارلى أن السيد ميريك كان صعب المراس بالفعل .

" كما تعرف يا سيد ترامبر ؛ لقد وصل سحب شركتكم على المكشوف إلى سبعة وأربعين ألف جنيه كما أن دخلكم الحالى لم يعد حتى يغطى ـــــ " .

" ولكن قيمة المتلكات تزيد على هذا المبلغ بأربع أو خمس مرات " .

" فقط إن كان يمكن العثور على مشتر " .

" ولكننى لا أرغب فى البيع " .

" قد لا يكون أمامك خيار يا سيد ترامبر إن قرر البنك أن يحبس الرهن " .

قال تشارلى : " عندها سوف أكتفى بنقل أعمالى إلى بنك آخر ؛ أليس كذلك ؟ " .

" يبدو أنه لم تتح لك مؤخرا فرصة الاطلاع على محاضر اجتماعات مجلس الإدارة لأننا فى لقائنا الأخير أخبرنى مديرك التنفيذى السيد آرنولد أنه قد زار بالفعل ستة بنوك فى الشهر الماضى ؛ ولم يبد أى منهم أدنى رغبة فى قبول طلبك هذا " .

بقى ميريك فى انتظار إجابة عميله ولكن حيث إنه التزم الصمت فقد واصل حديثه قائلا : " وقد شرح السيد كراوثر للمجلس أن السبب فى ذلك هو أن سعر المتلكات الآن أصبح أقل من أى وقت مضى منذ الثلاثينات " .

" ولكن هذا الوضع سوف يتغير بين عشية وضحاها بمجرد أن تنتهى الحرب " .

" ربما ولكن هذا الوضع قد يدوم لسنوات وقد تكون قد أفلست قبلها بـ ـــــ " .

" بما يقرب من اثنى عشر شهرا فى تقديرى " .

" ـــــ خاصة إن واصلت إصدار شيكات بقيمة ستة آلاف جنيه مقابل شراء ممتلكات لا تصل قيمتها الحقيقية إلى نصف هذا المبلغ " .

" ولكن إن كان ليس أمامى ـــــ " .

" قد لا يكون الوضع فى مثل هذه الخطورة " .

بقى تشارلى صامتا لبعض الوقت ثم سأل أخيراً : " إذن ما الذى تقترح علىَّ عمله ؟ " .

" أريدك أن توقع على ورق ينص على تقديم كل هذه الممتلكات وكل الأسهم التى تمتلكها شركتك كضمان للسحب . لقد أعددت بالفعل كل المستندات اللازمة " .

استدار ميريك وقدم له ملفا كان موضوعا وسط مكتبه ، وأضاف قائلاً : " إن كنت تشعر أنك على استعداد للتوقيع " ، وأشار إلى المكان المخصص لذلك بالقرب من نهاية الصفحة واستطرد قائلاً : " فسوف أكون على استعداد لإطالة فترة الائتمان إلى اثنى عشر شهراً " .

" وماذا لو رفضت التوقيع ؟ " .

" لن يبقى أمامى إلا أن أصدر إخطار إفلاس فى غضون ثمانية وعشرين يوما " .

أخذ تشارلى يحدق فى المستندات الموضوعة أمامه واكتشف أن بيكى كانت قد وقعت بالفعل فى السطر الذى يعلو السطر الذى يجب أن يوقع هو عليه . بقى الرجلان صامتين لبعض الوقت بينما أخذ تشارلى يوازن بين الخيارات المطروحة . وبدون أى تعليق ؛ استخرج تشارلى قلمه ودون توقيعه فى المكان المخصص وأعاد المستندات ثانية واستدار وغادر الغرفة بدون أية كلمة أخرى .

وقع الجنرال جودل على انسحاب ألمانيا بينما قبل الجنرال بيديل سميث التوقيع نيابة عن الحلفاء هذا الانسحاب فى رايمز فى السابع من مايو عام ١٩٤٥ .

كان تشارلى سيرحب بالانضمام إلى احتفالات النصر فى ميدان ترافلاجر ما لم تكن بيكى قد ذكرته بأن سحبهم على المكشوف كان

قد اقترب من ستين ألف جنيه وما لم يكن ميريك قد هدده ثانية بإشهار إفلاسه .

سأل تشارلى : " لقد وضع يده على ممتلكاتنا وكل أسهمنا . ماذا يريد أكثر من ذلك ؟ " .

" إنه يقترح الآن أن نقوم ببيع الشىء الوحيد الذى يمكن أن يسدد هذا الدين ؛ بل وسوف يمنحنا أيضا قدرا من رأس المال سوف يساعدنا على مدى العامين التاليين " .

" وما هو هذا الشىء ؟ " .

" إنها لوحة آكلو البطاطا لـ " فان جوخ " .

" يستحيل ! " .

" ولكن يا تشارلى ؛ إن اللوحة ملك .... " .

حدد تشارلى موعدا للقاء اللورد وولتون فى صباح اليوم التالى وشرح للوزير أنه أصبح يواجه مشاكل عصيبة فى عمله تتطلب تفرغه الكامل . ولذا فقد طلب منه - خاصة بعد انتهاء الحرب - أن يعفى من مهامه الحالية .

وقد استوعب اللورد وولتون قدر المشاكل التى كان يواجهها تشارلى وأعرب عن الحزن البالغ الذى سوف يشعر به كل العاملين فى الوزارة بسبب رحيله .

وعندما غادر تشارلى مكتبه بعدها بشهر ؛ كان الشىء الوحيد الذى صحبه معه هو جيسكيا آلان .

لم تخف وطأة مشكلة تشارلى خلال عام ١٩٤٥ حيث إن أسعار الممتلكات واصلت انخفاضها مع استمرار معدل التضخم . ومع ذلك فقد تأثر بشدة عندما أقام رئيس الوزراء - بعد توقيع السلام - حفل

عشاء على شرفه فى العقار رقم ١٠ . أقرت دافنى بأنه لم يسبق لها زيارة المبنى من قبل ومع ذلك فقد أخبرت بيكى بأنها لم تكن واثقة إن كانت بالفعل راغبة فى ذلك . أما بيرسى فقد اعترف بأنه يرغب فى زيارة المقر بل وأنه يحسد تشارلى على هذه المكانة .

كان الحضور يضم الكثير من وزراء الحكومة . جلست بيكى بين تشرشل والنجم الشاب الصاعد راب باتلر بينما جلس تشارلى بجوار السيدة تشرشل والليدى وولتون . أخذت بيكى تتأمل زوجها وهو يحادث رئيس الوزراء واللورد وولتون بمنتهى الارتياح وكان عليها أن تبتسم عندما جرؤ تشارلى على تقديم سيجارة للرجل العجوز والتى كان قد اقتناها له خصيصا من المتجر الكائن فى العقار ١٣٩ . ولم يكن أى شخص داخل القاعة يمكن أن يتصور أنهما كانا على وشك الإفلاس .

عندما انتهت الأمسية أخيرا ؛ شكرت بيكى رئيس الوزراء الذى قدم بدوره الشكر إليها .

سألت بيكى : " ولكن علام ؟ "

" لأنك كنت تتلقين مكالمات هاتفية باسمى ؛ كما أنك أيضا كنت تتخذين قرارات ممتازة نيابة عنى . " ، قال الرجل ذلك وهو يصحبهما بطول الرواق إلى البهو الأمامى .

قال تشارلى وقد ارتسمت عليه علامات الدهشة : " لم أكن أعرف أنك تعرف " .

" أعرف ؟ لقد أخبر وولتون كل أفراد الوزارة صبيحة اليوم التالى بكل ما جرى . لم يسبق ورأيت أحدهم يضحك هكذا " .

عندما وصل رئيس الوزراء إلى الباب الأمامى للعقار رقم ١ ؛ انحنى قليلا محييا بيكى وقال : " عمت مساء يا ليدى ترامبر " .

قال تشارلى : " أنت تدركين ما الذى أقصده ؛ أليس كذلك ؟ " ، وأضاف وهو ينعطف بالسيارة فى وايت شابيل بعدما قاد السيارة فى شارع دوانينج .

" أنك على وشك الحصول على نيشان الفروسية ؟ " .

" نعم ولكن الأهم من ذلك هو أننا سوف نضطر إلى بيع لوحة فان جوخ " .

دانيال

١٩٣١ - ١٩٤٧

الفصل

٢٩

" أنت أيها اللقيط الصغير " ، بقيت هذه العبارة راسخة فى ذاكرتى الأولى . كنت فى سن الخامسة والنصف فى ذلك الوقت وكانت هذه العبارة قد صدرت عن فتاة صغيرة كانت تلهو فى نهاية الفناء أخذت تشير إلىّ وهى تصيح بها بينما كانت تتراقص هنا وهناك . عندها توقف باقى زملائى فى الفصل عما كانوا يقومون به وأخذوا يحدقون فىّ إلى أن ركضت نحوها وثبتها مقابل الجدار .

سألتها وأنا ألوى ذراعيها : " ما الذى تقصدينه بذلك ؟ " .

انفجرت باكية وقالت : " لست أدرى . فقط سمعت أمى وهى تخبر أبى بأنك لقيط صغير " .

" أعلم ما الذى تعنيه هذه الكلمة " ، هكذا جاءنى صوت أحدهم من خلفى . استدرت لأجد نفسى محاطا بباقى زملائى فى الفصل ولكننى عجزت عن تبين المتحدث .

قلت ثانية بصوت أكثر ارتفاعا : " ما الذى تعنيه هذه العبارة ؟ "

" أعطنى ستة بنسات وسوف أخبرك " .

أخذت أحدق فى نيل واتسون ؛ ذلك الطفل الشاغب الذى كان يجلس دائما فى الصف الذى يلينى .

" ولكننى لا أملك إلا ثلاثة بنسات " .

فكر نيل فى العرض لبعض الوقت ثم أجاب : " حسنا ، سوف أخبرك مقابل الثلاثة بنسات " .

تقدم الفتى منى ومد لى راحة يده وانتظر إلى أن أخذت ببطء أفك منديلى المطوى ومددت له يدى بمصروفى لمدة أسبوع كامل . فأحكم قبضته على يده ثم همس فى أذنى قائلا : " أى أنه ليس لديك أب " .

صحت قائلا : " ولكن هذا ليس صحيحا ! " ، وبدأت أسدد له اللكمات فى صدره . ولكن حجمه كان أكبر منى كثيرا فما كان منه إلا أن أخذ يضحك أمام لكماتى الواهنة . دق جرس نهاية فترة الاستراحة وركض الجميع إلى الفصل والكثير منهم يغنون فى جماعات " دانيال لقيط صغير " .

جاءتنى مربيتى لتصحبنى من المدرسة فى عصر ذلك اليوم إلى المنزل وعندما تأكدت من أن أحداً من زملائى لن يتمكن من سماع ما سوف أقول ؛ سألتها عن معنى هذه الكلمة . فما كان منها إلا أن قالت : " ياله من سؤال مهين يا دانيال . إننى فقط أتمنى ألا يكون هذا هو ما تتعلمه فى مدرسة سانت ديفيد . أرجوك لا تذكر هذه الكلمة ثانية " .

وأثناء تناول الشاى فى المطبخ عندما ذهبت مربيتى لكى تعد لى الحمام ، سألت الطاهى عن معنى كلمة " لقيط " ، فأجابنى قائلا : " لا أعرف يا سيدى دانيال ، ولكننى أنصحك ألا تسأل أى شخص عن معناها " .

لم أجرؤ على سؤال أمى أو أبى خشية أن يكون ما قاله نيل واتسون صحيحا وبقيت ساهرا طوال الليل أتساءل عن كيفية معرفة معنى الكلمة .

ثم تذكرت أنه منذ زمن طويل كانت أمى قد نقلت إلى المستشفى وكان من المفترض أن تنجب لى أخا أو أختا ولكنها لم تفعل . ربما هذا هو ما تعنيه كلمة " لقيط " .

وبعدها بأسبوع صحبتنى مربيتى لزيارة أمى فى مستشفى جاى ولكننى لا أتذكر الكثير عن هذه الزيارة باستثناء أن أمى بدت شاحبة للغاية وحزينة . وأتذكر أننى شعرت بسعادة غامرة عندما عادت أخيرا إلى المنزل بعدها .

كانت المرحلة التالية التى أتذكرها جيدا عن حياتى هى التحاقى بمدرسة سانت بول فى السابعة . وهناك كانوا يجبروننى على الكد فى العمل لأول مرة فى حياتى . فى المدرسة الإعدادية كنت الأول على فصلى فى كل المواد تقريبا بدون أن أبذل مجهوداً كبيراً يفوق ما يبذله الآخرون من زملائى فى الفصل . وبالرغم من أنهم كان يطلقون علىَّ اسم " المجتهد " فإن هذا اللقب لم يثر إزعاجى يوما . وقد كان هناك الكثير من الطلبة الأذكياء فى مدرسة سانت بول ومع ذلك فلم يكن أحد منهم يملك القدرة على مباراتى فى الرياضيات . ولم أكن فقط أستمتع بالمادة التى كان الكثير من زملائى فى الفصل يرتعدون منها وإنما كنت أحصل دائما على

درجات فى نهاية العام يبدو أنها كانت تسعد أبى وأمى . كنت أتوق إلى حل معادلات الجبر والمسائل الهندسية والاختبارات الرياضية فى رأسى بينما كان الآخرون ينكبون على الأقلام والأوراق فى محاولة لفك طلاسمها .

وقد حققت تفوقا فى باقى المواد أيضا وبالرغم من أننى لم أكن بارعا فى العزف فإننى كنت أعزف على آلة التشيلو كما أننى دعيت للانضمام إلى فرقة العزف التابعة للمدرسة ولكن ناظر المدرسة أكد لى أن كل هذا لم يكن مهماً لأنه كان من الواضح أننى سوف أصبح رجل رياضيات . لم أدرك معنى ما كان يقوله فى وقتها لأننى كنت أعرف أن أبى كان قد خرج من المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره لكى يدير عمل جده فى مجال الخضروات والفاكهة فى وايت شابيل فضلا عن أن أمى بالرغم من أنها كانت قد التحقت بجامعة لندن وتخرجت منها ، فإنها كانت تعمل فى العقار رقم ١ لكى تحافظ لأبى على " نمط الحياة الذى اعتاد عليه " ، أو هكذا دأبت أمى على إخباره على مائدة الإفطار من وقت إلى آخر .

هذا هو تقريبا الوقت الذى أدركت فيه المعنى الحقيقى لكلمة لقيط . كنا نقرأ قصة الملك جون بصوت مرتفع فى الفصل وعندها جرؤت على طرح السؤال على السيد ساكسون إيست ؛ مدرس الإنجليزية ؛ بدون أن أركز كثيرا على السؤال . عندها تلفت فتى أو اثنان حولهما وضحكا ضحكة مكبوتة ومع ذلك لم تكن هناك فى هذه المرة أية أصابع تشير إلىَّ أو أية همسات . وعندما وافانى المدرس بالإجابة أذكر أننى وقتها تيقنت أن شرح نيل واتسون لم يكن بعيدا عن الصواب . ولكن مثل هذا الاتهام لا يمكن أن يوجه إلىَّ بالطبع ؛

لأننى أتذكر جيدا أننى ولدت فى ظل رعاية أبى وأمى . لقد كان دائما هناك السيد والسيدة ترامبر .

كان يمكن أن أنسى الأمر برمته ما لم يكن هذا الحادث قد وقع لى ؛ عندما هبطت إلى المطبخ ذات يوم من الأيام لكى أتناول كوبا من اللبن وترامى إلى مسامعى حديث جون مور مع الخادم هارولد .

قال هارولد : " دانيال الصغير يبلى بلاءً حسنا فى المدرسة ؛ لابد أنه يملك ذكاء أمه " .

" حقا ولكن نأمل ألا يكتشف حقيقة والده " ، جعلتنى هذه الكلمات أتجمد فى مكانى فوق الدرج ، وواصلت الإنصات لما يقال .

واصل هارولد : " حسنا ؛ هناك شىء أكيد وهو أن السيدة ترينثام لن تعترف به يوما كحفيد لها ويعلم الله وحده إلى من ستؤول كل هذه الثروة " .

قال جون : " ليس للنقيب جاى بالطبع ؛ هذا مؤكد ؛ ربما ستؤول كلها إلى الأحمق نيجيل " .

وبعدها واصل الخادمان حديثهما عن الشخص الذى سوف يتولى مهمة إعداد الإفطار ؛ فتسللت عائدا إلى غرفة نومى فى الدور العلوى ولكننى لم أنم . وبالرغم من أننى دأبت على الجلوس على الدرج لعدة ساعات على مدى الشهور القليلة التالية بمنتهى الصبر فى انتظار التقاط أية معلومة مهمة يمكن أن يتناقلها الخدم ؛ فإن الأمر لم يثر ثانية بينهم .

كانت المناسبة الوحيدة الأخرى التى أتذكر أننى سمعت فيها اسم ترينثام فى وقت مبكر عن هذا عندما جاءتنا ماركيزة ويلتشاير ؛ وهى صديقة مقربة من والدتى لتناول الشاى عندنا . كنت جالسا فى البهو عندما سألتها أمى قائلة : " هل حضرت جنازة جاى ؟ " .

أجابت الماركيزة مؤكدة : " نعم ولكن هناك الكثير من أبرز الشخصيات لم يحضروها . إن كل من كان يذكره جيدا تعامل مع المناسبة وكأنها حدث سعيد خلصهم منه " .

" هل حضر السير رايموند ؟ " .

أجابت قائلة : " كلا ؛ وقد أثار الأمر تساؤلات ، ولكن السيدة ترينثام زعمت بأن سنه لم تعد تسمح له بالسفر مما ذكرنا للأسف بأنها على وشك إرث ثروة طائلة فى المستقبل القريب " .

عرفت حقائق جديدة ولكن بلا جدوى .

وقد ذكر اسم ترينثام أمامى ثانية ذات مرة عندما سمعت أبى يحادث الكولونيل هاميلتون وهو يغادر المنزل بعد مقابلة خاصة عقداها فى مكتب أبى . كان كل ما قاله أبى هو : " مهما عرضنا على السيدة ترينثام من مال فإنها لن تتخلى أبدا عن هذه الشقق " .

عندها أومأ الكولونيل فى موافقة تامة لأبى وكان كل ما قاله ردا عليه فى هذا الصدد هو : " يالها من سيدة لعينة " .

وعندما غادر أبى وأمى المنزل ، أخذت أبحث عن اسم ترينثام فى دليل الهاتف . لم يكن هناك سوى اسم واحد فقط مسجل وهو الميجور جى . إتش ترينثام ؛ ١٩ ميدان شستر . أى أننى لم أتوصل إلى شيء يذكر .

عندما قدمت لى ترينيتى كوليدج عام ١٩٣٩ منحة نيوتين الدراسية لمادة الرياضيات ؛ ظننت أن أبى لن يطيق ذلك ولكنه أبدى فخره . توجهنا جميعا إلى المدينة التى كانت تقع فيها الجامعة لكى نتفقد المكان الذى سوف أمكث فيه قبل أن نسير فى الرواق المهد المسقوف ونمر بدار القضاء .

كان الشيء الوحيد الذى عكر علينا صفو كل هذه الأجواء هو الخطر الألمانى النازى الذى كان يحيق بنا . كان البرلمان قد ألغى التجنيد الإلزامى لكل من تخطى العشرين وكنت أتوق إلى لعب دورى فى الحرب إذا تجرأ هتلر على أن يخطو بإصبع واحد فوق الأرض البولندية .

مر عامى الأول فى كمبريدج على خير ما يرام وهو ما يرجع بشكل أساسى إلى أننى تلقيت دراستى على يد هوراس برادفورد ؛ الذى كان هو وزوجته فيكتوريا من بين أفضل الأساتذة الأكثر موهبة فى مجال الرياضيات ممن كانوا يدرسون فى الجامعة فى ذلك الوقت . وبالرغم من أنه كان يقال إن السيدة برادفورد كانت قد رشحت للحصول على جائزة رانجلى لأن ترتيبها جاء الأول فى ذلك العام فإن زوجها شرح لنا أنها لم تحصل على هذه الجائزة المرموقة فقط لأنها سيدة . وهكذا جاء الرجل الذى يليها فى المرتبة الأولى بدلا منها وحصل على الجائزة ؛ وهى المعلومة التى جعلت أمى يجن جنونها .

وقد سعدت السيدة برادفورد سعادة بالغة عندما عرفت أن أمى قد تخرجت فى جامعة لندن عام ١٩٢١ فى الوقت الذى رفضت فيه كمبريدج بالاعتراف بها فى عام ١٩٣٩ .

وبنهاية عامى الأول ، شأنى شأن معظم طلبة ترينيتى ؛ تقدمت بطلب الالتحاق بالجيش ؛ ولكن أستاذى سألنى إن كنت أحب أن أنضم للعمل معه هو وزوجته فى المكتب الحربى فى قسم جديد متخصص فى فك الشفرة .

قبلت العرض بدون لحظة تفكير واحدة ؛ بعد أن راقت لى فكرة قضاء وقتى جالسا فى غرفة خلفية سوداء حقيرة فى مكان ما من

منتزه بليتشلى بارك ، محاولا فك طلاسم الشفرة الألمانية . وقد اعترانى بعض الشعور بالذنب لأننى كنت سأصبح واحداً من القلائل ممن يرتدون الزى الحربى ويستمتعون بالفعل بالحرب . أعطانى أبى مالاً يكفى لشراء سيارة قديمة مما مكننى من السفر إلى لندن من وقت إلى آخر لزيارته هو وأمى .

وقد تمكنت من وقت إلى آخر فى اقتطاع ساعة لتناول الغداء مع أبى فى وزارة التغذية ولكن أبى كان يكتفى بتناول الخبز والجبن مع كوب من اللبن لكى يكون مثلا يحتذى به الجميع . وربما كان هذا الطعام بالفعل طيب المذاق ولكنه لم يكن مغذيا ولكن السيد سيلوين أخبرنى أن أبى حمل حتى الوزير على تناوله .

أضفت قائلا : " ولكن ليس السيد تشرشل " .

" ولكنه التالى فى القائمة على ما سمعت " .

فى عام ١٩٤٣ ، ترقيت إلى رتبة نقيب ؛ مما كان يعنى أن المكتب الحربى كان يقدر الجهد الذى نبذله فى قسمنا المنزوى . كان أبى بالطبع يشعر بسعادة غامرة ولكننى مع ذلك شعرت بالأسف عندما لم أتمكن من مشاركة أهلى فرحتنا بفك الشفرة التى كان يستخدمها قائدو المركبات البحرية الألمانية . ومازلت إلى الآن أتساءل عن السبب الذى دفع الألمان إلى مواصلة استخدام شفرتهم الرباعية حتى بعد أن نجحنا فى فك طلاسمها . كان فك هذه الشفرة حلم كل علماء الرياضة وهى الشفرة التى نجحنا فى فكها أخيراً على ظهر قائمة الطعام فى أحد المطاعم فى ليونز بالقرب من بيكاديللى . وقد نعتتنى عندها النادلة التى تخدمنا بأننى شخص مخرب . ضحكت وأتذكر أننى وقتها فكرت فى أننى سوف آخذ عطلة لباقى اليوم وأذهب لأفاجئ أمى وأريها كيف يبدو شكلى فى

الزى العسكرى . شعرت أننى وقتها كنت أبدو أنيقا ولكنها عندما فتحت الباب الأمامى لكى تستقبلنى ، صدمت برد فعلها . أخذت تحدق فىّ وكأنها قد رأت شبحا . وبالرغم من أنها أفاقت سريعاً كان رد فعلها الأول عندما شاهدتنى فى الزى العسكرى بمثابة إشارة أخرى فى حل اللغز الذى لم يغب عن عقلى الباطن يوماً من الأيام .

جاءت الإشارة التالية فى السطر النهائى من نعى فى الصحيفة ، حيث لم يلفت انتباهى إلى أن وقع بصرى على اسم السيدة ترينثام التى أصبحت تملك ثروة طائلة ؛ ولم تكن الإشارة فى حد ذاتها إشارة مهمة إلى أن قرأت النعى ثانية وعرفت أنها ابنة شخص ما يدعى السير رايموند هاردكاسيل وهو الاسم الذى مكننى من الإجابة على الكثير من التساؤلات التى كانت تدور فى عقلى فى شتى الاتجاهات . ولكن ما أثار حيرتى هو أنه لم يرد ذكر جاى ترينثام من بين الأقارب ممن كانوا على قيد الحياة .

أحيانا كنت أتمنى لو لم أولد بهذه العقلية التى تتوق إلى فك الشفرات والتفاعل مع الصيغ الرياضية . ولكن كلمات " لقيط " و " ترينثام " و " مستشفى " و " النقيب جاى " و " الشقق " و " سير رايموند " و " الأحمق نيجيل " و " جنازة " وشحوب والدتى فور رؤيتى فى الزى العسكرى ؛ كانت جميعها مترابطة ببعضها . إلا أننى أدركت أننى سوف أكون بحاجة للمزيد من الإشارات قبل أن يقودنى المنطق إلى الحل الصحيح .

وفجأة أدركت ما تشير إليه كل هذه الأشياء عندما جاءتنا الماركيزة لتناول الشاى منذ عدة سنوات وأخبرت والدتى أنها قد حضرت جنازة جاى . لابد أنها كانت جنازة النقيب جاى . ولكن ما هو سر أهمية هذا الحدث ؟

فى صباح يوم السبت التالى ، استيقظت من نومى فى وقت غير مألوف وسافرت إلى آشورست ، البلدة التى كانت تعيش فيها ذات يوم ماركيزة ويلتشاير ، لابد أن هذه ليست مصادفة ، هذا ما خلصت إليه . وصلت إلى المدافن بعد السادسة بقليل ، وكما توقعت ، لم يكن قد وصل أحد إلى المدافن فى هذه الساعة المبكرة . أخذت أحوم بين المدافن متفحصا الأسماء : عائلة ياردلى وباكستر وفلودز وهاركورت براون . كانت بعض المقابر قد غطت تماما بالنباتات المتسلقة أما البعض الآخر فقد كان يحظى بعناية فائقة بل وكان مزينا ببعض الزهور النضرة . توقفت للحظة عند قبر جد والدتى . لابد أن هناك المئات من الأفراد المدفونين حول برج الساعة . ولم يكن يمضى وقت طويل إلا وعثرت على المقبرة الفخمة لعائلة ترينتام ، كانت على بعد بضع ياردات قليلة فقط من حجرة الاجتماعات بالمدافن .

وعندما وصلت إلى أكثر شواهد القبور التابعة للعائلة حداثة ، وجدتنى أتصبب عرقا بارداً :

النقيب جاى ترينتام

١٨٩٧ـ١٩٢٧

توفى إثر مرض طويل

مأسوف عليه من قبل كل أفراد العائلة

وهكذا وصل اللغز إلى نهاية مبهمة ، فقد وصلت إلى قبر الرجل الوحيد الذى كان يمكن أن يحل لى طلاسم اللغز إن كان قد بقى على قيد الحياة .

عندما انتهت الحرب عدت إلى الدراسة فى ترينيتى ومنحت عاما إضافيا لاستكمال دراستى . وبالرغم من أن أبى وأمى كانا يريان أن الحدث الأكثر أهمية الذى وقع فى ذلك العام هو تخرجى وحصولى على منحة فى ترينيتى ، فإننى كنت أرى أن تقلد أبى منصبا فى قصر باكينجهام يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار .

كان الاحتفال بمثابة احتفالية مزدوجة لأننى شهدت تقليد أستاذى القديم البروفيسور برادفورد وسام الفروسية عن الدور الذى لعبه فى مجال فك الشفرة بالرغم من أن زوجته لم تمنح شيئا ، كما نوهت أمى . وأتذكر أننى شعرت بنفس القدر من الغضب بسبب ما حدث للدكتورة برادفورد . وقد يكون أبى قد لعب دوره فى إشباع بطون الشعب الإنجليزى أثناء الحرب ولكن كما قال تشرشل فى مجلس العموم فإن فريقنا الصغير ربما يكون قد اختصر الحرب لعام كامل .

تقابلنا جميعا بعدها لتناول الشاى فى فندق ريتز وسار الحديث عصر ذلك اليوم ـ كما كان متوقعا ـ فى اتجاه مجال العمل الذى سوف أمتهنه الآن بعد انتهاء الحرب . وبالرغم من رغبة أبى الملحة ، فإنه لم يقترح علىَّ يوما أن أنضم إلى العمل فى شركة ترامبر مع أننى كنت أعلم أنه كان يتوق إلى إنجاب ابن آخر يمكن أن يحل محله . وأثناء عطلة الصيف أصبحت أكثر إدراكا لحظى السعيد بعد إنهماك أبى فى العمل وعجز أمى عن إخفاء قلقها بشأن مستقبل العمل فى شركة ترامبر . ولكننى كنت كلما سألتها إن كان بوسعى تقديم أية مساعدة كانت ترد علىَّ قائلة : " لا تشغل بالك ؛ كل شىء سوف يصبح على ما يرام " .

وعندما عدت إلى كمبريدج أقنعت نفسى بأننى يجب ألا أفكر فى اسم ترينثام ثانية وألا أشغل نفسى بهذا الشأن . ومع ذلك فإنه نظرا لأن الاسم لم يكن يذكر بسلاسة أثناء وجودى فقد بقى يتردد بداخل عقلى . لم يكن أبى بطبيعته رجلا كتوما لذا لم أكن أملك تفسيرا واضحا لسبب تكتمه فى هذا الأمر بشكل خاص ؛ إلى الحد الذى كان حتى يمنعنى من أن أثير الموضوع معه بنفسى .

وكان يمكن أن تمضى سنوات بدون أن أزعج نفسى بالمزيد عن فك طلاسم هذا اللغز المحير ما لم أكن قد التقطت ذات صباح سماعة الهاتف فى ليتل بولتونز مصادفة وأسمع توم آرنولد - ساعد أبى الأيمن فى عمله - وهو يقول : " حسنا ، على الأقل يمكن أن نشعر بالامتنان لأننا نجحنا فى الوصول إلى سِيْد ريكسال قبل أن تصل إليه السيدة ترينثام " . وضعت سماعة الهاتف فى الحال وشعرت أننى يجب أن أتوصل فورا إلى حل هذا اللغز لكى أزيحه عن كاهلى - والأكثر من ذلك هو أننى يجب أن أحله دون علم والدى . لماذا يفكر الشخص دائما فى الأسوأ فى مثل هذه المواقف ؟ إن حل اللغز النهائى سوف يكون بالقطع بسيطا للغاية .

بالرغم من أنه لم يكن قد سبق لى من قبل مقابلة سيد ريكسال ، كان مازال بوسعى أن أذكر أنه صاحب الموسكيتير ؛ وهى الحانة التى كانت تقف فى شموخ فى الطرف المقابل من شارع تشيلسيا إلى أن سقطت عليها قنبلة . وقد اشترى أبى العقار أثناء الحرب وبعدها حول البناء إلى متجر لبيع الأثاث .

لم أبذل جهدا كبيرا لأعرف أن السيد ريكسال كان قد غادر لندن أثناء الحرب ليصبح صاحب حانة أخرى فى إحدى البلدات

الهادئة التى تدعى هاثرتون والتى كانت إحدى القرى النائية فى تشيسهاير .

قضيت ثلاثة أيام أعد استراتيجية الانقضاض على السيد ريكسال وعندما تأكدت أننى قد أعددت كل الأسئلة اللازمة شعرت أننى أملك الثقة الكافية للقيام بهذه الرحلة إلى هاثرتون . كان علىَّ أن أصيغ كل تساؤلاتى على نحو لا يظهرها على أنها أسئلة ومع ذلك فقد بقيت منتظرا لشهر آخر قبل أن أقود سيارتى نحو الشمال بعد أن نمت ذقنى لطول يكفى لعدم تعرف ريكسال على شخصى . وبالرغم من أننى لم أكن أدرى إن كنت قد قابلته فى الماضى ، فإننى أيقنت فى نفس الوقت أنه ربما قد يكون قد شاهدنى منذ ثلاث أو أربع سنوات مما يعنى أنه سوف يعرفنى بمجرد أن أضع قدمى داخل حانته . وقد دفعتنى رغبتى فى التخفى إلى شراء زوج نظارات جديدة على الطراز الحديث بدلا من نظارتى القديمة .

تخيرت يوم اثنين للرحلة اعتقادا بأنه سوف يكون الأهدأ من بين أيام الأسبوع لتناول الغداء فى الحانة . وقبل أن أمضى فى رحلتى اتصلت بحانة هابى بوتشر لكى أتأكد من أن ريكسال سوف يكون موجودا فى ذلك اليوم . وقد أكدت لى زوجته أنه سوف يكون متواجدا فوضعت السماعة قبل أن أمنحها فرصة السؤال عن اسمى .

أثناء رحلتى إلى تشيسهاير ؛ أخذت أدرب نفسى ثانية على سلسلة الاستفسارات المصاغة فى غير أسئلة وأكررها على نفسى مرارا وتكرارا . وعندما وصلت إلى بلدة هاثرتون ؛ صففت سيارتى على جانب الطريق على بعد قليل من الحانة وسرت على قدمى إلى أن وصلت إليها . وجدت ثلاثة أو أربعة أشخاص واقفين يتحادثون وما يقرب من ستة أشخاص يستمتعون باهتمام حول النيران

الهادئة . جلست عند نهاية النضد وطلبت فطيرة وكأساً من الشراب من سيدة ذات صدر كبير فى منتصف العمر والتى عرفت فيما بعد أنها زوجة صاحب الحانة . استغرقت بعض الوقت إلى أن تعرفت على صاحب الحانة نظرا لأن زبائن الحانة كانوا يطلقون عليه اسم سيِّد ولكننى أدركت أننى يجب أن أتحلى بالصبر وأنا أصغى إلى ثرثرته عن هذا وذاك بدءا من الليدى دوكر وحتى ريتشارد موردوخ كما لو كانوا جميعا من أصدقائه المقربين .

سألنى أخيرا وهو يعود إلى مؤخرة النضد ليلتقط كأسى الفارغة :

" أتود نفس الطلب ثانية يا سيدى ؟ " .

قلت له بعد أن شعرت بالارتياح عندما أدركت أنه لم يتعرف علىَّ : " نعم من فضلك " .

عندما عاد إلىّ ثانية حاملا كأس الشراب لم يكن قد بقى حول النضد إلا زبونان أو ثلاثة زبائن .

سألنى وهو ينحنى على النضد : " هل أنت من هذه الأنحاء يا سيدى ؟ "

قلت له : " كلا ، جئت إلى هنا فقط ليومين فى مهمة تفتيش . أنا أعمل فى وزارة الزراعة فى قسم الأسماك والأغذية " .

" إذن ما الذى جاء بك إلى هاثرتون ؟ " .

" أنا أتفقد كل المزارع فى هذه المنطقة وأتأكد من خلوها من الأمراض التى تصيب القدم والفم " .

قال وهو يلهو بالكأس الفارغة : " أجل بالفعل ؛ لقد قرأت كل ما قيل فى هذا الصدد فى الصحف " .

سألته : " هل تود أن تجلس معى يا صاحب الحانة ؟ " .

" شكرا لك يا سيدى . سوف أتناول كأسًا من الشراب بعد إذنك " ، ثم غسل كأسه فى الحوض تحت النضد قبل أن يصب لنفسه كأسا أخرى . طلب منى نصف عملة ملكية ثم سألنى عن نتيجة الجولة التى قمت بها .

قلت له : " ليس هناك أية أمراض إلى الآن ، ولكن بقى لدىَّ عدد قليل من المزارع التى لم أتفقدها بعد فى شمال البلاد " .

قال : " كنت أعرف شخصا يعمل فى نفس القسم الذى تعمل فيه " .

" بالفعل ؟ " .

" إنه السير تشارلى ترامبر " .

" لقد كان يعمل فى الوزارة من قبلى " ، قلتها وأنا أحتسى رشفة من الشراب وأضفت : " ولكنهم مازالوا يتحدثون عنه فى الوزارة . لابد أنه كان رجلا صارما إن كانت نصف القصص التى يروونها عنه صحيحة " .

قال ريكسال : " هو كذلك بالفعل . لولاه لكنت رجلا غنيا " .

" هل هذا حقيقى ؟ " .

" أجل ؛ لقد كنت أملك عقارا صغيرا فى لندن قبل أن أنتقل إلى هنا . كنت أملك ـ تحديدا ـ حانة وعدة متاجر فى شارع تشيلسيا . وقد اقتنص منى كل هذه الممتلكات أثناء الحرب مقابل ستة آلاف جنيه فقط . إن كنت قد انتظرت لأربع وعشرين ساعة أخرى كان يمكن أن أبيعها مقابل عشرين ألفاً وربما ثلاثين ألفاً " .

" ولكن الحرب لم تنته فى خلال أربع وعشرين ساعة " .

" كلا ، لا أقصد ذلك ، لا أعنى أنه قد تحايل علىَّ ولكننى أشعر أنها ليس المصادفة المحضة التى جاءت بـه إلى هنـا بعد كل هذه السنوات فى صباح ذلك اليوم تحديدا " .

كان كأس ريكسال قد فرغت عندها .

" هل نكرر نفس الطلب ؟ " ، قلتها آملا فى أن يدفعه استثمار نصف عملة ملكية أخرى إلى مواصلة الحديث بطلاقة .

أجاب قائلاً : " هذا لطف بالغ منك يا سيدى " ، وعندما عاد سألنى قائلا : " أين توقفنا فى الحديث ؟ " .

" فى صباح ذلك اليوم تحديدا " .

" أجل ، نعم ، السير تشارلز أو تشارلى - كما اعتدت أن أقول له . لقد عقد الصفقة هنا فوق هذا النضد فى أقل من عشر دقائق عندما فاجأنى طرف آخر باتصاله الهاتفى للسؤال عن العقارات وإن كانت مازالت مطروحة للبيع . كان علىَّ أن أجيب السيدة السائلة بأننى بعتها لتوى " .

تجنبت سؤاله عن اسم السيدة بالرغم من أننى شعرت أننى أعرفها وقلت له : " ولكن هذا لا يعنى أنها كانت ستعرض عليك عشرين ألف جنيه مقابل العقارات " .

رد ريكسال : " بل كانت ستفعل . إن السيدة ترينشام كان يمكن أن تقدم أى شىء لكى تمنع السير تشارلى من وضع يده على هذه الممتلكات " .

" تسديدة عظيمة " ، قلتها لتجنب طرح سؤال : " لماذا ؟ " .

" أجل ، لقد ظلت عائلة ترامبر وعائلة ترينشام يتربصون لبعضهم البعض على مدى سنوات . وهى مازالت تملك مجموعة الشقق التى تقع فى منتصف شارع تشيلسيا . وهذا هو الشىء الوحيد

الذى حال دون توسع تشارلى وبنائه للسوق التجارى الكبير . والأكثر من ذلك هو أنها عندما حاولت أن تشترى العقار رقم واحد من شارع تشيلسيا ، خدعها تشارلى وأوقعها فى الفخ ؛ لم يسبق لى من قبل أن شهدت شيئا كهذا فى حياتى " .

قلت له : " ولكن لابد أن يكون هذا قد حدث منذ سنوات طويلة . تذهلنى تلك الضغائن التى يمكن أن تبقى كامنة بين الناس لسنوات " .

" أنت محق لأن هذا الصراع - على حد علمى - قد بدأ منذ بداية العشرينات منذ أن شوهد ابنها المدلل وهو يواعد الآنسة سالمون " .

كتمت أنفاسى .

" ولكنها لم تكن تؤيد ذلك ، كلا ، فالسيدة ترينشام لا يمكن أن توافق على ذلك " .

" كلنا أدركنا ذلك فى الموسكيتير ، وعندما اختفى ابنها فى الهند ، إذ بالآنسة سالمون تقرر فجأة الزواج من تشارلى . ولكن هذا لم يضع حدا للغز " .

" لم يضع حدا ؟ " .

قال ريكسال : " بالطبع لا ، لأنه لا يعرف أحد منا إلى الآن تحديدا من هو والد الطفل " .

" الوالد ؟ " .

تردد ريكسال : " لقد تماديت فى حديثى . لن أزيد كلمة واحدة " .

" لقد حدث هذا منذ زمن طويل ؛ يدهشنى أن يبقى إلى الآن من لا يزال يعبأ بمثل هذا الأمر " . قلتها فى محاولة أخيرة قبل أن أنهى كأسى .

قال ريكسال : " هذا صحيح تماما . لقد بقى هذا دائما لغزا محيرا بالنسبة لى أنا أيضا . ولكن لا أحد يعرف الحقيقة . حسنا ؛ يجب أن أغلق المحل الآن يا سيدى وإلا فسوف أتعرض للمساءلة القانونية " .

" بالطبع وأنا يجب أن أعود لتفقد المزارع " .

قبل أن أعود إلى كمبريدج جلست فى السيارة ودونت كل كلمة تمكنت من تذكرها من حديث ريكسال . وأثناء رحلة العودة الطويلة حاولت أن أستجمع كل الخيوط الجديدة مع بعضها البعض وأضعها فى إطار منظم . بالرغم من أن ريكسال كان قد أمدنى بمعلومات كثيرة لم أكن أعرفها من قبل فإننى كنت بحاجة للإجابة عن المزيد من الأسئلة غير المطروحة . كان الشيء الوحيد الذى خلصت إليه بعد خروجى من الحانة هو أننى لا يمكن أن أتوقف عند هذا الحد .

فى صباح اليوم التالى قررت العودة إلى المكتب الحربى لكى أسأل السيدة هوراس السكرتيرة المخضرمة إن كانت هناك طريقة للتعرف على تاريخ أى ضابط كان يعمل فى الخدمة .

" ما اسمه ؟ " ، هكذا سألتنى السيدة التى كانت فى أواخر منتصف العمر والتى كانت مازالت تعقص شعرها إلى الوراء فى شكل عتيق عفا عليه الزمن منذ أيام الحرب .

قلت لها : " جاى ترينثام " .

" رتبته والفرقة التى كان يخدم فيها ؟ " .

" نقيب وكان يخدم فى سلاح الرماية الملكية على ما أظن " .

اختفت وراء باب مغلق ولكنها عادت فى غضون خمس عشرة دقيقة وهى تحمل ملفًا بنيًّا صغيرًا . استخرجت ورقة وقرأتها بصوت عال : " النقيب جاى ترينثام ؛ الحاصل على وسام الشرف . خدم فى الحرب العالمية الأولى ثم الهند ثم قدم استقالته عام ١٩٢٢ . ليس هناك سبب مدون كما أنه ليس هناك عنوان واضح " .

" أنت عبقرية " ، قلت لها ذلك وباغتها بقبلة على مقدمة رأسها قبل أن أغادر عائدا إلى كمبريدج .

كلما اكتشفت المزيد ؛ عرفت المزيد عما كنت أبحث عنه بالرغم من أننى فى ذلك الوقت شعرت أننى قد وصلت إلى نهاية مبهمة أخرى .

على مدى الأسابيع القليلة التالية ركزت على عملى كمشرف إلى أن عاد طلابى فى سلام إلى ذويهم لقضاء عطلة عيد الميلاد .

عدت إلى لندن لقضاء عطلة الثلاثة أسابيع ولقضاء عيد ميلاد سعيد مع أهلى فى ليتل بولتونز . بدا أبى أكثر استرخاء عما كان عليه أثناء الصيف وحتى أمى بدت وكأنها قد تخلصت من كل مخاوفها غير المبررة .

ومع ذلك ظهر لى لغز آخر أثناء العطلة كنت واثقا من أنه له علاقة بعائلة ترينثام ، لذا لم أتردد فى الاستفسار من أمى عن الأمر .

" ما الذى ألم بصورة أبى المفضلة ؟ " .

وقد أحزننى ردها بشدة وتوسلت إلىّ ألا أثير أمر لوحة " آكلو البطاطا " مع والدى .

فى الأسبوع الذى سبق الأسبوع المزمع فيه عودتى إلى كمبريدج كنت أتجول فى شارع بوفورت فى اتجاه الليتل بولتونز عندما وقع بصرى على جندى متقاعد من سكان تشيلسيا فى زيه الأزرق وهو يحاول أن يعبر الطريق .

عرضت عليه قائلا : " اسمح لى أن أساعدك " .

قال الرجل وهو ينظر إلىّ ويبتسم ابتسامة واهنة : " شكرا لك يا سيدى " .

سألته بشكل عابر : " فى أى سلاح كنت تخدم ؟ " .

أجاب : " فى سلاح أمير ويلز ، وأنت ؟ " .

" فى الرماية الملكية " ، ثم عبرنا الشارع معاً وسألته : " هل تذكر بعضاً ممن خدموا فيه ؟ " .

قال الرجل : " الرماية ؟ أجل بالطبع ، أذكر بانجر سميث الذى خدم فى الحرب الكبرى وسامى تومكينز الذى انضم إلينا فى وقت لاحق ، فى الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، على ما أذكر ، والذى تم تسريحه بعد معركة توبروك " .

قلت : " بانجر سميث ؟ " .

أجاب الرجل الكبير بعد أن وصلنا إلى الجانب المقابل من الطريق : " نعم إنه رجل رقيق ، هذا الأخير " ، ثم غرق فى الضحك وأضاف : " إنه مازال يذهب لزيارة المتحف العسكرى التابع لسلاحكم مرة واحدة أسبوعيا كما يزعم " .

كنت أول من دخل المتحف العسكرى الصغير لسلاح الرماية فى برج لندن فى اليوم التالى حيث أخبرنى القائم على المتحف فور دخولى أن بانجر سميث لا يأتى إلا فى أيام الخميس ولكن حتى هذا ليس أكيدا . جلت ببصرى فى الغرفة الزاخرة بالتذكارات الحربية

التابعة للسلاح . كانت هناك ثلاثة أعلام رثة تشيد ببطولات المعارك وخزانة تعرض بعض الأزياء العسكرية وبعض المعدات الحربية البالية التى ترجع إلى ذلك العصر وخرائط كبيرة مغطاة بالألوان المختلفة لتحديد كيفية ومكان وزمان تلك البطولات التى تم إنجازها .

بما أن أمين المتحف لم يكن يكبرنى إلا بسنوات قليلة فإننى لم أتوان فى طرح بعض الأسئلة عليه عن الحرب العالمية الأولى .

عدت فى الخميس التالى حيث وجدت محارباً قديماً جالسا فى أحد أركان المتحف متظاهرا بانهماكه التام .

" بانجر سميث ؟ "

لم يكن طول الضابط القديم يتعدى الخمسة أقدام بحال كما أنه لم يسع للنهوض من فوق كرسيه . نظر إلىّ فى حذر .

" ما الذى تريد ؟ " .

أخرجت ورقة بعشرة جنيهات من جيبى الداخلى .

نظر إلى الورقة أولا ثم نظر إلىّ بعين متسائلة : " ما الذى تبحث عنه ؟ " .

سألته : " هل تذكر نقيبا يدعى جاى ترينثام ؟ " .

" هل أنت من قسم الشرطة ؟ " .

" كلا أنا محام مكلف بممتلكاته " .

" أراهن أن النقيب ترينثام لم يخلف شيئا لأحد " .

قلت له : " ليس من حقى أن أكشف لك عن هذه الحقائق ، ولكننى لا أعرف إن كنت على علم بما حدث له بعدما غادر الرماية ، ليس هناك أثر له فى السجلات العسكرية منذ عام ١٩٢٢ " .

" لن تجد له أثراً بالتأكيد ؛ لأنه لم يغادر سلاحه فى واقع الأمر وسط تهليل المودعين . لابد أن هذا الرجل اللعين قد جلد بالسياط ؛ من وجهة نظرى " .

" لماذا ؟ " .

قال : " لن تعرف كلمة واحدة منى . إنه سر عسكرى " .

" ولكن هل لديك أية فكرة عن المكان الذى توجه إليه بعدما غادر الهند ؟ " .

قال الجندى القديم وهو يضحك ضحكة خافتة : " سوف يكلفك هذا أكثر مما دفعته " .

" ما الذى تعنيه ؟ " .

" لقد فر إلى أستراليا ، وتوفى هناك وأعادت أمه جثمانه على متن السفينة . مصير استحقه ؛ هكذا يمكننى أن أقول . لو كان الأمر بيدى لانتزعت صورته من فوق الجدار " .

" صورته ؟ " .

قال الرجل بعد أن نجح فى تحريك إحدى ذراعيه مشيراً إلى الاتجاه المقصود : " أجل لأنه أحد الحاصلين على وسام الشرف ؛ سوف تجد صورته فى الركن العلوى الأيسر " .

تقدمت ببطء نحو المكان الذى أشار إليه بانجر سميث وجبت بنظرى على صور كل الحاصلين على أنواع أوسمة الشرف إلى أن وصلت إلى الدرجة التى حصل عليها . كانت مرتبة وفق الترتيب الزمنى ؛ ١٩١٤ ــ ثلاثة أوسمة ، ثم ١٩١٥ ثلاثون ، ثم ١٩١٦ عشرة ثم ١٩١٧ أحد عشر وساماً ، ثم ١٩١٨ سبعة عشر . النقيب جاى ترينثام ـ كما كان مدونا ـ حصل على وسام الشرف بعد معركة مارن الثانية فى الثامن عشر من يوليو عام ١٩١٨ .

أخذت أحدق فى صورة الضابط الشاب فى زيه العسكرى وأدركت وقتها أننى يجب أن أشد الرحال إلى أستراليا .

الفصل

٣٠

" ومتى تخطط للذهاب إلى هناك ؟ " .

" أثناء العطلة الكبيرة " .

" هل لديك ما يكفى من المال لتغطية هذه الرحلة ؟ "

" مازلت أملك الجزء الأكبر من الخمسمائة جنيه التى أهديتنى إياها عند تخرجى ؛ كل ما أنفقته من هذا المبلغ مائة وثمانون جنيها على ما أذكر . على أية حال إن أى خريج يعمل فى الجامعة قلما يحتاج إلى دخل شخصى خاص " . ونظر دانيال فى اتجاه والدته وهى تدخل الغرفة .

" دانيال يفكر فى السفر إلى أمريكا هذا الصيف " .

" يا له من خبر مثير " ، قالت بيكى ذلك وهى تضع بعض الزهور على منضدة جانبية بجوار الريمنتجتون وأضافت : " إذن لابد أن تسعى لمشاهدة الفيلدز فى شيكاغو والبلومينجدلز فى نيويورك وإن كان لديك ما يكفى من الوقت فعليك بمشاهدة ـــ " .

قال دانيال وهو يميل جهة المدفأة : " بل إننى أعتقد أننى سوف أسعى لزيارة ووترستون فى برينستون وستينستيد فى بيركلى " .

قطبت بيكى جبينها وهى ترفع رأسها عن المزهرية : " هل أعرفهما ؟ " .

" لا أظن ذلك يا أمى . لأن كليهما يدرس مادة الرياضيات أو الرياضة كما يطلقون عليها هذه الأيام" .

ضحك تشارلى .

قالت والدته : " حسنا ؛ احرص على مراسلتى بانتظام . إننى أحب دائما أن أعرف المكان الذى تكون فيه كما أحب أن تطلعنى على خططك " .

" بالطبع يا أمى ؛ سوف أحرص على ذلك " ، قال دانيال ذلك وهو يحاول أن يخفى قلقه وأضاف : " إن وعدتنى بأنك سوف تتذكرين أننى قد بلغت الآن السادسة والعشرين " .

نظرت إليه بيكى وابتسمت : " هل أنت كذلك بالفعل يا عزيزى ؟ " .

عاد دانيال إلى كمبريدج مساء ذلك اليوم وهو يحاول أن يفكر فى وسيلة تمكنه من التواصل مع والدته من أمريكا بينما سيكون فى واقع الأمر فى استراليا . كان يكره فكرة خداع أمه ولكنه كان يعرف أنه سوف يؤلمها أكثر إن طلب منها إخباره بحقيقة أمر النقيب تريننثام .

كما أن الأمور ازدادت تعقيدا عندما أرسل إليه تشارلى تذكرة فى الدرجة الأولى إلى نيويورك على متن السفينة كوين مارى فى الموعد

الذى كان دانيال قد حدده . كان ثمن التذكرة يصل إلى مائة وثلاثة جنيهات وموعد مفتوح للعودة .

ولكن دانيال نجح فى النهاية فى التوصل إلى حل لهذه المعضلة . وجد أنه إن ركب على متن السفينة كوين مارى المتجهة إلى نيويورك فى الأسبوع التالى لنهاية الفصل الدراسى ثم واصل رحلته على متن السفينة تونتيت سينتشرى ليميتيد وسوبر تشيف عبر الولايات إلى سان فرانسيسكو ؛ فسوف ينجح فى ركوب السفينة إس إس أورانجى إلى سيدنى مع وجود فائض يوم واحد ؛ مما سوف يمنحه فرصة لقضاء أربعة أسابيع فى أستراليا قبل أن يكرر رحلة العودة ثانية من الجنوب إلى الشمال ليصل إلى ساوثهامبتون ثانية قبل موعد الفترة الدراسية التالية بأيام قليلة كافية .

وكما كان شأن دانيال دائما ؛ فقد قضى ساعات طويلة من البحث والإعداد قبلما يتوجه إلى ساوثهامبتون . خصص ثلاثة أيام لقسم المعلومات التابع للجنة الاسترالية العليا فى ستراند وحرص على الجلوس بشكل منتظم بجوار رجل يدعى الدكتور ماركوس وينترز ؛ أستاذ زائر من أديليد ؛ كلما جاء لحضور اجتماعات ترينيتى . وبالرغم من أن السكرتير الأول وأمين المكتبة المنتدب فى اللجنة الاسترالية بقيا متحيرين أمام بعض الأسئلة التى كان يطرحها دانيال ورغبة الدكتور وينترز فى الكشف عن دوافع رجل الرياضيات الشاب إلا أنه مع نهاية الفترة الدراسية فى ترينيتى كان دانيال واثقا من أنه قد تعلم ما يكفيه لكى لا يهدر وقته عندما تطأ قدمه شبه القارة الأسترالية . ومع ذلك ؛ فقد أدرك أن رحلته سوف

تكون بمثابة مراهنة كبرى عندما جاءت الإجابة عن السؤال الأول الذى طرحه : " ليس هناك وسيلة للتعرف على ذلك " .

بعد رحيل الطلاب بأربعة أيام وبعدما استكمل تقارير المتابعة ؛ حزم دانيال حقائبه استعدادا للرحيل . وفى صباح اليوم التالى وصلت والدته إلى مقر الجامعة لكى تقوده إلى ساوثهامبتون . أثناء رحلتهما نحو الساحل الجنوبى علم دانيال أن تشارلى كان قد تقدم مؤخرا بطلب إلى مجلس مدينة لندن للحصول على إذن تخطيط لتطوير حدائق تشيلسيا وتحويلها إلى مركز تجارى عملاق .

" ولكن ماذا عن الشقق التى تعرضت للقصف ؟ " .

" لقد منح المجلس الملاك ثلاثة أشهر للتقدم بطلب لإعادة بنائها وإلا فإنهم هددوا بإصدار أمر شراء إجبارى لعرض الموقع للبيع " .

" من المؤسف أننا لا نملك القدرة على شرائها " ، قال دانيال آملا فى الحصول على رد على استفساره غير الاستفهامى ولكن والدته واصلت القيادة بطول طريق إيه ٣٠ بدون أن تبدى رأيها فى هذا الصدد .

كان الأمر مثيرا للسخرية ؛ كما فكر دانيال ؛ إن كانت والدته فقط قد وجدت فى نفسها القدرة على الإسرار له بكل الأسباب التى منعت السيدة ترينثام من التعاون من والده لكان بوسعها أن تدير سيارتها وتعود به إلى كمبريدج .

عاد دانيال إلى الحديث الآمن فقال : " إذن كيف يرى أبى أنه يمكن أن يوفر المبلغ النقدى اللازم لتنفيذ مثل هذا المشروع العملاق ؟ " .

" إما أن يحصل على قرض من البنك أو يلجأ إلى الاكتتاب العام ؛ ولكنه لم يبت فى الأمر بعد " .

" ما هو المبلغ المقدر لمثل هذا المشروع ؟ " .

" قدر السيد ميريك المشروع بما يقرب من مائة وخمسين ألف جنيه " .

أطلق دانيال زفرة عالية .

واصلت بيكى قائلة : " البنك على أتم استعداد لإقراضنا المبلغ كاملا بعد أن ارتفع سعر العقارات الآن بدرجة كبيرة ، ولكنه مازال يطلب تأمين القرض بكل ما نملك فى حدائق تشيلسيا إضافة إلى منزلنا ومقتنياتنا الفنية بل وفضلا عن كل هذا التوقيع على ضمان شخصى وتكبيد الشركة أربعة بالمائة مقابل السحب على المكشوف " .

" إذن ربما يجدر بكم طرح الاكتتاب العام " .

" الأمر ليس بهذه السهولة . لأننا إن اخترنا هذا الحل فسوف ينتهى بنا المآل إلى امتلاك واحد وخمسين بالمائة من الأسهم " .

" واحد وخمسون بالمائة يعنى أنك مازلتم تديرون الشركة " .

قالت بيكى : " أوافقك ، ولكننا إن احتجنا يوما إلى المزيد من رأس المال فى المستقبل فهذا يعنى أننا سوف نفقد أغلبية الأسهم . على أية حال ، أنت تعرف والدك جيدا وكيف يشعر حيال تدخل الآخرين فى شئوننا ناهيك عن أن تكون الحصة الخارجية بمثل هذا الحجم . كما أنه سوف يكون وقتها مطالبا بتقديم تفسيرات لمديرين غير تنفيذيين فضلا عن المساهمين ؛ كل هذا سيكون بمثابة كارثة بالنسبة لوالدك . إنه يعتمد على فطرته وحدسه فى إدارة العمل فى الوقت الذى يفضل فيه بنك إنجلترا اتجاها أكثر موضوعية فى العمل " .

" متى يجب اتخاذ القرار ؟ " .

" يجب أن نكون قد توصلنا إلى قرار نهائى عند موعد عودتك من أمريكا " .

" ماذا عن مستقبل العقار رقم ١ ؟ " .

" أمامنا فرصة كبيرة لاستعادة ازدهاره ؛ فقد أصبح لدى الآن طاقم عمل جيد فضلا عن عقود كافية ؛ وهذا يعنى أننا إن حصلنا على إذن التخطيط الذى تقدمنا بالطلب له فإننى واثقة من أننا سوف نحقق ربحا جيداً لـ " سوثباى " وكريستى " .

" ما لم يواصل أبى سرقة أفضل الصور — " .

قالت بيكى مبتسمة : " أجل ولكنه إن دأب على ما يفعله الآن فسوف تصل قيمة مقتنياتنا الشخصية إلى ثمن يفوق القيمة التى بعنا بها لوحة جوخ ثانية إلى متحف لوفيفر ؛ لقد كان هذا أمراً فظيعا . لأنه يملك أفضل حس جمالى يمكن أن يتمتع به أى شخص هاو ولكن إياك أن تخبره بأننى قلت ذلك " .

بدأت بيكى تركز على الإشارات التى تشير إلى مكان الميناء وأخيرا أوقفت السيارة فى مكان ما بجوار رصيف الميناء ولكن ليس بنفس درجة القرب التى نجحت دافنى ذات مرة فى الوصول إليها حسبما تذكر .

أبحر دانيال من ساوثهامبتون على متن السفينة كوين مارى فى مساء ذلك اليوم بينما أخذت والدته تلوح إليه من على رصيف الميناء .

بينما كان على متن السفينة الكبيرة كتب خطابا طويلا إلى أهله ؛ أرسله عبر البريد بعدها بخمسة أيام من فيفث آفينيو . ثم اشترى بعدها تذكرة بولمان من شركة تونتيث سينتشرى المحدودة إلى شيكاغو . انطلق القطار من محطة بين فى الثامنة فى نفس الليلة ؛

كان دانيال عندها قد قضى إجمالى ست ساعات فى مانهاتن حيث اقتصرت مشترياته على دليل لأمريكا .

وعندما وصل إلى شيكاغو ؛ تم توصيل عربة البولمان بالسوبر تشيف التى قادته بطول الطريق إلى سان فرانسيسكو .

على مدى رحلته التى دامت لأربعة أيام عبر أمريكا ؛ بدأ دانيال يشعر بالندم على اضطراره للذهاب إلى أستراليا من الأساس . وبينما كان يمر بـ " كنساس " ونيوتن ولاجنتا وألبوكيركى وبارستو ، كانت كل مدينة منها تبدو له أكثر إثارة من المديرة السابقة . كان القطار كلما توقف عند محطة جديدة ؛ قفز دانيال منه لشراء بطاقات ملونة تشير إلى المدينة التى توقف فيها وشرع فى ملئها بالمعلومات التى اكتسبها من خلال الدليل قبل أن يصل القطار إلى محطته التالية حيث كان يضع البطاقات سابقة الإعداد فى صندوق البريد وهكذا . ومع حلول الوقت الذى وصل فيه القطار السريع إلى محطة أوكلاند فى سان فرانسيسكو ؛ كان دانيال قد أرسل سبعاً وعشرين بطاقة مختلفة إلى أهله فى ليتل بولتونز .

بما أن توقفت حافلته فى ميدان سانت فرانسيس ؛ حجز دانيال لنفسه غرفة فى فندق صغير بالقرب من الميناء بعدما تأكد من أن ميزانيته تسمح بالإقامة فيه . وبما أنه كان مازال أمامه ست وثلاثون ساعة انتظار قبل إبحار السفينة إس إس أورانجى ؛ فقد سافر إلى بيركلى وقضى اليوم الثانى بأكمله مع أستاذه ستينستيد . وقد انهمك دانيال فى أبحاث ستينستيد عن حساب التفاضل والتكامل الثلاثى إلى الحد الذى جعله يشعر ثانية بالندم لكونه غير قادر على البقاء لفترة أطول لأنه كان واثقا من أن كم المعلومات التى كان

سيحظى بها إن بقى فى بيركلى سوف تفوق كثيرا ما سوف يكتشفه فى أستراليا .

فى الليلة التى سبقت إبحاره ؛ اشترى دانيال عشرين بطاقة أخرى وجلس حتى الواحدة صباحا لملئها . وبحلول موعد ملء البطاقة العشرين كان خياله قد نضب تماما . وفى صباح اليوم التالى ؛ بعدما سدد فاتورة حسابه ؛ طلب من كبير البوابين إرسال بطاقة واحدة كل ثلاثة أيام حتى عودته . وأعطاه عشرة دولارات مقابل هذه المهمة ووعده بإعطائه ورقة أخرى بعشرة دولارات فور عودته إلى سان فرانسيسكو ولكن فقط إن نجح فى إنجاز مهمته بمنتهى الدقة بدون أن يحدد موعدا دقيقا لعودته .

اندهش كبير البوابين من هذا الطلب ولكنه وضع العشرة دولارات فى جيبه وأسر لأحد زملائه الأصغر سنا بأنه قد طلب منه أداء مهام أكثر غرابة فى الماضى مقابل مبلغ يقل عن ذلك كثيرا .

وبحلول الوقت الذى صعد فيه دانيال على متن السفينة إس إس أورانجى كانت لحيته قد نمت وأصبحت طويلة وكانت خطته قد تبلورت وأصبحت واضحة تماما فى ضوء كونه استقى معلوماته من الجانب الخطأ من الكرة الأرضية . أثناء الرحلة ؛ وجد دانيال نفسه جالسا على مائدة مستديرة مع أسرة أسترالية كانت فى طريق عودتها من رحلة قضتها فى الولايات المتحدة . وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية ؛ اكتسب دانيال الكثير من المعلومات من هذه العائلة التى لم تكن تدرى أنه كان يصغى إلى كل كلمة يقولونها بدون أن يلقوا إليها بالا .

أبحر دانيال إلى سيدنى فى الاثنين الأول من شهر أغسطس عام ١٩٤٧ . وقف على متن السفينة وأخذ يراقب الشمس وهى تغرب

خلف جسر ميناء سيدنى بينما كانت هناك سفينة إرشاد تقود سفينته نحو الميناء . وفجأة انتاب دانيال الشعور بالغربة والوحشة ؛ لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تمنى فيه ألا يكون قد أقدم على هذه الرحلة . وبعدها بساعة ؛ كان قد غادر السفينة وحجز لنفسه غرفة فى إحدى دور الضيافة التى نصحه رفقاء رحلته بالإقامة فيها .

كانت مالكة الدار ؛ السيدة سنيل ؛ امرأة كبيرة ذات ابتسامة واسعة وضحكة كبيرة وقد أودعته فى غرفة كانت تطلق عليها غرفة ممتازة . وقد شعر دانيال بالامتنان لأنه أقام فى هذه الغرفة ولم يقم فى إحدى الغرف العادية لأنه كان حينما يستلقى على السرير المزدوج إذا به يتدلى من المنتصف وكان كلما استدار تعلقت الحشوة بظهره . كان صنبورا الماء لا يدران إلا الماء البارد بدرجات مختلفة كما أن المصباح الوحيد المتدلى فى منتصف الغرفة لا يسمح بأى حال من الأحوال بالقراءة فى ظل ضوئه الخافت ما لم يجلس على كرسى تحته مباشرة . فضلا عن أن السيدة سنيل لم تكن قد منحته كرسيا .

وعندما سُئِل فى صباح اليوم التالى ـ بعد تناول إفطار من البيض واللحم والبطاطا والخبز المقلى ـ إن كان سيتناول الغداء فى الدار أم فى الخارج ؛ أجاب فى حزم : " فى الخارج " ، مما أصاب صاحبة الدار بخيبة أمل .

كان أول ـ وأهم ـ اتصال هو الاتصال بمكتب الهجرة . فإن لم يكن لدى المكتب أية معلومات لمساعدته ؛ فهذا يعنى أنه يمكنه أن يركب على متن السفينة إس إس أورانجى العائدة مساء ذلك اليوم . بدأ دانيال يشعر أنه إن حدث هذا فلن يشعر بخيبة أمل كبيرة .

فتح المبنى البنى العملاق الذى يحوى السجلات الرسمية لكل شخص وصل إلى المستعمرة منذ عام ١٨٢٣ أبوابه فى العاشرة صباحا . وبالرغم من أن دانيال كان قد وصل مبكرا بنصف ساعة كان عليه أن يقف فى صف من الصفوف الثمانية التى كان قد احتشد فيها الناس سعيا لمعرفة بعض الحقائق عن المهاجرين المسجلين مما كان يعنى بكل تأكيد أنه لن يحل دوره قبل أربعين دقيقة .

وعندما نجح فى نهاية المطاف فى الوصول إلى مقدمة الصف وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل أحمر الوجه يرتدى قميصاً أزرق مفتوحا من عند العنق ؛ واقفا فى استرخاء خلف النضد .

" أحاول أن أقتفى أثر رجل إنجليزى كان قد حضر إلى أستراليا فى وقت ما بين عامى ١٩٢٢ ، ١٩٢٥ " .

" ألا يمكنك أن تكون أكثر تحديدا يا صاحبى ؟ " .

قال دانيال : " أخشى أننى لا أستطيع " .

قال الموظف : " تخشى أنك لا تستطيع ، هل تعرف اسمه إذن ؟ " .

قال دانيال : " أجل بالطبع ، جاى ترينثام " .

" ترينثام ؛ كيف يكتب ؟ " .

أخذ دانيال يتهجى الكلمة حرفا حرفا للرجل الماثل أمامه .

" حسنا يا صاحبى . سوف يكلفك هذا جنيهين " ، أخرج دانيال حافظته من الجيب الداخلى لسترته الرياضية ومد يده بالمبلغ إلى الرجل . قال الموظف وهو يمد له يده بنموذج ومشيراً بإصبعه إلى السطر الأخير : " وقع هنا ، وعد ثانية يوم الخميس " .

" الخميس ؟ ولكنّ هذا بعد ثلاثة أيام " .

قال الموظف : " أنا سعيد لأنهم مازالوا يعلمونكم الحساب فى إنجلترا ، الشخص التالى " .

غادر دانيال المبنى بدون أية معلومات ؛ فقط بفاتورة بجنيهين . وبمجرد أن عاد ثانية إلى الرصيف ، التقط نسخة من جريدة سيندى مورنينج هيرالد وبدأ يبحث عن مقهى قريب من الميناء لكى يتناول فيه الغداء . تخير مطعما صغيرا كان يعج بالشباب . قادته نادلة عبر المكان المكتظ بالضوضاء والأشخاص وأجلسته فى مائدة صغيرة فى أحد الأركان . كان قد أوشك على الانتهاء من قراءة الصحيفة فى الوقت الذى تقدمت منه النادلة حاملة طبق السلاطة الذى كان قد طلبه . نحى الجريدة جانبا بعد أن فوجئ بأنها لم تكن تحوى معلومة واحدة عما يجرى فى إنجلترا .

وبينما كان يمضغ أوراق الخس ويسأل نفسه كيف يمكن أن يستغل كل هذا الوقت غير المخطط على نحو بناء ، مالت عليه فتاة كانت تجلس فى المائدة المجاورة له وسألته إن كان بوسعها أن تقترض منه السكر .

" بالطبع ، تفضلى " ، قال دانيال ذلك وهو يمد لها يده بإناء السكر . لم يكن سيلقى على الفتاة نظرة ثانية ما لم يلحظ أنها كانت تقرأ كتابًا فى أساسيات الرياضيات لـ " وايت هيد " وبرتراند راسيل .

سألها : " هل أنت طالبة رياضيات ؟ " .

قالت بدون أن تنظر فى اتجاهه : " أجل " .

قال دانيال بعد أن شعر أن سؤاله يمكن أن يكون قد بدا غير مهذب : " كنت أسأل فقط ، لأننى أدرس هذه المادة " .

قالت بدون أن تزعج نفسها بالنظر إليه : " بالطبع تفعل ذلك فى أكسفورد ، أليس كذلك ؟ " .

" بل فى كمبريدج فى واقع الأمر " .

دفعت هذه المعلومة الفتاة إلى إلقاء نظرة متأنية على دانيال وسألته فجأة : " إذن هل يمكنك أن تشرح لى قاعدة سيمبسون ؟ " .

فك دانيال منديل المائدة المطوى واستخرج قلما ورسم بعض الأشكال البيانية لتوضيح القاعدة خطوة بخطوة ، ولم يكن قد فعل ذلك منذ أن غادر سانت بول .

تفحصت الفتاة ما رسمه فى ضوء الرسوم البيانية الموضحة فى كتابها ثم ابتسمت وقالت : " فير دينكام ، أنت بالفعل مدرس رياضيات " . مما فاجأ دانيال قليلا لأنه لم يكن يعرف معنى كلمة " فير دينكام " ولكن بما أنها كانت مصحوبة بابتسامة فقد افترض أنها كانت إحدى كلمات الإطراء . وقد اندهش ثانية بدرجة أكبر عندما حملت الفتاة طبقها من البيض والبقول وانتقلت لتجلس بجواره .

قالت : " أنا جاكى ، إحدى مخترقات الأدغال من بيرث " .

أجاب : " أنا دانيال ، وأنا ــــ " .

" مدرس من كمبريدج . لقد سبق وأخبرتنى بذلك ، ألا تذكر ؟ " .

كان قد حان دور دانيال لكى ينظر إلى الفتاة الشابة التى كانت تجلس قبالته مليا فبدت له جاكى فى قرابة العشرين . كان لها شعر أشقر قصير وأنف طويل . وكانت ترتدى سروالا قصيرا وتى شيرت أصفر اللون يصور أسطورة "بيرث " على صدرها . وكانت تختلف تمام الاختلاف عن أية طالبة سبق له رؤيتها فى ترينيتى .

سألها : " هل أنت فى الجامعة ؟ " .

" نعم فى السنة الثانية . إذن ما الذى جاء بك إلى سيدنى يا دان ؟ " .

لم يسعفه عقله بأية إجابة فورية ولكن الأمر لم يكن ملحًا إلى هذا الحد لأن جاكى كانت قد بدأت بالفعل تشرح له سبب وجودها فى عاصمة نيو ساوث ويلز قبل أن تمنحه فرصة الرد على سؤالها . بل إنها استأثرت بالحديث لمعظم الوقت إلى أن وصلت فاتورة الحساب حيث أصر دانيال على تسديده .

قالت : " شكرا لدعوتك . إذن ما الذى سوف تفعله الليلة ؟ " .

" ليس لدى أى خطط محددة " .

قالت له : " عظيم ؛ لأننى كنت أفكر فى الذهاب إلى المسرح الملكى ، لم لا تأتى معى ؟ " .

قال دانيال : " ما الذى سوف يعرض إذن ؟ " وكان متعجبا لأنها كانت المرة الأولى فى حياته التى تصطحبه فيها فتاة .

" نويل كووارد فى الثامنة والنصف مع سيريل ريتشارد ومادج إيليوت ."

قال دانيال بعد أن التبس عليه الأمر : " يبدو هذا مشجعا " .

" عظيم . إذن سوف ألتقى بك فى دار العرض فى الثامنة إلا عشر دقائق يا دان " ، ثم التقطت حقيبة ظهرها ورمتها فوق ظهرها وحزمتها وفى ثوان كانت قد اختفت عن الأنظار .

أخذ دانيال يراقبها وهى تغادر المقهى قبل أن يفكر فى أى عذر يمكن أن يحول دون قبوله لعرضها . وفكر أنه سوف يكون من الفظاظة عدم الذهاب إلى المسرح وعلى أية حال كان عليه أن يقر أنه

سوف يستمتع بصحبتها . نظر إلى ساعته وقرر أن يقضى باقى الظهيرة فى التجول فى أنحاء المدينة .

عندما وصل دانيال إلى المسرح الملكى فى مساء ذلك اليوم ؛ قبل السابعة وأربعين دقيقة بدقائق قليلة ؛ اشترى تذكرتين بجنيهين وستة شلنات ثم بقى جالسا فى انتظار ضيفته أو ربما مضيفته ، وعندما دق الجرس لم تكن جاكى قد وصلت بعد وبدأ دانيال يدرك أنه كان يتطلع إلى رؤيتها بأكثر مما كان يريد أن يقر لنفسه . لم تكن هناك بادرة لرفيقة غدائه عندما دق الجرس ثانية فافترض دانيال أنه سوف يشاهد العرض بمفرده . وقبل رفع الستار بدقيقة واحدة ؛ شعر بيدها تمسك به وسمع صوتها وهى تقول له :

" مرحبا يا دان . لم أكن أظن أنك سوف تأتى " . كانت هذه هى المرة الأولى ؛ فلم يكن قد صحب من قبل إلى المسرح فتاة ترتدى سروالا قصيرا .

ابتسم دانيال . وبالرغم من أنه استمتع بالمسرحية فإنه وجد نفسه مستمتعا بصحبة جاكى بدرجة أكبر أثناء فترة الاستراحة بعد العرض ، وبعدها أثناء تناول الطعام فى رومانو - وهو مطعم إيطالى صغير يبدو أنها كانت معتادة على ارتياده . لم يكن قد سبق له من قبل معرفة شخص يتسم بكل هذا الانفتاح والود بعد تعرفه عليه بدقائق قليلة . تحدثا معاً فى كل الأمور بدءا من الرياضيات وحتى كلارك جابل وكانت جاكى دائما تبدو وكأنها تملك رأيا محددا فى كل شيء .

سأل دانيال عند مغادرة الفندق : " هل تسمحين لى أن أوصلك إلى الفندق الذى تقيمين فيه ؟ " .

أجابت جاكى بابتسامة وهى تلقى بحقيبتها فوق كتفيها قائلة : " ليس هناك فندق أقيم فيه . إذن هل تسمح لى بأن أصحبك أنت إلى فندقك ؟ " .

قال دانيال : " ولم لا ؟ أعتقد أن السيدة سنيل يمكن أن توفر غرفة إضافية لليلة " .

قالت جاكى : " نأمل ألا تستطيع " .

عندما فتحت السيدة سنيل الباب بعدما دقت جاكى الجرس الليلى عدة مرات ، أجابتهم قائلة " لم أكن أتوقع أن يكون هناك شخصان . هذا يعنى تكلفة إضافية بالطبع " .

قال دانيال : " ولكننا لن —— " .

" شكرا لك " ، قالت جاكى ذلك وهى تأخذ المفتاح من السيدة سنيل بينما كانت صاحبة الفندق تغمز بعينها لـ " دانيال " .

وبمجرد أن دخلا غرفة دانيال ، خلعت جاكى حقيبتها وقالت : " لا تزعج نفسك بى يا دان ، سوف أنام على الأرض " .

لم يعرف كيف يجيب عليها وبدون أن ينطق بكلمة أخرى توجه إلى الحمام وارتدى بيجامته ونظف أسنانه . ثم فتح باب الحمام وسار بسرعة إلى أن وصل إلى فراشه بدون أن يلقى نظرة ثانية فى اتجاه جاكى . وبعدها بدقائق قليلة سمع باب الحمام وهو يغلق فتسلل من سريره ثانية وسار على أطراف أصابعه وأطفأ النور قبل أن ينسل تحت الغطاء . مضت دقائق قليلة أخرى قبل أن يسمع باب الحمام وهو يفتح ثانية . أغمض عينيه متظاهرا بالنعاس . وبعدها بلحظات شعر بجسم ينزلق بجواره وذراعين تحيطان به .

قالت متسائلة : " ألم تتعرف على أية فتاة من قبل ؟ "

أجابها قائلاً : " هذه هى المرة الأولى لى " .

ردت عليه قائلة : " سوف أمنحك خبرة التعامل مع النساء " .

وقضيا معاً ثلاثة أيام رائعة .

شعر داينال بالحزن عندما أخبرته جاكى أنه قد حان وقت عودتها إلى بيرث . ألقت حقيبتها فوق كتفيها للمرة الأخيرة وبعدما صحبها إلى محطة القطار ، شاهد القطار وهو يمضى بها لكى تبدأ رحلتها إلى الجزء الغربى من أستراليا .

" إن حدث وحضرت إلى كمبريدج فسوف أبحث عنك يا دان " . كانت هذه الكلمات الأخيرة التى يذكر أنها قالتها .

" أتمنى ذلك " قال دانيال ذلك بعد أن شعر أن هناك عدداً من أعضاء مجلس ترينيتى سوف يستفيدون كثيرا من خبرة جاكى إن قضوا معها عدة أيام قليلة .

فى صباح يوم الخميس ، عاد دانيال إلى قسم الهجرة فى الموعد المحدد وبعد قضاء ساعة فى الصف الطويل ، قدم فاتورة السداد إلى الموظف الذى كان مازال يقف فى حالة تراخ وراء النضد مرتديا نفس القميص .

قال الموظف : " أجل ، أجل ، جاى ترينثام ، مازلت أذكر . لقد توصلت إلى بياناته بعد رحيلك بدقائق ، من المؤسف أنك لم تأت فى وقت مبكر عن هذا " .

" إذن علىّ أن أشكرك " .

سأل الموظف فى ارتياب : " تشكرنى ، على ماذا ؟ " .

أخذ دانيال البطاقة الخضراء الصغيرة التى قدمها له الموظف وهو يقول : " على أسعد ثلاثة أيام قضيتها فى حياتى " .

قال الرجل : " ما الذى تقصده يا صاحبى ؟ " ، ولكن دانيال كان قد ابتعد عن مرمى السمع .

جلس وحيدا فوق الدرج خارج المبنى الطويل وأخذ يدرس محتويات البطاقة الرسمية . وكانت البطاقة لا تحمل له الكثير كما كان يخشى .

الاسم:	جاى ترينثام (مسجل هجرة)
	١٨ نوفمبر عام ١٩٢٢
وظيفة:	وكيل أراضى
العنوان:	١١٧ مانلى درايف
	سيدنى

سرعان ما حدد دانيال موقع مانلى درايف فوق خريطة المدينة التى كانت جاكى قد تركتها له ثم ركب الأتوبيس المتوجه إلى الجزء الشمالى من سيدنى إلى أن وصل إلى ضاحية تطل على الميناء . وبالرغم من أن كل المنازل كانت تعتبر كبيرة ؛ ومهملة بعض الشىء ؛ فقد تركت لدى دانيال الانطباع أن الضاحية ربما كانت فى الماضى إحدى المناطق الراقية .

عندما دق جرس باب إحدى الدور التى كانت فى الماضى دار ضيافة ، أجابه شاب صغير يرتدى سروالاً قصيرا وقميصًا داخليًا مما ترك لدى دانيال الانطباع بأنه ربما كان هذا هو الزى القومى للبلاد .

بدأ دانيال حديثه : " إنها قصة مضنية ؛ أعلم ذلك ولكننى أحاول اقتفاء أثر شخص ما ربما كان يعيش فى هذا المكان عام ١٩٢٢ " .

قال الشاب فى ابتهاج : " كان هذا قبل أن أعيش هنا . يجدر بك أن تدخل وتحادث خالتى سيلفيا ؛ إنها أفضل من يفيدك " .

سار دانيال خلف الشاب الصغير فى البهو إلى أن وصل إلى غرفة الاستقبال التى بدت وكأنها لم تنظم منذ عدة أيام ومنها دخل شرفة كبيرة بدا أنها كانت مطلية منذ زمن باللون الأبيض . هناك على كرسى هزاز كانت تجلس سيدة ربما كان عمرها يقل قليلا عن الخمسين ؛ ومع ذلك فإن صبغة شعرها وتبرجها المفرط جعل من المستحيل على دانيال أن يتبين عمرها الحقيقى . واصلت تأرجحها إلى الأمام والخلف وهى مغمضة العينين مستمتعة بشمس الصباح .

" آسف على إزعاجك — " .

قالت السيدة : " لست نائمة " ، ثم فتحت عينيها لكى تلقى نظرة على الشخص الدخيل . أخذت تحدق فيه وتقول : " من أنت ؟ يبدو شكلك مألوفا بالنسبة لى " .

قال لها : " اسمى هو دانيال ترامبر ، أنا أحاول أن أقتفى أثر شخص ما كان يقيم هنا فى عام ١٩٢٢ " .

بدأت تضحك وتقول : " أى منذ خمسة وعشرين عاما . أنت متفائل بعض الشىء ؛ يجب أن أقر بذلك " .

" كان اسمه جاى ترينثام " .

اعتدلت فى جلستها بداية وأخذت تحدق فيه وتقول : " أنت ابنه ، أليس كذلك ؟ " ، شعر دانيال ببرودة تسرى فى جسده .

" لن أنسى وإن بلغت المائة عام لسانه الناعم الزائف " .

كانت الحقيقة أوضح من أن ينكرها ، حتى على نفسه .

" إذن هل حضرت إلى هنا بعد كل هذه السنوات لكى تسدد ديونه ؟ " .

قال دانيال : " لا أفهم ماذا تقصدين ـــــ " .

" إنه مدين لى بإيجار سنة كاملة . كان يراسل دائما والدته فى إنجلترا طلبا لمزيد من المال وكان عندما يأتى المال لا يعطينى منه بنساً واحدا . أظن أنه كان يعتقد أن صحبته كانت تكفى عن السداد ، لن أنسى هذا اللقيط أبدا ما حييت وخاصة بعدما حدث له " .

" هل هذا يعنى أنك تعرفين المكان الذى توجه إليه بعدما غادر هذا المكان ؟ " .

ترددت بعض الوقت وكأنها تحاول أن تحسم أمرها . ثم استدارت ونظرت عبر النافذة بينما بقى دانيال منتظرا وقال بعد صمت طويل : " إن آخر ما سمعته أنه قد حصل على وظيفة فى وكالات مراهنات على جياد السباق فى ميلبورن ، ولكن هذا كان قبل أن ـــــ " .

سأل دانيال : " قبل ماذا ـــــ ؟ " .

أخذت تحدق فيه ثانية بعينين متشككتين .

قالت : " كلا . يجدر بك أن تكتشف الحقيقة بنفسك ، لا أود أن أكون الشخص الذى يخبرك . إن كنت تريد نصيحتى ، اركب أول سفينة عائدة إلى إنجلترا ولا تزعج نفسك بأمر ميلبورن " .

" ولكن قد تكونين أنت الشخص الوحيد الذى يمكن أن يساعدنى " .

" لقد خدعنى أبوك ذات مرة ولن أسمح لنفسى أن أتعرض للخديعة ثانية على يد ابنه . هذا أمر أكيد . قده إلى الباب يا كيفين " .

شعر دانيال بغصة فى حلقه . شكر السيدة بأن سمحت له بمقابلتها وغادر بدون أن ينطق بكلمة أخرى . وبمجرد أن عاد ثانية إلى الشارع ، ركب الأتوبيس إلى سيدنى ثم سار باقى رحلته إلى أن وصل إلى دار الضيافة . قضى ليلته وحيدا مفتقدا جاكى بينما أخذ يفكر فى السبب الذى دفع والده إلى إساءة السلوك إلى مثل هذا الحد عندما جاء إلى سيدنى ، وما إذا كان يجدر به أن يعمل بنصيحة " العمة سيلفيا " .

وفى صباح اليوم التالى ، غادر دانيال دار السيدة سنيل بابتسامتها الكبيرة ولكن ليس قبل أن يسدد لها فاتورة باهظة الثمن . سوى الحساب بدون أن يشكو بكلمة ثم سار نحو محطة القطار .

وعندما دخل قطار سيدنى فى محطة شارع سبنسر فى ميلبورن فى مساء ذلك اليوم ، كان أول ما فعله دانيال هو أنه تفحص دليل الهاتف بحثا عن اسم ترينثام ولكن الاسم لم يكن مدونا . ثم اتصل بعدها بكل وكلاء المراهنات المسجلين فى المدينة ولكنه مع ذلك لم يكن قد توصل إلى شىء قبل التحدث إلى الوكيل التاسع الذى كان يبدو أنه يذكر شيئا عن هذا الاسم .

قال الرجل فى الطرف المقابل من الهاتف : " يبدو اسمه مألوفا ، ولكننى لا أعرف السبب ، يمكنك مع ذلك أن تتصل بـ " براد موريس " . لقد كان يدير هذا المكتب فى ذلك الوقت أى أنه قد يكون قادرا عّلى مساعدتك . سوف تعثر على رقم هاتفه فى

الدليل " . وعندما جاءه صوت الرجل على الطرف المقابل ، كانت المكالمة مقتضبة إلى الحد الذى أغناه عن استخدام عملة معدنية أخرى لمواصلة الحديث .

سأله ثانية : " هل اسم جاى ترينثام يعنى أى شيء بالنسبة لك ؟ " .

" الرجل الإنجليزى ؟ " .

أجاب دانيال وهو يشعر بزيادة سرعة نبضاته : " نعم " .

" هذا الذى كان يتحدث بلهجة متعالية ويخبر الجميع بأنه نقيب ؟ " .

" ربما كان يفعل ذلك بالفعل " .

" إذن حاول أن تتصل بالسجن لأن المآل كان قد انتهى به هناك " ، وكان دانيال يريد أن يسأله عن السبب ولكن الخط كان قد قطع .

كان دانيال مازال يرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه عندما دفع نفسه خارجا من المحطة وسجل اسمه فى الفندق المقابل لها فى الجهة المقابلة من الشارع . وثانية ، استلقى فوق سرير مفرد فى غرفة مظلمة صغيرة فى محاولة أن يتخذ قرارا فيما إذا كان يجب أن يواصل بحثه أم يتجنب معرفة الحقيقة عاملا بنصيحة سيلفيا ويعود أدراجه إلى إنجلترا .

استسلم للنوم فى وقت مبكر من المساء ولكنه استيقظ ثانية فى منتصف الليل لكى يجد نفسه مازال مرتديا كامل ثيابه . مع بزوغ شمس الصباح الباكر عبر النافذة كان قد حسم أمره ، فلم يكن بحاجة لأن يعرف ، وكان عليه أن يرجع إلى إنجلترا فى الحال .

ولكنه بداية قرر أن يأخذ حماما ويغير ملابسه ولكنه بعد أن فعل ذلك إذا به يغير رأيه .

نزل دانيال إلى قاعة الاستقبال فى الفندق بعدها بساعة وسأل عامل الاستقبال عن أقرب محطة شرطة . أشار الرجل إلى أقرب قسم شرطة فى شارع بوركى .

سأل الموظف : " هل كانت غرفتك بهذا السوء ؟ " .

ابتسم دانيال ابتسامة زائفة . سار ببطء مرتعدًا فى الاتجاه الذى أشار إليه الموظف . لم يستغرق سوى بضع دقائق قليلة إلى أن وصل إلى شارع بوركى ولكنه سار حول المبنى عدة مرات قبل أن يصعد أخيرا درج قسم الشرطة ويلج بداخله .

لم تبد على ضابط الخدمة الشاب فى القسم أية بادرة تشير إلى معرفته لاسم ترينثام وسأل دانيال ببساطة عما يعنيه هذا الاسم ومن الذى يبحث عنه .

أجاب دانيال : " أنا قريب له من إنجلترا " . ثم تركه الضابط وقفا عند النضد وسار إلى الجانب البعيد من الغرفة وتحدث إلى ضابط أقدم منه كان يجلس خلف مكتب متفحصا بعض الصور فى تؤدة . توقف الضابط عما كان يفعله وأخذ يصغى بعناية ثم بدا وكأنه يطرح سؤالا على الضابط الآخر . استدار الأخير وأشار جهة دانيال . أيها اللقيط ، فكر دانيال . أنت لقيط صغير . وبعدها بلحظة عاد الضابط إلى المكتب الأمامى .

قال : " لقد أغلقنا ملف ترينثام . إن كنت تود أن تعرف المزيد عنه يمكنك أن تتوجه إلى قسم السجون " .

كاد دانيال يفقد صوته ولكنه نجح بطريقة ما فى الرد عليه قائلا : " وأين قسم السجون ؟ " .

قال وهو يشير إلى أعلى : " فى الدور السابع " .

عندما خرج من المصعد فى الدور السابع ، وجد دانيال أمامه صورة كبيرة لرجل ذى وجه حنون يحمل اسم هيكتور واتس ، مفتش السجون العام .

سار دانيال إلى أن وصل إلى مكتب الاستعلامات وسأل الموظف إن كان بوسعه أن يقابل السيد واتس .

" هل لديك موعد ؟ " .

قال دانيال : " كلا " .

" إذن أظن أنه ــــ " .

" ألا يمكنك إبلاغ المفتش العام بأننى قد جئت من إنجلترا لكى أقابله هو شخصيا ؟ " .

بقى دانيال منتظرا لبضع دقائق قليلة فقط قبل أن يقتاد إلى مكتب المفتش العام فى الدور الثامن . ونفس الابتسامة الدافئة التى كان قد قوبل بها فى الدور السابق أصبحت أمامه فى الحقيقة الآن حتى بالرغم من أن الخطوط السنية فى وجهه كانت تبدو أعمق قليلا من الصورة . رأى دانيال أن هيكتور واتس كان يناهز الستين من عمره وبالرغم من أنه كان يبدو زائد الوزن ، فإنه كان من الواضح أنه يعتنى بنفسه جيدا .

سأل واتس : " من أى جهة فى إنجلترا أنت ؟ " .

قال دانيال : " من كمبريدج . أنا أدرس الرياضيات فى الجامعة " .

قال واتس : " أنا من جلاسكو ، قد لا يكون هذا بمثابة مفاجأة بالنسبة لك نظرا لاسمى ولهجتى . إذن اجلس من فضلك وأخبرنى بما يمكننى أن أسديه إليك " .

" إننى أحاول اقتفاء أثر شخص يدعى جاى ترينثام وقد أحالنى قسم الشرطة إليك " .

" أجل بالفعل ، أذكر هذا الاسم . ولكن ما هو سبب تذكرى له ؟ " ، نهض الرجل الاسكتلندى من على مكتبه وتوجه صوب خزانة ملفات كانت تقف بجوار الحائط خلفه . فتح ملفا كان يحمل أحرف " إس تى فى " واستخرج صندوق ملفات كبيراً .

" ترينثام " ، كرر ذلك وهو يقلب بإبهامه الأوراق الموضوعة داخل الصندوق ؛ قبل أن يستخرج فى النهاية ورقتين . عاد إلى مكتبه ووضع الورقتين أمامه وبدأ يقرأ . وبعدما استوعب كل التفاصيل ، رفع رأسه وتفحص دانيال بمزيد من العناية .

" هل أنت هنا من فترة يا صاحبى ؟ " .

قال دانيال مندهشاً من السؤال : " لقد وصلت إلى سيدنى منذ أقل من أسبوع مضى " .

" ولم يسبق لك المجىء إلى ميلبورن ؟ " .

" كلا أبدا " .

" إذن ما الذى يدفعك إلى البحث فى هذا الصدد ؟ " .

" كنت أريد أن أعرف كل ما يمكننى معرفته عن النقيب جاى ترينثام " .

سأل المفتش العام : " ولم ؟ هل أنت صحفى ؟ " .

قال دانيال : " كلا أنا مدرس ولكن ــــ " .

" إذن أنت بالقطع تملك سببا وجيها دفعك إلى قطع كل هذه الرحلة إلى هنا " .

قال دانيال : " إنه الفضول على ما أظن . فكما ترى ، بالرغم من أننى لم أعرف قطّ فإن جاى ترينثام هو والدى " .

نكس المفتش رأسه ليلقى نظرة على المعلومات المدونة أمامه : الزوجة اسمها آنا هيلين (متوفية) ، وابنة واحدة اسمها مرجريت إيثيل . وليس هناك ذكر لوجود ابن . ثم نظر ثانية إلى دانيال وبعد لحظات قليلة من التأمل ؛ توصل إلى قرار .

" آسف أن أخبرك يا سيد ترينثام أن والدك قد توفى أثناء فترة تحفظ من قبل الشرطة " .

ذهل دانيال وبدأ يرتجف .

نظر واتس إليه عبر المكتب وأضاف : " آسف لهذه الأنباء السيئة وخاصة بعدما قطعت كل هذا الطريق إلى هنا " .

همس دانيال : " ولكن ما هو سبب موته ؟ " .

قلب المفتش العام الصفحة ونظر إلى السطر الأخير من صفحة الاتهام الموضوعة أمامه وأعاد قراءة الكلمات : " الإعدام شنقا " . ثم نظر ثانية إلى دانيال .

قال الرجل : " لقد أصيب بنوبة قلبية " .

الفصل ٣١

عاد دانيال إلى سيدنى داخل عربة النوم ولكنه لم ينم . كان كل ما يريده هو أن يبتعد عن ميلبورن قدر الإمكان . كان كل ميل يبعده عن ميلبورن يزيد من شعوره بالاسترخاء وبعد بعض الوقت تمكن من تناول نصف شطيرة من عربة البوفيه بالقطار . وعندما وصل القطار إلى محطة أكبر مدينة فى استراليا ؛ قفز منه وركب سيارة أجرة وتوجه مباشرة نحو الميناء . حجز لنفسه فى أول سفينة متوجهة إلى الساحل الشرقى من أمريكا .

كان المركب الصغير يحمل رخصة لحمل أربعة ركاب فقط وقد أبحر فى منتصف الليل إلى سان فرانسيسكو ولم يسمح لـ " دانيال " بالركوب على متنه إلا بعدما سدد للقبطان ثمن الأجرة كاملا نقدا محتفظا لنفسه بما يكفى للعودة إلى إنجلترا طالما لن يحيد يمنة أو يسرة هنا أو هناك .

أثناء التمايل والتأرجح والإبحار اللانهائى إلى أمريكا ؛ قضى دانيال معظم وقته مستلقيا فوق سريره مما منحه بسهولة وقتا كافيا لكى يفكر فيما يمكن أن يفعله بكل هذه المعلومات التى أصبح يعرفها الآن .

كما حاول أيضا أن يتصور كم المعاناة التى مرت بها والدته طول هذه السنوات وكم كان زوج أمه رجلا رائعا . كم كان يكره كلمة " زوج الأم " . إنه لن ينظر إلى تشارلى أبدا على هذا النحو . فقط إن كانوا قد صارحوه بالأمر منذ البداية لكان بالتأكيد قد وظف كل مواهبه للمساعدة بدلا من إهدار كل هذه الطاقة فى محاولة اكتشاف الحقيقة . ولكنه للأسف كان فى ذلك الوقت أكثر إدراكا لكونه لا يمكن أن يكشف لهما عما توصل إليه لأنه كان على الأرجح يعرف أكثر مما يعرفون .

كان دانيال يشك فى أن والدته كانت تعرف أن جاى ترينثام مات فى السجن تاركا وراءه صفا من الدائنين الحانقين عليه بطول فيكتوريا ونيو ساوث ويلز . ولم تكن هناك بكل تأكيد إشارة إلى كل هذا فوق شاهد قبره فى آشورست .

وبينما كان واقفا على متن السفينة يتأمل السفينة الصغيرة وهى تسير فى مسارها المعروف تحت الجولدن جيت فى اتجاه مرساها ؛ شعر دانيال أخيرا أن هناك خطة قد بدأت تتبلور فى عقله .

وبمجرد أن فرغ من إجراءات الوصول فى الميناء استقل حافلة إلى وسط سان فرانسيسكو وحجز لنفسه غرفة فى نفس الفندق الذى كان قد أقام فيه قبل سفره إلى أستراليا . سلمه البواب بطاقتين لم يكن قد أرسلهما بعد ؛ فسلمه دانيال العشرة دولارات التى كان قد وعده

بها . ثم كتب بعض البطاقات الجديدة وأرسلها عن طريق البريد قبل أن يصعد على متن السفينة سوبر تشيف .

مع كل ساعة وكل يوم كان يمر عليه ؛ ظلت أفكاره تتنامى ومع ذلك فقد بقى قلقا بشأن كم المعلومات التى تملكها والدته والتى لا يعرف هو شيئا عنها ولا يجرؤ على سؤالها عنها . ولكنه كان الآن متأكدا على الأقل من أن جاى ترينثام هو والده وأنه غادر الهند أو إنجلترا بشكل مهين . هذا يعنى أن السيدة ترينثام المريعة هى جدته بكل تأكيد والتى لسبب ما غير معلوم كانت تحمل تشارلى مسئولية كل ما وقع لابنها .

فور وصوله إلى نيويورك شعر دانيال بالسخط عندما اكتشف أن السفينة كوين مارى كانت قد أبحرت إلى إنجلترا فى اليوم السابق . فنقل تذكرته إلى السفينة كوين إليزابيث ولم يحتفظ لنفسه إلا بالقليل من الدولارات النقدية . كان آخر ما فعله فى أمريكا هو أنه أبرق إلى والدته لكى يعلمها بموعد وصوله المرتقب إلى ساوثهامبتون .

بدأ دانيال يسترخى للمرة الأولى عندما اختفى تمثال الحرية من على مرمى بصره فوق السفينة . ومع ذلك فقد بقيت السيدة ترينثام ملازمة لتفكيره على مدى الرحلة التى امتدت لخمسة أيام . لم يكن يسعه أن يفكر فيها باعتبارها جدته . وعندما جاء وقت مغادرة السفينة فى ساوثهامبتون شعر أنه بحاجة لأن تجيب له والدته عن العديد من الأسئلة المتبقية قبل أن يشرع فى تنفيذ خطته .

بينما كان يهبط السفينة إلى الأراضى الإنجليزية لاحظ أن أوراق الشجر كانت قد تحولت من اللون الأخضر إلى اللون الأصفر أثناء غيابه . وقد قرر أن يحسم مشكلة السيدة ترينثام قبل أن تتساقط هذه الأوراق .

كانت والدته فى انتظاره على رصيف الميناء . لم يسبق له أن شعر بكل هذه السعادة العارمة لرؤيتها حتى إنه احتضنها بدفء أعجزها عن إخفاء دهشتها . أثناء العودة إلى لندن عرف من أمه خبر وفاة جدته الحزين أثناء غيابه فى أمريكا ، وبالرغم من أن والدته كانت قد تلقت منه عدة بطاقات فإنها عجزت عن تذكر أى اسم من أسماء الأساتذة التى كان قد أخبرها بها قبل سفره لكى تتصل به هناك وتبلغه بالأمر . ومع ذلك فقد أكدت لـ " دانيال " أنها كانت تستمتع بالبطاقات التى أرسلها إليها .

قال دانيال وقد شعر بالذنب لأول مرة : " هناك المزيد من البطاقات مازالت فى طريقها إليكم على ما أظن " .

" هل يمكن أن تقضى بضعة أيام معنا قبل العودة إلى كمبريدج ؟ " .

" أجل لقد عدت مبكرا بعض الشىء عن المتوقع وسوف أتمكن من البقاء معكم لأسابيع قليلة " .

" سوف يسعد أبوك بحق عندما يسمع هذه الأنباء " .

تساءل دانيال عن كم الوقت سيحتاج إليه قبل أن يمنع شبح " جاى ترينشام " من الترائى له فى كل مرة يسمع فيها كلمة " أبوك " .

" ما هو القرار الذى توصلتم إليه بشأن جمع المال اللازم للمشروع الجديد ؟ " .

قالت والدته : " قررنا أن نطرح المشروع للاكتتاب العام . كان الأمر فى النهاية مسألة حسابية بسيطة بعد أن استكمل المهندس المعمارى خطة البناء ، وخاصة أن والدك يبحث عن الكمال فى كل

شىء . وقد جاء الرقم النهائى مخيفا حيث اقترب من النصف مليون جنيه " .

" ولكن أمازلتم قادرين على الاحتفاظ بنسبة واحد وخمسين بالمائة من الشركة الجديدة ؟ " .

" بالكاد . لأنه بناء على هذه الأرقام سوف يكون الأمر شاقا . قد ينتهى بنا المآل إلى الإقدام على رهن عربة جدك الأكبر النقالة " .

" وماذا عن الشقق ، هل هناك جديد ؟ " ، كان دانيال يتأمل الطريق عبر النافذة لكى يرى رد فعل والدته عن طريق المرآة . بدت مترددة للحظة .

" بدأ الملاك ينفذون تعليمات المجلس المسئول وقد بدءوا بالفعل فى إزالة آثار الدمار " .

" هل هذا يعنى أن أبى سوف يحصل على إذن البناء ؟ " .

" أتمنى ذلك ولكن يبدو الآن أن هذا سوف يستغرق وقتا أطول بعض الشىء عما كان مخططا له لأن أحد السكان ـ السيد سيمبسون نيابة عن اتحاد المتاجر الصغيرة ـ تقدم بمعارضة للخطة أمام اللجنة . ولكننى أرجو ألا تثير هذا الأمر فى حضور والدك ، لأن مجرد ذكر الشقق يجعله يستشيط غضبا .

" وأفترض أن السيدة ترينشام هى التى تقف وراء السيد سيمبسون " ، هكذا كان دانيال يريد أن يسأل ببساطة ولكنه سألها بدلا من ذلك قائلا : " وما هى أخبار دافنى الشريرة ؟ " .

" مازالت تبحث لـ " كلاريسا " عن الزوج المناسب ولـ " كلارنس " عن السلاح المناسب " .

" ليس أقل من دوق ملكى للفتاة ومنصب فى الحرس الاسكتلندى للفتى ، على ما أرى " .

قالت والدته موافقة : " صحيح تماما ، كما أنها تريد أيضا أن تسرع كلاريسا بإنجاب فتاة لكى تعدها للزواج من أمير ويلز المرتقب " .

" ولكن الأميرة إليزابيث قد أعلنت خطبتها لتوها " .

" أدرك ذلك ولكننا جميعا نعرف أن دافنى تحب أن تخطط مسبقا " .

لبى دانيال رغبة والدته ولم يذكر الشقق أبدا أثناء حديثه مع تشارلى عن الشركة الجديدة أثناء تناول العشاء فى تلك الليلة . وقد لاحظ أيضا أن هناك لوحة تدعى تفاح وكمثرى لفنان يدعى كوربيه قد حلت محل لوحة فان جوخ التى كانت معلقة فى البهو ، وهو الشىء الآخر الذى لم يصدر عليه أيضا أى تعليق .

قضى دانيال اليوم التالى فى قسم التخطيط (الاستعلامات) فى كونترى هول . وبالرغم من أن هناك موظفا أمده بكل الأوراق اللازمة فسرعان ما نوه قائلا ـ مما أصاب دانيال بالإحباط ـ إنه لا يمكن أن يسمح بخروج أية ملفات أصلية من المبنى .

وقد اضطر دانيال بناء على ذلك أن يقضى صباحه لتفحص كل الأوراق وتدوين ملاحظات عن كل النصوص المهمة وحفظها فى الذاكرة لكى لا يحتفظ بأى شىء على الورق . كان آخر شىء يريده أن يحدث هو أن يقع تحت أيدى والديه أية معلومة فى هذا الصدد . ومع حلول الخامسة ، عندما أغلقوا باب المبنى وراءه ، شعر دانيال أنه قادر على تذكر كل التفاصيل المهمة .

غادر دانيال الكونترى هول وجلس فوق درابزين صغير يطل على نهر التايمز وأخذ يعيد الحقائق على نفسه .

كانت عائلة ترامبر ـ حسب ما توصل إليه ـ قد تقدموا بطلب لبناء مركز تجارى متكامل لتغطية الحى الذى يدعى تشيلسيا بالكامل مؤلف من برجين يصل ارتفاع كل منهما إلى اثنى عشر طابقا . كانت مساحة كل برج ستبلغ ثمانمائة ألف قدم مكعب من الأرضيات وفوقها خمسة طوابق إضافية للمكاتب والكبارى التى سوف تكون بمثابة امتداد للبرجين التوأمين وجسر رابط بينهما . كان التصريح اللازم للرسم الخارجى قد استصدر بالفعل من اللجنة المسئولة ومع ذلك فقد تقدم شخص يدعى السيد مارتين سيمبسون من لجنة الحفاظ على المتاجر الصغيرة بمعارضة ضد الطوابق الخمسة التى سوف تصل بين البرجين فوق موقع خاو فى مركز الشارع . لم يكن الأمر بحاجة لكثير من التخمين لمعرفة الشخص الذى كان يمول السيد سيمبسون ماديا .

فى الوقت نفسه كانت السيدة ترينثام قد حصلت على إذن إعادة بناء الشقق لكى تستخدم فى غرض الإسكان رخيص القيمة الإيجارية . وقد فكر دانيال مليا فى الطلب الذى تقدمت به لإعادة بناء الشقق والذى عرف من خلاله أن الشقق سوف تبنى من الأسمنت المنحوت مع أقل قدر من الكماليات الداخلية والخارجية ـ وهكذا قفز تعبير إسكان رخيص على الفور فى عقله . لم يكن من الصعب عليه أن يدرك أن هدف السيدة ترينثام هو بناء أقبح مبنى يمكن أن تسمح اللجنة بالموافقة عليه فى منتصف مشروع تشارلى الفاخر .

راجع دانيال الملحوظات التى كان يحفظها فى ذاكرته مقابل البيانات المدونة . لم يكن قد نسى شيئا فقطع الورقة إربا وألقى بها فى سلة مهملات فى أحد أركان جسر وستمينيستر ثم عاد إلى منزله فى ليتل بولتنز .

كانت خطوة دانيال التالية هى الاتصال هاتفيا بـ " ديفيد أولدكريست " أستاذ قانون المبانى فى ترينيتى والمتخصص فى تخطيط المدن . قضى زميله أكثر من ساعة فى شرح كل تفاصيل المعارضات والطعن فى المعارضات الذى يمكن أن يرفع إلى القضاء فى هذه الصدد وأفهم دانيال أن التصريح اللازم لبناء مشروع مثل أبراج ترامبر قد يستغرق عدة سنوات . ومع حلول الوقت الذى سيتخذ فيه قرار فى هذا الصدد ـ كما قال الدكتور أولدكريست ـ سوف يكون الطرف الوحيد المستفيد ماديا من هذا الصراع هم المحامين أنفسهم .

شكر دانيال صديقه وبعد أن فكر فى المشكلة ؛ خلص إلى أن مصير نجاح أو فشل طموحات تشارلى أصبح بين يدى السيدة ترينثام . كان هذا هو الوضع تحديدا ما لم ينجح هو فى ....

على مدى الأسبوعين التاليين قضى دانيال وقتا طويلا داخل كابينة الهواتف العامة فى ميدان شيستر بدون إجراء مكالمة واحدة . أما باقى كل يوم فقد كان يقضيه فى تتبع سيدة ترتدى ملابس متحفظة على درجة واضحة من الثقة بالنفس والمكانة فى كل أنحاء العاصمة . كان دانيال حريصًا على التخفى لكى لا يلحظه أحد ولكنه من وقت إلى آخر كان يختلس النظر إليها لكى يتبين شكلها والطريقة التى تتصرف بها والعالم الذى كانت تعيش فيه .

وسرعان ما اكتشف أن هناك ثلاثة أشياء كانت مقدسة لساكنة العقار رقم ١٩ من ميدان شيستر . أولا اللقاءات التى كانت تجريها

مع المحامين فى لينكولن إن فيلدز والتى كانت تعقد على ما يبدو كل يومين أو ثلاثة أيام بالرغم من أنها لم تكن تجرى على أساس منتظم . ثانيا ؛ اجتماعات لعب البريدج والتى كانت تعقد ثلاث مرات أسبوعيا بشكل دائم فى الثانية ظهرا ؛ أيام الاثنين فى كادوجان بليس والأربعاء فى ١١٧ سلون آفينيو وأيام الجمعة فى منزلها فى ميدان شيستر . كانت المجموعة التى تضم نفس السيدات كبيرات السن ثابتة لا تتغير فى الأماكن الثلاثة . وثالثا الزيارة التى كانت تجريها السيدة من آن إلى آخر إلى ساوث كينسينجتون حيث كانت تجلس فى ركن مظلم فى قاعة تقديم الشاى وتجرى حوارا مع رجل بدا لـ " دانيال " أبعد ما يكون عن شخص يمكن أن يرتقى إلى مستوى ابنة السير رايموند هاردكاسيل . لم تكن بكل تأكيد تعامله على أنه صديق ولا حتى شريك وقد عجز دانيال عن تبين الشيء المشترك الذى يمكن أن يجمع بينهما .

وبعد أسبوع آخر ؛ قرر دانيال أن خطته لا يمكن أن تنفذ إلا فى الجمعة الأخيرة من قبل عودته إلى كمبريدج . وبناء على ذلك فقد قضى صباح أحد الأيام مع ترزى متخصص فى حياكة الزى العسكرى . فى عصر ذلك اليوم جلس دانيال يكتب سيناريو لما سوف يجرى وقام بعدها بالتدرب عليه . ثم أجرى بعدها عدة مكالمات هاتفية بما فى ذلك مكالمة إلى سبينكس ؛ المتخصص فى إعداد النياشين والذى كان دانيال واثقا من أنه يستطيع أن يلبى له طلبه فى الوقت المحدد . وفى صباح آخر يومين ـ ولكن فقط بعد أن تأكد دانيال من خروج والديه من المنزل ـ كان يتدرب على ارتداء الزى العسكرى فى سرية داخل غرفة نومه .

كان دانيال بحاجة لأن يكون واثقا ليس فقط من مباغتة السيدة ترينثام وإنما أيضا أن تبقى مختلة التوازن لما لا يقل عن العشرين دقيقة اللازمة لإنجاز ما عقد العزم عليه .

وفى يوم الجمعة المحدد على الإفطار ، تأكد دانيال أن أحدا من والديه لن يعود إلى المنزل إلى ما بعد السادسة من مساء ذلك اليوم . وقد وافق بسهولة على وجوب تناولهم العشاء سويا فى هذه الليلة قبل أن يعود إلى كمبريدج فى اليوم التالى . بقى منتظرا فى صبر إلى أن غادر والده إلى شارع تشيلسيا ومع ذلك فقد كان عليه أن ينتظر لنصف ساعة أخرى قبل أن ينصرف هو بسبب تلك المكالمة الهاتفية التى عطلت والدته لبعض الوقت قبل انصرافها . ترك دانيال باب غرفته مفتوحا وأخذ يحوم ذهابا وإيابا بلا انقطاع .

وأخيرا أنهت والدته مكالمتها الهاتفية وغادر إلى العمل . وبعدها بعشرين دقيقة خرج دانيال من المنزل حاملا حقيبة صغيرة كان قد وضع بداخلها الزى العسكرى الذى كان قد حصل عليه من جونز وبيج فى اليوم السابق . وسار فى حذر مسافة ثلاثة أبنية فى الاتجاه الخاطئ قبل أن يستدعى سيارة أجرة .

وعندما وصل إلى متحف الرماية الملكية ، قضى دانيال بضع دقائق يتفحص صورة والده المعلقة على الجدار . كان شعر والده أكثر تموجا من شعره كما بدا أفتح بعض الشىء من شعره . وفجأة انتابه خوف من احتمال عدم قدرته على تذكر التفاصيل بدقة . بقى دانيال منتظرا إلى أن أدار أمين المتحف ظهره ثم - بالرغم من شعوره بشىء من الذنب - التقط الصورة الصغيرة سريعا ووضعها فى حقيبته .

استقل سيارة أجرة ثانية إلى حلاق فى كينسينجتون الذى سعد سعادة غامرة بتفتيح لون شعره قليلا ونقل فارق شعره إلى الجانب الآخر وإضافة تمويجة أو اثنتين وصولا إلى أقرب شكل من الصورة التى كان يعمل وفقا لها . كان دانيال يتفقد التغيير الذى كان يجرى عليه كل بضع دقائق فى المرآة وبمجرد أن أدرك أنه قد وصل إلى أفضل نتيجة ممكنة سدد الفاتورة وغادر المحل . كانت محطته التالية هى سبينكس ، المتخصص فى النياشين فى شارع كينج فى سانت جيمس . وبمجرد أن وصل إلى هناك سدد ثمن الأوشحة الأربعة التى كان قد طلبها بالهاتف . ثم استقل سيارة أجرة ثالثة من سانت جيمس إلى فندق دورشيستر . وهناك حجز لنفسه غرفة فردية وأخبر موظفة الاستقبال أنه سوف يغادرها فى السادسة من مساء نفس اليوم فسلمته مفتاحاً يحمل رقم ٣٠٩ . رد دانيال فى أدب البواب الذى كان يريد أن يحمل عنه حقيبته واكتفى بالسؤال عن مكان المصعد .

وعندما استقر فى أمان فى غرفته ، أغلق الباب وأفرغ محتويات حقيبته بعناية فوق السرير . فى اللحظة التى فرغ فيها من تغيير بذلته وارتداء الزى العسكرى ثبت الأوشحة فى مكانها فوق جيب الصدر الأيسر حيث كانت موضوعة فى الصورة ثم أخيرا تفقد أثر هذا التغيير فى المرآة الطويلة الملصقة بباب الحمام . كانت كل بوصة منه تؤكد أنه نقيب فى الرماية الملكية أثناء الحرب العالمية الأولى كما أن الأوشحة البنفسجية والفضية والثلاثة نياشين أضفت عليه اللمسة النهائية الأخيرة .

بعد أن راجع كل تفاصيله مقابل تفاصيل الصورة ؛ بدأ دانيال يشعر للمرة الأولى أنه غير واثق من نفسه . ولكنه إن لم يمض قدما فى خطته ....

جلس عند طرف الفراش متفحصًا ساعة يده كل بضع دقائق . مضت ساعة قبل أن ينهض ويلتقط نفسا عميقا ويضع معطفه العسكرى الطويل ـ الذى كان يمثل قطعة الملابس الوحيدة المسموح له بارتدائها ـ ثم أغلق الباب وراءه وتوجه إلى بهو الفندق . وبمجرد أن شق طريقه عبر الأبواب المتأرجحة ؛ استقل سيارة أجرة أخرى إلى ميدان شيستر . سدد أجرة السيارة وتفقد ساعته . كانت تشير إلى الثالثة وسبع وأربعين دقيقة . قدر الوقت المتبقى على انتهاء جلسة البريدج بعشرين دقيقة .

أخذ ـ من خلال مكانه المألوف داخل كابينة الهاتف العامة ـ يراقب السيدات أثناء خروجهن من العقار رقم ١٩ . وعندما تأكد من مغادرة السيدات الإحدى عشرة المكان وأيقن أن السيدة ترينثام ـ باستثناء الخدم ـ أصبحت بمفردها حيث كان قد تأكد بالفعل من جدول البرلمان المنشور فى صحيفة الدايلى تيليجرام صباح ذلك اليوم أن زوجها لن يعود إلى المنزل فى ذلك اليوم قبل السادسة مساء . بقى منتظرا لخمس دقائق أخرى ؛ ثم خرج من كابينة الهاتف العامة وعبر الشارع سريعا . كان يعلم أنه إن تردد لحظة فسوف يفقد أعصابه . طرق الباب بحزم وبقى منتظرا لما هيئ إليه أنه ساعات قبل أن يفتح الخادم الباب أخيرا .

" أية خدمة يا سيدى ؟ " .

" عمت مساء يا جيبسون ؛ لدى موعد مع السيدة ترينثام فى الرابعة وخمس عشرة دقيقة " .

" أجل ؛ تفضل يا سيدى " ، هكذا قال جيبسون . كما توقع دانيال ؛ فإن جيبسون عندما سمع اسمه افترض أن الزائر لابد أن يكون لديه موعد . " من فضلك تفضل من هنا يا سيدى " ، قالها قبل أن يخلع عن دانيال المعطف العسكرى . وعندما وصلا إلى باب غرفة الاستقبال سأله جيبسون قائلا : " الاسم من فضلك ؟ " .

" النقيب دانيال ترينثام " .

بدا الخادم مأخوذا بعض الشىء ولكنه فتح باب غرفة الاستقبال وأعلن مجيئه قائلا : " النقيب دانيال ترينثام يا سيدتى " .

كانت السيدة ترينثام تقف بجوار النافذة عندما دخل دانيال الغرفة . استدار وأخذت تحدق فى الشاب الصغير وخطت خطوتين إلى الأمام وترددت ثم تهاوت فوق الأريكة .

" أرجوك لا تفقدى وعيك " ؛ كان هذا هو أول رد فعل لـ " دانيال " بينما كان يقف فى منتصف السجادة قبالة جدته .

همست أخيرا : " من أنت ؟ " .

" دعيك من هذه الألاعيب يا جدتى . أنت تعلمين جيدا من أكون " ، قال دانيال ذلك آملا أن يكون صوته قد خرج واثقا :

" لقد أرسلتك ؛ أليس كذلك ؟ " .

" إن كنت تقصدين بذلك أمى فالإجابة هى كلا ؛ لم ترسلنى . بل إنها فى الحقيقة لا تعرف حتى أننى هنا " .

فتحت السيدة ترينثام فمها فى اعتراض ولكنها لم تتحدث . أخذ دانيال يتبادل الاتكاء على ساقيه لما بدا له على أنه صمت طويل غير محتمل . بدأت عيناه تركزان على النياشين المعلقة فوق المدفأة .

سألته : " إذن ما الذى تريده ؟ " .

" جئت لأعقد معك صفقة يا جدتى " .

" ما الذى تقصده بصفقة ؟ أنت لست فى وضع يسمح لك بعقد أية صفقات " .

" كلا أعتقد أننى فى وضع يسمح لى بذلك يا جدتى . لقد جئت لتوى من رحلة فى أستراليا " ، وصمت لحظة ثم أضاف : " كانت فى الواقع مجدية للغاية " .

ذهلت السيدة ترينثام ولكن عينيها بقيتا مثبتتين عليه دون أن تبرحاه لحظة .

" وكل ما عرفته عن أبى خلال هذه الرحلة لا يمكن أن يحكى ثانية . لا أريد أن أخوض فى أية تفاصيل لأننى أفترض أنك تعرفين كل التفاصيل التى أعرفها " .

بقيت عيناها مثبتتين عليه ثم بدأت علامات الإفاقة من الصدمة تظهر عليها شيئا فشيئا .

" ما لم ترغبى - بالطبع - معرفة المكان الذى خطط لأبى أن يدفن فيه فى المقام الأول لأنه لم يكن فى مقابر العائلة التابعة لمدافن آشورست بالطبع " .

كررت قائلة : " ما الذى تريد ؟ " .

" كما قلت يا جدتى ، لقد جئت لكى أعقد صفقة " .

" وأنا أصغى إليك " .

" أريدك أن تتخلى عن خططك لبناء تلك الشقق المرعبة فى تشيلسيا وفى نفس الوقت تسحبى الاعتراض الذى تقدمت به ضد طلب إذن البناء الذى تقدم به ترامبر " .

" لن يحدث هذا أبدا " .

" إذن أخشى أن الوقت قد حان للعالم كله لأن يعرف السبب الحقيقى للضغينة التى تحملينها لأمى " .

" ولكن هذا سوف يؤلم والدتك تماما مثلما يؤلمنى " .

قال دانيال : " كلا ، لا أعتقد ذلك يا جدتى ، وخاصة عندما تعلم الصحافة أن ابنك قد قدم استقالته من الجيش لأسباب مشينة وتوفى فى وقت لاحق فى ميلبورن فى ظروف أكثر خسة بالرغم من كونه قد نقل بعد ذلك إلى تلك القرية الهادئة فى بيكشاير بسبب تدخلك أنت لنقل الجثمان بعد أن أخبرت كل أصدقائك بأنه كان يتاجر فى الماشية وبأنه توفى إثر الإصابة بمرض السل " .

" ولكن هذا ابتزاز " .

" كلا يا جدتى ؛ أنا لا أعدو ابنًا بائسًا يتوق إلى معرفة ما حدث لوالده الفقيد وصدم عندما اكتشف الحقيقة التى تخفيها عائلة ترينثام . أظن أن الصحافة سوف تصف هذا الحادث بأنه لا يعدو صراعًا عائليًا . ولكن هناك شيئاً أكيداً وهو أن أمى لن تمس ، ولكن الشيء الذى أشك فيه هو كم الأشخاص الذين سوف تبقى لديهم الرغبة فى مشاركتك لعب البريدج عندما يكتشفون تلك الحقائق الدقيقة " .

نهضت السيدة ترينثام سريعا على قدميها وأحكمت قبضة يدها وتقدمت نحوه مهددة . وقف دانيال على الأرض .

" لا تفقدى أعصابك يا جدتى . لا تنسى أننى أعرف كل شيء عنك " ، كان يدرك تماما أنه لا يعرف إلا القليل عنها .

توقفت السيدة ترينثام بل وشرعت فى التراجع بعض الشيء : " وإن وافقت على مطالبك ؟ " .

" سوف أخرج من هذه الغرفة ولن تسمعى عنى ثانية طوال حياتك . أعدك بذلك " .

تنهدت تنهيدة طويلة تلتها فترة صمت طويلة .

قالت فى النهاية برباطة جأش تحسد عليها : " لقد غلبتنى ، ولكن لدى شرط واحد إن قبلت عرضك " .

فوجئ دانيال . فلم يكن قد خطط لأية شروط من جانبها فسأل فى ارتياب : " وما هو هذا الشرط ؟ " .

استمع جيدا إلى طلبها وبالرغم من أنه أثار دهشته فإنه لم يجد فيه ما يدعو للريبة .

قال فى النهاية : " أوافق على شرطك " .

أضافت فى هدوء : " كتابة ، والآن " .

قال دانيال محاولا أن يسدد لنفسه هدفا : " إذن سوف أطلب منك أن تدونى اتفاقنا هذا كتابة " .

" أوافق " .

سارت السيدة ترينثام مرتجفة نحو المكتب . جلست وفتحت درج مكتبها الأوسط واستخرجت ورقتين من الأوراق بنفسجية اللون فى الجزء العلوى . جلست فى اجتهاد تدون الاتفاقين ؛ كل على حدة قبل أن تمد يدها بهما إلى دانيال لكى يبدى رأيه فيهما . قرأ المسودتين بعناية . كانت قد غطت كل النقاط التى طلب منها أن تغطيها ولم تنس شيئا بما فى ذلك الشرط العجيب التى كانت قد أصرت هى عليه . أومأ دانيال بالموافقة وأعاد إليها الورقتين .

وقعت على النسختين ثم سلمتهما لـ " دانيال " . فوقع بدوره تحت توقيعها على كلتا الورقتين . أعادت إليه إحدى النسختين

قبل أن تنهض وتدق الجرس المعلق بجوار المدفأة . ظهر الخادم ثانية بعدها بلحظة .

أعلنت قائلة : " جيبسون ؛ نريدك أن تشهد على توقيع هذين العقدين . وبمجرد أن تفعل ذلك سوف يغادر السيد المحترم " .

وقع الخادم على الورقتين بدون أى استفسار أو تعليق .

وبعدها بدقائق قليلة ؛ وجد دانيال نفسه فى الشارع وقد انتابه شعور بعدم الارتياح لأن هناك بعض الأشياء التى لم تجر وفق توقعه . وبمجرد أن جلس فى السيارة الأجرة فى طريقه إلى فندق دورشيستر أعاد قراءة الورقة التى وقع عليها كلاهما . لم يكن بوسعه بالقطع أن يطلب المزيد ولكنه بقى مندهشا من نص الشرط الذى أصرت السيدة ترينثام على إدراجه لأنه بدا غير منطقى بالنسبة له . ولكنه مع ذلك دفع بكل مخاوفه فى عقله الباطن .

وبمجرد أن وصل إلى فندق دورشيستر ؛ غيّر ملابسه سريعا فى الغرفة رقم ٣٠٩ وارتدى ملابسه المدنية . شعر بالنظافة لأول مرة فى ذلك اليوم . ثم وضع زيه العسكرى داخل الحقيبة قل أن يعود أدراجه إلى مكتب الاستقبال حيث سلم المفتاح وسدد الفاتورة نقدا وغادر الفندق .

استقل سيارة أجرة أخرى عاد بها إلى كينسينجتون حيث شعر الحلاق بخيبة أمل عندما علم أن زبونه الجديد كان يريد أن يمحو كل التغييرات التى طلب منه القيام بها فى وقت سابق ؛ كان يريد أن يفرد التمويج ويعيد الفارق إلى الجانب الآخر .

كانت آخر محطة توقف فيها دانيال قبل العودة إلى المنزل هى بناء مهجور فى بيمليكو . وقف خلف رافعة ضخمة وعندما تأكد أنه

بعيد تماما عن كل الأنظار ؛ ألقى الزى العسكرى فى سلة المهملات وأحرق الصورة .

وقف يرتجف وهو يتأمل صورة والده وهى تختفى بفعل ألسنة اللهب .

السيدة ترينثام

١٩٣٨ - ١٩٤٨

الفصل

٣٢

" هدفى من وراء دعوتك إلى يوركشاير فى عطلة نهاية الأسبوع هذه هو أن أعلمك بكل ما عزمت عليه فى الوصية " .

كان أبى يجلس خلف مكتبه بينما كنت أنا أجلس على المقعد الجلدى المواجه له ؛ المقعد الذى كان دائما مقعد أمى المفضل . كان قد أطلق علىّ اسم مارجريت إيثيل تيمنا باسمها وكان هذا هو كل وجه الشبه الوحيد الذى يربط بيننا ؛ لم يكن يكف أبدا عن تذكيرى بذلك . أخذت أتأمله بإمعان وهو يضغط التبغ فى غليونه المصنوع من جذر الخلنج الشجرى وأسأل نفسى عما يمكن أن يقوله . مضى بعض الوقت قبل أن ينظر إلىّ ثانية ويقول : " لقد قررت أن أترك كل ثروتى لـ " دانيال ترامبر " .

ذهلت من هذا القرار حتى إننى بقيت صامتة على مدى عدة دقائق بحثا عن رد مقبول .

" ولكن يا أبى ؛ بعد وفاة جاى أظن أن نيجيل يجب أن يكون هو الوريث الشرعى ؟ "

" كان دانيال سيكون الوريث الشرعى إن كان ابنك قد قام بالتصرف اللائق . كان جاى يجب أن يعود من الهند ويتزوج الآنسة سالمون فى الوقت الذى عرف فيه أنها سوف تنجب طفلا " .

قلت معترضة : " ولكن ترامبر هو والد دانيال يا أبى . إنه يعترف بذلك دائما كما أن شهادة الميلاد ـــ " .

" إنه لم ينكر أبدا ؛ أؤكد لك ذلك . ولكن لا تخدعينى يا إيثيل . شهادة الميلاد فقط هى التى تثبت ذلك ؛ فعلى النقيض من ابنك ؛ تشارلى ترامبر يملك قدرا من الإحساس بالمسئولية . وعلى أية حال ؛ فإن كل من رأى جاى فى سنواته الأولى وتتبع دانيال فى مراحل نموه لا يمكن أن يشك فى أن ثمة علاقة تربط بين الاثنين " .

لم أكن واثقة من أننى سمعت والدى بشكل دقيق فقلت : " هل رأيت بالفعل دانيال ترامبر ؟ " .

" أجل رأيته " ، هكذا أجاب أبى وكأنه يقر أمرًا واقعًا ثم التقط علبة الثقاب من فوق مكتبه وأضاف : " لقد قمت بزيارة سانت بول فى مناسبتين متفرقتين . زرتها ذات مرة عندما كان دانيال مشاركا فى أحد العروض الموسيقية وجلست وراقبته عن كثب لأكثر من ساعتين ؛ لقد كان جيدا للغاية فى واقع الأمر . وبعدها بسنة فى يوم الفاوندر عندما فاز بجائزة نيوتين للرياضيات ؛ رأيته بصحبة والديه فى حفل الشاى الذى أقيم فى حديقة ناظر المدرسة . وعلىّ أن أقر بأن الفتى لا يشبه جاى شكلا فقط وإنما أيضا يحمل بعض سماته المميزة فى التصرف " .

" ولكن نيجيل يستحق بكل تأكيد أن يعامل باعتباره ندًا له " . قلت ذلك معترضة وأنا أقدح زناد فكرى فى محاولة للتوصل إلى رد معقول يمكن أن يحث أبى على إعادة التفكير .

أجاب أبى : " نيجيل ليس ندا له ولن يكون كذلك أبدا " ، وهو يضرب عود الثقاب قبل أن يشرع فى مرحلة ضرب الثقاب اللانهائية التى تسبق دائما محاولة إشعال الغليون وأضاف : " دعينا لا نخدع أنفسنا يا إيثيل ؛ فكلنا يعلم جيدا ومنذ فترة أنه حتى لا يستحق منصبا فى مجلس عائلة هاردكاسيل ؛ ناهيك عن كونه يمكن أن يكون خليفة لى " .

وبينما كان أبى ينفث دخان غليونه فى حماس ؛ أخذت أتأمل صورة الحصانين المعلقين فوق الجدار وأحاول استجماع أفكارى .

" أنا واثق أنك لم تنسى يا عزيزتى أن نيجيل رسب حتى فى اجتياز اختبار ساندهورست الذى عرفت أنه أصبح يتطلب بعض الإجراءات الآن . كما أننى أخبرت مؤخرا أنه قد بقى فى وظيفته الحالية مع كيتكات وإيتكين لأنك أوهمت الشريك الأكبر بأنه سوف يتولى إدارة أعمال عائلة هاردكاسيل " . كان يقول كل عبارة وهو ينفث دخان غليونه وأضاف : " وأؤكد لك أن هذا لن يحدث أبدا " .

وجدت نفسى عاجزة عن النظر إليه مباشرة وأخذت عينى بدلا من ذلك تتنقلان بين الأشياء المعلقة فوق الجدار خلف المكتب وصفوف الكتب اللانهائية التى قضى أبى عمره فى جمعها . ديكنز ؛ كل طبعة أولى صدرت لـ " ديكنز " ، وهنرى جيمس ، وهو كاتب حديث كان أبى معجبا به ، وأيضاً أعمال لا تحصى

لـ " بليك " بدءاً بالوصف والخطابات الثمينة التى خطها بيده وحتى طباعاته الخالدة . ثم حان دور الصدمة الثانية .

واصل حديثه قائلاً : " بما أنه لا يوجد عضو فى العائلة يمكن أن يخلفنى كرئيس للشركة فقد خلصت بعد تردد أنه فى ضوء الوقوع الوشيك للحرب إلى أننى يجب أن أعيد التفكير فى مستقبل شركة هاردكاسيل " ، وكانت رائحة الدخان النفاذة تملأ المكان .

قلت فى عدم تصديق : " لن تسمح للعمل أبدا أن يؤول إلى أى أحد إن كان أبوك .... " .

" كان أبى سيقوم بالتصرف الأمثل لكل الأطراف المعنية وكان سيتجنب بعض الأقارب القريبين فى قائمة أولوياته إن كانوا لا يملكون الصفات المناسبة " ، ورفض غليونه أن يبقى مشتعلا فأشعل عوداً آخر من الثقاب . أخذ يحاول مع عدة أعواد قبل أن ترتسم نظرة الرضا على وجهه وبدأ يستطرد حديثه : " لقد شاركت فى مجال إدارة بنوك هاروجيت هولاج ويوركشاير على مدى عدة سنوات ومؤخرا فى مجلس إدارة جون براون الهندسى وأظن أننى قد وجدت أخيرا الشخص الذى يستحق أن يخلفنى . قد لا يكون ابن السير جون مديرا مبدعا ولكنه يملك أدوات القيادة فضلا عن أنه من يوركشاير . على أية حال لقد خلصت إلى أن دمج الشركتين سوف يكون الحل الأمثل للجميع " .

كنت مازلت عاجزة عن النظر إلى أبى مباشرة لأننى كنت مازلت أسعى لاستيعاب كل ما كان يقوله .

أضاف أبى : " لقد قدموا لى عرضا جيدا مقابل الحصص التى أملكها وهو ما سوف يدر عليك أنت وإيمى بمرور الوقت دخلا سوف يفى وربما يفيض عن كل احتياجاتكما بعد رحيلى " .

" ولكن يا أبى نحن نأمل أن يمتد بك الأجل لسنوات عديدة أخرى " .

" لا تشغلى بالك بذلك يا إيثيل ؛ لا تسعى لخداع رجل مسن يعلم أن الموت لا يمكن أن يكون بعيدا . ربما أكون قد طعنت فى السن ولكننى مازلت أتمتع بكامل قواى العقلية " .

اعترضت ثانية وقلت : " أبى " . ولكنه ببساطة عاد إلى نفث دخان غليونه متجاهلا ثورتى . فعمدت إلى خدعة أخرى .

" هل هذا يعنى أن نيجيل لن يرث شيئا " .

" سوف يحصل على ما أراه أنا مناسبا فى ظل هذه الظروف " .

" لم أفهم ما تعنيه جيدا يا أبى " .

" إذن سوف أشرح لك ما أعنيه . لقد تركت له خمسة آلاف جنيه باسمه يمكن أن يتصرف فيها كيفما يحلو له بعد وفاتى " ، ثم صمت كما لو كان يفكر إن كان يجدر به أن يضيف المزيد وقال أخيرا : " لقد أنقذتك على الأقل من بعض الشعور بالحرج ، بالرغم من أن دانيال - بعد موتى - سوف يرث ثروتى كاملة ؛ فإنه لن يعرف شيئا عن هذا الأمر قبلما يبلغ الثلاثين من عمره وعندها سوف تكونين قد تخطيت السبعين من عمرك بكثير وربما تجدين عندها سهولة أكبر فى تقبل قرارى " .

اثنتا عشرة سنة أخرى ؛ فكرت بينما فرت دمعة من عينى وسالت على خدى .

" لا تزعجى نفسك بالبكاء أو العصبية أو حتى التفكير فى تبرير منطقى لهذا الأمر يا إيثيل " ، ثم نفث سحابة دخان طويلة وأضاف : " لقد حسمت أمرى ولن تثنينى أية كلمة أو تصرف منك عما عزمت عليه " .

كان دخان غليونه قد تطاير بعيدا فى ذلك الوقت وكأنه قطار سريع . واستخرجت منديلا من حقيبتى أملا أن يمنحنى بعض الوقت للتفكير .

أضاف : " فإن خطر لك التشكيك فى الوصية فى أى وقت لاحق بناء على أننى قد فقدت صوابى " ـ ارتسمت علىّ علامات الذهول ـ " وهو ما لا تتوانين عن فعله ، فيجب أن تضعى فى اعتبارك أن السيد بافرستوك هو الذى كتب الوصية كما أننى اخترت قاضياً متقاعداً كان أحد أعضاء مجلس الوزراء وربما الأهم من ذلك كله أنه إخصائى أمراض عقلية فى شيفلد ، لكى يكون شاهدا على الوصية " .

كنت على وشك إبداء المزيد من الاعتراض عندما سمعنا نقراً رقيقاً على باب الغرفة دخلت على إثره إيمى .

" أعتذر عن مقاطعتك يا أبى ولكن هل تود تناول الشاى فى غرفة الاستقبال أم تفضل تناوله هنا ؟ " .

ابتسم أبى لأختى الكبرى وقال : " فى غرفة الاستقبال يا عزيزتى " ، قالها بنبرة أكثر رقة من أى نبرة سبق وتحدث بها معى . ثم نهض فى غير توازن من وراء مكتبه وأفرغ غليونه فى أقرب طفاية وبدون أن يضيف كلمة أخرى سار خلف أختى ببطء نحو الغرفة .

بقيت غير قادرة على الاندماج فى الحديث أثناء تناول الشاى وأنا أسعى للتفكير فى كل ما ينطوى عليه حديث أبى . أما إيمى فى المقابل ، فقد أخذت تتحدث فى سعادة عن تأثير نقص كمية الأمطار الأخيرة على الزهور التى كانت تقع فى الحوض أسفل حجرة نوم أبى مباشرة . أسرت إلينا فى نبرة قلقة : " إنها لا ترى

الشمس فى أى وقت من النهار " ، بينما قفزت قطتها فوق الأريكة واستقرت فى حجرها . تلك القطة العجوزة التى كنت دائمة النسيان لاسمها كانت تحطم أعصابى ولكننى لم أكن أجرؤ على إظهار تذمرى لأننى كنت أعرف أنها أقرب مخلوق لـ " إيمى " بعد أبى . بدأت تربت على القطة غير مدركة بالطبع لمدى الاضطراب الذى كنت أشعر به نتيجة للحوار الذى دار بينى وبين أبى فى مكتبه .

آويت إلى فراشى فى وقت مبكر من مساء ذلك اليوم وقضيت ليلة مؤرقة وأنا أحاول أن أبذل جهدى لكى أتوصل إلى الحل الوحيد الذى بقى ممكنا . أقر أننى لم أكن أتوقع الحصول على شىء ذى قيمة من الوصية لنفسى أو لـ " إيمى " لأننا كنا فى الستينات من العمر ولم يكن أى منا بحاجة إلى دخل إضافى . ومع ذلك ، فإننى كنت أتوقع دائما أن أحصل على المنزل والتركة بينما يحصل جاى على الشركة ومن بعده نيجيل .

وبحلول الصباح كنت قد توصلت بعد طول تفكير إلى أنه لم يكن بوسعى أن أفعل الكثير حيال القرار الذى اتخذه والدى . إن كان السيد بافرستوك هو الذى كتب الوصية ، وهو صديقه ومحاميه القديم ، فهذا يعنى أن أكثر المحامين حنكة لن يجد أى ثغرة قانونية . بدأت أدرك أن أملى الوحيد فى إنقاذ حق نيجيل الشرعى هو أن أتخلص من دانيال ترامبر نفسه .

إن أبى ـ على أية حال ـ لن يعيش إلى الأبد .

جلسنا بمفردنا فى أحد الأركان المظلمة من الغرفة . بدأ يطرقع مفاصل أصابع يده اليمنى واحدة بواحدة .

" وأين هو الآن ؟ " ، طرحت هذا السؤال وأنا أنظر إلى الرجل الذى دفعت لـه آلاف الجنيهات منذ أن قابلته للمرة الأولى منذ عشرين عاما . كان مازال يحضر للقاءاتنا الأسبوعية فى سانت آجنس وهو يرتدى ما بدا لى أنها نفس السترة البنية المصنوعة من التويد ونفس رابطة العنق حتى بالرغم من اقتنائه ـ على ما يبدو ـ مؤخرا لقميص أو قميصين جدد . وضع كأس الشراب الذى كان يحتسيه واستخرج لفافة بنية ورقية من تحت الكرسى وقدمها لى .

" كم دفعت لكى تستردها ؟ " .

" خمسين جنيها " .

" ألم أقل لك ألا تعرض أكثر من عشرين جنيها بدون الرجوع إلىَّ ؟ " .

" أعرف ولكن كان هناك تاجر من الطرف الغربى يحوم حول المتجر فى ذلك الوقت . لم يكن بوسعى أن أجازف ، أليس كذلك ؟ " .

لم أصدق للحظة أن الصفقة قد كلفت هاريس خمسين جنيها . ومع ذلك فقد قبلت كونه أدرك مدى أهمية الصورة بالنسبة لخططى المستقبلية .

سألنى : " هل تودين أن أسلم الصورة إلى الشرطة ؟ يمكننى عندها أن ألمح إلى بعض الأمور التى ربما ــــ " .

" بالطبع لا . إن الشرطة لا تعرف السرية فى مثل هذه الأمور . فضلا عن أن ما أعددته لـ " ترامبر " من المهانة يتعدى مجرد استجواب سرى خاص فى سكوتلاند يارد " .

مال السيد هاريس على كرسيه الجلدى القديم وبدأ يطرقع مفاصل يده اليسرى .

" هل هناك شيء آخر تود أن تخبرنى به ؟ " .

" لقد التحق دانيال ترامبر بمنصبه فى جامعة ترينيتى . وتحديدا فى نيو كورت ؛ المدرج ب ؛ الغرفة رقم ٧ " .

" كان كل هذا مدونا فى تقريرك الأخير " .

توقف كلانا عن الحديث عندما نهض شخص مسن لكى يلتقط مجلة من أحد الموائد القريبة .

" كما أنه بدأ مؤخرا يكثر من لقاء فتاة تدعى مارجورى كاربنتر . إنها طالبة رياضيات فى السنة الثالثة من جامعة سيرتون " .

" حقا ؟ حسنا ؛ إن بدأت العلاقة تتخذ شكلا جديا أعلمنى فى الحال وعندها يمكنك أن تشرع فى فتح ملف خاص بها " . أخذت أتلفت حولى لكى أتأكد أننا بعيدان عن الأسماع . بدأ التشويش ثانية واستدرت لكى أجد هاريس قد ثبت عينيه علىَّ .

سألته وأنا أصب لنفسى كوبا آخر من الشاى : " هل هناك ما يقلقك ؟ " .

" حسناً ؛ لكى أكون صريحاً معك يا سيدة ترينشام ، أشعر أن الوقت قد حان لكى أطالب بعلاوة مقابل عملى . فأنا ـ كما تعلمين ـ مطالب بتكتم العديد من الأسرار " ، وتردد للحظة ثم استطرد : " أسرار يمكن أن .... " .

" يمكن ماذا ؟ " .

" يمكن أن تكون بنفس الدرجة من القيمة لأطراف أخرى " .

" هل هذا تهديد يا سيد هاريس ؟ "

" بالطبع لا يا سيدة ترينشام ؛ هذا فقط ــــــ " .

" سوف أقولها لك للمرة الأولى والأخيرة يا سيد هاريس . إن كشفت لأى شخص عن أى شيء وقع بيننا فلن يكون رفع الأجر هو الأمر الذى عليك أن تقلق نفسك بشأنه وإنما طول الفترة التى سوف تقضيها فى السجن . لأننى أنا أيضا احتفظت بملف ضدك والذى أظن أنه سوف يثير شغف بعض زملائك القدامى . ولعل من بين هذه الأشياء رهن صورة مسروقة والتخلص من معطف عسكرى بعد ارتكاب الجريمة . هل هذا واضح ؟ " .

لم يجب هاريس وإنما فقط عاد ليطرقع أصابعه من جديد واحدا تلو الآخر .

وبعدها بأسابيع ؛ بعد إعلان الحرب عرفت أن دانيال ترامبر قبل تجنب التجنيد . وعرفت أنه أصبح يخدم فى متنزه بليتشلى بارك وراء أحد المكاتب مما كان يعنى أنه لن يتعرض لصراع دامٍ مع العدو ما لم تسقط قنبلة فوق رأسه مباشرة .

ولكن ما حدث هو أن الألمان نجحوا فى إسقاط قنبلة فى منتصف الشقق التى كنت أملكها مما دمرها تماما . تحول غضبى للوهلة الأولى من هذه الكارثة إلى سعادة عندما شاهدت الفوضى التى أخلفتها هذه القنبلة فى شارع تشيلسيا . على مدى أيام عديدة كنت أشعر بسعادة غامرة من مجرد وقوفى فى الجانب المقابل من الطريق ومراقبة هذا العمل الرائع الذى قام به الألمان .

وبعدها بأسابيع قليلة حان دور الموسكيتير ومحل ترامبر للخضراوات والفاكهة للتجرع من نفس الكأس الألمانى . كانت النتيجة الوحيدة المهمة لهذا الحدث هى تطوع تشارلى ترامبر للخدمة فى سلاح الرماية فى الأسبوع التالى . ولكننى بقدر ما كنت أتوق

للتخلص من دانيال ترامبر برصاصة طائشة كنت أتمنى أن يبقى تشارلى ترامبر على قيد الحياة لكى أذيقه ألوان المهانة العلنية التى كنت قد أعددتها له .

لم يكن هاريس بحاجة لأن يخبرنى بالموعد الذى تحدد لـ " تشارلى ترامبر " فى وزارة التغذية لأنه كان منشورا فى كل الصحف القومية . ومع ذلك فإننى لم أسع لاستغلال فترة غيابه الطويلة لأننى لم يكن لدىّ أية مدعاة إلى اكتساب المزيد من المتلكات فى شارع تشيلسيا أثناء الحرب فضلا عن أن تقارير هاريس الشهرية كانت تشير إلى أن ترامبر كان يخسر باطراد .

وفجأة فى الوقت الذى كنت فيه أقل تأهبا ؛ توفى والدى إثر نوبة قلبية . فأرجأت كل مخططاتى فى الحال وهرعت إلى يوركشاير لكى أراجع استعدادات الدفن .

وبعدها بيومين قدت مراسم العزاء . وبما أننى كنت رأس العائلة فقد جلست فى الطرف الأيسر من المقصورة الأمامية من الكنيسة بصحبة ديرالد بينما جلس نيجيل عن يمينى . حضر مراسم الجنازة كل أفراد العائلة والأصدقاء وشركاء أبى فى العمل بما فى ذلك السيد بافرستوك الوقور حاملا حقيبة عمله التى لاحظت أنه كان يحرص دائما على ألا تغيب عن ناظره . لم تتمالك إيمى التى كانت تجلس فى الصف الذى يلينى مباشرة نفسها عند سماع خطبة الأشيدوق إلى الحد الذى جعلنى واثقة من أننى إن لم أسع للتخفيف عنها لما كانت قد تمكنت من المضى قدما حتى نهاية اليوم .

وبعد انصراف المعزون قررت أن أبقى فى يوركشاير لبعض أيام قليلة أخرى بينما عاد جيرالد ونيجيل إلى لندن . قضت إيمى معظم وقتها فى غرفة نومها مما منحنى فرصة للتجول فى كل أنحاء المنزل

وتفقد كل الأشياء ذات القيمة الحقيقية التى يمكننى إنقاذها قبل العودة إلى آشورست . فإن كل هذه الممتلكات ـ بعد تنفيذ الوصية ـ سوف تقسم على أسوأ افتراض بينى أنا وإيمى .

وجدت مجوهرات والدتى التى كان من الواضح أنها لم تمس منذ وفاتها وتلك اللوحة القيمة التى كانت لاتزال معلقة فوق جدار غرفة مكتب أبى . وأخرجت المجوهرات من غرفة نوم والدى ، أما بالنسبة للوحة فقد وافقت إيمى ـ أثناء تناولها لعشاء خفيف فى غرفتها ـ أننى فى الوقت الراهن يمكن أن أعلقها فى آشورست . كان الشىء الوحيد ذو القيمة الحقيقية الذى كان مازال متبقيا من وجهة نظرى هو مكتبة أبى الرائعة . بالرغم من أنه كان لدىَّ خطط طويلة المدى لتلك المجموعة فإن هذه الخطط كانت بعيدة عن بيع أى كتاب من هذه الكتب .

فى بداية الشهر سافرت إلى لندن لكى أحضر قراءة الوصية لدى بافرستوك وديكنز وكوب بشكل رسمى .

أصيب السيد بافرستوك بخيبة أمل لغياب إيمى التى شعرت أنها غير قادرة على قطع الرحلة إلى هناك ولكنه تقبل كون أختى لم تفق بعد بشكل كاف من صدمة وفاة والدى . جلس العديد من أقاربنا الذين لم يكن قد سبق لى مقابلتهم إلا فى حفلات الميلاد والزواج والجنازات وقد ارتسمت عليهم علامات التفاؤل . كنت أعلم تحديدا ما الذى كان فى انتظارهم .

استغرق السيد بافرستوك أكثر من ساعة فيما بدا لى على أنه أمر هين بالرغم من أننى يجب أن أقر أنه نجح ببراعة تامة فى تجنب ذكر اسم دانيال ترامبر عندما تعرض لشرح المصير الذى سوف تؤول إليه التركة . بدأ عقلى يتشتت بينما كان الأشخاص الذين تربطنا

بهم قرابة بعيدة يستمعون إلى مبلغ الألف جنيه الذى هبط عليهم من السماء ولم أسترد انتباهى الكامل إلا عندما أفقت على صوت السيد بافرستوك الرنان وهو ينطق اسمى .

" السيدة جيرالد ترينشام والآنسة إيمى هاردكاسيل سوف تحصلان مدى الحياة بالتساوى على الدخل الذى سوف تدره الوصية " ، ثم توقف المحامى وقلب الصفحة قبل أن يضع راحة يده فوق المكتب ويضيف : " وأخيرا سوف يؤول المنزل وأرض يوركشاير وكل محتوياته بالإضافة إلى مبلغ عشرين ألف جنيه إلى ابنتى الكبرى الآنسة إيمى هاردكاسيل " .

الفصل

٣٣

" صباح الخير يا سيد سنيدلز " .

فوجئ رجل المكتبة العجوز بتلك السيدة التى تعرف اسمه حتى أنه وقف مشدوهًا للحظة يحدق فيها .

ولكنه أخيرا تقدم ليحيى السيدة منحنيا قليلا . كانت - على أية حال - أول زبون يدخل مكتبته منذ أسبوع كما لو كان لا يعتد بالدكتور هالكومب ؛ ناظر المدرسة المتقاعد الذى كان يبقى فى المكتبة لساعات لتصفح الكتب والذى لم يكن قد اشترى كتابا واحدا منذ عام ١٩٣٧ .

قال بدوره : " صباح الخير يا سيدتى . هل هناك مجموعة معينة تبحثين عنها ؟ " ، ثم نظر إلى السيدة التى كانت ترتدى ثوبا ذا رباط طويل وقبعة رأس عريضة وحجابًا كان يجعل من المستحيل عليه أن يتبين وجهها .

قالت السيدة ترينثام : " كلا يا سيد سنيدلز لم أحضر إلى هنا لشراء كتاب وإنما طلبا لخدماتك " . وقفت تتأمل الرجل العجوز ذا الظهر المحنى وهو يرتدى قفاز يديه وسترته الصوفية ومعطفه الخارجى الذى افترضت أنه يرتديه لأنه لم يعد قادرا على تدفئة محله . وبالرغم من أن ظهره كان يبدو دائما فى شكل شبه دائرى ورأسه كان يتدلى من معطف وكأنه سلحفاة تطل من تحت قوقعتها ؛ كانت عيناه تبرقان وعقله يبدو حادا ويقظا .

كرر الرجل العجوز : " خدماتى يا سيدتى ؟ "

" نعم . لقد ورثت مكتبة كبيرة أريد أن تتفقدها وتقيمها . عرفت أنك أقدر شخص يمكن أن يؤدى هذه المهمة " .

" هذا لطف منك يا سيدتى " .

شعرت السيدة ترينثام بالارتياح لأن السيد سنيدلز لم يسألها عن اسم الشخص الذى ذكر لها بأنه الأقدر على هذه المهمة .

" وهل لى أن أعرف أين توجد هذه المكتبة ؟ " .

" على بعد أميال قليلة من شرق هاروجيت . إنها تحوى مجموعة مذهلة من الكتب . لقد كرس أبى الراحل - السير رايموند هاردكاسيل ، ربما تكون قد سمعت به - الكثير من وقته فى إنشاء هذه المكتبة " .

" هاروجيت ؟ " ، قال سنيدلز ذلك وكأنه يتحدث عن مكان على بعد أميال قليلة من شرق بانكوك .

" سوف أغطى كل التكاليف بالطبع مهما تطلب الأمر " .

" ولكن هذا قد يتطلب إغلاق المحل " ، قالها وكأنه يهمس لنفسه .

" كما أننى بالطبع سوف أعوضك عن أية خسارة فى دخلك " .

استخرج السيد سنيدلز كتابا من النضد وأخذ يدقق فيه : " أخشى أن هذا لن يكون ممكنا يا سيدتى ؛ بل ومستحيل ؛ فكما ترين ـــ " .

" إن أبى كان متخصصا فى مؤلفات ويليام بليك . سوف ترى بنفسك أنه قد نجح فى اقتناء النسخ الأولى من كل مؤلفاته ؛ مازال الكثير منها فى حالة ممتازة . بل إنه يحتفظ بنسخة يدوية من .... " .

* * *

كانت إيمى هاردكاسيل قد آوت إلى فراشها حتى قبل موعد وصول أختها من يوركشاير فى مساء ذلك اليوم .

قالت مديرة المنزل : " أصبحت سريعة التعب هذه الأيام " .

لم يكن أمام السيدة ترينشام إلا أن تتناول عشاء خفيفا بمفردها قبل أن تدخل غرفتها القديمة بعد العاشرة بدقائق قليلة . لم يكن شيء قد تغير ؛ النافذة المطلة على الوادى والسحب السوداء وحتى صورة يورك مينستر المتدلية فوق السرير المؤطر بالجوز . نامت فى هدوء وهبطت إلى الدور السفلى فى الثامنة من صباح اليوم التالى . وقد شرح لها الطاهى أن الآنسة إيمى لم تنهض بعد ، فتناولت الإفطار بمفردها .

بعد إزالة كل الأطباق الموضوعة ؛ جلست السيدة ترينشام فى غرفة الاستقبال تقرأ صحيفة يوركشاير بوست فى انتظار أختها . عندما ظهرت القطة العجوز بعدها بأكثر من ساعة ؛ صرفتها السيدة ترينشام بإشارة شريرة بالصحيفة المطوية التى كانت تحملها فى

يدها . كانت ساعة الجد المعلقة فى البهو قد دقت الحادية عشرة بالفعل عندما دخلت إيمى أخيرا الغرفة . سارت ببطء نحو أختها متكئة على عصا .

بدأت حديثها قائلة : " أنا آسف للغاية يا إيثيل ؛ لأننى لم أكن فى انتظارك البارحة عند عودتك . ولكننى أعانى من آلام التهاب المفاصل ثانية " .

لم تزعج السيدة ترينشام نفسها بالرد ولكنها أخذت تتأمل أختها وهى تعرج نحوها غير مستوعبة كل هذا التدهور الذى ألم بصحتها فى أقل من ثلاثة أشهر .

وبالرغم من أن إيمى كانت تبدو دائماً نحيفة ، فإنها بدت الآن هزيلة . وبالرغم من أنها كانت دائماً هادئة الطبع ، فإنها أصبحت الآن غير مسموعة . كما أنها بالرغم من كونها تبدو شاحبة بعض الشيء ، فإنها أصبحت رمادية اللون ، كما أن تجاعيد وجهها كانت عميقة إلى الحد الذى كان يبديها أكبر كثيراً من التسعة وستين عاماً التى تمثل عمرها الحقيقى .

جلست إيمى بتؤدة فوق المقعد المجاور لأختها وبقيت لثوان تسعى لالتقاط أنفاسها مما أكد لأختها أن رحلة سيرها من غرفتها إلى غرفة الاستقبال كانت بلا شك بالغة المشقة .

" ياله من لطف منك أن تتركى أسرتك وتأتى لتكونى معى هنا فى يوركشاير " قالت إيمى ذلك بينما قفزت الهرة العجوز فى حجرها وأضافت : " يجب أن أعترف أنه منذ وفاة والدى العزيز لا أدرى كيف أتدبر أمرى " .

قالت السيدة ترينشام بابتسامة مقتضبة : " هذا مفهوم يا عزيزتى ، ولكننى شعرت أن أقل واجب يجب أن أقوم به هو أن

أبقى بصحبتك كما أن هذا أيضا من دواعى سرورى . على أية حال ؛ لقد حذرنى أبى من أن هذا سوف يحدث بمجرد وفاته . وقد أعطانى تعليمات محددة بشأن ما يجب عمله فى مثل هذه الظروف " .

أضاء وجه إيمى للمرة الأولى وقالت : " يسعدنى سماع ذلك . أرجوك أخبرينى بما كان أبى يفكر فيه " .

" كان أبى حريصا على أن تبيعى المنزل بأسرع ما يمكن وإما أن تأتى للعيش معى أنا وجيرالد فى آشورست أو ـــــ " .

" كلا لا يمكن أن أتصور أن أسبب لك كل هذا الإزعاج يا إيثيل " .

" ـــــ أو أن تقيمى فى إحدى هذه الدور الصغيرة على الساحل التى تعتنى بالأزواج المسنين أو الأشخاص الذين يعيشون بمفردهم . لقد شعر أن هذه الطريقة سوف تمكنك على الأقل من اكتساب صداقات جديدة وحتى الحصول على دخل إضافى مدى الحياة . إنى بالطبع أفضل أن تأتى للعيش معنا فى باكينجهام ولكن هذه القنابل ـــــ " .

همست إيمى فى توجس : " إنه لم يذكر لى أبدًا أمر بيع المنزل ، بل إنه فى الواقع توسل إلى أن ـــــ " .

" أعلم يا عزيزتى ولكنه كان يدرك تماما كيف أن موته سوف يكون بمثابة صدمة بالنسبة لك ، لذا فقد طلب منى أن أفاتحك أنا فى هذا الأمر بمنتهى الرفق . أنت تذكرين بكل تأكيد لقاءنا فى مكتبه عندما جئت لزيارته فى المرة الأخيرة " .

أومأت إيمى بعلمها ولكن نظرة الحيرة بقيت مرتسمة على وجهها .

واصلت السيدة ترينثام : " إننى أتذكر كل كلمة قالها لى أبى ، وبالطبع سوف أبذل قصارى جهدى لكى أنفذ كل رغباته " .

" ولكننى لا أدرى من أين أو كيف أبدأ " .

" ليس هناك حاجة لأن تفكرى فى الأمر ثانية يا عزيزتى " ، ثم ربتت على ذراع أختها وقالت : " هذا هو تحديدا السبب الذى جئت من أجله " .

" ولكن ما هو مصير الخدم وعزيزتى جاريبالدى ؟ " ، هكذا سألت إيمى فى قلق وهى تواصل التربيت على قطتها وأضافت : " لن يسامحنى أبى أبدا إن لم أعتن بهم بالشكل اللائق " .

قالت السيدة ترينثام : " أوافقك تماما يا عزيزتى . ومع ذلك بما أن أبى كان يحرص دائما على التفكير فى كل التفاصيل فقد أخبرنى بتعليمات محددة فيما يخص كل العاملين لدينا " .

" كم كان أبى العزيز حنونا . ومع ذلك فإننى لست واثقة فى المقام الأول من أن ـــــ " .

استغرقت السيدة ترينثام يومين آخرين من التشجيع الصبور قبل أن تنجح فى إقناع أختها فى النهاية أن خططها المستقبلية هى الأفضل بالنسبة لها والأهم من ذلك أنها كانت رغبة " والدهما العزيز " .

منذ هذا الوقت لم تكن إيمى تهبط من غرفتها إلا فى وقت الظهيرة لكى تأخذ جولة صغيرة فى الحديقة وأحيانا لكى تشهد العناية ببعض أعمال الحديقة . وكانت السيدة ترينثام كلما رأت أختها ، رجتها ألا تشق على نفسها .

وبعدها بثلاثة أيام ، تخلت إيمى عن جولات الظهيرة .

وفى اليوم التالى ؛ أخطرت السيدة ترينشام كل طاقم العاملين بمهلة لمدة أسبوع لترك العمل باستثناء الطاهى الذى طلبت منه البقاء لحين تدبر أمر الآنسة إيمى . وفى نفس اليوم بحثت عن سمسار محلى وعرضت المنزل والأراضى المحيطة به الممتدة لمساحة ستين فدانًا للبيع .

فى الخميس التالى ؛ حددت السيدة ترينشام موعدا لمقابلة شخص يدعى السيد ألثويت ؛ كان يعمل محاميا فى هاروجيت . وفى إحدى زيارات أختها القليلة للطابق السفلى ؛ شرحت السيدة ترينشام لأختها أنه ليس هناك داعٍ لأن تنزعج السيد بافرستوك بما يجرى لأنها كانت قادرة على حل أية مشاكل بسيطة يمكن أن تظهر بشأن الأرض بواسطة أى محام محلى .

وبعدها بثلاثة أسابيع نجحت السيدة ترينشام فى نقل أختها والقليل من مقتنياتها إلى مقر إقامة صغير يطل على الساحل الشرقى على بعد أميال قليلة شمال سكاربوروف . وقد أبدت المالك فى أنه كان من المؤسف بالفعل ألا يسمح بتواجد الحيوانات المنزلية وبأن أختها سوف تتفهم الأمر تماما . وكانت آخر تعليمات أصدرتها السيدة ترينشام هى إرسال فواتير الحساب إلى كاوتز فى ستراند مباشرة حيث سوف يتم تسديدها فى الحال .

قبل أن تودع السيدة ترينشام إيمى ؛ طلبت من أختها أن توقع على ثلاثة مستندات وقالت بنبرة رقيقة : " حتى لا تزعجى نفسك أبدا بمثل هذه الأمور يا عزيزتى " .

وقعت إيمى على المستندات الثلاثة الموضوعة أمامها بدون أن تشغل نفسها بقراءتها . وبسرعة طوت السيدة ترينشام الأوراق

القانونية التى كان المحامى المحلى قد أعدها ووضعتها داخل حقيبة يدها .

قالت لـ " إيمى " قبل أن تقبلها على مقدمة رأسها : " أراك قريباً " . وبعدها بدقائق ؛ بدأت رحلة العودة إلى آشورست .

دق جرس الباب محدثا ضوضاء مدوية شقت صمت المتجر عندما خطت السيدة ترينشام بأناقة داخل المتجر . فى البداية لم تكن هناك إشارة تنم عن وجود أى شخص إلى أن ظهر السيد سنيدلز أخيرا من داخل إحدى الغرف الصغيرة الواقعة فى مؤخرة المحل حاملا ثلاثة كتب تحت ذراعه .

قال : " صباح الخير يا سيدة ترينشام . كم كان لطفا منك أن تلبى دعوتى بمثل هذه السرعة . شعرت أننى يجب أن أتصل بك فى حالة وقوع أية مشكلة " .

" مشكلة ؟ " ، رفعت السيدة ترينشام الحجاب الذى كان يغطى وجهها .

" نعم . فكما تعرفين أنا شبه استكملت عملى فى يوركشاير وأنا آسف لأننى استغرقت كل هذا الوقت يا سيدتى وكان هذا إسرافا منى ولكن تقديرى لـ ـــــ " .

أشاحت السيدة ترينشام بيدها فى إشارة تنم عن عدم انزعاجها .

واصل حديثه قائلاً : " وأخشى أنه بالرغم من تعيين السيد هالكومب لمساعدتى وبالنظر إلى الوقت المستغرق للسفر من وإلى يوركشاير قد نكون بحاجة لعدة اسابيع أخرى لتصفح وتقييم

مجموعة كتب بمثل هذه القيمة . نحن نضع فى الاعتبار دائما أن والدك الراحل قد قضى عمره فى جمعها " .

قالت السيدة ترينثام مؤكدة : " أنا لست فى عجلة من أمرى . خذ كل الوقت الذى تراه مناسبا يا سيد سنيدلز وأعلمنى فور إنهاء مهمتك " .

ابتسم تاجر التحف عندما أدرك أنه سوف يواصل تصفح الكتب بدون أن يكون عليه قطع هذه المهمة .

وقاد السيدة ترينثام ثانية إلى مقدمة المحل وفتح لها باب الخروج . كان لا يمكن لكل من يرى الاثنين معا أن يتصور أنهما قد ولدا فى عام واحد . نظرت يمنة ويسرة فى شارع تشيلسيا قبل أن تسقط الحجاب فوق وجهها ثانية .

أغلق السيد سنيدلز الباب وراءها وشمر عن ساعديه ثم انزوى ثانية فى الغرفة مع الدكتور هالكومب .

كان يشعر مؤخرا بالانزعاج كلما دخل عليه عميل المحل .

" بعد ثلاثين عاما ، ليس لدىّ أية نية لتغيير مضارب أسهمى " ، قال جيرالد ذلك فى حزم وهو يصب لنفسه قدحًا آخر من القهوة .

" ولكن ألا تفهم يا عزيزى ، كيف سيعمل وضع حسابك فى هذه الشركة على منح نيجيل دفعة قوية ؟ " .

" وكم سيكون هذا بمثابة لطمة لـ " ديفيد كراترايت " وفيكرز دا كوستا عندما يخسران عميلا خدماه بمنتهى الأمانة على مدى أكثر من مائة عام ؟ كلا يا إيثيل ، لقد حان وقت تدبر نيجيل لشئونه بنفسه . اللعنة ، لقد تخطى الأربعين " .

" لعل هذا سبب آخر يدفعنا لمساعدته " ، قالت زوجته ذلك وهى تضع الزبد على قطعة أخرى من الخبز المحمص .

" كلا يا إيثيل ، أكرر ، غير موافق " .

" ولكن ألا تدرك أنه من بين مسئوليات نيجيل أن يجذب عملاء جدداً للشركة ؟ لقد اكتسب هذا الأمر أهمية خاصة الآن لأننى واثقة من أنهم بعد انتهاء الحرب يمكن أن يعرضوا عليه الشراكة " .

لم يسع السيد ترينثام لإخفاء شكه فى هذه المعلومة فقال : " إن كان هذا هو الحال ، فعليه أن يستفيد بدرجة أكبر من معارفه واتصالاته ويفضل أن يسعى للإفادة بشكل خاص من معارفه فى المدرسة و " ساندهارست " ناهيك عن معارفه فى المدينة . إنه لا يجب أن يضع عينه دائما نصب أصدقاء والده " .

" ولكن هذا ليس منصفا يا جيرالد . إن لم يكن بوسعه أن يعتمد على والديه فكيف يمكن أن يتوقع أن يمد له شخص آخر يد المساعدة ؟ " .

" يقدم له يد المساعدة ؟ هذه هى خلاصة القول بالفعل " ، كان صوت جيرالد يعلو مع كل كلمة يقولها واستطرد : " لأن هذا هو تحديدا ما كنت تدأبين على فعله منذ يوم ولادته ، وهذا هو ربما السبب الذى جعله إلى الآن غير قادر على الاعتماد على نفسه " .

قالت السيدة ترينثام وهى تستخرج المنديل من كم قميصها : " لم أفكر يوما .... " .

قال الميجور وهو يسعى لإعادة الهدوء : " على أية حال إن حافظتى ليست بكل هذه الأهمية . إن كل رأسمالى كما تعرفين أنت موضوع فى الأرض وقد كان كذلك دائما على مدى أجيال " .

قالت السيدة ترينثام موبخة : " ليست كمية المال هى التى يعتد بها المبدأ " .

قال جيرالد وهو يطوى منديل المائدة وينهض من على مائدة الإفطار ويغادر الغرفة بدون أن يمنح زوجته فرصة لكى تنطق بكلمة واحدة : " أوافقك تماماً فى ذلك " .

التقطت السيدة ترينثام جريدة زوجها الصباحية وأخذت تجرى إصبع يدها على الأسماء التى سوف تحصل على وسام الفروسية فى حفل مناسبة عيد الميلاد الملكى . توقف إصبعها المرتجف عند حرف " تى " .

أثناء عطلة الصيف من ذلك العام ، ووفقا لـ " ماكس هاريس " ، سافر دانيال ترامبر إلى أمريكا على متن السفينة كوين مارى . ومع ذلك فلم يجد المحقق الخاص لديه ردا على السؤال التالى للسيدة ترينثام وهو : " لماذا سافر إلى هناك ؟ " ، كان كل ما يعرفه المحقق هاريس هو أن الجامعة كانت فى انتظار عودة الأستاذ الشاب الجديد مع بداية العام الدراسى .

وعلى مدى الأسابيع التى قضاها دانيال فى أمريكا ، قضت السيدة ترينثام جل وقتها مع محاميها الخاص فى لنكولن إن فيلدز لإعداد طلب البناء الخاص بها .

كانت بالفعل قد استشارت ثلاثة مهندسين معماريين ، كان جميعهم قد تخرجوا مؤخرا . وقد طلبت منهم إعداد رسم لمبنى سكنى للشقق فى شارع تشيلسيا . كان الفائز ، كما أكدت لهم ، سوف يحصل على مقاولة بناء الشقق بينما سيحصل كل واحد من

الاثنين المتبقيين على مبلغ قدره مائة جنيه كتعويض . وقد لاقى هذا العرض ترحيبا من ثلاثتهم .

وبعدها باثنى عشر شهرا ، قدم كل منهم عرضه وكان واحد من بينهم فقط هو الذى قدم للسيدة ترينثام ما كانت تبحث عنه .

كان رأى الشريك الأكبر من هيئة المحامين هو أن العرض المقدم من قبل أصغرهم جوستين تالبوت يمكن أن يحيل محطة باتيرسيا لتوليد الطاقة إلى قصر رائع . لم تفصح السيدة ترينثام لوكيلها أنها قد تأثرت فى اتخاذ القرار بكون عم السيد تالبوت كان أحد أعضاء لجنة التخطيط فى مجلس مدينة لندن .

حتى إن كان العم تالبوت يسعى لمساعدة ابن أخيه ، فقد بقيت السيدة ترينثام غير عابئة بأن أغلبية اللجنة سوف توافق على هذا العرض المجحف . كان البناء أشبه بمستودع فحم كان هتلر نفسه يأبى أن يقبله . ولكن مع ذلك فقد نصحها محاموها أن تذكر فى طلب البناء أن الهدف الأساسى لهذه المبانى الجديدة هو توفير إسكان لمحدودى الدخل والشباب ممن يعانون من البطالة ممن كانوا بحاجة ملحة إلى إيواء مؤقت . وثانيا كان عليها أن تذكر أيضا أن عائد الشقق سوف يؤول إلى صندوق خيرى لمساعدة كل الأسر التى تعانى من نفس المشكلة . وثالثا ، كان عليها أن تلفت نظر اللجنة إلى الجهد الجهيد الذى بذل لمنح هذا المهندس المعمارى الشاب أول فرصة له .

لم تكن السيدة ترينثام تعرف إن كان يجب أن تكون سعيدة أم خائفة عندما منحتها اللجنة الموافقة . وبعد مداولات طويلة امتدت لعدة أسابيع ، أصرت اللجنة على إجراء بعض التعديلات القليلة البسيطة فى الرسم الأصلى لـ " تالبوت " المبتدئ . أصدرت السيدة

ترينثام تعليماتها العاجلة للمهندس الشاب بإزالة آثار الدمار للشروع فى عملية البناء بأسرع ما يمكن .

لاقى مشروع السير تشارلى ترامبر الذى تقدم للحصول على موافقة بناء فى تشيلسيا دعاية إعلامية واسعة النطاق مما مهد له الطريق بدرجة كبيرة . ومع ذلك فقد لاحظت السيدة ترينثام أنه قد تم التنويه فى معظم الموضوعات التى نشرت عن المشروع إلى شخص ما يدعى السيد مارتين سيمبسون وصف بأنه رئيس لجنة إنقاذ المتاجر الصغيرة والذى تقدم باعتراض على المشروع بأكمله . وقد أوضح السيد مارتين فى حيثيات طلبه أن المشروع يضر على المدى الطويل بمصالح المتاجر الصغيرة ومصادر رزقهم أى أنه يعرضهم للخطر . وقد أوضح السيد مارتين فى دعواه أن ما يزيد من حجم الظلم الواقع على هؤلاء التجار هو أنهم لا يملكون القدرة المادية التى يمكن أن تتصدى لرجل فى مثل ثراء ونفوذ السير تشارلى ترامبر .

" بلى يملكونها " ، قالت السيدة ترينثام ذلك أثناء تناول الإفطار فى صباح ذلك اليوم .

" يملكون ماذا ؟ " .

قالت مطمئنة لزوجها : " لا شىء " ؛ ولكنها أمدت فيما بعد السيد سيمبسون بكل التمويل المادى اللازم لرفع دعوى اعتراض رسمية على مشروع ترامبر ، وقد وافقت السيدة ترينثام أيضا على تغطية كل النفقات الخاصة بالسيد سيمبسون لكى تمكنه من أداء مهمته .

بدأت تتابع نتائج جهود السيد سيمبسون على أساس يومى من خلال الصحف القومية حتى إنها أسرت يوما لـ " هاريس " أنها

سوف يسعدها أن تدفع له ثمن كل الخدمات التى يسديها ولكن شأنه كان شأن كل الناشطين ؛ كان يعمل فقط من أجل قضيته .

وعندما بدأت الجرارات ترفع أنقاض موقع السيدة ترينثام وبقى الوضع على ما هو عليه لدى ترامبر ، بدأت السيدة ترينثام تحيل انتباهها إلى دانيال ثانية ومشكلة الإرث .

كان محاموها قد أكدوا لها أنه ليس هناك وسيلة من إبطال شروط الوصية ما لم يتنازل دانيال ترامبر طواعية عن حقوقه . وقد نصحوها - بناء على ذلك - حتى بالمصطلحات والصيغ القانونية المستخدمة فى مثل هذه الظروف وبقى أمامها مهمتها الشاقة فى كيفية العثور على طريقة لحمله على توقيع هذه المستندات .

وحيث إن السيدة ترينثام كانت عاجزة عن تصور أية مناسبة يمكن أن تجمعها بـ " دانيال " ، فقد اعتبرت الأمر كله بلا جدوى . ومع ذلك فقد احتفظت بالصيغ التى منحها إياها المحامى فى درج مكتبها الأخير فى غرفة الاستقبال مع باقى المستندات الخاصة بـ " ترامبر " .

قال السيد سنيدلز : " كم تسرنى رؤيتك ثانية يا سيدتى . لا يسعنى أن أقدم الاعتذار الكافى عن كل الوقت الذى استغرقته لكى أنجز المهمة التى كلفتنى بها . إننى لن أكبدك بالطبع إلا المبلغ الذى اتفقنا عليه فى الأساس " .

عجز بائع الكتب عن تبين التعبير الذى ارتسم على وجه السيدة ترينثام لأنها لم تكن بعد قد خلعت الحجاب من فوق وجهها . تبعت الرجل العجوز رفا برف بطول أرفف الكتب المغطاة بالأتربة إلى أن وصلا إلى غرفة صغيرة فى مؤخرة محله . وهناك قدمها

للدكتور هالكومب الذى كان - شأنه شأن سنيدلز - مرتديا معطفا ثقيلا . وقد رفضت الجلوس على المقعد الذى قدم إليها عندما لاحظت أن هناك طبقة رقيقة من التراب تغطيه .

أشار الرجل العجوز فى فخر إلى الصناديق الثمانية الموضوعة فوق مكتبه . وقد استغرق ما يقرب من ساعة كاملة - مع مقاطعة الدكتور هالكومب له من وقت إلى آخر - فى شرح الكيفية التى تصفحا بها مكتبة والدها الراحل بالكامل ؛ وفق الترتيب الأبجدى للمؤلفين بداية ثم وفق الفئة التى ينتمى إليها كل كتاب وأخيرا وفق المقاطع العرضية المنفصلة . كان هناك تقييم مبدئى لكل كتاب مدون بعناية بالقلم الرصاص فى الركن الأيمن السفلى من كل بطاقة .

أبدت السيدة ترينثام - على غير عادتها - صبرا لافتا مع السيد سنيدلز كما أنها كانت من وقت إلى آخر تطرح عليه أسئلة لا تعبأ بإجاباتها فى الوقت الذى سمحت له فيه أن يستفيض فى شرح مطول معقد عن الطريقة التى شغل بها وقته على مدى الخمس سنوات الماضية .

" لقد قمت بعمل رائع يا سيد سنيدلز " ، قالت ذلك بعد أن ألقت نظرة على آخر بطاقة وكانت تحمل اسم إيميل زولا (١٨٤٠- ١٩٠٢) وأضافت : " لم أكن أتوقع أفضل من ذلك "

قال الرجل العجوز وهو ينحنى محييا : " هذا كرم بالغ منك يا سيدتى ، ولكن يبدو أنك كنت تكنين دائما اهتماما صادقا بالكتب . لم يكن والدك ليجد شخصا أفضل منك لتولى هذا الأمر الذى كرس له حياته " .

" كنا قد اتفقنا على خمسين جنيها على ما أذكر ؛ أليس كذلك ؟ " . قالت السيدة ترينثام ذلك وهى تستخرج الشيك من حقيبة يدها وتمد يدها به إلى صاحب المتجر .

" شكرا لك يا سيدى " ، هكذا أجاب السيد سنيدلز بعد أن أخذ الشيك ووضعه بدون تركيز فى إحدى الطفايات . ثم منع نفسه من أن يضيف قائلا : " كان يسعدنى أن أدفع ضعف هذا المبلغ مقابل متعة إنجاز هذه المهمة " .

قالت السيدة ترينثام وهى تراجع كل الأوراق التى منحها إياها عن كثب : " أرى أيضاً أنك قد وضعت قيمة إجمالية تقريبية للمجموعة كلها تقترب من الخمسة آلاف جنيه " .

" صحيح يا سيدتى . ولكن علىَّ - مع ذلك - أن أنوه إلى أننى التزمت بالجانب المحافظ . هناك بعض المجلدات النادرة التى يصعب التكهن بسعرها عند طرحها فى السوق المفتوح " .

" هل هذا يعنى أنك على استعداد لتقديم هذا المبلغ مقابل اقتناء المجموعة إن طرحت للبيع ؟ " ، هكذا سألت السيدة ترينثام وهى تنظر إليه مباشرة .

أجاب الرجل العجوز : " ليس هناك ما يمكن أن يسعدنى أكثر من ذلك يا سيدتى . ولكن للأسف أنا لا أملك المال اللازم لذلك " .

" وما رأيك بأن أحملك مسئولية بيع المجموعة ؟ " ، طرحت السيدة ترينثام هذا السؤال وهى لا تدير بصرها عن الرجل العجوز .

" ليس هناك شرف أعظم من ذلك يا سيدتى ؛ ولكن الأمر قد يستغرق شهورًا وربما سنوات لحين إنجاز هذه المهمة " .

" إذن ربما يجدر بنا أن نقوم ببعض الترتيبات يا سيد سنيدلز " .

" بعض الترتيبات ؟ لا أدرى إن كنت قد فهمت ما تعنين يا سيدتى " .

" ربما أعنى بذلك الشراكة ، يا سيد سنيدلز " .

الفصل ٣٤

أيدت السيدة ترينثام نيجيل فى اختيار عروسه ولكنها هى التى كانت قد اختارتها فى المقام الأول .

كانت فيرونيكا بيرى تحمل كل المواصفات التى ترى حماتها المستقبلية أنها يجب أن تملكها لكى تنتمى إلى عائلة ترينثام . كان والدها أدميرال سابقاً لم يكن قد أحيل بعد إلى التقاعد كما أن والدتها كانت ابنة رجل دين كبير . كانت الأسرة ميسورة الحال بعيدا عن الثراء الفاحش ولكن الأهم من ذلك كله هو أن فيرونيكا كانت الأكبر بين ثلاثة من الفتيات .

أقيم حفل الزفاف فى قاعة كيمبريدج فى دورست . كان حفل الاستقبال كبيرا ولكن بلا بذخ وكان " الأبناء " كما كانت السيدة ترينثام تطلق عليهما فى حديثها عنهما مع الجميع سيقضيان شهر العسل فى أرض العائلة فى أبردين قبل العودة إلى قصر الكادوجان

الذى كانت قد انتقته لهما . كانت ترد دائما - عند سؤالها وعدم سؤالها - بأن القصر كان قريبا من ميدان شيستر .

وكان الشركاء الاثنان والثلاثون فى شركة كيتكات وإيتكين وكل مضاربى البورصة الذين كان نيجيل يعمل معهم قد دعوا لحضور حفل الزواج ، ولكن لم يحضر منهم سوى خمسة أشخاص فقط هم الذين وجدوا فى أنفسهم القدرة فى تكبد مشقة الرحلة إلى دورست .

أثناء حفل الاستقبال ، الذى أقيم فى حديقة الأدميرال ، انتهزت السيدة ترينثام الفرصة وتحدثت مع الشركاء الخمسة الذين حضروا الحفل . وقد أصيبت بخيبة أمل عندما أدركت أن أيًا منهم لم يكن يبدى اكتراثه بمستقبل نيجيل .

كانت السيدة ترينثام تأمل فى أن يكون ابنها أحد الشركاء بعد إتمام عامه الأربعين لأنها كانت تعلم تماما أن هناك أسماء لشباب أقل من ابنها عمرا كانت مطبوعة على الجانب العلوى الأيسر من أوراق مراسلات الشركة بالرغم من أنهم كانوا قد التحقوا بالعمل هناك بعد ابنها بكثير .

كانت الخطبة على وشك البدء عندما انهمر المطر وزج بكل المدعوين داخل السرادق . شعرت السيدة ترينثام أن خطبة العريس كان يمكن أن تحظى بتصفيق أكثر حرارة . ومع ذلك فقد سمحت لنفسها بتبرير ذلك بأنه يصعب على الشخص أن يصفق وهو يحمل كأس شراب فى إحدى يديه بينما يحمل الطعام فى اليد الأخرى . ولم تحظ خطبة صديق نيجيل - هوغ فولاند - بالطبع بحرارة أكبر فى التصفيق .

بعد انتهاء الخطب ، بحثت السيدة ترينثام عن ميلز رينشو ، الشريك الأكبر فى شركة كيتكات وإيتكين - وبعدما انفردت به فى

أحد الأركان صارحته برغبتها فى استثمار مبلغ مالى كبير فى إحدى الشركات العامة . وقد ذكرت له أنها لذلك سوف تكون بحاجة إلى نصائحه فيما يخص ما وصفته بأنه استراتيجيتها طويلة المدى .

لم تلق هذه المعلومة أية استجابة لدى رينشو الذى كان مازال يذكر وعود السيدة ترينثام بشأن الإدارة المستقبلية لأملاك والدها المتوفى . ومع ذلك ؛ فقد اقترح عليها أن تمر عليه فى مكتب المدينة لمراجعة كل التفاصيل الخاصة بهذه الصفقة عندما تطرح المناقصة العامة للمشروع .

شكرت السيدة ترينثام السيد رينشو وواصلت تجولها بين مجموعات المدعوين كما لو كانت هى المضيفة .

ولم تلحظ السيدة ترينثام استنكار فيرونيكا فى أكثر من مناسبة .

كان آخر يوم جمعة من شهر سبتمبر عام ١٩٤٧ عندما طرق جيبسون بهدوء باب غرفة المعيشة ودخل وأعلن قائلا : " النقيب دانيال ترينثام " .

عندما رأت السيدة ترينثام الشاب مرتديًا الزى العسكرى لنقيب فى سلاح الرماية ، كادت ساقاها تهويان بها . سار داخل الغرفة وتوقف فى منتصف السجادة . نفس اللقاء الذى دار فى نفس الغرفة منذ أكثر من عشرين عاما مضت توهج فى رأسها فى الحال . ولكنها بشكل ما نجحت فى تمالك نفسها قبل أن تهوى فوق الأريكة .

أمسكت بذراعها الأريكة لكى تتأكد من أنها لم تنهر كلية وأخذت تحدق فى حفيدها . كانت مرتاعة من درجة الشبه بينه وبين جاى وشعرت بغصة الذكريات التى اعترتها فى هذه اللحظة . إنها الذكريات التى نجَحت فى كبتها على مدى سنوات .

وبمجرد أن تمالكت نفسها ، كان أول رد فعل لها هى أنها أمرت جيبسون بأن يلقيه خارج المنزل ولكنها قررت أن تنتظر للحظة لأنها كانت حريصة على معرفة ما جاء من أجله . بعد أن عرض دانيال بمنتهى العناية ما جاء من أجله بدأت تتساءل كيف يمكن أن تحول هذا اللقاء إلى مكسب لصالحها .

بدأ حفيدها حديثه بأن أخبرها كيف سافر إلى أستراليا فى صيف ذلك العام وليس إلى أمريكا كما أخبرها هاريس . وواصل حديثه مخبرا إياها بأنه يعرف بأمر ملكيتها للشقق ومحاولتها لعرقلة إذن البناء، والكلمات المحفورة على القبر فى آشورست . ثم واصل قائلا بأن والديه لم يكونا على علم بحضوره للقائها فى ذلك اليوم .

خلصت السيدة ترينثام أنه لابد قد اكتشف كل الملابسات التى أحاطت بوفاة ابنها فى ميلبورن وإلا لما كان قد ركز على أن طرح المعلومات من خلال الصحافة يمكن أن يسبب الحرج لكل الأطراف المعنية .

سمحت السيدة ترينثام لـ " دانيال " بمواصلة حديثه فى الوقت الذى أمعنت فيه التفكير من جانبها . كان تحليله للتطور المستقبلى فى حدائق تشيلسيا هو ما جعل السيدة تدرك كم المعرفة التى كان يملكها الشاب الصغير الماثل أمامها . وقد قررت أن هناك وسيلة واحدة فقط لكى تدرك مدى معرفته وكان عليها أن تقدم على مجازفة كبرى لكى تحقق هذا الهدف .

عندما انتهى دانيال من عرض مطالبه ، أجابت السيدة ترينثام ببساطة قائلة : " ولكن لدىَّ شرط واحد فقط من جانبى " .

" ما هو هذا الشرط ؟ " .

" أن تتخلى عن أى مطالبة فى هاردكاسيل " .

بدا دانيال متشككا للوهلة الأولى . لم يكن هذا ما كان يتوقعه . شعرت السيدة ترينثام فجأة بالثقة لأنه لم يكن لديه علم بالوصية . لقد كان والدها ـ على أية حال ـ قد طلب من بافرستوك عدم إخباره بمحتوى الوصية قبل أن يتم عامه الثلاثين . ولم يكن السيد بافرستوك رجلا يحنث بوعوده .

" لم أكن أنتظر أن يترك لى شيئاً فى المقام الأول " ، كان ذلك أول رد فعل لـ " دانيال " .

لم تجب وانتظرت إلى أن أومأ دانيال بالموافقة .

أضافت قائلة : " كتابيا "

طلب منها مباغتًا : " إذن سوف أطلب منك بدورى أن تدونى اتفاقى معك كتابيا " .

تأكدت السيدة ترينثام وقتها بأنه لم يكن يملك نصا معدا مكتوبا وإنما كان فقط يتجاوب بشكل تلقائى مع الأحداث المفروضة عليه .

نهضت وسارت ببطء نحو مكتبها وفتحت درجها . بقى دانيال فى منتصف الغرفة يتكىء من ساق إلى ساق .

استخرجت ورقتين ثم نقلت مسودة المحامى التى كانت قد احتفظت بها فى الدرج السفلى ، وكتبت نسختين طبق الأصل تضمنت مطالبة دانيال لها بالتنحى عن طلب بناء الشقق واعتراضها على تنفيذ مشروع أبيه لبناء أبراج ترامبر . وقد ضمنت السيدة ترينثام فى الاتفاق نص الكلمات التى كان محاميها قد أعدها لها لكى تسلب من دانيال حقه فى امتلاك ثروة جده .

قدمت له المسودة الأولى لكى يراجعها . كانت تتوقع فى أى لحظة أن يكتشف نواياها بحمله على توقيع هذه الورقة .

أنهى دانيال قراءة النسخة الأولى للاتفاق ثم راجع النسخة الثانية لكى يتأكد من أنها تحمل نفس المحتوى تماما . وبالرغم من أنه لم ينطق بكلمة إلا أن السيدة ترينثام كانت ماتزال تشعر أنه لابد أن يكون قد تبين السبب الذى دفعها إلى إملاء هذا الشرط . بل إنها كانت سترحب بالموافقة على بيع أرضها فى تشيلسيا لأبيه بسعرها الحقيقى مقابل توقيع دانيال على الاتفاق .

فى اللحظة التى وقع فيها دانيال على كلا الورقتين ؛ دقت السيدة ترينثام الجرس لكى تطلب من خادمها شهادته على توقيع الاتفاق . وبمجرد أن أتم مهمته قالت فى اقتضاب : " أوصل السيد إلى الباب يا جيبسون " . بعدما غادر الشاب فى زيه العسكرى الغرفة ؛ أخذت تسأل نفسها كم من الوقت سيمر قبل أن يكتشف تواضع الصفقة التى عقدها .

عندما اطلع محامو السيدة ترينثام فى صباح اليوم التالى على الورقة ، تعجبوا من البساطة التى تم بها الاتفاق . ومع ذلك ؛ فإنها لم تقدم لهم أى تفسير للطريقة التى نجحت بها من تسديد هذه الضربة . وبدرت إيماءة صغيرة من رأس الشريك الأكبر أكدت لها أن الاتفاق صحيح تماما .

لكل رجل سعر ، وعندما أدرك السيد سيمبسون أن مصدر تمويله قد نضب ؛ كان تلقيه لمبلغ خمسين جنيها شهريا كفيلا بأن يسحب الاعتراض الذى تقدم به ضد ترامبر ومشروع بناء الأبراج .

فى اليوم التالى ؛ بدأت السيدة ترينثام تتفرغ لأمور أخرى وهى فهم مستندات العرض .

رأت السيدة ترينثام أن فيرونيكا قد حملت فى وقت مبكر أكثر من اللازم . وفى مايو عام ١٩٤٨ ؛ أنجبت زوجة ابنها ابنا وهو جيل ريموند ؛ بعد زواجها من نيجيل بتسعة أشهر وثلاثة أسابيع فقط . لم يكن الطفل قد ولد على الأقل فى موعد سابق لموعد ولادته . وبالرغم من ذلك فإن السيدة ترينثام شاهدت الخدم فى أكثر من مناسبة يحصون أشهر الحمل على أيديهم .

نشب أول خلاف بين السيدة ترينثام وفيرونيكا إثر عودة فيرونيكا حاملة ابنها من المستشفى بعد الولادة .

كانت فيرونيكا ونيجيل قد عرجا إلى ميدان شيستر لكى تتأمل حفيدها . وبعدما ألقت السيدة ترينثام نظرة متفحصة على الرضيع ؛ جاء جيبسون يدفع عربة الشاى .

" أنتما بالطبع تريدان تسجيل الفتى فى مدرستى أسجارث وهارو فى الحال " ؛ هكذا قالت السيدة ترينثام قبل أن تمنحها حتى فرصة تناول أول شطيرة ، واستطردت : " يجب أن نضمن له مكانا " .

قالت فيرونيكا : " لقد قررت أنا ونيجيل فى واقع الأمر الطريقة التى نود أن نعلم بها ابننا . ولكننا لم نفكر فى هاتين المدرستين بالمرة " .

أعادت السيدة ترينثام قدحها فوق الطبق وأخذت تحدق فى فيرونيكا كما لو كانت قد أعلنت لها نبأ وفاة الملك وقالت :

" آسفة ، لا أعتقد أننى سمعت ما تقولين بوضوح يا فيرونيكا " .

" سوف نرسل جيل إلى مدرسة ابتدائية محلية فى تشيلسيا وبعدها إلى براينستون " .

" براينستون ؟ أين براينستون هذه ، إن سمحتما لى بالسؤال ؟ " .

" فى دورست ، إنها مدرسة أبى القديمة " ، أضافت فيرونيكا ذلك وهى تلتقط شطيرة سالامون من الطبق الموضوع أمامها .

أخذ نيجيل يتأمل وجه أمه فى قلق وهو يلمس رابطة عنقه الزرقاء ذات الخطوط الفضية .

قالت السيدة ترينثام : " قد يكون كذلك ، ولكننا مع ذلك ؛ قد نكون بحاجة لمزيد من التفكير فى مستقبل ريموند الصغير " ، قالت ذلك وهى تشدد على كلمة ريموند .

قالت فيرونيكا : " كلا ، لن يكون هذا ضروريا " .

" لقد فكرت أنا ونيجيل مليا فى الطريقة التى نود أن نعلم بها ابننا ، بل إننا قد سجلنا اسمه بالفعل فى مدرسة براينستون فى الأسبوع الماضى . نحن نريد أن نضمن له مكانا " .

انحنت فيرونيكا إلى الأمام والتقطت شطيرة سالامون أخرى .

دقت الساعة المعلقة فوق المدفأة عند جانب الغرفة البعيد ثلاث دقات .

دفع ماكس هاريس نفسه من فوق مقعده الوثير فى ركن الغرفة فى اللحظة التى وقع فيها بصره على السيدة ترينثام وهى تدخل بهو الفندق . حياها بنصف انحناءة بينما بقى منتظرا جلوسها فى المقعد المقابل له .

طلب لها الشاى وطلب لنفسه كأسا من الشراب . أظهرت السيدة ترينثام استياءها عندما غادر النادل لكى يحضر الطلب . وتركز انتباهها على ماكس هاريس فى اللحظة التى بدأت تسمع فيها طقطقة أصابعه المعتادة .

" أفترض أنك لم تطلب لقائى يا سيد هاريس ما لم تكن تحمل نبأ مهماً " .

" أعتقد أنه يمكننى بمنتهى الارتياح أن أقول إننى أحمل أنباءً سارة . هناك سيدة تدعى السيدة بينيت تم اعتقالها مؤخرا واتهامها بسرقة معطف فرو وحزام جلدى من هارفى نيكولس ؛ لكى أكون محددا تماما " .

" وفيم يعنينى هذا تحديدا ؟ " سألت السيدة ترينثام وهى تنظر وراءه وقد بدا عليها الانزعاج لأن السماء بدأت تمطر بالخارج وتذكرت أنها قد نسيت مظلتها .

" لأننى اكتشفت أن هناك علاقة وثيقة تربطها بالسير تشارلى ترامبر " .

قالت السيدة ترينثام ، وقد ارتسمت عليها المزيد من علامات الحيرة : " علاقة ؟ " .

قال هاريس : " أجل . السيدة بينيت ما هى إلا أخت السير تشارلى الصغرى " .

أعادت السيدة ترينثام نظرها على ماكس هاريس وقالت :

" ولكن ترامبر ليس لديه سوى ثلاث أخوات حسب ما أذكر ، سال التى تعيش فى تورونتو والتى تزوجت من موظف مبيعات يعمل فى شركة تأمين ، وجريس التى عينت مؤخرا مراقبة المرضات فى مستشفى جاى ، وكيتى التى غادرت إنجلترا منذ فترة لتعيش مع أختها فى كندا " .

" وقد عادت الآن " .

" عادت ؟ " .

قالت السيدة ترينثام وقد بدأ صبرها ينفد من لعبة القط والفأر التى يبدو أن هاريس كان مستمتعا بها : " لا أفهم ما تقصد " .

استطرد هاريس بعد أن لاحظ حنق عميلته : " بينما كانت فى كندا تزوجت من رجل يدعى السيد بينيت ، كان يعمل فى مجال تفريغ المراكب ؛ لم يكن يختلف كثيرا عن سابقه . دام زواجهما لعام واحد تقريبا وانتهى بطلاق مضطرب فى ظل أجواء تسودها المشاكل . عادت إلى انجلترا منذ أسابيع قليلة ، بعد أن رفضت أختها سال إقامتها لديها " .

" كيف توصلت إلى هذه المعلومة ؟ " .

" أخبرنى أحد أصدقائى فى واندسورث بها . فعندما قرأ التهمة الموجهة إلى بينيت والتى عرف أن اسمها الأصلى هو ترامبر ، قرر أن يتحقق من الأمر . واكتشف أن كيتى هى الشخص المقصود . توجهت إليه فى الحال لكى أتأكد من هويتها " . توقف هاريس عن ارتشاف شرابه .

قالت السيدة ترينثام بصبر نافد : " واصل " .

قال هاريس : " مقابل خمسة جنيهات ، باحت بكل ما لديها مثل عصفور الكناريا ، ولو كان بوسعى أن أمنحها خمسين جنيها لكانت أجادت أكثر وغنت مثل العندليب " .

عندما أعلن ترامبر أنه بصدد الاكتتاب العام ، كانت السيدة ترينثام تمضى العطلة فى منزل زوجها فى أبردين شاير . بعدما قرأت الخبر فى صحيفة التليجراف ، قررت أنها بالرغم من أنها أصبحت الآن تسيطر على الدخل الشهرى الكامل لها ولأختها ومبلغ إضافى يقدر بعشرين ألف جنيه ، فإنها سوف تكون بحاجة

لكل رأس المال الذى يمكن أن تحصل عليه من صفقة يوركشاير إن كانت تسعى لشراء حصة يعتد بها فى الشركة الجديدة . أجرت ثلاثة اتصالات مهمة فى صباح ذلك اليوم .

كانت السيدة ترينثام فى وقت مبكر من ذلك العام قد أصدرت تعليماتها بنقل كل حافظتها المالية إلى شركة كيتكات وإيتكن وبعد شهور من الإلحاح والتحايل على زوجها ، نجحت فى النهاية فى إقناعه بأن يحذو حذوها . وبالرغم من كل هذه الجهد الذى بذلته من أجل ابنها فإنه لم يحصل على الشراكة . وكان يمكن أن تنصحه السيدة ترينثام بتقديم استقالته فى الحال إن كانت واثقة من أنه سوف يحصل على وظيفة أفضل فى أى مكان آخر .

وبالرغم من فشلها ، فقد واصلت دعوة أصحاب العمل فى كيتكات إلى العشاء فى ميدان شيستر بشكل منتظم . وقد ترك جيرالد زوجته تتصرف كما يحلو لها بالرغم من أنه كان لا يؤيدها فيما تقوم به وبقى غير مقتنع بأنهم بذلك يعملون لصالح ابنهم . ولكنه كان يدرك تماما أن رأيه فى مثل هذه الأمور لم يكن يحظى بأى ترحيب من قبل زوجته . كان الميجور ـ على أية حال ـ قد وصل إلى السن التى لا يقوى فيها إلا على إبداء بعض المقاومة الشكلية .

بعدما درست السيدة ترينثام التفاصيل الدقيقة لعرض ترامبر فى صحيفة التايمز الخاصة بزوجها ، أصدرت لـ " نيجيل " تعليمات بشراء خمسة بالمائة من حصص الشركة فى اللحظة التى صدرت فيها النشرة .

ومع ذلك فقد كانت فقرة فى نهاية المقال المنشور فى صحيفة الديلى ميل لـ " فينسّنت مولكورن " والذى كان يحمل عنوان

" ترامبر المنتصر " هو الذى ذكرها بأنها مازالت تحمل صورة بحاجة لتقييم سعرها المناسب .

فى كل مرة كان السيد بافرستوك يدعو فيها السيدة ترينشام للقائه كان الأمر يبدو لها أشبه باستدعاء وليس دعوة . ربما كان ذلك لأنه ظل يمثل والدها لأكثر من ثلاثين عاما .

لقد كانت تدرك جيدا - بما أنه الممثل التنفيذى لوالدها - أنه مازال يملك تأثيرا قويا حتى بالرغم من أنها نجحت فى كسر شوكته مؤخرا ببيعها للمنزل والأراضى .

وبعد أن دعاها للجلوس فى الجانب المقابل من المكتب ، عاد السيد بافرستوك على مقعده ووضع نظارته نصف الدائرية عند نهاية أنفه وفتح غطاء أحد ملفاته الرمادية .

يبدو أنه كانه يدير كل مراسلاته ، ناهيك عن اللقاءات ، على نحو يمكن أن يوصف بأنه جلف أو فظ . وكانت السيدة ترينشام تتساءل دائما ما إن كان يعامل والدها بنفس الطريقة .

بدأ حديثه بعد أن وضع راحتيه فوق المكتب أمامه وصمت لكى يتأمل الملحوظات التى كان قد دونها فى الليلة السابقة : " سيدة ترينشام ، هل لى بداية أن أشكرك على تكبد مشقة المجىء إلى هنا فى مكتبى وأعرب فى نفس الوقت عن حزنى لعدم تمكن أختك من المجىء ورفض دعوتى للمرة الثانية . ومع ذلك ، فقد أوضحت لى تماما فى خطاب قصير أرسلته لى فى الأسبوع الماضى أنها تفوضك نيابة عنها الآن وفى أى شئون مستقبلية " .

قالت السيدة ترينشام : " إيمى العزيزة . لقد أثرت وفاة أبى فيها بشدة بالرغم من أننى بذلت كل ما فى وسعى لكى أخفف من وطأة الصدمة " .

عادت عينا المحامى إلى الملف الموضوع أمامه والذى كان يضم ملحوظة من شخص يدعى ألثويت من بيرد فى كولينجوود يطلب فيه إرسال الشيك الشهرى الخاص بالآنسة إيمى مباشرة إلى كاوتس فى ستراند على رقم حساب يختلف برقم واحد فقط عن الرقم الذى أرسل إليه السيد بافرستوك بالفعل النصف الآخر من الدخل الشهرى .

واصل المحامى حديثه : " بالرغم من أن والدك قد ترك لك أنت وأختك دخل الوصية ، فإن قيمة رأس المال نفسها سوف تؤول مع الوقت إلى دانيال ترامبر " .

أومأت السيدة ترينشام ، بدون أن يظهر أى رد فعل على وجهها .

قال السيد بافرستوك : " وكما تعرفين أيضاً ، فإن الوصية حاليا تحتوى على أسهم وحصص وأموال تدار من خلال بنك هامبروس وشركاه . ولكننا نرى أن أى استثمار كبير يريد أن يقدم عليه البنك فيما يخص الوصية يجب أن نراجعكم فيه بالرغم من أن السير رايموند قد فوضنا كلية فى مثل هذه الأمور " .

" هذه حكمة تشكر عليها يا سيد بافرستوك " .

عاد المحامى ينظر إلى الملف حيث راجع ملحوظة أخرى ، كانت فى هذه المرة من وكيل عقارى فى برادفور . كانت أراضى السير رايموند هاردكاسيل الراحل ومحتوياته قد بيعت بدون علمه مقابل واحد وأربعين ألف جنيه . بعد خصم العمولة والمصروفات

القانونية ؛ أرسل الوكيل المال مباشرة إلى نفس رقم الحساب في كاوتس في ستراند حيث يتم سداد حساب الآنسة إيمى الشهرى .

واصل محامى العائلة حديثه : " بوضع هذا فى الاعتبار . أعتقد أنه ليس أقل من واجبى أن أخبرك بأن مستشارينا ينصحون باستثمار جزء كبير من الوصية فى شركة جديدة على وشك دخول السوق " .

سألت السيدة ترينثام : " وما هو اسم هذه الشركة ؟ " .

قال بافرستوك وهو ينظر إليها فى انتظار رد فعلها : " ترامبر " .

سألت : " وما هو سبب اختيار ترامبر تحديدا ؟ " وذلك بدون أن يظهر على وجهها أية إشارة تنم عن المفاجأة .

" لأن هامبروس فى الأساس يرى أنه استثمار صحيح وحريص . ولكن ربما الأهم من ذلك هو أن الجزء الأكبر من أسهم الشركة سوف يكون مملوكا لـ " دانيال ترامبر " الذى يرأس والده - كما أفترض أنك تعلمين - مجلس الإدارة " .

" أعلم ذلك " ، قالت السيدة ترينثام ذلك بدون أن تضيف أى تعليق . كانت ترى بوضوح أن السيد بافرستوك لم يكن مطمئنا إلى الهدوء الذى تقبلت به النبأ .

" بالطبع ؛ إن أبديت أنت وأختك اعتراضا قويا على هذا الالتزام فى استثمار الوصية أعتقد أن مستشارينا سوف يعيدون التفكير فيه " .

" وما هو المبلغ الذين يريدون استثماره ؟ "

قال لها المحامى : " ما يقرب من مائتى ألف جنيه ؛ سوف يمكنك هذا من شراء ما يقرب من عشرة بالمائة من الحصص المطروحة " .

" أليست هذه مجازفة أن نضع كل هذا المال فى شركة واحدة ؟ " .

قال السيد بافرستوك : " هى كذلك بالفعل ، ولكن ميزانية الوصية تسمح بالإقدام على مثل هذا الاستثمار " .

" إذن سوف يسعدنى أن أوافق على تقدير هامبروس " .

قالت السيدة ترينثام ذلك ، وأضافت : " وأشعر أنه بوسعى أيضا أن أنوب عن أختى تماما فى الموافقة " .

وثانية نظر السيد بافرستوك إلى ملفه حيث تفحص شهادة موقعة من قبل الآنسة إيمى هاردكاسيل تخول فيها لأختها السلطة المطلقة فى اتخاذ كل القرارات الخاصة بوصية الراحل سير رايموند كاسيل بما فى ذلك تحويل عشرين ألف جنيه من حسابها الشخصى . كان السيد بافرستوك يأمل فقط أن تكون الآنسة إيمى سعيدة بحياتها فى فندق كليف توب رزيدنشيال . رفع رأسه لينظر إلى الابنة الثانية للسير رايموند .

اختتم حديثه قائلا : " إذن كل ما تبقى لنا عمله هو أن نخبر هامبروس بوجهة نظركما فى هذا الأمر وإخطاركما عند طرح أسهم ترامبر فى السوق " .

أغلق المحامى الملف ونهض من وراء مكتبه وبدأ يتحرك نحو الباب . تبعته السيدة ترينثام وهى سعيدة لعلمها أن وصية هاردكاسيل ومستشاريها أصبحوا الآن يعملون متضافرين لخدمة خططها طويلة المدى بدون أن يدرى أى منهم بذلك . كما سعدت

أيضا بأنه عند طرح أسهم ترامبر سوف تتمكن من امتلاك خمسة عشر بالمائة من أسهم الشركة .

عندما وصلا إلى الباب استدار السيد بافرستوك نحوها وصافحها بيده .

" طاب يومك يا سيدة تريننثام " .

" طاب يومك يا سيد بافرستوك . لقد كنت دقيقا للغاية ، كما هو دأبك دائما " .

خرجت السيدة تريننثام وتوجهت إلى حيث كانت تقف سيارتها وفتح لها السائق الباب الخلفى . بينما سارت السيارة ، استدارت لكى تنظر من النافذة الخلفية . بقى المحامى واقفا عند باب مكتبه وقد بقيت الدهشة مرتسمة على وجهه .

سأل السائق عندما انطلق بسيارته فى الطريق : " إلى أين يا سيدتى ؟ " .

نظرت السيدة تريننثام فى ساعة يدها ، لم يستغرق لقاؤها مع بافرستوك الوقت الذى كانت قد توقعته ، أى أنه قد بقى لديها وقت قبل موعدها التالى . ومع ذلك فقد أجابت سائقها قائلة : " إلى فندق سانت آجنس " ، وهى تضع يدها فوق اللفافة الورقية البنية الموضوعة بجانبها فى السيارة .

كانت قد طلبت من هاريس أن يحجز غرفة خاصة فى الفندق وأن يجعل كيتى بينيت تتسلل إليها بدون أن يراها أحد .

عندما وصلت إلى سانت آجنس حاملة اللفافة تحت ذراعها ، انزعجت عندما لم تجد هاريس فى انتظارها فى مكانه المعتاد عند البار . كانت تكره بشدة وقوفها بمفردها فى الرواق فسارت فى شئ من التردد إلى البواب وسألته عن رقم غرفة السيد هاريس .

قال الرجل الذى كان يرتدى زياً أزرق لامعاً بأزرار لم تكن لامعة : " الغرفة الرابعة عشرة ، ولكنه لا يمكنك أن — " .

لم تكن السيدة تريننثام من تلك النوعية التى تتقبل عبارة " لا يمكنك " من أى أحد ، فاستدارت وصعدت ببطء الدرج المؤدى إلى الغرف فى الطابق الأول . التقط البواب فى الحال الهاتف الموضوع على النضد بجواره .

استغرقت السيدة تريننثام بضع دقائق قبل أن تصل إلى الغرفة رقم ١٤ كما استغرق هاريس نفس الوقت تقريبا قبل أن يجيب على طرقها الحاد على الباب . عندما سمح للسيدة تريننثام أخيرا بدخول الغرفة ، اندهشت من صغر حجمها ، كانت تكفى بالكاد لسرير واحد وكرسى واحد وحوض واحد . تركزت عيناها على السيدة التى كانت تجلس على السرير . كانت ترتدى قميصًا حريريًا أحمر وتنورة جلدية سوداء قصيرة ، كانت التنورة قصيرة للغاية من وجهة نظر السيدة تريننثام ؛ فضلا عن أن السيدة كانت قد تركت أول زرين من قميصها مفتوحين .

وبما أن كيتى لم تسع لإزالة المعطف الواقى من الأمطار الموضوع فوق الكرسى ، فلم يكن أمام السيدة تريننثام خيار إلا أن تبقى واقفة .

استدارت نحو هاريس الذى كان يتفحص رابطة عنقه فى المرآة . كان من الواضح أنه قرر أن أى تعريف للسيدتين سوف يكون بلا داع .

كان رد فعل السيدة تريننثام الوحيد هو أن تدخل فى لب الموضوع مباشرة حتى يتسنى لها أن تغادر هذا المكان الرث بأسرع ما يمكن . فلم تنتظر هاريس لكى يقدم التمهيد المبدئى .

بيكى

١٩٤٧ - ١٩٥٠

" هل شرحت للسيدة بينيت المطلوب منها ؟ " .

قال المحقق وهو يضع سترته : " بالطبع ، وكيتى على استعداد تام لأن تقوم بما طلب منها " .

" هل يمكن الوثوق بها ؟ " ، سألت السيدة ترينثام ذلك وهى تنظر فى ريبة إلى السيدة الجالسة فوق الفراش .

كانت الكلمات الأولى التى نطقت بها كيتى : " بالطبع مادمتم سوف تدفعون ، كل ما أريد أن أعرفه هو المبلغ الذى سوف أحصل عليه " .

قالت السيدة ترينثام : " أيًّا كان ما تطلبينه بالإضافة إلى خمسة عشر جنيها " .

" إذن أريد عشرين مقدما " .

ترددت السيدة ترينثام للحظة ثم أومأت بالموافقة .

" إذن ما هو المطلوب ؟ " .

قالت السيدة ترينثام : " فقط أريد أن أتأكد من أنك لن ترضخى لأى استرضاء من أخيك ، إنه حتى قد يحاول أن يرشيك مقابل ذلك " .

قالت كينى : " لا تشغلى بالك بذلك . ليفعل ما يريد ولكن هذا لن يثنينى عما أنوى فعله . فأنا أكره تشارلى بقدر ما تكرهينه أنت " .

ابتسمت السيدة ترينثام للمرة الأولى . ثم وضعت اللفافة الورقية البنية على مؤخرة الفراش .

ابتسم هاريس ابتسامة مصطنعة وقال : " كنت أعلم أنكما سوف تجدان شيئا مشتركا بينكما " .

الفصل

٣٥

ليلة بعد ليلة ؛ كنت أبقى مستيقظة فى فراشى قلقة لكون دانيال لابد أن يكتشف لا محالة فى النهاية أن تشارلى لم يكن والده .

وكلما وقف كل منهما أمام الآخر ؛ دانيال بطوله ونحافته وعينيه داكنتى الزرقة ، وتشارلى الذى تقل قامته عن دانيال قدر ثلاث بوصات وجسده الممتلئ وشعره الأسود المجعد وعينيه البنيتين ؛ كنت أعرف أن دانيال لابد أن يعلق فى يوم ما على هذا التباين . كما أن تركيبة لونى السمراء زادت من تفاقم المعضلة . كانت هذه الاختلافات يمكن أن تبدو مضحكة ما لم تكن تنطوى على الحقيقة المؤلمة . ومع ذلك فإن دانيال لم ينوه يوما إلى هذه الاختلافات الشكلية أو اختلاف الطباع الذى كان يفصل بينه وبين تشارلى .

كان تشارلى يريد أن يخبر دانيال بحقيقة العلاقة التى تربطه بـ " جاى " منذ البداية ولكننى أقنعته أننا يجب أن ننتظر إلى أن يكبر بما يكفى لاستيعاب الأمر . ولكن عندما توفى جاى إثر مرض السل لم نجد ضرورة لإلقاء عبء الماضى على كاهله .

وبعدها بسنوات طويلة من القلق من جانبى والإلحاح من قبل تشارلى ؛ وافقت فى النهاية على إخبار دانيال بالحقيقة . اتصلت به فى ترينيتى فى الأسبوع السابق على الوعد المزمع لسفره إلى أمريكا وسألته إن كان بوسعى أن أذهب لكى أوصله إلى ساوثهامبتون على الأقل لكى أضمن ألا يقاطعنا أحد لعدة ساعات . وقد قلت له إن هناك شيئا مهماً كنت بحاجة لأن أناقشه معه .

قدت السيارة إلى كمبريدج فى وقت مبكر قليلا ووصلت إلى هناك فى وقت منحنى بعض الوقت لكى أساعد دانيال فى حزم حقائبه وبحلول الحادية عشرة كنا قد بدأنا نشق الطريق بالسيارة . أخذ على مدى الساعة الأولى يتحدث بسعادة عن عمله فى كمبريدج - هناك عدد كبير من الطلبة وليس هناك وقت للأبحاث - ولكن فى اللحظة التى دارت فيها دفة الحديث إلى المشاكل التى كنا نواجهها فى الشقق ؛ أدركت أنه قدم لى فرصة ثمينة لإخباره بالحقيقة بشأن والده . ثم فجأة غيَّر الموضوع وفقدت أنا أعصابى . أقسم أنه كان بوسعى أن أطرق الموضوع فى هذا المكان والزمان ولكن الوقت المناسب كان قد ولى .

ونظرا لكن الحزن الذى لاقيناه إثر وفاة والدتى والمشاكل التى أثارتها السيدة تريننثام أثناء غياب دانيال فى أمريكا ؛ قررت أن الفرصة المثلى لمصارحة ابنى كانت قد ولت . توسلت إلى تشارلى أن ينسى هذا الأمر إلى الأبد . إننى أملك زوجا رائعا . أخبرنى أننى

مخططة وأن دانيال كان يملك طبيعة تمكنه من تقبل الحقيقة ولكنه تقبل كونى صاحبة القرار فى هذا الصدد . ولم يشر يوما ثانية إلى هذا الموضوع .

عندما عاد دانيال من أمريكا ، سافرت ثانية إلى ساوثهامبتون لاستقباله . لم أكن أعرف تحديدا ما الذى ألم به ولكنه بدا لى متغيرا . بداية كان يبدو مختلفا - أكثر ارتياحا - وفى اللحظة التى رآنى فيها ، احتضننى بدفء مما أثار دهشتى . وفى طريق العودة إلى لندن ، أخذ يتحدث عن زيارته إلى أمريكا والتى بدا لى أنه استمتع بها . وبدون أن أخوض فى تفاصيل كثيرة ؛ أخبرته بكل ما حدث أثناء غيابه وخططنا المستقبلية لـ " تشيلسيا " . لم تبد عليه علامات الاهتمام بالأنباء ولكن لكى أكون منصفة فإن تشارلى لم يسع يوما لإعلام دانيال بتفاصيل عملنا فى شركة ترامبر لأننا أدركنا أنه كان يحمل مؤهلات العمل الأكاديمى .

قضى دانيال الأسبوعين التاليين معنا قبل أن يعود إلى كمبريدج ، وحتى تشارلى - بالرغم من أنه لم يكن يتسم بدقة الملاحظة - علق على أن دانيال كان قد تغير . كان قد بقى جادا وهادئا وحتى متحفظا كما كان دأبه دائما ولكنه كان أكثر حرارة مع كلينا مما دفعنى للتفكير بأنه ربما قد يكون قد التقى بفتاة أحلامه فى رحلته . كنت أتمنى ذلك ولكن أملى خاب ولم ينوه دانيال لأى فتاة بعينها أثناء الحديث . كانت فكرة زواجه من فتاة أمريكية تروق لى فى واقع الأمر . كان نادرا ما يدعو فتيات إلى منزلنا فى الماضى وكان يبدو دائما شديد الخجل كلما سعينا لتعارفه ببنات أصدقائنا . بل إنه فى الوقع كان يسعى دائما للاختفاء كلما جاءت كلاريسا ويلتشاير لزيارتنا وهو ما كان يحدث كثيرا فى تلك الأيام

حيث إن التوأمين كانا يحضران للتدرب لدينا فى العقار رقم واحد أثناء عطلة جامعة بريستول .

وربما كان بعد عودة دانيال من أمريكا بشهر ، عندما أخبرنى تشارلى أن السيدة ترينثام كانت قد سحبت كل اعتراضها على خطة مشروعنا بربط البرجين ببعضهما البعض . قفزت من شدة الفرح . وعندما أضاف أنها لن تمضى قدما فى خطة إعادة بناء الشقق رفضت أن أصدق وافترضت على الفور أنها لابد أنها تخطط لشىء ما . وحتى تشارلى نفسه أقر قائلا : " ليس لدىَّ أية فكرة عما تخطط له هذه المرأة . كما أن كلينا قد رفض تصديق دافنى عندما أخبرتنا بأنها ربما تكون قد تراجعت عن خططها بعد أن تقدمت فى السن .

وبعدها بأسبوعين وافقت لجنة البناء على أن كل الاعتراضات المقدمة ضد مشروعاتنا قد سحبت بالفعل وبأنه قد أصبح بوسعنا أن نمضى قدما فى مشروعنا البنائى . كانت هذه هى الإشارة التى كان تشارلى ينتظرها لكى يخبر العالم الخارجى بأننا سوف نطرح المشروع للاكتتاب العام .

دعا تشارلى مجلس الإدارة لعقد اجتماع لاتخاذ كل القرارات اللازمة .

نصحنا السيد ميريك ـ الذى لم يغفر له تشارلى يوما أنه سبب بيعنا للوحة فان جوخ ـ بتعيين تيم نيومان من بنك روبرت فليمنج لكى يكون وكيلنا المصرفى التجارى عند طرح السندات المالية . وقد أضاف الرجل المصرفى أيضا أنه يأمل أن تواصل الشركة الجديدة تعاملها مع بنك تشايلد وشركاه فى كل ما يخص أمورها المصرفية . كان تشارلى يود أن يخبره بألا يأمل فى ذلك ولكنه كان

يعلم جيدا أن تغيير البنك قبل الاكتتاب العام بأسابيع قليلة سوف يثير الأقاويل . قبل المجلس الأخذ بالنصيحتين ودعا تيم نيومان من بنك روبرت فليمنج للانضمام إلى المجلس . وقد أنعش تيم الشركة وجدد دماءها حيث كان يمثل الجيل الجديد من رجال المصارف .

ومع ذلك ، فإننى بالرغم من أننى ـ تماما مثل تشارلى ـ قد راق لى السيد نيومان فإننى لم أشعر يوما بوفاق مع السيد بول ميريك .

مع اقتراب يوم الاكتتاب ، كان تشارلى يقضى المزيد والمزيد من الوقت مع الرجل المصرفى ، بينما تولى توم آرنولد مسئولية إدارة المحلات ومراجعة خطة البناء باستثناء العقار رقم واحد الذى كان قد بقى تحت إشرافى .

كنت قد قررت ـ قبل الإعلان النهائى بشهور عديدة ـ عقد جلسة بيع كبرى فى دار المزادات قبل الاكتتاب العام وقد كنت واثقة من أن المجموعة الفنية الإيطالية التى كرست لها الكثير من وقتى كانت بمثابة فرصة مثالية لوضع العقار رقم واحد من شارع تشيلسيا على الخريطة .

كان خبيرى الأساسى السيد فرانسيس لويسان قد استغرق ما يقرب من عامين فى جمع تسع وخمسين لوحة كانت كلها قد رسمت ما بين عامى ١٥١٩ ، ١٧٦٨ . كان أكبر إنجاز حققناه هو لوحة كاناليتو التى كانت تحمل اسم باسيليكيا سانت مارك ، وهى إحدى اللوحات التى كانت قد خلفتها إحدى عمات دافنى من كمبرلاند إليها . قالت دافنى بطريقتها المميزة فى الحديث : " إنها ليست فى مثل مستوى اللوحتين اللتين يملكهما بيرسى فى لانار كشاير " . ثم أضافت بابتسامة : " ومع ذلك ، فأنا أتوقع أن تصل

إلى سعر جيد يا عزيزتى . لن يجد سوثباى بعدها زبونا يتعامل معه " .

قيمنا اللوحة بما يقرب من ثلاثين ألف جنيه . وقد أخبرت دافنى أن هذا الرقم كان دقيقا تماما إن وضعنا فى الاعتبار أن أعلى رقم سجله كاناليتو هو ثمانية وثلاثين ألف جنيه وهو الرقم الذى حققه لدى كريستى فى العام السابق .

بينما كنت فى المراحل الأخيرة من الإعداد للبيع كان تشارلى وتيم نيومان يقضيان جل وقتهما فى زيارة المؤسسات والبنوك وشركات التمويل وكبار المستثمرين لإقناعهم بأسباب المشاركة فى أكبر " عربة نقالة فى العالم " .

كان تيم متفائلا بشأن النتائج وشعر أن الاكتتاب فور إعلانه سوف يعود علينا بأعداد تفوق كثيرا ما نريده . ومع ذلك فقد رأى هو وتشارلى أنهما يجب أن يسافرا إلى نيويورك لإثارة اهتمام المستثمرين الأمريكان . وقد حدد تشارلى موعد رحلته إلى الولايات المتحدة بحيث يتمكن من العودة إلى لندن قبل المزاد بيومين وقبل موعد إعلان الاكتتاب العام بثلاثة أسابيع كاملة .

كان يوم اثنين بارد من شهر مايو ، ربما لم أكن يومها فى أفضل حالاتى ولكننى يمكن أن أقسم أننى كنت أعرف الزبونة التى كانت منهمكة فى الحوار مع أحد موظفينا الجدد . وقد أقلقنى كونى عجزت عن تذكر هذه السيدة متوسطة العمر التى كانت ترتدى معطفا يعود إلى الثلاثينات والتى كانت تبدو وكأنها مرت بوقت عصيب دفع بها إلى السعى لبيع بعض الممتلكات التى ورثتها عن أسرتها .

وبمجرد أن غادرت المحل ، هرعت إلى المكتب وسألت كاثى - الموظفة التى كانت قد عينت لدينا مؤخرا - عن اسمها .

قالت الفتاة الشابة الواقفة خلف النضد : " تدعى السيدة بينيت " . لم يكن الاسم يعنى لى شيئا فسألتها عما كانت تريده .

قدمت لى كاثى لوحة زيتية صغيرة رائعة للغاية وقالت : " سألتنى السيدة إن كان مازال بوسعنا طرحها فى المزاد مع مجموعة التحف الإيطالية . إنها لا تملك أية معلومات عن اللوحة مما دفعنى إلى التساؤل إن كانت اللوحة مسروقة . كنت على وشك التحدث مع السيد لويسان فى هذا الصدد " .

أخذت أحدق فى اللوحة الزيتية وعرفت فى الحال أن السيدة التى جاءت وأحضرت اللوحة هى أخت تشارلى الصغرى .

" دعى هذا الأمر لى " .

" أمرك يا سيدة ترامبر " .

توجهت إلى الدور العلوى بواسطة المصعد وتوجهت مباشرة متخطية جيسيكا آلان نحو مكتب تشارلى . قدمت له الصورة لكى يتفحصها وشرحت له كيف آلت إلينا.

نحى ورقة العمل التى كان يحملها فى يده جانبا وأخذ يتأمل اللوحة لبعض الوقت بدون أن ينطق بكلمة .

قال تشارلى أخيرا : " حسنا ، هناك شىء مؤكد وهو أن كيتى لن تخبرنا أبدا بالشخص أو الطريقة التى حصلت بها على الصورة وإلا لكانت قد أتت إلىّ مباشرة " .

" إذن ما الذى سوف نفعله ؟ " .

" اطرحيها للبيع فى المزاد كما طلبت منك لأننى واثق من أن أحدا لن يقدم لشرائها سعرا أكبر من السعر الذى سوف أطرحه " .

" ولكن إن كان كل ما تسعى إليه هو الحصول على بعض المال فلم لا نعقد معها عرضا جيدا مقابل اللوحة ؟ " .

" إن كان كل ما تريده كيتى هو بعض المال لكانت واقفة فى مكتبى الآن . كلا ؛ إن ما تتوق إليه حقا هو إذلالى " .

" ولكن ماذا لو كانت قد سرقت اللوحة ؟ " .

" ممن ؟ وحتى إن كان الحال كذلك فهذا لا يمنعنا من ذكر مصدر الصورة فى الكتالوج . لابد أن الشرطة مازالت محتفظة بكل تفاصيل حادث السرقة الذى وقع فى الماضى " .

" ولكن ماذا لو كان جاى هو الذى أعطاها الصورة ؟ " .

قال تشارلى مذكراً : " جاى قد توفى " .

شعرت بسعادة غامرة من كم الاهتمام الذى أبدته الصحافة والعامة بالمزاد المزمع . كما كان هناك أيضا أمر آخر يدعو إلى التفاؤل وهو أننا رأينا العديد من النقاد ومحبى اقتناء المجموعات الفنية وهم يدرسون اللوحات المعروضة عن كثب فى المتحف الأساسى فى الأسبوع السابق على المزاد .

بدأت المقالات التى تتحدث عنى وعن تشارلى تظهر فى الصحف ؛ بداية فى القسم المالى ثم توالى ظهورها فى الأقسام الأخرى . لم أعبأ كثيرا بوقع عنوان " آل ترامبر الفائزون " الذى أطلقته علينا إحدى الصحف ولكن تيم نيومان شرح لنا أهمية الدور الذى تلعبه العلاقات العامة فى اكتتاب عام بمثل هذا المستوى . ومع توالى المقالات التى تنشر عنا يوما بعد يوم ؛ ازداد المدير المالى الشاب الجديد ثقة فى أن الاكتتاب سوف يلاقى نجاحا كبيرا .

عمل فرانسيس لويسان ومساعدته الجديدة كاثى روس فى إعداد الكتالوج على مدى عدة أسابيع وبذلا قصارى جهدهما فى تفقد تاريخ كل لوحة وملاكها السابقين والمتاحف والمعارض التى عرضتها قبل أن تصل إلى دار مزادات ترامبر . وقد فوجئنا لدهشتنا أن ما لاقى إقبالا جماهيريا كبيرا هو الكتالوج نفسه الذى كان متميزا فى إخراجه وليست اللوحات نفسها . كان الكتالوج قد كبدنا ثروتنا فى إعداده ولكننا بما أن طلبنا إعادة طبعه مرتين قبل يوم المزاد وبما أننا نجحنا فى بيع الكتالوج الواحد مقابل خمسة شلنات ، فلم يمض وقت طويل إلا وكنا قد استرددنا التكلفة التى تكبدناها . وقد مكننى هذا من إخبار المجلس فى الاجتماع الشهرى أننا بعد أن أعدنا الطبع مرتين قد نجحنا حتى فى تحقيق قدر من الربح . " ربما يجدر بك أن تغلقى المتحف وتفتحى دار نشر " ، كان هذا كل ما علق به تشارلى .

كانت قاعة العرض فى العقار رقم واحد تتسع لمائتين وعشرين مقعدا بمنتهى الارتياح . كنا قد عجزنا فى الماضى عن شغل كل هذه المقاعد ولكننا فى ذلك ؛ مع توالى الإقبال على طلب شراء التذاكر عبر البريد ؛ كان علينا بسرعة أن نميز بين الأشخاص الذى يسعون للمشاركة الفعلية وغيرهم ممن كانوا يريدون الحضور للمشاهدة فقط .

وبالرغم من الاستبعاد والطرد بل وتعمد استخدام الفظاظة مع واحد أو اثنين ممن دأبوا على الإلحاح لحضور الحدث ، انتهى بنا المآل إلى ثلاثمائة شخص كان يجب علينا أن نوفر لهم جميعا مقاعد للجلوس . كان هناك عدة صحفيين من بين هذا العدد ولكن الإنجاز الحقيقى كان فى طلب أحد مخرجى البرامج الفنية فى " البرنامج الثالث " الذى اتصل بنا طالبا تغطية المزاد فى المذياع .

عاد تشارلى من أمريكا قبل المزاد بيومين وأخبرنى فى اختصار أن الرحلة كانت فى مجملها رحلة مرضية للغاية ؛ أى حقق ما يريده . وقد أضاف أن دافنى سوف تصحبه إلى المزاد قائلاً : " يجب أن نسعى لإسعاد كبار الزبائن " . لم أخبره بأننى نسيت تماما أن أعين له مقعدا ولكن سيمون ماثيوس ـ الذى عين مؤخرا نائبا عنى ـ نجح فى حشر مقعدين إضافيين فى نهاية الصف السابع وأخذ يدعو الله ألا يحضر أحد أفراد قسم الحرائق بين المزايدين .

قررنا أن نعقد المزاد فى تمام الثالثة عصر يوم الثلاثاء ، بعدما نصحنا تيم نيومان بذلك لكى نحظى بأعلى مستوى من التغطية الصحفية فى الجرائد القومية فى اليوم التالى .

بقيت أنا وسيمون ساهرين طوال الليل قبل المزاد مع طاقم المبيعات لنقل الصور من فوق جدران العرض وترتيبها بنظام استعدادا للمزاد . وبعدها تفقدنا الحوامل التى ستحمل كل لوحة وأخيرا رتبنا المقاعد فى قاعة المزاد بحيث تكون متقاربة إلى أقصى درجة . وبعدما سحبنا القاعدة التى كان سيمون سيجرى المزاد من فوقها إلى الوراء قليلا نجحنا فى وضع صف كامل آخر من المقاعد . ربما يكون هذا قد قلل من المساحة المتروكة للمراقبين ـ الذين كانوا يقفون دائما بجوار القائمين على المزاد بحثا عن المزايدين ـ ولكنه بالتاكيد حل فى المقابل أربع عشرة مشكلة أخرى .

فى صباح يوم المزاد قمنا بإجراء بروفة نهائية أخرى حيث قام الحمالون بوضع كل لوحة فى حاملها بينما كان سيمون ينادى رقمها ثم يقومون بإزالة اللوحة بما أن يدق بالمطرقة وينادى على اللوحة التالية . وعندما وصلت لوحة كاناليتو أخيرا إلى الحامل ،

عكست اللوحة كل التقنيات المتقدمة والملاحظات الدقيقة التى كانت تعد العلامة المميزة لهذا الفنان الرائد . لم يسعنى إلا أن أبتسم عندما تلت هذه الروعة الفريدة لوحة تشارلى الصغيرة . وبالرغم من البحث المستفيض ، عجزت كاثى روس عن تبين أصل الصورة ومصدرها ؛ فاكتفينا بوضعها فى إطار وإرجاع أصلها إلى مدرسة القرن السادس عشر . كنت قد قدرت لها فى كتابى الخاص سعر مائتى جنيه بالرغم من أننى كنت واثقة من أن تشارلى كان على استعداد لاسترجاعها مقابل أى ثمن . وكانت كيفية حصول كيتى على الصورة مازال يقلقنى ولكن تشارلى كان لا يكف عن مطالبتى بعدم الإفراط فى القلق . كان لديه مشاكل أكبر من كيفية حصول أخته على هدية تومى .

فى عصر يوم المزاد كان البعض قد جلس على مقاعده بالفعل فى الثانية وخمس عشرة دقيقة . لاحظت وجود أكثر من مشتر من كبار المشترين وأصحاب المعارض ممن لم يحجزوا مسبقا وكان عليهم نتيجة لذلك أن يلتزموا بالوقوف فى المكان المخصص لذلك فى الخلف .

مع حلول الثانية وخمس وأربعين دقيقة لم يكن قد بقى غير بضعة مقاعد قليلة فقط مما اضطر كل المتأخرين إلى الاحتشاد متلاصقين بجوار الجدران بل واضطر واحد أو اثنان للجلوس فى ممر الوسط . وفى الثانية وخمس وخمسين ؛ شقت دافنى القاعة وهى فى أبهى صورها ؛ كانت ترتدى ثوبًا أزرق من الكشمير محاك بمنتهى الدقة ؛ كنت قد رأيته معروضا فى مجلة فوج فى الشهر السابق . كان تشارلى ـ الذى شعرت أنه كان منهكا بعض الشىء ـ

يسير خلفها بخطوة . جلسا فى نهاية الصف السابع لبعض الأسباب العاطفية التى كان قد شرحها لى . بدت دافنى راضية تماما عن نفسها بينما بدا تشارلى متأففا نافد الصبر .

وفى تمام الثالثة جلست فى مقعدى بجوار قاعدة القائم بالمزاد بينما صعد سيمون الدرج نحو الصندوق الصغير وصمت للحظة لكى يتبين موضع جلوس الزبائن المهمين من بين الحشد ثم دق بمطرقته عدة مرات .

أعلن قائلاً : " مساء الخير أيها السيدات والسادة مرحبا بكم فى قاعة مزادات ترامبر للفنون الجميلة " ، وقد نجح بشكل ما فى تسليط الضوء على كلمة الفنون الجميلة بشكل متأنق . وعندما دعا لاستعراض اللوحة رقم ١ سادت حالة من الصمت فى أرجاء القاعة . راجعت اللوحة فى كتالوجى الخاص بالرغم من أننى كنت أعتقد أننى أعرف كل التفاصيل الخاصة باللوحات التسعة والخمسين عن ظهر قلب . كانت لوحة لـ " سانت فرانسيس أوف أسيسى " لجيوفانى باتيستا كريسبى ، يرجع تاريخها لعام ١٦١٧ . كانت اللوحة تحمل حروف كيو آى إتش جنيها ؛ لذا عندما دق سيمون مطرقته على ألفين ومائتى جنيه أى أكثر من المبلغ المتوقع بسبعمائة جنيه ، شعرت بأنها بداية جيدة .

من بين التسع والخمسين لوحة المعروضة فى المزاد كانت لوحة كاناليتو مرجأة إلى الرقم ٣٧ لأننى كنت أريد أن أثير جوًا من الإثارة قبل أن تطرح هذه اللوحة للعرض وفى نفس الوقت كنت لا أريد أن أؤخرها لأكثر من ذلك حتى لا يكون الجمهور قد فقد حماسه . حققت الساعة الأولى من المزاد سبعة وأربعين ألف جنيه ولم نكن بعد قد وصلنا إلى لوحة كاناليتو . عندما سلط الضوء على اللوحة

التى يصل عرضها إلى سبع أقدام ، كتم بعض الحاضرين ممن لم يشاهدوا تلك التحفة من قبل أنفاسهم .

قال سيمون : " لوحة لسانت مارك بازيليكا للرسام كاناليتو ترجع إلى عام ١٧٤١ " قالها كما لو كنا نملك نصف دستة منها فى مخزن الدور السفلى وأضاف : " لاقت هذه اللوحة اهتمامًا بالغًا ولدىّ عرض مبدئى بعشرة آلاف جنيه " وأخذت عيناه تدوران فى أرجاء القاعة الصامتة حيث أخذت أنا وكل القائمين على تفقد المزايدين ندور بأعيننا بحثا عن اتجاه المزايدة الثانية .

قال سيمون وهو ينظر نحو ممثل الحكومة الإيطالية الذى كان جالسا فى الصف الخامس : " خمسة عشر ألفاً " .

" عشرون ألفا فى الصف الأخير من القاعة " ـ كنت أعلم أنه بلا شك ممثل مجموعة ميلون . كان يجلس دائما فى الصف الثانى من مؤخرة القاعة تاركا سيجارته مدلاة من بين شفتيه فى إشارة إلى أنه مازال مشاركا فى المزاد .

" خمسة وعشرون ألف جنيه " ، قال سيمون ذلك وهو يستدير ثانية جهة ممثل الحكومة الإيطالية .

" ثلاثون ألفا " ، كانت السجارة مازلت مشتعلة . كان ميلون مازال مشاركا فى السباق .

" خمسة وثلاثون ألفاً " ، وقع نظرى على مزايد جديد يجلس فى الصف الرابع عن يمينى . كان اسمه هو السيد رانديل ؛ مدير متحف ويلدنشتاين من شارع بوند .

" أربعون ألفا " ، هكذا قال سيمون وهو يراقب دخان السيجارة الصادر من الخلف . كنا قد تخطينا المبلغ الذى قدرناه لدافنى ومع ذلك لم يرتسم أى تعبير على وجهها .

قال سيمون : " هل لى بخمسين ألفا ؟ " كانت هذه قفزة كبيرة فى هذه المرحلة من وجهة نظرى . نظرت إلى الصندوق ولاحظت أن يد سيمون كانت ترتجف .

" خمسون ألفا " ، كرر ذلك بشىء من التوتر ، عندما بدأ مزايد جديد فى الصف الأمامى - لم أتعرف عليه - وأمأ برأسه فى حماس .

نفث رجل المؤخرة دخان سيجارته ثانية وقال : " خمسة وخمسون ألفاً " .

" ستون ألفاً " . عاد سيمون لينظر ثانية فى اتجاه المزايد المجهول الذى أكد بإيماءة حادة أنه مازال مشاركا .

" خمسة وستون ألفاً " ، واصل ممثل ميلون نفثه للسيجارة ، ولكنه عندما عاد ببصره هذه المرة إلى مزايد الصف الأول ، هز المزايد رأسه بإشارة نفى قاطعة .

" إذن خمسة وستون ألفاً للرجل الجالس فى الصف الأخير ، خمسة وستون ألفاً ، هل هناك من يزيد ؟ " ، وثانية نظر سيمون للرجل المزايد فى الصف الثانى مضيفاً : " إذن سوف أبيع لوحة كاناليتو بخمسة وستين ألفاً ، خمسة وستين ألفاً للمرة الثانية ، إذن بيعت بخمسة وستين ألفاً " . دق سيمون بمطرقته محدثا دويا بعد أقل من دقيقتين بعد عرض أول مزايدة ، فوضعت علامة زد آى إتش إتش فى كتالوجى فى الوقت الذى سادت فيه موجة من التصفيق بشكل تلقائى بين الجمهور ، فى السابقة الأولى من نوعها فى العقار رقم ١ .

سادت ثرثرة مزعجة فى كل أرجاء القاعة بينما استدار سيمون جهتى وقال فى صوت خفيض : " آسف لهذا الخطأ يا بيكى " ،

وعندها أدركت أن القفزة من أربعين إلى خمسين ألفاً لم تكن إلا زلة ناجمة عن اضطراب أعصاب القائم بالمزاد .

بدأت أتصور العنوان المتوقع الذى سوف تطالعنا به صحف اليوم التالى : " سعر قياسى لـ " كاناليتو " فى مزاد ترامبر " . سوف يسعد تشارلى بذلك .

" لا أتصور أن صورة تشارلى الصغيرة سوف تصل إلى مثل هذا السعر " أضاف سيمون مبتسما عندما حلت صورة تشارلى محل لوحة كاناليتو فوق منصة العرض واستدار سيمون لكى يواجه الجمهور ثانية .

قال سيمون : " هدوء من فضلكم . اللوحة التالية ، رقم ٣٨ فى الكتالوج ، من مدرسة برونزينو " ، جال فى أنحاء الغرفة وقال : " لدىّ عرض بمائة وخمسين جنيها " ، ثم صمت للحظة وسأل : " هل لى بمائة وخمسة وسبعين ؟ " رفعت دافنى - بوازع من تشارلى على ما أظن - يدها ، فكتمت ابتسامتى . قال سيمون : " مائة وخمسة وسبعين جنيها . هل لى بمائتين ؟ " ، جال سيمون ببصره أنحاء القاعة على أمل الحصول على سعر أعلى ولكن بلا استجابة . " إذن سوف أعرضها مقابل هذا المبلغ للمرة الأولى ثم مقابل مائة وخمسة وسبعين جنيها للمرة الثانية وللمرة الثالثة ، إذن ... " .

ولكن قبل أن يدق سيمون بمطرقته ، قفز رجل بدين ذو شارب بنى وشعر رمادى مرتديا سترة من التويد وقميصاً ورابطة عنق صفراء من فوق مقعده فى مؤخرة القاعة وصاح قائلا : " هذه اللوحة لا تنتمى إلى مدرسة فلان وإنما هى لوحة أصلية لبرونزينو وقد سرقت من مؤسسة سانت أوجستين بالقرب من الرايمز فى الحرب العالمية الأولى " .

سادت حالة من الهرج والمرج فى كل أرجاء القاعة بينما أخذ الجمهور يحدق أولا فى الرجل صاحب رابطة العنق الصفراء ثم اللوحة الصغيرة . أخذ سيمون يدق بمطرقته عدة مرات بشكل متكرر ولكنه فشل فى استعادة الانضباط بينما انهمك الصحفيون بشكل محموم فى تدوين ما يجرى . استرقت النظر إلى تشارلى ودافنى وإذا بهما منهمكان فى حوار حار .

وعندما هدأت العاصفة ، بدأت الأنظار تتركز على الرجل الذى ادعى الادعاء . بقى ثابتا فى مكانه .

قال سيمون بحزم : " أعتقد أنك مخطىء يا سيدى ، وأستطيع أن أؤكد لك أن هذه اللوحة كان معروفة للمتحف منذ بضع سنوات " .

أجاب الرجل : " وأنا أؤكد لك يا سيدى أن هذه اللوحة أصلية وبالرغم من أننى لا أتهم المالك السابق بأنه سرقها ، فإننى أستطيع أن أثبت أنها مسروقة " . بدأ العديد من الحضور يبحثون فى كتالوجاتهم عن اسم المالك الأخير للوحة فوجدوا عبارة " من المجموعة الخاصة للسير تشارلى ترامبر " ، وكانت الكلمات مدونة بالأحرف الكبيرة فى السطر العلوى .

بدأ الصخب يتعالى أكثر من ذى قبل ، ومع ذلك بقى الرجل واقفا . ملت جهة سيمون وجذبت بنطاله ، فمال بدوره جهتى فهمست فى أذنه بالقرار الذى خلصت إليه . دق بمطرقته عدة مرات وأخيرا نجح فى استعادة الهدوء داخل القاعة . نظرت جهة تشارلى فإذا وجهه شاحب فى لون الثلج وبعدها نظرت إلى دافنى فوجدتها مازالت محتفظة بهدوئها ممسكة بيد تشارلى . بما أننى كنت واثقة من أنه لابد أن يكون هناك تفسير لهذا اللغز ، فقد

بقيت محتفظة بهدوئى . وعندما نجح سيمون أخيرا فى استعادة النظام ، أعلن قائلا : " قررنا تأجيل بيع هذه اللوحة حتى إشعار آخر " .

أضاف سريعا قائلاً : " اللوحة رقم ٣٩ " ، بينما نهض الرجل ذو السترة التويد وغادر القاعة مسرعا متبوعا بزمرة من رجال الصحافة .

لم تصل أى لوحة من اللوحات التالية إلى سعرها المقدر ، وعندما دق سيمون بمطرقته للمرة الأخيرة فى ذلك اليوم ، بالرغم من أنه كان قد حطم سعر كل دور المزايدة فى بيع اللوحة الإيطالية ، فإننى كنت أعلم يقينا القصة التى سوف تتداولها الصحف فى صباح اليوم التالى . نظرت إلى تشارلى الذى كان يبذل بوضوح قصارى جهده لكى يحتفظ بهدوئه . واستدرت بشكل تلقائى لكى ألقى نظرة على مقعد الرجل الذى كان يرتدى السترة التويد . بدأت القاعة تنفض بينما بدأت الحشود تتوجه صوب الأبواب ولاحظت للمرة الأولى أن هناك سيدة كبيرة فى السن كانت تجلس خلف مقعد الرجل ؛ كانت تجلس فى استقامة واضحة وتضع يديها على رأس مظلة يد . كانت تحدق فىّ مباشرة .

وعندما تأكدت السيدة تريتثام من أنها قد جذبت انتباهى ، نهضت من مقعدها فى شموخ وبدأت تسير فى تؤدة خارج دار العرض .

فى صباح اليوم التالى ، حظيت الصحافة بيوم حافل . وبالرغم من أن تشارلى وأنا لم ندل بأية تصريحات ، فإن صورتنا كانت قد احتلت الصفحة الأولى من كل الصحف باستثناء صحيفة التايمز التى

عرضت صورة اللوحة . ولم يرد ذكر للوحة كانـاليتو على مدى الفقرات العشر الأوائل من كل التقارير الصحفية كما لم تكن هناك بالطبع أى صورة للوحة .

يبدو أن الرجل الذى ألقى الاتهام كان قد اختفى بدون أن يقتفى أحد له أثرا وكان الأمر برمته يمكن أن يقف عند هذا الحد ما لم يقبل مونسينيور بيير جيشو ؛ مسئول المؤسسة التى تنتمى لها اللوحة ؛ بإجراء حوار مع فريدى باركر مراسل صحيفة الديلى تليجراف الذى كشف عن أن جيشو كان مدير الدار التى كانت تحمل فوق جدرانها اللوحة الأصلية . وقد أكد المسئول لباركر أن اللوحة كانت بالفعل قد اختفت فى ظروف غامضة أثناء الحرب الكبرى والأهم من ذلك ؛ هو أنه كان قد أبلغ عن اختفائها للقسم المسئول فى عصبة الأمم والذى كان - بموجب اتفاقية جنيف - مسئولا عن رد كل الأعمال الفنية المسروقة إلى أصحابها الشرعيين بمجرد أن تنتهى الحرب . وقد واصل المسئول حديثه قائلا إنه بالطبع سوف يتعرف على اللوحة فور رؤيتها ثانية لأن الألوان واتساقها ؛ كل هذه السمات المميزة للوحة برونزينو سوف تبقى محفورة فى ذاكرته إلى الممات . وقد دون باركر كلماته حرفيا .

اتصل مراسل صحيفة التليجراف بمكتبى فى اليوم الذى نشرت فيه تفاصيل المقابلة وأخبرنى أن الجريدة سوف تتحمل نفقات سفر المسئول لكى يتفحص اللوحة بنفسه وبالتالى يتأكد بما لا يدع مجالا للشك من هويتها . وقد حذرنا مستشارونا القانونيون من أن منع المسئول من معاينة اللوحة سوف يكون تصرفا غير حكيم ، وسوف يفسر على أنه محاولة منا لإخفاء شيء ما . وافق تشارلى بلا تردد

وأضاف قائلاً : " دعنى أرى هذه الصورة ؛ أنا واثق من أن تومى قد غادر المؤسسة وهو لا يحمل معه سوى خوذة الجندى الألمانى " .

وفى صباح اليوم التالى ، حذرنا تيم نيومان من أن المسئول إن ذكر أن اللوحة هى لوحة برونزينو الأصلية فسوف يتحتم علينا إرجاء حملة ترامبر العامة لعام كامل ؛ إلى أن نبرأ من هذه الفضيحة .

فى الخميس التالى ، طار المسئول إلى لندن واستقبل بجحافل من الصحفيين والمصورين أخذوا يلتقطون له الصور إلى أن انطلقت به السيارة إلى ويست مينيستر .

كان المسئول قد وافق على زيارة المتحف فى الرابعة من نفس اليوم . كان أى مار فى شراع تشيلسيا فى ذلك الخميس سوف يكون معذورا إن ظن أن فرانك سيناترا كان بصدد المرور . كانت الجماهير قد احتشدت فى الطريق فى ترقب انتظارا لوصول الرجل .

قابلت المسئول عند مدخل المتحف وقدمته لـ " تشارلى " الذى انحنى محييا له . ابتسمت فى توتر للضيف الذى كان يحمل ابتسامة دائمة على وجهه ، ذلك الوجه الذى كان قد اكتسب لونا أحمر من جراء شرب الخمر وليس الشمس فى اعتقادى . سار بطول الرواق فى ردائه البنفسجى بينما قادته كاثى إلى غرفتى حيث كانت الصورة فى انتظاره . قدم باركر - الصحفى فى جريدة التليجراف - نفسه إلى سيمون كما لو كان يتعامل مع شخص من العالم السفلى . لم يسع لأن يتعامل معه بشكل لائق عندما حاول سيمون أن يفتح معه مجالا للحوار .

وصل الأسقف إلى مكتبى وقبل تناول قدح من القهوة ، كنت قد وضعت اللوحة بالفعل على الحامل بعد أن وضعت الصورة داخل

إطارها الأسود القديم بعد إصرار تشارلي . جلسنا جميعا حول المائدة في صمت بينما أخذ المسئول يحدق في الصورة .

سأل وهو يمد ذراعيه : " هل تسمحي لي ؟ "

أجبت قائلة : " بالطبع " وقدمت له اللوحة الزيتية .

أخذت أراقب عينيه بإمعان وهو يحمل اللوحة أمامه . كان يبدي نفس القدر من الاهتمام بـ " تشارلي " الذي لم أره يوما في مثل هذا التوتر . كما أنه ألقى نظرة على باركر الذي كانت نظرة الأمل تطل من عينيه . عاد المسئول ثانية يركز انتباهه على اللوحة وابتسم وبدا وكأنه مأخوذ بها .

سأل الصحفي : " حسناً ؟ " .

" جميلة . إنها بمثابة إلهام لكل فرد " .

ابتسم باركر ودون كلماته حرفا بحرف .

أضاف المسئول : " هل تعلم أن هذه اللوحة تعيد إليّ الكثير والكثير من الذكريات ؟ " ، تردد للحظة شعرت عندها أن قلبي كاد يتوقف قبل أن يعلن قائلا : " ولكن للأسف ، يجب أن أقول يا سيد باركر إنها ليست الصورة الأصلية . إنها مجرد نسخة مقلدة منها " .

توقف الصحفي عن الكتابة متسائلاً : " مجرد نسخة ؟ " .

" أجل ، آسف لذلك . إنها نسخة ممتازة ، ربما رسمها أحد صغار تلامذة الأستاذ العظيم في ظني ولكنها مجرد نسخة " .

عجز باركر عن إخفاء خيبة أمله وهو يضع الورقة التي كان يدون فيها على المائدة وكأنه على وشك الاعتراض .

نهض المسئول من مقعده وانحنى في اتجاهي قائلاً : " آسف لهذا الإزعاج يا سيدة ترامبر " .

نهضت أنا الأخرى وصحبت المسئول إلى الباب حيث قوبل ثانية بحشد كبير من رجال الصحافة . بقي الصحفيون صامتين في انتظار تصريح المسئول وهيئ إليّ للحظة أنه مستمتع بهذه التجربة .

صاح صحفي من وسط الحشد : " إنها اللوحة الأصلية أيها المسئول ، أليس كذلك ؟ " .

ابتسم في سماحة : " إنها بالطبع لوحة جميلة ولكنها مجرد نسخة ، لا تعدو كونها كذلك " . لم يضف كلمة على هذه العبارة قبل أن يمتطي السيارة ثانية لكي يعود أدراجه .

" يا للراحة " ، قلتها بمجرد أن غابت السيارة عن الأنظار . استدرت بحثا عن تشارلي ولكنه كان قد اختفى . هرعت عائدة إلى مكتبي فوجدته يحمل الصورة بين يديه . أغلقت الباب ورائي لكي ينفرد بنفسه .

كررت قائلة : " يا للراحة . الآن يمكن أن تعود الحياة إلى طبيعتها " .

" أنت تعلمين بالطبع أن هذه اللوحة هي لوحة برونزينو " ، قال تشارلي ذلك وهو ينظر إليّ مباشرة .

قلت له : " لا تكن سخيفا " إن المسئول قد ـــ " .

قال تشارلي : " ولكن ألم تلحظي الطريقة التي كان يحمل بها اللوحة ؟ إن المرء لا ينظر إلى لوحة مزيفة بهذه الطريقة . كما أنني راقبت عينيه وهو يصل إلى قراره " .

" قراره ؟ " .

" نعم ، قراره إن كان على استعداد لأن يدمر حياتنا ، مقابل لوحته المحبوبة أم لا ؟ " .

" هل هذا يعنى أنك كنت تملك لوحة أصلية بدون أن تدرى ؟ " .

" يبدو ذلك ولكننى لست أدرى من الذى سرق الصورة من المؤسسة فى الأساس ؟ " .

" ليس جاى بالطبع ... " .

" ولم لا ؛ إنه الأقدر من تومى على تقدير قيمتها " .

" ولكن كيف اكتشف جاى مصير الصورة ناهيك عن قيمتها الحقيقية " .

" من السجلات أو ربما من حوار عابر مع دافنى " .

" ولكن هذا لا يشرح بالقدر الكافى معرفته لكونها أصلية " .

قال تشارلى : " أوافقك الرأى . أظن أنه لم يكن يعرف وأنه فقط وجد فى اللوحة وسيلة أخرى لكى ينال بها منى " .

" إذن كيف بحق السماء .... ؟ " .

" بينما كان لدى السيدة ترينشام سنوات طويلة تبحث فيها عن ـــ " .

" يا إلهى ولكن كيف ظهرت كيتى فى الصورة ؟ " .

" كانت مجرد عامل تشويش ؛ ليس أكثر ؛ استخدمتها السيدة ترينشام لتضليلنا " .

" إن هذه السيدة على استعداد لعمل أى شىء لتدميرنا " .

" أعتقد ذلك . وهناك شىء أكيد ؛ وهو أنها لن تسر عندما تكتشف أن أفضل خططها قد باءت بالفشل ثانية " .

انهرت فوق المقعد المجاور لزوجى وقلت : " ما الذى سنفعله الآن ؟ " .

واصل تشارلى تحديقه فى الصورة الصغيرة الأصلية كما لو كان يخشى أن ينقض عليها أحد ويسلبه إياها .

" هناك شىء واحد فقط نستطيع أن نفعله " .

قدت السيارة التى أقلتنى أنا وتشارلى إلى مقر المؤسسة فى مساء ذلك اليوم وركنت السيارة بالخارج . " كم كان هذا لائقا " ، قال تشارلى ذلك قبل أن يطرق فى هدوء باباً بلوطيًّا قديماً . أجاب شخص طرقه وبدون كلمة قادنا لمقابلة المسئول الذى وجدناه يتناول كأسا من الشراب مع شخص آخر .

قال المسئول : " سير تشارلى والليدى ترامبر " .

قال وهو يتقدم لتحيتنا : " مرحباً . إنها سعادة غير متوقعة " ، أضاف بعدما صافحه تشارلى : " ولكن ما الذى جاء بكما إلى هنا ؟ " .

" لدينا هدية صغيرة نود أن نقدمها لك " ، قلت له ذلك وأنا أمدد له يدى بلفافة ورقية صغيرة . ابتسم المسئول نفس الابتسامة التى أعلن بها أن اللوحة ليست أصلية . ثم فتح اللفافة فى ترو كما لو كان طفلا قد تلقى هدية فى غير عيد ميلاده . تأمل الصورة الأصلية بين يديه لبعض الوقت قبل أن يمررها للشخص الآخر لكى يتأملها .

قال الرجل الآخر قبل أن يعيدها إلى المسئول : " رائعة بحق ، أين ستعلقها ؟ " .

أجاب المسئول : " فى القاعة ، أعتقد أن هذا هو المكان المناسب " .

" ربما يكتشف شخص ما أكثر دراية بمثل هذه الأمور أن الصورة هى الأصلية " ، ثم رفع رأسه وابتسم ابتسامة خبيثة بالنسبة لمسئول كبير .

استدار نحونا وقال : " أتودون تناول العشاء معنا ؟ " .

شكرنا المسئول على حسن ضيافته واعتذرنا عن عدم قبول الدعوة نظراً لالتزامنا بخطط مسبقة . وتمنينا له ليلة طيبة وعدنا أدراجنا من حيث أتينا .

وعندما أغلق الباب وراءنا ، سمعنا صوت الرجل الآخر وهو يقول : " لقد ربحت رهانك يا بيير " .

الفصل ٣٦

" عشرون ألف جنيه ؟ " ، قالت بيكى ذلك عندما توقفت أمام العقار رقم ١٤١ وأضافت : " لابد أنك تمزح " .

قال تيم نيومان : " هذا هو السعر الذى يطلبه الوكيل "

" ولكن المحل لا يساوى أكثر من ثلاثة آلاف جنيه على الأكثر . " ، هكذا قال تشارلى وهو يحدق فى المتجر الوحيد الذى لم يكن يملكه فى المبنى باستثناء الشقق وأضاف : " وعلى أية حال ، لقد وقعت اتفاقا مع السيد سنيدلز على أنه عندما ـــ " .

قال المصرفى : " ليس من أجل الكتب ، إنك لم ... " .

قالت بيكى بعد أن لاحظت للمرة الأولى أن سلسلة كبيرة ومزلاجاً كانا يحولان دون دخولهما المكان : " ولكننا لا نريد الكتب " .

" إذن لا يمكنكما امتلاك المحل ، لأن الكتب إن لم تبع عن آخرها فهذا يعنى أن عقدكما مع السيد سنيدلز لا يمكن أن يُفَعَّل " .

سألت بيكى : " وما هى القيمة الفعلية للكتب ؟ "

قال تيم نيومان : " كدأبه دائما ، لقد وضع السيد سنيدلز سعر كل كتاب فوقه ، وقد أخبرنى زميله الدكتور هالكومب أن القيمة الإجمالية للكتب تصل إلى خمسة آلاف جنيه باستثناء ـــــ " .

قال تشارلى : " اشتريها كلها لأننى من خلال معرفتى بـ " سنيدلز " أرى أنه على الأرجح لم يقدر الكتب حق قدرها فى المقام الأول . مما يعنى أن بيكى يمكن أن تطرح المجموعة كاملة للبيع فى وقت متأخر من هذا العام . مما سوف يقلل خسائرنا لأكثر من ألف " .

أضاف نيومان : " هذا باستثناء الطبعة الأولى لـ " بليك " " Songs of Innocence " ، والتى يصل سعرها كما أشار سنيدلز فى سجل الجرد إلى خمسة عشر ألفا " .

" خمسة عشرة ألف جنيه دفعة واحدة فى الوقت الذى من المفترض فيه أن أراقب كل بنس . من الذى يتصور أن ـــــ " .

قال نيومان : " شخص يدرك تماما أنك لا تستطيع أن تمضى قدما فى بناء مشروعك قبل أن تمتلك هذا المتجر تحديدا ؟ " .

" ولكن كيف استطاعت ـــــ ؟ " .

" لأن النسخة المقصودة لـ " بليك " كانت قد تم شراؤها فى الأساس من مكتبة هيوود هيل فى شارع كورزون مقابل أربعة جنيهات وعشرة سلنات وأعتقد أن الإهداء المدون داخل الكتاب يحل نصف اللغز " .

قال تشارلى : " يا سيدة إيثيل ترينشام ،سوف أضطر إلى ذلك " .

" كلا ، لا تسئ الظن . إن الكلمات المدونة تحديدا فى الكتاب ، إن كنت أذكر جيدا ، هى : من حفيدك الحبيب ، جاى ، التاسع من يوليو عام ١٩١٧ " .

أخذ تشارلى وبيكى يحدقان فى تيم نيومان لبعض الوقت إلى أن سأله تشارلى أخيرا : " ما الذى تعنيه بحل نصف اللغز ؟ " .

أجاب الرجل المصرفى : " أعتقد أيضا أنها بحاجة إلى المال " .

سألت بيكى فى ارتياب : " لم ؟ "

" لكى تتمكن من شراء المزيد من الحصص فى شركة ترامبر " .

فى التاسع عشر من شهر يوليو عام ١٩٤٨ ، تم طرح مستندات المناقصة الخاصة بشركة ترامبر فى الصحافة وقد غطت صفحة كاملة من صفحات الإعلانات فى صحيفة التايمز وجريدة التايمز المالية ، كان كل ما يمكن لتشارلى وبيكى عمله فى ذلك الوقت هو انتظار الاستجابة العامة . فى غضون ثلاثة أيام كان الإصدار الخاص بالحصص قد تخطى العدد المطلوب وفى غضون أسبوع كان رجال المصارف التجاريون قد تلقوا ضعف الطلبات اللازمة . بعد إحصاء كل الطلبات ، بقى أمام تشارلى وتيم نيومان مشكلة وحيدة وهى كيفية تخصيص الحصص . وقد اتفقا على أن الأولوية يجب أن توجه إلى المؤسسات التى تقدمت بطلب كم كبير من الحصص لأن هذا كان من شأنه أن يسهل على مجلس الإدارة مهمة التوصل إلى أغلبية الحصص حال وقوع أية مشكلة فى المستقبل .

كان الطلب الوحيد الذى أثار حيرة تيم نيومان هو طلب هامبروس الذى لم يقدم أى تفسير لرغبته فى شراء مائة ألف حصة مما كان سيمنحهم فى المقابل حق السيطرة على عشرة بالمائة من

الشركة . ومع ذلك ، فقد نصح تيم المدير بقبول طلبهم كاملا وتوفير مقعد لهم فى مجلس الإدارة . وقد وافق تشارلى على ذلك ولكن فقط بعد تأكيد هامبروس على أن العطاء لم يكن من قبل السيدة ترينشام أو أى شخص مخول من قبلها . تقدمت مؤسستان أخريان لامتلاك خمسة بالمائة من الحصص وهى شركة برونشيال للتأمين والتى كانت قد خدمت الشركة منذ بدايتها ، ومصدر أمريكى آخر اكتشفت بيكى أنه كان واجهة لشركة فيلد فاميلى تراستس . وقد وافق تشارلى بسهولة على هذين الطلبين وتم تقسيم باقى الحصص بين ألف جهة أخرى ، ضمت سبعمائة مستثمر عادى ، ومائة حصة - وهو الحد الأدنى الذى كان مسموحا به - آلت إلى سيدة مسنة تسكن فى تشيلسيا . وقد تركت السيدة سيموندز لـ " تشارلى " بطاقة تذكره فيها أنها كانت إحدى زبائنه القدامى عند افتتاح أول متجر له .

بعد توزيع الحصص ، رأى تيم نيومان أن الخطوة التالية التى يجب أن يفكر فيها تشارلى مليا هى زيادة نسبة المعينين فى مجلس الإدارة . عينت هامبروس السيد بافرستوك ، أحد كبار الشركاء فى شركة بافرستوك وديكنز وكوب وهو ما قبله تشارلى على الفور . واقترحت بيكى تعيين سيمون ماثيوز فى مجلس الإدارة والذى كان يحل محلها دائما حال غيابها فى دار المزايدة . وقد أذعن تشارلى ثانية إلى أن وصل عدد الأشخاص الإضافيين فى المجلس إلى تسعة .

كانت دافنى هى التى أخبرت بيكى أن العقار رقم ١٧ من ميدان إيتون سوف يطرح فى السوق وكان تشارلى يريد فقط أن يرى المنزل المؤلف من ثمانية غرف نوم مرة واحدة قبل أن يقرر قضاء باقى حياته فيه . لم يخطر ببال تشارلى أن شخصًا آخر يجب أن يشرف

على هذه النقلة فى الوقت الذى كان يتم فيه بناء شركة ترامبر . وكان من الممكن أن تتذمر بيكى ما لم تكن هى الأخرى قد وقعت فى غرام هذا المنزل .

وبعدها بشهرين ، أقامت بيكى حفلاً عائلياً دافئاً فى ميدان إيتون . دعت أكثر من مائة ضيف لتناول العشاء فى منزل عائلة ترامبر وتم تقديم الطعام فى خمس غرف مختلفة .

وصلت دافنى متأخرة وشكت من ازدحام المواصلات وهى فى طريق العودة من ميدان سلون بينما سافر الكولونيل من سكاى بدون أن يشكو بكلمة . جاء دانيال من كمبريدج بصحبة مرجورى كاربنتر وجاء سيمون ماثيوز وقد تأبطت كاثى روس ذراعه ، مما أثار دهشة بيكى .

بعد تناول العشاء ، ألقت دافنى خطابا مختصرا وقدمت لـ " تشارلى " نموذجا مصغرا لأبراج ترامبر محفور فى شكل علبة سجائر من الفضة .

وقد وصفت بيكى الهدية بأنها موفقة لأنه بعد مغادرة آخر مدعو ، حمل زوجها الهدية إلى الدور العلوى ووضعها على المنضدة الجانبية .

صعد تشارلى إلى فراشه وألقى نظرة أخيرة على لعبته الجديدة عندما خرجت بيكى من الحمام .

قالت وهى تأوى إلى الفراش : " ألم تفكر فى دعوة بيرسى لمجلس الإدارة ؟ " .

نظر إليها تشارلى فى تشكك .

" إن حاملى الأسهم سوف يقدرون وجود اسم الماركيز مطبوعا ضمن الأسماء فوق ورق مراسلات الشركة . سوف يمنحهم هذا شعورا بالثقة " .

" يا لك من متعجرفة يا ريبيكا سالمون . لقد كنت كذلك دائما وسوف تبقين هكذا " .

" لم تقل لى ذلك عندما اقترحت عليك تعيين الكولونيل كأول مدير لنا منذ خمسة وعشرين عاما " .

قال تشارلى : " هذا صحيح ، ولكننى لم أكن أتوقع أن يوافق . على أية حال ، إن كنت بحاجة إلى المزيد من الغرباء فإننى أفضل انضمام دافنى فى المجلس . وهكذا سوف نجمع بين اللقب وقدرتها الخاصة فى تقييم الأمور " .

" كان يجب أن أفكر فى ذلك " .

عندما عرضت بيكى على دافنى الانضمام إلى مجلس إدارة ترامبر بصفتها مديرة غير تنفيذية ، قابلت طلبها بمنتهى الترحاب ووافقت على الفور بدون أدنى تفكير . ولدهشة الجميع ، أقبلت دافنى على مسئولياتها الجديدة بمنتهى الحماس والرغبة فى العطاء . لم تفوت يوما اجتماعا من اجتماعات المجلس ، وكانت تحرص دائما على قراءة كل الأوراق بعناية وكلما شعرت أن تشارلى لم يكن قد استوفى شرح أمر ما أو - الأسوأ من ذلك - يسعى للإفلات بشيء ما ، كانت تصر على ملاحقته إلى أن يذعن ويقدم شرحا تفصيليا لما يسعى للقيام به .

" أمازلت تأمل فى بناء أبراج ترامبر بالسعر الذى عرضته فى المستندات المبدئية يا سيدى الرئيس ؟ " هكذا ظلت تلاحقه بالسؤال على مدى عامين كاملين .

" لست واثقا من أن فكرتك لدعوة دافنى إلى المجلس كانت فكرة جيدة " ، هكذا همس تشارلى لـ " بيكى " بعد اجتماع نجحت خلاله الماركيزة فى النيل منه .

أجابت بيكى : " لا تلمنى ، كنت سأسعد بوجود بيرسى ولكنك وصفتنى عندها بالتعجرفة " .

استغرق المهندسون المعماريون ما يقرب من عامين كاملين لبناء البرجين التوأم والطريق الموصل بينهما والطوابق الخمسة التى تضم المكاتب فوق الأرض الفضاء التى كانت تملكها السيدة تريتشام . لم يكن الأمر سهلا مع توقع تشارلى لسير العمل فى المتاجر كالمعتاد كما لو لم يكن هناك شيء يجرى حولها . وقد اندهش الجميع من كون ترامبر لم يخسر فى هذه المرحلة الانتقالية أكثر من تسعة عشر بالمائة من دخله السنوى .

أشرف تشارلى على كل شيء بنفسه ، بدءا من الموقع الخاص بكل قسم من الأقسام الثمانين وحتى ألوان الفرش التى تغطى سبعة وعشرين فدانا ، وبدءا من سرعة المصاعد الاثنى عشر حتى قوة إضاءة مصابيح الإنارة ومن نوافذ العرض الست وتسعين وحتى الزى الخاص بأكثر من سبعمائة موظف ، كان كل منهم يحمل علامة عربة فضية نقالة فى طية صدر سترته.

وعندما أدرك تشارلى كم المساحة اللازمة للتخزين ، فضلا عن المساحة اللازمة لركن السيارات بعد أن أصبح العديد من الزبائن يملكون سيارات خاصة ، قفزت تكاليف الميزانية قفزة هائلة . ومع ذلك فقد نجح القائمون على البناء فى استكمال المبنى بحلول الأول من سبتمبر عام ١٩٤٩ ولعل السبب الرئيسى فى ذلك هو ظهور

تشارلى فى الموقع فى الرابعة والنصف من صباح كل يوم وعدم عودته فى أغلب الأحيان إلى منزله قبل منتصف الليل .

وفى الثامن عشر من أكتوبر عام ١٩٤٩ ؛ افتتحت ماركيزة ويلتشاير بصحبة زوجها المركز التجارى رسميا .

رفع ألف شخص كؤوسهم عندما أعلنت دافنى افتتاح المبنى رسميا . وبذل الجمع المحتشد من الضيوف يومها جهده لكى يأكل ويشرب ما تبلغ تكلفته أرباح الشركة على مدى عام . ولكن يبدو أن تشارلى لم يلحظ ما يجرى وأخذ يتنقل فى سعادة من طابق إلى طابق لكى يتأكد من أن كل شيء كان فى موضعه تماما وأن كبار الموردين كانوا يحظون بالعناية اللائقة .

كان الأصدقاء والأقارب وحاملو الأسهم والمشترون والبائعون والصحفيون والمتطفلون والمتسللون وحتى العملاء يحتفلون فى كل طابق . وبحلول الواحدة صباحا بدأت بيكى تشعر بالإنهاك ، فقررت أن تشرع فى البحث عن زوجها أملا فى أن يوافق على العودة معها إلى المنزل . وجدت ابنها فى قسم المطبخ يتفحص ثلاجة لا يتناسب كبر حجمها مع الغرفة التى كان يقيم بها فى ترينيتى . ولكن دانيال أكد لوالدته أنه شاهد تشارلى يغادر المبنى منذ ما يقرب من نصف ساعة .

قالت بيكى فى عدم تصديق : " يغادر المبنى ؟ إن أباك بكل تأكيد لن يرجع إلى المنزل بدونى ؟ " ، أسرعت بركوب المصعد إلى الدور الأرضى ثم هرعت إلى المدخل الرئيسى . حياها البواب وهو يفتح لها أحد الأبواب المزدوجة العملاقة المؤدية إلى شارع تشيلسيا .

سألت بيكى : " هل رأيت السير شارلى ؟ "

" نعم يا سيدتى " ، وأومأ فى اتجاه الجانب البعيد من الشارع .

نظرت بيكى لتجد تشارلى جالسا على أريكته بينما كان هناك رجل مسن محنى الظهر يجلس بجواره . كانا يثرثران مع بعضهما فى حميمية وهما ينظران إلى أبراج ترامبر . أشار الرجل العجوز إلى شيء ما لفت انتباهه وابتسم تشارلى . بادرت بيكى بعبور الشارع ولكن الكولونيل انتبه إليها قبل أن تصل إليه بكثير .

قال الرجل وهو ينحنى ليقبل يد بيكى : " كم تسرنى رؤيتك يا عزيزتى . لكم أتمنى لو كان العمر قد طال بإليزابيث لكى تشهد هذا الحدث " .

قال تشارلى : " إننى على حسب علمى يجب أن نحصل على أغلبية مطلقة . إذن ربما يكون الوقت قد حان للتصويت على هذا الأمر " .

نظرت بيكى حول مائدة الاجتماع وهى تسأل نفسها عن النتيجة التى يمكن أن يؤول إليها التصويت . كان المجلس مجتمعا يعمل سويا على مدى ثلاثة أشهر منذ أن فتح ترامبر أبوابه للجمهور ولكن كانت هذه هى أول قضية كبرى وقع فيها شقاق حقيقى .

جلس تشارلى على قمة المائدة وقد ارتسمت على وجهه علامات التجهم لفكرة كونه غير قادر على تنفيذ ما يريد . كانت سكرتيرة الشركة ـ جيسيكا آلان ـ تجلس عن يمينه . لم تكن جيسيكا تملك حق التصويت ولكنها كانت تجلس بغرض ضمان تسجيل كل الأصوات بمنتهى الدقة . كان آرثر سيلوين ـ الذى خدم مع تشارلى فى وزارة التغذية أثناء فترة الحرب ـ قد تقاعد مؤخرا من الخدمة

لكى يحل محل توم آرنولد بعد تقاعده كمدير تنفيذى . وقد أثبت سيلوين أنه الرجل المناسب ؛ كان حصيفا ودقيقا أى أنه كان بمثابة مساعد مثالى لرئيس المجلس لأنه كان يسعى دائما لتجنب المواجهة كلما أمكن .

كان تيم نيومان المسئول البنكى عن الشركة رجلا اجتماعيا ودودا وكان يسعى بشكل شبه دائم لمساندة تشارلى بالرغم من أنه كان لا يتورع عن إبداء اعتراضه إن شعر أن القرار يمكن أن يؤثر على الموقف المالى للشركة . أما بول ميريك ، المدير المالى فلم يكن اجتماعيا أو ودودا وكان يعلن بكل وضوح فى كل مناسبة أن ولاءه الأول سوف يبقى لبنك تشايلد واستثماره . أما بالنسبة لدافنى ، فقد كانت نادرا ما تصوت بالطريقة المتوقعة بالنسبة لها وكانت بالطبع لا تضع تشارلى أو أى شخص آخر فى اعتبارها فيما يخص هذا الشأن . كان السيد بافرستوك - الذى كان محاميا هادئا كبير السن والذى كان يمثل عشرة بالمائة من أسهم الشركة نيابة عن هامبروس نادر الحديث ولكنه كان عندما يتحدث يصغى إليه الجميع بما فى ذلك دافنى نفسها .

أما نيد دنينيج وبوب ماكينز اللذان كانا قد خدما تشارلى وقتها لما يقرب من ثلاثين عاما ، فنادرا ما كانا يعارضان رئيسهما فى الوقت الذى كان يسعى فيه سيمون ماثيوز بشكل شبه دائم إلى إبداء نزعة استقلالية مما أكد صدق تقدير بيكى له .

قال ميريك : " إن آخر ما نريده الآن هو حدوث إضراب فى الوقت الذى يبدو فيه أننا تخطينا المنعطف " .

قال تيم نيومان : " ولكن مطالب الاتحاد تبدو ببساطة مبالغا فيها ، علاوة تقدر بعشرة شلنات وأربع وأربعين ساعة أسبوعيا قبل أن يطبق نظام العمل الإضافى بشكل تلقائى ، أكرر هذه مبالغة " .

" ولكن معظم المتاجر الكبرى واقفت بالفعل على هذه الشروط " ، وهكذا قاطعه ميريك وهو يطالع مقالا فى القسم المالى لصحيفة التايمز التى كان يضعها أمامه .

عاد نيومان ليتحدث : " إن الاستسلام لهذه المطالب سوف يكبدنا الكثير ، ويجب أن أحذر المجلس أن هذا سوف يضيف إلى أعبائنا المالية ما يقرب من عشرين ألف جنيه للسنة الجارية ، حتى قبل حساب قيمة الوقت الإضافى . وهذا يعنى أن هناك فئة واحدة هى التى سوف تعانى على المدى الطويل وهى فئة حاملى الأسهم " .

سأل السيد بافرستوك فى هدوء : " ما هو الأجر الذى يحصل عليه حاليا عامل النضد ؟ " .

قال آرثر سيلوين بدون أن يكون بحاجة لتفحص أية سجلات : " مائتان وستون جنيها سنوياً ، فضلا عن الزيادة فى الأجر التى يحصل عليها الموظف إن كان قد أتم مدة خمسة عشر عاما من الخدمة للشركة بحيث يصل إجمالى ما يحصل عليه سنويا إلى أربعمائة وعشرة جنيهات " .

قال تشارلى فى حدة : " لقد راجعنا هذه الأرقام فى مناسبات عديدة ، وقد حان وقت اتخاذ قرار ؛ هل سنتخذ موقفا حازما أم أننا سوف نذعن لطلبات الاتحاد ؟ " .

" ربما نفرط جميعا فى رد فعلنا يا سيدى الرئيس " .

قالت دافنى التى لم تكن قد تحدثت حتى ذلك الوقت : " قد لا يكون الأمر أبيض وأسود إلى هذا الحد " .

سأل تشارلى بنبرة لم يسع فيها لإخفاء ريبته : " هل لديك حل بديل ؟ " .

" ربما يكون لدىّ بالفعل يا سيدى الرئيس . أولا دعنا نقدر عواقب قبول العلاوة . سوف يتسبب لنا ذلك فى استنزاف أكيد للمصادر ناهيك عن أننا سوف نكون قد أذعنا للمطالب . وفى المقابل إن لم نوافق على مطالبهم ؛ فقد يعنى هذا أننا يمكن أن نفقد بعض العناصر الأفضل والعناصر الأكثر سوءا لمنافسينا الرئيسيين " .

" إذن ما الذى تودين قوله يا ليدى ويلتشاير ؟ " ، هكذا سأل تشارلى الذى كان يخاطب دافنى دائما بلقبها كلما أراد أن يبدى اعتراضه على ما تقوله .

أجابت دافنى وهى مازلت محتفظة بهدوئها: " حل وسط ؛ إن كان السيد سيلوين مازال يرى أن هذا ممكنا فى هذه المرحلة المتأخرة . هل سيوافق اتحاد التجارة - مثلا - على قبول عرض بديل بشأن الأجور وساعات العمل ؛ هل سيوافق على التفاوض مع مديرنا التنفيذى ؟ " .

قال آرثر سيلوين : " بوسعى دائما أن أؤثر على السيد دون شورت ، رئيس الاتحاد ، إن كانت هذه هى رغبة المجلس . لقد كان الرجل دائما رجلا مهذبا ومنصفا كما أنه أثبت على مدى سنوات أنه يكن لشركة ترامبر كل الولاء " .

صاح تشارلى : " المدير التنفيذى يتفاوض بشكل مباشر مع ممثل اتحاد التجارة ؟ ربما يجدر بنا بعد ذلك تعيينه فى المجلس " .

قالت دافنى : " إذن ربما يسعى السيد سيلوين للتحدث بنفسه مع الممثل . أنا واثقة أنه يملك كفاءة التفاهم مع السيد شورت " .

قال السيد بافرستوك : " أتفق مع الليدى ويلتشاير " .

استطردت دافنى : " إذن أقترح أن نسمح للسيد سيلوين بالتفاوض نيابة عنا . ولنأمل أن يعثر على وسيلة لتجنب أى إضراب بدون أن نضطر للإذعان لمطالب اتحاد التجار المجحفة " .

قال سيلوين : " سوف يسعدنى أن أقوم بهذه المهمة " .

" يمكننى أن أوافى المجلس بما توصلت إليه فى الاجتماع التالى " .

وثانية أعجبت بيكى بالطريقة التى تصرفت بها دافنى وآرثر سيلوين لتجنب انفجار القنبلة التى كان السيد الرئيس سيسعد بانفجارها فى مائدة الاجتماعات .

قال تشارلى فى شىء من الحسد : " شكرا لك يا آرثر . ليكن ما تريدون . هل هناك أمور أخرى ؟ "

قالت بيكى : " نعم . أود أن أنوه للمجلس بأن تحفة جيورجيان الفضية سوف تطرح للبيع فى الشهر التالى وأن الكتالوجات سوف تطرح أثناء الأسبوع التالى أيضا وأتمنى أن يسعى كل مدير يملك الوقت الكافى لحضور هذه المناسبة " .

سأل السيد بافرستوك : " كيف سارت الأمور فى مزاد التحف الأخير ؟ " .

راجعت بيكى ملفها وقالت : " حقق المزاد أربعة وعشرين ألفا وسبعمائة جنيه احتفظ ترامبر بسبعة آلاف منها ونصف بالمائة من كل التحف التى طرحت للمزايدة . ثلاث لوحات فقط عجزت عن تحقيق السعر المقدر لها فتم إرجاعها وسحبها من العرض " .

قال السيد بافرستوك : " أنا فقط مهتم بنجاح المزايدة ؛ لأن زوجتى العزيزة اشترت خزانة أطباق ملكية ترجع إلى عهد الملك ريتشارد الثانى " .

قالت بيكى : " كانت من بين أفضل التحف التى طرحت فى المزاد " .

" كان هذا رأى زوجتى هى الأخرى بكل تأكيد لأنها تخطت كثيرا السعر الذى كانت قد رصدته . سوف يسعدنى كثيرا ألا ترسلى لها كتالوج المزاد الفضى التالى " .

ضحك باقى أعضاء المجلس .

قال تيم نيومان : " لقد قرأت فى صحيفة ما أن سوثيباى سوف يرفع نسبة عمولته إلى عشرة بالمائة " .

قالت بيكى : " أعرف ، ولهذا السبب تحديدا لا يسعنى أن أقدم على هذه الزيادة قبل عام كامل آخر . إن كنت أسعى لسرقة أفضل زبائن لديهم ، يجب أن أبقى على سعرى المنافس على المدى القصير " .

أومأ نيومان بتفهمه لما تقول .

استطردت بيكى : " ومع ذلك ، فإن إبقائى على نسبة سبعة ونصف بالمائة لن يبلغنا لعام ١٩٥٠ الربح الذى كنا نطمح إليه . ولكن إلى أن يكون كبار البائعين على استعداد للتعامل معنا ، سوف نظل نجابه هذه المشكلة " .

سأل بول ميريك : " وماذا عن المشترين ؟ " .

" إنهم لا يمثلون مشكلة . إن كان لديك منتج تبيعه ، فإن المشترى سوف يطرق بابك دائما . إن البائع هو الشريان الحيوى لدار المزايدة وهو لا يقل أهمية بحال عن المشترى " .

قال تشارلى : " إنه عمل عتيق مسلى هذا الذى تديرينه . هل هناك أية أعمال أخرى ؟ " .

لم يتحدث أحد . شكر تشارلى كل أعضاء المجلس على حضورهم ونهض من فوق مقعده وهى العلامة المميزة التى كان يلجأ إليها دائما لإعلان انتهاء الاجتماع .

جمعت بيكى أوراقها وبدأت تسير عائدة إلى المتحف مع سيمون .

" هل استكملت الأسعار التقريبية لمزاد الفضيات بعد ؟ " ، طرحت بيكى هذا السؤال وهما يركبان المصعد حتى قبل أن يغلق الباب . ضغطت على زر الدور الأرضى وبدأ المصعد يشق رحلته إلى أسفل .

" نعم ، استكملتها مساء أمس . لقد بلغ عددها مائة واثنين وثلاثين بندا فى الإجمالى . أعتقد أنها سوف تصل إلى ما يقرب من سبعة آلاف جنيه " .

قالت بيكى : " لقد رأيت الكتالوج للمرة الأولى هذه الصباح ، يبدو لى أن كاثى أنجزت عملا رائعا للمرة الثانية . لم أتمكن إلا من التقاط خطأ بسيط أو اثنين فقط ولكننى مع ذلك مازلت أريد أن أراجع العمل النهائى قبل إرساله إلى المطبعة " .

قال سيمون : " بالطبع ، سوف أطلب منها أن تحضر لك كل الأوراق قبل تجميعها إلى مكتبها عصر اليوم . " ، ثم خرجا من المصعد .

قالت بيكى : " لقد اكتشفت أن هذه الفتاة موهبة حقيقية . يعلم الله وحده ما الذى كانت تفعله فى أعمال الفنادق قبل أن تأتى إلينا . سوف أفتقدها بكل تأكيد عندما تعود إلى استراليا " .

" هناك من يقول بأنها تفكر فى البقاء " .

قالت بيكى : " هذا خبر سعيد . كنت أظن أنها تريد فقط قضاء عامين فى لندن قبل عودتها إلى ميلبورن ؟ " .

كان يمكن أن تطلب بيكى من سيمون المزيد من التفصيل والشرح ما لم يكن طاقم عامليها فى المتحف قد انهال عليها بالحديث والمطالب فور وصولها .

بعدما حلت بيكى بعض الأمور المتعلقة ، سألت إحدى الفتيات من العاملات على النضد عن مكان كاثى .

قالت لها الموظفة : " إنها ليست هنا الآن يا ليدى ترامبر . لقد رأيتها تغادر المتحف منذ ما يقرب من ساعة " .

" هل تعلمين إلى أين ذهبت ؟ "

" ليس لدىَّ فكرة . آسفة " .

" حسنا ، أخبريها فور عودتها أننى أريدها فى مكتبى . والآن هل يمكنك إرسال كتالوج مزاد الفضيات المقبل ؟ " .

توقفت بيكى عدة مرات فى طريق عودتها إلى مكتبها لمناقشة بعض المشاكل التى حدثت أثناء فترة غيابها وبمجرد أن وصلت إلى مكتبها كان كتالوج الفضيات فى انتظارها بالفعل . بدأت تقلب الصفحات بتؤدة وتتفحص المدخل الخاص مقابل الصورة ثم تراجع التفاصيل بمنتهى الدقة . كان عليها أن تقر أن كاثى روس قامت بالفعل بعمل رائع . كانت تدقق فى صورة إناء خردل جورجيان الذى كان تشارلى قد بالغ فى المزايدة عليه لدى كريستى منذ بضع سنوات عندما سمعت طرقا على الباب وأطل عليها رأس سيدة شابة .

" هل كنت تودين رؤيتى ؟ " .

" نعم ، ادخلى يا كاثى " ، رفعت بيكى رأسها لتنظر إلى الفتاة الطويلة النحيفة التى كانت تحمل كتلة من الشعر المموج فوق رأسها ووجهًا لم يكن قد فقد بعد كل ما يغطيه من النمش . كان يروق لها أن تتذكر أنها فى يوم ما كانت تملك جسدا جميلاً يشبه جسد كاثى ولكن مرآة الحمام كانت تذكرها بدون مجاملة أنها كانت تقترب من عيد ميلادها الخمسين . قالت : " كنت فقط أريد أن أراجع أوراق كتالوج مزاد الفضيات قبل إرساله إلى المطبعة " .

قالت كاثى : " آسفة لأننى لم أكن موجودة لدى عودتك من اجتماع مجلس الإدارة ، ولكن وقع حادث أثار قلقى . قد أكون مفرطة فى رد فعلى ولكننى شعرت أننى يجب أن أخبرك بما حدث على أية حال " .

خلعت بيكى نظارتها ووضعتها فوق مكتبها ونظرت إليها فى اهتمام : " وأنا أصغى " .

" هل تذكرين الرجل الذى وقف أثناء المزاد الإيطالى وأثار مشكلة برونزينو ؟ " .

" لن أنساه ما حييت " .

" حسنا ، لقد جاء إلى المتحف ثانية صباح هذا اليوم " .

" هل أنت متأكدة ؟ " .

" أنا واثقة تماما . جسده المفتول العضلات وشعره الرمادى وشاربه البنى وبشرته الشاحبة . والأدهى أنه كان جريئاً لدرجة ارتدائه نفس الجاكيت البشع المصنوع من التويد ونفس رابطة العنق الصفراء ثانية " .

" ما الذى كان يريده هذه المرة ؟ " .

" لا أعرف تحديدا بالرغم من أننى حرصت على مراقبته عن كثب . لم يتحدث مع أى شخص من طاقم العاملين وإنما أخذ يتأمل باهتمام كل المعروضات التى سوف تطرح فى مزاد الفضيات وخاصة رقم ١٩ " .

وضعت بيكى نظارتها وأخذت تقلب صفحات الكتالوج بسرعة إلى أن توقفت عند الرقم المذكور وقرأت : " طاقم شاى جورجيان فضى مكون من أربع قطع وإناء للشاى وسكرية ومصفاة للشاى وملاقيط للسكر ، يحمل الطاقم علامة الخطاف . نظرت بيكى إلى الحروف المدونة فى الهامش " إيه اتش " ، أى أن قيمته التقديرية تصل إلى سبعين جنيها . إنه أحد أفضل المعروضات " .

أجابت كاثى : " يبدو أنه يوافقك الرأى ، لأنه قضى وقتا طويلا فى تفحص كل قطعة منه على حدة ثم دون بعض الملاحظات المتقنة قبل أن يغادر حتى إنه تفحص طاقم الشاى جيدا مقابل صورة كان يحملها معه " .

" صورتنا ؟ " .

" كلا ، يبدو أنه كان يملك صورة خاصة به " .

" ولم أكن موجودة عندما عدت من اجتماع مجلس الإدارة لأنه عندما غادر المتحف قررت أن أتبعه " .

قالت بيكى مبتسمة : " تفكير سريع . وأين اختفى الرجل الغامض ؟ " .

قالت كاثى : " انتهى به المآل فى ميدان شيستر ، فى منزل كبير فى منتصف الميدان على الجانب الأيمن . وترك لفافة داخل صندوق البريد ولكنه لم يدخل " .

" المنزل رقم ١٩ ؟ " .

قالت كاثى وقد ارتسمت عليها علامات الدهشة : " هذا صحيح . هل تعرفين هذا المنزل ؟ "

قالت بيكى بدون أن تقدم المزيد من الشرح : " من الخارج فقط ؟ " .

" هل هناك شىء آخر يمكننى القيام به ؟ " .

" نعم . بداية ، هل تستطيعين تذكر كل شىء عن العميل الذى أحضر هذا الطاقم إلى هنا ؟ " .

قالت كاثى : " بالطبع ، لأنه طلب منى التوجه إلى المكتب الأمامى للتعامل مع السيدة التى جاءت به " . صمتت للحظة قبل أن تضيف قائلة : " لا أستطيع أن أتذكر اسمها ولكنها كانت مسنة وكانت أيضا أنيقة ، هكذا يمكن أن أصفها تحديدا " . ترددت كاثى ثم واصلت : " حسب ما أتذكر ، أخبرتنى أن رحلتها من نوتينجهام استغرقت يوما كاملا وقد ذكرت أنها ورثت هذا الطاقم عن والدتها وأنها لم تكن تريد أن تبيع أحد المقتنيات الموروثة عن العائلة ولكن للحاجة أولوية . وأنا أتذكر هذا التعبير لأننى لم أكن قد سمعته من قبل " .

" وماذا كان رأى السيد فيلويز عندما عرضت عليه الطاقم ؟ " .

" قال إن الطاقم من بين أجمل ما رأى ضمن هذه المجموعة ، كما أن كل قطعة منه كانت مازالت فى حالة ممتازة وكأنها لم تمس . وقد رأى بيتر أن الطاقم يمكن أن يصل إلى سعر جيد كما رأيت فى السعر التقديرى الذى وضعناه له " .

قالت بيكى : " إذن يجدر بنا أن نتصل بالشرطة فى الحال . نحن لا نريد أن يقف الرجل الغامض ثانية ويعلن أن هذا الطاقم مسروق هو الآخر " .

التقطت سماعة الهاتف من فوق مكتبها واتصلت بشرطة سكوتلاند يارد . وبعدها بدقائق قليلة كان المحقق ديكنز يحدثها على الطرف الآخر ؛ بعدما أصغى إلى كل التفاصيل لما حدث في صباح ذلك اليوم ؛ وافق على التوجه إلى المتحف في العصر .

وصل المحقق بعد الثالثة بقليل بصحبة رقيب . قادتهما بيكي لمقابلة رئيس القسم مباشرة . أشار السيد فيلويز إلى خدش دقيق في أحد الأطباق الفضية . وتجهمت بيكي . ثم توقف عن العمل الذى كان يقوم به وسار إلى مائدة الوسط حيث كان الطاقم موضوعاً بالفعل على الحامل .

قال المحقق وهو ينحنى نحوه ويتفحص العلامة المميزة له :

" إنه جميل إنه من بيرمينجهام قرابة عام ١٨٢٠ ؛ على ما أظن " .

رفعت بيكي حاجبيها من الدهشة .

قال المحقق : " إنها هوايتى ، ولعل هذا هو ما يجعلنى أتولى دائما هذه المهام " . استخرج ملفا من حقيبة يده التى كان يحملها وراجع عدة صور كانت تحمل وصفا تفصيليا للقطع الفضية التى كانت قد افتقدت مؤخرا فى منطقة لندن . وبعدها بساعة كان عليه أن يوافق فيلويز فى أن أيًا منها لم يكن مطابقا لمواصفات طاقم جورجيان .

أقر الشرطى : " حسنا ليس لدينا أية مسروقات مطابقة لهذا الطاقم . كما أنكم قد طليتموها بشكل رائع ، ثم " قال وهو يستدير ناحية كاثى : " أى أنه ليس لدينا أمل فى التعرف على بصمات " .

قالت كاثى بعد أن احمر وجهها قليلا : " آسفة " .

" كلا يا آنستى ؛ إنه ليس خطأك ؛ لقد قمت بعمل رائع . إننى فقط كنت أتمنى أن تبدو قطعى الصغيرة بمثل هذا الجمال . ومع ذلك فإننى أفضل التحقق من الأمر مع شرطة نوتينجهام ؛ ربما يكون لديهم بلاغ بالطاقم . فإن لم يكن لديهم ؛ سوف أصدر وصفا بكل التفاصيل فى كل أنحاء المملكة المتحدة ؛ على سبيل الاحتياط . كما أننى سوف أطلب منهم التحقق من السيدة ..... ؟ " .

" دوسون " .

" نعم السيدة دوسون . قد يستغرق هذا بعض الوقت بالطبع ؛ ولكننى سوف أوافيك بالرد فور اكتشافى لأى جديد " .

ذكرت بيكى المحقق : " ولكننا سوف نقيم مزادنا يوم الثلاثاء القادم " .

وعد المحقق : " حسنا ، سوف أبذل جهدى لكى أوافيكم بالرد قبل هذا التاريخ " .

سألت كاثى : " هل يجدر بنا إزالة هذه الصفحة أو هل تفضل أن نسحب هذه القطعة من العرض ؟ " .

" كلا لا تسحبى أى شىء . أرجوك اتركى الكتالوج على ما هو عليه . قد يتعرف شخص على الطاقم ويسعى للاتصال بك " .

لقد تعرف أحدهم بالفعل على الطاقم ؛ هكذا فكرت بيكى .

استطرد المحقق : " أود أنا أيضا أن آخذ نسخة من صورة الكتالوج كما أريد أن أحصل على نيجاتيف ليوم أو اثنين " .

عندما علم تشارلى بهذا الطاقم على العشاء مساء نفس اليوم ؛ كانت نصيحته بسيطة : " اسحبوا القطعة من العرض وعليكم بترقية كاثى " .

قالت بيكى : " الاقتراح الأول ليس سهلا بهذه الدرجة ، لأن الكتالوج يجب أن يطرح للجمهور فى نهاية هذا الأسبوع . وما هو التفسير الذى يمكن أن نقدمه للسيدة دوسون مقابل سحب ميراثها العائلى الغالى عن والدتها " .

" إن الطاقم لا يخص والدتها العزيزة الغالية فى المقام الأول وأنك قد سحبته لأن لديك أسباباً كثيرة تدفعك إلى الاعتقاد بأنه مسروق " .

قالت بيكى : " إن فعلنا هذا ؛ قد نجد أنفسنا بصدد قضية نكوث فى التعاقد وإن اكتشفنا بعدها أن السيدة دوسون بريئة من أية تهمة فقد تقاضينا عندها وسوف نجد أنفسنا فى موقف لا نحسد عليه " .

" إن كانت السيدة دوسون هذه بريئة تماما كما تزعمين ، فلماذا تبدى السيدة ترينثام كل هذا الاهتمام بطاقم الشاى ؟ هكذا لأنه لدىَّ شعور بأنها تملك بالفعل واحدا " .

ضحكت بيكى وقالت : " بالطبع تملك واحدا . أعرف ذلك لأننى قد رأيته وكدت أتناول الشاى فيه " .

بعد مرور ثلاثة أيام ؛ اتصل ديكنز هاتفيا بـ " بيكى " لكى يخبرها بأن شرطة نوتينجهام ليس لديها بلاغ بأى طاقم مسروق مطابق لمواصفات الطاقم المعروض كما أن السيدة دوسون أيضا كانت مجهولة بالنسبة لهم . وقد قرر بناء على ذلك أن يرسل تفاصيل الطاقم إلى جميع أقسام الشرطة فى المملكة المتحدة وأضاف قائلا : " ولكن القوات الخارجية لا تبدى دائما تعاونا معنا فيما يخص تبادل المعلومات " .

وبمجرد أن وضعت بيكى سماعة الهاتف ، قررت أن تعطى الضوء الأخضر وأن تصدر الكتالوج الخاص بالمزاد بالرغم من تردد تشارلى . تم إرسال الكتالوجات فى نفس اليوم مصحوبة بدعوات للصحافة وبعض الزبائن المهمين .

تقدم اثنان من الصحفيين بطلب الحصول على تذاكر لحضور المزاد . وقد قامت بيكى ـ على غير عادتها ـ بتفحصهما جيدا ولكنها اكتشفت أنهما يعملان لبعض الصحف القومية وكانا قد قاما بتغطية مزادات ترامبر أكثر من مرة فى الماضى .

رأى سيمون ماثيوز أن بيكى كانت تفرط فى رد فعلها بينما اتفقت كاثى مع السير تشارلى فى أن الحكمة تقضى بسحب الطاقم من المزاد إلى أن يؤكد لهم المحقق بأنه ليست هناك أية خطورة فى ذلك .

قال لهم سيمون : " إن سحبنا فى كل مرة أحد المعروضات التى قد يكون أحد المشترين قد أبدى اهتماما بها فهذا يعنى أنه يجدر بنا أن نغلق أبواب المتحف ونكتفى بالتحديق فى النجوم " .

فى يوم الاثنين السابق على المزاد ؛ اتصل المحقق ديكنز هاتفيا طالبا مقابلة بيكى فى أمر عاجل . وصل إلى المتحف بعدها بثلاثين دقيقة مصحوبا ثانيا بالرقيب . فى هذه المرة كان الشىء الوحيد الذى أخرجه من حقيبته هو نسخة من صحيفة أبردين " إيفنينج إكسبرس " التى كانت تحمل تاريخ ١٥ أكتوبر عام ١٩٤٩ .

طلب ديكنز أن يسمح له بالتحقق من طاقم الشاى مرة أخرى . فأومأت بيكى بالموافقة وأخذ رجل الشرطة يتفحصه قطعة بقطعة بمنتهى العناية مقابل الصورة المبينة فى الصفحة الداخلية من الجريدة .

قال بعدما تفحصه جيدا : " إنه هو بعينه " . ثم مد يده لـ " بيكى " بالصورة .

تفحصت كاثى وبيتر فيلويز كل قطع الطاقم جيدا مقابل الصورة المنشورة فى الجريدة واتفقا مع ديكنز بأنه هو الطاقم المقصود بعينه .

قال لهم المحقق : " لقد سرق هذا الطاقم من متحف أبردين للفضيات منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر مضت ، ولكن الشرطة المحلية اللعينة لم تزعج حتى نفسها بإخطارنا . لابد أنهم تصوروا أن الأمر لا يعنينا فى شىء " .

سألت بيكى : " إذن ما الذى سنفعله الآن ؟ " .

" لقد زارت شرطة نوتينجهام بالفعل السيدة دوسون حيث عثروا على العديد من القطع الفضية والمجهورات المسروقة المخبأة داخل المنزل . وقد اقتيدت إلى الشرطة المحلية لكى تساعد الشرطة - كما يروق للصحافة أن تعبر - على الكشف عن مصدرها " . أعاد رجل الشرطة الصحيفة داخل حقيبته وقال : " بعدما اتصلت بهم هاتفيا لكى أتأكد من هذه المعلومات ، أتوقع أن يوجه إليها الاتهام اليوم ومع ذلك أخشى أننى يجب أن آخذ طاقم الشاى معى لاستكمال الإجراءات اللازمة فى سكوتلاند يارد " .

قالت بيكى : " بكل تأكيد " .

" سوف يدون لكم الرقيب إيصالا بالاستلام يا ليدى ترامبر وأود أن أشكرك على تعاونك " . تردد المحقق وهو ينظر فى إعجاب إلى طاقم الشاى وقال : " إنه يساوى أجرى لشهر كامل " ثم أضاف وهو يتنهد : " ولكنه للأسف مسروق " ، ورفع قبعته ثم غادر رجلا الشرطة المتحف .

قالت كاثى : " إذن ما الذى سوف نفعله الآن ؟ " .

قالت بيكى وهى تتنهد : " ليس لدينا خيار ، سوف نقيم المزاد وكأن شيئا لم يقع وعندما يحين دور الطاقم سوف نعلن ببساطة بأنه قد تم سحبه من العرض " .

" ولكن رجلنا عندها سوف ينقض علينا ويقول : " أليس هذا دليلا آخر على عرض قطع مسروقة والاضطرار إلى سحبها فى اللحظة الأخيرة ؟ سوف نفقد سمعتنا كدار للمزايدة " . قال سيمون ذلك وهو يرفع صوته فى حدة وغضب وأضاف : " سوف نكون أشبه بدار مراهنات . لم لا نضع إذن ثلاث كرات عند الباب الأمامى ونبنى سورا لكى ننوه إلى نوعية الزبائن الذين نود اجتذابهم ؟ " .

لم ترد عليه بيكى .

قالت كاثى : " إن كان الأمر يؤرقك إلى هذا الحد يا سيمون فلم لا تسع لقلب الموقف لصالحنا ؟ " .

سألت بيكى بينما استدارت هى وسيمون فى مواجهة كاثى : " ما الذى تقصدين ؟ " .

" يجب أن نكسب الصحافة فى صفنا هذه المرة " .

" لست واثقة من أننى أفهم قصدك " .

" اتصل بهذا الصحفى من جريدة التليجراف ، ما هو اسمه ؟ باركر وأخبره بالقصة كاملة " .

سألت بيكى : " وما الذى سنجنيه من وراء ذلك ؟ "

" سوف تكون لديه هذه المرة روايتنا الخاصة بالأحداث وسوف يسعد بكونه الصحفى الوحيد الذى عرف حقيقة القصة كما وقعت فى الداخل وخاصة بعد الخسارة التى منى بها فى قصة برونزينو " .

" هل تظنين أنه سوف يهتم بطاقم فضة لا يتجاز ثمنه سبعين جنيها ؟ " .

" مع وجود ذكر للمتحف الاسكتلندى واعتقال شخص محترف فى نوتينجهام ؟ أجل سوف يبدى اهتماما كبيرا ، وخاصة إن لم نخبر أى شخص آخر " .

سألت بيكى : " هل تودين تولى مهمة التعامل مع السيد باركر بنفسك يا كاثى ؟ " .

" فقط امنحينى فرصة " .

فى صباح اليوم التالى ، كان هناك مقال صغير ولكنه بارز فى الديلى تيليجراف عن دار مزاد ترامبر للفنون الجميلة التى اتصلت بالشرطة بعدما تشككت فى ملكية أحد أطقم شاى جورجيان الفضية والذى اكتشف فيما بعد أنه مسروق من متحف أبردين للفضيات . وقد اعتقلت شرطة نوتينجهام إثر هذا الحدث سيدة تم توجيه الاتهام إليها فيما بعد بسرقة بعض المقتنيات . وقد ذكر المقال أن المحقق ديكنز من سكوتلاند يارد أخبر التيليجراف قائلاً : " نود فقط أن ندعو كل دار مزادات وكل متحف إلى حذو دار ترامبر " .

شهد مزاد ذلك اليوم نسبة حضور مرتفعة وبالرغم من أن أحد الأطقم لم يحقق الرقم المقدر له فقد نجحت عدة قطع أخرى فى تخطى السعر المقدر . أما الرجل ذو المعطف المصنوع من التويد والرابطة الصفراء فلم يظهر على الساحة .

عندما قرأ تشارلى المقال الذى نشر فى التيليجراف مساء ذلك اليوم فى فراشه ، علق قائلا : " إذن أنت لم تأخذى بنصيحتى ؟ "

قالت بيكى : " نعم ولا . أقر أننى لم أسحب الطاقم فى الحال ولكننى رقيت كاثى " .

الفصل
٣٧

فى التاسع من نوفمبر عام ١٩٥٠ ، أقام ترامبر اجتماعه السنوى للعام الثانى .

التقى المديرون فى الساعة العاشرة فى غرفة الاجتماعات ليراجع معهم آرثر سيلوين بتؤدة كل الإجراءات التى كان ينوى اتباعها فور مقابلة حاملى الأسهم .

فى الحادية عشرة تماما قاد رئيس المجلس المديرين الثمانية خارج غرفة الاجتماعات داخل القاعة الكبرى وكأنهم تلاميذ فى المدرسة فى طريقهم إلى الطابور الصباحى .

قدم تشارلى كل عضو من أعضاء المجلس إلى الجمع المحتشد الذى وصل عدده إلى مائة وعشرين ـ إنه حشد مهيب يتناسب مع أهمية الحدث ، وهكذا همس تيم نيومان فى أذن بيكى . راجع تشارلى الأجندة بدون أى تدخل من جانب مديره التنفيذى ولم يوجه

إليه إلا سؤالاً محرجاً واحدًا فقط وهو : " ما هو سبب الارتفاع الباهظ فى ميزانيتك للعام الأول ؟ "

نهض آرثر سيلوين من مقعده لكى يشرح أن نفقات البناء تخطت السعر التقديرى الأصلى وأن تكاليف الافتتاح أيضا قد كبدتهم نفقات لن تحدث ثانية . وقد أشار إلى أن ترامبر من وجهة النظر التجارية نجح فى أن يصل إلى نقطة اللامكسب واللاخسارة فى الربع الأول من العام الثانى . وأضاف إلى أنه واثق من النتائج المبشرة التى سوف يحققها ذلك العام وخاصة بعد الارتفاع المتوقع فى عدد السائحين الذين سوف يتوافدون إلى إنجلترا لحضور مهرجان بريطانيا . ومع ذلك فقد حذر حاملى الأسهم من أن الشركة قد تكون بحاجة لجمع المزيد من رأس المال إن كانوا يتطلعون إلى مزيد من التحسينات .

عندما أعلن تشارلى انتهاء الاجتماع بقى جالسا فى مكانه لأن المجلس تلقى ترحيبا صغيرا مما أخذ رئيس المجلس على حين غرة .

كانت بيكى على وشك العودة إلى العقار رقم ١ ومواصلة عملها فى المزاد الخاص بالمدرسة التأثيرية الذى كانت قد خططت له فى الربيع السابق عندما جاء إليها السيد بافرستوك ولمس مرفقها فى حنان .

" هل لى أن أحادثك على انفراد يا ليدى ترامبر ؟ " .

" بالطبع يا سيد بافرستوك " ، ثم استدارت تبحث عن مكان يمكن أن يتحادثا فيه .

قال : " أعتقد أن مكتبى فى هاى هولبورن سوف يكون أكثر ملاءمة . إن الأمر حساس للغاية . هل يناسبك غدا فى الثالثة ؟ " .

كان دانيال قد اتصل من كمبريدج فى صباح ذلك اليوم ولم تتذكر بيكى متى كانت المرة الأخيرة التى تحدث إليها فيها بهذه الثرثرة والرغبة فى الحديث . أما هى - فى المقابل - فلم تكن ثرثارة أو راغبة فى الحديث ، لم تكن بعد قادرة على التنبؤ بما يريده شريكهم الكبير بافرستوك وديكنز وكوب ، " فما هو ذلك الأمر الحساس للغاية " .

لا يمكن أن تكون زوجة السيد بافرستوك تريد أن تعيد خزانة الأطباق التى كانت قد اشترتها أو أنها ترغب فى معرفة المزيد من التفاصيل عن المزاد التالى . كانت بيكى فى مثل هذه الحالات تغلب القلق على التفاؤل مما جعلها تقضى الست والعشرين ساعة الباقية فى توقع للأسوأ .

لم تشأ أن تزعج تشارلى بمشاكلها لأنها كانت - برغم قلة ما تعرفه عن السيد بافرستوك - واثقة من أنه إن كان لـ " تشارلى " أية علاقة بالأمر لكان السيد بافرستوك قد حرص على مقابلتهما سويا . على أية حال ، كان لدى تشارلى ما يكفيه من المشاكل ولم يكن بحاجة للمزيد من مشاكلها .

لم تتمكن بيكى من تناول أى غداء ووصلت إلى مكتب المحامى قبل الموعد ببضع دقائق . ثم اقتيدت إلى مكتب السيد بافرستوك .

حياها الرجل بابتسامة دافئة كما لو كانت إحدى قريباته . ثم طلب منها الجلوس فى المقعد المقابل للمكتب الكبير المصنوع من خشب الماهوجنى .

كان السيد بافرستوك - حسب تقدير بيكى - فى قرابة الخامسة والخمسين ، وربما الستين ، وكان له وجه مستدير ودود وكانت بعض الخصلات الرمادية المتبقية فى شعره مفروقة من عند منتصف

رأسه تقريبا . كانت سترته السوداء وصديريته وبنطاله الرمادى المخطط ورابطة عنقه السوداء تصلح لأن تكون زى أى محام يمارس المهنة داخل الخمسة أميال المربعة من المبنى الذى كانا يجلسان فيه فى ذلك الوقت . وبمجرد أن عاد بكرسيه ، بدأ يتفحص كومة المستندات الموضوعة أمامه قبل أن ينزع نظارته نصف الدائرية .

بدأ حديثه : " ليدى ترامبر ، بداية أود أن أعرب عن تقديرى لقبولك الحضور لمقابلتى " . على مدى العامين التى عرفا فيهما بعضهما البعض لم يخاطبها يوما باسمها الأول .

استطرد حديثه قائلاً : " سوف أدخل فى صلب الموضوع مباشرة . كان السير رايموند هارد كاسيل الراحل من بين عملائى " . تساءلت بيكى عن أنه لم ينوه يوما إلى هذا الأمر وكانت على وشك ابداء اعتراضها عندما أضاف السيد بافرستوك فى هدوء : " ولكننى يجب أن أضيف أن السيدة ترينثام لم تكن يوما من عملاء هذه الشركة " .

لم تبذل بيكى أى جهد لإخفاء ارتياحها .

" يجب أيضا أن أخبرك أننى شرفت بخدمة السير رايموند على مدى أكثر من ثلاثين عاما وأعتبر نفسى بكل تأكيد ليس فقط مستشاره القانونى بل وأصبحت فى آخر حياته أحد أصدقائه المقربين . أنا فقط أقول لك ذلك كمعلومة إضافية يا ليدى ترامبر لأنك سوف تدركين أهمية هذه الحقائق عندما أفضى إليك بكل ما لدىّ " .

أومأت بيكى وهى مازالت فى انتظار توضيح السيد بافرستوك لما يريد قوله .

واصل المحامى : " قبل موته بسنوات ، كتب السير رايموند وصيته . وقد قسم دخل الوصية ما بين ابنتيه ؛ وهو الدخل الذى يجب أن أقول إنه زاد بشكل كبير منذ وفاته بفضل بعض الاستثمارات الحريصة التى قمنا بها نيابة عنه . كانت كبرى بناته هى السيدة إيمى هاردكاسيل أما الصغرى - فكما تعرفين بالطبع - هى السيدة جيرالد ترينثام . وقد وفر دخل الوصية لكلا السيدتين نفس مستوى المعيشة الذى تربيا عليه قبل وفاة والدهما إن لم يكن أكثر . ومع ذلك ـــ " .

بدأت بيكى تتساءل متى سيدخل السيد بافرستوك فى صلب الموضوع ؟

" ـــ فقد قرر السير رايموند - وهو فى كامل قواه العقلية - أن يبقى رأس المال دون أن يمس بعدما قرر دمج الشركة التى أسسها والده والذى أسهم هو فى ازدهارها مع شركة أكبر منافس له . وقد رأى السير رايموند يا ليدى ترامبر أنه ليس هناك شخص فى عائلته يمكن أن يحل محله فى رئاسة هاردكاسيل . لم ير أن أيًا من ابنتيه أو حفيديه - وهو ما سوف نتحدث عنه بمزيد من التفصيل فى الحال - يملكان الكفاءة التى تؤهلهما لإدارة شركة بهذا الحجم " .

خلع المحامى نظارته ونظفها جيدا بمنديله الذى استخرجه من جيبه العلوى وأخذ يحدق من خلال العدسات وقد بدت عليه علامات الجدية قبل أن يواصل المهمة التى بين يديه .

" لم يكن للسيد رايموند أية علاقة نسب أو قرابة مقربة . كانت ابنته الكبرى ؛ إيمى ؛ سيدة رقيقة خجولة عكفت على خدمة والدها بمنتهى التفانى فى سنواته الأخيرة . وعندما توفى

السير رايموند انتقلت من بيت العائلة إلى فندق صغير بجوار البحر ظلت مقيمة فيه حتى وفاتها العام الماضى " .

استطرد حديثه : " أما ابنته الثانية ، إيثيل ترينثام ، اسمحى لى أن أترفق فى التعبير إلى أقصى حد - فقد كان السير رايموند يرى أنها رفضت صلتها بالواقع ، فضلاً عن أنها بكل تأكيد كانت قد نسيت كل ماضيها . على أية حال ، كنت أعرف أنه كان من دواعى حزن الرجل أنه لم ينجب ابناً من صلبه . لذا عندما ولد جاى ، تجدد لديه الأمل فى المستقبل ووجه كل تركيزه على حفيده . منذ يوم ولادته كان يغدق عليه فى كل شىء . وقد وبخ نفسه فيما بعد باعتباره سببا فى الحالة المتردية التى وصل إليها . ولكنه لم يقترف نفس الخطأ عندما ولد نيجيل وهو الطفل الذى لم يكن له جده أى حب أو احترام .

ومع ذلك فقد طلب منا السير رايموند أن نعلمه فورا وبشكل دورى بأية معلومات ترد إلينا عن أفراد عائلته الواسعة . لذا عندما استقال النقيب ترينثام من عمله فى الجيش عام ١٩٢٢ ، بشكل مفاجئ على نحو ما ، طلب منا أن نبحث عن السبب الحقيقى لذلك لأنه بكل تأكيد لم يصدق القصة التى روتها له ابنته عن مشاركته فى تجارة المواشى فى استراليا . وقد شغله هذا الأمر إلى الحد الذى كان فيه على وشك إرسالى إلى هذه القارة لكى أتبين حقيقة الأمر " .

جلست بيكى فى كرسيها وقد تملكتها الرغبة فى أن تدير زر تشغيل السيد بافرستوك على سرعة ٧٨ دورة فى الدقيقة تماما مثلما تدير الجرامافون ولكنها خلصت إلى أن أى شيء يمكن أن تقوله لن يزيد من السرعة التى حددها الرجل لنفسه .

استطرد بافرستوك : " وقد قادتنا التحقيقات إلى الجزم - ويجب عند هذا الحد يا ليدى ترامبر أن أعتذر عن أية فظاظة غير مقصودة بالمرة - بأن جاى ترينثام هو والد ابنك وليس تشارلى ترامبر " .

نكست بيكى رأسها واعتذر السيد بافرستوك ثانية قبل أن يواصل .

" ولكن السير رايموند مع ذلك كان بحاجة لأن يقتنع بأن دانيال هو حفيده بالفعل ولذلك قام بزيارته فى سانت بول مرتين منفصلتين بعدما فاز دانيال بمنحة دراسية فى تلك المدرسة " .

أخت بيكى تحدق فى المحامى العجوز .

" فى المناسبة الأولى أخذ يراقب الفتى مع الفرقة الموسيقية للمدرسة - براهامز على ما أذكر - وفى المرة الثانية رأى دانيال وهو يتلقى جائزة نيوتن للرياضيات من الهاى ماستر فى الفاوندرز داى . أظن أنك حضرت أيضا هذه المناسبة . فى كلا المناسبتين ، حرص السير رايموند على التخفى من دانيال . وبعد الزيارة الثانية ، أصبح السير رايموند مقتنعا تماما أن دانيال هو حفيده . أخشى أن كل أفراد عائلة هاردكاسيل يملكون جميعا هذا الفك المميز كما أنهم يميلون إلى تناوب الاتكاء من ساق إلى أخرى عند الشعور بالاضطراب . وبناء على ذلك ، قرر السير رايموند تغيير وصيته فى اليوم التالى " .

التقط المحامى ورقة ملفوفة بشريط وردى من فوق مكتبه . فك الشريط بتؤدة وقال : " وقد طلب منى يا سيدتى أن أخطرك بمحتوى الوصية فى الوقت الذى أراه مناسبا ولكن ليس قبل أن

يكون ابنك على وشك إتمام عامه الثلاثين ، وأظن أن دانيال سوف يتم الثلاثين الشهر المقبل ؛ أليس كذلك ؟ " .

أومأت بيكى .

أقر السيد بافرستوك إيماءتها وبدأ يفتح الورقة السميكة .

" لقد شرحت لك بالفعل كل الشروط الخاصة بممتلكات السير رايموند . ولكن بعد وفاة إيمى آل كل عائد التركة إلى السيدة ترينثام والذى وصل سنويا الآن إلى أربعين ألف جنيه . لم يوص السير رايموند فى أى وقت لحفيده الأكبر جاى ترينثام بأى شىء حسب علمى . ولكن بما أنه قد توفى الآن فقد أصبح هذا الأمر غير ذى أهمية . ولكنه ترك مبلغاً بسيطاً لحفيده الآخر السيد نيجيل ترينثام " . ثم صمت قليلا وأضاف وهو ينظر إلى الوصية : " والآن يجب أن أقرأ عليك كلمات السير رايموند تحديداً " . تنحنح قبل أن يواصل .

" بعد تسديد كل الالتزامات والفواتير ؛ أترك باقى الأراضى والممتلكات والعقارات للسيد دانيال ترامبر من جامعة ترينيتى فى كمبريدج كما أن كل عائد هذه الثروة سوف يؤول إليه بمجرد وفاة جدته السيدة جيرالد ترينثام " .

وبمجرد أن أفرغ المحامى ما فى جعبته ؛ غرقت بيكى فى ذهول صامت . صمت السيد بافرستوك للحظة لكى يفسح لها مجالا للحديث إن كان لديها ما تقول ولكن بما أنها كانت فى انتظار معرفة المزيد فقد بقيت صامتة . عاد المحامى لينظر إلى الأوراق الموضوعة أمامه .

" يجب أن أضيف أيضا عند هذا الحد أننى أدرك كما كان يدرك السير رايموند كم المعاناة التى لاقيتموها على يد حفيده وابنته

ولكننى يجب أن أخبرك أنه بالرغم من ضخامة الثروة التى سوف تؤول إلى ابنك فهى لا تشمل مزرعة آشورست فى بيكشاير أو المنزل الواقع فى ميدان شيستر . لأن كليهما أصبح الآن مملوكا للسيدة جيرالد ترينثام منذ وفاة زوجها . كما أنها لا تشمل أيضا ـ وأعتقد أن هذا ما سوف يعنيك فى المقام الأول ـ الأرض الفضاء الواقعة فى حدائق تشيلسيا ؛ أما فيما عدا ذلك فكل شىء سوف يؤول إلى دانيال ولكن ـ كما سبق وشرحت ـ ليس قبل وفاة السيدة ترينثام " .

" وهل تدرك هى كل ذلك ؟ " .

" بالطبع ؛ إنها تعلم تماما شروط وصية والدها قبل وفاته بفترة . بل وقد سألت عن إمكانية الطعن فى الشروط الجديدة التى أدرجها والدها السير رايموند فى الوصية بعد زيارته لسانت بول " .

" وهل تلا ذلك أى إجراء قانونى ؟ " .

" كلا بل على العكس ـ ويجب أن أعترف أن هذا الأمر قد أثار شكوكى ـ لقد أمرت السيدة ترينثام محاميها بسحب الطعن . ولكن أيًا كان الأمر فإن السير رايموند كان قد كتب فى نص وصيته بمنتهى الوضوح أن رأس المال لن يستخدم أو يدار بواسطة إحدى ابنتيه . لقد قصر هذا الحق على حفيده " .

صمت السيد بافرستوك ووضع راحتى يده فوق الورقة الموضوعة أمامه .

همهمت بيكى إلى نفسها : " الآن يجب أن أخبره أخيرا " .

" أظن ذلك يا ليدى ترامبر . لقد كان الهدف من هذا اللقاء هو إخبارك . لم يكن السير رايموند واثقا من أنك قد أخبرت دانيال بوالده الحقيقى " .

" كلا ؛ لم نفعل " .

خلع بافرستوك نظارته ووضعها فوق المكتب وقال : " أرجوك خذى وقتك يا سيدتى العزيزة وفقط أخطرينى بالوقت المناسب الذى يمكن أن أحادث فيه ابنك لإخباره بالنبأ السعيد " .

قالت بيكى فى هدوء وقد استشعرت أن العبارة فى غير محلها : " شكراً لك " .

قال السيد بافرستوك : " وأخيراً يجب أن أخبرك أيضا أن السير رايموند كان من أشد المعجبين بزوجك وعمله وكذلك بشراكتكما سويا . وقد بلغ إعجابه الحد الذى أوصى فيه بأنه إن طرح ترامبر الاكتتاب العام وهو ما كان يتوقعه لكما ، يجب أن نحظى فى شركته بنصيب كبير . لقد كان يتوقع النجاح والازدهار لشركتكما مما يعنى أن الاستثمار فيها سوف يكون استثمارا من الدرجة الأولى " .

قالت بيكى : " لذلك استثمرت هامبروس ١٠ بالمائة من حصص الشركة ، لقد كنا نسأل أنفسنا دائما عن السبب " .

أضاف السيد بافرستوك بابتسامة ، تكاد تنم عن الرضا : " تمامًا ، كنت أنا الذى أصدرت تعليماتى لهامبروس باقتناء هذه الحصص لاستثمار أموال الوصية حتى لا يساور زوجك يوما الخوف من أى دخيل يملك حصة كبيرة فى الأسهم " .

" لقد كان المبلغ فى واقع الأمر أقل كثيرا من المال الذى درته علينا الحصص على مدى هذا العام . ولكن الأهم من ذلك هو أننا أدركنا من مستندات العرض أن السير تشارلى يريد الاحتفاظ بواحد وخمسين بالمائة من أسهم الشركة لذا شعرنا أن امتلاكه لعشرة بالمائة أخرى من الأسهم تحت سيطرته غير المباشرة سوف يمنحه قدرا من الارتياح وخاصة فى مواجهة أية مشكلة غير متوقعة فى أى وقت

فى المستقبل . أتمنى فقط أن تكونى قد شعرت أننا قد عملنا على النحو الأمثل لخدمة مصالحكم . لقد كانت رغبة السير رايموند هى إخباركم بكل هذه التفاصيل فى الوقت الذى أراه مناسبا . أما الشرط الوحيد فقد كان كما شرحت لك هو ألا أكشف عن هذه الحقيقة لابنك قبل أن يتم عامه الثلاثين " .

قالت بيكى : " كان هذا تصرفا حكيما من قبلك يا سيد بافرستوك . أعلم أن تشارلى سوف يود أن يشكرك بشكل شخصى " .

" هذا لطف كبير منك يا ليدى ترامبر . هل لى أن أضيف أيضا أن هذا اللقاء قد أسعدنى بحق . لأننى ـ مثل السير رايموند ـ طالما أسعدنى تتبع النجاحات التى حققها ثلاثتكم فى مجال عمله على مدى السنين كما يسعدنى أيضا أن ألعب دورًا ولو بسيطًا فى بناء مستقبل الشركة " .

بعد أن استكمل مهمته ، نهض السيد بافرستوك من وراء مكتبه واصطحب بيكى فى هدوء إلى الباب الأمامى من المبنى . بدأت بيكى تتساءل ما إذا كان الرجل يتحدث فقط عندما يكون لديه ما يجب أن يقوله .

" سوف أنتظر مكالمتك يا سيدتى العزيزة حتى يُسْمَح لى بالاتصال بابنك " .

الفصل

٣٨

فـى عطلـة نهايـة الأسـبوع التـى تلـت زيـارة بيكـى للسـيد بافرستوك ، توجهت بيكى مع تشـارلى فـى سـيارتهما الخاصـة إلى كمبريدج للقاء دانيال . كان تشارلى قد أصر على عـدم إرجـاء الأمر أكثر من ذلك واتصل بدانيال هاتفيا وأخبره فى مساء ذلك اليوم بأنه سوف يحضـر إلى ترينيتـى وبصحبته والدتـه لإخبـاره بأمر مهـم . وعندما سمع دانيال والده ، أجاب من جانبـه قـائلا : " جيـد لأن لدىّ أنا الآخر أمرًا مهماً طالما أردت أن أخبركم به " .

فى الطريق إلى كمبريدج ، أخذت بيكى وتشارلى يتدربان على ما سوف يقولانه ولكـن بقـى شـىء مهـم أكيـد وهـو أنهمـا مهمـا بـذلا جهدهما فى إخبار دانيال بالحقيقة بأرق أسلوب فإن رد فعل دانيال سوف يبقى غير متوقع .

قالت بيكى : " هل سيغفر لنا يوما ؟ هل تعلم أننـا كنـا يجـب أن نخبره بالحقيقة منذ سنوات ؟! " .

" ولكننا لم نفعل " .

" وأنت الآن تعلمـه فقط فـى الوقـت الـذى يخـدم فيـه الخـبر مصالحنا المالية " .

" وهو ما ينطبق عليه أيضا هو الآخر . لأنه فى النهايـة سـوف يرث عشرة بالمائة من الشركة ، ناهيك عن تركة هاردكاسيل . علينا فقـط أن ننتظـر مـدى تقبلـه للنبـأ والطريقـة التـى سـوف يسـتجيب بها " . أسرع تشارلى بسيارته لكى يتخطى السيارة التى أمامه بينما كانت هناك سيارة أخرى فى الطريق المقابل من ريكمانسورث . بقى كلاهما صامتا لبعض الوقت إلى أن قال تشارلى : " دعينا نراجـع مـا سوف نقوله ثانية . سوف تبدئين بإخباره كيف التقيت بـ " جاى " للمرة الأولى ــــ " .

قالت بيكى : " ربما يعرف بالفعل " .

" إن كان يعرف لكان قد سألنا بكل تأكيد ــــ " .

" ليس بالضرورة . لأنه كان دائما كتوما وخاصـة عنـد التعامـل معنا " .

واصل الاثنان التدرب علـى مـا سـوف يقولانـه إلى أن وصـلا إلى أطرف المدينة .

قاد تشارلى سيارته ببطه فى بيكس وتخطى جامعة كوينز متجنبا مجموعةً من الطلاب كانت قـد تفرقـت فـى قارعـة الطريـق وأخـيرا وصل إلى ترينيتى . ركن سيارته فى سارت نيو كـورت وسـارا حتـى دخلا من البوابة رقم ج ومنها إلى السلم الحلزونى المصنوع من الحجر إلى أن وصـلا إلى البـاب الـذى كـان يحمـل اسـم " دانيـال ترامـبر " فوقه . كانت بيكى تشعر بالبهجة كلما تذكرت أنها لم تكتشـف أن

ابنها قد حصل على درجة الدكتوراه إلا عندما خاطبه شخص ما بلقب الدكتور ترامبر فى حضورها .

أمسك تشارلى بيد زوجته وقال : " لا تقلقى يا بيكى . كل شىء سوف يكون على ما يرام ؛ سوف ترين " . ثم ضغط على يدها قبل أن يطرق باب دانيال بشدة .

" تفضل " ، هكذا صاح دانيال من داخل المكتب ثم فتح الباب البلوطى لكى يستقبل والديه . احتضن أمه بحرارة قبل أن يدخلهما فى مكتبه الصغير غير المرتب حيث كان قد أعد الشاى بالفعل فى المائدة الواقعة فى منتصف الغرفة .

جلس تشارلى وبيكى فوق اثنين من مقاعد الجامعة الجلدية الوثيرة . لابد أنها كانت موجودة منذ زمن طويل وقد أعادت هذه المقاعد إلى بيكى ذكرى المقعد الذى نقلته ذات يوم من منزل تشارلى فى وايت شابيل وباعته مقابل شلن واحد .

صب دانيال لكل منهما كوبا من الشاى وبدأ يعد الكعك الجاف فوق النيران . بقى الجميع صامتين بينما تساءلت بيكى من أين حصل ابنها على هذه السترة الحديثة المصنوعة من الكشمير .

سأل دانيال أخيرا : " هل كانت الرحلة جيدة ؟ "

قال تشارلى : " لم تكن سيئة "

" وكيف حال السيارة الجديدة ؟ " .

" جيدة " .

" وحال ترامبر ؟ " .

" كان يمكن أن يكون أسوأ " .

" أنت مقتضب فى حديثك يا أبى ، أليس كذلك ؟ يجدر بك أن تقدم طلبًا للالتحاق بوظيفة مدرس الإنجليزية الشاغرة " .

قالت والدته : " آسفة يا دانيال ، ولكن رأس أبيك أصبح منشغلاً بالكثير من الأمور فى الوقت الراهن ؛ ليس أقلها ذلك الموضوع الذى جئنا اليوم من أجله " .

قال دانيال وهو يقلب الكعك : " إنه الوقت المثالى بالفعل " .

سأله تشارلى : " وكيف ذلك ؟ "

" لأننى ـ كما قلت لك ـ أريد أنا الآخر أن أحادثك فى أمر مهم . إذن من سيبدأ الحديث ؟ " .

قالت بيكى بسرعة : " دعنا نسمع أخبارك "

قاطعها تشارلى : " كلا ؛ أعتقد أنه من الأفضل أن نبدأ نحن " .

قال دانيال وهو يضع كعكة فى طبق أمه : " حسناً . إنها معدة بالزبد والعسل والمربى " وكان يشير إلى الأطباق الثلاثة الموضوعة على المائدة أمامها .

قالت بيكى : " شكرا لك يا عزيزى " .

" إذن هيا تحدث يا أبى . لم أعد أحتمل كل هذا التوتر " ، ثم أدار كعكة أخرى .

" حسنا ؛ نحن نريد أن نحادثك فى أمر كان يجدر بنا أن نخبرك به منذ سنوات طويلة وكنا بالفعل على وشك الإفصاح لك عنه ما لم ـــــ " .

" هل تريد كعكة يا أبى ؟ " .

" شكرا لك " قال تشارلى ذلك متجاهلا العرض الشهى الذى وضعه دانيال فى طبقه واستطرد حديثه : " ما لم تكن الظروف وتطور الأحداث قد حال دون ذلك " .

وضع دانيال كعكة ثالثة عند نهاية شوكة إعداد الكعك الطويلة وقال : " كلى يا أمى ؛ وإلا فسوف تبرد . على أية حال هناك كعكة أخرى فى طريقها إليك " .

قالت بيكى : " أنا لست جائعة بالمرة "

قال تشارلى : " حسنا ؛ كما كنت أقول ، هناك مشكلة ظهرت تخص الميراث الذى سوف يؤول إليك فى النهاية ــــ " .

سمع طرقاً على الباب ؛ نظرت بيكى فى نفاد صبر جهة تشارلى أملا ألا تطول المقاطعة كثيرا وأن يقتصر الأمر على رسالة مقتضبة يمكن التعامل معها سريعا . كان آخر ما يريدانه فى هذا الوقت هو طالب يسعى لحل مشكلة معقدة . نهض دانيال من جانب المدفأة وسار نحو الباب .

سمعاه يقول : " تعالى يا عزيزتى " ، ونهض تشارلى واقفا عندما دخلت الضيفة الغرفة .

قال تشارلى : " كم تسرنى رؤيتك يا كاثى ، لم تكن لدىَّ أدنى فكرة أنك سوف تكونين فى كمبريدج اليوم " .

قالت كاثى : " لا أستغرب هذا بالمرة على دانيال . كنت أريد أن أخبركما فى وقت سابق ولكنه لم يوافق " . ابتسمت فى توتر لـ " بيكى " قبل أن تجلس فوق أحد المقاعد الخالية .

نظرت بيكى إليهما وهما يجلسان بجانب بعضهما البعض ــــ ثمة أمر ما أثار قلقها .

قال دانيال : " صبى لنفسك بعض الشاى يا عزيزتى . لقد جئت فى الوقت المناسب لإخراج الكعكة التالية كما أنه لم يكن بالإمكان أن تصلى فى وقت أكثر إثارة من الوقت الذى جئت فيه . كان أبى على وشك إطلاعى على حجم الثروة التى سوف يتركها لى

فى وصيته . هل سأرث امبراطورية ترامبر أم أننى سوف أكتفى بالتذكرة الموسمية لحضور مباريات ويستهام لكرة القدم ؟ " .

قالت كاثى وهى تهم بالنهوض من مقعدها : " أنا آسفة بحق " .

قال تشارلى وهو يشير إليها لكى تبقى فى مكانها : " كلا ؛ كلا . لا تكونى سخيفة ؛ إن الأمر لم يكن بهذه الأهمية . يمكننا أن نرجئ الأمر لوقت لاحق " .

قال دانيال وهو يضع كعكة فى طبق كاثى: " إنها ساخنة للغاية ، احترسى . حسنا ؛ إن كان ميراثى ليس بهذا المستوى من الأهمية فسوف أضطر إلى الإفصاح عما كنت أريد إخباركما به أولا . فلتدق الطبول وليرفع الستار ؛ إليكما النبأ المهم " .

رفع دانيال شوكة تسوية الكعك وكأنها عصا ثم أعلن قائلا : " أنا وكاثى مخطوبان وسوف نتزوج " .

قالت بيكى وهى تنهض من مقعدها فى الحال وتحتضن كاثى فى سعادة : " لا أصدق ذلك ، يالها من أنباء رائعة " .

سأل تشارلى : " منذ متى يجرى هذا الأمر ؟ لابد أننى كنت أعمى " .

أقر دانيال : " منذ ما يقرب من عامين ولكى أكون منصفا يا أبى ؛ حتى أنت لا يمكن أن تسلط برجا للمراقبة على كمبريدج أثناء عطلة نهاية الأسبوع . سوف أفشى لكما سرا آخر وهو أن كاثى لم تكن تريد أن نخبر أمى إلا قبل أن تدعوها للانضمام إلى لجنة الإدارة " .

قال تشارلى وهو ينحنى : " بما أننى تاجر يا بنى أستطيع أن أقول لك إنك قد عقدت صفقة رابحة " . ابتسم دانيال ابتسامة

عريضة . وأضاف تشارلى : " بل إننى فى واقع الأمر أعتقد أن كاثى مغبونة بعض الشيء . ولكن متى حدث كل هذا ؟ " .

" لقد تقابلنا فى الحفل الذى أقيم فى بيتنا الجديد بمناسبة افتتاحه . لن تتذكر ذلك يا سير شارلى لكننا اصطدمنا ببعضنا البعض على الدرج " ، قالت كاثى ذلك وهى تشير فى توتر إلى العقد الذى كان يلف رقبتها .

" نعم أتذكر ، وأرجوك نادينى باسمى الأول تشارلى . هكذا يفعل الجميع " .

سألت بيكى : " إذن هل اتفقتما على موعد للزواج ؟ " .

قال دانيال : " كنا نخطط للزواج فى عطلة شم النسيم ، فهل هذا يناسبكما ؟ " .

قال تشارلى : " الأسبوع القادم يناسبنى . أنا سعيد سعادة لا توصف . وأين ستقيمان حفل الزفاف ؟ "

قال دانيال بلا تردد : " فى قاعة الجامعة ، فقد توفى والدا كاثى لذا رأينا أن أفضل مكان يقام فيه العرس هنا فى كمبريدج نظرا لهذه الظروف " .

سألت بيكى : " وأين ستعيشان ؟ " .

قال دانيال فى غموض : " هذا يتوقف على ـــــ "

سأل تشارلى : " على ماذا ؟ " .

" لقد تقدمت للالتحاق بوظيفة فى جامعة كينج فى لندن ، وقد أكدوا لى أن نتيجة الاختيار سوف تعلن على الملأ فى غضون أسبوعين " .

سألت بيكى : " هل أنت متفائل ؟ " .

قال دانيال : " حسنا ، دعينى أقول أن الرئيس يود تناول العشاء معى يوم الخميس المقبل فى مقر إقامته وبما أننى لم أره من قبل ـــ " ، توقف عن الحديث عندما قاطعه جرس الهاتف .

" من الطالب بحق السماء ؟ إن الوحوش لا تزعجنى عادة أيام الآحاد " ، والتقط سماعة الهاتف واستمع للحظة .

قال بعد انقضاء بضع ثوان : " نعم هى هنا هل لى أن أعرف من يريد أن يحادثها ؟ سوف أخبرها " ، ثم استدار ونظر إلى أمه وقال : " إنه السيد بافرستوك يا أمى " .

دفعت بيكى نفسها من فوق مقعدها وأخذت السماعة من دانيال بينما أخذ تشارلى ينظر إليها فى ترقب .

" هل هذا أنت ، يا ليدى ترامبر ؟ " .

" نعم أنا هى " .

" أنا بافرستوك . سوف أكون مقتضبا . ولكن أولا هل أخبرت دانيال بالتفاصيل الخاصة بوصية السير رايموند ؟ " .

" كلا كان زوجى على وشك إخباره " .

" إذن أرجوك لا تقولى له شيئا إلى أن تتسنى لى فرصة للقائك " .

" ولكن ـــــ لم لا ؟ " ، أدركت بيكى عندها أن عليها أن تجرى حوارا منفردا .

" لا يمكن أن أخبرك بأمر كهذا عبر الهاتف يا ليدى ترامبر . متى ستعودين إلى المدينة ؟ " .

" مساء اليوم " .

" أعتقد أننا يجب أن نتقابل فى أسرع وقت " .

قالت بيكى وهى مازالت مرتبكة : " هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة ؟ " .

" نعم ؛ هل السابعة مساء اليوم يناسبك ؟ "

" نعم ، أنا واثقة أننا سوف نكون قد عدنا بحلول هذا الوقت " .

" فى هذه الحالة سوف آتى إليكم فى ميدان إيتون . وأرجوك مهما حدث ، لا تخبرى دانيال بوصية السير رايموند . أعتذر عن كل هذا الغموض ولكننى أخشى أنه ليس لدىَّ خيار . إلى اللقاء يا عزيزتى " .

قالت بيكى وهى تضع سماعة الهاتف : " إلى اللقاء " .

سأل تشارلى وهو يرفع حاجبه : " هل هناك مشكلة ؟ "

قالت بيكى وهى تنظر فى عين زوجها مباشرة : " لا أدرى . إن السيد بافرستوك يريد أن يقابلنا بشأن تلك الأوراق التى كان قد حدثنا عنها الأسبوع الماضى " . تجهم تشارلى وقال : " وهو لا يريدنا أن نناقش تفاصيلها مع أى أحد فى الوقت الراهن " .

قال دانيال وهو يستدير نحو كاثى : " هذا يبدو غامضا ؛ لأن السيد بافرستوك يا عزيزتى هو أحد أفراد المجلس وهو من ذلك النوع الذى يرى أن الاتصال بزوجته أثناء ساعات العمل يعتبر انتهاكا لعقد العمل " .

" يبدو لى أنه يحمل المواصفات اللازمة لاحتلال مقعد فى شركة عامة كبرى " .

قال دانيال : " لقد قابلته مرة من قبل فى واقع الأمر . لقد حضر هو وزوجته إلى الحفل الذى أقامته أمى فى منزلها ولكننى أخشى أنه ليس من النوع الذى يسهل تذكره " .

سأل تشارلى فجأة وهو يحدق فى الألوان المائية للوحة المعلقة فوق مكتب دانيال : " من الذى رسم هذه الصورة ؟ " .

كانت كل ما تتوق إليه بيكى هو ألا يكون تعمد تغيير الموضوع قد أثار الكثير من الانتباه .

* * *

فى طريق العودة إلى لندن ، شعرت بيكى أنها ممزقة بين سعادتها بزواج ابنها من كاثى والأمر المهم الذى كان يريد السيد بافرستوك أن يقابلها من أجله .

عندما سألها تشارلى ثانية عن تفاصيل المكالمة ، حاولت بيكى أن تعيد عليه الحوار الذى أجرته مع بافرستوك كلمة بكلمة ومع ذلك فقد بقى الأمر غامضا عليهما .

" سرعان ما سوف نعرف حقيقة الأمر " ، هكذا قال تشارلى وهو يغادر طريق إيه ١٠ عبر وايت شابيل ومنه إلى المدينة . كان تشارلى يسعد دائما كلما مر بتلك العربات النقالة الملونة ويستمع إلى التجار وهم يصيحون تلك الصيحات العالية .

" أنا لن أبيع هذا مقابل ... " .

وفجأة أوقف تشارلى السيارة وأوقف المحرك وأخذ يحدق عبر النافذة .

سألت بيكى : " لم توقفت ؟ ليس لدينا أى وقت لنضيعه " .

أشار تشارلى إلى نادى أبناء وايت شابيل ؛ كان يبدو أكثر تهالكا عن المعتاد .

" لقد رأيت هذا النادى ألف مرة من قبل يا تشارلى كما أنك تعلم أننا يجب ألا نتأخر عن موعد السيد بافرستوك " .

استخرج مفكرته ونزع غطاء قلمه .

" ما الذى ستفعله ؟ " .

" متى ستتعلمين يا بيكى أن تدققى النظر ؟ " ، ثم انهمك فى تدوين رقم الوكيل العقارى الظاهر بجوار علامة " للبيع " .

" أنت لا تريد بالطبع أن تفتتح محلا لـ " ترامبر فى وايت شابيل ؟ " .

قال تشارلى : " كلا ولكننى أريد أن أعرف لماذا أغلقوا نادى القديم " . ثم أعاد قلمه فى جيبه الداخلى وأدار محرك سيارته من جديد .

وصلت عائلة ترامبر إلى ١٧ ميدان إيتون وقد بقى أمامهم نصف ساعة فقط لاستقبال السيد بافرستوك ، وقد كان السيد بافرستوك - كما كانوا يدركون جيدا مع الأسف - لا يتأخر عن موعده أبدا .

بدأت بيكى فى الحال تزيل الأتربة عن الموائد وتعيد تنظيم الوسائد فى غرفة الاستقبال .

قال تشارلى : " كل شىء يبدو لى على ما يرام ، كفاك قلقا . نحن على أية حال نستعين بالخدم لأداء هذه المهمة " .

ذكرته بيكى : " ولكننا مساء يوم العطلة " . ثم واصلت تفقد المنزل وكل الأشياء التى لم تكن قد لمستها منذ شهور وأخيرا أشعلت نيران المدفأة .

فى تمام السابعة دق جرس الباب ونهض تشارلى لاستقبال الضيف .

قال السيد بافرستوك وهو يخلع قبعته : " مساء الخير يا سير تشارلى .

قال تشارلى : " أجل ؛ تذكرت ؛ هناك شخص واحد فقط يصر على عدم مناداتى باسمى الأول " . أخذ معطف السيد بافرستوك وكوفيته وقبعته وعلقها فوق الحامل .

قال السيد بافرستوك وهو يسير خلف مضيفه إلى غرفة الاستقبال حاملا حقيبته : " آسف لإزعاجكم مساء العطلة ، ولكننى أتمنى عندما تسمعون ما عندى أن تدركوا أننى قد اتخذت القرار الصائب " .

" أنا واثق من ذلك . لقد أثارت مكالمتك حيرتنا ولكن اسمح لنا أولا أن نقدم لك شرابا " .

قال السيد بافرستوك : " كلا ؛ شكرا لك ، ولكن يمكننى تناول الشيرى الجاف ؛ سوف يكون هذا أفضل " .

صبت بيكى للسيد بافرستوك شرابه وصبت لزوجها ولنفسها أيضاً قبل أن تنضم إلى الرجلين حول المدفأة فى انتظار أن يبدأ الرجل حديثه ويبرر سبب هذه المقاطعة الغريبة .

" الأمر ليس سهلا بالنسبة لى يا سير تشارلى " .

أومأ تشارلى : " أتفهم ذلك ؛ خذ وقتك " .

" أود أن أتأكد بداية من أنكما لم تفاتحا ابنكما فى أى شىء بخصوص وصية السير رايموند " .

" لم نفعل . لقد أفلتنا من الحرج بإعلان دانيال خطبته ورغبته فى إتمام الزواج وبعدها جاءت مكالمتك الهاتفية الغامضة " .

قال السيد بافرستوك : " هذه أنباء سارة ؛ سوف يتزوج بالطبع من الآنسة روس الرائعة . أرجوك أبلغه تهانئى " .

" لقد كنت تعلم بالأمر منذ البداية ؟ " .

قال السيد بافرستوك : " أجل بالطبع ، لقد كان الأمر واضحا وضوح الشمس للجميع ؛ أليس كذلك ؟ "

قال تشارلى : " الجميع باستثنائنا نحن " .

سمح السيد بافرستوك لنفسه بابتسامة مقتضبة قبل أن يستخرج ملفه من حقيبته .

استطرد السيد بافرستوك : " لن أضيع المزيد من الوقت . بعدما تحدثت مع محامى الطرف الآخر على مدى الأيام القليلة الماضية ؛ عرفت أن دانيال كان قد زار السيدة ترينثام فى بيتها فى وقت سابق فى ميدان شيستر " .

عجز تشارلى وبيكى عن إخفاء ذهولهما .

قال بافرستوك : " تماما كما توقعت ؛ لم يكن لديكما - تماما مثلى - أى علم بهذا اللقاء " .

سأل تشارلى : " ولكن كيف يمكن أن يكونا قد التقيا وقد ـــ " .

" قد لا يكون بوسعنا أن نعرف هذا أبدا يا سير تشارلى ومع ذلك فالمهم هو أن دانيال توصل مع السيدة ترينثام خلال اللقاء إلى اتفاق ما " .

سأل تشارلى : " وما هى طبيعة هذا الاتفاق ؟ " .

استخرج المحامى العجوز ورقة أخرى من الملف الموضوع أمامه وأعاد قراءة الكلمات المدونة بخط يد السيدة ترينثام : " مقابل سحب السيدة ترينثام أى اعتراض على خطة بناء أبراج ترامبر وموافقتها على عدم المضى قدما فى تنفيذ مشروع إعادة بناء الشقق السكنية فى شارع تشيلسيا ؛ سوف يتنازل دانيال ترامبر عن كل حق له الآن وفى أى وقت فى المستقبل فى ثروة هاردكاسيل . فى

هذا الوقت بالطبع لم يكن لدى دانيال أى علم أنه المستفيد من وصية السير رايموند " .

قال تشارلى أخيرا : " هذا هو إذن سبب تراجعها بدون نزاع ؟ "

" هو كذلك بالفعل " .

" لقد فعل كل هذا بدون أن يعلمنا بالأمر " ، قالت بيكى ذلك بينما بدأ زوجها يطلع على الأوراق .

" يبدو هذا يا ليدى ترامبر " .

" وهل هذا ملزم قانونا ؟ " ، كانت تلك كلمات تشارلى الأولى بعد قراءة الصفحة المدونة بخط يد السيدة ترينثام .

" نعم ؛ يؤسفنى ذلك يا سير تشارلى " .

" ولكن بما أنه لم يكن يعلم أى شىء بخصوص الوصية ـــ " .

" هذا عقد بين طرفين . سوف تفترض المحكمة أن دانيال قد تخلى عن حقه فى هاردكاسيل بما أن السيدة ترينثام قد التزمت بما تعهدت به " .

" ولكن ماذا لو اتهمناها بالإكراه ؟ " .

" لرجل فى السادسة والعشرين من عمره من سيدة تعدت السبعين عندما ذهب لزيارتها ؟ يصعب تصديق ذلك يا سير تشارلى " .

" ولكن كيف تقابلا فى المقام الأول ؟ " .

أجاب المحامى : " ليس لدىَّ أدنى فكرة . يبدو أنها لا تفصح عن تفاصيل اللقاء حتى لمحاميها . ومع ذلك فأنا واثق الآن من أنكم تتفهمون جيدا أن هذا ليس هو الوقت المناسب لإثارة أمر وصية السير رايموند مع دانيال " .

قال تشارلى : " لقد اتخذت القرار الصحيح " .

" والآن يجب أن نغلق هذا الأمر إلى الأبد " ، قالت بيكى ذلك فى صوت يفوق الهمس بالكاد .

سأل تشارلى وهو يضع ذراعه على كتف زوجته : " ولكن لماذا ؟ " .

" لأننى لا أريد أن يعيش دانيال باقى حياته وهو يظن أنه قد خان وصية جده فى الوقت الذى كان قد أقدم فيه على توقيع هذا الاتفاق فقط لكى يساعدنا " ، ثم انهمرت الدموع على خديها وهى تستدير لتنظر إلى زوجها .

" ربما يجدر بى أن أتحدث مع دانيال ، رجلاً لرجل " .

" تشارلى ، لا تفكر أبدا فى إثارة أمر جاى ترينشام مع ابنى ثانية ، أنا أمنعك " .

أزال تشارلى ذراعه من فوق كتف زوجته ونظر إليها وكأنه طفل قد وبخ بغير وجه حق .

قالت بيكى وهى تستدير نحو المحامى : " أنا فقط سعيدة لأنك أنت الذى حملت إلينا كل هذه الأنباء غير السارة . لقد كنت دائما تحرص على توخى الحذر فى تناول شئوننا " .

" شكرا لك يا ليدى ترامبر ولكن أخشى أننى مازلت أحمل المزيد من الأنباء التى يجب أن أفضى بها " ، قبضت بيكى على يد زوجها .

" أود أن أقول فى هذه المناسبة إن السيدة ترينشام لم تكتف بلطمة واحدة فى المرة " .

سأل تشارلى : " ما الذى تريد أن تفعله بنا أيضا ؟ " .

" يبدو أنها على استعداد للتخلى عن أرضها فى تشيلسيا " .

قالت بيكى : " لا أصدق ذلك " .

قال تشارلى : " ولكننى أصدق . بكم تريد أن تبيعها ؟ " .

قال السيد بافرستوك الذى انحنى لكى يستخرج ملفا آخر من حقيبته الجلدية : " هذه هى تحديداً المشكلة " .

تبادل تشارلى وبيكى نظرة سريعة .

" سوف تبيع لكم السيدة ترينشام أرض تشيلسيا مقابل عشرة بالمائة من أسهم ترامبر " ، ثم صمت لحظة وأضاف : " ومقعد فى مجلس الإدارة لابنها نيجيل " .

قال تشارلى فى حدة : " لن يحدث هذا أبدا " .

استطرد المحامى حديثه : " إن لم توافق على طلبها ، فسوف تطرح الأرض للبيع فى السوق وسوف تبيعها مقابل أعلى سعر ، أيًا كان المشترى " .

قال تشارلى : " ليكن ، سوف ينتهى بنا المآل إلى شراء الأرض على أية حال " .

قالت بيكى : " بسعر أعلى كثيرا عن قيمة عشرة بالمائة من أسهمنا على ما أظن " .

" يجدر بنا أن ندفعه بعد كل المعاناة التى فرضتها علينا " .

واصل السيد بافرستوك : " وقد طلبت السيدة ترينشام أيضا تقديم عرضها للمجلس بالتفصيل فى الاجتماع القادم على أن يتم التصويت عليه " .

قال تشارلى : " ولكنها لا تملك حق المطالبة " .

قال السيد بافرستوك : " إن لم توافق على طلبها ، فسوف تشيع بنفسها النبأ بين حاملى الأسهم وسوف تطلب عقد اجتماع طارئ سوف تتقدم فيه شخصيا بطلبها وتطالب بالتصويت " .

" وهل يمكن أن تفعل ذلك ؟ " ، للمرة الأولى بدت على تشارلى علامات التوتر .

" بعد كل ما أعرفه عن هذه المرأة أستطيع أن أؤكد أنها لا يمكن أن تقدم على خطوة بدون استشارة قانونية " .

قالت بيكى فى خوف : " تبدو وكأنها تملك قدرة دائمة على توقع خطوتنا التالية "

عكس صوت تشارلى نفس الشعور بالقلق وهو يقول : " لن تكون بحاجة إلى إزعاج نفسها بخطوتنا التالية إن كان ابنها فى المجلس ؛ لأنه سيخطرها بشكل مباشر بكل ما يجرى " .

قالت بيكى : " إذن هذا يعنى أننا يجب أن نذعن لرغبتها "

قال السيد بافرستوك : " أوافقك الرأى يا ليدى ترامبر . ومع ذلك ؛ لقد شعرت أنه من واجبى أن أخطركما بمطالب السيدة ترينثام بأكبر قدر من التفصيل لأننى أنا شخصيا من سيتولى تلك المهمة الشاقة وهى إخبار المجلس بكل التفاصيل فى اجتماعنا التالى " .

كان هناك " اعتذار واحد " فقط عن عدم الحضور فى اجتماع المجلس التالى يوم الثلاثاء . كان سيمون ماثيوز قد سافر إلى جنيف لعقد مزاد تحفة نادرة بعد أن أكد له تشارلى أن وجوده لن يكون مهمًا .

وبمجرد أن انتهى السيد بافرستوك من شرح عواقب عرض السيدة ترينثام للمجلس ؛ انتاب كل الحاضرين الرغبة فى التحدث فى آن واحد .

عندما نجح تشارلى فى استعادة بعض النظام ؛ قال : " يجب أن أوضح موقفى تماما منذ البداية . أنا أعارض هذا العرض مائة بالمائة . أنا لا أثق بالسيدة المذكورة ولم أثق بها يوما . والأكثر من ذلك هو أننى واثق من أن هدفها على المدى الطويل هو إيذاء الشركة " .

قال بول ميريك : " ولكنها يا سيد ترامبر بكل تأكيد يمكنها أن تبيع أرضها فى تشيلسيا لأعلى سعر وتشترى بالنقد عشرة بالمائة من أسهم الشركة فى أى وقت يناسبها . فهل بقى لدينا أى خيار حقيقى ؟ " .

قال تشارلى : " ألا يفرض علينا أن نقبل ابنها . لا تنس أن جزءًا من العرض هو أن نمنحه مقعدا فى مجلس الإدارة " .

قال بول ميريك : " ولكنه إن كان يملك عشرة بالمائة من الأسهم ، وربما تهديدا لما نعرفه جميعا ؛ فليس أقل من واجبنا أن نمنحه مقعدا كمدير " .

قال تشارلى : " ليس بالضرورة وخاصة إن كنا نعرف أن السبب الوحيد الذى يسعى من أجله للانضمام إلى المجلس هو السيطرة عليه . إن آخر ما نريده هو مدير يحمل فى نفسه هذه النوايا العدوانية " .

" إن آخر ما نريده هو دفع مبلغ أكثر من اللازم فى هوة فى الأرض " .

للحظات ساد الصمت بين كل أعضاء المجلس تفكرا فى وجهات النظر المتضاربة .

قال نيومان : " دعنا نفكر للحظة فى عواقب عدم قبول شروط السيدة ترينثام والمزايدة بدلا من ذلك على شراء الأرض فى السوق

المفتوح . قد لا يكون هذا هو الحل الأقل سعرا يا سير تشارلى لأننى أؤكد لك أن شركات سيرز وبوتز وهاوس أوف فارسر وجون لويس ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ سوف تسعد سعادة غامرة بافتتاح محل جديد فى قلب قلعة ترامبر " .

قال ميريك : " أى أن رفض هذا العرض قد يكون أغلى ثمنا على المدى الطويل مهما كانت نوايا السيدة ترينثام يا سيدى الرئيس . على أية حال ؛ لدىّ معلومة أخرى أود أن أطرحها على المجلس للمناقشة " .

سأل تشارلى فى حذر : " وما هى هذه المعلومة ؟ "

بدأ ميريك حديثه فى تكلف : " قد يهم زملائى المديرين معرفة أن نيجيل ترينثام قد سرح مؤخرا من شركة كيتكات وإيتكن أى أنه فصل من العمل على نحو مهذب . يبدو أنه يفتقر إلى الكفاءة المطلوبة فى العمل فى ظل المنافسة الحالية . لذا لا أظن أن وجوده حول هذه المائدة سوف يمثل أى نوع من أنواع التهديد حاليا أو فى المستقبل " .

قال تشارلى : " ولكنه مع ذلك سوف يبقى عين والدته المراقبة لكل ما يجرى هنا " .

قال ميريك : " ربما تكون بحاجة لمعرفة مدى جودة مبيعات الملابس الداخلية للنساء فى الدور السابع ؟ " .

" ناهيك عن المشاكل التى سببتها ماسورة المياه الرئيسية التى انفجرت فى الحمام الشهر الماضى . كلا يا سيدى الرئيس ، أعتقد أنه من الجنون عدم قبول عرضها ؛ بل إنه يعد تصرفا غير مسئول " .

سألت دافنى فى مباغتة مفاجئة للجميع : " بهذه المناسبة يا سيدى الرئيس أود أن أعرف ما الذى تنوى فعله بهذه المساحة الإضافية التى قد نحصل علينا عند امتلاك أرض السيدة ترينثام ؟ " .

قال تشارلى : " سوف نتوسع ، لقد أصبحنا بالفعل بحاجة ماسة إلى ذلك . إن هذه الأرض تعنى إضافة ما لا يقل عن خمسين ألف قدم مربع . أى أننى إن نجحت فى وضع يدى عليها فسوف يتسنى لنا بناء عشرين قسما إضافيا على الأقل " .

واصلت دافنى : " وكم ستبلغ تكلفة هذا المشروع ؟ "

قال بول ميريك مقاطعاً : " الكثير من المال ، الذى قد لا نملكه إن فرض علينا فى المقام الأول دفع مبلغ كبير يفوق القيمة الحقيقية للموقع الخاوى " .

قال تشارلى وهو يطرق المائدة : " هل لى أن أذكركم أن هذا العام كان جيدا بشكل استثنائى ؟ " .

" أوافقك يا سيدى الرئيس . ولكن هل لى أن أذكرك أيضا أنك فى آخر مرة قلت فيها عبارة مشابهة كنت بصدد الإفلاس فى غضون خمس سنوات ؟ " .

أصر تشارلى : " ولكن هذا كان يرجع إلى حرب غير متوقعة " .

قال ميريك : " وهذه ليست حرباً " . أخذ كلا الرجلين يحدقان فى بعضهما البعض عاجزين عن إخفاء الشعور بالكراهية المتبادلة .

واصل ميريك وهو ينظر إلى كل الأعضاء الملتفين حول مائدة الاجتماع : " إن ولاءنا الأول يجب أن يكون دائماً هو خدمة حاملى

الأسهم . إن اكتشفوا أننا اضطررنا لدفع مبلغ مبالغ فيه فى هذه الأرض لمجرد ـ اسمحوا لى أن أعبر بمنتهى الصراحة ـ ثأر شخصى بين المدين وصاحبة الأرض فسوف يوجه إلينا توبيخ قاس فى الاجتماع المقبل وقد تضطر أنت يا سيدى الرئيس إلى تقديم استقالتك " .

" أنا على استعداد لتحمل هذه المجازفة " ، قال تشارلى ذلك وقد أصبح صوته عندها أقرب إلى الصياح .

أضاف ميريك فى هدوء : " حسنا ولكننى لست على استعداد لذلك ، والأكثر من ذلك هو أننا إن رفضنا عرضها فسوف تدعو إلى عقد اجتماع طارئ لكى تطرح قضيتها أمام حاملى الأسهم وأنا واثق من أنها سوف تنجح فى إقناعهم . أعتقد أن الوقت قد حان لإجراء تصويت على هذا الأمر بدون المزيد من المناقشات غير المجدية " .

بدأ تشارلى : " ولكن انتظر لحظة ـــ " .

" كلا لن أنتظر يا سيدى الرئيس وأنا أقترح قبول عرض السيدة ترينشام الكريم بامتلاك الأرض مقابل عشرة بالمائة من أسهم الشركة " .

سأل تشارلى : " وماذا تقترح بشأن ابنها ؟ " .

أجاب ميريك : " يجب أن يدعى للانضمام إلى المجلس بدون تأخير " .

بدأ تشارلى : " ولكن ـــ " .

قال ميريك : " ليس هناك لكن يا سيدى الرئيس . لقد حان وقت التصويت . إن الأحكام المسبقة الشخصية ليس لها مجال فى اتخاذ القرارات " .

سادت لحظة صمت قبل أن يبادر آرثر سيلوين بقوله : " بعد طرح العرض رسميا أود أن أسجل الأصوات يا آنسة آلان ؟ " .

أومأت جيسيكا ونظرت حولها إلى أعضاء المجلس التسعة .

" السيد ميريك ؟ " .

" موافق " .

" السيد نيومان ؟ " .

" موافق " .

" السيد دينينج ؟ " .

" غير موافق " .

" السيد ماكينز ؟ " .

" غير موافق " .

" السيد بافرستوك ؟ " .

وضع المحامى راحتى يده على المائدة وبدا مترددا كما لو كان بصدد اتخاذ قرار محير .

قال أخيرا : " موافق " .

" الليدى ترامبر ؟ " .

قالت بيكى بلا تردد : " غير موافقة " .

" الليدى ويلتشاير ؟ " .

قالت دافنى فى هدوء : " موافقة "

قالت بيكى غير مصدقة لما قالته : " لماذا ؟ " .

استدارت دافنى لتنظر إلى صديقتها القديمة وقالت : " لأننى أفضل أن يبقى عدوى بمشاكله داخل غرفة الاجتماعات بدلا من أن يبقى فى الرواق بالخارج مسببا مشاكل أكبر " .

لم تصدق بيكى أذنيها .

" أظن أنك غير موافق يا سير تشارلز ؟ " .

أومأ تشارلى فى حماس .

رفع السيد سيلوين عينيه .

قال سائلا جيسيكا : " هل هذا يعنى أن الحصيلة هى أربعة أصوات مقابل أربعة ؟ " .

" نعم هذا صحيح يا سيد سيلوين " ، قالت جيسيكا ذلك بعد أن أحصت بإبهامها الأسماء للمرة الثانية .

بدأت أنظار الجميع تتجه نحو المدير التنفيذى . وضع القلم الذى كان يدون به الأصوات فوق الإضمامة الموضوعة أمامه وقال : " إذن علىَّ أن أتخذ القرار الذى يخدم مصالح الشركة على المدى الطويل . إننى أقبل عرض السيدة ترينثام " .

بدأ الجميع حول المائدة يتحدثون باستثناء تشارلى .

انتظر السيد سيلوين لبعض الوقت قبل أن يضيف قائلا : " تم أخذ الأصوات يا سيدى الرئيس والنتيجة هى خمسة مقابل أربعة . لذا فإننى أصدر بناء على ذلك تعليماتى للمسئول المصرفى التجارى والمحامين باتخاذ كل الترتيبات المالية والقانونية اللازمة لضمان تنفيذ هذه الصفقة فى هدوء ووفقا للائحة الشركة " .

لم يعلق تشارلى وواصل تحديقه أمامه .

" إن لم تكن هناك أمور أخرى يا سيدى الرئيس ؛ ربما يمكننا إنهاء الاجتماع " .

أومأ تشارلى ولكنه لم يتحرك من مكانه عندما نهض باقى الأعضاء لمغادرة قاعة الاجتماعات . بقيت بيكى وحدها فى مكانها ؛ عند منتصف المائدة الطويلة . وفى خلال دقائق لم يكن قد بقى إلا هما داخل القاعة .

" كان يجب أن أحصل على هذه الشقق منذ ثلاثين عاما كما تعرفين " .

لم تعلق بيكى .

" وكان لا يجب أبدا أن نسعى للاكتتاب العام مادامت هذه السيدة اللعينة مازالت على قيد الحياة " .

نهض تشارلى ببطء وسار نحو النافذة وبقيت زوجته صامتة وهو يحدق فى الأريكة الخاوية فى الجانب البعيد من الطريق .

" لقد كنت أنا الذى أخبرت سيمون أن وجوده ليس ضروريا " .

بقيت بيكى ملتزمة الصمت .

" حسنا ؛ على الأقل أصبحنا نعرف الآن ما الذى تخططه المرأة اللعينة لابنها الغالى نيجيل " .

رفعت بيكى حاجبيها بينما استدار تشارلى نحوها .

" إنها تخطط لأن يخلفنى فى رئاسة مجلس إدارة شركة ترامبر " .

كاثي

١٩٤٧ - ١٩٥٠

الفصل

٣٩

كان السؤال الوحيد الذى لم يكن بوسعى أن أجيب عنه أبدا كطفلة هو : " متى كانت المرة الأخيرة التى رأيت فيها والدك ؟ " .

بخلاف الرد المعتاد المأثور ، كنت لا أجد لدىَّ ببساطة أية إجابة . بل إننى فى الواقع لم أكن أعرف أبى بالمرة أو أمى . إن معظم الناس لا يعرفون كم يطرح هذا السؤال على الشخص فى اليوم والشهر والعام . فإن كانت إجابتك ببساطة هى : " أنا لا أعرف لأن كليهما قد توفى قبل أن أعى " ، فسوف تقابل بنظرات الدهشة أو الشك والأسوأ نظرات عدم التصديق . فى النهاية سوف تتعلم كيف تتجنب السؤال بأية حيلة مصطنعة أو بمجرد تغيير الحديث . لم تكن هناك صيغة من صيغ السؤال عن الأبوة لم أنجح فى إيجاد مخرج لها .

الذكرى المشوشة الوحيدة التى كنت أحملها عن والدىَّ هى ذلك الرجل الذى كان يصيح بشكل دائم وتلك السيدة التى كانت بدافع

خجلها لا تتحدث إلا نادرا . كما أننى أشعر أن اسمها كان آنا . باستثناء ذلك كان كلاهما يمثل لغزا مبهما بالنسبة لى .

كم كنت أحسد هؤلاء الأطفال الذين كانوا يملكون القدرة على التحدث عن أهلهم بشكل تلقائى وعن إخوانهم وأخواتهم وحتى أبناء عمومتهم وأعمامهم من الدرجة الثانية وأقاربهم الآخرين . كان كل ما أعرفه عن نفسى هو أنه قد جىء بى إلى دار أيتام سانت هيلدا ، فى بارك هيل ، ميلبورن . كانت المديرة هى الآنسة ، راشيل بينسون .

كان العديد من الأطفال داخل دار الأيتام لديهم أقارب ويتلقون بعض الخطابات بل وبعض الزيارات من آن إلى آخر . كان الشخص الوحيد الذى أذكره هو تلك السيدة المسنة ذات المظهر الجامد والرداء الأسود الطويل والقفاز الأسود الذى كان يمتد حتى مرفقيها والتى كانت تتحدث بلهجة غريبة . ولم يكن لدىّ أدنى فكرة عن درجة القرابة التى تربط بيننا .

كانت الآنسة بينسون تعامل هذه السيدة تحديدا باحترام بالغ وأذكر حتى أنها كانت تنحنى لتحيتها عند مغادرتها ولكننى لم أعرف يوما اسمها ، وعندما كبرت بما يكفى لسؤال الآنسة بينسون عنها ، ادعت أنه ليس لديها أية فكرة عما كنت أتحدث عنه . وكلما حاولت أن أسأل الآنسة بينسون عن نشأتى ، كانت تجيبنى فى غموض : " من الأفضل لك ألا تعرفى شيئا " . ولا أعرف عبارة فى الإنجليزية يمكن أن تكون أكثر حافزا لى للبحث عن هويتى .

وبمرور السنوات بدأت أسأل ما كنت أعتبره بعض الأسئلة البسيطة عن أهلى ، كنت أسأل نائبة المديرة والناظرة وطاقم العاملين فى المطبخ وحتى البواب ولكننى كنت أصطدم دائما بنفس الجدار

الأصم . وبالرغم من أنها تنازلت عن العبارة المأثورة : " من الأفضل لك يا كاتى ألا تعرفى " ، فقد استبدلتها بعبارة : " فى الواقع يا كاتى أنا نفسى لا أعرف " . وبالرغم من أننى لم أعد أسألها فإننى لم أكن أصدقها لأن بعض العاملين القدامى كانوا من آن إلى آخر يلقوننى بنظرات غريبة كما أنهم فى مناسبة أو اثنتين على الأقل كانوا يتهامسون من وراء ظهرى بمجرد أن يشعروا أننى أصبحت بعيدة عن مرمى السمع .

لم أكن أحمل أية صور فوتوغرافية أو أى تذكار لأهلى أو حتى أى دليل يثبت وجودهما من الأساس باستثناء قطعة مجوهرات صغيرة أقنعت نفسى بأنها من الفضة . أتذكر أن الرجل الذى كان يصيح كثيرا هو الذى منحنى هذا العقد الصغير ومنذ ذلك الحين ظل هذا العقد معلقا حول رقبتى . وفى إحدى الليالى بينما كنت أخلع ملابسى فى المهجع رأت الآنسة بينسون كنزى وسألتنى من أين حصلت عليه ، فأخبرتها أن بيتسى كومبتون قد قايضتنى إياه مقابل نصف دستة الكرات الزجاجية ، وهى الرواية التى بدت مقنعة بالنسبة لها فى ذلك الوقت . ولكن منذ ذلك اليوم فصاعدا تعلمت أن أخفى كنزى جيدا عن الأعين المتلصصة .

ولابد أننى كنت واحدة من هؤلاء الأطفال القلائل الذين كانوا يحبون الذهاب إلى المدرسة منذ اليوم الأول الذى تفتح فيه أبوابها . كان الفصل الدراسى مهربًا مباركا من السجن والسجانين . كانت كل دقيقة إضافية أقضيها فى المدرسة المحلية تعنى دقيقة لم أكن أقضيها فى سانت هيلدا وسرعان ما اكتشفت أننى كلما بذلت جهدى فى المدرسة طالت الساعات التى كان يسمح لى بقضائها هناك . وقد زاد طول هذه الساعات عندما فزت وأنا فى الحادية

عشرة من عمرى بمقعد فى مدرسة النحو للفتيات . كانت المدرسة تعج بالأنشطة المختلفة الرائعة والتى كانت تبدأ منذ الصباح وحتى وقت متأخر من اليوم مما أحال سانت هيلدا بالكاد إلى مكان للنوم وتناول الإفطار .

بينما كنت فى المدرسة تعلمت الرسم مما كان يسمح لى بقضاء ساعات عدة فى غرفة الفنون بدون إشراف أو تدخل كما تعلمت رياضة التنس ونجحت بالمثابرة والعمل الجاد والتدريب فى الفوز بمكان فى الفريق مما مكننى بدوره من قضاء الأمسيات حتى الغروب فى التدريب ثم لعبت أيضا الكريكت ولكننى لم أكن أملك موهبة حقيقية فى هذه اللعبة ولكن بما أننى من مسجلات الأهداف فى الفريق لم يكن يسمح لى بالمغادرة قبل تسديد آخر كرة ؛ ليس فهذا فحسب وإنما كان يجب أن أنتقل يوم السبت من كل أسبوعين داخل أتوبيس للمشاركة فى اللعب ضد المدارس الأخرى . كنت من بين الأطفال القلائل الذين كانوا يفضلون اللعب خارج ملاعبهم .

ومع بلوغ السادسة عشرة وصلت إلى الصف السادس وبدأت أبذل جهدا أكبر فى الاستذكار وقد عرفت الآنسة بينسون أننى قد أفوز بمنحة دراسية فى جامعة ميلبورن ؛ ولم يكن هذا حدثا مألوفا بالنسبة لنزلاء سانت هيلد .

كنت كلما تلقيت جائزة دراسية أو أى توبيخ وكنت نادرا ما أتلقى توبيخا عندما التحقت بالمدرسة ، كان يطلب منى أن أتوجه إلى الآنسة بينسون فى مكتبها ؛ حيث كانت توجه لى إما بعض كلمات التشجيع أو اللوم قبل أن تدس الورقة فى ملف وتعيده إلى الخزانة الموضوعة خلفها . كنت أراقبها دائما بمنتهى الدقة وهى تؤدى هذه الطقوس . كانت فى البداية تستخرج المفتاح من درج

مكتبها العلوى من الجانب الأيسر ثم تتجه إلى الخزانة وتستخرج ملفى من المدخل الخاص بأول حرف من حروف اسمى ثم تضع الورقة التى تحمل إما الإشادة أو التوبيخ بداخله ثم تغلق الخزانة وتعيد المفتاح إلى مكتبها . كان نظاما ثابتا لا يتغير أبدا .

وكان هناك أمر ثابت آخر فى حياة الآنسة بينسون وهى عطلتها السنوية حيث كانت تقوم بزيارة " أهلها " فى أدليد . كان هذا الحدث يتكرر فى شهر سبتمبر من كل عام وكنت أتطلع إلى هذا الموعد شأنى شأن الكثير غيرى وكأنها عطلتى .

عندما أعلنت الحرب خشيت أن تغير نظامها المعتاد وخاصة بعد أن أخبرونا أننا سوف نقدم جميعا على تقديم تضحيات .

ولكن يبدو أن الآنسة بينسون لم تكن تقدم على التضحيات بالرغم من الحظر الذى فرض على السفر وكانت تسافر كالمعتاد كل عام إلى أدليد فى نفس اليوم فى الصيف . انتظرت خمسة أيام بعد رحيلها فى السيارة الأجرة إلى أن شعرت بأمان تام يسمح لى بتنفيذ خطتى .

وفى الليلة السادسة بقيت ساهرة فى فراشى إلى ما بعد الواحدة صباحا بدون أن أحرك ساكنا إلى أن تأكدت من أن الفتيات الست عشرة فى المهجع قد راحوا فى سبات عميق . ثم نهضت واستعرت مصباحًا صغيرا من درج إحدى الفتيات التى كانت تنام بجوارى وتوجهت إلى الدرج الذى يقود إلى الدور السفلى . كنت قد قررت ادعاء المرض إن رآنى أحدهم ، وبما أننى نادرا ما كنت أذهب إلى العيادة الطبية على مدى الأعوام الاثنى عشر فى سانت هيلدا فقد كنت واثقة من أنهم سوف يصدقون عذرى .

تسللت فى حذر هابطة الدرج بدون الحاجة إلى استخدام المصباح ؛ فمنذ رحيل الآنسة بينسون إلى أدليد كنت قد دربت نفسى على السير فى الطريق مغمضة العينين صباح كل يوم . وعندما وصلت إلى مكتب المديرة ؛ فتحت الباب وتسللت داخلة ، وعندها فقط أضأت المصباح . سرت على أطراف أصابعى إلى أن وصلت إلى مكتب الآنسة بينسون ثم فتحت بحذر الدرج العلوى من الجهة اليسرى . وما لم أحسب حسابه من قبل هو تلك المفاتيح العشرون المختلفة التى عثرت عليها ؛ كان بعضها معلقا فى حلق ، والبعض الآخر منفصلاً . حاولت أن أتذكر حجم وشكل المفتاح الذى كانت تستخدمه الآنسة بينسون لفتح الخزانة ولكننى لم أتمكن من ذلك وبواسطة المصباح الصغير وحده أخذت أجرب المفاتيح إلى أن عثرت على المفتاح الذى دار مائة وثمانين درجة .

فتحت الدرج العلوى وخزانة الملفات بأبطأ ما يمكن ومع ذلك فقد أحدث الدرج دويا كالرعد . توقفت وكتمت أنفاسى فى ترقب لكى أحتاط من أى تحرك . حتى إننى نظرت تحت الباب لكى أتأكد أنه ليس هناك ضوء قد أنير . وعندما تيقنت أننى لم أزعج أحدا أخذت أبحث عن ملفى تحت المدخل الخاص بأول حرف من أحرف اسمى ، روربت ، روز ، روس ... ثم استخرجت ملفى الخاص وحملته بوزنه الثقيل ووضعته على مكتب المديرة . جلست على كرسى الآنسة بينسون وبواسطة المصباح الصغير ، بدأت أتفحص كل صفحة من صفحات الملف بعناية . وبما أننى كنت فى الخامسة عشرة وكان قد مضى علىّ فى سانت هيلدا وقتها ما يقرب من اثنى عشر عاما فقد كان ملفى بالطبع سميكا . تذكرت تلك التوبيخات التى كنت أتلقاها وأنا صغيرة والتى كنت قد نسيتها مثل

التبول الليلى وكذلك العديد من المكافآت التى تلقيتها مقابل رسمى ؛ بما فى ذلك الجائزة الكبرى التى تلقيتها مقابل لوحة الألوان المائية التى كانت مازالت معلقة فى غرفة تناول الطعام . ومع ذلك بالرغم من تدقيقى فى البحث لم أعثر على إشارة واحدة تقودنى إلى أى خيط قبل الثالثة من عمرى . بدأت أتساءل ما إن كانت هذه هى قاعدة عامة تطبق على كل الفتيات اللاتى يعشن فى سانت هيلدا . ألقيت نظرة سريعة على تفاصيل سجل جينى روز . وللأسف وجدت اسم أبويها مدونين فى الملف (تيد ، توفى) ووالدتها (سوزان) . ثم عثرت على بطاقة مرفقة مذكور فيها أن للأم ثلاثة أبناء آخرين وأنها لم تعد قادرة بعد وفاة زوجها إثر أزمة قلبية على تنشئة طفل رابع .

أغلقت الخزانة وأعدت المفتاح إلى الدرج العلوى الأيسر من مكتب الآنسة بينسون وأغلقت المصباح الصغير وغادرت المكتب وأسرعت بالعودة إلى المهجع . أعدت المصباح الصغير إلى مكانه الصحيح ونمت فى فراشى . بدأت أتساءل عن الخطوة التالية التى يمكن أن أقوم بها لكى أكشف عن هويتى .

شعرت وكأن أهلى لم يكن لهم وجود فى يوم من الأيام وكأننى قد بدأت حياتى فى سن الثالثة . بما أن البديل الوحيد للغز هو أنه لا يوجد لى أبوان ، فإننى لم أقبل هذه الرواية وأصبحت رغبتى فى معرفة الحقيقة أمرا ملحا استحوذ على كل تفكيرى . لابد أننى بعدها سقطت فى سبات عميق دون أن أدرى لأن كل ما أتذكره بعد ذلك هو أننى استيقظت على صوت جرس المدرسة فى صباح اليوم التالى .

عندما فزت بمقعدى فى جامعة ميلبورن شعرت وكأننى سجين أطلق سراحه بعد طول اعتقال . وللمرة الأولى ؛ منحت غرفة منفردة ولم أعد مطالبة بارتداء زى خاص ولكن هذا لا يعنى أننى كنت أجرؤ على امتلاك آخر صيحات الموضة فى ميلبورن . أتذكر أننى وقتها كنت أعمل لساعات طويلة فى الجامعة يفوق الوقت الذى كنت أعمل فيه فى المدرسة وكنت أشعر بالذعر كلما تذكرت أننى إن لم أجتز عامى الأول فسوف يرسلوننى ثانية لأقضى باقى عمرى فى سانت هيلدا .

فى عامى الثانى تخصصت فى تاريخ الفن واللغة الإنجليزية بينما واصلت هوايتى فى الرسم ولكننى لم أكن أحمل أى تصور للمجال الذى يمكن أن أعمل فيه بعد تخرجى فى الجامعة . اقترح علىّ أستاذى أن أعمل فى مجال التدريس ولكن هذا المجال بدا لى وكأنه امتداد لـ " سانت هيلدا " وأننى أنا شخصيا امتداد للآنسة بينسون .

لم أكن قد صادقت رجلا قبل التحاقى بالجامعة لأن الذكور فى سانت هيلدا كانوا يسكنون فى جناح آخر من المهجع كما أنه كان لا يسمح لنا بالتحدث معهم قبل التاسعة صباحا وبعد الخامسة مساءً .

كنت حتى الخامسة عشرة من عمرى أظن أن القبلة تؤدى إلى الحمل لذا كنت مصممة على تجنب هذا الخطأ وخاصة بعد أن تجرعت مرارة افتقاد الأسرة .

كان أول صديق حقيقى لى هو ميل نيكولز الذى كان كابتن فريق كرة القدم فى الجامعة . بعدما نجح أخيرا فى الوصول إلى قلبى أخبرنى أننى الفتاة الوحيدة فى حياته والأهم من ذلك أول فتاة فى

حياته . بعدما اعترفت له بأن هذا ينطبق عليه هو الآخر مال ميل نحوى .

" لم أر شيئا مثل هذا من قبل " ، قال ذلك وهو يمسك بقطعة مجوهراتى الصغيرة بين يديه .

" إنها المرة الثانية الأولى " .

ضحك قائلاً : " ليس تحديداً " ؛ لأننى رأيت شيئا مشابها " .

" ما الذى تعنيه ؟ " .

شرح لى قائلاً : " إنه نيشان ، لقد فاز أبى بثلاثة أو أربعة نياشين مثلها ولكنها لم تكن من الفضة " .

نظرت ثانية إلى النيشان وشعرت أن هذه المعلومة جديرة بالمعرفة .

فى مكتبة جامعة ميلبورن كانت هناك مجموعة كبيرة من الكتب عن الحرب العالمية الأولى وكانت هذه الكتب جميعا منحازة بطبيعة الحال إلى كاليبولى وحملة الشرق الأقصى أكثر من يوم الهجوم ومعركة العلمين . ومع ذلك فقد وجدت بين الصفحات التى تشيد ببطولات سلاح المشاة الأسترالى فى الحرب فصلا عن نياشين الفروسية الإنجليزية مزودا بصور لأشكال هذه النياشين وألوانها .

وقد اكتشفت أن هناك العديد من النياشين العسكرية التى تنم عن درجات البطولة المختلفة ؛ بدت لى أنواعها لا نهائية وفى الصفحة أربعمائة وتسع عثرت أخيرا على ما كنت أبحث عنه ؛ النيشان العسكرى والذى كان مؤلفا من شريط أبيض من الحرير وخطوط أفقية بنفسجية اللون ونيشان مدلى من الفضة يحمل التاج الإمبراطورى على كل ذراع من الأذرع الأربع للنيشان . كان هذا النيشان يمنح للجنود تحت رتبة مقدم نظير الجرأة والشجاعة فى

مواجهة العدو . بدأت أتصور أن أبى كان بطلا لقى حتفه فى سن مبكرة متأثرا بجراحه فى الحرب . على الأقل هذا كان يمكن أن يفسر صراخه المستمر جراء طول المعاناة التى لاقاها .

قمت بالخطوة التالية للتحريات عندما ذهبت لزيارة محل تحف فى ميلبورن . أخذ الرجل الواقف خلف النضد يتفحص النيشان ثم عرض علىّ خمسة جنيهات مقابل الحصول عليه . لم أزعج نفسى بتبرير رفضى للطلب حتى إن عرض علىّ خمسمائة جنيه ولكنه على الأقل قدم لى معلومة مهمة وهى أن التاجر الحقيقى الذى يتعامل فى النياشين فى استراليا كان يدعى السيد فرانك جينجز فى ٤٧ شارع ماكفينج فى سيدنى .

فى ذلك الوقت كنت أعبر سيدنى فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية ولم أكن أملك بالطبع ثمن هذه الرحلة الطويلة . لذا كان علىّ أن أنتظر فى صبر الفصل الدراسى الصيفى لكى أقدم طلب الالتحاق بفريق الكريكيت كهدافة . ولكنهم رفضونى بسبب جنسى . إن النساء يصعب عليهن فهم اللعبة بشكل كامل ، هذا هو ما شرحه لى شاب كان يجلس خلفى فى المحاضرات حتى يتسنى له نقلها منى . لم يترك لى ذلك خيارا إلا أن أقضى الساعات فى التدرب على الرميات الأرضية وكذلك تصويبات الإرسال إلى أن تم اختيارى فى فريق التنس الثانى للسيدات . لم يكن الإنجاز عظيما ولكن كانت هناك مباراة واحدة فقط تثير اهتمامى وهى مباراة سيدنى (أ) .

فى صباح وصولنا إلى سيدنى توجهت مباشرة إلى شارع ماكفينج واندهشت من كم الشباب الذى رأيته مرتديا الزى العسكرى . وقد

تفحص السيد جينجز النيشان باهتمام شديد يفوق الاهتمام الذى أبداه تاجر ميلبورن .

قال وهو يحدق فى كنزى الصغير بواسطة عدسة مكبرة : " إنه نيشان عسكرى بالفعل ، لقد كانوا يرتدونه فوق الزى العسكرى فى النوادى العسكرية . هذه الأحرف الأولى الثلاثة المحفورة على حافة كل ذراع والتى لا ترى بالعين المجردة لابد أن ترشدنا إلى صاحب النيشان " .

أخذت أحدق من خلال عدسة السيد جينجز المكبرة فى الشىء الذى لم أكن أعلم بوجوده من قبل ولكننى فى هذه المرة رأيت بوضوح الأحرف الثلاثة المحفورة " ج.ف.ت. " .

" هل هناك وسيلة للتعرف على هوية صاحب النيشان الذى يبدأ اسمه بالحروف ج . ف. ت ؟ " .

" أجل ، نعم " ، هكذا قال السيد جينجز وهو يستدير إلى رف وراءه واستخرج منه كتاباً جلدياً وتفحصه إلى أن وصل إلى اسم جودفراى إس توماس وجورج فيكتور تيلور ولكنه لم ينجح فى التوصل إلى صاحب الأحرف الأولى " ج.ف.ت " .

قال : " آسف ولكننى أستطيع أن أساعدك فى ذلك . إن هذا النيشان الذى تحملينه تحديدا لا يمكن أن يكون قد منح لاسترالى وإلا لكان اسمه قد سجل هنا فى هذا الكتاب " . ثم أغلق الكتاب الجلدى وقال : " يجب أن تراسلى المكتب الحربى فى لندن إن كنت بحاجة إلى المزيد من المعلومات . إنهم يحتفظون فى ملف بأسماء كل من حصل على نيشان عسكرى للفروسية " .

شكرته على مساعدته ولكن ليس قبل أن يعرض علىّ عشرة جنيهات مقابل النيشان . ابتسمت وعدت لأنضم إلى فريق التنس

لكى ألعب مباراتى ضد جامعة سيدنى . خسرت المباراة ٦ ـ صفر ؛ ٦ ـ ١ لأننى عجزت عن التركيز فى أى شىء بخلاف الحروف ج.ف.ت . ولم يتم اختيارى ثانية للالتحاق بفريق التنس فى ذلك الموسم .

فى اليوم التالى عملت بنصيحة السيد جينجز وراسلت المكتب الحربى فى لندن . بقيت على مدى شهور بدون أن أتلقى منهم خطابا وهو ما أثار الدهشة لأن الجميع كانوا يعرفون أن لديهم العديد من الأشياء الأخرى التى تشغل بالهم فى عام ١٩٤٤ . ومع ذلك ، فقد وصلنى منهم مظروف عسكرى أخيرا وعندما فتحته وجدتهم يخبروننى فيه بأن حامل النيشان هو إما يكون جراهام فرانك ترنبل من فرقة ديوك أوف ويلنجتون أو جاى فرانسيس ترينثام من سلاح الرماية الملكية .

إذن هل كان اسمى الحقيقى هو ترنبل أم ترينثام ؟

وفى مساء نفس اليوم راسلت المكتب البريطانى المفوض الأعلى فى كانبرا للاستعلام عن الجهة التى يجب أن أراسلها لكى أحصل على مزيد من المعلومات عن هذين الشخصين . تلقيت ردا بعدها بأسبوعين . بعد معرفتى بالجهتين التى يجب مراسلتهما أرسلت خطابين آخرين ، أحدهما إلى هالفيكس والآخر إلى لندن . ثم وطنت نفسى ثانية على الانتظار لفترة طويلة أخرى لحين وصول رد . عندما تكون قد قضيت ثمانية عشر عاما من حياتك بحثا عن هويتك فإن الانتظار لبضعة شهور قليلة أخرى لن يكون بمثابة مهمة شاقة . على أية حال ، بما أننى كنت فى عامى الدراسى الأخير فى الجامعة كنت قد انهمكت عن آخرى فى استذكار دروسى .

كانت ديوك ويلنجتون هى الأولى فى الرد وقد أخبرونى أن الملازم جراهام فرانك ترنبل قتل فى باسشندايل فى السادس من نوفمبر عام ١٩١٧ . وبما أننى كنت قد ولدت فى عام ١٩٢٤ فهذا يعنى أن الملازم ترنبل كان قد أفلت . أخذت أدعو الله أن يكون جاى فرانسيس ترينثام هو أملى .

مضت عدة أسابيع أخرى قبل أن يصلنى رد من الرماية الملكية أخبرونى فيه أن النقيب جاى فرانسيس ترينثام حصل على النيشان العسكرى فى ١٨ يوليو عام ١٩١٨ بعد مشاركته فى معركة مارن ؛ كما أخبرونى أنه يمكننى الحصول على المزيد من المعلومات من المتحف الخاص بالسلاح فى لندن ، ولكن هذا يجب أن يتم بشكل شخصى لأن إرسال معلومات هذه عن طريق البريد لم يكن فى حدود سلطتهم .

وبما أنه لم تكن لدىَّ وسيلة للسفر إلى إنجلترا فقد أسرعت فى الحال بفتح قناة بحث جديدة ولكننى لم أصل إلى أى شىء بالمرة . قضيت صباحا كاملا فى البحث عن " ترينثام " فى سجلات مواليد ميلبورن فى شارع وين . لم أجد شخصا واحدا يحمل اسم ترينثام . كان هناك العديد من الأشخاص الذين يحملون اسم روس ولكن لم يكن أى منهم يقترب من تاريخ ميلادى . بدأت أشعر أن هناك شخصا ما قد بذل جهدا مستميتا لكى يخفى هويتى . ولكن ما هو السبب ؟

وفجأة أصبح هدفى الوحيد فى الحياة هو أن أعثر على وسيلة للسفر إلى إنجلترا بالرغم من أننى لم أكن أملك المال كما أن الحرب كانت قد انتهت مؤخرا فقط . بدأت أنقب عن كل البرامج التعليمية المعروضة للطلابه والخريجين وكان الشىء الوحيد الذى رأى

أستاذى أنه يستحق العناء هو الحصول على منحة دراسية فى مدرسة سليد للفنون فى لندن والتى كانت تقدم ثلاثة أماكن سنويا لطلاب من دول الكومنولث . بدأت أقضى ساعات طويلة لم أعلم بوجودها فى المذاكرة وترشحت بالفعل ضمن قائمة قصيرة تضم ستة أسماء يتم فرزها النهائى فى كانبرا .

وبالرغم من أننى كنت شديدة التوتر أثناء رحلتى داخل القطار إلى العاصمة الاسترالية ، فقد شعرت أن المقابلة تمت على ما يرام وأكد لى المتحنون أن الأوراق التى تقدمت بها عن تاريخ الفن كانت مميزة بحق حتى بالرغم من أن الجانب العملى لدىَّ لم يكن فى مثل نفس الكفاءة .

وصل مظروف يحمل اسم سليد فى صندوق البريد الخاص بى بعدها بشهر . فتحت الخطاب فى ترقب واستخرجت الخطاب الذى بدأت سطوره كالتالى :

الآنسة العزيزة روس ،

نأسف لإخبارك

* * *

كان الشيء الوحيد القيم الذى استفدته من العمل الإضافى الذى بذلته هو أننى اجتزت اختباراتى النهائية فى الجامعة بنجاح وحصلت على أعلى شهادة شرفية عند إعلان نتائج الخريجين . ولكننى مع ذلك كنت مازلت بعيدة عن السفر إلى إنجلترا .

اتصلت بعد أن اعترانى اليأس باللجنة البريطانية العليا وحادثت المسئول عن المستخدمين . جاءنى صوت سيدة على الهاتف أخبرتنى أن مؤهلاتى تفتح لى شغل أكثر من وظيفة فى مجال

التدريس . وأضافت أننى يجب أن أوقع على عقد عمل بثلاث سنوات وأن أتحمل رسوم سفرى إلى إنجلترا على نفقتى الشخصية ؛ لم أكن أملك نفقات السفر إلى سيدنى فكيف لى بالسفر إلى المملكة المتحدة . على أية حال شعرت أننى بحاجة لقضاء شهر على الأقل فى إنجلترا لاقتفاء أثر جاى فرانسيس ترينثام .

كانت الوظائف الوحيدة الشاغرة التى أرشدتنى إليها السيدة حينما اتصلت بها فى المرة الثانية هى وظيفة " مستخدمين بالمجان " . كانت عبارة عن وظائف فى فنادق ومستشفيات ودور مسنين حيث تخدم هناك لمدة عام كامل مقابل تسديد ثمن رحلتك إلى إنجلترا . وبما أننى لم أكن أحمل أى خطط واضحة للمستقبل وكانت هذه هى فرصتى الوحيدة للسفر إلى إنجلترا والعثور على شخص تربطنى به صلة قرابة ، فقد اتصلت بمسئولة المستخدمين ووقعت فى المكان المخصص . فكر معظم أصدقائى فى الجامعة أننى لابد فقدت عقلى ولكنهم كانوا يجهلون السبب الحقيقى الذى يدفعنى للسفر إلى بريطانيا .

لم تكن السفينة التى أبحرنا على متنها من ساوثهامبتون أفضل حالا من سفينة المهاجرين الأوائل التى جاءتنا من الطرف المقابل من العالم منذ مائة وسبعين عاما . وضعوا ثلاثتنا " المستخدمين بالمجان " فى كابينة لا تعدو مساحتها مساحة الغرفة التى كنت أقيم بها فى الجامعة . وبالرغم من أن السفينة كانت تضم عشر درجات فقد انتهى المآل بـ " بام " و " مورين " إلى الإقامة فى غرفتى . كنا كلنا قد وقعنا على عقد العمل فى فندق ميلروز فى إيرل كورت الذى أكدوا لنا أنه كان يقع فى قلب لندن . بعد رحلة دامت

ستة أسابيع استقبلنا على رصيف الانتظار فى الميناء شاحنة جيش حملتنا إلى العاصمة ثم إلى أعتاب فندق ميلروز .

خصصت لنا المسئولة عن الغرف هناك غرفة واحدة تكدست فيها مع مورين وبام ثانية . وقد اندهشت من أنه قد خصصت لنا غرفة فى نفس حجم الكابينة التى كنا نعانى بداخلها سويا على متن السفينة . ولكننا فى هذه المرة على الأقل لم نكن نسقط على غير توقع من فرشنا .

مضى أسبوعان قبل أن أحظى بوقت يكفى لزيارة مكتب بريد كينسينجتون لمراجعة دليل الهاتف فى لندن . لم أعثر على اسم ترينثام بداخله .

شرحت لى الفتاة التى تقف خلف النضد : " قد يكون مدخلاً سابقاً ، أى أنهم لن يردوا على مكالمتك على أية حال " .

" أو قد لا يكون هناك أى شخص باسم ترينثام يعيش فى لندن " . هكذا قلت لها وشعرت أن أملى الوحيد أصبح مقصورا على متحف لندن .

كنت أظن حتى ذلك الوقت أننى قد بذلت قصارى جهدى فى جامعة ميلبورن ولكن الساعات التى كان من المفترض أن أعملها فى فندق ميلروز كان يمكن أن تحمل أى مقاتل فى سلاح الصاعقة على أن يجثو فوق ركبتيه . ولكن الأصعب هو أنه كان علىّ أن أتحمل كل هذا العناء وخاصة بعدما استسلمت بام ومورين فى غضون شهر وأرسلتا إلى أهلهما فى أستراليا طلبا للمال حتى يتسنى لهما العودة إلى أستراليا على أول سفينة . كان هذا يعنى أننى على الأقل سوف أنام فى غرفة بمفردى إلى أن تصلنى الشحنة التالية . ولكى أكون صادقة كان كل ما أتوق إليه هو أن أحزم حقائبى وأعود أدراجى إلى

أرض الوطن ولكننى لم أكن أعرف شخصا فى أستراليا يمكن أن يرسل لى أكثر من عشرة جنيهات .

فى أول يوم عطلة كامل لى شعرت فيه أننى لست منهكة عن آخرى ، ركبت القطار إلى هاونسلو . وبعدما غادرت المحطة قادنى جامع التذاكر إلى مستودع سلاح الرماية الملكية حيث كان المتحف قد نقل إلى هناك فى ذلك الوقت .

بعدما سرت ما يقرب من ميل كامل ، وصلت فى النهاية إلى المبنى الذى كنت أبحث عنه . بدا لى المكان مهجورا لولا موظف الاستقبال الوحيد الذى كان موجودا . كان يرتدى زيًا كاكى اللون ويضع ثلاث شرائط على كل ذراع . كان يجلس غافيا خلف النضد . سرت متعمدة إحداث ضوضاء وتظاهرت بأننى لم أكن أقصد إيقاظه .

سأل الرجل وهو يفرك عينيه : " هل يمكننى مساعدتك يا سيدتى الشابة ؟ "

" أتمنى ذلك " .

" هل أنت أسترالية ؟ " .

" هل هذا واضح ؟ " .

قال الرجل موضحا : " لقد حاربت مع الجنود الأستراليين فى شمال أفريقيا ، كانت مجموعة كبيرة من الجنود بحق . هل يمكننى مساعدتك يا آنستى ؟ " .

قلت وأنا أناوله نسخة يدوية من الخطاب : " لقد راسلتك من ميلبورن بشأن حامل هذا النيشان " . ثم خلعت العقد من حول عنقى ومددت له يدى بالنيشان . " كان اسمه جاى فرانسيس ترينثام " .

قال الرقيب بدون تردد وهو يحمل النيشان بين يديه : " إنه النيشان العسكرى . تقولين إن اسمه هو جاى فرانسيس ترينثام ، أليس كذلك ؟ " .

" هذا صحيح " .

" حسنا . إذن دعينا نبحث عنه فى الكتاب الكبير ١٩١٤ – ١٩١٨ ، أليس كذلك ؟ " .

أومأت بالموافقة .

توجه إلى رف عملاق مكبل بأعداد ثقيلة واستخرج كتاباً جلدياً كبيراً . وضع الكتاب فوق النضد محدثا صوتا مدويا بينما تناثرت الأتربة فى كل اتجاه . كانت الكلمات التالية مدونة على الغلاف باللون الذهبى " الرماية الملكية ، النيشاين ، ١٩١٤– ١٩١٨ " .

" دعينا نبحث إذا عن الشخص المطلوب " ، قال ذلك وبدأ يقلب الصفحات . بقيت منتظرة وأنا نافدة الصبر . أعلن فى زهو : " هذا هو رجلنا . النقيب " جاى فرانسيس ترينثام " ، ثم منحنى الكتاب لكى أقرأ بنفسى المدخل الخاص به بمزيد من التفحص . شعرت بقدر كبير من الإثارة حتى إننى بقيت للحظات عديدة غير قادرة على تمالك نفسى .

كانت القصة البطولية التى قام بها النقيب ترينثام تمتد لاثنين وعشرين سطرا وقد طلبت من الموظف أن يسمح لى بنقلها بالتفصيل كاملة .

قال الرجل : " بالطبع يا آنسة هيا تفضلى " . ثم قدم لى ورقة كبيرة مسطرة وقلماً جافاً من تلك الأقلام العسكرية . بدأت أكتب :

فى صباح الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٩١٨ ؛ قاد النقيب جاى ترينثام من الفرقة الثانية للرماية الملكية مجموعة من الرجال من حدود الحلفاء إلى خطوط العدو وقتل العديد من الجنود الألمان قبل أن يصل إلى ثكناتهم ويقتل العديد منهم بيد واحدة . واصل النقيب ترينثام بعدها ملاحقة اثنين من الجنود الألمان وطاردهما فى إحدى الغابات المجاورة وقد نجح فى قتلهما .

فى مساء نفس اليوم ؛ وبالرغم من محاصرة العدو له أنقذ اثنين من رجاله وهما المجند تى . بريسكوت والعريف سى . ترامبر اللذان كانا قد ضلا الطريق عن ساحة المعركة واختبآ فى دار عبادة مجاورة . بعد حلول الظلام ؛ أخذ يتقدم بهما عائدا إلى معسكرات الحلفاء بينما ظل العدو يقتفى أثرهما .

قتل المجند بريسكوت برصاصة ألمانية طائشة قبل أن يعود إلى ثكنته العسكرية . أما العريف ترامبر فقد نجا بالرغم من تواصل إطلاق النيران من جانب العدو . أمام هذه البطولة والقيادة النادرة فى وجه العدو : منح النقيب ترينثام النيشان العسكرى .

بعدما نقلت كل حرف من القصة البطولية بخط منمق ، أغلقت الكتاب وأعادته ثانية إلى الرقيب .

قال : " ترينثام ، إن صورته على ما أذكر مازالت معلقة فوق الجدار " . التقط الرقيب عكازيه ونجح فى إخراج نفسه من وراء النضد وسار يعرج ببطء إلى الركن البعيد من المتحف . لم أكن قد لاحظت حتى ذلك الوقت أن الرجل المسكين كان يتحرك بساق واحدة . وقال : " من هنا يا آنسة . اتبعينى " .

بدأت راحتا يدى تعرقان وشعرت بغثيان عندما أدركت أننى قد أرى صورة والدى . أخذت أتساءل إن كنت سأكتشف أى وجه للشبه بينى وبينه .

سار الرقيب متخطيا أصحاب نياشين الفروسية قبل أن نقف أمام أصحاب نيشان الرماية العسكرى . كانت كل الصور مصطفة فى خط واحد ؛ كانت كلها صوراً قديمة ذات أطر رديئة . مر بإصبعه على الصور المعلقة ؛ ستيفنز ؛ توماس ؛ تابز . قال : " غريب هذا . أنا واثق أن الصورة كانت معلقة هنا . لابد أننا فقدنا الصورة أثناء نقل المقتنيات من البرج " .

" هل يمكن أن أعثر على صورته فى أى مكان آخر ؟ "

قال : " لا أدرى يا آنسة . ولكننى أقسم أنها كانت معلقة عندما كان المتحف فى البرج " كرر الرجل قائلاً : " أنا واثق من ذلك " .

سألته إن كان يمكن أن يمدنى بالمزيد من التفاصيل عن النقيب ترينثام وما يمكن أن يكون قد حدث له بعد عام ١٩١٨ . عاد ثانية إلى النضد وأخذ يبحث عن اسمه فى دليل الفرقة العسكرية فقال : " التحق بالجيش عام ١٩١٥ ورقى إلى ملازم أول عام ١٩١٦ ثم إلى نقيب عام ١٩١٧ ثم سافر إلى الهند من عام ١٩٢٠ـ ١٩٢٢ ثم

استقال من خدمة الجيش عام ١٩٢٢ . ثم انقطعت أخباره منذ ذلك الحين يا آنسة " .

" هذا يعنى أنه يمكن أن يكون قد بقى على قيد الحياة " .

" بالطبع يا آنسة ؛ إن عمره لن يتعدى خمسين ؛ خمسة وخمسين عاما على الأكثر " .

نظرت إلى ساعتى وشكرت الرجل وأسرعت بمغادرة المبنى وأدركت فجأة كم الوقت الذى كنت قد قضيته داخل المتحف وخشيت أن يفوتنى القطار العائد إلى لندن وعدم تمكنى من العودة فى الوقت المحدد قبل مناوبة الساعة الخامسة .

بعدما جلست فى مقعدى فى الدرجة الثالثة من القطار ؛ أخذت أقرأ قصة بطولة جاى ترينثام ثانية . كان من دواعى سرورى أن أعرف أن والدى كان أحد أبطال الحرب العالمية الأولى ولكننى كنت مازلت عاجزة عن معرفة سبب امتناع الآنسة بينسون عن الإفصاح عن أية معلومات بخصوصه . لماذا سافر إلى أستراليا ؟ هل غير اسمه إلى روس ؟ شعرت أننى يجب أن أعود إلى ميلبورن لكى أعرف حقيقة ما حدث لـ " جاى فرانسيس ترينثام " . إن كنت أملك ثمن عودتى إلى أستراليا لكنت قد سافرت ليلتها ولكن كان يجب أن أستكمل تعاقدى مع الفندق وأعمل فيه لتسعة أشهر أخرى قبل أن يسددوا لى ثمن تذكرة العودة إلى أستراليا . كان علىّ إذن أن أنسى أمر العودة وأستقر فى عملى .

كانت لندن فى عام ١٩٤٧ بمثابة مدينة مثيرة بالنسبة لفتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها ؛ لذا فإنه بالرغم من العمل المضنى كانت هناك الكثير من وسائل التعويض والترفيه . كنت كلما حصلت على وقت مستقطع من العمل ذهبت لزيارة أحد المتاحف

الفنية أو دار تحف أو إلى السينما بصحبة إحدى الفتيات العاملات في الفندق . وفي مناسبة أو اثنتين خرجت بصحبة مجموعة من الأصدقاء لحضور حفل راقص في قاعة ميكا خارج الستراند . وفي إحدى الليالي تحديدا اقترب مني شاب وسيم طالبا مراقصتي وبعدما انطلقنا في الحلبة حاول أن يقبلني . عندما دفعته بعيداً عني أصبح أكثر تصميما ، فما كان مني إلا أن ركلته في كاحله ثم أسرعت هاربة من حلبة الرقص . وبعدها ببضع دقائق وجدت نفسي في الخارج على الرصيف أسير عائدة إلى الفندق بمفردي .

في طريق عودتي في اتجاه إيرل كورت كنت أتوقف من وقت إلى آخر لكي أطالع المعروضات الثمينة في نوافذ المحلات . وقد لفت انتباهي بشكل خاص وشاح طويل من الحرير كان ملقى فوق كتف إحدى عارضات الأزياء نحيفة الجسم . توقفت عن النظر للحظة ونظرت إلى اسم المحل " ترامبر " . شعرت أن الاسم مألوف بعض الشيء بالنسبة لي ولكنني لم أعرف السبب . سرت ببطء عائدة إلى الفندق ولكن الشخص الوحيد الذي كان يحمل اسم ترامبر على حد تذكري هو لاعب الكريكيت الاسترالي الأسطوري الذي كان قد توفي قبل أن أولد . وفجأة في منتصف الليل تذكرت سي . ترامبر ؛ إنه ذلك العريف المذكور في القصة المكتوبة عن أبي . قفزت خارج السرير وفتحت الدرج السفلي من مكتبي الصغير وأخذت أبحث عن الكلمات التي كنت قد نقلتها أثناء زيارتي لمتحف الرماية الملكية .

لم يكن هذا الاسم من الأسماء المألوفة التي قابلتها منذ وصولي إلى إنجلترا ، فأخذت أتساءل إن كانت هناك صلة قرابة تربط بين صاحب المحل والعريف وإن كان هذا الرجل بالتالي يمكن أن يمد لي

يد المساعدة . قررت أن أعود إلى المتحف في هاونسلو في عطلتي التالية وأرى ما يمكن أن يسديه لي صديقي ذو الساق الواحدة .

قال الرجل وهو يتوجه إلى الناضد : " تسرني رؤيتك ثانية يا آنسة " . تأثرت لأنه كان مازال يذكرني .

" هل أنت بصدد المزيد من المعلومات ؟ " .

قلت له : " أنت محق . العريف ترامبر هذا ، إنه ذلك ... ؟ " .

" تشارلي ترامبر التاجر الأمين . بالطبع هو يا آنسة ولكنه أصبح الآن السير تشارلي ترامبر وهو يملك أكبر مجموعة محلات في تشيلسيا " .

" كنت أعتقد ذلك " .

" كنت على وشك إخبارك بكل ما يخصه في المرة السابقة عندما هممت بالرحيل يا آنسة " ، ثم ابتسم وأضاف : " كان يمكن أن يوفر عليك هذا رحلة ثانية بالقطار وما يقرب من ستة أشهر من وقتك " .

في مساء اليوم التالي ، بدلا من ذهابي لمشاهدة جريتا جاربو في سينما جيت في نوتينتج هيل ، جلست فوق الأريكة القديمة في الجانب البعيد من شارع تشيلسيا وأخذت أحدق في صف المحلات . ويبدو أن السير شارلي كان يملك كل محلات شارع تشيلسيا . ولكنني أخذت أسأل نفسي عن سبب تخليه عن كل هذه الأرض الفضاء الشاسعة في منتصف الحي .

كانت مشكلتي التالية هي كيفية مقابلته . وكانت الفكرة الوحيدة التي طرأت لي وقتها هو أن أذهب لتقييم نيشاني في العقار رقم ١ ثم أنتهز أية فرصة .

على مدى الأسبوع التالى كنت أخدم فى وردية النهار فى الفندق لذا لم يكن بوسعى أن أذهب إلى العقار رقم ١ فى تشيلسيا قبل عصر الاثنين التالى عندما ذهبت إلى هناك وقدمت إلى الفتاة الواقفة عند النضد الأمامى نيشانى وطلبت منها تقييمه . فكرت فى عرضى المتواضع ثم طلبت من شخص آخر أن يأتى لتفحصه على نحو أكثر دقة . جاء رجل طويل ترتسم عليه علامات الجدية وقضى بعض الوقت فى تفحص القطعة التى كنت أحملها ثم أجابنى قائلا : " إنه النيشان العسكرى " ، وأعلن قائلا : " كان يطلق على ذلك النيشان فى وقت ما اسم نيشان الرداء لأنه كان يوضع فوق السترات الليلية فى النوادى العسكرية . إن قيمته تصل إلى ما يقرب من عشرة جنيهات " وتردد للحظة ثم أضاف : " ولكن متجر سبينكز فى ٥ شارع كنج إس دبليو ١ يمكن أن يمنحك تقييما أكثر دقة " .

" شكرا لك " ، قلت له ذلك بعدما فشلت فى التوصل إلى أى جديد ووجدت نفسى عاجزة عن التفكير فى أية طريقة تمكننى من صياغة سؤال عن السير تشارلى ترامبر .

" هل هناك أى شىء آخر يمكن أن أسديه لك ؟ " ، هكذا سأل الرجل عندما بقيت متشبثة بالوقوف فى مكانى .

قلت أخيرا وقد اعترانى شعور بالغباء : " كيف يمكن الحصول على عمل هنا ؟ "

" فقط تقدمى بطلب دونى فيه كل التفاصيل الخاصة بمؤهلاتك وكل خبرتك السابقة وسوف نوافيك بالرد فى غضون أيام قليلة " .

قلت بدون أن أضيف كلمة أخرى : " شكرا لك " .

جلست فى مساء هذا اليوم وكتبت كل مؤهلاتى كمؤرخة للفنون . بدت لى المؤهلات قليلة بعض الشىء عندما نظرت إليها وهى مدونة فى الورقة .

فى صباح اليوم التالى أعدت كتابة الخطاب فى أفخر أوراق الفندق قبلما أكتب على المظروف : " إلى قسم طلب الالتحاق بالعمل - بما أننى لم أكن أعرف اسما أراسله سوى اسم ترامبر - العقار رقم ١ من شارع تشيلسيا ؛ لندن إس دبليو ٧ " .

فى عصر اليوم التالى سلمت الخطاب بيدى إلى الفتاة الجالسة عند النضد الأمامى من دار المزاد بدون أن أتوقع فى واقع الأمر الحصول على أى رد . على أية حال لم أكن أعرف ما يجب علىَّ عمله تحديدا بما أننى كنت أخطط للعودة إلى ميلبورن فى غضون شهور قليلة كما أننى لم أكن أعرف كيف يمكن أن يقودنى العمل لدى ترامبر إلى مقابلة السير تشارلى .

وبعدها بعشرة أيام تلقيت خطابا من مكتب شئون العاملين يعربون فيه عن رغبتهم فى إجراء لقاء شخصى معى . أنفقت أربعة جنيهات وخمسة عشر شلنا لشراء ثوب جديد اكتسبتها من البقشيش الذى كنت أحصل عليه بشق النفس ووصلت إلى شركة ترامبر قبل موعد إجراء اللقاء بساعة كاملة . انتهى بى المآل إلى الطواف فى الحى عدة مرات . فى هذه الأثناء اكتشفت أن السير تشارلى يبيع كل ما يتمناه الشخص طالما هذا الشخص يملك ما يكفى من المال .

وأخيرا انتهت الساعة وتوجهت إلى المحل وقدمت نفسى لموظفة النضد الأمامى . اقتدت بواسطة الدرج إلى مكتب فى الدور العلوى . وقد أخبرتنى السيدة التى أجرت لى اللقاء أنها لا تفهم ما الذى

أفعله كمنظفة غرف فى فندق وأنا أحمل هذه المؤهلات إلى أن شرحت لها أن العمل فى الفندق كانت الوظيفة الوحيدة التى يمكن أن تحصل عليها فتاة لا تملك نفقات السفر إلى إنجلترا .

ابتسمت قبل أن تحذرنى أن أى شخص يريد أن يعمل فى العقار رقم ١ لابد أن يبدأ من النضد الأمامى أولا . فإن أثبت هذا الشخص كفاءة فسوف يترقى سريعا فى عمله .

واصلت الموظفة حديثها شارحة : " لقد بدأت عملى فى سوثيباى " . وكنت أريد أن أسألها كم أمضت فى العمل على النضد الأمامى .

قلت لها : " إننى أحب أن أنضم للعمل فى شركة ترامبر ولكننى أخشى أن عقدى لن ينتهى قبل شهرين فى فندق ميل روز " .

أجابت بلا تردد : " إذن سوف ننتظرك . يمكنك البدء العمل فى النضد الأمامى فى الأول من سبتمبر يا آنسة روس . سوف أوثق اتفاقنا كتابيا مع نهاية هذا الأسبوع " .

شعرت بسعادة غامرة أمام هذا العرض أنستنى السبب الذى جعلنى أتقدم لطلب العمل فى المقام الأول إلى أن أرسلت لى الموظفة الخطاب الموعود وتمكنت من الاستدلال على اسمها من خلال توقيعها فى السطر الأخير من الصفحة .

الفصل

٤٠

عملت كاثى فى النضد الأمامى فى دار مزاد ترامبر لأحد عشر يوما فقط عندما طلب منها سيمون ماثيوز أن تساعده فى إعداد الكتالوج الخاص بالمزاد الإيطالى . كان أول من اكتشف ـ باعتبارها أول خط دفاع لدار المزاد ـ كيف كانت تتعامل مع أنواع الطلبات المتنوعة بدون الحاجة إلى الرجوع بشكل مستمر إلى شخص آخر . بذلت فى شركة ترامبر قصارى جهدها تماما كما كانت تفعل فى فندق ميل روز ولكن مع وجود فارق واحد وهو أنها كانت فى ترامبر تستمتع بعملها .

للمرة الأولى فى حياتها ، شعرت كاثى أنها كانت جزءا من عائلة لأن ريبيكا ترامبر كانت ودودة وهادئة الطبع مع طاقم عملها وكانت تعاملهم جميعا على قدم المساواة . كان الأجر الذى عرضته عليها أكثر سخاء بكثير من الكفاف الذى كانت تعيش عليه فى عملها الأول كما أن الغرفة التى منحوها إياها فوق متجر الجزارة فى

العقار رقم ١٣٥ كان قصرا مقارنة بالمخبأ الذى كانت تعيش فيه فى مؤخرة الفندق .

أصبحت رغبتها فى اقتفاء أثر أبيها أقل إلحاحا بعدما شعرت بحاجتها إلى بذل قصارى جهدها لكى تثبت وجودها فى العقار رقم ١ فى شارع تشيلسيا . كانت مهمتها الأولى فى إعداد كتالوج المزاد الإيطالى هى مراجعة تاريخ كل قطعة فنية من القطع التسع والخمسين المعروضة . لتحقيق ذلك ، كانت كاثى تتنقل بين أرجاء لندن من مكتبة إلى أخرى وكانت تتصل بكل المتاحف فى محاولة لاقتفاء أثر أصحاب هذه التحف . بقيت فى النهاية صورة واحدة فقط هى التى أثارت حيرة كاثى تماما وهى لوحة تشارلى التى لم تكن تحمل أى توقيع كما أنها لم تكن تحمل أى تاريخ باستثناء كونها كانت ضمن المجموعة الخاصة للسير تشارلى ترامبر وأصبحت بعده مملوكة للسيدة كيتى بينيت .

سألت كاثى سيمون ماثيوز إن كان بوسعه أن يمدها بأى خط أو معلومة عن اللوحة ، فأخبرها أنه يشعر أنها إحدى اللوحات التى تنتمى إلى مدرسة برونزينو .

وقد اقترح سيمون - المسئول عن المزاد - عليها أن تراجع الكتب التى تحمل قصاصات الصحف .

" كل ما تودين معرفته عن عائلة ترامبر سوف يكون مدونا فى مكان ما فى هذه الكتب " .

" وأين سأجدها ؟ " .

" فى الطابق الرابع فى تلك الغرفة المسلية فى نهاية الرواق " .

عندما عثرت فى النهاية على موضع الملفات كان عليها أن تنفض كومة الغبار التى كانت تغطيها بل وإزالة خيوط العنكبوت

وهى تتصفح العروض السنوية . جلست على الأرض واضعة ساقيها تحتها وهى تقلب الصفحات وقد استحوذ عليها الانبهار بتاريخ تشارلى ترامبر منذ أن كان يملك أول عربة نقالة فى وايت شابيل إلى أن تقدم بعرضه لبناء أبراج تشيلسيا . بالرغم من أن المقالات الصحفية كانت سطحية فى السنوات الأولى إلا أن هناك مقالا صغيرا فى صحيفة الإيفنينج ستاندرد هو الذى استوقفها . كان لون الصفحة قد تحول إلى الأصفر بفعل السنين وفى الركن الأيمن العلوى من الصفحة كان التاريخ - الذى كان يقرأ بالكاد - المدون هو الثامن من شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ .

اقتحم رجل طويل فى أواخر العشرينات ، أشعث ، مرتديا معطفا عسكريا منزل السيد والسيدة تشارلى ترامبر فى ١١ شارع جيلستون ، تشيلسيا ، صباح أمس . بالرغم من أنه لاذ بالفرار بلوحة زيتية صغيرة قليلة القيمة فإن السيدة ترامبر التى كانت حاملا فى شهرها السابع فى ابنها الثانى ؛ انهارت من الصدمة وأدخلها زوجها على إثرها مستشفى جاى .

أجريت للسيدة ترامبر جراحة طارئة فور وصولها على يد كبير الجراحين السيد آرميتاج ولكن الفتاة ولدت ميتة . من المتوقع أن تبقى السيدة ترامبر فى مستشفى جاى تحت الملاحظة لعدة أيام .

تود الشرطة أن تستجوب كل من كان فى الجوار فى ذلك الوقت .

حولت كاثى تركيزها إلى مقال آخر نشر بعد الحادث السابق بثلاثة أسابيع .

عثرت الشرطة على معطف عسكرى قديم ملقى فى الشارع والذى ربما يكون قد ارتداه الشخص الذى اقتحم المنزل الكائن فى ١١ شارع جيلستون فى تشيلسيا ، منزل السيدة والسيد تشارلى ترامبر فى صباح السابع من سبتمبر . وقد اتضح أن صاحب المعطف هو النقيب جاى ترينتام ، الضابط السابق فى الرماية الملكية والذى كان حتى وقت قريب يخدم فى الهند .

قرأت كاثى المقالتين وأخذت تعيد قراءتهما مرارا وتكرارا . هل يمكن بالفعل أن تكون ابنة سارق السير تشارلى والمتسبب فى وفاة ابنه الثانى ؟ وكيف كان مصير اللوحة ؟ وكيف آلت إلى السيدة بينيت ؟ والأهم من هذا كله هو ما سر اهتمام الليدى ترامبر المفرط بلوحة زيتية عديمة الأهمية لفنان مجهول ؟

بعد أن عجزت عن الإجابة عن كل هذه الأسئلة ، أغلقت كاثى كتاب القصاصات وأعادته إلى الدرج السفلى من رزمة الكتب . بعدما غسلت يديها أرادت أن تعيد أدراجها إلى الدور العلوى لكى تطرح كل هذه الأسئلة سؤالاً بسؤال على الليدى ترامبر ولكنها كانت تدرك جيدا أن هذا لن يكون ممكنا .

عندما تم استكمال الكتالوج وطرح للبيع على مدى أكثر من أسبوع ؛ طلبت الليدى ترامبر رؤية كاثى فى مكتبها . خشيت كاثى أن يكون قد وقع ثمة خطأ فادح أو أن يكون أحدهم قد نجح فى

اقتفاء أثر اللوحة الزيتية المجهولة وهو ما كان يجب عليها هى أن تعرفه فى الوقت المناسب لكى تدرجه فى الكتالوج .

عندما خطت كاثى داخل المكتب ، قالت بيكى : " تهانئى " .

قالت كاثى وهى لا تدرى سبب هذا الإطراء : شكراً " .

" لقد حقق كتالوجك نجاحاً منقطع النظير وبيع عن آخره ونحن بصدد إعداد طبعة أخرى " .

" أنا فقط آسفة لأننى لم أنجح فى اقتفاء أثر لوحة زوجك " ، هكذا قالت كاثى وهى تشعر بالارتياح لمعرفة السبب الذى دفع ريبيكا إلى طلب مقابلتها . كما كانت تأمل أيضا أن تسر إليها رئيستها فى العمل بالكيفية التى حصل به السير تشارلى على اللوحة الزيتية الصغيرة فى المقام الأول وربما تلقى لها بعض الضوء عن العلاقة التى تربط بين عائلة ترامبر النقيب ترينتام .

أجابت بيكى بدون أن تضيف المزيد من الشرح : " هذا لا يدهشنى " .

تعلمين ، لقد قرأت مقالا فى اللفات ذكر اسم نقيب ما يدعى جاى ترينتام وكنت أود أن أعرف ... هذا ما كانت تريد كاثى أن تقوله ولكنها بقيت ملتزمة الصمت .

سألت بيكى : " هل تودين أن تكونى أحد ملاحظى الزبائن فى المزاد القادم ؟ " .

فى يوم المزاد ، اتهم سيمون كاثى بأن معدتها كانت لا تكف عن إصدار أصوات غريبة بالرغم من أنها كانت قد عجزت عن وضع أى شىء فى فمها صباح ذلك اليوم .

وعندما بدأ المزاد ، تخطت لوحة بعد الأخرى سعرها المقدر وشعرت كاثى بسعادة عارمة عندما تخطت لوحة بازيليكا لسانت مارك السعر وحققت ثمنا قياسيا لكاناليتو .

عندما حلت اللوحة الزيتية الصغيرة للسير تشارلى محل اللوحة الكبيرة بدت كاثى فجأة متحيرة . لابد أنه تأثير الضوء على اللوحات لأنها كانت واثقة فى ذلك الوقت أن اللوحة كانت أصلية . كان كل ما جال بفكرها فى ذلك الوقت هو أنها إن كانت تملك مائتى جنيه لكانت قد اشترتها لنفسها .

زاد الهرج والمرج الذى تلا رفع الصورة الصغيرة من فوق الحامل من قلق كاثى . لقد شعرت أن الشخص الذى وجه الاتهام ربما يكون محقا وأن اللوحة بالفعل لبرونزينو . لم يكن قد سبق لها رؤية نسخة أفضل من لوحته الشهيرة للأطفال الرضع المحاطين بهالة من ضوء الشمس . لم توجه الليدى ترامبر أو سيمون أى لوم لكاثى وواصلوا تأكيدهم لكل من يسأل عن اللوحة أنها نسخة وأنها معروفة لهم منذ سنوات .

عندما انتهى المزاد فى آخر الأمر ، بدأت كاثى تراجع البطاقات لكى تتأكد من أنها كانت مرتبة بالشكل الصحيح وتتأكد من مشترى كل لوحة . كان سيمون يقف على بعد أقدام قليلة منها وكان يخبر أحد أصحاب المعارض الفنية بأسماء اللوحات التى لم تصل إلى سعرها المستحق ومن ثم سوف تطرح للبيع منفصلة . تجمدت فى مكانها عندما سمعت الليدى ترامبر تستدير جهة سيمون بمجرد أن غادر التاجر وتقول له : " إنها المرأة اللعينة التى لا تكف عن حيلها ثانية . هل رأيت تلك المرأة المفزعة فى مؤخرة القاعة ؟ " ، أومأ سيمون ولم يعلق بكلمة .

لابد أن أسبوعاً كاملاً قد مضى بعدها قبل أن يصدر المسئول حكمه على اللوحة وعندها دعا سيمون كاثى لحضور حفل عشاء فى منزله فى بيمليكو . أضاف وهو يشرح لها أنه قد وجه دعوته لكل من شارك بشكل مباشر فى المزاد الإيطالى : " إنه احتفال بسيط " .

وصلت كاثى تلك الليلة لتجد العديد من زملائها فى العمل من قسم التحف القديمة قد وصلوا إلى هناك بالفعل ويستمتعون بتناول الشراب ومع حلول الوقت الذى جلس فيه الجميع لتناول العشاء كانت ريبيكا ترامبر هى الشخص الوحيد الذى لم يكن موجودا . وثانية استشعرت كاثى وتأكدت من روح العائلة التى خلقتها عائلة ترامبر بين طاقم العاملين لديهم حتى أثناء غيابهم . استمتع كل المدعوين بتناول العشاء الفخم الذى بدأ بحساء الأفوكادو ثم البط البرى الذى علموا جميعاً أن سيمون كان قد قضى فترة الظهيرة كلها فى إعداده . بقيت هى وشاب صغير يدعى جوليان كان يعمل فى قسم الكتب النادرة بعد أن انصرف الجميع للمساعدة فى التنظيف .

قال سيمون : " لا تزعجى نفسك بالغسيل . إن الخادمة سوف تتولى هذه المهمة فى الصباح " .

قالت كاثى وهى تواصل غسل الأطباق : " هذا تصرف رجالى بحت ومع ذلك فإننى أقر أننى آثرت البقاء لسبب خفى " .

سأل وهو يلتقط منشفة الأطباق ويقدم على محاولة مفتعلة للمساعدة : " وما هو هذا السبب ؟ " .

سألت كاثى فجأة : " من هى السيدة ترينشام ؟ " . استدار سيمون لكى ينظر إليها فأضافت فى شىء من التردد : " لقد سمعت بيكى تذكر اسمها لكِ بعد انتهاء المزاد بدقائق قليلة وبعدما أثار

الرجل الذى كان يرتدى السترة المصنوعة من التويد كل تلك الجلبة ثم اختفى " .

لم يجب سيمون عن السؤال لبعض الوقت كما لو كان يفكر فيما يمكن أن يقوله . وبعد تجفيف طبقين آخرين بدأ حديثه .

" إنها قصة طويلة ترجع إلى زمن بعيد يسبق حتى التحاقى بالعمل لدى ترامبر . ولا تنسى أننى كنت أعمل مع بيكى فى سوثيباى على مدى خمس سنوات قبل أن تطلب منى الانضمام إلى العمل فى شركة ترامبر . لكى أكون صادقا ؛ أنا أجهل سبب كل تلك الكراهية التى تكنها كل منهما للأخرى لكن ما أعرفه هو أن ابن السيدة ترينثام كان يخدم فى نفس الفرقة العسكرية التى خدم فيها السير تشارلى أثناء الحرب العالمية الأولى وأن جاى ترينثام كان له علاقة بشكل أو بآخر باللوحة التى اضطررنا لسحبها من المزاد . المعلومة الوحيدة التى نجحت فى التوصل إليها على مدى السنوات هى أن جاى ترينثام اختفى فى استراليا بعد .... احترسى ؛ هذا أحد أفضل أقداح القهوة التى أملكها " .

قالت كاثى : " آسفة للغاية . يا لها من حماقة منى " ، ثم انحنت وبدأت تلملم الأجزاء الصغيرة المكسورة من القدح الصينى والتى كانت قد تناثرت فوق أرضية المطبخ .

" أين يمكننى العثور على قدح آخر مثله ؟ " .

قال سيمون : " فى قسم المعروضات الصينية لدى ترامبر . إن سعره يصل إلى شلنين " . ضحكت كاثى . وقال مضيفاً : " فقط خذى بنصيحتى . تذكرى أن العاملين الأقدم لديهم قاعدة ذهبية فى التعامل مع ترامبر " .

توقفت كاثى عن جمع أجزاء القدح المكسورة .

" إنهم لا يذكرون اسم هذه السيدة أمام بيكى ما لم تكن هى البادئة بالحديث عنها . كما أنهم لا يذكرون اسم ترينثام أبدا فى وجود السير تشارلى ؛ فإن فعلت أعتقد أنه سوف يلقى بك فى الخارج على الفور " .

قالت كاثى : " لن تتاح لى هذه الفرصة أبدا على الأرجح ، إننى حتى لم أقابل الرجل أبدا . بل إن أقرب لقاء بيننا كان عندما رأيته جالسا فى الصف السابع يوم المزاد الإيطالى " .

قال سيمون : " حسنا ؛ يمكننا على الأقل أن نفعل شيئا حيال ذلك . ما رأيك أن تأتى بصحبتى لحضور الحفل المنزلى الذى تقيمه عائلة ترامبر الاثنين القادم فى منزلهم الجديد فى ميدان إيتون ؟ " .

" هل أنت جاد ؟ " .

قال سيمون : " بالطبع . على أية حال ؛ لا أظن أن السير تشارلى يمكن أن يوافق بحال على اصطحابى لجوليان " .

" ألن ينظروا إلى ذلك التصرف باعتباره غير لائق . أعنى أن تأتى إحدى الموظفات الجدد بصحبة رئيس القسم ؟ " .

" ليس السير تشارلى . إنه لا يضع لمثل هذه الأمور اعتبارا " .

قضت كاثى ساعات طويلة من أوقات غدائها بحثا عن الثوب الملائم فى تشيلسيا قبل أن تنتقى الثوب المناسب لحضور مأدبة ترامبر . وقع اختيارها الأخير على ثوب أصفر بزهور دوار الشمس وحزام عريض يلف خصرها ، هو ما أكدت لها عاملة المتجر أنه يناسب تماما حفلات الكوكتيل . شعرت كاثى فى اللحظة الأخيرة بالخوف من أن يكون الثوب مبالغا فيه أو لا يليق بالمناسبة الكبيرة التى هى بصددها . ومع ذلك فعندما مر سيمون ليصحبها إلى العقار

رقم ١٣٥ ؛ علق بشكل تلقائى قائلاً : " سوف تكونين نجمة الحفل ، أؤكد لك ذلك " . وقد أشعرها ذلك التعليق التلقائى بثقة أكبر ، على الأقل إلى أن وصلا إلى الدرج العلوى من منزل ترامبر فى ميدان إيتون .

عندما طرق سيمون باب منزل رؤسائه كان كل ما تتمناه كاثى ألا يبدو عليها بشكل لافت أن هذه هى المرة الأولى التى تدعى فيها إلى منزل بمثل هذا الجمال . ولكن كل مخاوفها تلاشت بمجرد أن فتح لها الخادم الباب وخطت داخل المنزل . أخذت تتأمل هذا الاحتفال الرائع الذى كان فى انتظارها . بينما بقى الجميع منهمكين فى تناول الشراب وتناول قطع الكانابيه المقدمة على صوانى متنقلة ، انهمكت هى فى اتجاه آخر وبدأت حتى تصعد الدرج لتتذوق جمال كل هذه التحف المعلقة .

وقع نظرها أولا على كوربيه ؛ كانت لوحة حية رائعة غنية بدرجات الأحمر والبرتقالى والأخضر ، ثم لوحة بيكاسو لليمامتين المحاطتين بالبراعم الوردية ؛ شعرت كاثى أن منقار اليمامة يكاد ينبض بالحياة وأنها تكاد تلمسه ؛ وبعد التقدم لخطوة أخرى وقع بصرها على لوحة لبيسارو ؛ كانت لوحة لسيدة عجوز تحمل حزمة من القش وكانت الصورة زاخرة بدرجات اللون الأخضر . ولكنها كتمت أنفاسها عندما رأت لوحة سيسلى ؛ كانت الشبكة الكبيرة تحمل كل درجات ألوان الباستيل الممكنة .

" هذه هى لوحتى المفضلة " ، هكذا جاءها صوت من ورائها . استدارت كاثى لترى شابا طويل القامة ذا شعر أشعث يبتسم لها ابتسامة تجبر معظم الناس على الرد بابتسامة مماثلة . لم تكن سترته المسائية مناسبة تماما كما أن عقصة رابطة عنقه كانت بحاجة

إلى ضبط وكان يتكىء على الدرابزين وكأنه كان يمكن أن ينهار تماما لولا دعمها له .

أقرت كاثى قائلة : " إنها بالغة الروعة . عندما كنت أصغر سنا كنت أحاول أن أرسم قليلا ولكن سيلسى هو الذى أقنعنى ألا أتكبد هذا العناء " .

" لماذا ؟ " .

تنهدت كاثى : " لأنه استكمل هذه الصورة وهو فى السابعة عشرة من عمره عندما كان لايزال فى المدرسة " .

قال الشاب الصغير : " يا إلهى . هناك خبيرة بيننا " ، ابتسمت كاثى لرفيقها الجديد وهو يقول : " ربما يجدر بنا أن نسترق النظر إلى المزيد من الأعمال فى الرواق العلوى ؟ " .

" هل تعتقد أن السير تشارلى لن يمانع ؟ " .

قال الشاب الصغير : " لا أظن ذلك ، على أية حال ما هو الهدف من اقتناء اللوحات إن لم يكن الشخص سوف يسمح للآخرين بإبداء إعجابهم بمقتنياته ؟ " .

دفعت ثقته فى الحديث كاثى إلى صعود درج آخر . قالت : " رائع . إنها إحدى لوحات سيكرت الأولى ؛ إن لوحاته نادرا ما تعرض فى السوق " .

" يبدو أنك تعملين فى معرض للأعمال الفنية " .

قالت كاثى فى فخر : " أنا أعمل لدى شركة ترامبر العقار رقم ١ فى شارع تشيلسيا . وأنت ؟ " .

قال مجيبا : " أعمل لديهم أنا الآخر أيضا نوعا ما " .

بطرف عينها رأت كاثى السير تشارلى خارجا من إحدى الغرف فى الدور العلوى ؛ كان هذا هو أول لقاء قريب يجمعها بصاحب

العمل . شعرت أنها تريد أن تفعل مثلما تفعل أليس فى قصصها وتختفى داخل ثقب مفتاح الباب ولكن رفيقها بقى هادئا دون أن يحرك ساكنا وكأنه فى بيته .

ابتسم المضيف لكاثى وهو يهبط الدرج . قال بمجرد أن وصل إليهما : " مرحباً . أنا تشارلى ترامبر وقد سمعت عنك كثيرا يا سيدتى الشابة . لقد رأيتك في المزاد الإيطالى بالطبع كما أن بيكى أخبرتنى أنك تبلين بلاءً حسناً فى عملك . بالمناسبة أنا أهنئك على الكتالوج " .

" شكرا لك يا سيدى " ، قالت كاثى ذلك غير واثقة مما يجب أن تضيفه بينما واصل الرئيس هبوطه الدرج وواصل حديثه متجاهلا تماما رفيقها .

أضاف السير تشارلى وهو ينظر جهتها : " أرى أنك قد قابلت ابنى بالفعل : لا تنخدعى بمظهره الطيب ؛ إنه لا يقل دهاء عن أبيه . أرها لوحة بونارد يا دانيال " ، كانت هذه هى آخر عبارة للسير تشارلى قبل أن يختفى داخل غرفة الاستقبال .

قال دانيال : " أجل . بونارد . إنها فخر أبى . لا أظن أن هناك وسيلة أفضل منها لإقناع فتاة على دخول غرفة النوم " .

" أنت دانيال ترامبر ؟ " .

" كلا . رافلز . سارق الأعمال الفنية الشهير " ؛ قال دانيال ذلك وهو يصحب كاثى من يدها أعلى الدرج إلى غرفة نوم والديه .

" حسنا ؛ ما رأيك بهذه ؟ " .

" إنها مذهلة " ، كان هذا كل ما تمكنت كاثى من قوله وهى تحدق فى لوحة بونارد التى رسمها لعشيقته وهى تجفف نفسها والتى كانت معلقة فوق الفراش .

قال دانيال : " إن أبى يكن فخرا خاصا بهذه السيدة تحديدا ، وهو لا يكف عن تذكيرنا بأنه دفع ثلاثمائة جنيه فقط مقابل شرائها . إنها لا تقل جمالا عن ... " ، ثم توقف دانيال وقطع العبارة .

" إنه يتمتع بذوق ممتاز " .

" إنه أفضل هاو فى هذا المجال كما تقول أمى دائما . وبما أنه انتقى كل صورة من الصور المعلقة فى هذا المنزل فمن الذى يمكن أن يجادلها فى رأيها ؟ " .

" لم تختر والدتك أيًّا منها ؟ " .

" بالطبع لا . إن أمى تميل إلى البيع بطبعها ، أما أبى فهو على العكس ؛ مشتر . إنهما زوج غير متكافئ بعد أن احتكر ديوفين وبرنشتين سوق الفن " .

قالت كاثى : " كان يجب أن يؤول بهما المآل إلى السجن " .

قال دانيال : " سوف ينتهى المآل بأبى بنفس ما آل إليه دوفين . " ضحكت كاثى .

" والآن أظن أنه يجدر بنا العودة إلى الطابق السفلى لكى نتناول بعض الطعام قبل أن يختفى " .

عندما دخلا غرفة المائدة بقيت كاثى مترقبة بينما سار دانيال إلى الطرف البعيد من الغرفة وأدار بطاقتين من البطاقات الخاصة بأماكن الجلوس .

" إنه من دواعى سرورنا يا آنسة روس " قال دانيال ذلك وهو يسحب لها مقعدا بينما كان باقى المدعوين يبحثون عن أماكن جلوسهم . وأضاف : " بعد كل هذا المزاح غير المجدى ؛ وجدت نفسى جالسا بجوارك " .

ابتسمت كاثى وهى تجلس جواره وتتأمل فتاة خجولة كانت تدور حول المائدة فى محاولة يائسة للعثور على بطاقة جلوسها . وسرعان ما وجد دانيال نفسه يجيب عن كل أسئلتها عن كمبريدج فى الوقت الذى كان يريد فيه هو الآخر أن يعرف كل شىء عن ميلبورن ، المدينة التى لم يكن قد سبق له زيارتها من قبل ، كما قال لها. ثم جاء السؤال المحتوم : " وماذا يعمل أبواك ؟ " ، أجابت كاثى بلا تردد : " أنا لا أعرفهما . فأنا يتيمة " .

ابتسم دانيال : " إذن لقد خلقنا لبعضنا البعض " .

" ولم ؟ " .

" أنا ابن بائع خضراوات وفاكهة وابنة خباز من وايت شابيل . وأنت يتيمة من ميلبورن ، أليس كذلك ؟ هذا يعنى أنك أرقى منى درجة فى السلم الاجتماعى ، هذا أكيد " .

ضحكت كاثى بينما استرجع دانيال ذكرى الأيام الأولى لأهله فى مجال العمل . ومع تطور الأمسية بدأت كاثى تشعر أن هذا الرجل ربما يكون أول من شعرت أنها على استعداد لأن تفضى له بخلفيتها المبهمة التى مازالت تسعى لفك طلاسمها .

بعد أن فرغا من تناول الطبق الأخير من العشاء ، وجلسا يتناولان القهوة ، لاحظت كاثى أن الفتاة الخجولة أصبحت الآن تقف خلف كرسيها مباشرة . نهض دانيال لكى يقدمها لـ " مرجورى كاربنتر " ، أحد أساتذة الرياضيات فى جيرتون . بدا من الواضح أنها كانت ضيفة دانيال فى تلك الليلة وأنها اندهشت بل وأصيبت بشىء من الإحباط عندما اكتشفت أن مقعدها لم يكن مجاورا له على مائدة العشاء .

جلس الثلاثة يتحادثون عن الحياة فى كمبريدج إلى أن طرقت ماركيزة ويلتشاير المائدة بملعقتها لكى تجذب أنظار الجميع ثم ألقت خطبة ارتجالية . عندما وصلت أخيرا إلى النخب ، وقف الجميع ورفعوا كؤوسهم تحية لـ " ترامبر " . ثم قدمت الماركيزة للسير تشارلى صندوق سجائر من الفضة يجسد نموذج البرج وقد بدا من الواضح من تعبير وجه السير تشارلى أن الهدية قد حازت على إعجابه البالغ . بعد خطبة بليغة ـ شكت كاثى فى أنها ارتجالية ـ عاد السير تشارلى ليجلس على مقعده .

قالت كاثى بعدها بدقائق قليلة : " يجب أن أنصرف الآن . سوف أبدأ عملى فى وقت مبكر من صباح الغد . سرنى لقاؤك يا دانيال " ثم تصافحا تصافح الأغراب .

" سوف أتصل بك قريبا " ، قال ذلك بينما سارت كاثى لتشكر مضيفيها على الليلة التى وصفتها بأنها ليلة لا تنسى . انصرفت بمفردها ولكن ليس قبل أن تتأكد من أن سيمون كان غارقا فى أحد المناقشات مع شاب أشقر انضم مؤخرا إلى فريق العمل فى قسم السجاجيد .

سارت ببطء فى ميدان إيتون إلى شارع تشيلسيا مسترجعة فى سعادة ذكريات كل لحظة من الأمسية . ووصلت إلى شقتها الصغيرة فوق العقار رقم ١٣٥ بعد منتصف الليل ببضع دقائق قليلة ، لم يكن شعورها فى ذلك الوقت يختلف كثيرا عن شعور سندريلا .

بينما كانت تخلع ملابسها ، أخذت كاثى تسترجع أحداث الليلة وتستشعر مدى استمتاعها بها وخاصة صحبة دانيال ومتعة رؤية هذا الكم من فنانيها المفضلين . ثم سألت نفسها إن كان ..... ثم قطع جرس الهاتف تداعياتها .

وبما أن الوقت كان قد تخطى منتصف الليل ، فقد التقطت سماعة الهاتف على افتراض أنه لابد أن يكون رقماً خاطئاً .

جاءها الصوت قائلاً : " ألم أقل لك إنني سوف أتصل بك قريبا ؟ "

" هيا اذهب إلى فراشك أيها الشقى " .

" أنا فى الفراش بالفعل . سوف أتصل بك ثانية فى الصباح " . ثم وضع سماعة الهاتف .

اتصل دانيال بها بعد الثامنة بقليل من صباح اليوم التالى .

قالت له : " لقد خرجت لتوى من الحمام " .

" إذن لابد أنك تشبهين الآن ميتشيلى . يجدر بى إذن أن آتى إليك لكى أنتقى لك منشفة " .

" هناك منشفة بالفعل تحيط كل جسدى . شكرا لك " .

قال دانيال : " يا للخسارة . إننى أجيد التنشيف ولكن بما أننى فشلت فى ذلك " ، ثم أضاف قبل أن يمنحها فرصة الرد " أيمكن أن تأتى إلى ترينيتى السبت المقبل ؟ سوف يقيمون حفلا جامعياً . نحن لا نقيم سوى حفلين فى الفترة الدراسية الواحدة أى أنك إن رفضت الدعوة فلن يكون لديك أمل فى لقائى قبل ثلاثة أشهر أخرى " .

" فى هذه الحالة أوافق . ولكن فقط لأننى لم أحضر احتفالا منذ تخرجى فى المدرسة " .

فى الجمعة التالية ، سافرت كاثى إلى كمبريدج بالقطار لتجد دانيال واقفا فى انتظارها على رصيف المحطة . وبالرغم من أنه كان من المعروف أن المائدة العليا لترينيتى كانت تملك هيبة تثير تخوف أكثر الضيوف ثقة بالنفس فإن كاثى شعرت أنها فى مأمن لأنها

كانت جالسة وسط الأساتذة . ومع ذلك فإنها لم تنجح فى منع نفسها من التفكير كيف ينجح العديد منهم فى البقاء على قيد الحياة حتى سن متقدمة إن كانوا يتناولون هذا الطعام وهذا الشراب على أساس منتظم .

" إن الشخص لا يستطيع أن يعيش بالخبز وحده " ، كان ذلك تفسير دانيال على مدى الوجبة التى شملت سبعة أطباق . وقد تصورت كاثى أن المأدبة كانت قد انتهت عندما دعيت إلى مقر عميد الكلية لتجد المزيد من المشهيات وإناء متنقل من المشروبات لا ينفد فى انتظارها هناك . نجحت فى النهاية فى الإفلات ولكن ليس قبل أن تدق ساعة ترينيتى منتصف الليل . أوصلها دانيال إلى غرفة الضيوف فى الطرف البعيد من قاعة جريت كورت واقترح عليها مقابلتها فى صباح اليوم التالى .

" أنا سعيدة للغاية لأنك لم تقترح مقابلتى على الإفطار " ، قالت كاثى ذلك بينما كان دانيال يقبلها قبل أن يتمنى لها ليلة سعيدة .

كانت غرفة الضيوف الصغيرة التى كان دانيال قد حجزها لـ " كاثى " أقل حجما من غرفتها المستأجرة فوق ١٣٥ ولكنها راحت فى سبات عميق بمجرد أن وضعت رأسها فوق الوسادة ولم تستيقظ إلا على صوت ساعة جامعة كينج .

بعد وصول دانيال ، اقترح عليها أن يسيرا فى استرخاء بطول البيكز للتخلص من أية عوامل تشويش . أمسك يدها ولم يحررها ثانية إلى أن عادا إلى ترينيتى بعدها بساعة لتناول غداء متواضع .

على مدى فترة الظهيرة أخذ يجوب بها أنحاء متحف فيتزويليام حيث انبهرت كاثى بلوحة جويا التى تمثل الشيطان وهو يأكل

أبناءه . " إنها أشبه بمأدبة ترينيتي " ، هكذا قال دانيال قبل أن يتوجها إلى كوينز حيث استمعا إلى لحن رباعي لباخ كان يعزفه أحد الطلاب . بحلول وقت المغادرة كانت الأضواء تتلألأ في شارع سيلفر .

توسلت إليه كاثي في اعتراض ساخر وهما يعودان فوق الجسر : " لا أريد تناول العشاء . أرجوك " .

ضحك دانيال وبعدما أخذت حقيبتها ، أعادها داخل سيارته الصغيرة إلى لندن .

" شكرا لك على عطلة نهاية الأسبوع الرائعة " ، هكذا قالت كاثي بمجرد أن ركن دانيال سيارته خارج العقار رقم ١٣٥ وأضافت : " بل إن كلمة رائعة لا ترتقي إلى مستوى اليومين الماضيين " .

قبلها دانيال في رقة على خدها وقال : " دعينا نكرر الزيارة في الأسبوع المقبل " .

قالت كاثي : " لا يمكن . إن كنت بالفعل كما تقول تحب المرأة النحيفة " .

" حسنا ، دعينا نكرر التجربة كاملة بدون الطعام وربما يمكننا أيضا أن نلعب مباراة تنس . قد تكون هذه هي الطريقة الوحيدة للتعرف على مستوى فريق جامعة ميلبورن " .

ضحكت كاثي وقالت : " هلا شكرت والدتك نيابة عني على الحفل الرائع الذي أقامته يوم الاثنين الماضي ؟ لقد كان أسبوعا لا ينسى " .

" سوف أفعل . ولكنها سوف تراك على الأرجح قبل أن أراها أنا " .

" ألن تبيت هنا في منزل والديك ؟ " .

" كلا ، يجب أن أعود إلى كمبريدج ؛ لديّ إشراف غدا في التاسعة صباحا " .

" ولكن كان يمكنني أن أركب القطار " .

" كان هذا يعني أن أحرم من ساعتين في صحبتك " ، قال لها ذلك وهو يلوح لها مودعا .

الفصل
٤١

فى المرة الأولى التى رأتـه فيهـا ؛ أدركـت كـاثى أنهـا تريـد أن تقضى باقى حياتها مع دانيال . لكم كانت تتمنـى لـو لم يكـن ابـن السير تشارلى ترامبر .

توسلت إليه ألا يخبر والديه بأمر علاقتهما . كانت مصرة على إثبات ذاتها فى العمل لدى شركة ترامبر كما قالت له ولم تكن تريد أن تشعر بالتميز لأنها تواعد ابن المدير .

عندما وقع نظر دانيال على العقد الصغير المعلق حـول رقبتهـا ؛ أخبرته فى الحال عن القصة بكاملها .

وبعد مـزاد الفضـيات ؛ والضـربة التـى نجحـت فـى توجيههـا للرجل ذى الرابطة الصفراء واستعانتها بصحفى جريدة التليجراف ؛ شعرت كاثى بمزيد من الثقة تمكنها من البوح لعائلة ترامبر بأنها قد سقطت فى هوى ابنهم الوحيد .

فى الاثنين التالى لمزاد الفضيات ؛ دعت بيكـى كـاثى للانضـمام إلى مجلس إدارة دار المزادات الذى كان حتى ذلك الحين لا يضم إلا سيمون وبيتر فيلويز ـ رئيس قسم البحث ـ وبيكى نفسها .

وقد طلبت بيكى من كاثى أيضا أن تعد كتـالوج مـزاد الخريـف للفن التأثيرى وحملتهـا مسئولية عـدة أشياء أخـرى بمـا فـى ذلـك الإشراف العام على النضد الأمامى . قال سيمون مازحاً : " المحطـة التالية هى مقعد فى مجلس الإدارة الأساسى " .

اتصلت بـ " دانيال " لتخبره بالأنباء فى وقت لاحق مـن صـباح ذلك اليوم .

" هل هذا يعنى أنه يمكننا أخيرا أن نكف عن خداع أهلى ؟ " .

عندما اتصل والد دانيـال بعـد أسـابيع قليلـة لكـى يخـبره بأنـه سوف يحضر مع والدته لمناقشة أمـر " بـالغ الأهميـة " معـه ، دعـا دانيال كليهما لتناول الشاى معه فـى مكتبـه فـى يـوم الأحـد التـالى وأخبرهما بدوره أن هناك شيئا مهماً آخـر سـوف يفضـى إليهمـا هـو الآخر به .

كان دانيال يحادث كاثى هاتفيا يوميا فـى ذلـك الأسـبوع حتـى إنها بدأت تفكر فى أنه قد لا يكون من الحكمة إخبـار والديـه علـى الأقل بأنها سوف تكون موجودة عندما يذهبان لتناول الشاى . ولكن دانيال لم يوافق على طلبها وأخبرها بأن هـذه هـى فرصـته الوحيـدة لكى ينال من أبيه وأنه لن يدع فرصة رؤية وقع المفاجأة الكاملة على وجهيهما تفوته .

قال دانيال : " وسوف أفشى لك سرا آخر ؛ لقد تقدمت بطلـب التحاق لشغل وظيفة أُستاذ رياضيات فى جامعة كينج فى لندن " .

قالت كاثى : " هذه تضحية منك يا دكتور ترامبر ؛ لأنك عندما تأتى إلى لندن لن أستطيع أن أعد لك الطعام الذى تتناوله فى ترينيتى " .

" هذه أنباء سارة . هذا يعنى أننى سوف أقلل زياراتى للترزى " .

كان الشاى الذى أعده دانيال فى مكتبه مناسبة سارة بالفعل ؛ هكذا شعرت كاثى بالرغم من أنها أحست أن بيكى كانت متوترة فى البداية وأصبحت أشد قلقا بعد تلقت المكالمة الهاتفية الغامضة من شخص ما يدعى السيد بافرستوك .

أما سعادة السير تشارلى بخبر زواجهم فى عطلة شم النسيم فقد كانت سعادة صادقة بحق ؛ كما أظهرت بيكى فرحتها بكون كاثى سوف تصبح زوجة ابنها . وقد فاجأ تشارلى كاثى عندما غيرَّ الحديث فجأة وسألها عن الشخص الذى رسم لوحة الألوان المائية المعلقة فوق مكتب دانيال .

قال دانيال : " إنها كاثى . أصبح لدينا أخيرا فنان فى العائلة " .

سأل تشارلى فى عدم تصديق : " أنت ترسمين أيضا أيتها الشابة الصغيرة ؟ " .

قالت دانيال وهو ينظر إلى لوحة الألوان المائية : " نعم بالطبع إنها هدية الخطوبة ، كما أنها أيضا الصورة الوحيدة التى رسمتها كاثى منذ أن جاءت إلى إنجلترا أى أنها لا تقدر بثمن " .

سألها تشارلى بعدما تفحص اللوحة بمزيد من التدقيق : " هلا رسمت واحدة لى ؟ " .

أجابت كاثى : " سوف يسعدنى ذلك . ولكن أين ستعلقها ؟ فى المرآب ؟ " .

بعد تناول الشاى ؛ سار الأربعة فى جولة بطول شارع البيكز وقد شعرت كاثى بخيبة أمل عندما استشعرت مدى حرص أهل دانيال على العودة إلى لندن وعدم قدرتهم على البقاء للمساء .

بعد عودتها ؛ عانقها دانيال وحذرته كاثى من أن شم النسيم مازال بعيدا .

سألها : " ماذا تقصدين ؟ " .

" أعتقد أن حيضتى قد تأخرت أسبوعا " .

شعر دانيال بسعادة غامرة فور سماع النبأ حتى إنه أراد أن يتصل بأهله فى الحال لكى يخبرهم .

قالت كاثى : " لا تكن سخيفا . إننى لم أتأكد بعد ؛ إننى فقط أتمنى ألا يزعج هذا النبأ والديك " .

" يزعجهما ؟ لا يمكن أن يحدث ذلك . إنهما لم يتزوجا هما أنفسهما إلا بعد أسبوع من مولدى " .

" وكيف عرفت ذلك ؟ " .

" تأكدت من التاريخ المدون فى شاهدة ميلادى فى سومرست هاوس وتاريخ وثيقة زواجهما . الأمر بسيط للغاية . يبدو ـ بداية ـ أن أحدا لم يكن على استعداد للاعتراف بى " .

أقنعت هذه العبارة كاثى بأنها يجب أن تتأكد من أنها لا تنتمى بأى حال من الأحوال إلى السيدة ترينثام قبل أن تتزوج . وبالرغم من أن دانيال كان قد حول انتباهها عن مشكلة نسبها لمدة عام كامل ؛ فإنها كان لا يمكن أن تواجه عائلة ترامبر إن اكتشفوا فى أى وقت لاحق أنها قد خدعتهمْ أو الأسوأ أنها ترتبط بصلة قرابة بهذه المرأة

التى كانوا يكنون لها كل الكره . بعد أن عرفت كاثى المكان الذى كانت تعيش فيه السيدة ترينتام ؛ قررت أن ترسل إلى السيدة خطابا فور عودتها إلى لندن .

خطت مسودة سريعة لما سوف تكتبه مساء الأحد ثم نهضت فى صباح اليوم التالى لكى تعد الخطاب النهائى .

١٣٥ شارع تشيلسيا
لندن إس دبليو إس
الواحد والعشرون من نوفمبر
عام ١٩٥٠

عزيزتى السيدة ترينتام ،

أكتب إليك وأنا الغريبة عنك تماما أملا فى أن تساعدينى فى حل اللغز الذى طالما ظللت أسعى لحله على مدى سنوات عديدة .

لقد ولدت فى ميلبورن فى أستراليا ولم أعرف أهلى يوما لأننى تربيت فى دار للأيتام منذ نعومة أظافرى . تربيت فى دار تدعى سانت هيلدا . إن الذكرى الوحيدة التى أملكها والتى تشير إلى أنه كان لى أب فى يوم ما هو ذلك النيشان العسكرى الذى أعطانى إياه والدى عندما كنت مازلت

طفلة صغيرة جدا . كانت الأحرف الثلاثة " ج.ف.ت " محفورة عليه .

وقد تأكدت من خلال المتحف العسكرى لسلاح الرماية أن هذا النيشان قد منح للنقيب جاى فرانسيس ترينتام فى الثانى والعشرين من يولو عام ١٩١٨ تقديرا لأعماله البطولية فى معركة مارن الثانية .

هل تربطك صلة قرابة بـ " جاى " وهل يمكن أن يكون والدى ؟ سوف أكون ممتنة لأية معلومة يمكن أن توافينى بى لإلقاء الضوء على هذا الأمر كما أننى أعتذر عن إقحام نفسى فى حياتك الشخصية .

على أمل تلقى الرد .

المخلصة
كاثى روس

ألقت كاثى الخطاب فى صندوق البريد فى أحد أركان شارع تشيلسيا قبل ذهابها إلى العمل . بعد سنوات من الأمل فى العثور على شخص يدلها على أهلها ؛ شعرت كاثى بمدى سخرية كونها تريد أن ينكرها هذا الشخص .

أعلن نبأ خطبة كاثى ودانيال ترامبر فى الصفحة الاجتماعية للتايمز فى صباح اليوم التالى . وبدا الجميع فى العقار رقم ١ سعيدا بالخبر . تناول سيمُون الشراب نخب كاثى فى استراحة الغداء وقال

للجميع : " إنها مؤامرة من شركة ترامبر حتى يضمنوا عدم التحاقها بالعمل لدى سوثيباى أو كريستى " . صفق الجميع باستثناء سيمون الذى همس فى أذنها : " وأنت بالفعل الشخص المناسب الذى سوف يضعنا فى نفس مكانة هذين الدارين " .

فى صباح يوم الخميس التقطت كاثى من عتبة الباب مظروفا بنفسجياً يحمل اسمها الذى كان مدونا بخط عنكبوتى . فتحت الخطاب فى توتر لتجد أنه يحتوى على ورقتين سميكتين من نفس اللون . وقد أثار محتوى الخطاب حيرتها ولكنه فى نفس الوقت أزاح عن كاهلها عبئاً كبيراً .

١٩ ميدان شيستر
لندن
إس دبليو ١
التاسع والعشرون من
نوفمبر ؛ ١٩٥٠

عزيزتى الآنسة روس ،

أشكرك على خطابك المؤرخ بالاثنين الماضى ولكننى أخشى أننى لا أملك مساعدتك بالقدر الكبير فى بحثك . فأنا لدىَّ ابنان هما نيجيل الأصغر انفصل عنا مؤخرا والذى تقيم معه زوجته وحفيدى الوحيد جيز رايموند البالغ من العمر عامين .

أما ابنى الأكبر فكان بالفعل جاى فرانسيس ترينثام ؛ والذى حصل على النيشان العسكرى إثر معركة مارن ولكنه توفى بالسل فى عام ١٩٢٢ بعد طول صراع مع المرض . ولم يسبق له الزواج أبدا ولم يخلف أية ذرية .

كان ابنى قد فقد نيشانه أثناء زيارة لبعض الأقارب فى ميلبورن . وأنا سعيدة لأنها ظهرت من جديد بعد كل هذه السنوات وسوف أسعد إن سمحت بردها لى فى أقرب فرصة تناسبك . أظن أنك لن ترغبى فى الاحتفاظ بميراث عائلى كهذا .

المخلصة

إيثيل ترينثام

شعرت كاثى بسعادة غامرة عندما اكتشفت أن جاى ترينثام توفى قبل مولدها بعامين . وهذا يعنى أنه لا يمكن أن تكون هناك صلة تربطها بالرجل الذى يمكن أن يهدد مستقبلها مع أهل زوجها . لابد أن النيشان كان قد وقع بطريقة أو أخرى فى يد أبيها - هذا ما خلصت إليه - وأنها يجب أن تعيده - وهو القرار الذى بدت مترددة فيه - إلى السيدة ترينثام بلا أى تأخير .

بعد تصريح السيدة ترينثام ؛ شعرت كاثى أنها لن تتمكن يوما من معرفة أهلها بما أنه لم يكن لديها أية نية للعودة إلى أستراليا بعدما أصبح دانيال يشكل الجانب الأهم فى حياتها على أية

حال ، كانت قد شعرت أن أى محاولة لاقتفاء أثر أبيها لم يعد لها معنى .

وبما أن كاثى كانت قد أخبرت دانيال بالفعل فى اليوم الذى التقيا فيه أنها لم تكن تملك أدنى فكرة عن هويتها ، فقد سافرت إلى كمبريدج فى مساء يوم الجمعة بضمير مرتاح . وقد شعرت بارتياح أيضا لأن حيضتها بدأت أخيرا بعد طول انتظار . وعندما بدأ القطار يشق طريقه نحو جامعة المدينة ، انتابت كاثى سعادة بالغة لم يكن قد سبق لها الشعور بها . تحسست بإصبعها العقد الصغير المدلى حول رقبتها ولكن الذى أصبح معلقا فى سلسلة ذهبية كان دانيال قد أهداها لها فى عيد ميلادها . كانت حزينة لأنها كانت ترتدى هذه الذكرى للمرة الأخيرة لأنها كانت قد قررت إعادة النيشان إلى السيدة ترينثام فور عودتها من عطلة نهاية الأسبوع مع دانيال .

وصل القطار إلى محطة كمبريدج بعد دقائق من موعده المحدد للوصول .

التقطت كاثى حقيبتها الصغيرة وخرجت إلى الرصيف وهى تتوقع أن يكون دانيال قد حضر ووقف منتظرا إياها كالمعتاد ، لم يكن قد سبق له التأخر أبدا من قبل منذ اليوم الأول الذى عرفته فيه . ولكنها شعرت بخيبة أمل عندما لم تجد أثراً لسيارته . ولكن ما أثار دهشتها بدرجة أكبر هو أنه لم يحضر حتى بعد انقضاء عشرين دقيقة . سارت عائدة إلى المحطة ووضعت بنسين فى صندوق الهاتف واتصلت برقمه المباشر فى الجامعة . أخذ الجرس يدق بدون رد حتى إنها لم تكن بحاجة للضغط على الزر لأن أحدا لم يرد فى الطرف المقابل .

أثار اختفاء دانيال حيرة كاثى فعادت إلى المحطة وطلبت من أحد السائقين هناك توصيلها إلى جامعة ترينيتى .

عندما وصلت السيارة الأجرة إلى مقر نيو كورت ، ازدادت حيرة كاثى عندما وجدت سيارة دانيال واقفة فى مكانها المعتاد . دفعت الأجرة وشقت طريقها فوق الدرج الذى أصبح مألوفا بالنسبة لها .

شعرت كاثى أن أقل ما يجب أن تفعله هى أن تمازح دانيال لأنه لم يذهب لاستقبالها فى المحطة . هل هذا هو نوع المعاملة التى يجب أن تعتاد عليها بعد الزواج ؟

هل أصبحت الآن فى نفس مستوى أى طالب لم يقم بأداء بحثه الأسبوعى ؟ صعدت الدرج الحجرى العتيق إلى غرفة دانيال وطرقت الباب فى هدوء تحسبا لوجود أى طالب . وبما أنها لم تسمع ردا بعد الطرقة الثانية ما كان منها إلا أن دفعت الباب الخشبى الكبير وفتحته لأنها كانت قد قررت أن تبقى بداخل المكتب لحين عودته .

دوت صرختها فى كل الأرجاء وأسمعت كل الحاضرين فى الطابق ب .

كان أول طالب وصل إلى الساحة قد وجد جسد المرأة الشابة مسجى على وجهه فى منتصف الغرفة . سقط الطالب على ركبتيه وألقى الكتب التى كان يحملها بجوارها وكان على وشك أن يصاب هو الآخر بغثيان ويسقط فوقها ولكنه التقط نفسا عميقا واستدار حوله

بأسرع ما يمكن وبدأ يزحف خارجا من المكتب مرورا بالكرسى المقلوب . لم يكن قادرا على إلقاء نظرة ثانية على المشهد الذى استقبله فور دخول الغرفة .

واصل الدكتور ترامبر تأرجحه برفق من عارضة معلقة فى منتصف الغرفة .

تشارلى

١٩٥٠ - ١٩٦٤

الفصل
٤٢

لم أتمكن من النوم على مدى ثلاث ليال متتالية . وفى صباح اليوم الرابع ذهبت بصحبة أصدقاء دانيال وزملائه وطلابه لحضور مراسم جنازته . وقد تمكنت بشق الأنفس من البقاء على قيد الحياة خلال هذه المحنة وعلى مدى باقى الأسبوع ؛ ولعل من بين الأسباب التى مكنتنى من ذلك هو الجهد الذى بذلته دافنى لتنظيم المراسم فى هدوء ودقة . لم تتمكن كاثى من حضور الجنازة لأنها كانت مازالت موضوعة تحت الملاحظة فى مستشفى أدنبروك .

وقفت بجوار بيكى ونحن نستمع إلى مراسم الدفن . شت عقلى وأنا أحاول أن أسترجع أحداث الأيام الثلاثة الماضية وأستخلص لها أى معنى . بعدما أخبرتنى دافنى أن دانيال قد تخلص من حياته - أى كان من طلب منها أن تخبرنى بالنبأ ؛ كان يدرك بالفعل معنى كلمة " تعاطف " - قدت سيارتى فى الحال إلى كمبريدج بعد أن توسلت إليها ألا تخبر بيكى بأى شىء إلا أن أعرف بنفسى

المزيد عما وقع بالفعل . بحلول الوقت الذى وصلت فيه إلى ترينيتى جريت كورت ؛ بعدها بساعتين ؛ كان جثمان دانيال قد نقل بالفعل وكانت كاثى قد نقلت إلى مستشفى أدنبروك حيث كانت - وهو ما لم يكن مثيراً للدهشة - مازالت فى حالة صدمة . كان محقق الشرطة المسئول فى غاية التعاطف والتفهم . وبعدها زرت المشرحة وتعرفت على الجثمان وحمدت الله على الأقل أن تلك الغرفة المثلجة لم تكن آخر ذكرى تجمع بيكى بابنها .

" يا إلهى ؛ ساعدنى " .

أخبرت الشرطة أننى لا أعرف سببا يدعو دانيال للتخلص من حياته ؛ لأنه كان قد خطب لتوه وكان فى أسعد حال . ولكن المحقق أرانى بعدها خطاب الانتحار ؛ كانت ورقة كبيرة تحتوى على فقرة واحدة فقط مدونة بخط اليد .

قال المحقق : " إنهم لا يكتبون عادة سوى فقرة واحدة كما تعرف " .

لم أكن أعرف .

بدأت أقرأ ما دونه دانيال بخطه الأكاديمى المنمق .

الآن بعد أن أصبح زواجى من كاثى مستحيلاً ؛ لم يعد لى ما أحيا من أجله . أستحلفكم بالله ؛ اعتنوا بالطفل .

دانيال

أخذت أكرر هذه الكلمات على نفسى أكثر من مائتى مرة ومع ذلك لم أستخلص منها أى معنى . وبعدها بأسبوع أكد الطبيب

المعالج أن كاثى لم تكن حاملا كما أنها أيضا لم تكن قد أجهضت . أخذت أكرر الكلمات على نفسى مرارا وتكرارا . هل هناك أمر دقيق قد فاتنى أم أننى لن أفك يوما طلاسم رسالته الأخيرة ؟

" عندما يخفق الآخرون فى نجدتك ... " .

اكتشف خبير قضائى فيما بعد داخل حامل الوقود رماد ورقة ولكنه لم يتوصل إلى شىء . ثم أرونى مظروفا كانت الشرطة تؤكد أنه مظروف الخطاب المحروق وسألونى إن كان بوسعى أن أتعرف على خط الرسل . تفحصت الخط الجامد النحيف المستقيم الذى كان قد دون " الدكتور دانيال ترامبر " باللون البنفسجى .

كذبت قائلاً : " كلا لا أعرف " .. كذبت . لقد تم تسليم الخطاب يدا بيد ؛ هكذا أخبرنى المحقق فى وقت مبكر من عصر نفس اليوم . سلمه رجل ذو شارب بنى ومعطف من التويد . هذا هو كل ما يذكره الطلاب الذين رأوه باستثناء أنه بدا يعرف طريقه جيدا فى المكان .

أخذت أسأل نفسى ما الذى يمكن أن تكون قد أرسلته هذه المرأة اللعينة إلى دانيال دفعه إلى الانتحار . كنت واثقا من أن اكتشافه لكون جاى ترينثام هو والده لا يمكن أن يكون قد دفعه إلى مثل هذا التصرف الرهيب وخاصة أننى كنت قد عرفت أن السيدة ترينثام كانت قد قابلته بالفعل من قبل وتوصلت معه إلى اتفاق منذ ثلاث سنوات .

وقد عثرت الشرطة على خطاب آخر فوق مكتب دانيال . كان الخطاب من جامعة كينج كوليدج فى لندن يعرضون عليه فيها وظيفة أستاذ للرياضيات هناك .

" **ويحاط بالسكينة ...** "

بعدما غادرت المشرحة توجهت إلى مستشفى أدنبروك حيث سمحوا لى بقضاء بعض الوقت بجوار كاثى . وبالرغم من أن عينيها كانتا مفتوحتين فإنها لم تكن واعية ؛ بقيت لما يقرب من ساعة تحدق فى بلاهة إلى سقف الغرفة بينما بقيت واقفا . عندما أدركت أنه لم يكن بإمكانى إسداء أى شىء ذى جدوى ؛ انصرفت فى هدوء . جاءنى الطبيب النفسى الدكتور ستفين أتكينز يهرع من مكتبه وسألنى إن كان بوسعه أن يتحدث معى قليلا .

أخبرنى الرجل الشاب الأنيق فى بذلته الجميلة أن كاثى كانت تعانى من فقدان الذاكرة المسمى بفقدان الذاكرة الهيستيرية وأنه قد يكون بحاجة لبعض الوقت قبل تقييم مدى قدرتها على الشفاء . شكرت الطبيب وأخبرته بأننى سوف أبقى على اتصال دائم به . ثم قدت سيارتى ببطء إلى لندن .

" ساعد المحتاجين واليائسين ، ساعدنى يا رب ... " .

كانت دافنى فى انتظارى فى مكتبى ولم تعلق بكلمة على تأخرى . حاولت أن أشكرها على تفانيها ورقتها ولكننى شرحت لها أننى يجب أن أكون أنا الشخص الذى يخبر بيكى بما حدث . يعلم الله كيف تحملت عبء الموقف بدون أن أنوه إلى المظروف البنفسجى وخط اليد اللعين ولكننى تحملت . إن كنت قد أخبرت بيكى بالقصة كاملة أعتقد أنها لم تكن لتتوانى عن الذهاب إلى ميدان شيستر لقتل تلك المرأة هناك من فورها بكلتا يديها ؛ كان يمكن أن أساعدها أنا الآخر .

لقد دفن بين زملائه من أساتذه الجامعة . توقف رجل الدين التابع للجامعة - الذى سبق له أداء هذه المراسم عدة مرات من قبل فى الماضى - لكى يتمالك نفسه فى ثلاث مناسبات بالتحديد .

" فى الحياة وفى الموت ؛ ساعدنى يا رب " .

كنت أنا وبيكى نذهب لزيارة أدنبروك سويا يوميا على مدى ذلك الأسبوع ولكن الدكتور أتكينز أكد لنا أن حالة كاثى كانت ثابتة وأنها لم تكن قد تحدثت بعد . ومع ذلك ؛ فإن مجرد بقائها هناك بمفردها وهى بحاجة إلى حبنا خلق لنا دافعا نعيش من أجله .

عندما عدنا ثانية إلى لندن فى وقت متأخر من عصر الجمعة وجدت آرثر سيلوين يجوب أنحاء مكتبى هناك .

قال قبل أن يمنحنا فرصة للتحدث : " لقد اقتحم شخص ما شقة كاثى وكسر القفل عنوة " .

" ولكن ما الذى يمكن أن يعثر عليه لص داخل الشقة " .

" لم تتبين الشرطة أى شىء بعد . بدا كل شىء فى مكانه " .

أمام لغز ما يمكن أن تكون السيدة ترينشام قد كتبته لدانيال أضفت أيضا لغز اقتحام شقة كاثى وما يمكن أن تريده منها . بعد تفحص الغرفة الصغيرة بنفسى عجزت عن التوصل إلى أى شىء .

واصلت أنا وبيكى سفرنا إلى كمبريدج كل يومين وفى منتصف الأسبوع الثالث ؛ تحدثت كاثى أخيرا ؛ فى شىء من التلعثم فى البداية ثم انفجرت باكية وهى تمسك يدى ثم فجأة وبدون أى إنذار صمتت ثانية . كانت أحيانا تحك بسبابتها إبهامها تحت ذقنها مباشرة .

كان هذا يثير دهشة الدكتور أتكينز أيضا .

ولكن الدكتور أتكينز نجح منذ ذلك الوقت فى إجراء حوارات مستفيضة مع كاثى فى عدة مناسبات كما أنه كان قد بدأ يلعب معها لعبة الكلمات لكى ينعش ذاكرتها . وكان رأيه أنها فقدت كل اتصال لها بـ " دانيال ترامبر " وحياتها الأولى فى أستراليا . لم يكن

هذا أمرا مستغربا فى مثل هذه الحالات ؛ هكذا أكد لنا ؛ فضلا عن أنه ذكر لنا اسماً يونانياً شهيراً للحالة .

" هـل يمكننـى أن أسـعى للاتصـال بأسـتاذها فـى جامعـة ميلبورن ؟ أو حتى أحادث أى زميل عمل سابق لها فى فندق ميلروز ممن يمكن أن يلقوا لنا بعض الضوء ؟ " .

قال وهو يضبط رابطة عنقه الأنيقة : " كـلا ، لا تشـقوا عليهـا واعلموا أن شفاءها سوف يستغرق وقتا طويلا " .

أومأت بالموافقة .

يبدو أن هذا كان تعبير الدكتور أتكينز المفضل : " تراجع ، ولا تنس أن زوجتك هى الأخرى سوف تعانى من نفس الصدمة " .

وبعدها بسبعة أسابيع ؛ سمحوا لنا بنقـل كـاثى إلى منزلنـا فـى ميدان إيتون حيث كانت بيكى قد أعدت غرفة لها . كنت قد نقلت بالفعل كل مقتنيات كاثى من شقتها الصغيرة ؛ ولم أكـن واثقـا بعـد إن كان أى منها قد اختفى عقب الاقتحام .

كانـت بيكـى قـد وضـعت كـل ملابـس كـاثى ومسـتلزماتها فـى الدولاب والأدراج لكى تضفى على الغرفة أكـبر قـدر مـن الحيويـة . كنت قد نقلت لوحة الألوان المائية قبل ذلك من فوق مكتـب دانيـال وأعدت تعليقها فوق الدرج بين لوحـة الكوربيـه وسيلسـى . غـير أن كـاثى عنـدما صـعدت الـدرج للمـرة الأولى فـى طريقهـا إلى غرفتهـا الجديدة ؛ مرت بجوار لوحتها بدون أن تصـدر أى إشـارة تـنم عـن معرفتها بها .

سـألت الدكتور أتكينز ثانية إن كان قد حان وقت مراسلة جامعة ميلبورن لمحاولة التعرف على ماضى كـاثى ولكنـه لم يرحـب بهـذه الخطوة وأخبرنى بأنها هى التى يجـب أن تكـون البادئـة بالإفصـاح

عن أية معلومات وذلك عندما تشعر أنها قادرة على ذلـك مـن تلقـاء نفسها وليس نتيجة أية ضغوط خارجية .

" ولكن كم من الوقت سوف تستغرق علـى حـد علمـك قبـل أن تستعيد ذاكرتها على نحو كاف ؟ " .

" من أربعة عشر يوما إلى أربعة عشر عاما من واقع خبرتى " .

وأتذكر أننى عـدت إلى غرفـة نـوم كـاثى فـى مسـاء ذلـك اليـوم وجلست عند طرف سريرها وأمسكت يدها . لاحظت فى سعادة أنها قد استعادت جزءاً من حيويتها . ابتسمت وسألتنى للمـرة الأولى عـن " العربة النقالة الكبيرة " وأحوالها .

قلت لها : " لقد حققنـا أرباحـاً قياسـية ، ولكـن الأهـم هـو أن الجميع يتطلعون إلى عودتك إلى العقار رقم ١ " .

فكرت فى ذلك لبعض الوقت ثم أضـافت فـى بسـاطة . " ليتـك كنت أبى " .

فى فبراير عام ١٩٥١ ؛ انضـم نيجيـل ترينشـام إلى مجلـس إدارة ترامبر . اتخذ مكانه بجوار بول ميريك وابتسم له ابتسـامة خافتـة . لم أتمكن من النظر إليه مباشرة . كان يصغرنى بعـدة سـنوات قليلـة ومع ذلك لم أكن أتصور أن يصدق أى شخص حول المائدة ذلك .

وافق المجلـس وقتهـا علـى إنفـاق نصـف مليـون جنيـه إضـافية " لتغطية ثغرة " ـ كما قالت بيكى ـ نصف الفدان التى بقيـت علـى مدى عشر سنوات أرض فضاء فى منتصف شارع تشيلسيا . أعلنـت قائلاً : " إذن على الأقـل سـوف نـتمكن مـن اسـتجماع كـل أقسـام ترامبر تحت سقف واحد " . لم يعلـق ترينشـام . وقـد وافـق زملائـى المديرون أيضا على تخصيص مبلغ يصل إلى مائة ألف جنيـه لإعـادة

بناء نادى وايت شابيل للشباب والذى أطلقنا عليه اسم " مركز دان سالمون " ، وقد لاحظت ترينثام وهو يهمس بشىء ما فى أذن ميريك .

وقد أدى التضخم والإضراب وارتفاع نفقات البناء إلى ارتفاع فاتورة شركة ترامبر لكى تصل إلى ما يقرب من سبعمائة وثلاثين ألف جنيه عن المبلغ المبدئى المقدر بنصف مليون جنيه . كان من بين نتائج ذلك وجوب إصدار الشركة لإصدارات حقوق لتغطية النفقات الإضافية . كما نتج عن ذلك أيضا وجوب إرجاء بناء نادى الشباب .

وقد لاقت إصدارات الحقوق ثانية إقبالا منقطع النظير ؛ مما كان بالقطع من دواعى فخرى شخصيا بالرغم من أننى خشيت أن تكون السيدة ترينثام هى المشترى الرئيسى لأية أسهم جديدة . ولكن لم تكن لدىّ وسيلة لإثبات ذلك . كان هذا التخفيف للأسهم يعنى أن أشاهد بنفسى أسهمى فى الشركة وهى تنخفض لأقل من أربعين بالمائة للمرة الأولى .

كان صيفا طويلا وبمرور كل يوم لاحظت أن كاثى كانت تزداد قوة وأكثر قدرة على التواصل . وأخيرا وافق الطبيب أن تعود كاثى لعملها فى العقار رقم ١ . عادت إلى عملها فى صباح يوم الاثنين التالى وقالت بيكى إنها كانت تمارس عملها وكأنها لم تغب عنه يوما واحدا باستثناء أنه لم يكن بإمكان أى شخص أن يذكر اسم دانيال أمامها .

وفى مساء أحد الأيام ، لابد أنه كان بعد مرور شهر ، عدت إلى المنزل من مكتبى لأجد كاثى تحوم فى البهو . كان كل ما خطر على

ذهنى عندها هو أنها بدأت تشعر بالأسى على أحداث الماضى . ولكننى كنت مخطئا تماما .

قالت وهى تغلق الباب ورائى : " إن سياستك فى التوظيف خاطئة تماما " .

" عذرا يا سيدتى الصغيرة " ، لم تمنحنى حتى فرصة لخلع معطفى الخارجى .

كررت قائلة : " إنه نظام خاطئ تماما . إن الأمريكيين يوفرون آلاف الدولارات فى متاجرهم مع الوقت ودراسات حركة السوق فى الوقت الذى مازال فيه ترامبر يعمل بنفس الطريقة القديمة " .

قلت لها مذكرا : " مازال يعمل بنفس الطريقة القديمة ؟ " .

أجابت : " ولكنها أصبحت طريقة بالية . تشارلى ، يجب أن تدرك أن شركتك يمكن أن توفر ما لا يقل عن ثمانين ألفا سنويا من بند الأجور وحده . إننى لم أبق خاملة على مدى الأسابيع القليلة الماضية . بل إننى فى الواقع أعددت تقريرا أثبت فيه صحة وجهة نظرى " ، وألقت لى صندوقا بين يدىّ وسارت نحو غرفتها .

مكثتُ على مدى أكثر من ساعة بعد العشاء أقلب محتويات الصندوق وأطالع التقارير المبدئية لـ " كاثى " . كانت كاثى قد لاحظت أننا نعانى من عمالة زائدة وهو ما لم يلتفت إليه أحد من قبلنا . وكانت قد شرحت كل هذا بالتفصيل فى تقريرها واقترحت طرقاً للتعامل مع الموقف بدون أى استفزاز للاتحادات العمالية .

أثناء إفطار اليوم التالى واصلت كاثى شرحها لما توصلت إليه كما لو كانت لم تذهب إلى فراشها . سألتنى : " أمازلت تسمعنى أيها الرئيس ؟ " . كانت تطلق علىّ دائما اسم " سيدى الرئيس " كلما أرادت أن توضح نقطة معينة . لابد أنها حيلة تعلمتها من دافنى .

قلت لها : " كلى آذان مصغية " ؛ مما دفع بيكى إلى إلقاء نظرة على مقدمة الصفحة .

سألتنى كاثى : " هل تريدنى أن أثبت صحة وجهة نظرى ؟ "

" تفضلى " .

منذ ذلك اليوم ؛ لم تفتنى رؤية كاثى يوما واحدا أثناء جولاتى اليومية الصباحية ؛ إما فى هذا المتجر أو ذلك ؛ إما تستجوب أحد الموظفين أو تراقب شيئا ما أو ببساطة تدون بعض الملاحظات الدقيقة ، وكانت تحمل فى معظم الأوقات ساعة توقيت فى يدها الأخرى . لم أسألها يوما عما كانت تخطط له وكانت كلما وقع بصرى عليها تكتفى بالقول : " طاب يومك يا سيدى الرئيس " .

فى عطلات نهاية الأسبوع كنت أسمعها وهى تدق على الآلة الكاتبة فى غرفتها لساعات . ثم - بدون إنذار - فى صباح أحد الأيام أثناء تناول الإفطار ؛ وجدت ملفا سميكا فى انتظارى فى المكان الذى كنت آمل أن أجد فيه البيض واللحم وصحيفة الصنداى تايمز .

بدأت فى عصر ذلك اليوم أتصفح كل ما أعدته كاثى لى . وبحلول وقت مبكر من المساء كنت قد اتخذت قرارا بأن أدعو مجلس الإدارة إلى تنفيذ معظم توصياتها بدون أى تأخير .

كنت أعرف تحديدا ما كان يجب علىَّ عمله ولكننى كنت بحاجة إلى مباركة الدكتور أتكينز . اتصلت هاتفيا لنتحادث عبر الهاتف . لم تكن لديه أية مخاوف خاصة بمستقبل كاثى - كما أكد لى - وخاصة بعد أن بدأت تتذكر بعض الأحداث الصغيرة عن ماضيها بل وأصبحت أيضا على استعداد للتحدث عن دانيال .

عندما نزلت لتناول الإفطار فى صباح اليوم التالى وجدت كاثى جالسة على المائدة فى انتظارى . لم تنطق بكلمة وأنا أتناول شطيرة المربى وأتظاهر بانهماكى فى قراءة صحيفة التايمز الاقتصادية .

قالت : " حسنا ، أعلن استسلامى "

قلت لها محذرا بدون أن أرفع عينى عن الجريدة : " يجدر بك ألا تفعلى ، لأن البند السابع من جدول أعمال اجتماع مجلس الإدارة فى الشهر المقبل " .

سألت كاثى فى قلق : " ولكن من الذى سيطرح قضيتى ؟ "

أجبتها : " ليس أنا بالطبع ، كما أننى أعتقد أنه ليس هناك شخص آخر على استعداد لأن يقوم بهذه المهمة " .

على مدى الأسبوعين التاليين كنت كلما قمت لآوى إلى فراشى مرورا بغرفة كاثى لا أسمع أى نقر على الآلة الكاتبة حتى إن الفضول بلغ منى مبلغه ودفعنى ذات مرة إلى أن أطل برأسى عبر باب الغرفة نصف المفتوح . وجدت كاثى واقفة أمام المرآة وبجانبها لائحة عرض فوق حامل . كانت اللائحة زاخرة بالألوان والأسهم .

قالت بدون أن تدير رأسها : " ابتعد من هنا " ، فأدركت أنه لم يعد أمامى سوى أن أنتظر موعد اجتماع المجلس القادم .

كان الدكتور أتكينز قد حذرنى من أن مهمة طرح قضيتها على الملأ يمكن أن يفوق قدرتها على الاحتمال وأن علىّ أن أنقلها إلى المنزل فور ظهور أية أعراض تنم عن تعرضها للضغوط . " لا تضغط عليها كثيرا " ، كانت هذه هى كلماته الأخيرة .

وعدته مجيبا : " لن أسمح بذلك " .

فى صباح يوم الخميس جلس كل أعضاء مجلس الإدارة على مقاعدهم حول المائدة فى العاشرة وثلاث دقائق . بدأ الاجتماع

ببعض الاعتذارات الهادئة عن عدم القدرة عن الحضور متبوعا بقبول ما تمت مناقشته فى الاجتماع السابق . نجحنا بشكل ما فى إبقاء كاتى منتظرة على مدى أكثر من ساعة لأننا عندما وصلنا إلى البند رقم ثلاثة من جدول الأعمال وكان بندا عاديا للغاية يكاد لا يطرح للمناقشة بخصوص تجديد بوليصة التأمين الخاصة بالشركة مع شركة برودنشيال ، اقتنص نيجيل ترينشام الفرصة فقط ـ على ما أعتقد ـ لإثارة حنقه أملا فى إخراجى عن شعورى . كان يمكن بالفعل أن يحدث ذلك ما لم تكن نيته واضحة تماما .

قال : " أعتقد أن الوقت قد حان لإجرا تغيير يا سيدى الرئيس . أظن أننا يجب أن ننقل أعمالنا إلى شركة ليجل وجنرال " .

أخذت أحدق فى الجانب الأيسر من المائدة لكى أركز بصرى على الرجل الذى كان وجوده تماما يثير بداخلى ذكرى جاى ترينشام والشكل الذى كان يمكن أن يكون عليه إن كان قد بقى على قيد الحياة حتى هذا السن . كان الأخ الأصغر وجيه الشكل وكان يرتدى بذلة أنيقة نجحت فى إخفاء مشكلة زيادة وزنه . ومع ذلك لم تكن هناك وسيلة لإخفاء ذقنه العريض أو صلعة رأسه .

بدأت حديثى : " يجب أن أنوه للمجلس أن شركة ترامبر ظلت تتعامل مع برودنشيال منذ أكثر من ثلاثين عاما . والأكثر من ذلك أنها قد خدمتنا بإخلاص وتفان . ولكن الأهم من ذلك هو أن شركة ليجل وجنرال لن تستطيع أن توفى بالشروط التى نراها مناسبة لنا " .

أشار ترينشام قائلاً : " ولكنهم يملكون اثنين بالمائة من أسهم الشركة " .

" إن شركة برو مازالت تملك خمسة بالمائة " ، هكذا ذكرت المديرين قائلا بعد أن أدركت ثانية أن ترينشام لم ينجح ثانية فى أداء واجبه المنزلى . كان يمكن لهذا الجدل أن يظل متواصلا لساعات مثل مباراة التنس ما لم تتدخل دافنى وتطلب إجراء تصويت .

وبالرغم من أن ترينشام خسر بسبعة أصوات مقابل ثلاثة فإن هذا الجدل ذكر كل الجالسين حول المائدة بأهداف ترينشام طويلة المدى . على مدى الأشهر الثمانية عشرة الماضية كان ترينشام ـ بالاستعانة بأموال والدته ـ قد استزاد من أسهمه فى الشركة إلى حد قدرته بما يقترب من أربعة وثلاثين بالمائة . كان الوضع يمكن أن يكون داخل حدود السيطرة ما لم أكن أعرف ـ للأسف ـ أن شركة هاردكاسيل كانت تملك هى الأخرى سبعة عشر سهما إضافيا فى الشركة وهى الحصة التى كان يجب أن يحصل عليها دانيال ولكنها أصبحت التركة التى سوف تنتقل بشكل تلقائى إلى أقرب قريب للسير رايموند . وبالرغم من أن نيجيل كان قد خسر التصويت ، فإنه لم يبد أية إشارة غضب وهو يعيد تنظيم أوراقه مسترقا نظره إلى بول ميريك الذى كان يجلس بجواره إلى اليسار . بدا لى من الواضح أنه كان يشعر أن الوقت يعمل لصالحه .

" البند رقم سبعة " ، هكذا قلت وأنا أميل على جيسيكا لكى أطلب منها أن تدعو الآنسة روس للانضمام إلينا . عندما دخلت كاتى الغرفة وقف كل الرجال الجالسين حول المائدة حتى ترينشام نفسه نهض فى نصف وقفة من على مقعده .

وضعت كاتى لوحتى عرض فوق الحامل كانت قد أعدتهما بالفعل ، كانت إحدى اللوحات زاخرة بالأشكال البيانية بينما

كانت الأخرى زاخرة بالإحصاءات . استدارت لكى تنظر إلينا . وحييتها بابتسامة دافئة .

قالت : " صباح الخير أيها السيدات والسادة " ، ثم صمتت وراجعت ملاحظتها : " أود أن أبدأ بـ .... "

بدت نبرتها مترددة فى بادئ الأمر لكنها بمرور الوقت أصبحت رابطة الجأش وهى تطرح النقطة بعد الأخرى لكى تكشف عن مثالب وعيوب نظامنا التوظيفى وكيف أنه قد أصبح باليا والخطوات التى يجب أن نتخذها لإصلاح الوضع بأسرع ما يمكن . كانت خطتها تحتوى على التقاعد فى سن مبكراً لكل رجل وصل إلى سن الستين وكل امرأة وصلت إلى الخامسة والخمسين وطرح أماكن للإيجار بما فى ذلك كل أقسام الدور الأرضى على أن تؤجر لماركات عالمية معروفة مما يضمن تدفق النقد السائل بدون تحميل شركة ترامبر أية مجازفة لأن كل متجر سوف يكون مسئولا عن تعيين العاملين به وكذلك مطالبة الشركات التى تود التعامل معنا للمرة الأولى بمنحنا نسبة تخفيض كبيرة . استغرق العرض ما يقرب من أربعين دقيقة وعندما انتهت من طرحها ؛ بقى الجميع صامتا على مدى عدة دقائق .

إن كان عرضها الأولى يوصف بأنه جيد فإن إجابتها على الأسئلة التى تلت العرض كان أكثر جودة . تعاملت مع كل المشاكل البنكية التى طرحها تيم نيومان وبول ميريك بمنتهى الكفاءة وكذلك مع كل مشاكل اتحاد التجار التى أثارها آرثر سيلوين . أما بالنسبة لـ " نيجيل تريتشام " فقد تعاملت معه بكفاءة هادئة كان يصعب علىّ أن أطبقها على نفسى . عندما غادرت كاثى قاعة الاجتماعات

بعد ما يقرب من ساعة نهض الجميع ثانية باستثناء تريتشام الذى أخذ يحدق فى التقرير الموضوع أمامه .

وبينما كنت أسير فى طريقى فى مساء ذلك اليوم وجدت كاثى بانتظارى عند عتبة الباب .

" حسنا ؟ "

" حسنا ؟ "

قالت موبخة : " لا تثر حنقى يا تشارلى "

قلت لها مبتسماً : " لقد تم تعيينك المديرة الجديدة لشئون العاملين " . بقيت للحظة عاجزة عن الرد .

أضفت وأنا أمر بجانبها : " لقد فتحت على نفسك جحر الثعابين أيتها الشابة الصغيرة . إن المجلس يتوقع أن تحلى لنا كل هذه المشاكل " .

بدت كاثى سعيدة كل السعادة بهذا النبأ حتى إننى شعرت للمرة الأولى أننا ربما نكون قد تخطينا مأساة وفاة دانيال . اتصلت بالدكتور أتكينز لكى أخبره بأداء كاثى ونتائج العرض الذى قدمته وكيف أنها ترشحت للانضمام إلى المجلس . ولكن ما لم أفض به لأى منهما هو أننى أجبرت على قبول مرشح آخر من قبل تريتشام لكى أضمن قبول كاثى عن طريق التصويت .

منذ اليوم الذى انضمت فيه كاثى إلى مجلس الإدارة أصبح من الواضح للجميع أنها كانت المرشح الأقوى الذى يجب أن يخلفنى فى مجلس الإدارة وأنها ليست مجرد فتاة ذكية من المتجر الذى تديره بيكى . ومع ذلك فقد كنت أدرك يقيناً أن تقدم كاثى لن يتحقق إلا ببقاء تريتشام عاجزا عن التحكم فى واحد وخمسين بالمائة من أسهم شركة ترامبر . وقد أدركت أيضا أن الطريقة الوحيدة التى

يمكن أن يأمل بها تحقيق ذلك هى أن يطرح الشركة للعرض العام وهو ما يمكن أن يحدث عندما يضع يديه على أموال تركة هاردكاسيل . للمرة الأولى فى حياتى أخذت أتمنى أن يطول العمر بالسيدة ترينثام حتى يتسنى لى بناء شركتى إلى وضع يسمح لى بأن أتصدى حتى لأموال التركة وما يمكن أن تحدثه من قلب للأوضاع .

فى الثانى من شهر يونيو عام ١٩٥٣ ، توجت الملكة إليزابيث بعد أربعة أيام من نجاح رجلين من أجزاء مختلفة من الكومنولث بلوغ قمة إيفرست . وقد عبر ونستون تشرشل عن هذا الحدث أبلغ تعبير عندما قال : " إن كل من قرأ تاريخ الملكة إليزابيث الأولى يجب أن يتطلع بترقب إلى إليزابيث الثانية " .

وقد قبلت كاثى التحدى الذى فرضته كلمات رئيس الوزاء وبذلت كل طاقتها فى تنفيذ المشروع الخاص بالعاملين والذى كلفها المجلس به وقد تمكنت من توفير مبلغ قدر بتسعة وأربعين ألف جنيه فى الأجور فى عام ١٩٥٣ ومبلغ إضافى يصل إلى واحد وعشرين ألفا فى النصف الأول من عام ١٩٥٤ . ومع نهاية السنة المالية شعرت أن درايتها بشئون العاملين فى ترامبر تفوق كل من يجلس حول مائدة مجلس الإدارة بمن فيهم أنا شخصيا .

أثناء عام ١٩٥٥ بدأت مبيعاتنا الخارجية تنخفض بشكل حاد وبما أن كاثى لم تعد منهمكة فى عملها كسابق عهدها وبما أننى فى نفس الوقت كنت حريصا على اكتسابها لمزيد من الخبرات فى الأقسام المختلفة فقد طلبت منها أن تسعى لدراسة هذه المشكلة فى حجم المبيعات الخارجية .

وقد أقبلت كاثى على مهمتها الجديدة بنفس الحماس المعهود وبدأت تدرس كل التفاصيل ولكنها على مدى العامين التاليين بدأت تصطدم بـ " نيجيل ترينثام " أكثر فأكثر بشأن العديد من القضايا بما فى ذلك سياسة إرجاع الفارق للعميل إن ثبت أن السلعة تباع بسعر أقل لدى أى منافس من منافسينا . وقد أوضح ترينثام أن زبائن ترامبر لا يهتمون بمثل هذه الفروق الطفيفة فى السعر ولكنهم يهتمون بالجودة والخدمة ، فما كان من كاثى إلا أن ردت قائلة : " ولكن الزبون ليس مسئولا عن الميزان المالى وإنما المجلس نيابة عن حاملى الأسهم " .

وفى إحدى المرات الأخرى كاد ترينثام يتهم كاثى بالشيوعية عندما اقترحت خطة مساهمة فى الأسهم من قبل العاملين مما يمكن أن يخلق رابطة ولاء من قبل العاملين وهى الرابطة التى تفهمها اليابانيون وطبقوها جيدا وبالتالى نجحوا فى الاحتفاظ بثمانية وتسعين بالمائة من عمالتهم من المهد إلى اللحد . حتى أنا شخصيًا لم أكن واثقا من رأيى فى هذه الفكرة الجديدة ولكن بيكى حذرتنى على انفراد من أننى ربما قد أصبحت متعجرفا بعض الشيء .

عندما عجزت شركة ليجل وجنرال عن الحصول على أعمال التأمين الخاصة بالشركة ، باعت على الفور حصتها لـ " نيجيل ترينثام " ومنذ ذلك الوقت أصبحت أكثر قلقا من أن يضع فى النهاية يديه على نسبة من الأسهم تكفى للاستيلاء على الشركة . وقد تقدم بعرض آخر لتعيين شخص جديد فى المجلس وهو ما حصل على موافقة المجلس بفضل مساندة بول ميريك .

قلت لـ " بيكى " : " كان يجب أن أضع يدى على هذه الأرض منذ خمسة وثلاثين عاما مضت مقابل أربعة آلاف جنيه " .

قالت بيكى مذكرة : " وهو ما ذكرتنا به عدة مرات من قبل ولكن الأسوأ من ذلك هو أن موت السيدة ترينشام الآن أصبح أشد خطورة علينا من حياتها " .

تصدت شركة ترامبر لموجات ألفيس بريسلى وتيدى بويز وستيليتوز وهوس المراهقين بهم . " ربما يكون العميل قد تغير ولكننا يجب ألا نسمح لثوابتنا بأن تتغير " ، هكذا كنت أكرر على المجلس دائما .

وفى عام ١٩٦٠ ، حققت الشركة نسبة أرباح خالصة وصلت إلى سبعمائة وسبعة وخمسين ألف جنيه أى ما يقرب من أربعة عشر بالمائة على رأس المال وبعد عام من هذا الربح كللت نجاحها بالحصول على جائزة ملكية . وقد أصدرت وقتها تعليماتى بأن يعلق معطف قصر وندسور فوق المدخل الرئيسى لكى يذكر الجمهور بأن الملكة تأتى للتسوق من عربة ترامبر النقالة بشكل منتظم .

لم يكن بوسعى التظاهر بأنه قد سبق لى رؤية جلالتها تحمل أيًّا من حقائبنا الزرقاء المعروفة بعلامة العربة النقالة الفضية أو رؤيتها وهى تصعد وتهبط السلالم الكهربائية فى ساعات الذروة ، ولكننا مع ذلك كنا ومازلنا نتلقى مكالمات هاتفية مستمرة من القصر إن نفدت لديهم بعض المؤن وهو ما أثبت صحة نظرية جدى القديمة وهى أن التفاحة هى التفاحة ؛ أيًّا كان من سيأكلها .

كان أكبر حدث وقع عام ١٩٦١ هو افتتاح بيكى لمركز دان سالمون فى وايت شابيل وهو أحد الأبنية الأخرى التى تخطت الميزانية المرصودة لها بكثير . ومع ذلك فإننى لم أندم ولو لحظة

على كل بنس أنفقته على هذا البناء بالرغم من توبيخ بول ميريك وانتقاده المستمر لى . كنت سعيداً برؤية الجيل الجديد من الشباب والشابات وهم يمارسون السباحة والملاكمة ورفع الأثقال ولعب الاسكواش وهى اللعبة التى لم أكن أجيدها بالمرة .

كنت كلما ذهبت لمشاهدة مباريات ويستهام فى عصر أيام السبت ، أتوقف قليلا عند النادى وأنا فى طريق العودة لكى أراقب الأطفال الأفارقة والهنود والآسيويين سكان الطرف الشرقى الجدد وهم يتعاركون مع بعضهم البعض بنفس الحدة التى كنا نتعارك بها مع المهاجرين من الأيرلنديين ومن سكان أوروبا الشرقية .

" النظام القديم يتغير ويفسح المجال لما هو جديد وتتجلى إرادة الله فى عدة طرق خشية أن يقضى النظام الأوحد ـ مهما كان جيدا ـ على العالم " ، كانت هذه هى الكلمات المحفورة على المدخل المقنطر للمركز مما أعاد إلى ذاكرتى السيدة ترينشام ـ والتى لم تكن يوما بعيدة عن فكرى ـ وخاصة فى وجود ثلاثة ممثلين عنها حول مائدة اجتماعاتنا قد ملأ كل منهم الحماس والأمل فى تنفيذ ما تسعى إليه . بدأ نيجيل ـ الذى كان يسكن فى ذلك الوقت فى ميدان شيستر سعيدا بأن يسقط كل شىء فى نصابه كما خطط له وبأن يقود قواته نحو الهجوم .

أخذت أدعو الله أن يطول العمر بالسيدة ترينشام لأننى كنت مازلت بحاجة لمزيد من الوقت لكى أضمن عدم استيلاء ابنها على الشركة .

ولكن دافنى كانت أول من أبلغتنى بأن السيدة ترينشام كانت قد نقلت إلى فراشها وكان طبيب العائلة يزورها بشكل دورى . كان

نيجيل مازال قادراً على الاحتفاظ بابتسامته طوال شهور الانتظار هذه .

وبدون أى سابق إنذار فى السابع من مارس عام ١٩٦٢ ؛ توفيت السيدة ترينثام عن عمر يناهز الثامنة والثمانين .

" توفيت فى سلام أثناء نومها " ؛ هكذا أخبرتنى دافنى .

الفصل ٤٣

حضرت دافنى مراسم دفن السيدة ترينثام " فقط لكى أتأكد من أن هذه المرأة اللعينة قد دفنت " ، هكذا قالت لـ " تشارلى " فى وقت لاحق وأضافت : " رغم أننى لن أستغرب إن تمكنت بشكل أو آخر من أن تقوم من موتها " . واصلت تحذير تشارلى من أن نيجيل قد أصبح يملك السبق حتى قبل أن يوارى جسد أمه الثرى حتى إنها أخذت تخبر الجميع بأننا يجب أن نتوقع انهمار القنابل علينا فى الاجتماع القادم للمجلس . لم يكن أمامه سوى بضعة أيام قليلة .

فى الثلاثاء الأول من الشهر التالى ؛ تفقد تشارلى مائدة الاجتماعات لكى يتأكد من حضور كل المديرين . شعر أن كل من فى القاعة كان فى انتظار الشخص الذى سوف يبادر بإشعال فتيل الصراع . كان نيجيل ترينثام وزميلاه يرتديان رابطات عنق سوداء أشبه بالشارات الرسمية وكأنهم يريدون تذكير كل أعضاء المجلس بوضعهم الجديد . وفى المقابل وللمرة الأولى حسب ما يذكر تشارلى ؛

ارتدى السيد بافرستوك رابطة عنق ضاربة إلى الرمادية ذات ألوان زاهية .

كان تشارلى قد أدرك من تلقاء نفسه أن ترينثام كان سيبقى منتظرا حتى البند السادس - المشروع الخاص بزيادة الخدمات البنكية فى الدور الأرضى - قبل أن يقدم على أى خطوة . وكانت الخطة الأساسية هى إحدى بنات أفكار كاثى التى تقدمت بها إلى المجلس فور عودتها من إحدى رحلاتها الشهرية إلى الولايات المتحدة . وبالرغم من أن القسم الجديد كان قد قابل مشاكل طاحنة فى البداية فإنه فى العام الثانى كان قد نجح فى الوصول إلى نقطة اللامكسب واللاخسارة .

مرت النصف ساعة الأولى من الجلسة فى هدوء أثناء سرد تشارلى للبنود الخمسة الأولى . ولكنه عندما وصل إلى البند السادس " توسيع الـ ــ " .

" دعنا نغلق البنك ونضع حداً لخسائرنا " ، كانت تلك من كلمات ترينثام الأولى حتى قبل أن يمنح تشارلى فرصة لعرض وجهة نظره .

سألت كاثى فى ريبة : " لماذا ؟ "

قال ترينثام : " لأننا لسنا رجال بنوك . نحن أصحاب محلات أو دافعو عربات نقالة كما يحب رئيسنا أن يذكرنا . على أية حال ؛ سوف يمنحنا هذا فرصة للحد من نفقات تصل إلى ما يقرب من ثلاثين ألف جنيه سنويا " .

قالت كاثى : " ولكن البنك بدأ لتوه يعوض خسارته . يجب أن نفكر فى توسيع الخدمات وليس الحد منها . نحن إن وضعنا

الفوائد فى اعتبارنا ؛ فمن يدرى كم النقود التى نكسبها من المبنى ثم ننفقها ثانية عليه " .

" نعم ولكن انظرى إلى المساحة الإضافية التى يحتلها البنك " .

" ولكننا فى المقابل نقدم لعملائنا خدمة قيمة " .

أجاب ترينثام فى حماس : " ونخسر المال فى نفس الوقت لعدم استغلال المساحة فى أعمال أخرى تدر علينا المزيد من الربح " .

قالت كاثى : " مثل ماذا ؛ على سبيل المثال ؟ فقط أخبرنى بقسم أو آخر يمكن أن يقدم لعملائنا خدمة أكثر تميزا وفى نفس الوقت تحقق عائدا استثماريا جيدا . فقط اذكر لى نشاطاً واحداً وسوف أكون أول من يوافق على إغلاق البنك فى الحال " .

قال ترينثام : " ولكننا لسنا صناعة خدمية . إن واجبنا هو تقديم عائد جيد على رأس المال الخاص بحاملى الأسهم . أريد أن أصوت على هذا الاقتراح " ، بدون أن يزعج نفسه بالخوض فى مزيد من الجدل مع كاثى .

خسر ترينثام التصويت بستة أصوات مقابل ثلاثة وافترض تشارلى بعد هذا الإجراء أنه بوسعهم أن ينتقلو إلى البند رقم سبعة وهى مشاركة جزء من طاقم العاملين فى فيلم قصة الحى الغربى الذى سيصور فى أوديون فى ميدان ليشتر . ولكن بمجرد أن سجلت جيسيكا آلان الأسماء فى محاضر الاجتماع ؛ نهض نيجيل ترينثام بسرعة وقال : " لدىّ إعلان يجب أن أعلنه يا سيدى الرئيس " .

سأل تشارلى فى براءة : " ألن يكون من الأكثر مناسبة أن ترجئ هذا التصريح لحينه ؟ " .

قال ترينيثام فى براءة : " لن أكون موجودا إلى أن يحين هذا الوقت يا سيدى الرئيس " . ثم أخرج ورقة من جيبه الداخلى وبدأ يقرأ محتواها الذى كان من الواضح أنه كان معدا مسبقا .

بدأ حديثه قائلاً : " أظن أنه من واجبى أن أخبر المجلس " أنه فى غضون أسابيع قليلة سوف أكون المالك الوحيد لثلاثة وثلاثين بالمائة من أسهم ترامبر . عندما نلتقى فى المرة التالية ؛ سوف أصر على إجراء العديد من التغييرات فى هيكل الشركة ؛ ليس أقلها فى بعض الأعضاء الجالسين حول هذه المائدة " ، توقف ونظر إلى كاثى قبل أن يواصل قائلا : " سوف أرحل الآن لكى أترك لكم فرصة مناقشة كل ما ينطوى عليه هذا التصريح " .

دفع كرسيه إلى الوراء بينما قالت دافنى : " لا أفهم تحديدا ما الذى تعنيه يا سيد ترينثام " .

تردد ترينثام للحظة قبل أن يجيب : " هذا يعنى أننى يجب أن أشرح ما أقصده بمزيد من التفصيل يا ليدى ويلتشاير " .

" سوف يكون هذا لطفا منك " .

واصل حديثه : " فى اجتماع مجلس الإدارة المقبل سوف أرشح نفسى رئيسا لمجلس إدارة ترامبر . ولكننى إن فشلت فى الانتخابات فسوف أقدم استقالتى على الفور وسوف أدلى بتصريح صحفى أعلن فيه عن رغبتى فى إجراء عطاء لشراء كل أسهم الشركة المتبقية . لابد أنكم تدركون الآن جميعا أننى أملك القدرة على تنفيذ ما أقول . لأن كل ما أحتاج إليه هو ثمانية عشر سهما إضافيا لكى أكون صاحب أكبر عدد من الأسهم فى الشركة . وأقترح أن يقدم كل المديرين حفاظا على ماء الوجه على تقديم استقالتهم لكى يجنبوا أنفسهم حرج الاستبعاد . أتمنى أن أرى واحدا أو اثنين منكم فقط

فى اجتماع مجلس الإدارة فى الشهر المقبل " . ثم نهض هو وزميلاه وساروا خارج الغرفة .

لم يقطع الصمت الذى ساد بعد رحيله سوى السؤال الذى طرحته دافنى .

" ما السباب الذى يقال فى مثل هذه المواقف ؟ "

ضحك الجميع باستثناء بافرستوك الذى أسر فى نفسه قائلا : " سافل " .

قال تشارلى : " الآن بعد أن أعلنت الحرب ، لنأمل أن يكون لدينا جميعا الاستعداد للمواجهة " . استدار تشارلى جهة بافرستوك وسأله : " هل يمكنك أن تقدم للمجلس موجزاً عن الوضع الحالى الخاص بالأسهم التابعة لشركة هارد كاسيل " .

نهض الرجل العجوز من مقعده بتؤدة ونظر إلى تشارلى : " كلا يا سيدى الرئيس لا أستطيع ؛ كما أننى يجب أن أخبر المجلس بأننى أنا الآخر يجب أن أقدم استقالتى " .

سألت بيكى فى ذهول : " ولكن لماذا ؟ لقد كنت سندا دائما لنا فى الماضى فى أوقات الشدة وأوقات الرخاء " .

" يجب أن أعتذر يا ليدى ترامبر ولكننى لا أستطيع أن أكشف عن الأسباب " .

سأل تشارلى : " ألا يمكنك أن تعيد التفكير ثانية ؟ " .

قال بافرستوك فى حزم : " كلا يا سيدى " .

أغلق تشارلى الاجتماع من فوره بالرغم من أن الكل كان يحاول أن يتحدث فى آن واحد وسار بسرعة خلف بافرستوك خارجا من غرفة الاجتماعات .

سأل تشارلى : " ما الذى دفعك للاستقالة بعد كل هذه السنوات ؟ " .

" ربما يمكننا أن نلتقى غدا لمناقشة الأسباب يا سير تشارلى ؟ "

" بالطبع ولكن فقط أخبرنى عن السبب الذى دفعك لتركنا فى هذا الوقت تحديدا وأنا فى أشد الحاجة إليك " .

توقف السيد بافرستوك وقال فى هدوء : " لقد توقع السير رايموند إمكانية حدوث ذلك ، وقد أخبرنى بالفعل بذلك " .

" لا أفهم " .

" وهذا هو تحديدا سبب رغبتى فى لقائك غدا يا سير تشارلى " .

" هل تود أن أحضر بيكى ؟ " .

فكر السيد بافرستوك لبعض الوقت فى هذا الاقتراح قبل أن يجيب قائلا : " أعتقد أنه من الأحرى ألا تأتى . إن كان قد قدر لى أن أنكث بعهدى للمرة الأولى منذ أربعين عاماً فإننى أفضل ألا يكون هناك أى شاهد حاضر " .

عندما وصل تشارلى إلى مكتب بافرستوك وديكنز وكوب فى صباح اليوم التالى ؛ كان الشريك الأكبر فى انتظاره عند الباب لتقديم التحية . بالرغم من أن تشارلى لم يكن قد سبق له التأخر عن موعده مع السيد بافرستوك على مدى أربعة عشر عاماً ؛ فقد كان يتأثر دائما بتلك الحفاوة التقليدية القديمة التى كان يستقبله بها دائما .

" صباح الخير يا سير تشارلى " ، هكذا قال بافرستوك قبل أن يقود ضيفه بطول الرواق إلى مكتبه . وقد اندهش عندما عرض عليه السيد بافرستوك الجلوس فى المقعد المجاور للمدفأة غير المشتعلة

بدلا من المكان المعهود الذى كان يجلس فيه دائما أمام مكتب شريكه . لم يكن هناك موظف أو سكرتير حاضر لتدوين محضر الجلسة وقد لاحظ تشارلى أيضا أن السيد بافرستوك كان قد رفع سماعة الهاتف فوق مكتبه . استراح تشارلى فى مقعده بعد أن تأكد من أن المقابلة سوف تطول .

بدأ بافرستوك : " منذ سنوات طويلة مضت عندما كنت شابا ، عندما كنت أعد الاختبارات لطلابى ؛ أقسمت ألا أفشى يوما سرا من أسرار وكلائى الخاصة . وأعتقد أنه يمكننى أن أقول بلا تحفظ إننى بالفعل لم أنكث بعهدى يوما . ومع ذلك ؛ كان السير رايموند هاردكاسيل كما تعرف هو أحد وكلائى وقد كان ... " ثم سمع طرقا على الباب ودخلت فتاة شابة حاملة صينية عليها قدحان من القهوة الساخنة وإناء سكر .

" شكرا لك يا آنسة بوروز " ، هكذا قال بافرستوك عندما وضعت أحد القدحين أمامه . لم يواصل حديثه إلا بعدما أغلقت الباب وراءها . سأل بافرستوك وهو يضع قطعة سكر فى قدحه : " أين كنا يا عزيزى ؟ " .

" وكيلك السير رايموند " .

قال بافرستوك : " أجل . لقد ترك السير رايموند وصية ربما تظن أنك تعرف محتواها ولكن هناك شيئا لا تعرفه وهو أنه أرفق خطابا بالوصية . لم يكن للخطاب أية قيمة قانونية لأنه كان موجها لى بشكل شخصى " .

بقيت قهوة تشارلى دون أن تمس وهو ينصت إلى كل كلمة يقولها بافرستوك . " وبما أن هذا الخطاب لا يعتبر وثيقة قانونية وإنما

مجرد مراسلة خاصة بين اثنين من الأصدقاء فقد قررت أن أفضى لك بمحتواه " .

انحنى السيد بافرستوك أمامه وفتح ملفا كان موضوعا على المائدة . استخرج ورقة واحدة كانت مدونة بخط واضح وقال : " أود أن أشير إليك يا سير تشارلى قبل أن أقرأ عليك الخطاب أن الخطاب قد كتب فى الوقت الذى افترض فيه السير رايموند أن كل ممتلكاته سوف تؤول إلى دانيال وليس إلى أقرب وريث " .

دفع السيد بافرستوك نظارته فوق أنفه وتنحنح وبدأ يقرأ :

عزيزى بافرستوك ،

بالرغم من كل ما قمت به لكى أضمن تنفيذ وصيتى الأخيرة فإنه يمكن أن يطرأ جديد . قد لا يتمكن حفيدى دانيال ترامبر من امتلاك هذه الثروة . إن حدث ذلك ؛ أرجوك أن توظف كل ما تملكه من ذكاء وحنكة لكى تمنح بعض الوقت للأشخاص الأكثر تأثرا بهذا التغيير .

أنت تعلم يا صديقى القديم من هو الشخص الذى أقصده .

المخلص ،

راى

أعاد بافرستوك الخطاب فوق المائدة وقال : " أخشى أنه كان يعرف هو وابنته نقطة ضعفى " . ابتسم تشارلى لأنه أدرك المعضلة الأخلاقية التى كان من الواضح أن بافرستوك كان قد وقع فيها .

" والآن قبل أن أشير إلى الوصية نفسها يجب أن أسر إليك بأمر آخر أيضا " .

أومأ تشارلى .

" أنت تدرك مع الأسف يا سير تشارلى أن السيد نيجيل ترينثام قد أصبح الآن الوريث الشرعى . ومع ذلك فإننى يجب أن ألفت إلى شىء فى صياغة الوصية وهو أن السير رايموند لم يطق أن يذكر حتى اسمه كوريث شرعى . أظن أنه كان يأمل أن ينجب دانيال ابنا من صلبه لكى تؤول إليه هذه الثروة .

ولكن الوضع الراهن هو أن السيد نيجيل ترينثام ــ بما أنه الوريث الشرعى الذى بقى على قيد الحياة ـ سيرث أسهم ترامبر وما تبقى من تركة هاردكاسيل ؛ إنها ثروة هائلة سوف تمكنه ــ وأنا واثق ـ من الاستحواذ من وضع يده على الشركة . ومع ذلك فإن هذا ليس هو السبب الذى دفعنى إلى مقابلتك اليوم . كلا وإنما السبب هو أحد شروط الوصية التى لم تطلع عليها من قبل . بعدما نضع خطاب السير رايموند فى الاعتبار ؛ أظن أنه من واجبى أن أفضى لك بمحتوى هذا الشرط " .

تصفح بافرستوك ملفه واستخرج مجموعة من الأوراق التى كانت محكمة الغلق بالشمع والملفوفة بشريط وردى .

" إن البنود الأحد عشر الخاصة بوصية السير رايموند قد استغرقت منى بعض الوقت لصياغتها . ولكن مادة هذه البنود ليست لها أية صلة بما نحن بصدده . وإنما هى خاصة بمبالغ بسيطة كان قد خلفها موكلى لأبناء عمومته وأبناء إخوته وأخواته وقد تلقوا بالفعل المبالغ المنصوص عليها .

أما البنود من البند الثانى عشر حتى البند الواحد والعشرين فهى خاصة ببعض الأندية والمؤسسات الأكاديمية الخاصة التى كانت تربطها صلة وثيقة بالسير رايموند وقد تلقت هى الأخرى المبالغ المنصوص عليها " ، تنحنح بافرستوك ثانية قبل أن ينظر إلى الوصية ويقلب عدة صفحات .

" سوف تؤول كل ثروتى المتبقية إلى السيد دانيال ترامبر من جامعة ترينيتى فى كمبريدج ولكن فى حالة وفاته قبل ابنتى إيثيل ترينثام فسوف تقسم هذه الثروة بالتساوى بين أبنائه . فإن لم يكن له أبناء فسوف تؤول الثروة إلى أقرب أقربائى ممن بقى على قيد الحياة " . ها قد وصلنا إلى الفقرة المقصودة يا سير تشارلى . " إن حدث ذلك فإننى أطالب القائمين على تنفيذ الوصية بالبحث عن أى شخص يستحق أو يزعم بأن له حقاً فى الميراث . ولضمان تنفيذ هذا الشرط كما ينبغى فإننى أوصى بعدم انتقال الثروة بالكامل إلى الشخص المستحق إلا بعد مرور عامين كاملين من وفاة ابنتى " .

كان تشارلى على وشك طرح سؤال عندما رفع السيد بافرستوك يده .

استطرد السيد بافرستوك : " لقد أصبح من الواضح لدىّ أن هدف السير رايموند من وراء البند الثانى والعشرين هو منحك ما يكفى من الوقت لكى تحشد قواتك وتقف فى وجه خطة السيد نيجيل " .

" وقد أصدر السير رايموند أيضا أوامره بنشر إعلان فى صحف التايمز والتليجراف والجارديان إثر وفاة ابنته وكذلك فى أية جريدة أخرى أراها مناسبة بحثا عن أى شخص قد يكون له حق المطالبة بالإرث . فإن كان بالفعل هناك أشخاص يحق لهم ذلك فعليهم

الاتصال بوكالتنا . لقد تلقى ثلاثة عشر قريبا بالفعل مبلغ ألف جنيه للواحد ولكن قد يكون هناك أولاد عمومة أو أقارب ربما لم يكن السير رايموند على دراية بهم ممن يحق لهم المطالبة بالميراث . لقد كان السير رايموند سيسعد بتخصيص ألف جنيه إضافى لأى قريب مجهول إن كان واثقا من أن هذا سوف يمنحك فرصة لالتقاط أنفاسك . بالمناسبة ؛ لقد قررت أن أضيف صحيفة يوركشاير بوست وصحيفة هدرسفيلد ديلى إكزامينر إلى قائمة الصحف المذكورة فى الوصية نظرا للروابط العائلية فى هذا البلد " .

قال تشارلى : " يا له من رجل محنك حكيم ؛ ليتنى عرفته " .

" أنا واثق يا سير تشارلى من أنه كان سيروق لك " .

" كما أنه كرم بالغ منك أن تطلعنى على كل هذه التفاصيل " .

قال بافرستوك : " عفوا ؛ فأنا واثق أن السير رايموند إن كان فى مكانى لأقدم بنفسه على فعل نفس الشىء " .

فى السابع من مارس عام ١٩٦٢؛ فى يوم وفاة السيدة ترينثام ؛ كان سعر سهم الشركة قد وصل إلى جنيه وشلنين فى مؤشر البورصة وبعدها بأربعة أسابيع فقط ارتفع سعر السهم ثلاثة شلنات أخرى .

كانت نصيحة تيم نيومان الأولى لـ " تشارلى " هى أن يتشبث بكل سهم كان مازال يملكه وألا يوافق على مدى العاملين التاليين - مهما كانت الظروف - على طرح حقوق بيع . كما نصحه أيضا إن كان لديه أى فائض فى النقود السائلة هو وبيكى أن يسعى لشراء المزيد من الأسهم عند طرحها فى السوق .

ولكن المشكلة التى تلت هذه النصيحة هى أنه كلما طرحت أى كمية كبيرة من الأسهم فى السوق كان مضاربا مجهولا ينقض عليها لشرائها فى الحال والذى يبدو أنه كان لديه أوامر واضحة بشراء الأسهم مهما كان سعرها . وقد نجح مضارب تشارلى فى البورصة من اقتناص عدة أسهم قليلة منه ولكن فقط من الأشخاص الذين لم يكن لديهم استعداد لطرح الأسهم فى السوق المفتوح . وقد كان تشارلى يكره دفع ثمن يفوق السعر الحقيقى بكثير منذ أن اقترب من الإفلاس عندما أقدم على ذلك من قبل . ومع نهاية العام كانت أسهم شركة ترامبر قد وصلت إلى جنيه وسبعة عشر شلناً . كما أن حركة البيع كانت قد تراجعت كثيرا بعدما حذرت صحيفة التايمز الاقتصادية قراءها من احتمال نشوب معركة داخل شركة ترامبر وبأنها تتوقع اشتعال المعركة فى غضون ثمانية عشر شهرا .

" تلك الجريدة اللعينة تعرف كل ما يجرى هنا فى المجلس " ، هكذا شكت دافنى لـ " تشارلى " فى اجتماعهم التالى مضيفة بأنها لم تعد تزعج نفسها بقراءة محاضر اللقاءات السابقة بما أنها كانت تقرأ ملخصا وافيا لكل ما جرى فى الصفحة الأولى من التايمز الاقتصادية التى كانت على ما يبدو تحصل على تقرير كتابى مفصل لكل ما يجرى . لم ترفع دافنى عينيها من على بول ميريك وهى تقول هذه الكلمات .

كانت القصة الواردة فى الجريدة قد أخطأت فى أمر واحد فقط وهو أن المعركة لم تعد تدور داخل غرفة الاجتماعات . حيث إنه منذ أن عرف أن وصية السير رايموند تحتوى على بند يحول دون حصول تريتثام على التركة قبل مرور عامين ، لم يعد هو أو مرشحاه يحضرون الاجتماعات الشهرية .

وقد أزعج غياب تريتثام كاثى بشكل خاص ؛ لأن البنك كان يحرز تقدما مطردا ويحقق عائدا أكبر . وجدت نفسها تعرب عن رأيها لثلاثة مقاعد خالية بالرغم من أنها كانت واثقة من أن بول ميريك كان يقص كل ما حدث فى ميدان شيستر . ولكى تزداد الأمور تعقيدا ، أعلن تشارلى لحاملى الأسهم فى الاجتماع السنوى أن الشركة سوف تحقق ربحا قياسيا ثانية لذلك العام .

قال تيم نيومان : " لقد قضيت عمرك لبناء شركة ترامبر فقط لكى تهديها على طبق من فضة إلى عائلة تريتثام " .

قال تشارلى : " إن السيدة تريتثام لن تكون بكل تأكيد بحاجة لأن تقلق فى قبرها . إنه من دواعى السخرية أنه بعد كل هذا النضال الذى خاضته فى حياتها لم يتحقق لها النصر المبين إلا بعد وفاتها " .

عندما ارتفع سعر السهم ثانية فى وقت مبكر من عام ١٩٦٤ ليتخطى جنيهين فى هذه المرة ، أخبر تشارلى ثانية من قبل تيم نيومان أن نيجيل تريتثام كان مازال يصدر أوامره بالشراء .

" ولكن من أين يحصل على كل هذا المال نقدياً لكى يضع يده على كل هذه الأنصبة قبل أن تؤول إليه ثروة جده ؟ " .

أجاب تيم نيومان : " سمعت من أحد زملائى القدامى الذى يعمل فى إحدى الشركات التجارية الكبرى أنه قد حصل على تسهيلات كبيرة من أحد البنوك مقابل حصوله فيما بعد على تركة هاردكاسيل كاملة . فقط تمن لو كان لك جد خلف إليك ثروة " .

قال تشارلى : " لقد كان جدى كذلك بالفعل "

اختار نيجيل ترينثام يوم عيد ميلاد تشارلى الرابع والستين لكى يعلن أمام العالم بأسره أنه سوف يطرح أسهم شركة ترامبر للبيع بسعر جنيهين وأربعة شلنات ، وذلك قبل موعد استلامه لإرثه بستة أسابيع فقط . كان تشارلى مازال واثقا من أنه بمساعدة الأصدقاء وبعض المؤسسات مثل مؤسسة برودنشيال وكذلك بعض المساهمين ممن كانوا ينتظرون ارتفاع سعر السهم بدرجة أكبر ، يمكنه أن يمتلك أربعين بالمائة من الأسهم . وقد قدر تيم نيومان ما يملكه ترينثام فى ذلك الوقت بما لا يقل عن عشرين بالمائة ولكنه بما أن ينجح من وضع يده على السبعة عشر بالمائة التى تملكها التركة فسوف يصل إجمالى ما يملكه من الأسهم ما بين اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين بالمائة . " كما أن اقتناص الثمانية أو التسعة بالمائة المتبقية لكى يسيطر على الشركة لن تكون مهمة صعبة بالنسبة له " ، هكذا قال نيومان محذرا تشارلى .

فى تلك الليلة أقامت دافنى حفلاً فى بيتها بمناسبة عيد ميلاد تشارلى فى ميدان إيتون . لم يذكر أحد اسم ترينثام إلى أن ثمل تشارلى قليلا وأخذ يكرر البند الذى وضعه السير رايموند فى وصيته والذى كان الهدف الوحيد منه ، كما شرح فيما بعد ، هو محاولة إنقاذه .

قال تشارلى وهو يرفع كأسه : " نخب السير رايموند . ليتنا حظينا به فى مجلسنا " .

" نخب السير رايموند " ، هكذا ردد الضيوف قائلين وهم يرفعون كؤوسهم باستثناء دافنى .

قال بيرسى : " ما الخطب ؟ ألم تسمعى ما قيل ؟ " .

" كلا وإنما كالمعتاد أنتم الذين فشلتم فى تبين ما يتوقعه السير رايموند منكم " .

" ما الذى تقصدين ؟ " .

" كنت أظن أن ما يريده واضحا للجميع وخاصة لك أنت يا تشارلى " ، قالت ذلك وهى تستدير لتحول نظرها من على زوجها إلى ضيف الحفل .

" أنا مع بيرسى ، فأنا لا أدرى عما تتحدثين " .

وعندها ساد الصمت المكان وركز الجميع على ما تود دافنى قوله .

واصلت دافنى حديثها : " إن الأمر بسيط للغاية . إن السير رايموند لم يفكر يوما فى أن دانيال يمكن أن يتوفى قبل السيدة ترينثام " .

قال تشارلى : " ثم ؟ " .

" كما أننى أشك أيضا فى أنه كان يتوقع أن ينجب دانيال أى أبناء قبل وفاة السيدة ترينثام " .

قال تشارلى : " أنت محقة فى الغالب " .

" كما أننا جميعا نعرف جيدا أن نيجيل ترينثام كان آخر اسم فى قائمته وإلا لكان السير رايموند قد سعد بذكر اسمه فى الوصية بصفته المستفيد التالى من الوصية وليس سلالة جاى ترينثام التى لم يكن حتى قد قابلها من قبل قط . كما أنه لم يكن ليضيف الكلمات التى تنص على أن تؤول الثروة إلى أقرب قريب له بقى على قيد الحياة " .

سألت بيكى : " وما الذى يقودنا إليه كل هذا ؟ " .

" يقودنا ثانية إلى المادة التى ذكرها تشارلى ، أرجوكم ابذلوا قصارى جهدكم للبحث عن الشخص الذى يستحق أن تؤول إليه هذه الثروة " . قرأت دافنى الكلمات التى كانت قد دونتها سريعا فوق منشفة المائدة الحمراء الضاربة إلى الرمادية وسألت : " هل هذا هو تحديدا نص الكلمات يا سيد بافرستوك ؟ " .

" هى تماما يا ليدى ويلتشاير ؛ ولكننى مازلت لا أفهم ــ " .

قالت دافنى : " لأنك أعمى تماما مثل تشارلى ، ولكن نحمد الله أن أحدنا مازال يرى كل التفاصيل . من فضلك يا سيد بافرستوك ذكرنا بتعليمات السير رايموند الخاصة بنشر الإعلان " .

مسح السيد بافرستوك شفتيه بفوطة مائدته وثناها بمنتهى العناية ووضعها أمامه وقال : " يجب نشر إعلان فى التايمز والتليجراف والجارديان وأى جريدة أخرى ترونها مناسبة ومحققة للغرض " .

قالت دافنى وهى تركز على كل حرف من حروف الكلمات : " ترونها مناسبة ومحققة للغرض . إنها كلمات واضحة وضوح الشمس لكل من يريد أن يفكر " ، تركزت كل العيون على دافنى ولم يسع أى شخص لمقاطعتها . سألت : " ألا تتفق معى أن هذه الكلمات هى الكلمات الأكثر أهمية ؟ لأنه إن كان جاى قد أنجب أبناء آخرين فإنك بكل تأكيد لن تعرف ذلك إن اكتفيت بنشر الإعلان فى لندن أى فى التايمز والتليجراف والجارديان ويوركشاير بوست أو صحيفة هدرسفيلد ديلى إكزامينر " .

أسقط تشارلى شريحة كعكة عيد ميلاده ثانية فى طبقه ونظر إلى السيد بافرستوك قائلا : " يا إلهى ؛ إنها محقة ؛ أتعلم ذلك ؟ " .

" إنها ليست مخطئة بكل تأكيد " ، هكذا أقر بافرستوك قائلا وهو يتحرك فى شىء من عدم الارتياح فوق مقعده وأضاف : " وأنا أعتذر عن ضيق تصورى لأننى بالفعل كنت أعمى وأحمق عندما امتنعت عن تنفيذ تعليمات موكلى عندما نصحنى باستخدام حكمتى . لقد كان يعلم تماما أن جاى يمكن أن يكون له أطفال آخرون وأنهم سوف يكونون على الأرجح خارج حدود لندن " .

قالت دافنى : " أحسنت يا سيد بافرستوك . أعتقد أننى يجب أن أذهب إلى الجامعة بحثا عن أبنائه " .

قال تشارلى : " قد يكون مازال أمامنا وقت . على أية حال بقى أمامنا ستة أسابيع قبل أن تؤول الثروة إلى نيجيل . إذن دعونا نتحرك سريعا " وأضاف وهو ينظر إلى دافنى : " بالمناسبة ، شكراً " .

نهض تشارلى من مقعده وتوجه إلى أقرب هاتف وقال : " أول شىء سوف أحتاج إليه هو أفضل محامى فى أستراليا " ، نظر فى ساعته وأضاف : " ويفضل أن يكون شخصا لا يزعجه أن يستيقظ فى الصباح الباكر " .

تنحنح السيد بافرستوك .

على مدى الأسبوعين التاليين ظهرت إعلانات كبيرة فى كل صحف القارة الاسترالية . تولى مكتب محاماة ــ رحب السيد بافرستوك بترشيحه ــ فى سيدنى متابعة كل الإجراءات واللقاءات . فى مساء كل يوم كان تريفور روبرتس ــ الشريك الأكبر فى شركة المحاماة ــ يتصل بـ " تشارلى " هاتفيا ويبقى لساعات يحادثه ويخبره بآخر ما توصل إليه من خلال مكاتب الشركة فى سيدنى

وميلبورن بيرث وبريسبان وأدليد . ومع ذلك فبعد ثلاثة أسابيع من البحث مع الأشخاص الذين كانوا يزعمون بأنهم يملكون معلومات توصل روبرتس إلى ثلاثة أشخاص فقط ممن كانوا يملكون معلومات حقيقية . ومع ذلك فإنه عند استجوابهم بشكل مباشر من قبل الشركة تبين أنه ليست هناك صلة مباشرة تربطهم بأى فرد من أفراد عائلة ترينثام .

كان روبرتس قد اكتشف أن هناك سبعة عشر ترينثام مدونين فى السجل القومى وأن معظمهم كان من تسمانيا ومع ذلك لم يكن لأى منهم علاقة مباشرة بـ " جاى ترينثام " أو والدته بالرغم من أن هناك سيدة مسنة كانت قد هاجرت من ريبون بعد الحرب طالبت بحقها الشرعى بالفعل فى الحصول على ألف جنيه حيث تبين أنها ابنة عم من الدرجة الثالثة للسير رايموند .

شكر تشارلى السيد روبرتس على عمله الدؤوب وأخبره بأنه لا يعبأ بكم الموظفين المنوطين بهذا العمل ليلا ونهارا .

فى اجتماع مجلس الإدارة الأخيرة قبل حصول نيجيل ترينثام رسمياً على إرثه ، قدم تشارلى لزملائه تقريرا مختصرا عن آخر الأنباء التى تم التوصل إليها فى أستراليا .

قال نيومان : " يبدو هذا غير مشجع بالمرة بالنسبة لى ، إن كان هناك أى ترينثام لكان أو لكانت قد تعدت الثلاثين ولكانت قد طالبت بحقها " .

" أوافقك الرأى ولكن استراليا مكان شاسع كما أن هذا الشخص يمكن أن يكون قد غادر البلاد " .

قالت دافنى : " أنت لا تيأس أبدا ، أليس كذلك ؟ "

قال آرثر سيلوين : " ليكن ما هو مقدر . أشعر أن الوقت قد تأخر كثيرا لإبرام اتفاق مع ترينثام ، فإن كان هذا هو الحال فعلينا أن نضع مصلحة الشركة فى المقام الأول . لمصلحة ترامبر وعملائه ، أود أن أبحث إمكانية التوصل إلى أى حل ودى ـــ " .

قال تشارلى : " حل ودى ! إن الإجراء الوحيد الذى سوف يوافق عليه ترينثام هو أن يجلس مكانى فوق هذا الكرسى ويحصل على الأغلبية فى مجلس الإدارة بينما أقيم أنا فى إحدى دور المسنين " .

قال سيلوين : " قد يكون هذا هو الوضع بالفعل ، ولكننى يجب أن أذكرك يا سيدى الرئيس أننا نحمل على عاتقنا واجبا تجاه حاملى الأسهم " .

قالت دافنى : " هو محق . يجب أن تحاول يا تشارلى ، من أجل المصلحة طويلة المدى للشركة التى بنيتها " ، ثم أضافت فى هدوء : " مهما كان الأمر مؤلما " .

أومأت بيكى بالموافقة واستدار تشارلى وطلب من جيسيكا تحديد موعد مع ترينثام فى أقرب فرصة . عادت جيسيكا بعدها بدقائق قليلة لتخبر المجلس أن نيجيل ترينثام لا يود مقابلة أحد قبل اجتماع مجلس الإدارة فى مارس حيث سيسعده قبول استقالة كل أفراد المجلس بشكل شخصى .

" السابع من مارس ، عامان منذ وفاة والدته " ، هكذا ذكر تشارلى أعضاء المجلس .

قالت جيسيكا : " والسيد روبرتس يود محادثتك على الخط الآخر " .

نهض تشارلى وسار خارجا من الغرفة . فى اللحظة التى وصل فيها إلى الهاتف قبض على سماعة الهاتف وكأنه بحار غريق يقبض على حبل النجاة . " روبرتس ، هل هناك جديد ؟ " .

" جاى ترينثام " .

" ولكنه دفن فى قبر فى آشورست " .

" ولكن ليس قبل أن ينقل جثمانه من أحد سجون ميلبورن " .

" سجن ؟ كنت أظن أنه مات إثر إصابته بمرض السل " .

" لا أعتقد أنه يمكنك أن تموت إثر إصابتك بالسل إن كانوا قد وجدوك مشنوقا فى حبل طوله ستة أقدام يا سير تشارلى " .

" مشنوقا ؟ " .

قال المحامى : " لأنه قتل زوجته آنا هيلين " .

" ولكن هل كان لهما أية أبناء ؟ " .

" ليست هناك وسيلة لمعرفة الإجابة عن هذا السؤال " .

" ولم لا ؟ " .

" لأن التصريح بأسماء من درجة القرابة الأولى للمجرمين يعتبر ضد القانون " .

" ولكن لم ذاك ؟ " .

" لحماية الأبناء " .

" ولكن هذا يمكن أن يكون لصالحهم " .

" لقد سمعنا بهذه الحجة من قبل . وقد سبق أن نوهنا إلى أنه فى مثل هذه الحالة يجب أن نعلن فى كل أنحاء البلاد . والأسوأ من ذلك هو أن أى ابن لـ " ترينثام " يمكن أن يكون قد غير اسمه لأسباب مفهومة . ليس لدينا أمل كبير فى اقتفاء أثر ابنه أو ابنته .

ولكن ثق أننى مازلت أبذل جهدى فى هذا الصدد يا سير تشارلى " .

" حدد لى موعدا لكى ألتقى بمأمور الشرطة " .

" لن يحدث هذا فارقا يا سير تشارلى . إنه لن ... " ، هكذا بدأ روبرتس حديثه ولكن تشارلى كان قد أغلق الهاتف .

قالت بيكى وهى تساعد زوجها فى إعداد حقيبة سفره بعدها بساعة : " أنت مجنون " .

قال تشارلى موافقاً : " صحيح ولكن قد تكون هذه هى فرصتنا الأخيرة للسيطرة على الشركة ولست على استعداد لإضاعتها بالاكتفاء بتحدثى فى الهاتف . يجب أن أكون موجوداً هناك بنفسى . على الأقل إن فشلت سوف أدرك أنه فشلى أنا وليس فشل طرف ثالث " .

" ولكن ما الذى تأمل فى العثور عليه تحديدا عندما تصل إلى هناك ؟ " .

نظر تشارلى إلى زوجته وهو يشد حزام حقيبته : " أعتقد أن السيدة ترينثام وحدها هى التى تعرف الرد على هذا السؤال " .

الفصل

٤٤

بعد مرور أربع وثلاثين ساعة ، فى مساء دافئ مازال مضاء بأشعة الشمس ، وطئت الطائرة التابعة للرحلة رقم ٠١٢ مطار كينبسفور سميث فى سيدنى ، وشعر تشارلى أن كل ما يتوق إليه هو الاستغراق فى نوم عميق . بعدما مر بالجوازات قابله رجل طويل شاب مرتديًا سترة من اللون الأصفر الفاتح ، تقدم إليه وقدم نفسه باسم تريفور روبرتس ، المحامى الذى كان قد أوصى به بافرستوك . كان روبرتس له شعر سميك أشعث ملون وبشرة ضاربة إلى اللون الأحمر . وكان الرجل له بنية صلبة ، وبدا أنه يقضى أمسيات يوم السبت فى دور قضاء مختلفة . أسرع الرجل بدفع عربة تشارلى التى كانت تحمل حقائبه . سار دافعا إياها برشاقة نحو باب الخروج حيث كانت علامة " مرآب السيارات " .

قال روبرتس وهو يفتح الباب لـ " تشارلى " : " ليس هناك داع لأن تتركها فى فندق ، فقط اترك كل شىء فى السيارة " .

" هل هذه نصيحة قانونية ؟ " ، سأل تشارلى بذلك وقد تقطعت أنفاسه بالفعل وهو يسعى لمجاراة سرعة الشاب .

" هى بالفعل كذلك يا سير تشارلى ، لأنه ليس لدينا وقت لنضيعه " ثم أوقف العربة النقالة عند المنعطف بينما حمل السائق الحقائب ووضعها فى مؤخرة السيارة وصعد تشارلى وروبرتس فى المقعد الخلفى " . لقد دعاك السكرتير العام الإنجليزى لتناول الشراب فى السادسة فى منزله ولكننى فى نفس الوقت أريدك أن تكون على متن الطائرة المتجهة إلى ميلبورن مساء اليوم . لأنه لم يبق أمامنا سوى ستة أيام ، وليس لدينا وقت لنضيعه فى المدينة الخاطئة " .

أدرك تشارلى أنه سوف يعجب بالسيد روبرتس منذ اللحظة التى مد فيها إليه الرجل يده بملف سميك . بدأ تشارلى يصغى فى اهتمام إلى الشاب الصغير وهو يراجع معه الجدول المقترح على مدى الأيام الثلاثة التالية بينما كانت السيارة تشق طريقها نحو أطراف المدينة . ظل تشارلى مركزًا كل انتباهه إلى كل كلمة يقولها روبرتس بينما يطلب منه تكرار بعض التفاصيل أو طرح المزيد من التفاصيل من وقت إلى آخر فى محاولة للاعتياد على أسلوبه الذى كان يختلف عن أسلوب المحامين الإنجليز . عندما طلب تشارلى من السيد بافرستوك أن يرشح له أفضل محام فى سيدنى ، لم يكن يتصور أن يختار رجلا مختلفا تمام الاختلاف عنه .

بينما كانت السيارة تسرع على الطريق السريع نحو مقر السكرتير العام واصل روبرتس تقديم تقريره المفصل فاتحا الملف الثقيل فوق ركبتيه داخل السيارة . قال روبرتس : " سوف نحضر هذا الحفل فقط مع السكرتير العام ؛ لأننا ربما نكون بحاجة إلى مساعدة الرجل فى الأيام القليلة التالية لفتح بعض الأبواب محكمة الغلق ؛ ثم سوف نطير بعدها إلى ميلبورن لأنه فى كل مرة كان يتوصل فيها أحد الموظفين لدينا إلى أى خيط كنا ندرك أن نهاية هذا الخيط فى مكتب مأمور قسم المدينة هناك . لقد حددت لك موعدا للقاء المأمور صباح الغد ولكن يجب أن تعلم كما سبق وحذرتك أن المأمور لن يبدى أى تعاون مع رجالى " .

" ولم ذاك ؟ " .

" لقد عين مؤخرا فى هذه الوظيفة وهو يسعى لأن يثبت للجميع أنه لا ينحاز إلى أى طرف ، باستثناء علية القوم " .

" إذن ما هى مشكلته ؟ " .

قال روبرتس مبتسماً : " المشكلة المعروفة لكل أبناء الجيل الثانى من الأستراليين هى أنه يكره البريطانيين أو على الأقل يتظاهر بذلك . ولكن يبدو أن هناك فئة أخرى تثير استياءه بدرجة أكبر " .

" المجرمون ؟ " .

أجاب روبرتس : " كلا . فئة المحامين . أنت تعلم الآن أننا بصدد مهمة شاقة " .

" هل نجحت فى العثور على أية معلومات منه ؟ " .

" ولا كلمة . كان كل ما هو على استعداد للإفصاح عنه هو ما كان منشورا بالفعل فى السجلات العامة وهو أنه فى السابع

والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٢٦ ، بعد أن تملك الحنق من ترينثام ؛ أقدم على قتل زوجته بأن طعنها بالسكين عدة طعنات قاتلة وهى تستحم . ثم ثبتها فى مكانها تحت الماء لكى يتأكد من موتها ؛ سوف تجد كل هذه التفاصيل مدونة فى الصفحة رقم ست عشرة من ملفك . كما أننا عرفنا أيضا أنه فى الثالث والعشرين من عام ١٩٢٧ ؛ أعدم شنقا بالرغم من التماس الرحمة الذى تم التقدم به إلى الحاكم العام . ولكن ما عجزنا عن الكشف عنه تماما هو ما إن كان قد أنجب أية أبناء . كانت جريدة ميلبورن إيدج هى الجريدة الوحيدة التى قدمت تقريرا عن المحاكمة ولم يرد ذكر أى طفل . ومع ذلك ؛ فإن هذا أمر غير مثير للدهشة لأن القاضى لا يسمح أثناء المحاكمة بتورط الأطفال ما لم يكن الطفل يلقى أى ضوء على الجريمة " .

" ولكن ماذا عن اسم زوجته قبل الزواج ؛ ربما يلقى بعض الضوء على ما نحن بصدده " .

قال روبرتس : " هذا لن يجدى يا سير تشارلى " .

" فقط اذكر لى الاسم " .

" كان اسمها هو سميث ـ آنا هيلين سميث ؛ لذا لم نركز على الاسم كثيرا مثلما ركزنا على اسم ترينثام " .

" ولكنك لم تتوصل بعد إلى أى خيط قوى ؟ " .

قال روبرتس : " أخشى أنك محق . إن كان هناك طفل فى أستراليا فى ذلك الوقت يحمل اسم ترينثام فإننا لم نتمكن بالقطع من اقتفاء أثره . لقد استجوب طاقم الموظفين لدى كل الأشخاص الذين يحملون اسم ترينثام المسجلين فى السجلات القومية بما فى

ذلك كورابولكا ، وهو المكان الذى يصل تعداده إلى أحد عشر شخصا ويستغرق ثلاثة أيام للوصول إليه سيرا على الأقدام " .

" بالرغم من كل الجهود التى بذلتها يا روبرتس أعتقد أن هناك بعض الطرق التى لم تطرقها بعد " .

قال روبرتس : " ربما ، حتى إننى بدأت أتساءل أنه ربما يكون ترينثام قد غيَّر اسمه فور وصوله إلى أستراليا ، ولكن مأمور الشرطة أكد لى أن ملفه فى ميلبورن يحمل اسم جاى فرانسيس ترينثام " .

" وهذا يعنى أنه إن لم يكن قد غير اسمه فيمكننا اقتفاء أثر أبنائه " .

" ليس بالضرورة . لقد سبق وتعاملت مؤخرا مع قضية كان الزوج فيه قد سجن بسبب قضية قتل . فاستعادت الزوجة اسمها قبل الزواج وهو الاسم الذى أطلقته أيضا على ابنها الوحيد ثم أرتنى كيف أنها نجحت من خلال نظام التضليل من محو اسم زوجها من كل السجلات . وتذكر أيضا أنه فى هذه الحالة نحن بصدد التعامل مع طفل ولد ما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٢٥ أى أن التخلص من ورقة واحدة كان يمكن أن يكون كافيًا للتخلص من أى صلة تربط الابن أو الابنة بـ " جاى ترينثام . إن كان هذا هو الحال ، فإن البحث عن طفل فى بلد بحجم استراليا يمكن أن يكون بمثابة البحث عن إبرة فى كومة قش " .

قال تشارلى متذمرًا : " ولكن ليس أمامى سوى ستة أيام فقط " .

قال روبرتس بينما كانت السيارة تشق طريقها عبر مدخل السكرتير العام وتخفض من سرعتها : " لا تذكرنى ، لقد خصصت ساعة واحدة لهذا الحفل " ، ثم قال المحامى الشاب محذرا : " وكل ما أريده من السكرتير العام هو وعد بأنه سوف يتصل بمأمور

الشرطة فى ميلبورن قبل أن تلتقى أنت به غدا تطلب منه بأن يكون متعاونا معك قدر الإمكان . ولكن عندما أقول لك إننا يجب أن نغادر يا سير تشارلى فهذا يعنى أننا يجب أن نغادر " .

قال تشارلى : " مفهوم " ، وقد شعر أنه أصبح مجندًا ثانية فى إيدنبرج .

قال روبرتس : " بالمناسبة ، إن اسم السكرتير العام هو سير أوليفر ويليامز . عمره واحد وستون عاما وهو ضابط حرس سابق من مكان ما يدعى تنبريدج ويلز " .

وبعدها بدقيقتين كان الرجلان فى طريقهما نحو قاعة الاحتفال الكبيرة فى منزل السكرتير العام .

" أنا سعيد جدا بأنك تمكنت من الحضور يا سير تشارلى " ، هكذا قال رجل طويل أنيق مرتديًا بذلة مخططة ذات صديرية مزدوجة ورابطة عنق أنيقة .

" شكرا لك يا سير أوليفر " .

" وكيف كانت رحلتك إلى هنا يا عزيزى ؟ " .

" توقفنا فى خمس محطات لإعادة تمويل الطائرة بالوقود ولم أجد مطارا واحدا يعرف كيف يعد كوبا محترما من الشاى " .

قال السير أوليفر وهو يمد يده بكوب كبير من الشراب من أحد الصوانى المارة : " إذن إننا بحاجة إلى قدح . هذا يقودنى إلى التفكير بأنهم يعتقدون أن أحفادنا سوف يتمكنون من قطع الرحلة من لندن إلى سيدنى بدون توقف فى أقل من يوم واحد . ولكن رحلتك على أية حال أقل مشقة من الرحلة التى قطعها السكان الأوائل إلى هنا " .

" هذا تعويض بسيط " ، لم يجد تشارلى إجابة أكثر ملاءمة وهو يفكر فى التضارب الشاسع بين مرشح السيد بافرستوك فى أستراليا وممثل الملكة .

واصل السكرتير العام حديثه : " والآن أخبرنى ما الذى جاء بك إلى سيدنى ؟ هل تريد بناء أكبر عربة نقالة ثانية فى العالم هنا فى النصف الآخر من الكرة الأرضية ؟ " .

" كلا يا سير أوليفر ، لن أسبب لكم هذا الإزعاج . إننى هنا فى مقابلة خاصة فى محاولة لحل بعض المشاكل العائلية " .

" حسنا إن كان هناك أى شيء تريد فيه مساعدتى " ، هكذا قال المضيف ، وهو يلتقط كأسا من الشراب من إحدى الصوانى المتنقلة وأضاف : " فقط أخبرنى " .

" هذا لطف منك يا سير أوليفر لأننى بالفعل بحاجة إلى مساعدتك لحل أمر بسيط " .

سأله المضيف وهو يجوب بعينيه فى اتجاه الضيوف الذين وصلوا متأخرين عن الموعد : " وماذا تريد ؟ " .

" هل يمكنك أن تتصل بمأمور قسم ميلبورن وتطلب منه أن يبدى أكبر قدر من التعاون معى عندما أذهب لزيارته فى صباح الغد ؟ " .

قال السير أوليفر وهو ينحنى لتحية شخص عربى : " اعتبر أن المكالمة قد تمت بالفعل يا عزيزى . ولا تنس يا سير تشارلى ، أنك إن كنت بحاجة إلى أية مساعدة ، وأنا أعنى ذلك تماما ، فقط أخبرنى . آه ، سيدى السفير ، كيف حالك ؟ " .

فجأة شعر تشارلى بالإنهاك . قضى باقى الساعة واقفًا على قدميه يحادث بعض الدبلوماسيين والسياسيين ورجال الأعمال ، يبدو أن جميعهم كان قد سمع بشأن أكبر عربة نقالة فى العالم . وأخيرا شعر بقبضة شديدة على مرفقه فى إشارة من روبرتس إلى وجوب الرحيل إلى المطار .

فى طريق الرحلة إلى ميلبورن ، استطاع تشارلى بالكاد أن يبقى مستيقظا حتى بالرغم من أن عينيه لم تكونا مفتوحتين طوال الوقت . وفى إجابة عن السؤال الذى طرحه عليه روبرتس ، أكد تشارلى أن السكرتير العام قد وافق على الاتصال بمأمور الشرطة فى صباح اليوم التالى : " ولكننى لست واثقا من أنه سوف يقدر مدى أهمية هذا الطلب " .

قال روبرتس : " فهمت . إذن سوف أتصل بك فورا غدا صباحا . إن السير أوليفر ليس من بين من اشتهروا بتذكر وعودهم أثناء الحفلات . إن كان هناك أى شيء يمكننى أن أفعله لمساعدتك يا عزيزى وأعنى بذلك أى شيء فلا تتردد " ، وقد نجحت هذه العبارة فى اقتناص ابتسامة ناعسة من تشارلى .

فى مطار ميلبورن وجدوا سيارة أخرى فى انتظارهم . ركب تشارلى السيارة ولكنه فى هذه المرة استسلم للنوم ولم يستيقظ ثانية إلى أن وصل إلى أن توقفت السيارة أمام فندق ويندسور بعدها بعشرين دقيقة . أوصل مدير الفندق ضيفه إلى جناح الأمير إدوارد وبمجرد أن ترك تشارلى بمفرده خلع ملابسه واستحم وارتمى فى الفراش . وبعدها بدقائق قليلة كان قد غط فى نوم عميق . ومع ذلك فقد استيقظ كعادته قرابة الرابعة من صباح اليوم التالى .

نهض تشارلى فى عدم ارتياح من فراشه مدعوما بالوسائد المطاطية المتحركة التى لم تكن تثبت فى مكان واحد . قضى تشارلى الساعات الثلاث التالية فى مراجعة ملفات روبرتس . لم يكن الرجل يبدو أو يتحدث مثل بافرستوك ، ولكنه كان يتمتع بنفس القدر من الدقة وهو ما تجلى من خلال كل صفحة من صفحات الملف . بحلول الوقت الذى أسقط فيه تشارلى آخر ملف على الأرض كان قد أيقن تماما أن الشركة لم تأل جهدا فى بحثها وأنها قد غطت كل الجوانب . كان أمل تشارلى الوحيد هو المعلومات التى سوف ينتزعها من مأمور القسم .

أخذ تشارلى حماما باردا فى السابعة وإفطارا ساخنا بعد الثامنة بقليل . بالرغم من أن موعده الوحيد لذلك اليوم كان فى العاشرة فإنه كان قد ارتدى ملابسه بالفعل قبل موعد وصول روبرتس بكثير لالتقاطه من الفندق فى التاسعة والنصف صباحا ، مدركا بأنه إن فشل فى التوصل إلى أى جديد فهذا يعنى أن يطير عائدا إلى إنجلترا فى عصر نفس اليوم . على الأقل سوف يمنح هذا بيكى بعض الشعور بالرضا لأنه سيثبت أنها على صواب .

فى التاسعة وتسع وعشرين دقيقة ، طرق روبرتس باب الغرفة وتساءل تشارلى كم طال بالمحامى الشاب الوقوف فى الرواق منتظرا إياه . أخبره روبرتس بأنه قد اتصل بالفعل بمكتب السكرتير العام وأن السير أوليفر قد وعد بالاتصال بمأمور الشرطة خلال ساعة .

" حسنا . والآن أخبرنى بكل شيء عن الرجل " .

" مايك كوبر ، فى السابعة والأربعين من عمره ، متغطرس ووقح . تدرج فى السلم الوظيفى ولكنه مازال يرى أنه من الضرورى أن يثبت نفسه للجميع وخاصة فى وجود محام . ربما نظرا لأن

معدل الجرائم قد ارتفع فى ميلبورن مقابل معدل الجرائم فى إنجلترا " .

" لقد قلت بالأمس إنه من الجيل الثانى . إذن من أين أتى ؟ "

راجع روبرتس ملفه وقال : " لقد هاجر والده إلى أستراليا فى مطلع القرن من مكان ما يدعى دبيبتفورد " .

كرر تشارلى مبتسما : " ديبتفورد ؟ يكاد ينتمى إلى نفس المكان الذى نشأت فيه " ، ثم نظر فى ساعته وقال : " ألن نتحرك ؟ فأنا أكثر من مستعد للقاء السيد كوبر " .

بعد مرور عشرين دقيقة كان روبرتس يفتح باب مقر قسم الشرطة لموكله ، قوبلوا بمجموعة رسمية كبيرة من الصور لرجل فى أواخر الأربعينات من العمر . شعر تشارلى وقتها بكل يوم من أعوام عمره الأربعة والستين .

بعدما أخبر روبرتس ضابط الخدمة بأسمائهم ، بقيا منتظرين لبضع دقائق قبل أن يدخل تشارلى على مأمور القسم .

ارتسمت ابتسامة مترددة على شفتى مأمور القسم عندما صافح يد تشارلى . " لست واثقا من أن هناك الكثير مما يمكننى أن أسديه إليك يا سير تشارلى " ، هكذا بدأ كوبر وهو يشير إلى مقعد أمامه وأضاف : " بالرغم من أن السكرتير العام قد تكبد عناء محادثتى من أجلك " . تجاهل الرجل روبرتس الذى بقى واقفا على بعد أقدام قليلة خلف موكله .

قال تشارلى قبل أن يجلس على مقعده : " أعرف هذه اللهجة " .

أجاب كوبر الذى بقى هو الآخر صامتا : " عفوًا ؟ " .

" نصف عملة ملكية كما يصيح والدك فى لندن " .

" نعم أنت محق " .

" كما أنك من الطرف الشرقى للمدينة على ما أظن " .

قال المأمور : " ديبتفورد " .

" لقد عرفت ذلك فى اللحظة التى تفوهت فيها بأول كلمة " ، قال تشارلى وهو يغوص فى كرسيه الجلدى وأضاف : " أما أنا فمن وايت شابيل . إذن أين ولد هو ؟ " .

قال المأمور : " فى طريق بايشوب ، على بعد ـــ " .

" على بعد خطوات قليلة من أى مكان فى العالم " ، هكذا قال تشارلى فى لهجة شعبية ثقيلة .

لم يكن روبرتس قد نطق بكلمة واحدة ؛ ناهيك على أن يتقدم بأية نصيحة قانونية .

قال تشارلى : " أنت أحد مشجعى توتتنهام ؛ على ما أظن " .

قال كوبر فى حزم : " الأرسينال " .

قال تشارلى : " يا لها من سلة مهملات ، أرسنال هو النادى الوحيد الذى يقرأ أسماء الجمهور على لاعبيه " .

ضحك المأمور وقال : " أوافقك فى ذلك ، لقد كدت أفقد الأمل فيهم لهذا الموسم . إذن ما هو النادى الذى تشجعه أنت ؟ " .

" وستهام " .

" وكنت تأمل أن أبدى تعاونا معك ؟ " .

ضحك تشارلى : " حسنا لقد تركنا لكم فرصة الفوز علينا فى الكأس " .

قال كوبر ضاحكاً : " فى عام ١٩٢٣ " .

" لدينا الكثير من الذكريات فى اوبتون بارك " .

" حسنا لم أكن أتوقع أن أسمع منك مطلقا لهجة كهذه يا سير تشارلى " .

" نادنى بتشارلى ؛ كل أصدقائى ينادوننى بهذا الاسم . وهناك شىء آخر يا مايك ؛ هل تريدنى أن أطرد هذا الرجل من هنا ؟ " قال تشارلى ذلك وهو يشير بإبهامه إلى روبرتس الذى لم يكن قدم له الرجل بعد مقعدا .

قال المأمور : " قد يفيد هذا " .

" انتظرنى فى الخارج يا روبرتس " ، قال تشارلى ذلك بدون أن يكبد نفسه حتى عناء النظر تجاه محاميه .

قال روبرتس : " أمرك يا سير تشارلى " ، وبدأ يسير نحو الباب .

وبمجرد أن خرج روبرتس وبقى الرجلان بمفردهما ؛ مال تشارلى على الرجل وقال : " محامون محتالون ؛ كلهم سواء . يبالغون فى أتعابهم ويتعالون عليك ويكبدونك أتعابًا هائلة ويتوقعون أن تقوم أنت بكل العمل " .

ضحك كوبر وقال مازحاً : " وخاصة عندما تكون صاحب متاجر " .

ضحك تشارلى وقال : " لم أسمع هذا التعليق منذ أن غادرت وايت شابيل . أود أن أسر إليك يا مايك بصفتنا فتيين من الطرف الشرقى . هل يمكنك أن تمدنى بأية معلومات عن جاى فرانسيس ترينثام لا تسر بها له ؟ " ، قال تشارلى ذلك وهو يشير بإبهامه جهة الباب :

" أخشى أنه ليس هناك الكثير مما لم يعرفه روبرتس بالفعل ؛ لكى أكون منصفا له يا سير تشارلى " .

" تشارلى " .

" تشارلى . لقد عرفت بالفعل أن ترينثام قتل زوجته كما أنك يجب أن تكون قد عرفت أيضا أنه قد أعدم شنقا " .

" نعم ، ولكن ما أريد أن أعرفه يا مايك ، هل كان له أية أبناء ؟ " ، كتم تشارلى أنفاسه بينما بدا رجل الشرطة مترددا . نظر كوبر فى ورقة موضوعة أمامه على المكتب وقال : " ما أجده مدونا هنا أمامى هو زوجة متوفاة ، وابنة واحدة " .

حاول تشارلى ألا يقفز من فوق مقعده فرحا بهذه المعلومة وسأله : " هل يكشف الورق عن اسم الطفلة ؟ " .

قال المأمور : " مارجريت إيثيل ترينثام " .

كان تشارلى يعرف أنه ليس بحاجة لإعادة مراجعة الاسم فى الملفات التى قدمها له روبرتس فى مساء اليوم السابق . لم يرد ذكر لـ " مارجريت إيثيل ترينثام " فى أى منها . لقد كان يذكر تماما أسماء الثلاثة أشخاص الذين يحملون اسم ترينثام والذين ولدوا فى أستراليا ما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥ وقد كان جميعهم من الذكور .

خاطر سائلا : " تاريخ الميلاد ؟ " .

قال كوبر : " ليس لدىّ أية فكرة يا تشارلى . لم تكن الفتاة هى التى أقدمت على الجريمة " . ودفع الرجل الورقة إلى تشارلى لكى يقرأ كل شىء بنفسه وقال : " لم تكن مثل هذه التفاصيل تزعجهم كثيرا فى العشرينات " .

" هل هناك شىء آخر فى هذا الملف تظن أنه يمكن أن يساعد فتى من الطرف الشرقى ؟ " ، سأل تشارلى ذلك على أمل ألا يكون قد بالغ .

تفحص كوبر الأوراق الموضوعة فى ملف ترينثام لبعض الوقت قبل أن يرد قائلا : " هناك مدخلان فى سجلاتنا قد يكونان مهمين بالنسبة لك . المدخل الأول هو تلك الكلمات التى خطها المأمور الذى سبقنى بقلم رصاص ، والمدخل الآخر دُون فى وقت أسبق من قبل المأمور الذى سبقه ، أظن أن هذه المعلومات قد تكون ذات جدوى " .

" كلى آذان مصغية يا مايك " .

" هناك سيدة تدعى إيثيل ترينثام ـ والدة المتهم ـ جاءت لزيارة المأمور باركر فى الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٢٧ " .

قال تشارلى عاجزا عن إخفاء دهشته : " يا إلهى ! ولكن لماذا ؟ " .

" ليس هناك سبب مدون كما أنه ليس هناك أى سجل خاص بالزيارة أيضا . آسف " .

" والمدخل الثانى ؟ " .

" بشأن زائر آخر من إنجلترا جاء يسأل عن جاى ترينثام . ولكن فى هذه المرة فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٤٧ " ، نظر مأمور القسم إلى الملف ثانية لكى يتأكد من الاسم : " يدعى السيد دانيال ترينثام " .

سرت البرودة فى جسد تشارلى ، وهو يقبض بيديه على ذراع كرسيه .

" هل أنت على ما يرام ؟ " ، هكذا سأل كوبر ، وقد بدت عليه علامات القلق الصادقة .

قال تشارلى : " على خير ما يرام . إنه فقط تأثير عدم التوازن الناجم عن الطائرة " .

" وهل هناك أية أسباب تبرر زيارة دانيال ترينثام ؟ " .

قال المأمور : " وفقا للورقة الملحقة ، ادعى أنه ابن المتوفى " .

حاول تشارلى ألا يبدو عليه أى رد فعل . ورجع المأمور ليتكئ على مقعده وقال : " أنت الآن تعرف كل المعلومات التى أعرفها أنا " .

" لقد أبديت تعاونا كبيرا يا مايك " ، قال تشارلى ذلك وهو يدفع نفسه ليقف على قدميه قبل أن ينحنى ويصافح الرجل وأضاف : " وإن حدث وعدث ثانية إلى ديبتفورد ، ابحث عنى . سوف يكون من دواعى سرورى أن أصحبك لمشاهدة مباراة كرة قدم حقيقية " .

ابتسم كوبر وواصل تبادل القصص مع تشارلى وهما يتجهان نحو المصعد . وعندما وصلا إلى الدور الأرضى صحبه رجل الشرطة إلى درج مقر الشرطة حيث صافحه تشارلى باليد ثانية قبل أن يلحق بـ " روبرتس " فى السيارة .

" حسنا يا روبرتس ؛ يبدو أننا قد وجدنا لأنفسنا عملا نقوم به " .

" هل لى أن أسألك شيئا واحدا قبل أن نبدأ يا سير تشارلى ؟ " .

" تفضل " .

" ما الذى أصاب لهجتك فى الحديث ؟ " .

" إننى أحتفظ بهذه اللهجة لأشخاص معينين مثل السيد روبرتس والملكة ووينستون تشرشيل وعندما أقوم بخدمة عميل فى العربة النقالة . وقد شعرت اليوم أننى يجب أن أضيف مأمور قسم ميلبورن إلى قائمتى " .

" لا يمكن أن أتصور ما قلته عنى وعن مهنتى " .

" لقد قلت للرجل إنك تبالغ فى الأتعاب وأنك متعجرف وتتوقع منى أن أقوم أنا بكل العمل " .

" وهل صارحك برأيه ؟ " .

" لقد ظن أننى متحفظ بعض الشىء " .

قال روبرتس : " لا يصعب علىَّ تصديق ذلك ، ولكن هل تمكنت من اقتناص أية معلومات جديدة منه ؟ " .

قال تشارلى : " بكل تأكيد . يبدو أن جاى ترينثام كان له ابنة " .

كرر روبرتس عاجزا عن إخفاء دهشته : " ابنة ؟ ولكن هل أخبرك كوبر باسمها أو أى شىء عنها ؟ " .

" مارجريت إيثيل . ولكن هناك خيطا آخر وهو أن السيدة ترينثام – والدة جاى – جاءت لزيارة ميلبورن فى عام ١٩٢٧ . ولكن كوبر لا يعرف السبب " .

قال روبرتس : " يا إلهى . لقد حققت فى عشرين دقيقة أكثر مما حققناه نحن فى عشرين يوما " .

قال تشارلى بابتسامة : " ولكننى أتمتع بميزة التقدم فى السن " . والآن أين يمكن أن تكون قد أقامت سيدة إنجليزية متغطرسة فى هذه المدينة فى ذلك الوقت ؟ " .

قال روبرتس : " هذه المدينة ليست مسقط رأسى ، ولكن شريكى نيل ميتشيل يمكن أن يمدنا بمعلومات فى هذا الصدد . فقد انتقلت عائلته واستقرت فى ميلبورن منذ أكثر من مائة عام " .

" إذن ما الذى ننتظره ؟ " .

تجهم نيل ميتشيل عندما طرح عليه زميله السؤال وأقر قائلاً : " ليس لدى أية فكرة ؛ ولكن والدتى تعرف بكل تأكيد ". التقط سماعة الهاتف وبدأ يدير الرقم ويقول : " إنها اسكتلندية ؛ لذا سوف تحاول أن تدفعنا إلى تسديد ثمن المعلومة " . بقى تشارلى وتريفور روبرتس واقفين أمام مكتب ميتشيل منتظرين ؛ أحدهما فى صبر والآخر فى نفاد صبر . بعد المقدمة المعروفة لأى ابن يحادث والدته ، طرح عليها سؤاله وأصغى فى إمعان لإجابتها .

قال : " شكرا لك يا أمى ؛ أنت دائما بالغة النفع " وأضاف قبل أن يضع سماعة الهاتف : " أراك فى عطلة نهاية الأسبوع " .

قال تشارلى : " إذن ما الذى جرى ؟ " .

قال ميتشيل : " فيكتوريا كونترى كلوب كان على ما يبدو هو المكان الوحيد الذى يمكن أن تقيم فيه سيدة من الخلفية الاجتماعية للسيدة ترينشام فى العشرينات . فى تلك الأيام كان فى ميلبورن فندقان راقيان فقط وكان الفندق الآخر يقتصر فقط على رجال الأعمال " .

سأل روبرتس : " أما زال المكان موجودا ؟ " .

" نعم ؛ ولكنه فى حالة يرثى لها الآن . أتصور أنه أصبح باليا الآن " .

" إذن اتصل بالفندق مسبقا واحجز مائدة باسم السير تشارلى ترامبر . وشدد على كلمة " السير تشارلى " .

قال روبرتس : " بكل تأكيد يا سير تشارلى وما هى اللجهة التى سوف تستخدمها فى هذه المرة ؟ " .

" لا أستطيع أن أعرف الآن قبل أن أقيم الوضع " ، قال تشارلى ذلك وهما يتجهان نحو السيارة .

" عندما أفكر فى هذا الأمر أجده مثيرا للسخرية " ، قال روبرتس ذلك بعد أن بدأت السيارة تشق طريقها .

" مثيرًا للسخرية ؟ " .

قال روبرتس : " نعم . إن كانت السيدة ترينشام قد كبدت نفسها كل هذا العناء لكى تمحو أى أثر لحفيدتها وأى ذكر لها فى السجلات فلابد أنها تعاملت مع محام من الدرجة الأولى " .

" إذا ؟ " .

" إذا لابد أن هناك ملفا مدفونا فى مكان ما فى هذه المدينة يحتوى على كل المعلومات التى نبحث عنها " .

" ربما ؛ ولكن هناك شيئا واحدا أكيدا وهو أنه ليس لدينا وقت للبحث فى كل خزانات الملفات " .

عندما وصلا إلى فيكتوريا كلوب ؛ وجدا المدير واقفا فى البهو فى انتظار وصولهما . قاد ضيفيه المحترمين إلى مائدة هادئة فى مكان منعزل . وقد شعر تشارلى بالإحباط عندما لاحظ صغر سن المدير .

اختار تشارلى أغلى الأصناف ثمنا من قائمة المأكولات ثم اختار زجاجة شراب ترجع إلى عام ١٩٥٧ . وما هى إلا دقائق وكان قد استحوذ على انتباه كل الموجودين .

" وما الذى تخطط له هذه المرة يا سير تشارلى ؟ " ، هكذا سأل روبرتس الذى وطن نفسه على تناول الطعام المقدم .

قال تشارلى فى سخرية وهو يحاول أن يقطع قطعة اللحم القاسية الموضوعة أمامه : " صبراً أيها الشاب " . ولكنه استسلم فى النهاية وطلب حلوى مثلجة بالفانيليا موقنا بأنها لا يمكن أن تكون بهذا

السوء . وعندما حان وقت تقديم القهوة فى النهاية ، جاء أكبر الخدم سنا فى القاعة وتقدم ببطء لكى يقدم لهما سيجارا .

" سيجارة مونت كريستو من فضلك " قال تشارلى ذلك وهو يخرج جنيها من حافظته ويضعه على المائدة أمامه . قام الرجل بفتح مرطب هواء عتيق من أجله . سأله تشارلى : " تعمل هنا منذ فترة طويلة ، أليس كذلك ؟ " .

قال النادل بينما وضع تشارلى جنيها آخر فوق الجنيه الأول : " أتممت أربعين عاماً فى الشهر الماضى " .

" أمازلت تتمتع بذاكرة قوية ؟ " .

قال النادل وهو يحدق فى العملات الورقية : " أتمنى ذلك يا سيدى " .

" هل تذكر سيدة تدعى ترينشام ؟ سيدة إنجليزية ، منتصبة القامة ، ربما تكون قد أقامت هنا لأسبوعين فى عام ١٩٢٧ " ، قال تشارلى ذلك وهو يدفع العملات الورقية تجاه الرجل .

قال النادل : " أتذكرها ؟ لن أنساها أبدا . كنت أتدرب فى الفندق عندما جاءت ولم تكن تفعل شيئا طوال الوقت إلا الشكوى من نوعية الطعام والخدمة . لم تكن تشرب إلا الماء وكانت دائمة القول بأنها لا تثق فى الشراب وكانت ترفض دفع سعر كبير لشراء الشراب الفرنسى ، لذا كنت أجد نفسى دائما مضطرا إلى خدمتها . وفى نهاية الشهر كانت تصعد وتهبط بدون كلمة ولم تترك لى بقشيشا . بالتأكيد أذكرها جيدا " .

قال تشارلى : " هذه هى السيدة ترينشام بالفعل . ولكن هل كنت تعرف السبب الذى دفعها إلى الحضور إلى أستراليا فى المقام

الأول ؟ " ، ثم استخرج جنيها ثالثا من محفظته ووضعه فوق الجنيهين السابقين .

قال النادل فى حزن : " ليس لدى أية فكرة يا سيدى . لم تكن تتحدث أبدا مع أى شخص من الصباح حتى المساء كما أننى لست واثقا من أنه حتى السيد سنكلير سميث يمكن أن يجيب عن هذا السؤال " .

" السيد سنكلير سميث ؟ " .

أشار النادل إلى ركن بعيد من الغرفة كان يجلس فيه رجل مسن ذو شعر رمادى ، كان الرجل يضع فوطة مائدة فى ياقته . وكان منهمكاً فى تناول قطعة كبيرة من اللحم . قال النادل : " إنه المالك الحالى ، كان والده هو الرجل الوحيد الذى كانت تتحدث معه السيدة ترينشام بشىء من التحضر " .

قال تشارلى : " شكرا لك . لقد كنت مجديا للغاية " . وضع النادل الجنيهات الثلاثة فى جيبه .

" هل تفضلت بإخبار المدير أننا نود التحدث معه ؟ " .

قال النادل الكبير الذى أغلق المرطب وهرع ليخبر المدير : " بالتأكيد يا سيدى " .

" المدير أصغر كثيرا من أن يتذكر ـــ " .

قال تشارلى وهو يطفئ سيجارته : " فقط أبق عينيك مفتوحتين يا سيد روبرتس ، سوف ألقنك حيلة أو اثنتين لم يسبق لك تعلمها فى مدرسة الحقوق " .

وصل المدير إلى المائدة التى كانا يجلسان عليها : " لقد طلبت رؤيتى يا سير تشارلى ؟ " .

" كنت أتساءل إن كان السيد سنكلير سميث يمكنه أن يأتى لتناول الشراب معنا ؟ " ، قال تشارلى ذلك وهو يقدم للرجل بطاقته .

" سوف أخبره فى الحال يا سيدى " ، هكذا قال المدير على الفور وهو يستدير ويسير فى اتجاه المائدة المقابلة .

قال تشارلى : " يمكنك أن تعود إلى بهو الاستقبال الآن يا روبرتس ، ولأننى أظن أن سلوكى على مدى النصف ساعة المقبلة يمكن أن يكون منافيا لأخلاقياتك المهنية " ، ونظر فى الاتجاه المقابل من الغرفة ووجد الرجل العجوز يتفحص بطاقته .

تنهد روبرتس ونهض من مقعده وغادر المكان .

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى السيد سنكلير سميث المتلئتين . دفع نفسه من فوق مقعده وذهب للانضمام إلى مائدة ضيفه الإنجليزى .

قال فى لهجة إنجليزية ثقيلة وهو يمد يده الممتلئة لصافحة تشارلى : " سنكلير سميث " .

قال تشارلى : " إنه كرم منك أن توافق على الانضمام إلينا يا عزيزى . أنا أعرف أبناء وطنى بمجرد أن تقع عيناى عليهم . هل يمكننى أن أقدم لك الشراب ؟ " ، انسحب النادل على الفور لإحضار الطلب .

" هذا كرم منك يا سير تشارلى . أتمنى أن يكون فندقى المتواضع قد قدم لك غداء معقولا " .

قال تشارلى : " ممتاز " وأضاف وهو ينفث دخان سيجارته : " لقد أوصانى أحد الأشخاص بالحضور إليك " .

قال سنكلير سميث وهو يحاول إخفاء دهشته : " أوصاك أحد الأشخاص . هل لى أن أعرف اسم هذا الشخص " .

" إحدى عماتى كبيرات السن ؛ السيدة إيثيل ترينثام " .

" السيدة ترينثام ؟ يا إلهى السيدة ترينثام ؛ إننا لم نقابل السيدة منذ وفاة والدى " .

تجهم تشارلى عندما عاد النادل حاملا كأسين كبيرين من الشراب .

" أتمنى أن تكون على ما يرام يا سير تشارلى " .

قال تشارلى : " فى أفضل حال . لقد طلبت منى أن أذكرك بها " .

أجاب سنكلير سميث وهو يزج بكأس الشراب فى بطنه المنتفخة كالبالون : " ويا له من لطف منها ويا لها من ذاكرة قوية ؛ لقد كنت شابا صغيرا فى ذلك الوقت وكنت قد بدأت لتوى العمل فى الفندق . لابد أنها الآن .... " .

قال تشارلى : :" تخطت التسعين . هل تعرف أن العائلة لا تعرف إلى الآن سبب مجيئها لزيارة ميلبورن " .

قال سنكلير سميث وهو يحتسى الشراب : " ولا أنا " .

" لم تتحدث إليها أبدا ؟ " .

قال سنكلير سميث : " كلا ، أبداً بالرغم من أن أبى وعمتك كانا يتحادثان طويلا ؛ ولكنه لم يسر لى يوما بما كانت تقوله له " .

حاول تشارلى أن يخفى شعوره بالإحباط عند تلقى هذه المعلومة وقال : " حسنا ؛ إن لم تكن أنت تعرف ما جاءت من أجله فأنا واثق من أن أحدا لا يعلمه " .

قال سينكلير سميث : " لست واثقاً من ذلك . سليد يمكن أن يعرف ولكنه قد فقد عقله تماما " .

"سليد ؟ " .

" نعم إنه رجل من يوركشاير كان يعمل فى الفندق لدى أبى فى الوقت الذى كان لدينا فيه سائق . إن السيدة ترينشام كانت تصر دائما على الاستعانة بخدمات سليد طوال فترة إقامتها فى الفندق . كانت تقول دائما إنها لا تريد أى شخص آخر يمكن أن تأتمنه على القيادة " .

" أمازال يعمل هنا ؟ " ، هكذا سأل تشارلى وهو ينفث سحابة دخان أخرى .

قال سنكلير سميث : " يا إلهى ؛ كلا لقد تقاعد منذ عدة سنوات . وأنا لست واثقا إن كان مازال على قيد الحياة " .

" هل تسافر إلى البلدة القديمة كثيرا هذه الأيام " ، هكذا سأله تشارلى بعد أن تأكد أنه قد استخرج كل المعلومات المجدية التى يمكن أن يكتسبها من هذا المصدر .

" كلا ؛ للأسف ؛ ماذا عن .... " .

على مدى العشرين دقيقة التالية ؛ استسلم تشارلى للاسترخاء وأخذ يستمتع بسيجارته وهو يستمع إلى أحاديث سنكلير سميث من سقوط الإمبراطورية وحتى الحالة المتردية لفريق الكريكيت الإنجليزى . وأخيرا طلب تشارلى فاتورة الحساب وعندها قام المالك وتوارى بعيدًا .

أسرع النادل العجوز بالعودة إلى تشارلى فى اللحظة التى وقع فيها بصره على الورقة النقدية الأخرى التى وضعها تشارلى .

" هل أنت بحاجة إلى شىء آخر يا سيدى ؟ " .

" هل تعرف رجلا يدعى سليد ؟ " .

" وولتر سليد العجوز ؛ إنه سائق الفندق " .

" نعم هذا هو الرجل المقصود " .

" لقد تقاعد منذ سنوات " .

" أعلم ذلك ولكن أمازال على قيد الحياة ؟ " .

قال النادل : " ليس لدىَّ فكرة . آخر ما سمعته عنه هو أنه يقيم فى منطقة ما تسمى بالارات " .

" شكرا لك " ، هكذا قال تشارلى وهو يطفئ سيجارته ويخرج جنيهًا آخر ويذهب للانضمام إلى روبرتس فى البهو .

قال مصدرا أوامره لمحاميه : " اتصل بمكتبك فى الحال . اطلب منهم اقتفاء أثر شخص ما يدعى وولتر سليد . قد يكون مقيما فى مكان ما يسمى بالارات " .

أسرع روبرتس فى اتجاه الهاتف ، بينما كان تشارلى يدعو أن يكون الرجل لا يزال على قيد الحياة . عاد محاميه بعد دقائق قليلة قائلاً : " هل لى أن أعرف ما الذى تخطط له يا سير تشارلى ؟ " ، سأل وهو يقدم له قطعة ورق تحمل عنوان وولتر سليد مطبوعًا بخط كبير .

قال تشارلى وهو يقرأ المعلومة : " لا أنوى خيرا ؛ هذا أكيد لست بحاجة إليك فى هذه الزيارة ؛ ولكننى بحاجة إلى السيارة . أراك فى المكتب ؛ ولست أدرى متى تحديدا " . لوح تشارلى للمحامى وهو يدفع الباب المتأرجح تاركا روبرتس بمفرده عند مدخل الفندق .

مد تشارلى يده بالعنوان إلى السائق الذى تفحص العنوان جيدا ثم قال : " ولكن هذا المكانُ على بعد مائة ميل من هنا " .

" إذن ليس لدينا وقت لنضيعه ، أليس كذلك ؟ " .

أدار السائق محرك السيارة وانطلق يشق طريقه . مر بجوار ملعب ميلبورن للكريكيت حيث لمح تشارلى أن أحد الفريقين كان قد حقق نتيجة ٢ إلى ١٤٧ . وقد أزعجه أنه فى رحلته الأولى إلى استراليا لم يكن لديه وقت كاف لكى يشاهد إحدى مباريات الكريكيت . استمرت الرحلة فى الطريق الشمالى السريع على مدى ساعة ونصف الساعة مما منح تشارلى وقتا كافيا للتفكير فى الطريقة التى سوف يتعامل بها مع السيد سليد مع افتراض أنه لم يفقد عقله تماما كما أخبره السيد سنكلير سميث . بعدما تخطوا علامة بالارات ، دخل السائق محطة لتزويد السيارة بالوقود . بعد أن ملأ العامل خزان الوقود وقدم للسائق بعض التوجيهات ، استغرق الطريق ما يقرب من خمس عشرة دقيقة أخرى قبل أن تقف السيارة أمام منزل صغيرة محاط بشرفة وسط قطعة من الأراضى الزراعية رثة الحال .

قفز تشارلى من السيارة وسار فى ممر قصير مغطى بالأعشاب قبل أن يطرق الباب الأمامى . انتظر لبعض الوقت قبل أن تفتح له الباب سيدة مسنة مرتدية مريلة وثوبًا ذا ألوان صاخبة يكاد يصل إلى الأرض .

سأل تشارلى : " السيدة سليد ؟ " .

أجابت السيدة وهى تحدق فيه بارتياب : " نعم " .

" هل يمكن أن أتحدث مع زوجك ؟ "

سألت السيدة المسنة : " لماذا ؟ هل أنت من الخدمة الاجتماعية ؟ " .

قال تشارلى : " كلا أنا من إنجلترا وقد جئت لزوجك بهدية من السيدة إيثيل تريننثام ؛ التى توفيت مؤخرا " .

قالت السيدة سليد : " يا له من لطف منك . تفضل بالدخول " ، ثم قادت تشارلى نحو مطبخ حيث وجد رجلا مسنا ؛ مرتديا سترة صوفية وقميصًا ناصع البياض وبنطالاً ، وكان غافيا فى كرسيه أمام المدفأة .

" هناك رجل قطع كل الطريق من إنجلترا إلى هنا لكى يقابلك يا وولتر " .

" ماذا تقولين ؟ " ، هكذا قال الرجل وهو يرفع أصابعه النحيلة ذات العظم البارز لكى يمحو آثار النوم عن عينيه .

كررت الزوجة : " جاء رجل لزيارتك من إنجلترا حاملا هدية من السيدة تريننثام " .

" لقد كبرت الآن على القيادة لها " ، ثم أومض بعينيه المتعبتين إلى تشارلى .

" كلا يا وولتر ، أنت لا تفهم . إنه قريب جاء من إنجلترا لكى يقدم لك هدية . لقد توفيت السيدة تريننثام " .

" توفيت ؟ " .

أخذ كل منهما يحدق فى تشارلى فى تساؤل بينما مد يده وأخرج كل ورقة نقدية كان يحملها فى محفظته ، وأعطاها للسيدة سليد .

بدأت تعد العملات ببطء بينما واصل وولتر سليد تحديقه فى تشارلى ، مما أشعره باضطراب شديد وهو يقف فوق أرضية منزلهم الحجرية الخالية .

قالت وهى تعطى المال لزوجها : " خمسة وثمانون جنيهاً يا وولتر " .

سأل : " ولم كل هذا ؟ وبعد كل هذا الوقت ؟ " .

قال تشارلى : " لقد أديت لها خدمة جليلة ، وقد أرادت فقط أن تكافئك على هذه الخدمة " .

بدأ الرجل ينظر إلى تشارلى بمزيد من التشكك .

قال : " ولكنها دفعت لى فى وقتها " .

قال تشارلى : " أعلم ذلك ، ولكن ... " .

قال : " وقد حافظت على سرها " .

قال تشارلى : " هذا سبب آخر دفعها لأن تكون أكثر امتنانا لك " .

" هل تزعم أنك قطعت كل هذا الطريق من إنجلترا لكى تمنحنى خمسة وثمانين جنيها ؟ هذا يفوق التصديق يا عزيزى " وفجأة بدا الرجل أكثر صحوة .

قال تشارلى وقد شعر أنه قد بدأ يفقد المبادرة : " كلا ، كلا لدىّ العشرات من الهبات الأخرى التى قمت بتوصيلها بالفعل قبل أن آتى إلى هنا ولكننى وجدت مشقة فى العثور عليك " .

" لست مندهشا . لقد توقفت عن القيادة منذ عشرين عاما " .

قال تشارلى بابتسامة : " أنت من يوركشاير أليس كذلك ؟ أنا أعرف هذه اللهجة جيدا " .

" نعم يا عزيزى وأنت من لندن . أى أنه لا يمكن الوثوق بك . أخبرنى إذن ما هو السبب الحقيقى الذى جاء بك إلى هنا ؟ لأننى واثق أن السبب لم يكن منحى خمسة وثمانين جنيها " .

قال تشارلى وهو يجازف بكل شىء : " لا أستطيع الوصول إلى الفتاة الصغيرة التى كانت بصحبة السيدة ترينشام عندما أوصلتها . لقد تركت لها ثرورة طائلة " .

قالت السيدة سليد : " هذا أمر مثير يا ولتر " .

ظل وجه السيد سليد جامدا بدون أدنى استجابة .

" من واجبى أن أعثر على الفتاة وأخبرها بأمر هذه الثروة الطائلة " .

بقى وجه سليد جامدًا بينما ظل تشارلى يبذل جهده فأضاف : " وقد فكرت أنك الشخص الوحيد الذى يمكن أن يرشدنا إليها " .

أجاب سليد : " كلا لن أفعل . والأكثر من ذلك هو أنه يمكنك أن تستعيد مالك " ، وأضاف وهو يلقى بالعملات الورقية عند قدم تشارلى : " ولا ترنى وجهك فى هذه الأنحاء ثانية ولا تزعجنى بتلك القصص الواهية عن الثروة . أوصلى السيد إلى الباب يا إلسى " .

انحنت السيدة سليد والتقطت النقود بعناية وأعادتها إلى تشارلى . عندما مدت يدها إليه بالورقة الأخيرة ؛ قادته فى هدوء إلى باب المنزل الأمامى .

قال تشارلى : " أعتذر يا سيدة سليد لم أكن أقصد الإساءة إلى زوجك " .

قالت السيدة سليد : " أعلم يا سيدى ، ولكن وولتر شديد الاعتزاز بنفسه . يعلم الله ما الذى كان يمكن أن نفعله بهذا المال " . ابتسم تشارلى هو يعيد العملات الورقية فى جيب مريلة السيدة العجوز ثم يعيد إصبعه سريعا على شفتيه ثم قال : " إن لم تخبريه ، فلن أخبره أنا " . انحنى محييا إياها قبل أن يستدير ويسير فى الممر القصير فى اتجاه السيارة .

قالت فى صوت يسمع بالكاد : " أنا لم أر الفتاة الصغيرة من قبل مطلقاً . تجمد تشارلى فى مكانه وأضافت هى : " ولكن وولتر

صحب ذات مرة سيدة متعجرفة إلى دار الأيتام فى منتزه هيل فى ميلبورن . لقد عرفت ذلك لأننى كنت أسير بصحبة البستانى فى ذلك الوقت وقد أخبرنى بذلك " .

استدار تشارلى لكى يشكرها ولكنها كانت قد أغلقت الباب بالفعل واختفت فى منزلها .

ركب تشارلى السيارة بعد أن أصبح لا يملك بنسًا واحدًا فى جيبه واسما واحدا فقط عاد به . كان يعلم أن الرجل العجوز كان يمكن أن يحل له اللغز كاملا . إن لم يكن يملك أية معلومات لكان قد رد قائلا بأنه ليس لديه معلومات وليس أنه لن يدلى بمعلومات .

أخذ يلعن حماقته عدة مرات فى طريق رحلته الطويلة إلى المدينة .

" روبرتس ؛ هل هناك دار أيتام فى ميلبورن ؟ " ، كانت هذه هى كلمات تشارلى الأولى وهو يدخل مكتب محاميه .

قال نيل ميتيشل قبل أن يمنح شريكه فرصة التفكير : " سانت هيلدا . نعم إنها فى منتزه هيل ؛ ولكن لماذا تسأل ؟ " .

قال تشارلى ؛ وهو ينظر فى ساعته : " هذا هو ما أبحث عنه . إنها قرابة السابعة صباحا فى لندن وأنا منهك للغاية ؛ سوف أذهب إلى الفندق وأحاول الحصول على قسط من الراحة . وفى هذه الأثناء أريدك أن تبحث عن رد لبعض الأسئلة القليلة . بداية ؛ أريد أن أعرف كل شىء عن سانت هيلدا بداية بأسماء كل العاملين هناك ممن كانوا يعملون ما بين عامى ١٩٢٣ ، و١٩٢٧ ؛ من رأس الدار وحتى أصغر خادم فيها . وإن كان أحدهم قد بقى على قيد الحياة

يجب أن تبحثوا عنه لأننى أريد أن أقابله وفى خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة " .

بدأ اثنان من الموظفين فى مكتب ميتيشل يدونون فى سرعة محمومة كل كلمة قالها السير تشارلى .

" كما أريد أن أعرف أيضا أسماء كل طفل مسجل فى دار الأيتام ما بين عامى ١٩٢٣ ، و١٩٢٧ . تذكر أننا نبحث عن فتاة لا يمكن أن يكون عمرها قد تخطى العامين فى ذلك الوقت وقد يكون اسمها هو مارجريت إيثيل ترينثام . وعندما تعثر على الإجابات ؛ أيقظنى أيًا كان الوقت " .

الفصل

٤٥

وصل تريفور روبرتس إلى فندق تشارلى قبل الثامنة بعدة دقائق من صباح اليوم التالى ليجد موكله بصدد تناول إفطار كبير من البيض والطماطم والشروم واللحم . وبالرغم من أن روبرتس لم يكن قد حلق ذقنه وكانت علامات الإنهاك تبدو عليه فإنه كان حاملا للأنباء السعيدة .

" لقد اتصلنا بمديرة سانت هيلدا ؛ السيدة كولفر ؛ وقد أبدت تعاونا كبيرا " . ابتسم تشارلى . " يبدو أن هناك تسعة عشر طفلا قد سجلوا فى دار الأيتام ما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٢٧ . ثمانية ذكور وإحدى عشرة فتاة . من بين الإحدى عشرة فتاة توصلنا إلى أن تسعة منهن كان لهن أب وأم على قيد الحياة فى ذلك الوقت . وقد نجحنا فى الاتصال بسبعة من بين هؤلاء التسعة ، كان لخمس منهن أقارب قد بقوا على قيد الحياة ممن أكدوا لنا نسبهن ؛ وكانت واحدة قد توفى والداها فى حادث سيارة أما الأخرى فكانت تنتمى إلى

سكان أستراليا الأصليين . أما الاثنتان الباقيتان فقد كانتا أكثر صعوبة فى اقتفاء أثرهما لذا أرى أنك يجب أن تزور سانت هيلدا وتدرس الملفات بنفسك .

" وماذا عن العاملين فى دار الأيتام ؟ " .

" لم يبق منهم على قيد الحياة سوى الطاهية التى كانت موجودة فى تلك الفترة والتى تقول إنها لم يسبق لها أن رأت فى سانت هيلدا فتاة تحمل اسم ترينثام أو أى اسم مشابه كما أنها أيضا لا تذكر اسم مارجريت أو إيثيل . إذن أملنا الوحيد قد يكون الآنسة بينسون " .

" الآنسة بنسون ؟ "

" نعم ؛ لقد كانت مديرة دار الأيتام فى ذلك الوقت وهى تعيش الآن فى إحدى دور المسنين المتميزة فى مكان ما يدعى مابيل لودج فى الطرف المقابل من المدينة " .

قال تشارلى : " ليس سيئا يا سيد روبرتس ، ولكن كيف نجحت فى التعامل مع السيدة كولفر فى تلك الفترة القصيرة ؟ " .

" لجأت إلى بعض الوسائل المألوفة فى مدرسة حقوق وايت شابيل وليس هارفارد يا سير تشارلى " .

نظر إليه تشارلى فى حيرة .

" يبدو أن سانت هيلدا تستعد لجمع تبرعات لشراء أتوبيس صغير — " .

" أتوبيس نقل صغير ؟ " .

" هم بحاجة ملحة إليه فى دار الأيتام من أجل الرحلات — " .

" إذن لقد نوهت إلى — " .

" ـــ يمكننا أن نسهم بشراء إطار أو اثنين " .

" ـــ وقد أبدوا فى المقابل استعدادا للـ .... " .

" ـــ تعاون . تحديدا " .

" أنت تتعلم بسرعة يا روبرتس ، أؤكد لك ذلك " .

" وبما أنه لم يعد لدينا المزيد من الوقت لكى نضيعه ، فيجب أن تسافر إلى سانت هيلدا فى الحال لكى تراجع هذه الملفات " .

" ولكن الآنسة بينسون مازالت أفضل ما يمكن أن نراهن عليه الآن " .

" أوافقك يا سير تشارلى ، ولقد خططت لزيارتها فى عصر اليوم ، بعد الانتهاء من سانت هيلدا . بالمناسبة عندما كانت الآنسة بينسون مديرة للدار اشتهرت باسم "دراكولا أو مصاصة الدماء " ليس فقط من قبل الأطفال وإنما أيضا من قبل العاملين . أى أنه ليس هناك سبب يدعونا للتفاؤل بأنها سوف تبدى تعاونا أكثر من ولتر سليد " .

عندما وصل تشارلى إلى دار الأيتام ، كانت مديرة الدار فى انتظاره عند الباب لتحيته . كانت السيدة كولفر ترتدى ثوبا أخضر بدا وكأنه قد كوى لتوه . كانت قد قررت على ما يبدو أن تتعامل مع ممولها المحتمل الجديد على أنه نيلسون روكفيلر لأن كل ما كان ينقص شرف استقباله هو السجادة الحمراء الممتدة من الباب الأمامى حتى باب مكتبها .

نهض اثنان من المحامين ـ اللذين كانا قد عكفا طوال الليل على دراسة الملفات الخاصة بمواعيد المهجع ونظام الدار والمطبخ والمزايا والعيوب ـ واقفين بمجرد أن دخل تشارلى وتريفور روبرتس الغرفة .

سأل روبرتس : " هل أحرزنا المزيد من التقدم فيما يخص الاسمين المتبقيين ؟ " .

" نعم لقد انحسر البحث فى اثنين فقط ، أليس هذا مدهشا ؟ " ، قالت السيدة كولفر ذلك وهى تدور فى أنحاء الغرفة وتزيح أية فوضى فى طريقها وأضافت : " كنت أتساءل إن ـــ " .

قال شاب صغير بدت علامات الإنهاك فى عينيه : " ليس لدينا دليل بعد ، ولكن إحداهما تنطبق عليها الأوصاف تماما . لم نتوصل إلى أية معلومات خاصة بالفتاة قبل أن تتم عامين . ولكن الأهم أنها قد سجلت فى سانت هيلدا فى نفس الوقت الذى كان النقيب ترينثام ينتظر فيه تنفيذ حكم الإعدام " .

قاطعت السيدة كولفر الحديث قائلة : " كما أن الطاهية أيضا تتذكر عندما كانت تعمل فى تلك الفترة غاسلة للصحون والأطباق أن الفتاة كانت قد جاءت فى منتصف الليل بصحبة سيدة أنيقة صارمة الملامح ذات لهجة مميزة والتى قامت وقتها بـ ـــ " .

قال تشارلى : " ها هى السيدة ترينثام . يبدو أن اسم الفتاة وحده هو الذى لا يحمل اسم ترينثام " .

تفقد الموظف الشاب كل الملاحظات الموضوعة أمامه على المائدة وقال : " كلا يا سيدى ، لقد سجلت هذه الفتاة تحديدا تحت اسم الآنسة كاثى روس " .

ارتعدت فرائص تشارلى بينما هرع روبرتس والسيدة كولفر لمساعدته على الجلوس على أحد المقاعد المريحة فى الغرفة . فكت السيدة كولفر رابطة عنقه قليلا وياقة قميصه .

سألت : " هل أنتِ على ما يرام يا سير تشارلى ؟ لا تبدو لى فى حالة ـــ " .

قال تشارلى : " لقد كانت دائما أمام عينى طوال الوقت . لقد كنت أعمى كالوطواط تماما مثلما تقول لى دافنى " .

قال روبرتس : " لست واثقا من أننى قد فهمت ما تعنيه " .

" لست واثقا أنا نفسى " ، استدار تشارلى لكى ينظر إلى مبلغ الأنباء الذى كانت قد ارتسمت عليه علامات القلق .

سأل : " هل تركت سانت هيلدا لكى تلتحق بجامعة ميلبورن ؟ " .

فى هذه المرة راجع الموظف الأوراق وقال : " نعم يا سيدى . لقد التحقت بالدراسة فى عام ١٩٤٢ وأتمت تعليمها عام ١٩٤٦ " .

" حيث درست تاريخ الفن فى إنجلترا " .

عاد الموظف لكى يراجع ثانية الأوراق المنثورة أمامه قائلاً : " هذا صحيح يا سيدى " ، قال ذلك وهو عاجز فى هذه المرة عن إخفاء دهشته .

" وهل كانت تمارس التنس ؟ " .

" نعم لعبت مباراة واحدة باسم الجامعة " .

سأل تشارلى : " ولكن هل كانت تجيد الرسم ؟ " .

قالت السيدة كولفر : " نعم وقد كانت بارعة فى الرسم يا سير تشارلى . مازلنا نحتفظ بإحدى لوحاتها فى غرفة المائدة . إنها صورة لمنظر طبيعى استوحته من سيلسى على ما أظن . بل إننى يمكن أن أذهب إلى القول بأن ـــ " .

" هل تسمحين لى بمشاهدة الصورة يا سيدة كولفر ؟ " .

" بالطبع يا سير تشارلى " ، استخرجت المديرة المفتاح من الدرج العلوى من مكتبها وقالت : " من فضلك اتبعنى " .

نهض تشارلى من مقعده فى غير اتزان وسار بصحبة السيدة كولفر خارجا من مكتبها بطول الرواق إلى أن وصلا إلى غرفة المائدة . ثم فتحت بشىء من الجهد باب الغرفة . ظلت علامات الدهشة مرتسمة على وجه تريفور روبرتس الذى كان يسير خلف تشارلى ولكن بعد أن منع نفسه من طرح أية أسئلة .

وبمجرد أن دخلا غرفة المائدة ؛ توقف تشارلى وقال : " يمكننى أن أعرف لوحاتها بمجرد أن تقع عينى عليها " .

" عفوا يا سير تشارلى ! "

" لا تزعجى نفسك يا سيدة كولفر بما قلته " ، قال تشارلى ذلك وهو يقف أمام الصورة ويحدق فى المنظر الطبيعى ودرجات اللونين البنى والأخضر .

" إنها لوحة جميلة ؛ أليس كذلك يا سير تشارلى ؟ إنها تجيد استخدام الألوان . بل يمكننى حتى أن أقول إن ـــ " .

" هل تقبلين يا سيدة كولفر مقايضة هذه اللوحة بالأتوبيس ؟ " .

قالت السيدة كولفر بدون تردد : " إنها مقايضة عادلة تماما ؛ بل إننى واثقة من ـــ " .

" وهل لى أن أطلب منك أن تدونى خلف الصورة اسم الآنسة كاثى روس مع ذكر تاريخ إقامتها فى سانت هيلدا ؟ " .

" سوف يسعدنى ذلك يا سير تشارلى " ، تقدمت السيدة كولفر ورفعت الصورة من مكانها ثم أدارت الإطار لكى تريه للجميع . ما أراده السير تشارلى كان ـ بالرغم من أنه قد خبا على مر السنين ـ مدونا بالفعل ومقروءا بالعين المجردة .

قال تشارلى : " أعتذر بشدة يا سيدة كولفر . يجب الآن أن أوفيك حقك " ، ثم استخرج محفظته من جيبه الداخلى ووضع شيكا على بياض ومد به يده للسيدة كولفر .

" ولكن ما هو المبلغ الذى يجب أن تدونه ..... ؟ " ، هكذا بدأت المديرة حديثها وقد ارتسمت عليها علامات الذهول .

" أى مبلغ مطلوب ؟ " ، كان هذا هو كل ما أجاب به تشارلى بعد أن وجد أخيرا وسيلة لإسكات السيدة كولفر .

عاد ثلاثتهم إلى مكتب المديرة حيث كان هناك إناء من الشاى فى انتظارهم . كان أحد الموظفين قد انهمك فى إعداد نسختين لكل المعلومات المدونة فى ملف كاثى بينما اتصل روبرتس بدار المسنين التى تقيم فيها الآنسة بينسون لكى يخبر المدير بأنهم سوف يصلون إلى هناك فى غضون ساعة . فور استكمال المهمتين ؛ شكر تشارلى السيدة كولفر على تعاونها وحياها مودعا . بالرغم من أنها بقيت ملتزمة الصمت عاجزة عن الحديث لبعض الوقت فإنها نجحت فى النهاية فى أن تجيبه قائلة : " شكرا لك يا سير تشارلى . شكرا لك " .

أخذ تشارلى يتفحص الصورة عن كثب وهو يسير خارجا من دار الأيتام ومنها إلى الطريق . وعندما ركب السيارة ثانية طلب من سائقه أن يحرس اللوحة الثمينة بحياته .

" بالطبع يا سيدى ولكن إلى أين الآن ؟ " .

" دار مابيل لودج للمسنين فى الجزء الشمالى " ، هكذا قال روبرتس الذى كان قد ركب بجوار تشارلى وأضاف : " سوف تشرح لى ما حدث تحديدا فى سانت هيلدا لأننى بالفعل فى حالة ذهول تامة " .

" سوف أخبرك بقدر ما أعرف أنا شخصيا " ، قال تشارلى ذلك وقد بدأ يقص عليه كيف التقى بـ " كاثى " للمرة الأولى منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا فى ذلك الحفل الذى أقامه فى منزله فى ميدان إيتون . ثم واصل قصته بدون أن يقاطعه روبرتس إلى أن تم تعيين الآنسة روس مديرة فى شركة ترامبر وكيف أنها منذ حادث انتحار دانيال أصبحت غير قادرة على تذكر الكثير عن ماضيها لأنها لم تستعد تماما الأحداث التى وقعت لها فى الماضى قبل أن تأتى إلى إنجلترا . أثارت أول استجابة للمحامى أمام هذه المعلومة دهشة تشارلى .

" ثق أن الآنسة روس لم تحضر إلى إنجلتر بمحض المصادفة وهو ما ينطبق أيضا بتقدمها بطلب التحاق بالعمل فى ترامبر " .

قال تشارلى : " ما الذى ترمى إليه ؟ " .

" لابد أنها تركت أستراليا بهدف محاولة العثور على والدها إيمانا بأنه ربما مازال قد بقى على قيد الحياة بل وربما كان مازال يعيش فى إنجلترا . لابد أن هذا هو السبب الأساسى الذى دفعها للمجىء إلى إنجلترا حيث اكتشفت أن هناك صلة ما تربط بين أبيها وبينكم . فإن نجحت فى العثور على الصلة التى تربط بين أبيها وسفرها إلى إنجلترا وترامبر ؛ فسوف تحصل على دليلك ؛ الدليل الذى يثبت أن كاثى روس هى فى واقع الأمر مارجريت إيثيل ترينثام " .

قال تشارلى : " ولكننى لا أملك أية فكرة عن نوع هذه الرابطة . والآن بعد أن أصبحت كاثى لا تذكر الكثير عن ماضيها فى أستراليا قد لا أكشف عن هذه الرابطة أبدا " .

قال روبرتس : " حسنا ؛ دعنا نأمل أن تقودنا الآنسة بينسون إلى الاتجاه الصحيح ، بالرغم من أننى لم أسمع عنها خيرا فى سانت هيلدا كما سبق وحذرتك " .

" إن كان وولتر سليد صعب المراس ؛ فإنه لن يسهل علينا أن نستخرج منها أية معلومة . من الواضح أن السيدة ترينثام قد صبت لعناتها على كل من تقابله " .

قال المحامى : " أوافقك . لذا لم أكشف للسيدة كامبل ـ مديرة مابيل لودج ـ عن سبب رغبتنا فى زيارة الدار . لم أجد أى داع لإخبار الآنسة بينسون بسبب رغبتنا فى لقائها . سوف يمنحها هذا وقتا لإعداد كل الإجابات اللازمة عن أسئلتنا " .

أومأ تشارلى بالموافقة ثم سأل : " ولكن هل توصلت إلى أية وسيلة تمكننا من التعامل معها ؟ لأننى بكل تأكيد فشلت فى التوصل إلى طريقة للتعامل مع وولتر سليد " .

" كلا لم أتوصل إلى أية وسيلة . سوف يملى علينا الموقف ما يجب علينا عمله بشكل تلقائى على أمل أن تبدى تعاونا . ولكن يعلم الله وحده نوع اللهجة التى يجب أن تحدثها بها هذه المرة يا سير تشارلى " .

وبعدها بدقائق كانت السيارة تشق طريقها عبر سور حديدى ضخم بطول ممر مورف الظلال يقود إلى قصر فخم يمتد مساحة عدة فدادين من الأراضى الخاصة .

قال تشارلى : " لا يمكن أن تكون الإقامة هنا رخيصة " .

قال روبرتس : " أوافقك الرأى ، كما أنه يبدو للأسف أنهم ليسوا بحاجة إلى مينى باص " .

توقفت السيارة عند باب فخم من خشب البلوط . قفز تريفور روبرتس وانتظر إلى أن يوافيه تشارلى قبل أن يضغط على الجرس .

لم ينتظرا طويلا قبل أن تفتح لهما ممرضة شابة الباب . أسرعت الممرضة باقتيادهما بطول الرواق ذى الأرضية اللامعة إلى مكتب المدير .

كانت السيدة كامبل ترتدى زيا أزرق تقليدياً بياقة وأطراف أكمام بيضاء تتناسب تماما مع وظيفتها . رحبت بـ " تشارلى " وتريفور روبرتس فى لهجة اسكتلندية ثقيلة . وما لم تكن أشعة الشمس الدافئة تتخلل النوافذ ؛ لكان لـ " تشارلى " كل العذر فى أن يتصور أن مديرة مابيل لودج لم تكن مدركة أنها قد غادرت اسكتلندا فى المقام الأول .

بعد انتهاء مراسم التقديم الأولية ؛ سألتهم السيدة كامبل كيف يمكن أن تساعدهم .

" كنت آمل أن يسمح لى بالتحدث مع أحد النزلاء هنا "

سألت : " بالطبع يا سير تشارلى ولكن هل لى أن أعرف اسم النزيل المقصود ؟ " .

قال تشارلى : " الآنسة بينسون هى ـــ " .

" ولكن ألا تعرف ما الذى ألم بها ؟ " .

سأل تشارلى : " ماذا ألم بها ؟ " .

" نعم . لقد توفيت الآنسة بينسون الأسبوع الماضى . بل إننا دفناها يوم الخميس " .

للمرة الثانية فى نفس اليوم لم يتمالك تشارلى نفسه وأسرع تريفور روبرتس بالإمساك بمرفق موكله وقاده إلى أقرب كرسى .

قالت المديرة : " أنا آسفة ، لم أكن أعلم أنه كان يربطك بها صداقة قوية " . لم يتفوه تشارلى بكلمة وقالت : " وهل قطعت كل هذا الطريق من لندن إلى هنا لكى تقابلها ؟ " .

قال تريفور روبرتس : " وهل جاء أى أحد من إنجلترا لزيارة الآنسة بينسون مؤخرا ؟ " .

قالت المديرة بلا تردد : " كلا لم تكن تتلقى سوى عدد محدود من المكالمات مؤخرا . مكالمة أو اثنتين من أدليد ولكن ليس من إنجلترا " .

" وهل سبق وذكرت لك أى شىء يخص فتاة تدعى كاثى روس أو مارجريت ترينثام ؟ " .

فكرت السيدة كامبل مليا للحظة ، قالت أخيرا : " كلا ، على الأقل ؛ ليس حسب ما أذكر " .

" إذن أعتقد أننا يجب أن نغادر يا سير تشارلى ؛ ليس هناك أى داع لأن نضيع المزيد من وقت السيدة كامبل " .

قال تشارلى فى هدوء : " أنت محق وشكرا لك أيتها المديرة " . ساعد روبرتس تشارلى على النهوض على قدميه وقاده بطول الرواق نحو الباب الأمامى .

سألت المديرة : " هل ستعود إلى إنجلترا فى وقت قريب يا سير تشارلى ؟ " .

" نعم ؛ ربما غدا " .

" هل يمكنك - إن لم يكن فى هذا أى إزعاج لك - أن ترسل خطابا من أجلى فور عودتك إلى لندن ؟ " .

قال تشارلى : " سوف يسعدنى هذا " .

قالت المديرة : " لم أكن لأزعجك بهذه المهمة بالمرة فى الظروف العادية ، ولكن الأمر يتعلق بالآنسة بينسون مباشرة ـــ " .

توقف الرجلان عن السير وأخذا يحدقان فى وجه السيدة الاسكتلندية . توقفت هى الأخرى وقبضت يديها سويا ووضعتهما أمامها .

" إننى لا أريد أن أوفر ثمن البريد كما تدرك يا سير تشارلى وهو ما يتهمنى به معظم الناس . وإنما على العكس تماما ؛ إننى أريد أن أعيد لعائل الآنسة بينسون ما بقى له من مال " .

قال تشارلى وروبرتس فى صوت واحد : " عائل الآنسة بينسون ؟ " .

قالت المديرة وهى تقف بطول خمسة أقدام ونصف بوصة : " أجل ليس من عادتنا فى مابيل لودج أن نطالب القيمين عندنا بتسديد نفقاتهم بعد الوفاة . هذا لن يكون منصفا ؛ ألا تتفق معى فى ذلك ؟ " .

" بالطبع أيتها المديرة " .

" بالرغم من أننا نصر على تسديد ثلاثة أشهر مقدما ؛ فإننا نرد المال المتبقى عندما يتوفى النزيل . بعد تسديد كل النفقات المطلوبة المستحقة عليه كما تفهم " .

قال تشارلى وهو يحدق فى السيدة وقد تهلل الأمل فى عينيه : " أفهم تماما " .

" إذن هلا تفضلت بالانتظار للحظة سريعة ؛ سوف أذهب لإحضار الخطاب من مكتبى " ؛ ثم استدارت وتوجهت إلى غرفتها على بعد ياردات من الرواق .

قال تشارلى : " ادع الله " .

" لقد بدأت أتضرع إليه بالفعل " .

عادت السيدة كامبل بعد لحظات قليلة حاملة مظروفا قدمته لـ " تشارلى " . بخط يد أنيق كانت الكلمات التالية مدونة : " إلى مدير كاوتز وشركاه ؛ ستراند ؛ لندن دبليو سى ٢ " .

" أتمنى ألا يكون طلبى هذا قد أزعجك يا سير تشارلى " .

" بل إنه يسعدنى لأكثر مما تتصورين يا سيدة كامبل " ، هكذا قال لها تشارلى مؤكدا وهو يودعها .

بما أن عادا إلى السيارة ؛ قال روبرتس : " سوف يكون من غير الأخلاقى أن أنصحك ما إن كان يجب أو لا يجب أن تفتح الخطاب يا سير تشارلى . ومع ذلك — " .

ولكن تشارلى كان قد فتح المظروف بالفعل واستخرج محتواه .

كان هناك شيك باثنين وتسعين جنيها ملحق بالخطاب الذى كان يحمل كل تفاصيل بنود النفقات منذ عام ١٩٥٣ وحتى عام ١٩٦٤ ؛ الخاصة بإجمالى التكاليف الكاملة للآنسة ريتشيل بينسون .

" ليبارك الله الاسكتلنديين ونشأتهم الصالحة " ، قال تشارلى ذلك عندما رأى الاسم الذى صدر له الشيك .

الفصل

٤٦

" إن أسرعت يا سير تشارلى فسوف تلحق بالرحلة القادمة " ، قال تريفور روبرتس ذلك عندما وقفت السيارة أمام مدخل الفندق .

قال تشارلى : " إذن سوف أسرع لأننى أريد أن أعود إلى لندن بأسرع ما يمكن " .

" سوف أنهى إجراءات المغادرة فى الفندق ثم أتصل بالمطار لتغيير حجزك " .

" حسنا . بالرغم من أنه يمكننى أن أوفر يومين فإن هناك بعض الأمور التى لم تتضح كلية بعد والتى يجب أن أستوضحها فى لندن " .

قفز تشارلى داخل السيارة حتى قبل أن يتمكن السائق من أن يصل إلى الباب لكى يفتحه له . هرع إلى غرفته وألقى كل مقتنياته داخل حقيبته . عاد إلى بهو الاستقبال فى الفندق بعد ثلاث عشرة دقيقة وسدد فاتورة الحساب وأسرع نحو مدخل الفندق مغادرًا بعد

خمس عشرة دقيقة . لم يكن السائق وقتها فى انتظاره عند الباب وإنما كان الباب مفتوحا بالفعل .

بعد أن أغلق ثالث باب ؛ قاد السائق السيارة مسرعا مغادرا الفندق فى الطريق السريع .

قال روبرتس : " جواز السفر والتذكرة " .

ابتسم تشارلى وهو يخرجهما من جنيبه الداخلى كما لو كان طفلا قد أنجز واجبه .

" جيد . لنأمل أن نلحق بالطائرة التالية " .

قال تشارلى : " لقد صنعت المعجزات " .

قال روبرتس : " شكرا لك يا سير تشارلى ، ولكن يجب أن تفهم أنك بالرغم من كونك نجحت فى جمع كمية كبيرة من الأدلة لدعم قضيتك فإنها ليست أدلة دامغة . وبالرغم من أنه يمكن أن تكون قد اقتنعت أنت واقتنعت أنا بأن كاثى روس هى مارجريت إيثيل ترينثام ؛ فإنه بعد وفاة الآنسة بينسون وعجز الآنسة روس عن تذكر كل تفاصيل ماضيها لا يمكن توقع ما يمكن أن تؤول إليه القضية أمام القضاء " .

قال تشارلى : " أفهم ما تقول ، ولكن على الأقل أصبح لدى الآن شىء أراهن عليه . منذ أسبوع واحد مضى لم أكن أملك شيئا " .

" هذا صحيح . وبعد أن راقبتك وأنت تتفاوض وتتصرف على مدى الأيام القليلة الماضية أود أن أقول لك إن فرصتك سوف تتعدى الخمسين بالمائة . ولكن مهما فعلت ؛ لا تدع هذه الصورة تغيب عن ناظرك ؛ الأمر مقنع تماما مثل بصمة اليد . واحرص دائما على الاحتفاظ بخطاب السيدة كامبل فى مكان آمن إلا أن تنجح فى عمل

نسخة . ثم احرص على إعادة شيك المبلغ المتبقى إلى كاوتز . نحن لا نريد أن تعتقل لسرقة اثنين وتسعين جنيها . والآن هل هناك أى شيء يمكننى أن أقوم به من أجلك ؟ " .

" نعم يمكنك أن تسعى للحصول على تقرير مكتوب من وولتر سليد يعترف فيه بأنه قد صحب السيدة ترينثام وفتاة صغيرة تدعى مارجريت إلى سانت هيلدا وبأنها قد غادرت بدونها . كما يمكنك أيضا أن تقتنص منه تاريخا محددا " .

قال روبرتس : " قد لا تكون هذه المهمة سهلة بعد مقابلتك له ؟ " .

" حسنا ، على الأقل حاول . ثم حاول أن تعرف ما إن كانت الآنسة بينسون قد تلقت أى مقابل مادى من السيدة ترينثام قبل عام ١٩٥٣ وحاول أيضا أن تعرف حجم هذه المدفوعات وتواريخها . أعتقد أنها كانت تتلقى بيانا ربع سنوى بكشف حسابها من البنك على مدى خمسة وعشرين عامًا مما يفسر قدرتها على بقاء آخر أيامها فى هذه الدار الفخمة " .

" أوافقك الرأى تماما ولكن أكرر ثانية هذا ليس مضمونا لأن البنوك لا تسمح بالكشف عن الحسابات الخاصة " .

قال تشارلى : " أوافقك ، ولكن السيدة كولفر يمكن أن تكشف لك عن الراتب الحقيقى الذى كانت تتلقاه الآنسة بينسون عندما كانت مديرة للدار وإن كان مستوى الحياة الذى كانت تعيشه يفوق دخلها . على أية حال ، يمكنك فى أى وقت أن تبحث عن احتياجات سانت هيلدا وتسعى لتلبيتها تماما مثل الينى باص " .

بدأ روبرتس يدون ملاحظات بمطالب تشارلى الذى واصل إخباره بقائمة من المقترحات .

" إن نجحت فى استخراج معلومات من سليد وتثبت أن الآنسة بينسون كانت تتلقى مقابلاً ماديًا من السيدة ترينثام ، سوف أكون بذلك فى وضع أقوى كثيرا يسمح لى بأن أطالب نيجيل ترينثام بتقديم تبرير لسبب إنفاق والدته على سيدة فى نصف الكرة الأخرى ما لم يكن هذا من أجل ابنة أخيه الأكبر " .

وعد روبرتس قائلا : " سوف أبذل جهدى وإن توصلت إلى أى شىء فسوف أتصل بك فى لندن فور عودتك " .

قال تشارلى : " شكرا لك . هل هناك شىء تريدنى أن أقوم به ؟ " .

" نعم يا سير تشارلى . هل يمكنك أن تبلغ أحر تحياتى للعم إرنست ؟ " .

" العم إرنست ؟ " .

" نعم ، إرنست بافرستوك " .

" أحر تحياتك . كلا سوف أقاضيه بتهمة المحسوبية " .

" ولكننى أود أن أقول إن قضيتك خاسرة يا سير تشارلى لأن المحسوبية ليست جريمة . ولكن لكى أكون محقا ، فإن أمى هى الشخص الذى يجب أن يلقى عليه اللوم . لقد أنجبت ثلاثة ذكور ، كلهم محامون . والمحاميان الآخران يمثلانك الآن فى بيرث وبريسبين " .

صعدت السيارة المنطعف المؤدى إلى المطار . قفز السائق واستخرج الحقيبة من السيارة بينما جرى تشارلى فى اتجاه نضد التذاكر وسار روبرتس خلفه بخطوة واحدة حاملا لوحة كاتى .

قالت الفتاة مؤكدة لـ " تشارلى " : " نعم . مازال بوسعك أن تلحق بالرحلة المبكرة الذاهبة إلى لندن . ولكن أرجوك أسرع لأنهم

سيغلقون الأبواب فى غضون دقائق قليلة " . تنهد تشارلى فى ارتياح واستدار لكى يلوح مودعا تريفور روبرتس بينما وضع السائق الحقيبة فوق الميزان .

" اللعنة ، هل يمكنك إقراضى عشرة جنيهات ؟ " .

استخرج روبرتس الجنيهات من محفظته فأخذها منه تشارلى وأعطاها إلى السائق بسرعة . رفع السائق قبعته وعاد إلى سيارته .

" كيف يمكننى أن أشكرك بما يكفى على كل ما قمت به ؟ " ، قال وهو يصافح تريفور روبرتس باليد .

قال روبرتس : " اشكر العم إرنست وليس أنا ، لقد طلب منى أن أسقط كل ما فى يدى من أعمال لكى أتفرغ لقضيتك " .

وبعدها بعشرين دقيقة كان تشارلى يصعد على متن الرحلة كنتاس ١٠٢ فى أول مرحلة من مراحل عودته إلى لندن .

عندما أقلعت الطائرة بعد موعدها المحدد بعشر دقائق ، استقر تشارلى فى مقعده وحاول بعد المعرفة التى اكتسبها على مدى الأيام الثلاثة الماضية أن يربط الأحداث والتفاصيل ببعضها البعض . لقد أدرك أن روبرتس محق فى نظريته وأن كاتى لم تلتحق بالعمل عندهم بمحض المصادفة . لابد أنها اكتشفت أن ثمة علاقة تربط بين ترامبر وترينثام حتى بالرغم من أنه لم ينجح فى الوصول إلى طبيعة هذه الصلة أو السبب التى دفعها لكتم الأمر عنهم فى المقام الأول . كتمان الأمر ...... ؟ هل يحق له أن يقول هذا التعليق ؟ إن كان فقط قد أخبر دانيال لربما كان قد بقى على قيد الحياة حتى ذلك اليوم . لأن هناك شيئا واحدا أكيدا وهو أن كاتى لم يكن من الممكن أن تعرف أن دانيال كان أخًا غير شقيق لها ، بالرغم من أنه أصبح

الآن يخشى من أن تكون السيدة ترينشام قد توصلت إلى ذلك وأخبرت حفيدها بتلك الحقيقة المؤلمة " .

قال تشارلى فى نفسه : " تلك المرأة اللعينة " .

قالت سيدة فى منتصف العمر كانت تجلس إلى يساره : " عفوًا " .

قال تشارلى : " كلا ، آسف ، لم أكن أتحدث عنك " . عاد تشارلى يهيم وسط أفكاره . لابد أن السيدة ترينشام قد توصلت بشكل ما إلى تلك الحقيقة . ولكن كيف ؟ هل ذهبت كاثى هى الأخرى للقائها ؟ أم أنها عرفت بمحض المصادفة من إعلان الخطبة الذى نشر فى التايمز والذى أنذرها بوجود علاقة غير شرعية بين كاثى ودانيال بدون أن يدرى أى منهما بذلك ؟ مهما كان السبب ، فقد أدرك تشارلى أن فرصته الآن فى لملمة كل أجزاء القصة ووضعها مع بعضها البعض قد أصبح بعيدا بعد وفاة دانيال والسيدة ترينشام وعدم قدرة كاثى على تذكر ما حدث لها فى الماضى قبل مجيئها إلى إنجلترا .

لقد كان هذا مثيرا للسخرية ، فكر تشارلى : كل ما كنت أبحث عنه فى أستراليا كان كامنا فى ملف داخل العقار رقم واحد من شارع تشيلسيا تحت اسم " كاثى روس ، طلب التحاق بالعمل " . ولكن ليس الحلقة المفقودة . قال له روبرتس : " ابحث عنها وسوف تتوصل إلى الصلة التى تربط كاثى روس بـ " جاى ترينشام " " . أومأ تشارلى موافقا .

لقد أصبحت كاثى مؤخرا قادرة على تذكر بعض الأشياء عن الماضى ولكنها مع ذلك لم تكن أشياء ذات قيمة عن ماضيها المبكر فى أستراليا . وقد واصل الدكتور أتكينز تحذيره لـ " تشارلى " بألا

يشق عليها لأنه كان سعيدًا بالتقدم الذى كانت تحرزه وخاصة فيما يتعلق باستعدادها للتحدث بلا تحفظ عن دانيال . ولكنه مع ذلك يجب أن يلح عليها الآن إن كان يسعى لإنقاذ شركة ترامبر ؟ قرر تشارلى أن أول مكالمة هاتفية يجب أن يجريها بمجرد أن تطأ قدمه إنجلترا هى الاتصال بالدكتور أتكينز .

جاءه صوت من مكبر الصوت الداخلى فى الطائرة : " هذا قائد الطائرة يحدثكم ، يؤسفنى أن أخبركم أننا نواجه مشكلة فنية بسيطة . سوف يلحظ أى جالس منكم فى الجزء الأيمن من الطائرة أننى قد أغلقت المحركات اليمنى من الطائرة . أؤكد لكم أنه ليس هناك أية مدعاة للقلق لأن هناك ثلاثة محركات مازالت تعمل بكامل كفاءتها . وعلى أية حال فإن هذه الطائرة يمكن أن تستكمل رحلتها اعتماداً على محرك واحد فقط " . سعد تشارلى بسماع هذا النبأ . استطرد القائد حديثه قائلاً : " ومع ذلك فإن سياسة الشركة تقضى - مع وضع الحرص على سلامتكم فى المقام الأول - بأنه حال وقوع أى عيب كهذا يجب أن نهبط فى أقرب مطار لإصلاح العيب فى الحال " . تجهم تشارلى . " وبما أننا لم نصل بعد إلى نقطة المنتصف فى رحلتنا إلى سنغافورة فإن برج المراقبة قد نصحنى بوجوب العودة إلى ميلبورن فى الحال " . سادت موجة من الاستياء داخل الطائرة .

أسرع تشارلى بحساب الوقت المسموح له بالبقاء فيه بعيدا عن لندن ثم تذكر أن الطائرة التى كان قد حجز فيها فى البداية كانت ستقلع فى الثامنة وعشرين دقيقة من مساء ذلك اليوم .

فتح حزام أمانه واستخرج صورة كاثى من معلق الدولاب أمامه ثم سار نحو أقرب مقعد من مقاعد الدرجة الأولى من كابينة القيادة

فى الطائرة وكل ما يشغل باله فى ذلك الوقت كيفية استعادة حجزه على الطائرة الأخرى المتوجهة إلى لندن .

وطئت الطائرة كنتاس ، الرحلة رقم ١٠٢ ، أرض مطار ميلبورن فى السابعة وسبع دقائق . كان تشارلى أول من نزل من الطائرة ، جرى بأسرع ما يمكن ولكن تشبثه بصورة كاثى تحت إحدى ذراعيه أبطأ من سرعته وسمح لعدد كبير من الراكبين ـ ممن كانوا يسرعون على ما يبدو لنفس الهدف ـ بتخطيه . ولكنه مع ذلك عندما نجح فى الوصول إلى نضد الحجز كان ترتيبه الحادى عشر فى الصف . أخذ الصف يتضاءل شيئا فشيئا بمجرد أن ينجح كل شخص فى حجز مقعد له على الطائرة . ولكن بحلول دوره كان كل ما حصل عليه هو حجز احتياطى . بالرغم من توسله للموظف المسئول ، لم ينجح فى التوصل إلى شىء . كان هناك العديد من الركاب ممن كانوا يعتبرون عودتهم إلى لندن فى أقرب وقت لا يقل أهمية عن تشارلى .

سار ببطء عائدا إلى نضد كنتاس وعرف أن طائرة الرحلة ١٠٢ تخضع لإصلاح فى المحرك وأنها لن تقلع ثانية إلا فى صباح اليوم التالى . فى الثامنة وأربعين دقيقة أخذ يراقب الطائرة كوميت التى كان قد حجز لنفسه عليها فى بادئ الأمر وهى تحلق فى السماء بدونه .

حجز لكل الركاب غرف نوم لتلك الليلة فى الفنادق المحلية التابعة للمطار قبل أن يتم نقل حجز تذاكرهم إلى الرحلة المزمع إقلاعها فى العاشرة وعشرين دقيقة من صباح اليوم التالى .

كان تشارلى قد استيقظ وارتدى ملابسه وعاد إلى المطار قبل موعد الإقلاع بساعتين ، وعندما دعى الركاب للصعود على متنها ؛ كان

هو أول الصاعدين . إن سارت الأمور وفق الجدول ـ فكر تشارلى ـ فسوف تطأ الطائرة مطار هيثرو فى وقت مبكر من صباح يوم الجمعة مما سيمنحه يوماً كاملاً ونصف اليوم قبل انتهاء فترة سماح العامين التى حددها السير رايموند فى وصيته .

تنفس الصعداء لأول مرة عندما أقلعت الطائرة ؛ وتنفس الصعداء للمرة الثانية عندما تخطت الطائرة نصف الطريق المتجه إلى سنغافورة وتنفس للمرة الثالثة عندما رست فى مطار شانجى قبل الموعد المحدد بدقائق قليلة .

غادر تشارلى الطائرة ؛ فقط لكى يمدد ساقيه قليلا . عاد ليجلس فى مقعده استعدادا للإقلاع بعدها بساعة واحدة . رست الطائرة فى المرحلة الثانية من الرحلة من سنغافورة إلى بانكوك فى مطار دون موانج بعد الموعد المحدد بثلاثين دقيقة فقط ولكن الطائرة بقيت واقفة فى صف انتظار مضمار الإقلاع على مدى ساعة كاملة .

وقد عرف فيما بعد أنه كان هناك نقص فى عدد الموظفين فى برج المراقبة . وبرغم التأخير ، لم يكن تشارلى يشعر بقلق حقيقى ولكن هذا لم يمنعه من تفقد ساعته كل بضع دقائق . أقلعت الطائرة بعد الموعد المحدد بساعة كاملة .

عندما هبطت الطائرة فى مطار بالام فى نيودلهى ؛ بدأ يتجول على مدى ساعة فى السوق الحرة لحين تزود الطائرة بالوقود . كان قد شعر بالسأم بعد أن فرض عليه ثانية أن يشاهد نفس الساعات والعطور والمجوهرات وهى تباع للركاب الأبرياء بأسعار كان يعلم أنها تزيد خمسين بالمائة عن سعرها الحقيقى . عندما مرت الساعة ؛ توجه إلى مكتب الاستعلامات لكى يستفسر عن سبب التأخر .

" يبدو أن هناك مشكلة خاصة بوقت الراحة الذى يجب أن يحصل عليه طاقم الطائرة " ، هكذا أخبرته السيدة الشابة التى كانت تقف وراء لافتة استعلامات عامة وأضافت : " إنهم لم يستكملوا بعد عدد ساعات الراحة التى تصل إلى أربع وعشرين ساعة كما تنص لائحة الطيران العالمية " .

" إذن ما هو عدد الساعات الذى حصلوا عليه ؟ " .

أجابت الفتاة الشابة وقد بدت عليها علامات الحرج : " عشرون ساعة " .

" أى أنه مازلنا مرهونين بالبقاء على مدى أربع ساعات أخرى " .

" أخشى ذلك " .

سأل تشارلى بدون أن يسعى لإخفاء غضبه : " أين أقرب هاتف ؟ " .

أجابت الفتاة وهى تشير عن يمينها : " فى الركن البعيد يا سيدى " .

وقف تشارلى فى صف آخر وفى المرتين اللتين نجح فيهما فى التوصل إلى الهاتف والمرة التى نجح فيها الهاتف فى الاتصال بلندن ؛ فشل فى التحدث مع بيكى . ومع حلول الوقت الذى عاد فيه أخيرا إلى مقعده فى الطائرة ؛ بدون أن ينجح فى تحقيق شىء ؛ كان الإنهاك قد تملكه .

قال قائد الطائرة بصوت هادئ : " القائد كركهاوس يتحدث إليكم . نأسف على هذا التأخر فى الإقلاع . أتمنى ألا يكون هذا التعطل قد سبب لكم أى إزعاج . برجاء ربط الأحزمة استعدادا

للإقلاع . نرجو من مساعدى الطيران ضبط أبواب الكابينة على الإغلاق التلقائى " .

بدأت الطائرة تتحرك وتتجه إلى الأمام قبل أن تكتسب عزمها وسرعتها بطول المضمار . ثم فجأة ؛ وجد تشارلى نفسه يقفز إلى الأمام عندما أوقفت الطائرة فجأة على بعد مئات من الياردات القليلة من نهاية المضمار .

" هذا قائد الطائرة يحدثكم ثانية . نأسف لإخباركم بأن إشارة المضخات الهيدروليكية التى تتحكم فى حركة عجلات الهبوط إلى أعلى وأسفل تضىء باللون الأحمر فوق لائحة التحكم ولست على استعداد للمخاطرة بالإقلاع مرة ثانية . سوف نضطر لذلك أن نعود إلى موقفنا ونطلب من المهندسين المحليين إصلاح المشكلة بأسرع ما يمكن . شكرا على تفهمكم " .

كانت كلمة " محليين " هذه هى التى أثارت قلق تشارلى .

بمجرد أن غادروا الطائرة ؛ جرى تشارلى نحو نواضد الطيران بحثا عن أية رحلة متجهة إلى أى مكان فى أوربا فى تلك الليلة . وسرعان ما اكتشف أن الرحلة الوحيدة المزمعة فى تلك الليلة كانت متجهة إلى سيدنى . بدأ يتضرع إلى الله لكى يزيد من سرعة وكفاءة المهندسين الهنود .

جلس تشارلى فى غرفة الانتظار المعبأة بالدخان يقلب أوراق الصحف والمجلات ؛ ويحتسى المشروبات الخفيفة الواحد تلو الآخر فى انتظار أى معلومة عن الرحلة ١٠٢ . كانت أول معلومة قد توصل إليها هى أنه قد تم الإرسال فى طلب كبير المهندسين .

قال تشارلى : " تم الإرسال إليه ؟ ما الذى يعنيه ذلك ؟ " .

" لقد أرسلنا سيارة لإحضاره " ، هكذا شرحت له موظفة المطار فى ابتسامة ولهجة إنجليزية متقطعة .

قال تشارلى : " أرسلتم إليه سيارة ؟ ألا يكون متواجدا فى المطار حيث يجب أن يكون ؟ " .

" لأن هذا هو يوم عطلته " .

" أليس لديكم مهندسون غيره ؟ " .

" لا يصلحون لأداء إصلاح كبير كهذا " ، قالت الموظفة ذلك وقد استحوذ عليها الشعور بالحرج .

صفع تشارلى مقدمة رأسه براحة يده وسأل : " وأين يعيش كبير المهندسين ؟ " .

جاءت الإجابة : " فى مكان ما فى نيودلهى ، ولكن لا تقلق يا سيدى ، سوف يكون هنا فى غضون ساعة " .

المشكلة فى هذا البلد ـ فكر تشارلى ـ هو أنهم يخبرونك دائما بما تريد أن تسمعه .

لسبب ما ، عجزت الموظفة نفسها بعدها بساعة عن تبرير سبب تأخر المهندس ، مضت ساعة أخرى قبل أن يحضر إلى المطار ، وخمس عشرة دقيقة أخرى قبل أن يكتشف أن المهمة المطلوبة تستوجب فريقاً كاملاً من المهندسين الأكفاء ممن كانوا قد أنهوا عملهم فى تلك الليلة .

حمل أتوبيس عتيق كل ركاب الرحلة ١٠٢ إلى فندق تاج محل فى وسط المدينة حيث جلس تشارلى فوق سريره وقضى معظم ساعات الليل فى محاولة للاتصال ببيكى . عندما نجح أخيرا فى الاتصال بها قطعت المكالمة حتى قبل أن تتاح له فرصة إخبارها بالمكان الذى

كان موجودا فيه . لم يزعج نفسه بمحاولة الحصول على قسط من الراحة .

عندما عاد بهم الأتوبيس ثانية إلى المطار فى صباح اليوم التالى كان موظف المطار الهندى فى انتظارهم لتقديم التحية بابتسامته الكبيرة التى لم تكن تفارق فمه .

وعد قائلا : " سوف تقلع الطائرة فى موعدها " .

فى وقتها ؛ فكر تشارلى ؛ فى الظروف العادية كان يمكن أن يغرق فى الضحك .

أقلعت الطائرة بالفعل ولكن بعد موعدها المحدد بساعة وعندما سأل تشارلى عن الموعد المزمع لهبوط الطائرة فى هيثرو ؛ أخبر بأنها سوف تهبط فى وقت ما فى منتصف صباح يوم السبت ؛ حيث كان يصعب التنبؤ بموعد محدد فى مثل هذه الظروف .

عندما هبطت الطائرة على غير ما هو مخطط لها فى مطار ليوناردو دافنشى فى صباح يوم السبت ؛ اتصل تشارلى بـ " بيكى " من المطار . لم يمنحها حتى وقتا للتحدث . قال لها : " أنا فى روما وأنا بحاجة لأن يحضر ستان ليلتقطنى من مطار هيثرو . بما أننى لا أعرف تحديدا الوقت الذى سوف أصل فيه ؛ اطلبى منه الآن أن يتوجه إلى المطار ويبقى فى انتظارى بدون أن يلتفت . هل فهمت ؟ " .

قالت بيكى : " نعم " .

" وسوف أكون أيضا بحاجة لأن يحضر بافرستوك إلى مكتبى ؛ فإن كان قد اختفى بالفعل من المدينة فى عطلة نهاية الأسبوع ؛ اطلبى منه أن يتخلى عن كل ارتباطاته ويعود إلى لندن " .

" تبدو منفعلا يا عزيزى " .

قال تشارلى : " آسف ؛ لقد كانت الرحلة شاقة " .

وضع تشارلى اللوحة تحت ذراعه وبدون أن يزعج نفسه بما ألم بالطائرة فى تلك المرة أو حتى بمصير حقيبته ؛ ركب أول رحلة متجهة إلى لندن عصر ذلك اليوم . وبمجرد أن أقلعت الطائرة ؛ أخذ تشارلى يتفقد ساعته كل عشر دقائق . عندما عبر الطيار القناة الإنجليزية فى الثامنة من مساء ذلك اليوم ؛ كان تشارلى واثقا من أن أربع ساعات مازالت وقتا كافيا للغاية لتسجيل دعوى كاثى طالما نجحت بيكى فى اقتفاء أثر بافرستوك .

عندما بدأت الطائرة تحلق كدأبها فوق أرض المطار نظر تشارلى عبر النافذة البيضاوية إلى نهر التايمز الشبيه بشكل الثعبان .

مضت عشرون دقيقة أخرى قبل أن يشاهد تشارلى أضواء المطار وهى تتلألأ أمامه فوق المضمار فى خطين مستقيمين متبوعة بنفخة دخان عندما وطئت الأطر أرض المضمار وهبطت الطائرة فى مكانها المخصص . وأخيرا فتحت أبواب الطائرة فى الثامنة وتسع وعشرين دقيقة .

لم يتوقف تشارلى إلى أن عثر على أول كابينة اتصال ؛ ولكن بما أنه لم يحمل أية نقود معدنية لكى يجرى مكالمة هاتفية ؛ أخبر عاملة الهاتف باسمه وطلب منها تحويل قيمة المكالمة . وبعدها بدقيقة كان المتحدث على نهاية الطرف المقابل .

" بيكى ، لقد وصلت إلى هيثرو ؛ أين بافرستوك ؟ " .

" فى طريق العودة من تويكسبورى . من المتوقع أن يصل إلى المكتب قرابة التاسعة والنصف أو العاشرة على الأكثر " .

" حسنا ؛ إذن سوف أحضر إليك مباشرة . سوف أصل إليك فى غضون أربعين دقيقة " .

وضع تشارلى سماعة الهاتف بعنف وتفقد ساعته وأدرك أنه لم يبق له وقت كاف للاتصال بالدكتور أتكينز . هرع إلى الرصيف وفجأة شعر ببرودة الهواء . كان ستان فى انتظاره بجوار السيارة . على مدى السنوات ؛ كان الرقيب الأول السابق قد اعتاد على تعجل تشارلى فقاده فى انسياب عبر ضواحى لندن بدون أن يكترث بالحد القصى للسرعة إلى أن وصلا إلى تشيسويك حيث وجوب الالتزام بالسرعة المحددة . وبالرغم من هطول الأمطار فإنه نجح فى توصيل سيده إلى ميدان إيتون فى التاسعة وست عشرة دقيقة .

كان تشارلى قد انتهى من رواية نصف ما توصل إليه فى رحلته فى أستراليا إلى بيكى الصامتة عندما دق جرس الهاتف وأخبره بافرستوك أنه قد وصل بالفعل إلى مكتبه فى هاى هولبورن . شكره تشارلى وأبلغه تحيات ابن أخته الحارة ثم اعتذر على إفساد عطلته .

قال بافرستوك : " لم تكن لتفعل ذلك ما لم تكن لديك أنباء إيجابية " .

قال تشارلى : " جاى ترينثام له ابن ثان " .

قال بافرستوك : " لم أكن أتوقع أن تعيدنى ثانية من تويكسبيرى لتخبرنى بآخر أنباء فريق الكرة فى ميلبورن . هل هو ذكر أم أنثى ؟ " .

" أنثى " .

" شرعية أم غير شرعية " .

" شرعية " .

" إذن يمكنها أن تقيم دعوى للمطالبة بحقها فى الإرث قبل منتصف الليل اليوم " .

" أيجب أن تسجّل دعواها معك أنت شخصيا ؟ "

قال بافرستوك : " هذا هو ما تنص عليه الوصية ، ومع ذلك فإنها إن كانت مازالت فى أستراليا فيمكنها أن تسجل دعواها مع تريفور روبرتس ؛ لأننى قد ـــــ " .

" كلا هى هنا فى إنجلترا وسوف أحضرها إلى مكتبك قبل منتصف الليل " .

سأل بافرستوك : " جيد . بالمناسبة ؛ ما اسمها ؟ فقط لكى أعد الأوراق " .

قال تشارلى : " كاثى روس ، ولكن اطلب من ابن أختك أن يشرح لك كل شىء لأنه لم يعد لدىّ أى وقت لكى أضيعه " ثم وضع سماعة الهاتف قبل أن يمنح بافرستوك فرصة لكى يبدى أى رد فعل . وهرع إلى البهو بحثا عن بيكى .

صاح بينما ظهرت بيكى أعلى الدرج : " أين كاثى ؟ " .

" ذهبت لحضور حفل موسيقى فى قاعة المهرجانات . حفل لـ " موتسارت " على ما أظن ؛ مع صديق جديد من المدينة " .

قال تشارلى : " حسنا ؛ هيا بنا " .

" إلى أين ؟ " .

صاح بأعلى صوته : " نعم ، هيا بنا " ، وكان قد وصل إلى الباب بالفعل وركب فى المقعد الخلفى من السيارة قبل أن يدرك أنه ليس هناك سائق .

قفز خارجا وكان فى طريق العودة إلى المنزل عندما جاءت بيكى تهرع إليه فى الاتجاه المقابل .

" أين ستان ؟ " .

" ربما يتناول العشاء فى المطبخ " .

قال تشارلى وهو يمد لها يده بالمفاتيح : " حسناً ، قودى أنت وسوف أتحدث أنا " .

" ولكن إلى أين ؟ " .

" قاعة المهرجانات " .

قالت بيكى : " هذا مضحك ، بعد كل هذه السنوات لم أكن أعرف أنك تحب موتسارت " . عندما اتخذت مقعدها خلف عجلة القيادة أسرع تشارلى للجلوس بجانبها فى الكرسى الأمامى . أدارت المحرك وسارت تشق طريقها بمهارة وسط الطريق المزدحم بينما أخذ تشارلى يقص عليها كل تفاصيل ما اكتشفه فى أستراليا وكيف أنه يجب أن يعثر على كاثى قبل حلول منتصف المساء . أخذت بيكى تنصت إليه فى إمعان بدون أن تسعى لمقاطعته .

وعندما سألها تشارلى إن كان لديها أية أسئلة تود أن تطرحها كانا يعبران جسر وست مينيستر ، ولكن بيكى كانت قد بقيت صامتة .

بقى تشارلى منتظرا دقائق قليلة قبل أن يسألها : " أليس لديك أى شىء تودين قوله ؟ " .

قالت بيكى : " نعم ، يجب ألا نكرر نفس خطأ دانيال مع كاثى " .

" وما هو هذا الخطأ تحديدا ؟ " .

" نعجز عن إخبارها بالحقيقة كاملة " .

قال تشارلى : " يجب أن أتحدث مع الدكتور أتكينز قبل أن أفكر فى الإقدام على هذه المجازفة . ولكن المشكلة الملحة الآن هى أن ندعها تسجل دعواها فى الوقت المحدد " .

" ناهيك عن المشكلة الأخرى الأكثر إلحاحاً وهى المكان الذى سوف أترك فيه السيارة الآن " . قالت بيكى ذلك وهما ينعطفان فى شارع بلفيدير ويواصلان القيادة حتى قاعة المهرجانات الملكية ذات الخطوط الصفراء المزدوجة وعلامة " برجاء عدم ترك السيارة " .

قال تشارلى : " ضعى السيارة عند الباب الأمامى مباشرة " وأطاعته بيكى فى الحال .

وبمجرد أن توقفت السيارة ؛ قفز تشارلى خارجا منها وعبر الرصيف ودفع الأبواب الزجاجية .

سأل أول رجل يرتدى زيًّا رسمياً قابله : " متى ينتهى الحفل الموسيقى ؟ " .

" فى العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة يا سيدى ولكن لا يمكنك أن تترك سيارتك هناك " .

" وأين مكتب المدير ؟ " .

" فى الطابق الخامس ؛ إلى اليمين ؛ الطابق الثانى إلى اليسار عندما تخرج من المصعد ؛ ولكن ـــــ " .

قال تشارلى : " شكرا لك " وقد بدأ يعدو بالفعل نحو المصعد . كانت بيكى قد لحقت بزوجها بالكاد وقت وصول المصعد إلى الدور الأرضى .

قال البواب : " سيارتك يا سيدى ـــــ " ، ولكن أبواب المصعد كانت قد أغلقت بالفعل بينما كان الحارس يتحدث .

عندما فتحت أبواب المصعد فى الطابق الخامس ؛ قفز تشارلى خارجا ونظر إلى اليمين ورأى بابا عن يساره مكتوباً عليه " المدير " . طرق الباب مرة قبل أن يفتحه ليجد رجلين فى ملابس السهرة

يستمتعان بتدخين السجائر والاستماع إلى الحفل الموسيقى عبر ناقل للصوت . استدارا لمعرفة الرجل الذى دخل عليهما .

" عمت مساءً يا سير تشارلى " .

قال الرجل الأطول قامة وهو ينهض من مقعده ويخرج سيجارته من فمه ويتقدم نحوه قائلاً : " أنا جاكسون . مدير المسرح ؛ هل يمكننى أن أساعدك ؟ " .

قال تشارلى : " أتمنى فقط يا سيد جاكسون أن أتمكن من استدعاء سيدة شابة من قاعة الحفل بأسرع وقت ممكن . إنها حالة طارئة " .

" هل تعرف رقم مقعدها ؟ " .

" كلا " ، نظر تشارلى جهة بيكى التى أومأت بالنفى .

قال المدير الذى سار خارجا من الباب نحو المصعد : " إذن اتبعنى " . عندما فتحت الأبواب من جديد ؛ وجد تشارلى الحارس الذى قابله فور دخوله واقفا فى وجهه .

" هل ثمة مشكلة يا رون ؟ " .

" لقد ترك هذا الرجل سيارته أمام الباب يا سيدى " .

" اعتن بها إذن يا رون من فضلك " ، قال المدير ذلك ثم ضغط على زر الطابق الثالث واستدار نحو بيكى وسألها : " ما الذى كانت ترتديه السيدة الشابة ؟ " .

قالت بيكى بسرعة : " فستاناً بلون البرجندى ووشاحاً من اللون الأبيض " .

قال المدير : " أحسنت يا سيدتى " . خرج المدير من المصعد وقادها سريعا عبر الرواق إلى مدخل جانبى ملحق بقاعة الاحتفال . وبمجرد أن دخلا أزاح جاكسون صورة صغيرة للملكة وهى تفتتح

المبنى عام ١٩٥٧ والتى كنت تخفى وراءها باباً سريًا لمراقبة المتفرجين عبر مرآة أحادية الجانب . " إنه إجراء أمنى نلجأ إليه عند حدوث أية مشاكل " . قال المدير ذلك ثم استخرج نظارتين مكبرتين لشاهدة الحفلات وأعطى واحدة لكل من تشارلى وبيكى .

" إن نجحت فى العثور على السيدة المطلوبة فسوف أرسل أحد العاملين فى استدعائها بمنتهى السرية " ، ثم استدار لكى يستمع إلى الموسيقى لبضع ثوان قبل أن يضيف قائلا : " بقى عشر دقائق فقط على انتهاء الحفل ؛ اثنتا عشرة دقيقة على الأكثر . ليس هناك أى مقطوعات إضافية سوف تعزف الليلة " .

" تفقدى أنت يا بيكى الجالسين فى الصف الأمامى بينما سأتفقد أنا الصفوف التى تليهم " .

تفقد كلاهما عدد المتفرجين الذى وصل إلى ألف وتسعمائة متفرج ؛ فى البداية سريعاً ثم بشىء من التأنى مرورا بكل صف فى المرة الثانية . ولم ينجح أى منهما فى التوصل إلى كاثى .

قال المدير : " حاولا البحث عنها فى الكبائن عند الطرف المقابل يا سير تشارلى " .

استدار تشارلى وبيكى بنظارتيهما إلى الجانب البعيد من المسرح . لم يجدا أى أثر لـ " كاثى " ؛ فعادا يبحثان ثانية فى القاعة الأساسية مع تفقد كل مقعد بسرعة ثانية .

أنزل قائد الفرقة الموسيقية عصاه للمرة الأخيرة فى العاشرة واثنتين وثلاثين دقيقة وبعدها سادت موجة من التصفيق وأخذ تشارلى وبيكى يبحثان وسط الحشود التى أصبحت واقفة الآن عن كاثى إلى أن بدأت الحشود فى النهاية تشق طريقها خارج المسرح .

" واصلى البحث يا بيكى وسوف أذهب أنا عند باب الخروج ؛ ربما أعثر عليها وهى خارجة " . هرع خارج كابينة المراقبة وهبط الدرج متبوعاً بجاكسون وكاد يصطدم برجل فى الكابينة الواقعة أسفلهم . استدار تشارلى لكى يعتذر .

جاءه صوت أحدهم : " مرحبا بك يا تشارلى ؛ لم أكن أعرف أنك تحب موتسارت " .

قال تشارلى عاجزاً عن إخفاء دهشته : " لم أكن بالفعل أحبه إلى أن شعرت فجأة أنه الأفضل " .

قال المدير : " بالطبع ، المكان الوحيد الذى كان لا يمكن أن تراه هو الكابينة الواقعة تحتنا " .

" اسمح لى أن أقدم لك ـــــــ " .

قال تشارلى : " ليس لدينا وقت ، فقط اتبعينى " . ثم أحكم قبضته على ذراع كاثى وهو يقول : " سيد جاكسون ؛ هل يمكنك أن تتفضل بأن تطلب من زوجتى إخبار السيد الشاب بسبب حاجتى إلى كاثى . يمكنك أن تستردها بعد منتصف الليل " . قال تشارلى وهو يبتسم إلى الشاب الذى تملكه الذهول وأضاف تشارلى : " وشكرا لك يا سيد جاكسون " .

تفقد ساعته . إنها العاشرة وأربعين دقيقة . قال : " مازال لدينا وقت كاف " .

" وقت كاف لماذا يا تشارلى ؟ " هكذا قالت كاثى وقد وجدت نفسها تسحب من وسط البهو نحو الخارج فى شارع بيلفيدير . كان الحارس قد وقف يحرس السيارة .

قال تشارلى وهو يحاول أن يفتح الباب الأمامى : " شكراً لك يا رون . اللعنة ؛ لقد أغلقت بيكى السيارة " . ثم استدار بحثا عن

سيارة أجرة ، فوجد واحدة خارجة من منطقة الانتظار . استدعاها تشارلى .

قال رجل يقف عند مقدمة صف السيارات الأجرة : " تعلم أيها العجوز أننى فى انتظار هذه السيارة " .

قال تشارلى وهو يفتح باب السيارة ويدفع كاثى بالغة النحافة فى المقعد الخلفى : " إنها على وشك الوضع " .

" يا لها من مزحة لطيفة ساذجة " ، هكذا قال الرجل وهو ينحنى إلى الوراء .

سأله سائق التاكسى : " إلى أين ؟ "

قال تشارلى : " ١١٠ شارع هاى هولبورن ولا تتسكع فى الطريق " .

قالت كاثى : " أعتقد أننا سوف نجد على الأرجح محاميا وليس طبيب نساء فى انتظارنا فى هذا العنوان ، وأتمنى أن يكون لديك تفسير جيد لسبب تفويتك علىّ تناول العشاء مع الرجل الوحيد الذى عرض علىّ الخروج معه منذ أسابيع " .

قال تشارلى : " ليس الآن ، كل ما أريدك أن تفعليه الآن هو أن توقعى على هذا المستند قبل منتصف الليل وأعدك بتفسير كل شىء فيما بعد " .

وصل التاكسى عند مكتب المحامى بعد الحادية عشرة ببضع دقائق . خرج تشارلى من السيارة الأجرة ليجد بافرستوك فى انتظاره بالخارج .

" الحساب ثمانية وستة " .

قال تشارلى : " يا إلهى ، ليس معى نقود " .

" هذه هى الطريقة التى يعامل بها كل الفتيات " ، هكذا قالت كاثى وهى تمد له يدها بورقة بعشرة شلنات .

سار الاثنان خلف بافرستوك إلى أن وصلوا إلى مكتبه حيث وجدوا مجموعة من المستندات قد وضعت بالفعل فوق المكتب . قال بافرستوك وهو ينظر إلى تشارلى : " منذ أن اتصلت بى ، أجريت حوارا طويلا مع ابن اختى فى استراليا . أعتقد أننى عرفت تفاصيل كل ما حدث عندما كنت هناك " .

" أى أنك تعرف أكثر مما أعرفه " ، هكذا قالت كاثى وقد بدت عليها علامات الدهشة .

قال تشارلى : " كل شىء فى وقته ، سوف أوافيك بالشرح فيما بعد " ثم استدار جهة بافرستوك وسأل : " إذن ما الذى سنفعله الآن ؟ " .

" يجب أن توقع الآنسة روس هنا وهنا وهنا " ، قال المحامى ذلك بدون أن يضيف المزيد ؛ مشيرا إلى الموضع الذى يجب أن توقع فيه عند السطر الأخير بين علامتين فى نهاية ثلاث ورقات منفصلة ، وأضاف المحامى : " بما أنك لست مستفيدا ولا تربطك أية صلة بالمستفيد يمكنك أن تكون شاهدا لتوقيع الآنسة روس " .

أومأ تشارلى ووضع نظارة الأوبرا بجانب العقد واستخرج قلما من جيبه الداخلى .

" لقد علمتنى دائما يا تشارلى فى الماضى ألا أوقع على أية مستندات قبل أن أقرأها بعناية " .

" انسى كل ما علمتك إياه فى الماضى يا فتاتى وفقط وقعى حيث أشار لك السيد بافرستوك " .

وقعت كاثى المستندات الثلاثة بدون أن تضيف كلمة .

قال السيد بافرستوك : " شكرا لك يا آنسة روس والآن ابقيا هنا قليلا إلى أن أتصل بالسيد بيركنشو لإخباره بما حدث " .

قال تشارلى : " بيركنشو ؟ "

" محامى السيدة ترينشام . يجب أن أخبره فى الحال بأن موكله ليس هو الشخص الوحيد الذى تقدم بدعوى للحصول على حقه فى هاردكاسيل " .

استدارت كاثى - بعد أن ارتسمت عليها المزيد من علامات الدهشة - ناحية تشارلى .

قال تشارلى : " فيما بعد . أعدك " .

أدار بافرستوك الأرقام السبعة متصلاً بأحد الهواتف فى تشيلسيا .

بقى الجميع صامتين فى انتظار الرد على المكالمة . وأخيرا رد على بافرستوك صوت ناعس من الطرف المقابل : " كينسينجتون ٧١٩٢ " .

" عمت مساءً يا بيركنشو . بافرستوك يتحدث . آسف لإزعاجك فى هذا الوقت المتأخر من الليل . لم أكن لأقدم على ذلك بالطبع ما لم تكن الظروف تحتم علىّ اقتحام خصوصيتك على هذا النحو . ولكن هل لى أن أسألك بداية ، كم الساعة الآن ؟ " .

" هل سمعتك جيدا ؟ " ، قال بيركنشو ذلك ؛ وقد أصبح صوته عندها أكثر يقظة ثم قال : " أنت تتصل بى فى منتصف الليل لكى تسأل عن الساعة " .

قال بافرستوك : " تماما . أريد أن أتأكد أننا لم نصل بعد إلى ساعة السحر . من فضلك أخبرنى إذن كم الساعة لديك الآن ؟ " .

" إنها الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة ولكننى لا أفهم ــــــ " .

قال بافرستوك : " ساعتى تشير إلى الحادية عشر وست عشرة دقيقة . ولكن فى مسألة الوقت هذه يسعدنى أن أذعن لرأيك . الهدف من وراء هذه المكالمة بالمناسبة هو إخبارك بأن هناك شخصاً آخر - يبدو أكثر قرابة للسير رايموند من موكلك - يطالب بحقه فى ثروة هاردكاسيل " .

" ما اسمها ؟ " .

" أعتقد أنك تعرف هذا بالفعل " ، هكذا أجاب المحامى العجوز قبل أن يعيد سماعة الهاتف إلى مكانها قائلاً : " اللعنة " .

قال المحامى وهو ينظر إلى تشارلى : " ليتنى سجلت المكالمة " .

" لماذا ؟ " .

" لأن بيركنشو لن يقر أبدا بأنه قال اسمها وليس اسمه " .

الفصل
٤٧

سألت كاثى : " هل تقول إن جاى ترينثام كان والدى ؟ ولكن كيف .... ؟ " .

بعد إيقاظ الدكتور أتكينز وهو الرجل الذى كان أكثر اعتيادا على مثل هذه الأنواع من الإزعاج أثناء الليل ؛ شعر تشارلى أنه قادر على سرد ما توصل إليه فى أستراليا لـ " كاثى " وكيف أن الحقيقة كانت قد دفنت بفعل المعلومات التى قدمتها لـ " بيكى " عندما تقدمت بطلب للالتحاق بالعمل لدى شركة ترامبر . كان بافرستوك ينصت بإمعان ويومئ من وقت إلى آخر برأسه بينما كان ينظر بشكل دائم إلى الملاحظات الدقيقة التى كان قد دونها إثر مكالمته الطويلة مع ابن أخته فى سيدنى .

استمعت كاثى لكل ما قاله تشارلى وبالرغم من أنها كانت فى ذلك الوقت قد استعادت بعض الأحداث التى وقعت لها فى أستراليا فإن ذاكرتها بقيت مشوشة فيما يتعلق بسنوات دراستها فى

جامعة ميلبورن فضلا عن أنها عجزت عن تذكر أى شىء عن سانت هيلدا كما أن اسم الآنسة بينسون لم يكن يعنى لها أى شىء .

" لقد بذلت قصارى جهدى لتذكر المزيد من التفاصيل لما حدث لى قبل أن آتى إلى إنجلترا ولكننى لم أتوصل إلى شىء يذكر بالرغم من أننى أتذكر كل ما وقع لى بالتفصيل بعدما حضرت إلى ساوثهامبتون . الدكتور أتكينز ليست متفائلا فى هذا الصدد ؛ أليس كذلك ؟ " .

" ليست هناك قواعد تحكم هذه الحالات ؛ هذا هو ما يردده دائما " .

وقف تشارلى وسار فى الغرفة وأدار اللوحة التى جاء بها وقد ارتسمت نظرة أمل على وجهه ، ولكن كاثى هزت رأسها بالنفى وهى تحدق فى المشهد الطبيعى .

" لابد أننى بالفعل رسمتها فى وقت ما ولكننى لا أعرف أين ومتى " .

قرابة الرابعة من صباح اليوم التالى ؛ استدعى تشارلى سيارة أجرة بالهاتف لكى تعود بهما إلى ميدان إيتون بعد أن اتفق مع بافرستوك أنه يجب أن يجرى لقاء مع الطرف الآخر فى أقرب فرصة . عندما عادا إلى المنزل ؛ كان الإجهاد قد بلغ من كاثى مبلغه فتوجهت مباشرة إلى فراشها . أما تشارلى فقد عجز عن النوم فما كان منه إلا أن توجه إلى مكتبه وواصل بحثه عن الحلقة المفقودة بعد أن وضع نصب عينيه المعركة القانونية التى كان بصددها حتى إن نجح .

فى اليوم التالى سافر مصطحبًا كاثى إلى كمبريدج وقضى يوما محموما فى مكتب الدكتور أتيكنز الصغير فى أدينبروك . كان

الاستشارى من جانبه أكثر اهتماما بمحتويات ملف السيدة كولفر عن كاثى من الجانب الإنسانى أكثر من اهتمامه بقرابتها بالسيدة ترينثام ومن ثم حقها الشرعى فى المطالبة بتركة هاردكاسيل .

عرض عليها محتويات الملف واحدا بواحد ـ حصص الرسم والجوائز والتوبيخات ومباريات التنس ومدرسة نحو إنجلاند للفتيات التابعة لمدينة ميلبورن ـ ولكنه كان يواجه دائما بنفس رد الفعل ؛ كانت كاثى تمعن التفكير ولا ترد إلا بإجابات مشوشة . حاول أن يطبق معها أسلوب التداعيات من خلال المزاوجة ؛ ميلبورن ؛ الآنسة بينسون ؛ كريكيت ؛ السفينة ؛ الفندق ؛ فردت عليه قائلة : أستراليا ؛ هيدجز ؛ هدافة ؛ ساوثهامبتون ؛ ساعات طويلة .

" هدافة " ، كانت تلك هى الكلمة الوحيدة التى أثارت اهتمام الدكتور أتكينز ؛ ولكنه واصل ضغطه عليها ، فما كان منها إلا أن ذكرت وصفا مشوشا لمدرسة النحو وبعض الذكريات الواضحة عن الجامعة وفتى يدعى ميل نيكولز وبعدها رحلة طويلة فى السفينة إلى لندن . وقد نجحت أيضا فى تذكر أسماء بام وموريس اللذين صحباها فى رحلتها ولكنها لم تكن تعرف من أين أتيا .

بدأت كاثى تحكى بمزيد من التفصيل عندما أثار الطبيب حياتها فى فندق ميلروز وقد أكد تشارلى صحة المعلومات التى ذكرتها كاثى عن تلك الأيام الأولى فى شركة ترامبر .

أثار وصفها للقائها الأول مع دانيال وتغييره لبطاقات الجلوس فى الحفل الدافئ الذى حضرته فى منزل ترامبر شجن تشارلى حتى اغرورقت عيناه بالدموع . ولكن فيما يخص هويتها وأسماء مارجريت

إيثيل ترينثام والآنسة ريتشيل بينسون ؛ فإنها بقيت عاجزة عن تذكر أى شىء .

مع حلول السادسة كانت كاثى قد أنهكت تماما . وتنحى الدكتور أتكينز بـ " تشارلى " جانبًا وحذره من أنها على الأرجح لن تتذكر أكثر مما تذكرته عن حياتها الأولى قبل أن تصل إلى لندن . قد تتذكر بعض الأحداث البسيطة من وقت إلى آخر ولكنها لن تتذكر شيئا ذا أهمية .

" آسفة ، لم أكن مجدية كما كنت تأمل ، أليس كذلك ؟ " ، قالت كاثى ذلك بينما كان تشارلى يقود بها عائدا إلى لندن .

أمسك يدها مطمئنا إياها بالرغم من أنه كان قد بدأ يشعر أن رأى تريفور روبرتس بأن فرصة كاثى فى إثبات حقها فى الثروة تصل إلى خمسين بالمائة أصبح رأيا متفائلا للغاية . وطمأنها قائلاً : " نحن لم نهزم بعد " .

كانت بيكى فى انتظارهما لكى ترحب بعودتهما وتناول ثلاثتهم العشاء معاً . لم يشر تشارلى إلى ما حدث فى كمبريدج فى وقت سابق من ذلك اليوم إلا بعدما دخلت كاثى غرفتها . عندما سمعت بيكى ما حدث من كاثى فى عيادة الطبيب أصرت على عدم التعرض للفتاة ثانية .

قالت لزوجها : " لقد فقدت دانيال بسبب هذه المرأة ، وأنا لست مستعدة لفقد كاثى هى الأخرى . إن كنت مصرًا على مواصلة معركتك من أجل شركة ترامبر ؛ فيجب أن تواصلها بدون أن تقحمها فى الأمر " .

أومأ تشارلى بالموافقة بالرغم من أنه كان يريد أن يصرخ بأعلى صوته قائلا : " كيف يمكن أن أنقذ كل ما بنيته بدون أن أسمح لترينثام آخر بالتدخل وتدمير كاثى ؟ " .

قبل أن يطفئ ضوء غرفة النوم ، دق جرس الهاتف . كان المتصل هو تريفور روبرتس من سيدنى ولكن أخباره لم تكن سعيدة . لقد رفض وولتر سليد أن يتفوه بكلمة بخصوص إيثيل ترينثام كما أنه رفض التوقيع على أى مستند يشهد حتى بمعرفته لها . أخذ تشارلى يوبخ نفسه ثانية على الطريقة التى تعامل بها مع هذا الرجل العجوز .

سأل بدون أن تبدو عليه علامات التفاؤل : " وماذا عن البنك ؟ " .

" أكد البنك التجارى الأسترالى أنه لا يسمح بكشف أية تفاصيل تخص الحساب الخاص بالآنسة بينسون ما لم يثبت تورطها فى أية جريمة . إن ما فعلته السيدة ترينثام فى كاثى كان تصرفا شريرا ولكنه ليس جريمة " .

قال تشارلى : " لم يكن يوما مثمرا لكلينا " .

" لا تنس أبدا أن الطرف الآخر لا يعرف ذلك " .

" هذا صحيح ولكن لا نعرف مقدار علمه " .

" لقد ذكر لى خالى زلة لسان بيركنشو وبأنه قال اسمها وليس اسمه . عندما تواجههما ، يجدر بك أن تفترض ذلك ؛ وفى الوقت نفسه لا تكف عن البحث عن الحلقة المفقودة " .

بعدما وضع تشارلى سماعة الهاتف ، بقى مستيقظا فى فراشه لبعض الوقت ولم يتحرك ثانية إلى أن سمع بيكى تتنفس بعمق . عندها نهض من فراشه وارتدى ملابس البيت وتسلل إلى مكتبه .

فتح أجندته الخاصة وبدأ يكتب كل المعلومات التى توصل إليها على مدى الأيام القليلة الماضية أملا فى العثور على أى خيط . فى صباح اليوم التالى وجدته كاثى منكفئا على وجهه يغط فى سبات عميق .

" أنا لا أستحقك يا تشارلى " ، هكذا همست وهى تقبله فى مقدمة رأسه . حرك رأسه ورفع عينيه .

قال تشارلى فى صوت ناعس وقد نجح فى رسم ابتسامة على وجهه : " سوف تكسبين " ، ولكنه أدرك من التعبير المرتسم على وجهها أنها لم تكن تصدقه .

انضمت بيكى إليهما على مائدة الإفطار بعدها بساعة وتحدثت عن كل شىء باستثناء اللقاء المزمع عقده مع الطرف الآخر فى مكتب بافرستوك فى عصر ذلك اليوم .

عندما نهض تشارلى وهم بترك المائدة ، قالت كاثى فى هدوء غير متوقع : " أود أن أحضر اللقاء " .

" هل تظنين أن هذا سوف يكون تصرفا حكيما ؟ " ، سألت بيكى ذلك وهى تنظر فى قلق إلى زوجها .

قالت كاثى : " ربما لا ، ولكننى مازلت واثقة أننى أود أن أكون حاضرة لا أن يُقص علىّ ما حدث هناك " .

قال تشارلى : " أنت فتاة جيدة ، سوف يكون اللقاء فى الثالثة فى مكتب بافرستوك حيث سيتسنى لنا طرح قضيتك ثم سيأتى محامى ترينثام فى الرابعة . سوف آمر لأصحبك فى الثانية والنصف ولكن إن أردت أن تعدلى عن رأيك قبلها ، فإن هذا لن يحدث فارقا " .

استدارت بيكى لترى رد فعل كاثى لهذا الاقتراح ولكنها أصيبت بخيبة أمل .

عندما توجه تشارلى إلى مكتبه فى تمام الثامنة والنصف ؛ كانت دافنى وآرثر سيلوين فى انتظاره بالفعل كما سبق وطلب منهما .

" قهوة لثلاثة ولا نريد مقاطعة بالمرة " ، هكذا قال تشارلى لجيسيكا وهو يضع العمل الذى سهر عليه ليلا فوق المكتب أمامه .

سألت دافنى : " إذن من أين نبدأ ؟ " ، وعلى مدى الساعة ونصف الساعة التالية ؛ أخذوا يعيدون الأسئلة والعبارات والمناورات التى يمكن استخدامها للتعامل مع ترينشام وبيركنشو فى محاولة لتوقع أى سؤال أو موقف يمكن أن يقع .

مع حلول وقت تقديم غداء خفيف قبل الثانية عشرة كان التعب قد بلغ مبلغه من الجميع ، وبقى الجميع صامتا لبعض الوقت .

" من الضرورى أن تتذكر أنك تتعامل مع ترينشام مختلف فى هذه المرة " ، هكذا قال آرثر سيلوين أخيرا قاطعا الصمت وهو يضع قطعة سكر فى قدح القهوة .

قال تشارلى : " كلهم بنفس السوء على حد علمى " .

" ربما يملك نفس تصميم أخيه ولكنه بالقطع لا يملك دهاء أمه أو قدرة جاى على التفكير السريع "

سألت دافنى : " ما الذى تريد قوله يا آرثر ؟ " .

" عندما تلتقى بهم عصر اليوم ؛ يجب أن تدعه يتحدث كثيرا بقدر الإمكان لأننى قد لاحظت على مدى السنوات أثناء اجتماعات مجلس الإدارة أنه عادة يظل يكرر عبارة واحدة عدة مرات لينتهى به المآل إلى خسارة قضيته . لن أنسى أبدا معارضته لأن يكون للعاملين مطبخهم الخاص متعللا بأن هذا يسبب لنا الخسارة إلى أن

أشارت كاثى إلى أن الطعام يقدم لهم من نفس مطبخ الطعم أى أنه سوف ينتهى بنا المآل إلى تحقيق ربح بسيط مما كان يمكن أن يلقى فى سلة المهملات " .

فكر تشارلى فى هذه العبارة وهو يأخذ قضمة أخرى من شطيرته .

" أتساءل ما الذى ينصحه به مستشاروه فيما يخص نقاط ضعفى " .

قالت دافنى : " مزاجك ؛ لقد كنت دائما نافد الصبر . لا تسمح لهم باستثارتك " .

فى الواحدة ؛ تركت دافنى وآرثر تشارلى فى سلام . بعدما أغلقا الباب وراءهما ، خلع تشارلى سترته وتوجه نحو الأريكة واستلقى على مدى الساعة التالية واستسلم لنوم عميق . فى الثانية أيقظته جيسيكا . ابتسم لها وهو يشعر أنه قد استعاد نشاطه وطاقته ؛ كان هذا ميراثا آخر تعلمه من الحرب .

عاد إلى مكتبه وأخذ يقرأ ملاحظاته قبل أن يغادر مكتبه لكى يسير مسافة ثلاثة أبواب بطول الرواق لاصطحاب كاثى . كان يتوقع أنها يمكن أن تغير رأيها ولكنها كانت قد ارتدت معطفها بالفعل وتجلس فى انتظار وصوله . قادها إلى مكتب بافرستوك حيث وصلا قبل حلول موعد ترينشام وبيركنشو بساعة كاملة .

أنصت المحامى العجوز بإمعان إلى تشارلى وهو يطرح قضيته وهو يومئ من آن إلى آخر أو يدون بعض الملاحظات بالرغم من أن تشارلى لم يتمكن من تبين حقيقة شعوره من التعبير المرتسم على وجهه .

عندما وصل تشارلى إلى نهاية حديثة النفرد ؛ وضع بافرستوك قلمه فوق المكتب ومال على كرسيه . بقى صامتا لبعض الوقت .

قال أخيرا وهو يميل إلى الأمام ويضع راحتى يده فوق المكتب أمامه : " لقد أعجبت بشدة بمنطقك فى الحوار يا سير تشارلى " . كما أننى منبهر أيضا بالأدلة التى نجحت فى جمعها . ومع ذلك يجب أن أخبرك أنه بافتقادك شهودك الأساسيين وأية وثيقة مكتوبة تثبت ادعاءك من سليد أو الآنسة بينسون ؛ فإن السيد بيركنشو سوف يبادر باتهامك بأنك تبنى ادعاءك على أسباب واهية " .

استطرد حديثه : " ومع ذلك يجب أن نبحث ما سوف يقدمه الطرف الآخر . يصعب علىّ التصديق ؛ بعد حديثى مع بيركنشو مساء السبت ، أن إدعاءك سوف يكون بمثابة مفاجأة بالنسبة له " .

دقت ساعة الحائط الرابعة تماما . تفقد بافرستوك ساعة جيبه . لم تكن هناك أية بادرة ظهور للطرف الآخر ، وعندما بدأ المحامى العجوز ينقر مكتبه بأصابعه بدأ تشارلى يتساءل ما إن كانت هذه هى إحدى حيل خصمه .

ظهر نيجيل ترينثام ومحاميه أخيرا فى الرابعة واثنتى عشرة دقيقة ويبدو أن أياً منهما لم يكن يشعر بوجوب تقديم اعتذار .

وقف تشارلى عندما قدمه السيد بافرستوك لـ " فيكتور بيركنشو " ؛ كان رجلا طويلا ، رفيعاً لم يبلغ الخمسين بعد ؛ كان يعانى من صلع مبكر بينما كان هناك القليل من الشعر الذى بقى أعلى رأسه مع بعض الخصلات الرمادية . كانت السمة المميزة الوحيدة التى بدت مشتركة بينه وبين بافرستوك هى أن كليهما كان يحيك ملابسه فى نفس المكان . جلس بيركنشو فى أحد المقاعد الخاوية المقابلة للمحامى العجوز بدون أن يصدر إشارة تنم عن

إدراكه لوجود كاتى فى الغرفة . استخرج قلما من جيبه العلوى وأخرج دفترا صغيراً من حقيبة يده ووضعه على ركبتيه .

بدأ حديثه قائلاً : " يطالب موكلى السيد نيجيل ترينثام بحقه فى ثروة هاردكاسيل بصفته الوريث الشرعى لها ، كما هو منصوص عليه بوضوح فى آخر وصية كتبها السير رايموند " .

قال بافرستوك ، متحدثا بنفس الطريقة الرسمية التى بدأ بها بيركنشو حديثه : " موكلك ؛ كما يجب أن أذكرك ـ لم يرد له ذكر فى وصية السير رايموند ، وقد نشب الآن نزاع حول الوريث الشرعى المستحق لهذه الثروة . أرجو ألا تنسى أن السير رايموند أصر على أن أعقد هذا الاجتماع إن لزم الأمر لكى أبت فى الأمر نيابة عنه " .

بدأ بيركنشو يتحدث ثانية : " موكلى هو الابن الثانى للراحل جيرالد ومارجريت إيثيل ترينثام وحفيد السير رايموند هاردكاسيل . ولذلك فهو ـ بعد وفاة جاى ترينثام ـ أخيه الأكبر ؛ يعتبر الوريث الشرعى للتركة " .

قال بافرستوك موافقاً له : " تحت شروط الوصية ؛ يجب أن أقبل ادعاء موكلك ما لم يثبت أن جاى ترينثام كان له ابن أو أبناء على قيد الحياة . كلنا نعرف أن جاى هو والد دانيال ترامبر ــ " .

" ولكن هذا لم يثبت أبدا لموكلى " ، هكذا قال بيركنشو وهو منهمك فى تدوين ما قاله بافرستوك .

" لقد ثبت ذلك للسير رايموند على نحو كاف دفعه إلى تدوين اسم دانيال فى وصيته بدلا من اسم موكلك . كما أننا تأكدنا إثر الاجتماع الذى دارَ بين السيدة ترينثام وحفيدها بما لا يدع مجالا

للشك أن جاى هو والد دانيال . إن لم يكن الأمر كذلك فما الذى دفعها إذن إلى أن تعقد اتفاقا سخيا كهذا معه ؟ " .

قال بيركنشو : " كل هذا مجرد تخمين ، الشيء المؤكد الوحيد هو أن الرجل المقصود لم يعد موجودا بيننا ؛ كما أنه لم ينجب أى أبناء " . لم يكن الرجل حتى ذلك الوقت قد نظر إلى كاثى مباشرة والتى كانت تجلس فى هدوء مستمعة إلى الحديث وهو يدور ذهابا وإيابا بين الطرفين .

قال تشارلى الذى تدخل فى الحوار للمرة الأولى : " يسعدنا أن نقبل هذا بدون أى اعتراض ، ولكن ما لم نكن نعرفه حتى وقت قريب هو أن جاى ترينشام أنجب طفلة ثانية اسمها مارجريت إيثيل " .

" هل لديك دليل على هذا الادعاء الصارخ ؟ " ، قال بيركنشو ذلك ، وهو يعتدل فى جلسته .

" الدليل فى كشف الحساب الذى أرسلته إلى منزلك صباح يوم الأحد " .

" إنه الكشف الذى كان لا يجب أن يطلع عليه إلا موكلى " ، قال بيركنشو ذلك وهو ينظر إلى نيجيل ترينشام الذى كان منهمكا فى إشعال سيجارة .

قال تشارلى وهو يرفع رأسه : " أوافقك الرأى . ولكننى فكرت فى التقاط ورقة من كتاب السيدة ترينشام على سبيل التغيير " .

أجفل بافرستوك وخاف أن يكون صديقه على حافة فقدان أعصابه .

واصل تشارلى : " مهما كانت الفتاة ؛ فقد نجحت بشكل ما فى تدوين اسمها فى ملف الشرطة باعتبارها الطفلة الوحيدة التى بقيت

على قيد الحياة كما أنها رسمت صورة بقيت معلقة فى جدران غرفة مائدة دار أيتام ميلبورن لأكثر من عشرين عاما . إنها الصورة التى كان لا يمكن أن يعيد رسمها إلا الشخص الذى رسمها فى المقام الأول . إنها أشبه ببصمة اليد ، أليس كذلك ؟ أم أن هذا أيضا تخمين ؟ " .

أجاب بيركنشو داحضا حجة تشارلى : " الشيء الوحيد الذى تثبته اللوحة هو أن الآنسة روس كانت تقيم فى دار أيتام فى ميلبورن فى وقت ما بين ١٩٢٧ ، ١٩٤٦ . ومع ذلك فقد عرفت أنها لا تملك القدرة على تذكر أى شيء عن تفاصيل حياتها فى دار الأيتام أو أى شيء عن مديرة الدار . أليس كذلك يا آنسة روس ؟ " ، استدار لينظر إليها مباشرة للمرة الأولى .

أومأت بالموافقة فى تردد ولكن بدون أن تتحدث .

قال بيركنشو بدون أن يسعى لإخفاء نبرة السخرية فى صوته : " يا لك من شاهدة ؛ إنها حتى لا تملك القدرة على تأكيد القصة التى ترووونها باسمها . كما أن اسمها هو كاثى روس - نعلم ذلك بالفعل - أى أنه بالرغم من الدليل المزعوم الذى تسوقونه فليست هناك أية صلة تربطها بالسير رايموند هاردكاسيل " .

" ولكن هناك العديد من الأشخاص ممن يمكن أن يؤكدوا صحة " قصتها المزعومة " كما يحلو لك تسميتها " ، هكذا قال تشارلى مقاطعا الحديث ثانية . رفع بافرستوك حاجبه لأنه لم يكن هناك أى دليل يثبت ما يقوله تشارلى حتى إن كان يريد أن يصدق ما كان يقوله .

" إن معرفة كونها نشأت فى دار أيتام فى ميلبورن لا يعتبر دليلا " ، هكذا قال بيركنشو وهو يدفع خصلة شعر كانت قد تدلت

على مقدمة رأسه وأضاف : " وأكرر ، حتى إن صدقت بالفعل كل مزاعمك الغريبة عن لقاء ما حدث بين السيدة ترينشام والآنسة بينسون فهذا لا يثبت أن الآنسة روس تنتمى إلى جاى ترينشام بأى صلة دم " .

قال تشارلى : " ربما تحب أن تختبر فصيلة دمها بنفسك ؟ " فى هذه المرة ؛ رفع السيد بافرستوك كلا حاجبيه ؛ لم يكن موضوع اختبار فصائل الدم قد أثير من قبل أى طرف من الطرفين من قبل .

" إنها فصيلة دم ؛ أحب أن أضيف يا سير تشارلى ؛ ينتمى إليها نصف عدد السكان " ، هكذا قال بيركنشو وهو يجذب طية صدر سترته .

قال تشارلى بنظرة انتصار على وجهه : " هل هذا يعنى أنك قد اختبرتها من قبل ؟ هذا يعنى أنك تشك فى هذا الأمر " .

" ليس لدىّ أى شك فى الوريث الشرعى الذى يستحق أن تؤول إليه تركة هاردكاسيل " ، قال بيركنشو ذلك قبل أن يستدير لكى يواجه بافرستوك قائلاً : " كم من الوقت ستطول هذه المهزلة ؟ " ، تلا سؤاله تنهيدة تنم عن نفاد صبره .

" إلى أى وقت لازم لإقناعى بالوريث الشرعى لثروة سير رايموند " ، هكذا قال بافرستوك محتفظا بنبرته الهادئة الآمرة .

قال بيركنشو : " ما الذى تريده أكثر من ذلك ؟ ليس لدى موكلى أى شئ يخفيه فى الوقت الذى لا تملك فيه الآنسة روس أى دليل لتقدمه " .

قال بافرستوك : " إذن ربما يمكنك يا بيركنشو أن تشرح لى أنا شخصيا السبب الذى دفع السيدة إيثيل ترينشام إلى تسديد أقساط منتظمة إلى الآنسة بينسون ؛ مديرة دار أيتام سانت هيلدا فى

ميلبورن ؛ حيث نعرف كلنا أنه المكان الذى كانت تقيم فيه الآنسة روس بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٤٦ " .

" لم أتشرف من قبل بتمثيل السيدة ترينشام أو الآنسة بينسون لذا فإننى لست فى وضع يسمح لى بأن أقدم رأيا ولا حتى أنت يا سيدى ؛ أليس كذلك ؟ " .

قاطعه تشارلى قائلاً : " ربما يكون لدى موكلك علم بالسبب الذى دفعها لتسديد هذه الأقسام ويمكنه أن يقدم رأيا " . استدار الاثنان نحو نيجيل ترينشام الذى كان ينفض رماد سيجارته فى هدوء بدون أن يبدى أى استعداد للرد .

قال بيركنشو : " ليس هناك سبب يجبر موكلى على الرد على هذه الأسئلة الافتراضية " .

قال بافرستوك : " ولكن إن كان موكلك غير مستعد للتحدث بالأصالة عن نفسه ، فإننى أجد صعوبة فى تصديق كونه لا يخفى شيئا " .

قال بيركنشو : " لا يمكنك يا سيدى أنت شخصيا أن تزعم ذلك ، أنت من بين الناس جميعا تدرك جيدا أنه عندما ينوب المحامى عن موكله فإن الموكل يحق له ألا يتحدث . بل إن حضوره فى الأصل لهذا الاجتماع لم يكن إلزاميا " .

قال بافرستوك فى حدة : " ولكن هذا ليس دار قضاء " .

" هل تنكر على موكلى حقوقه القانونية ؟ " .

" بالطبع لا . ومع ذلك ؛ فإن عدم استعداده للحديث والإدلاء برأيه يجعلنى غير قادر على البت فى الأمر مما قد يدفعنى إلى مطالبة كلا الطرفين برفع الأمر إلى القضاء كما هو منصوص عليه بوضوح فى البند السابع والعشرين من وصية السير رايموند " .

بند آخر لم يكن تشارلى قد سمع به من قبل ؛ فكر تشارلى راثيا حاله .

قال بيركنشو : " ولكن قضية كهذه قد تستغرق سنوات فى المحاكم ، كما أنها قد تكبد كلا الطرفين نفقات باهظة . لا أعتقد أن هذا كان هدف السير رايموند " .

قال بافرستوك : " قد لا يكون بالفعل كذلك ، ولكن هذا على الأقل سوف يضمن منح موكلك فرصة لتبرير تلك المدفوعات ربع السنوية لهيئة المحلفين . هذا إن كان يملك أية معلومات بشأنها " .

للمرة الأولى بدا بيركنشو مترددا ولكن ترينشام لم يتحدث . بقى جالسا هناك يشعل سيجارة ثانية .

قال بيركنشو مغيراً مجرى الحديث : " كما أن هيئة المحلفين يمكن أيضا أن تنظر إلى الآنسة روس باعتبارها انتهازية ؛ شخصية انتهازية وجدت لنفسها قصة جيدة ونجحت فى الوصول إلى إنجلترا لتحيك الحقائق بدقة بما يتناسب مع ظروفها " .

قال تشارلى : " لقد أجادت ببراعة بالفعل . لقد أحسنت صنعا عندما أدخلت نفسها دار الأيتام فى ميلبورن فى نفس الوقت الذى كان جاى ترينشام محبوسا فيه فى السجن المحلى ــــــ " .

قال بيركنشو : " مصادفة " .

" كما أن السيدة ترينشام التى تركتها هناك وكانت تسدد مدفوعات ربع سنوية لمديرة دار الأيتام توقفت بشكل غامض فور وفاة الآنسة بينسون ؛ كل هذا حدث مصادفة . لابد أن هناك سرا كانت تخفيه " .

قال بيركنشو : " كل هذا لا يعد دليلا قاطعا ، والأكثر من ذلك هو أنه لا يعتد به " .

مال نيجيل ترينشام إلى الأمام وكان على وشك التعليق ولكن محاميه أحكم قبضته على ساعده قائلاً : " لن نسقط خديعة مثل هذه الحيل الصبيانية يا سير تشارلى التى تناسب شوارع وايت شابيل وليس لينكولن إن " .

قفز تشارلى من مقعده وقد أحكم قبضة يده وتقدم نحو بيركنشو .

قال بافرستوك فى حدة : " هدئ من روعك يا سير تشارلى " .

توقف تشارلى فى شيء من التردد على بعد أقدام قليلة من بيركنشو الذى لم يكن قد حرك ساكنا . بعد لحظة من التردد تذكر نصيحة دافنى وعاد إلى مقعده . واصل محامى ترينشام تحديقه فيه فى تشكك .

قال بيركنشو : " كما كنت أقول ؛ إن موكلى ليس لديه ما يخفيه . ولن يجد بالطبع أية ضرورة لأن يلجأ إلى أى عنف بدنى لكى يثبت صحة دعواه " .

فك تشارلى قبضة يده ولكنه لم يخفض من نبرة صوته قائلاً : " أتمنى أن يتمكن موكلك من تقديم تبرير لكبير المستشارين عن السبب الذى دفع والدته إلى تسديد مبالغ مالية كبيرة لشخصية فى الطرف المقابل من العالم لم تقابلها قط من قبل كما تزعم ، وكذلك تبرير اصطحاب السيد وولتر سليد ـ أحد السائقين العاملين فى فيكتوريا كنترى كلوب ـ للسيدة ترينشام إلى سانت هيلدا فى العشرين من أبريل عام ١٩٢٧ مع فتاة صغيرة فى عمر كاثى تدعى مارجريت ورحيلها بدونها . وأراهن أن القاضى إن طالب بالتحقيق فى حساب الآنسة بينسون فسوف يكتشف أنها بدأت تتلقى مبالغ مالية من

اليوم الأول من تسجيل الآنسة روس فى سانت هيلدا . كلنا نعلم ـ على أية حال ـ أن حساب الآنسة بينسون قد أغلق فى الأسبوع الذى توفيت فيه " .

وثانية ارتاع بافرستوك من رعونة تشارلى ورفع يده أملا فى التصدى لأية نوبات اهتياج محتملة .

أما بيركنشو فلم يسعه فى المقابل إلا أن يبتسم ابتسامة ساخرة ويقول : " سير تشارلى ، بالرغم من أنك ممثل من قبل محامى فعلىّ أن أذكرك بحقيقتين أساسيتين . بداية دعنى ألق الضوء كاملا على نقطة فى غاية الأهمية وهى أن موكلى قد أكد لى أنه لم يسمع قبل البارحة عن الآنسة بينسون . وعلى أية حال لا يحق لأى قاضٍ إنجليزى أن يراجع الحساب البنكى لأى أسترالى ما لم يكن هناكْ سبب يدعو إلى الاعتقاد بوجود جريمة فى كلا البلدين . ولكن الأكثر من ذلك يا سير تشارلى هو أن اثنين من شهودك قد توفوا بالفعل للأسف بينما الثالث وهو السيد سليد لن يكبد نفسه عناء قطع الرحلة إلى لندن . والأهم من ذلك هو أنك لن تملك القدرة على استدعائه للشهادة .

الآن دعنا نبحث ادعاءك يا سير تشارلى ؛ وهو أن لجنة المحلفين سوف تندهش إن لم يصعد موكلى على منصة الشهادة نيابة عن والدته . لأننى أرى أنها سوف تكون أكثر اندهاشا من كون الشاهد الوحيد وهى المدعية لن تنوب عن نفسها فى الإجابة لأنها لا تتذكر ما حدث بالفعل فى الفترة التى تتحدثون عنها . لا أعتقد أن أى مستشار فى العالم يمكن أن يفرض على الآنسة روس هذه المهمة غير المحتملة إن كانت الكلمات الوحيدة التى سوف تجيب بها على كل سؤال يطرح عليها أثناء الإدلاء بشهادتها هى

" آسفة ولكنى لا أتذكر " ، أو أنها لا تملك ببساطة أى شىء ذى مصداقية يمكن أن يدعم ما تقوله ؟ دعنى أؤكد لك يا سير تشارلى أنه سوف يسعدنا أن نرفع الأمر للقضاء لأن الجميع سوف يسخر منك عندها " .

أدرك تشارلى من النظرة التى رآها على وجه بافرستوك أنه قد هزم . نظر بحزن إلى كاثى التى لم يكن تعبير وجهها قد تغير على مدى الساعة الأخيرة .

خلع بافرستوك نظارته فى تؤدة وأمعن فى تنظيفها جيدا بمنديل استخرجه من جيبه العلوى . ثم تحدث أخيرا قائلا : " أعترف يا سير تشارلى أننى لا أرى أى سبب جيد يدفعنى إلى إهدار وقت القضاء بهذا الأمر . بل إننى فى واقع الأمر أرى أن هذا سوف يكون تصرفا غير مسئول من جانبى ما لم تكن الآنسة روس بالطبع قادرة على إثبات هويتها أو على الأقل تدعم هذه القرائن التى جمعناها عنها . " ، واستدار جهة كاثى قائلاً : " يا آنسة روس ؛ هل هناك شىء تودين قوله ؟ " .

استدار الرجال الأربعة ناحية كاثى التى كانت تجلس فى هدوء تحك بإبهامها الجزء الداخلى من إصبعها الأوسط تحت ذقنها مباشرة . قال بافرستوك : " آسف يا آنسة روس ، لم ألتفت إلى أنك كنت تسعين لجذب انتباهى " .

قالت كاثى : " كلا ؛ كلا ؛ إنه أنا التى يجب أن تقدم اعتذارها يا سيد بافرستوك . إننى أفعل ذلك دائما عندما أشعر بالتوتر . هذا يذكرنى بقطعة المجوهرات التى أهدانى أبى إياها عندما كنت طفلة " .

" قطعة المجوهرات التى أهداها لك أبوك ؟ " . قال السيد بافرستوك ذلك فى هدوء وهو غير واثق من أنه قد سمعها جيدا .

قالت كاثى : " نعم " ، وفكت زر قميصها العلوى وخلعت النيشان الصغير الذى كان يتدلى فى سلسلة حول رقبتها .

قال تشارلى : " هل منحك والدك هذا ؟ " .

قالت كاثى : " نعم . هذه هى الذكرى المادية الوحيدة التى تركها لى " .

سأل السيد بافرستوك : " هل تسمحين لى بمشاهدتها من فضلك ؟ " .

" بالطبع " ، هكذا قالت كاثى وهى تخلع السلسلة من حول رقبتها وتعطيها لـ " تشارلى " . تفحص النيشان لبعض الوقت قبل أن يمد يده به للسيد بافرستوك .

قال تشارلى : " بالرغم من أننى لست خبيرا فى النياشين ، فإننى أعتقد أنه نيشان عسكرى " .

قال بافرستوك : " ألم يكن جاى قد منح النيشان العسكرى الملكى ؟ " .

قال بيركنشو : " هذا صحيح . كما أنه أيضا كان يذهب إلى مدرسة هارو ، ولكن ارتداءه لرابطة العنق المدرسية القديمة لا يثبت أن موكلى أخوه . بل إن هذا لا يثبت شيئا فى واقع الأمر ، كما أنه لا يمكن أن يقدم للمحكمة على أنه دليل . لابد أن هناك مئات من هذه النياشين . إن الآنسة روس يمكن أن تكون قد ابتاعت هذا النيشان من أى متجر لبيع الأشياء عديمة القيمة فى لندن عندما اتخذت قرارا بأن تحيك كل الملابسات التى تجعلها تبدو على أنها

ابنة جاى ترينتام . لا يمكن أن تتوقع أن نسقط ضحية خدعة كهذه يا سير تشارلى " .

قالت كاثى وهى تنظر إلى المحامى مباشرة : " أؤكد لك يا سيد بافرستوك أن أبى هو الذى منحنى هذا النيشان . ربما يكون قد سقط عنه حقه فى ارتدائه ولكننى لن أنسى أبدا أنه هو الذى وضعه حول عنقى " .

قال نيجيل ترينتام الذى تحدث لأول مرة : " لا يمكن أن يكون هذا نيشان أخى ، والأكثر من ذلك هو أنه يمكننى أن أثبت ذلك " .

سأل بافرستوك : " يمكنك أن تثبت ذلك ؟ " .

" هل أنت واثق .... " ، هكذا بدأ بيركنشو حديثه ولكن فى هذه المرة وضع ترينتام يده بإحكام على ذراع محاميه .

واصل ترينتام : " سوف أثبت لك يا سيد بافرستوك أن هذا النيشان لا يمكن أن يكون النيشان الذى فاز به أخى " .

سأل بافرستوك : " وكيف يمكنك أن تفعل ذلك ؟ " .

" لأن نيشان جاى كان فريدا . بعدما منح النيشان العسكرى أرسلت أمى إلى متجر سبينكز لكى يحفر الحروف الأولى من اسم جاى على حافة أحد ذراعى النيشان . هذه الحروف لا يمكن أن ترى إلا بواسطة نظارة مكبرة . أعرف ذلك لأن النيشان الذى منح إياه فى مارن مازال موجودا فوق المدفأة فى منزلنا فى ميدان شيستر . وهذا يعنى أن أى نيشان آخر لابد أن تكون أمى قد حفرت عليه نفس الحروف الأولية بنفس الطريقة " .

ساد الصمت فى الغرفة بينما فتح بافرستوك درج مكتبه واستخرج نظارة مكبرة بيد مصنوعة من العاج كان يستخدمها فى

العادة لفك طلاسم أى خط غير مقروء . وضع النيشان تحت الضوء وأخذ يتفحص حافة الأذرع الفضية الصغيرة واحدة بواحدة .

أقر بافرستوك وهو ينظر ثانية إلى ترينثام : " أنت محق تماماً . لقد حسمت الأمر " . ثم دفع بكل من النيشان والنظارة المكبرة إلى السيد بيركنشو الذى تفحصه بدوره لبعض الوقت قبل أن يعيده إلى كاثى وهو يومئ برأسه إيماءة خفيفة . استدار بيركنشو لوكله وسأله : " هل كانت الحروف الأولى من اسم أخيك هى " ج . ف . ت " ؟ "

" أجل ؛ هذا صحيح . جاى فرانسيس ترينثام " .

" إذن كان يجدر بك أن تغلق فمك " .

بيكى

١٩٦٤ - ١٩٧٠

الفصل
٤٨

عندما اندفع تشارلى داخل غرفة الاستقبال فى مساء ذلك اليوم ؛ شعرت للمرة الأولى أن جاى ترينثام توفى أخيرا .

جلست فى صمت وزوجى يعيد علىَّ فى نشوة كل تفاصيل المواجهة التى وقعت فى مكتب بافرستوك فى وقت مبكر من صباح ذلك اليوم .

لقد أحببت على مدى حياتى أربعة رجال بمشاعر مختلفة تتراوح ما بين الهيام والتفانى ، ولكن تشارلى وحده هو الذى جمع بين كل درجات العشق وغطى كل هذا النطاق . ومع ذلك فحتى فى قمة انتصاره كنت أعلم أننى أنا التى يجب أن أنتزع منه الشىء الذى يحبه بالدرجة الأكبر .

بعد مرور أسبوعين على هذا اللقاء المصيرى ؛ وافق نيجيل ترينثام على التخلى عن حصصه بسعر السوق . بعد ارتفاع سعر

الفائدة على ثمانية بالمائة لم يكن يملك الجرأة على خوض أية معارك مطولة مريرة بشأن حقه فى هاردكاسيل .

وقد اشترى السيد بافرستوك ـ بصفته المتصرف فى التركة ـ كل أسهمه بسعر تعدى السبعة ملايين جنيهات بقليل ، ثم نصح المحامى القديم بعدها تشارلى بوجوب عقد اجتماع طارئ لمجلس الإدارة للإدلاء أمامه بكل ما قد حدث . كما أنه حذر تشارلى أيضا بوجوب إخطار حاملى الأسهم بكل التفاصيل التى وقعت فى غضون أربعة عشر يوماً .

كانت هذه هى المرة الأولى منذ زمن طويل التى تطلعت فيها إلى الاجتماع بكل هذا الترقب .

بالرغم من أننى كنت من بين أوائل من جاءوا إلى قاعة الاجتماعات فى صباح ذلك اليوم ؛ فإن كل المديرين الآخرين كانوا قد وصلوا إلى هناك قبل الموعد المحدد للاجتماع .

" هل هناك أى اعتذارات عن عدم الحضور ؟ " ، هكذا سأل المدير فى تمام العاشرة .

" نيجيل ترينثام وروجر جيبس وهيوج فولاند " ، قالت جيسيكا ذلك فى نبرة حاولت أن تبدو طبيعية إلى أقصى حد .

قال تشارلى : " شكرا لك . محضر الاجتماع السابق . هل تودون أن أوقع على هذه المحاضر باعتبارها سجلات حقيقية ؟ " .

نظرت إلى كل الوجوه الملتفة حول مائدة الاجتماع . كانت دافنى فى ثوبها الأصفر الأنيق تعبث فى محاضرها . وبدا تيد نيومان دمثاً كعادته واكتفى بالإيماء بينما ارتشف سيمون رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه ورفع الكوب مداعبا وكأنه يشرب نخبى عندما التقت

أبصارنا . همس نيد دينينج بشىء غير مسموع فى أذن بوب ماكينز بينما وضعت كاثى علامة صواب على البند رقم اثنين . فقط بول ميريك هو وحده الذى بدا غير مستمتع بالمناسبة . أعدت انتباهى ثانية إلى تشارلى .

وبما أن أحدا لم ينطق بتعليق ؛ فقد طوت جيسيكا الصفحة الأخيرة من المحضر لكى تسمح لـ " تشارلى " بأن يوقع فى السطر الأخير منها . لاحظت ابتسامة تشارلى وهو يعيد قراءة التعليمات الأخيرة التى أوصى بها المجلس " : يجب أن يسعى الرئيس إلى عقد اتفاق ودى مع نيجيل ترينثام لضمان تحقيق الانتقال السلس لشركة ترامبر . "

سأل تشارلى : " هل هناك قضايا نابعة من المحاضر ؟ " . بقى الجميع صامتين ؛ فما كان من تشارلى إلا أن عاد ينظر ثانية على الأجندة . " البند رقم أربعة ؛ مستقبل ـــ " ، هكذا بدأ حديثه ولكن عندها فقط سعى الجميع للتحدث فى آن واحد .

عندما تم استعادة قدر من الهدوء ؛ رأى تشارلى أنه من الحكمة أن يوافيهم المدير التنفيذى بمختصر تفصيلى عن وضع الشركة مؤخرا وقد أيدت بدورى كل كلمات التأييد التى سادت الغرفة فى موافقة للاقتراح .

" شكرا لك يا سيدى الرئيس " ، هكذا قال آرثر سيلوين وهو يستخرج بعض الأوراق من حقيبة يده الموضوعة بجانب كرسيه . ظل باقى أفراد المجلس منتظرين فى صبر . بدأ حديثه وقد بدا أشبه بكبير موظفى الحكومة وهو المنصب الذى كان يشغله بالفعل من قبل فقال : " أود إخطار كل أعضاء مجلس الإدارة أنه بعدما قرر السيد نيجيل ترينثام تنازله عن طرح ترامبر للعطاء فقد هبطت

أسهم الشركة من أعلى سعر حققته وهو جنيهان وأربعة شلنات إلى السعر الحالى الذى يصل إلى جنيه وتسعين شلناً " .

قالت دافنى مقاطعة : " نستطيع جميعاً أن نتابع حركة الأسهم ارتفاعاً وهبوطاً فى السوق . إن ما نود أن نعرفه هو ما الذى آلت إليه أسهم ترينثام الشخصية " .

لم أنضم إلى موجة التأييد التى تبعت هذه المقاطعة لأننى كنت أعرف بالفعل تفاصيل الاتفاق الأخير .

واصل السيد سيلوين حديثه وكأنه لم يتعرض للمقاطعة : " لقد بيعت أسهم السيد ترينثام وفق اتفاق أبرم بين محاميه والآنسة روس إلى السيد بافرستوك نيابة عن هاردكاسيل بسعر جنيهين وشلن واحد للسهم الواحد " .

سألت دافنى : " وهل يمكن إخبار المجلس بالسبب الذى أدى إلى التوصل إلى هذا الاتفاق المريح الصغير ؟ " .

أجاب سيلوين : " لقد اكتشفنا مؤخرا " أن السيد ترينثام اشترى جزءاً كبيراً من حصص الشركة بمال مقترض مما أدى إلى تضخم مديونياته على نحو فاق قدرته على السداد حسب علمى . وبناء على ذلك قرر بيع حصته الشخصية فى الشركة أى ما يصل إلى ثمانية وعشرين بالمائة من نسبة الأسهم مباشرة إلى هاردكاسيل بسعر السوق الجارى " .

قالت دافنى : " وهل باع الأسهم بالفعل ؟ " .

قال تشارلى : " نعم " ، وقد يهم المجلس أيضا أن يعرف أنه على مدى الأسبوع الماضى تلقيت ثلاثة خطابات استقالة من السيد ترينثام والسيد فولاند والسيد جيبس ، وقد سمحت لنفسى نيابة عن المجلس بأن أقبل هذه الاستقالات الثلاثة " .

قالت دافنى فى حدة : " لقد تخطيت حدود السماح بالفعل ؟ "

" هل ترين أننى كان لا يجب أن أقبل هذه الاستقالات ؟ " .

" بالطبع يا سيدى الرئيس " .

" هل لى أن أعرف أسبابك يا ليدى ويلتشاير ؟ " .

" إنها أسباب أنانية تماما يا سيدى الرئيس " ، أعتقد أننى لمحت نبرة هزلية فى صوتها . بقيت دافنى منتظرة إلى أن تأكدت أنها قد حظيت بكل انتباه المجلس ثم أجابت قائلة : " لقد كنت أنتظر بفارغ الصبر طردهم من المجلس " .

لم يتمكن سوى أعضاء قليلين فقط من أفراد المجلس من ضبط أنفسهم فور سماع هذا الاقتراح .

قال تشارلى وهو يستدير جهة جيسيكا : " لا تسجلى هذا فى محضر الاجتماع ، شكرا لك يا سيد سيلوين لهذا الملخص الرائع للوضع الراهن . أرى الآن أننا لسنا بحاجة لهدر المزيد من الوقت فى هذا الأمر ، دعونا إذن ننتقل إلى البند رقم خمسة ، قاعة البنك " .

جلس تشارلى فى مقعده بسعادة بينما قدمت كاثى للمجلس تقريرا عن الربح الشهرى الوافر الذى أصبحت تدره تلك الهيئة المصرفية وقد أكدت أنه ليس هناك أية أسباب يمكن أن تحول دون مواصلة تحقيق هذه الأرباح فى المستقبل المرتقب . قالت كاثى : " بل إننى أرى فى واقع الأمر أنه قد آن الأوان لأن تصدر شركة ترامبر لعملائها بطاقات ائتمان كما ـــــ "

أخذت أحدق إلى النيشان الصغير المتدلى من السلسلة الذهبية التى كان تطوق عنق كاثى ، هذه هى الحلقة المفقودة التى أصر

السيد روبرتس على أنها لابد أن تكون موجودة . كانت كاثى مازالت غير قادرة على تذكر الجزء الأكبر مما حدث فى حياتها قبل أن تأتى للعمل فى لندن ولكننى كنت أتفق مع السيد أتكينز فى أننا يجب ألا نهدر المزيد من الوقت فى الماضى ، بل يجدر بنا أن نركز على المستقبل .

لم يكن أى منا يشك فى أنه عندما يحين وقت اختيار رئيس جديد فلن نكون بحاجة للكثير من البحث . كانت المشكلة الوحيدة التى أواجهها فى ذلك الوقت هى كيفية إقناع الرئيس الحالى بأنه ربما يكون قد حان وقت التنازل عن منصبه لشخص أصغر سنا .

سألت كاثى : " هل لديك أى اعتراض على الحدود العليا يا سيدى الرئيس ؟ " .

" كلا ، كلا ، كل هذا يبدو منطقيًا للغاية بالنسبة لى " ، هكذا قال تشارلى وقد بدا صوته غير واثق على غير العادة .

قالت دافنى : " لست واثقة من أننى أتفق معك فى هذه المرة يا سيدى الرئيس " .

" ولم ذلك يا ليدى ويلتشاير ؟ " ، سأل تشارلى ذلك وهو يبتسم لها فى مودة .

قالت دافنى : " أولا لأنك لم تكن تنصت بإمعان لكل كلمة قيلت على مدى العشر دقائق الماضية ، إذن كيف يمكنك أن تبت فى الأمر ؟ " .

قال تشارلى : " أنا مذنب بالفعل . أعترف أن عقلى قد تشتت فى اتجاه آخر . " واستطرد حديثه قائلا : " ومع ذلك فقد قرأت تقرير كاثى عن الموضوع وأقترح أن الحد الأعلى يجب أن يختلف من عميل إلى آخر تبعا لاعتماده الخاص وقد نكون بحاجة فى

المستقبل إلى تعيين بعض الموظفين الذين يملكون خبرة بنكية حقيقية . ومع ذلك فإننى مازلت أطالب بالحصول على جدول زمنى مفصل إن كنا بصدد تطبيق فعلى لهذا المشروع المقترح والذى يجب أن يكون جاهزا مع حلول موعد اجتماع المجلس القادم . هل هذا ممكن يا آنسة روس ؟ " .

سألها تشارلى فى حزم على أمل أن تكون قدرته على التفكير السريع قد أنقذته من شراك دافنى .

" سوف يكون كل شىء معدا قبل الاجتماع القادم بأسبوع واحد على الأقل " .

قال تشارلى : " شكرا لك " . البند رقم ستة . الحسابات " .

أنصت بإمعان لكل ما طرحه سيلوين عن الأرقام التى حققناها مؤخرا فى كل قسم على حدة . وثانية التفت إلى قدرة كاثى على طرح أسئلة وتخمينات كلما شعرت أننا بحاجة لمزيد من التوضيح أو الطرح بشأن أى خسارة أو ربح . بدت لى وكأنها نسخة منقحة من دافنى .

سألته قائلة : " ما هو إذن الربح المتوقع لعام ١٩٦٥ ؟ " .

" ما يقرب من تسعمائة وعشرين ألف جنيه " ، هكذا أجاب سيلوين وهو يجرى إصبعه بطول قوائم الأرقام .

كانت هذه هى اللحظة التى أدركت فيها ما يجب عمله لكى أقنع تشارلى بإعلان تقاعده .

قال تشارلى : " شكرا لك يا سيد سيلوين . هل ننتقل إلى البند رقم سبعة ؟ " تعيين الآنسة روس نائبا لرئيس المجلس " . خلع تشارلى نظارته وأضاف قائلا : " أشعر أننى لست بحاجة لأن ألقى خطابا مطولا عن الأسباب التى ــــ " .

قالت دافنى : " موافقون . وبناء على ذلك أعلن أنه من دواعى سرورى الحقيقية أن أرشح الآنسة روس لكى تكون نائبة عن مجلس إدارة ترامبر " .

تطوع آرثر سيلوين قائلاً : " أود أن أضم صوتى إلى صوتها ". لم أملك إلا أن أبتسم أمام مشهد تشارلى فاغراً فاه غير أنه نجح فى تمالك نفسه وسأل قائلاً : " من هم المؤيدون ؟ " ، رفعت يدى مع كل المديرين الذين رفعوا أيديهم بدورهم باستثناء مدير واحد .

نهضت كاثى وألقت خطابا مقتضبا ينم عن موافقتها ، شكرت فيه المجلس على ثقته فيها وأكدت له أنها سوف تبذل قصارى جهدها لضمان مواصلة الشركة لنجاحها فى المستقبل .

سأل تشارلى بعد أن بدأ يلملم أوراقه : " هل هناك أمور أخرى ؟ "

قالت دافنى : " نعم بعد أن سررت بترشيح الآنسة روس نائبة للرئيس أشعر أنه قد حان وقت تقديم استقالتى " .

سألها تشارلى وقد بدت عليه علامات الصدمة : " ولكن لماذا ؟ " .

" لأننى سوف أتم الخامسة والستين فى الشهر المقبل يا سيدى الرئيس وأعتقد أن هذه هى السن المناسبة لإفساح المجال لمن هم أصغر سنا " .

" إذن ، لا يسعنى فى هذه المناسبة إلا أن أقول .... " ، وبدأ تشارلى حديثه ، وفى هذه المرة لم يسع أى أحد لمقاطعة حديثه الطويل الزاخر بالمشاعر . عندما أنهى حديثه ، ضج المجلس بطرق مائدة الاجتماعات بأيديهم .

وعندما عاد الهدوء ، قالت دافنى ببساطة : " شكرا لك . لم أكن أتوقع كل هذا الربح من استثمار ستين جنيها " .

فى الأسابيع التى تلت تقاعد دافنى من المجلس ، كان كلما طرأ أمر حساس أسر لى تشارلى بعد انتهاء الاجتماع أنه افتقد ذكاء الماركيزة الفطرى .

" وهل ستفتقدنى وتفتقد لسانى السليط عندما أقدم لك استقالتى ؟ " .

" ما الذى تقولين يا بيكى ؟ " .

" سوف أتم الخامسة والستين بعد عامين وقد عزمت على أن أحذو حذو دافنى " .

" ولكن — "

قلت له : " ليس هناك لكن يا تشارلى " . إن المتجر رقم ١ أصبح يدير نفسه الآن بكفاءة لا مثيل لها منذ أن سرقت ريتشارد كرترايت من كريستى . على أية حال ، ريتشارد يستحق أن يمنح مقعداً فى المجلس الأساسى . إنه يتحمل عبء المسئوليات بدون أن يحصل على أى مقابل " .

أجاب تشارلى فى هجوم مباغت : " حسنا ، سوف أقول لك شيئا واحدا فقط وهو أننى لن أقدم استقالتى حتى عندما أبلغ السبعين " .

أثناء عام ١٩٦٥ ، فتحنا ثلاثة أقسام جديدة ، " قسم المراهقين " الذى تخصص فى ملابس المراهقين وشرائطهم وكان القسم مزودا بمقهى خاص لهم ووكالة سفر لتلبية الطلب المتزايد على

السفر إلى الخارج وقسم الهدايا " للرجل الذى يملك كل شىء " . وقد أوصت كاثى المجلس أيضا أنه بعد انقضاء عشرين عاما قد يكون المركز بحاجة إلى لمسة تجميلية . وقد أخبرنى تشارلى أنه ليس واثقا من رأيه فى هذا الانقلاب الراديكالى وذكرنى بنظرية فورد القائلة بأن الشخص يجب ألا يستثمر ماله أبداً فى أى شىء يبلى أو يكون بحاجة إلى إعادة طلاء . ولكن بما أن آرثر سيلوين والمديرين الآخرين كانوا يرون بلا شك أن المركز بحاجة ماسة إلى تجديد فإن اعتراض تشارلى بدا ضعيفا .

وقد التزمت بما عاهدت نفسى عليه - أو بتهديدى كما يطلق عليه تشارلى - وقدمت استقالتى بعد اتمامى الخامسة والستين بثلاثة أشهر وتركت تشارلى ليصبح المدير الوحيد الذى بقى داخل المجلس من الأعضاء المؤسسين .

للمرة الأولى على ما أذكر ، اعترف لى تشارلى بأنه بدأ يشعر بعمره الحقيقى . كان كلما طلب قراءة محضر الاجتماع السابق ونظر حوله إلى باقى أعضاء المجلس شعر بأنه لم تعد هناك أية نقاط مشتركة تربطه بباقى المديرين . " الجيل الجديد المشرق " - كما كانت تطلق عليه دافنى المؤلف من رجال المال والمتخصصين ومتخصصى العلاقات العامة - كانوا جميعا يبدون منفصلين عن العنصر الوحيد الذى كان يحتل دائما المقام الأول لدى تشارلى ألا وهو العميل .

كانوا يتحدثون عن العجز المالى وخطط الاقتراض والحاجة إلى اقتناء الحاسب بدون أن يزعجوا أنفسهم فى معظم الأحوال حتى بمعرفة رأى تشارلى .

" ما الذى يمكننى عمله حيال كل هذا ؟ " ، هكذا سألنى تشارلى بعد اجتماع مجلس الإدارة الذى اعترف لى بأنه نطق فيه بالكاد بكلمات قليلة .

قطب تشارلى عندما سمع اقتراحى .

فى الشهر التالى أعلن آرثر سيلوين لمجلس إدارة الشركة أن الأرباح المتوقعة لعام ١٩٦٦ سوف تكون قرابة مليون وثمانية وسبعين ألفا وستمائة جنيه . نظر إلىّ تشارلى بينما أومأت فى حزم من الصف الأول وقد انتظر إلى أن سمع عبارة : " هل هناك أية أعمال أخرى ؟ " ، ثم نهض لكى يخبر كل أعضاء الشركة أنه قد آن أوان تقديم استقالته . يجب أن يدفع شخص آخر العربة النقالة ويدخل بها السبعينات .

بدت الصدمة واضحة على كل الحاضرين وأخذوا يتحدثون عن نهاية العهد وأنه " ليس هناك بديل " وأن الوضع لن يعود أبداً إلى سابق عهده ، ومع ذلك لم يقترح أى منهم أن يعيد تشارلى التفكير فى قراره .

وبعدها بعشرين دقيقة أنهى تشارلى الاجتماع .

الفصل

٤٩

كانت جيسيكا آلان هى أول من أخبر الرئيس الجديد بأن السيد كوركان قد اتصل به من متحف لوفيفر ليبلغها بأنه قد قبل عرضها بمائة وعشرة آلاف جنيه .

ابتسمت كاثى وقالت : " الآن كل ما علينا عمله هو أن نتفق على موعد ونرسل الدعاوى ، هل يمكنك أن تتصلى بـ " بيكى " يا جيسيكا ؟ " .

كان أول ما فعلته كاثى بعدما انتخبها المجلس بالإجماع الرئيس الثالث لشركة ترامبر هو تعيين تشارلى رئيساً شرفياً مدى الحياة وإقامة حفل عشاء على شرفه فى فندق جروزفر هاوس وقد حضر المناسبة كل أفراد طاقم العمل فى ترامبر وأزواجهم وزوجاتهم والعديد من الأصدقاء الذين اكتسبهم تشارلى وبيكى على مدى سبعة عقود تقريبا . جلس تشارلى فى مقعده فى مركز المائدة الرئيسية فى تلك

الليلة . كان واحداً من بين ألف وسبعمائة مدعو ملأوا القاعة فى ذلك اليوم .

ثم قُدم عشاء مؤلف من خمسة أطباق عجز حتى بيرسى عن اقتناص أى عيب فيه . بعدما قدم لـ " تشارلى " الشراب وأشعل له سيجاراً كبيراً من ترامبر مال على بيكى وهمس قائلا : " ليت أباك كان قد رأى هذا الحشد . لم يكن بالطبع سيوافق على الحضور ما لم يكن هو الذى سيقدم كل المخبوزات من المرون جلاسيه وحتى لفائف الخبز " .

أجابت بيكى فى هدوء : " ليت دانيال كان حاضرا هو الآخر " وبعدها بدقائق قليلة وقفت كاثى وألقت خطاباً لم يترك لدى أى أحد شكاً فى أنه قد تم انتخاب الشخص الصحيح لرئاسة المجلس بعد تشارلى . أنهت كاثى خطبتها بدعوة الحشد إلى تناول الشراب على شرف مؤسس ترامبر ورئيسها الشرفى مدى الحياة . بعدما توقف التصفيق ؛ انحنت إلى أسفل وأخرجت شيئاً ما من تحت مقعدها . قالت : " تشارلى ، هذه ذكرى صغيرة منا نود أن نعرب لك من خلالها عن شكرنا إزاء كل التضحيات التى بذلتها لكى تحافظ على ترامبر " . استدارت كاثى وقدمت لوحة زيتية إلى تشارلى . توهج وجهه بابتسامة عريضة وهو يتوق إلى مشاهدة اللوحة . وفتح تشارلى فمه عن آخره وسقط السيجار فوق المائدة وهو يحدق غير مصدق . مضى وقت قبل أن يتمكن من تنحية لوحة " آكلى البطاطا " جانبا لكى ينهض ويستجيب للجماهير التى كانت تطالبه بإلقاء خطبة .

بدأ تشارلى بتذكير المدعوين ثانية كيف بدأ كل شيء ، لقد بدأ الأمر بعربة جده النقالة فى وايت شابيل ؛ تلك العربة التى كانت تقف فى ذلك الوقت فى شموخ فى قاعة الطعام فى شركة ترامبر . وأشاد بالكولونيل الذى كان قد توفى وقتها منذ زمن ، ورواد الشركة ؛ السيد كراوثر والسيد هادلو وكذلك اثنين من أول طاقم عمل لدى ترامبر ؛ بوب ماكينز ونيد دينينج واللذين كانا قد تقاعدا قبل أسابيع من تقاعده . ثم انتهى بـ " دافنى " ماركيزة ويلتشاير التى كانت قد أقرضتهم أول ستين جنيها ؛ النواة التى قام عليها كل هذا المشروع الضخم .

قال فى آسى : " ليتنى أعود صبياً فى الرابعة عشرة من جديد . ليتنى أعود إلى عربتى النقالة وزبائنى الدائمين فى وايت شابيل . كانت هذه هى أسعد أيام حياتى . لأننى فى الأصل ـ كما ترون ـ لست سوى بائع خضراوات وفاكهة بسيط " . ضحك الجميع باستثناء بيكى التى أخذت تحدق إلى زوجها وتتذكر الفتى ذا الثمانية أعوام فى بنطاله القصير الذى كان يقف حاملا قبعته بين يديه خارج متجر أبيها وهو يتوقف بلهفة للحصول على فطيرة مجانية .

" أنا فخور ببناء أكبر عربة نقالة فى العالم كما أننى فخور الليلة بوجودى وسط كل الأشخاص الذين ساعدونى على دفع العربة النقالة من الطرف الشرقى بطول الطريق إلى تشيلسيا . سوف أفتقدكم جميعا وكل ما أتمناه أن تسمحوا لى بأن أزور شركة ترامبر من آن إلى آخر " .

بمجرد أن جلس تشارلى ؛ نهض كل طاقم العاملين لتقديم التحية له فمال على بيكى وأمسك يدها وقال : " سامحينى ؛ لقد

نسيت أن أخبرهم بأنك أنت التى أسست هذه الشركة فى المقام الأول " .

كان على بيكى ـ التى لم يكن قد سبق لها الذهاب إلى مباراة كرة قدم فى حياتها من قبل ـ أن تقضى الساعات فى الإنصات إلى حديث زوجها عن كأس العالم وكيف أنه تم اختيار ثلاثة لاعبين على الأقل من فريق ويستهام للانضمام إلى المنتخب الإنجليزى . على مدى الأسابيع الأربعة الأولى بعد تقاعد تشارلى كرتيس ؛ بدا سعيدا بتولى ستان مهمة القيادة له من شيفيلد إلى مانشستر ومن ليفربول إلى ليدز لكى يشاهدا المباريات الأولى سويا .

عندما نجحت إنجلترا فى الوصول إلى ما قبل النهائى بذل تشارلى كل جهده لكى يحصل على تذكرتين وقد كللت هذه الجهود بالنجاح عندما نجح الفريق فى الوصول إلى النهائى .

ومع ذلك ؛ فبالرغم من اتصالاته واستعداده لدفع أى ثمن وحتى إرساله خطابا لـ " ألف رامسى " ؛ مدير الفريق الإنجليزى ؛ فشل فى الحصول على تذكرتين للنهائى . وقد أخبر بيكى أنه قد قرر على مضض أنه سوف يشاهد مع ستان المباراة فى التلفاز .

فى صباح المباراة ؛ نزل تشارلى لتناول الإفطار وإذا بتذكرتين فى انتظاره عند محمصة الخبز . لم يستطع أن يتناول البيض واللحم البقرى لفرط سعادته . " أنت عبقرية يا سيدة ترامبر " ، ظل يردد هذه العبارة عدة مرات ثم سألها قائلا : " ولكن كيف حصلت عليها " .

" إنها الاتصالات " ، كان هذا هو كل ما أجابت به بيكى بعد أن قررت ألا تُسمح لـ " تشارلى " بأن يعرف أن المحاسب الجديد

كشف عن أن السيدة رامسى تملك حساباً فى شركة ترامبر وأن كاثى كانت قد قررت أن تضمها إلى قائمة الزبائن التى تحصل على تخفيض يصل إلى عشرة بالمائة .

قاد النصر الذى حققه الفريق الإنجليزى على فريق ألمانيا الغربية فى مباراة النهائى التى جاءت نتيجتها أربعة أهداف إلى اثنين والأهداف الثلاثة التى سجلها جيف هورست من وستهام ؛ قاد تشارلى إلى حافة الجنون مما دفع بيكى إلى التساؤل ما إن كان زوجها قد نسى أمر شركة ترامبر وأطلق يد كاثى فى الإدارة .

ومع ذلك ، فبعد مرور أسبوع من عودة تشارلى من استاد ويمبلى كان خلالها سعيدا تماما ببقائه فى المنزل ؛ شعرت بيكى فى الأسبوع الثانى أنها إن لم تفعل شيئا حيال الأمر فسوف تفقد صوابها فضلا عن أنها ستخسر معظم طاقم العاملين لديها فى ميدان إيتون . فى يوم الاثنين من الأسبوع الثالث ؛ ذهبت إلى شركة ترامبر لكى تقابل مدير قسم الرحلات وفى الأسبوع الرابع وصلت التذاكر من مكتب كونارد إلى الليدى ترامبر . كانت قد حجزت رحلة على متن السفينة كوين مارى إلى نيويورك تليها جولة ممتدة فى الولايات المتحدة .

" أتمنى أن تنجح فى إدارة العربة النقالة بدونى " ، هكذا قال تشارلى وهما فى طريقهما إلى ساوثهامبتون .

" أعتقد أنها سوف تنجح فى تدبر أمرها " ، هكذا قالت بيكى التى كان قد خططت للبقاء بعيدا لفترة لا تقل عن ثلاثة أشهر لكى تمنح كاثى فرصة لتطبيق برنامج تجديد ترامبر لأنها كانت تعلم هى وكاثى أن تشارلى كان سيبذل كل ما فى وسعه لكى يعرقل هذا البرنامج .

وقد تأكدت بيكى من صحة توقعها فى اللحظة التى وصل فيها
تشارلى إلى بلومينجدل وأخذ يحدق إلى المعروضات ويشكو من نقص
المكان المخصص لرؤية البضائع . فما كان من بيكى إلا أن قادته إلى
متجر ميسى حيث شكا من نقص الخدمة وعندما وصلا إلى
شيكاغو ؛ أخبر تشارلى جوزيف فيلد أنه لم يعد يعبأ بنوافذ العرض
التى كانت ذات يوم العلامة المميزة لذلك المتجر الكبير . فقال
للمالك : " إنها شديدة البهرجة ؛ حتى بالنسبة لأمريكا " كانت
بيكى على وشك أن تنصحه بالتحدث بنبرة أكثر رقة أو أكثر
دبلوماسية ما لم يكن جوزيف فيلد نفسه قد اتفق مع صديقه القدي
فى كل كلمة قالها فى الوقت الذى ألقى فيه باللوم بشدة على المدي
الجديد الذى كان يؤمن بـ " قوة الزهور " أيًا كان ما يعنيه هذا .

لم يكن الوضع أفضل فى دالاس أو سان فرانسيسكو أو لوس
أنجلوس . وعندما انقضت فترة الثلاثة أشهر ؛ صعد تشارلى وبيكى
ثانية على متن السفينة الكبيرة فى نيويورك وعاد اسم ترامبر ثاني
يتردد على لسان تشارلى . بدأت بيكى تخشى ما سوف يحدث
بمجرد أن يطأ الأرض الإنجليزية .

كان كل ما تتمناه هو أن يساعد قضاء خمسة أيام فى البح
الهادئ ونسيم الأطلنطى المنعش على إشعار تشارلى بالاسترخ
ونسيان ترامبر لبضع لحظات . ولكنه قضى معظم ساعات رحل
العودة وهو يشرح لـ " بيكى " أفكاره الثورية للشركة وهى الأفك
التى شعر أنها يجب أن تطبق فور عودته إلى لندن . عندها قرر
بيكى أن تتخذ موقفا حازما نيابة عن كاثى .

" ولكنك لست حتى عضوا فى مجلس الإدارة " ، هكذا ذكر
بيكى وهى مستلقية لتأخذ حمام شمس .

" أنا رئيس الشركة مدى الحياة " ، هكذا أصر قائلاً بعدما انتهى من طرح آخر أفكاره التى تقضى بوضع إشارة على الملابس لمحاربة السرقة .

" ولكن هذا منصب شرفى فقط " .

" هراء . يحق لى أن أعرب عن رأيى وقتما شئت " .

" تشارلى ؛ هذا ليس منصفا لـ " كاثى " . إنها لم تعد مجرد مديرة لمشروع عائلى وإنما رئيسة لإحدى كبريات الشركات العامة . لقد حان وقت ابتعادك عن ترامبر والسماح لها بأن تدفع العربة النقالة بطريقتها " .

" إذن ما هو المفترض أن أقوم به ؟ " .

" لا أعرف يا تشارلى ولا أعبأ . ولكن أيًا كان ما سوف تفعله فسوف يكون بعيداً عن تشيلسيا . هل هذا واضح ؟ " .

كان تشارلى على وشك الرد عليها ما لم يكن أحد العاملين قد توقف بجوارهما .

" آسف على المقاطعة يا سيدى " .

قال تشارلى : " ليست هناك أية مقاطعة . إذن ما الذى تريدنى أن أفعله ؟ أقود ثورة أم أجهز ملعب التنس ؟ " .

قال الشاب : " هذه وظيفة ضابط المحاسبة يا سير تشارلز " ، ولكن القبطان يود أن يقابلك فى غرفة القيادة . لقد تلقى برقية من لندن يرى أنك يجب أن تعرف محتواها فى الحال " .

" أتمنى ألا تكون أنباء سيئة " ، هكذا قالت بيكى وهى تنهض سريعا وتضع الرواية التى كانت تحاول قراءتها على متن السفينة بجوارها وأضافت : " لقد أخبرتهم بعدم الاتصال بنا إلا فى حالة الطوارئ " .

قالت تشارلى : " هراء " أنت متشائمة بطبعك . أنت لا ترين دائما إلا نصف الكوب الفارغ " . نهض وشد جسده قبل أن يصحب الموظف الشاب إلى غرفة القيادة شارحاً له كيف سيحدث ثورة . سارت بيكى خلفهما بخطوة واحدة بدون أن تقدم أى تعليق .

عندما وصلا إلى غرفة القيادة ؛ استدار القبطان لكى يقدم لهما التحية .

" لقد وصلتنا برقية من لندن الآن يا سير تشارلز وأعتقد أنك سوف تود قراءة محتواها ، " قال القبطان ذلك وهو يمد يده بها .

همهم تشارلى قائلاً : " اللعنة ؛ لقد نسيت نظارتى على سطح السفينة . بيكى ؛ اقرئيها لى من فضلك " . وأعطى الورقة لزوجته .

فتحت بيكى البرقية بأصابع مرتجفة بعض الشيء وقرأتها لنفسها أولا بينما بقى تشارلى يتفحص وجه زوجته فى محاولة لتخمين محتوى الرسالة .

" هيا إذن أخبرينى ؟ ما الخطب أهو نصف الكوب الممتلئ أ
الفارغ ؟ " .

أجابت بيكى : " إنه طلب من قصر باكينجهام " .

قال تشارلى : " مصداقاً لما قلته لك . لا يمكنك أن تدعيه
يقومون بكل شيء بمفردهم . إنه اليوم الأول من الشهر ؛ إنه
بحاجة إلى صابون الحمام ، وجلالتها تفضل اللافندر ومعجو
الأسنان ؛ وجلالته يحب الكولجيت وورق الحمام ......لق
حذرت كاثى ـــ " .

قالت بيكى : " لا أظن أن ورق التواليت هو الذى يزع
جلالتها الآن ؟ " .

سأل تشارلى : " إذن ما هى المشكلة ؟ " .

" إنهم يودون معرفة أى لقب تود أن تأخذ ؟ " .

قال تشارلى : " لقب ؟ " .

قالت بيكى وهى تستدير لتنظر إلى زوجها : " نعم لورد ترامبر لأى مدينة ؟ " .

اندهشت بيكى بينما تنفست كاثى الصعداء عندما انهمك اللورد ترامبر لـ " وايت شابيل " سريعا فى مهام عمله الجديد فى مجلس اللوردات . تبددت مخاوف بيكى من تدخل تشارلى اليومى فى شئون الشركة عندما انهمك فى عمله الملكى الجديد . أعاد العمل الجديد لزوجته ذكرى أيام الحرب العالمية الثانية عندما كان يعمل فى وزارة الغذاء تحت إدارة اللورد وولتون والتى لم تكن تعرف وقتها فى أى ساعة من الليلة سوف يعود إليها .

بعد انقضاء ستة أشهر على مطالبة بيكى له بعدم الاقتراب من شركة ترامبر . أعلن تشارلى أنه قد أصبح عضوا فى اللجنة الزراعية حيث يستطيع أن يوظف خبرته لصالح باقى أعضاء اللجنة . وقد استعاد تشارلى نظامه القديم وعاد يستيقظ فى الرابعة والنصف من صباح كل يوم لكى يستوفى كل الأوراق البرلمانية المطلوب إنجازها قبل اللقاءات الهامة .

كان تشارلى كلما عاد إلى المنزل لتناول العشاء ، يكون محملاً بالقصص والأنباء عن موضوع اقترحه للجنة فى ذلك اليوم أو الكيفية التى أضاع بها عضو أخرق وقت المجلس فى مناقشة أمور تافهة .

عندما تقدمت بريطانيا بطلب الالتحاق إلى السوق المشتركة فى عام ١٩٧٠ ، أخبر تشارلى زوجته بأن الرئيس قد عرض عليه منصباً فى إحدى اللجان الفرعية لتوزيع الغذاء فى أوروبا وشعر أنه من

واجبه أن يوافق . منذ ذلك اليوم ، كانت بيكى كلما نزلت لتناول الإفطار وجدت عددا لا يحصى من الأوراق أو النسخ من جريدة اللوردات اليومية - " هنسارد " - ملقاة بطول الطريق من مكتب تشارلى إلى المطبخ والتى كانت تنتهى بكل مرة لا محالة بورقة يشرح لها فيها اضطراره للذهاب لعقد اجتماع مبكر للجنة الفرعية أو لمقابلة شخصية أجنبية مرموقة جاءت لزيارة لندن ممن يؤيدون انضمام إنجلترا إلى السوق الأوروبية . حتى ذلك الوقت لم تكن بيكى تعرف كم الجهد المضنى الذى كان يبذله أعضاء مجلس اللوردات .

واصلت بيكى اطلاعها على أحوال شركة ترامبر من خلال زياراتها المنتظمة إليها صباح كل اثنين . كانت تعمد دائماً إلى الذهاب فى وقت يكون العمل فيه هادئاً نسبياً وأصبحت هى المصدر الذى يستقى منه تشارلى معلوماته عن ترامبر وما يجرى بها .

كانت تستمتع دائماً بقضاء ساعات قليلة من التسكع فى الأقسام المختلفة . لم يسعها إلا أن تلحظ السرعة المحمومة التى تغيرت بها الأزياء، وكيف كانت تنجح كاثى دائماً فى التقدم على منافسيها بخطوة فى الوقت الذى لم تكن تمنح فيه عملاءها الدائمين فرصة للتذمر من إجراء أى تغيير غير ضرورى .

كان آخر ما تقوم به بيكى فى كل مرة هو الاتصال بدار المزادات لتفقد اللوحات التى سوف تطرح فى المزاد التالى . مضى وقت ليس بقليل على تسليمها القيادة لريتشارد كرترايت ، كبير المزايدين السابق ، ولكنه كان يحرص دائما على أن يريها بنفسه اللوحات التى سوف تقدم فى المزاد . فقال لها مؤكداً : " إنها المدرسة التأثيرية فى هذه المرة " .

قالت وهى تتفحص الأعمال المعروضة : " الآن دعنا نراجع الأسعار الرئيسية ، ولكن علينا أن نحرص على تكتم أمر اللوحات عن تشارلى " .

قال ريتشارد منبهاً إياها : " ولكنه مر علينا بالفعل يوم الخميس الماضى وهو فى طريقه إلى مقر مجلس اللوردات وحدد سعراً تقديريا لثلاث لوحات ، بل ووجد وقتاً لكى يشكو من بعض الأسعار التقديرية . وقد زعم أنه قد اشترى منك لوحة كبيرة تحمل اسم الرجل الصياد منذ سنوات دفع فيها سعراً قدرته الآن ثمنا للوحة باستيل صغيرة لا ترقى إلى مستوى الأعمال الكبرى " .

قالت بيكى وهى تتصفح الكتالوج لمراجعة الأسعار التقديرية : " قد يكون محقاً فى ذلك . ليكن الله فى عون ميزان حساباتكم إن فشلتم فى الوصول إلى الأسعار التقديرية التى وضعها للوحات التى وقع اختياره عليها . عندما كنت أدير هذا القسم كان تشارلى قد اشتهر دائما بـ " متعاقد الخسارة " .

بينما كانا يتحدثان جاء أحد الموظفين وانضم إليهما وأومأ فى أدب للسيدة ترامبر وقدم لـ " ريتشارد " رسالة . تصفح الرسالة قبل أن يستدير إلى بيكى قائلاً " الرئيسة تود أن تقابلك فى مكتبها قبل أن تغادرى . هناك شىء عاجل تود مناقشته معك " .

اصطحب ريتشارد بيكى إلى المصعد فى الدور الأرضى حيث شكرته ثانية على تكريس وقته لإرضاء سيدة عجوز مثلها .

عندما صعد بها المصعد بالكاد إلى الدور الأعلى كان هذا من بين الأشياء التى يجب أن تتدبرها كاثى فى خطة التجديد . أخذت بيكى تسائل نفسها عن سبب رغبة الرئيسة فى مقابلتها وتمنت ألا

يكون السبب هو رغبتها فى إلغاء العشاء الذى كان سيجمعهما فى تلك الليلة مع جوزيف وباربرا فيلد .

بالرغم من أن كاثى كانت قد انتقلت من ميدان إيتون منذ ثمانية عشر شهرا تقريبا للعيش فى شقة واسعة فى تشيلسيا ، فقد كانوا مازالوا يحرصون على تناول العشاء سوياً مرة واحدة شهرياً على الأقل . كما أنهم كانوا يحرصون دائما على دعوة كاثى لتناول العشاء معهم فى المنزل كلما دعوا عائلة فيلدز أو بلومينجديل . كانت بيكى تعرف أن جوزيف فيلد - الذى كان مازال يرأس متجرا كبيرا فى شيكاغو - سوف يأسف إن لم تتمكن كاثى من الحضور فى تلك الليلة خاصة أنه كان قد أزمع العودة إلى أمريكا فى اليوم التالى .

قادت جيسيكا بيكى على الفور إلى مكتب الرئيسة حيث وجدت كاثى تتحدث فى الهاتف عاقدة حاجبيها كالمعتاد . بينما بقيت فى انتظار إنهاء الرئيسة لمحادثتها ، أخذت بيكى تحدق عبر النافذة إلى الأريكة الخشبية فى الجانب البعيد من الشارع وفكرت فى تشارلى الذى أسعده الانضمام إلى العمل فى مجلس اللوردات .

وبمجرد أن وضعت كاثى سماعة الهاتف ، سألت بيكى على الفور : " كيف حال تشارلى ؟ " .

قالت بيكى : " أخبرينى أنت ؟ . إننى لا أقابله إلا فى العشاء من وقت إلى آخر على مدى الأسبوع حتى إنه أصبح يتغيب أحيانا أيضا عن تناول الإفطار أيام الآحاد . ولكن هذا هو تحديدا ما أود أن أسألك عنه ؟ هل ظهر فى ترامبر مؤخرا ؟ " .

" ليس كثيرا . لكى أكون صادقة ، مازلت أشعر بالذنب لأننى حظرت عليه المجىء إلى المركز " .

قالت بيكى : " ليس هناك أية مدعاة للشعور بالذنب ، لم أره من قبل أسعد حالا " .

قالت كاثى : " يسرنى سماع ذلك ، ولكننى الآن بحاجة إلى نصيحة تشارلى فى أمر عاجل للغاية " .

" وما هو ذلك ؟ " .

قالت كاثى : " السيجار . كنت أحادث ديفيد فيلد فى الهاتف فى وقت سابق وقد أخبرنى أن والده يود شراء دستة علب من نوع السجائر المفضلة لديه وطلب منى بألا أزعج نفسى بإرسال السيجار إلى كونوت لأنه سوف يسعد بتسلمها بنفسه عندما يأتى لتناول العشاء معنا الليلة " .

" إذن ما هى المشكلة ؟ " .

" المشكلة أن ديفيد فيلد وقسم التبغ ليس لديهما أدنى فكرة عن النوع المعتاد لوالده . يبدو أن تشارلى كان يتولى ذلك بنفسه " .

" يمكنك مراجعة الفواتير القديمة " .

قالت كاثى : " هذا أول ما فعلته ، ولكن ليس هناك أى أثر يدل على وقوع أى تعامل بين الجانبين . مما أثار دهشتى لأننى حسب علمى - أعرف أن السيد فيلد يحرص دائما على أن يتم إرسال دستة من نوعه المفضل إلى كونوت كلما جاء إلى لندن " .

تجهمت كاثى وعقدت حاجبيها ثانية قائلة : " لقد كان هذا من الأشياء التى طالما أثارت فضولى . لأنه كان يملك بلاشك قسماً كبيراً للتبغ فى متجره الخاص " .

قالت بيكى : " بالطبع . ولكنه لم يكن يملك أى نوع من هافانا " .

" هافانا ؟ لا أفهم " .

" فى وقت ما فى الخمسينات ؛ حظرت الولايات المتحدة استيراد أى نوع من أنواع التبغ الكوبى ولم يجد والد ديفيد فيلد الذى كان قد اعتاد تدخين نوع معين من التبغ الكوبى قبل أن يسمع أى شخص عن فيديل كاسترو بزمان أصر على شراء نفس النوع الذى اعتاد عليه واعتبر هذا حقاً من حقوقه الذى ليس لأحد أن ينازعه فيها " .

" إذن كيف عالج تشارلى هذه المشكلة ؟ " .

" كان تشارلى يتوجه بنفسه إلى قسم التبغ وينتقى دستة من علب النوع المفضل للرجل ويعود إلى مكتبه ويزيل العلامة التجارية لكل سيجار ثم يعيد لفها بعلامة تجارية أخرى قبل أن يعيدها إلى علبة مجهولة الهوية . كان يحرص دائما على التأكد من وجود النوع المفضل للسيد فيلد . كان يشعر أن هذا هو أقل ما يمكن أن يقوم به أمام الحفاوة التى كانت تستقبلنا بها عائلة فيلدز على مر السنين " .

أومأت كاثى موافقة : " ولكننى مازلت بحاجة إلى معرفة النوع الذى يفضله الرجل ويعتبره حقا من حقوقه الذى ليس لأحد أن ينازعه فيها " .

قالت بيكى : " ليس لدىَّ أدنى فكرة . إن تشارلى كما تقولين لم يكن يسمح لأى شخص سواه بأن يعد هذه الطلبية " .

" إذن يجب علينا أن نطلب من تشارلى إما أن يأتى بنفسه لكى يعد الطلب أو على الأقل يخبرنا بالنوع المفضل للسيد فيلد . أين يمكن أن نعثر على الرئيس الشرفى فى الحادية عشرة والنصف من صباح يوم الاثنين ؟ " .

" سوف تجدينه مختبئاً فى إحدى غرف اللجان فى مجلس اللوردات على ما أظن " .

قالت كاثى : " كلا إنه ليس هناك ، لقد اتصلت بمجلس اللوردات بالفعل وقد أكدوا لى أنهم لم يروه هذا الصباح والأكثر من ذلك هو أنهم لا يتوقعون حضوره على مدى الأسبوع " .

قالت بيكى " ولكن هذا ليس ممكنا . إنه يعيش فى ذلك المكان فى واقع الأمر " .

قالت كاثى : " هذا ما كنت أظنه ولذلك اتصلت بالمتجر رقم واحد طلبا لمساعدتك " .

قالت بيكى : " سوف أحسم هذا الأمر فوراً . إن اتصلت لى جيسيكا بمجلس اللوردات فسوف أحادث الشخص الذى يعرف تحديدا مكان تشارلى " .

عادت جيسيكا إلى مكتبها وبحثت عن الرقم وبمجرد أن أجابها الطرف المقابل ، حولت المكالمة إلى مكتب الرئيسة حيث التقطت بيكى سماعة الهاتف .

قالت بيكى : " مجلس اللوردات ؟ مجلس الرسائل من فضلك ... أود التحدث مع السيد آنسون من فضلك ؟ كلا ، حسنا ، ولكننى بحاجة لأن أترك له رسالة عاجلة خاصة باللورد ترامبر ... لوايت شابيل ... نعم ، أعتقد أنه كان فى اللجنة الزراعية صباح اليوم .... هل أنت واثق ؟ .... ولكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً .... أنت تعرف زوجى ، أليس كذلك ؟ .... ياله من أمر مثير .... كلا ، شكراً لك .... كلا لن أترك رسالة وأرجوك لا تزعج السيد آنسون بالأمر ، إلى اللقاء " .

وضعت بيكى سماعة الهاتف وإذا بـ " كاثى " وجيسيكا يحدقان إليها كما لو كانا طفلين فى انتظار سماع نهاية قصة ما قبل النوم .

" لم يظهر تشارلى فى مجلس اللوردات هذا الصباح . ولكن الأدهى من ذلك هو أنه ليس هناك لجنة تدعى اللجنة الزراعية . كما أنه ليس عضوا فى اللجنة الأصلية والأكثر من ذلك هو أنهم لم يشاهدوه منذ ما يقرب من ثلاثة شهور " .

قالت كاثى : " ولكننى لا أفهم . كيف كنت تحادثينه من قبل ؟ " .

" بواسطة رقم خاص كان تشارلى قد منحنى إياه واحتفظت به بجوار هاتف البهو فى ميدان إيتون . إنه يوصلنى بسكرتير مجلس اللوردات السيد آنسون الذى يبدو دائما وكأنه يعرف مكان تشارلى فى أى وقت من الليل أو النهار " .

سألت كاثى : " وهل هناك وجود للسيد آنسون ؟ " .

قالت بيكى : " نعم . ولكن يبدو أنه يعمل فى طابق آخر من المجلس ولذلك تم تحويلى إلى مكتب الاستعلامات العام " .

" إذن ما الذى يحدث عادة عندما تنجحين فى الاتصال بالسيد آنسون ؟ " .

" يتصل بى تشارلى عادة فى غضون ساعة " .

" إذن لم لا تتصلين به الآن ؟ " .

قالت بيكى : " أفضل ألا أتصل به الآن . أعتقد أنه من الأفضل أن أتوصل أولاً إلى ما كان يفعله تشارلى على مدى العامين الماضيين . لأن هناك شيئاً أكيداً واحداً وهو أن السيد آنسون لن يبوح لى بشىء " .

قالت كاثى " ولكن قد يكون السيد آنسون هو الشخص الوحيد الـذى يعـرف . علـى أيـة حـال ، إن تشـارلى لا يعـيش فـى الفضاء . " . ثم استدارت الاثنتان لتواجها جيسيكا .

قالت كاثى " لا تنظر إلىّ . إنه لم يتصل بهذا المكتب منذ اليوم الذى حظرتِ فيه عليه أن يأتى إلى تشيلسيا . إن لم يكن ستان يأتى إلى المقصف لتناول الغداء من وقت إلى آخر لما كانت أعلم أنـه مـازال على قيد الحياة " .

قالت بيكى وهـى تطبق علـى أصـابعها : " بـالطبع سـتان هـو الشخص الوحيد الذى يعرف بكل تأكيد ما الذى يجرى . إنه مازال يأتى لاصطحاب تشارلى فى الصباح ويعود بـه فـى آخـر الليـل . إن تشارلى لا يمكن أن يخفى كل ما يفعله عـن سـائقه وهـذا يعنـى أنـه يتمتع بثقته المطلقة " .

قالت كاثى وهى تراجع جدول أعمالهـا اليومى : " حسـنا يـا جيسيكا . ألغى موعدى على الغداء مع المدير التنفيذى لشركة موس روس ثم أخبرتنى سكرتيرتى أننى لن أتلقى أية مكالمات هاتفية ولا أريد أية مقاطعة إلى أن أعرف تحديدا مـا الـذى كـان يفعلـه رئيسـنا الشرفى . وعندما تنجزين هذه المهمة ؛ اذهبى إلى المقصـف وابحثـى عن ستان هناك فإن كان هناك اتصلى بى فى الحال . "

كادت جسيكا تركض خارجة من الغرفـة بينمـا توجهـت كـاثى بكل انتباهها إلى بيكى .

قالت بيكى فى هدوء : " هل يمكن أن تكون له عشيقة ؟ "

" ليل نهار علـى مـدى عـامين فـى هـذه السـن ؟ إن كـان كمـا تقولين فيجب أن ننتخبه فحل العام ونعرضه فـى المتحـف الزراعـى الملكى " .

" إذن ما الخطب ؟ " .

" أعتقد أنه يذاكر لنيل درجة الدكتوارة فـى جامعـة لنـدن لقـد كان يغتاظ دائما كلما مازحته متهمة إياه بأنه لم يكمـل تعليمـه كمـا ينبغى " .

" إن كـان الأمـر كمـا تقـولين لكنـت قـد عثـرت علـى الكتـب والأوراق فى المنزل " .

" لقد حدث ذلك بالفعل ولكنك كنت تعثرين فقط علـى الكتـب والأوراق التى يلقيها لك فى طريقك . لا تنسى كم كان مـاكرا عنـدما حصل على البكالوريوس . لقد خدعك على مدى ثمانى سنوات " .

" ربما التحق بعمل مع أحد منافسينا " .

قالت كاثى : " ليس هذا طبعه . إنه متفان فى إخلاصه . على أية حال ، إن كان كما تزعمين لكنا قد عرفنا اسم المتجـر لأن طـاقم العاملين والإدارة كان سيسـعدهم بتـذكيرنا بـذلك علـى نحـو دائـم . كلا ، لابد أن الأمر أبسط من ذلك " . دق جـرس الهـاتف الخـاص على مكتب جيسيكا . التقطت سماعة الهاتف وأنصتت بإمعان قبـل أن تجيب قائلة : " شكرا لك يا جيسيكا . نحن فى الطريق " .

قالـت وهـى تعيـد سماعـة الهـاتف إلى مكانهـا وتقفـز مـن وراء مكتبها : " هيا بنا لقد أنهـى سـتان غـداءه لتـوه " ، سـارت نحـو الباب . سارت بيكى بسرعة وراءها وبدون كلمة أخرى ركبتا المصعد إلى الدور الأرضى حيث اندهش جو ـ كـبير البـوابين ـ عنـدما شـاهد الرئيسـة والليـدى ترامـبر وهمـا تسـتدعيان سـيارة أجـرة بينمـا كـان سائقاهما يقفان على بعد أمتار يتوقان لنزولهما .

وبعدها بدقائق قليلة ظهـر سـتان عـبر نفـس البـاب وركـب فـى مقعده خلف عجَلة القيادة فى سيارة تشارلى الرولز قبل أن يشرع فى

التحرك بتؤدة نحو هايد بارك غافلا عن السيارة لأجرة التى كانت تتبعه . واصلت الرولز رحلتها إلى بيكاديلى ومنها إلى ميدان ترافلجر قبل أن تنعطف فى اتجاه ستراند .

قالت كاثى : " إنه يذهب إلى كينج كوليدج . كنت أعرف أننى محقة ؛ لابد أنه يسعى لنيل درجة الدكتوراة " .

" ولكن ستان لم يتوقف " ، قالت بيكى ذلك عندما تخطت الرولز مدخل الجامعة وانعطفت فى شارع فلييت .

قالت كاثى : " لا يمكن أن يكون قد اشترى صحيفة " .

" أو التحق بعمل فى مجلس المدينة " ، هكذا أضافت بيكى عندما اتجهت السيارة نحو مانشون هاوس .

قالت بيكى فى زهو عندما تخطت السيارة مجلس المدينة واتجهت إلى الطرف الشرقى : " وجدتها إنه يعمل فى أحد مشروعات نادى وايت شابيل للشباب " .

واصل ستان القيادة إلى أن أوقف السيارة أخيرا أمام مركز دان سالمون .

قالت كاثى : " ولكن هذا ليس منطقيا بالمرة . إن كان هذا هو كل ما يريد أن يشغل به وقت فراغه فلِمَ لم يخبرك بالحقيقة منذ البداية ؟ ما الذى دفعه إلى اختلاق كل هذه الرواية الطويلة ؟ " .

قالت بيكى : " لا أفهم أنا أيضا ؛ بل إننى فى الواقع أقر بأننى سقطت فى مزيد من الحيرة " .

" حسنا ؛ دعينا على الأقل ندخل ونعرف ما الخطب " .

قالت بيكى وهى تضع يدها على ذراع كاثى : " كلا أنا بحاجة لأن أجلس وأفكر لبعض الوقت قبل أن أقرر خطوتى التالية . إن كان تشارلى يخطط لشىء ما لا يريد أن يطلعنا عليه ؛

فإننى أكره أن أكون أنا التى تفسد عليه هذه المتعة خاصة أننى أنا التى حظرت عليه الذهاب إلى شركة ترامبر فى المقام الأول " .

قالت كاثى : " حسنا ، إذن لم لا نعود على المكتب ونتكتم على الأمر ؟ على أية حال ؛ يمكننا أن نتصل بالسيد آنسون فى مجلس اللوردات لكى يطلب من تشارلى أن يتصل بنا فى غضون ساعة . سوف يمنحنا ذلك وقتاً كافياً لتبين نوع السيجار الخاص بوالد ديفيد فيلد " .

أومأت بيكى بالموافقة وطلبت من السائق العودة إلى تشيلسيا . عندما أدار السائق سيارته فى شكل دائرة لكى يعيد أدراجه ويبدأ رحلة العودة إلى الطرف الغربى ؛ نظرت بيكى عبر النافذة الخلفية إلى المركز الذى يحمل اسم أبيها ، قالت فجأة : " قف " . انقض السائق على مكبح السرعة وتوقفت السيارة فجأة .

سألت كاثى : " ما الخطب ؟ " .

أشارت بيكى من النافذة الخلفية وقد تشبثت عيناها بالشخص الذى كان يهبط درج مركز دان سالمون مرتديا ثيابا رثة قديمة وقبعة بالية .

قالت كاثى : " لا أصدق عينى " .

أسرعت بيكى بتسديد الأجرة للسائق بينما قفزت كاثى من السيارة وبدأت تتبع ستان وهو يتجه نحو وايت شابيل .

سألت كاثى وهى لا تغيب بنظرها عن ستان : " أين يمكن أن يكون ذاهباً ؟ " . واصل السائق ذو الثياب الرثة سيره بطول الرصيف بدون أن يترك لأى شخص فرصة للتكهن بوظيفته بينما دفع السيدتين اللتين كانتا تتبعانه إلى الإسراع إلى حد الركض أحيانا لكى تتمكنا من مواصلة تتبعه .

قالت بيكى : " لابد أنه كوين الترزى " .

" يعلم الله ما الذى يمكن أن يفعله بأى بذلة جديدة " .

ولكن ستان توقف على بعد ياردات قليلة من متجر الترزى . ثم للمرة الأولى ، وقع نظرهما على رجل آخر يرتدى نفس الثياب القديمة الرثة والقبعة البالية ويقف بجوار عربة نقالة جديدة تماماً مطبوع عليها " تشارلى سالمون ، التاجر الأمين ، تأسس عام ١٩٦٩ " .

صاح بأعلى صوته شأنه شأن كل باقى التجار الشباب حوله : " لن أبيع إليكن هذا مقابل جنيهين أيتها السيدات . ولا جنيهاً أو حتى خمسين بنساً وإنما فقط مقابل عشرين بنساً " .

أخذت كاثى وبيكى تحدقان إلى تشارلى فى ذهول بينما حيا ستان تشارلى بأن وضع يده على قبعته وأخذ يعبئ طلب إحدى السيدات فى سلة لكى يمنح سيده وقتا لتلبية طلب زبون آخر .

" إذن ، كيف حالك اليوم يا سيدة باتز ؟ لدى موز رائع من الهند الغربية . إنها تساوى تسعين بنساً للحزمة ولكننى سوف أبيعها لك أنت يا بطتى العزيزة مقابل خمسين بنسا ، ولكن لا تخبرى أحدا " .

" ماذا عن الطماطم يا تشارلى ؟ " ، هكذا قالت سيدة شديدة التبرج فى منتصف العمر وهى تشير فى تشكك إلى أحد الصناديق الموضوعة فى مقدمة العربة النقالة .

" لقد جاءت يا سيدة باتس من جيرزى اليوم وسوف أفضى لك بسر . سوف أبيعها لك بنفس السعر الذى يبيع به زملائى الطماطم القديمة. هل هناك عدل أكثر من ذلك ؟ أخبرينى إذن " .

" سوف أشترى أربعة أرطال يا سيد سالمون " .

" شكرا لك يا سيدة باتس . أعط السيدة طلبها يا ستان بينما سألبى أنا طلب الزبون التالى " ، ثم اتجه تشارلى إلى الجانب المقابل من العربة النقالة .

" كم تسرنى رؤيتك اليوم يا سيدة سينغ . رطلان من التين والمكسرات والعنب ، حسب ما أذكر . وكيف حال الدكتور سينغ ؟ " .

" مشغول للغاية يا سيد سالمون ، مشغول للغاية " .

قال تشارلى : " إذن يجب أن يتغذى جيدا ، أليس كذلك ؟ لأن الجو إن ازداد سوءا . فقد أكون بحاجة لأن أحضر لزيارته وطلب استشارته بشأن بعض المشاكل التى أعانى منها فى جيوبى الأنفية . وكيف حال سوزيكا الصغيرة ؟ " .

" لقد نجحت فى اجتياز ثلاثة اختبارات يا سيد سالمون وسوف تلتحق بجامعة لندن فى سبتمبر لدراسة الهندسة " .

قال تشارلى وهو ينتقى لها التين : " لا أرى ما الداعى إلى ذلك ؟ الهندسة هل هذا ما قلته . ما الذى ينوون فعله فى المرة القادمة ؟ أعرف فتاة من هذه الأنحاء التحقت بالجامعة وقد عاد عليها هذا بخير كثير . وقد قضت باقى حياتها تنفق فى ثروة زوجها . لقد دأب جدى على القول بأن ـــ "

انفجرت بيكى فى الضحك وسألت : " إذن ما الذى سنفعله الآن ؟ " .

" سوف نعود إلى ميدان إيتون لتبحثى عن رقم هاتف السيد آنسون وتتصلى به . سوف يضمن لنا هذا على الأقل أن تشارلى سوف يتصل بك فى غضون ساعة " .

أومأت كاثى بالموافقة ومع ذلك بقيتا متسمرتين فى مكانهما تتأملان التاجر الأكبر سنا فى السوق وهو يمارس تجارته .

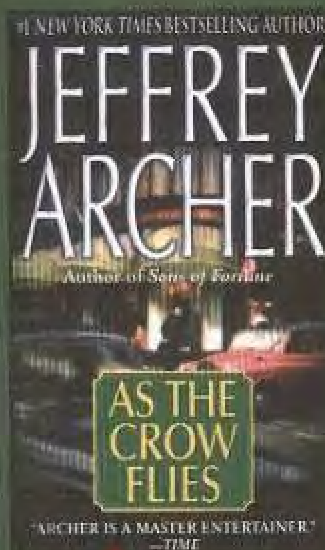
صاح قائلاً وهو يحمل ثمرة كرنب بكلتا يديه : " لن أبيع لك هذا مقابل جنيهين ولا مقابل جنيه ولا حتى مقابل خمسين بنساً " .

همست بيكى فى نفسها : " كلا سوف أبيعها لك مقابل عشرين بنساً " .

قالت بيكى وهما تتسللان خارج السوق : " هل تعلمين أن جد تشارلى قد طال به العمر حتى الثالثة والثمانين ولم يمت إلا على بعد أقدام قليلة من المكان الذى يقف فيه سيادة اللورد الآن " .

" ولكن تشارلى قطع شوطا طويلا منذ ذلك الوقت " ، قالت كاثى ذلك وهى ترفع إحدى يديها لاستدعاء سيارة أجرة .

قالت بيكى : " لست أدرى . ربما ميلاً أو اثنين ـ مثلما يطير الغراب " .



لقد سحر جيفرى آرتشر - مؤلف أفضل الروايات مبيعاً طبقاً لصحيفة نيويورك تايمز - الملايين من قرائه على مدى سنين عديدة من خلال رواياته الآخاذة وشخصياته التى لا تنسى.

كان حلم أحد الرجال هو....

كان حلم تشارلى ترامبر، الذى نشأ فى أحد الأحياء الفقيرة الواقعة شرق لندن، أن يتمكن يوماً من إدارة العربة النقالة لبيع الخضراوات والفاكهة والخاصة بجدّه. ولكن جاء هذا اليوم فجأة عندما مات جده تاركاً له مشروعه المزدهر. وبمساعدة من سيدة الأعمال بيكى سالمون، تمكن تشارلى من صنع اسم تجارى هو "التاجر الأمين"، ولكن دارت رحى الحرب العالمية الأولى القاسية مختطفة تشارلى من أهله وملقية به فى وجه عدو ظلّت آثاره الشريرة تلاحق تشارلى وعائلته لأجيال.

ثأر رجل آخر

هذه الرواية التى تدور أحداثها فى ثلاث قارات على مدار ما يزيد على ستين عاماً، تجسد حكاية رجل استطاع تحقيق الثراء بعد التغلب على فقره المدقع وتقلبات قرن عاصف بالأحداث.

"إنه الروائى صاحب الروائع"

صحيفة نيويورك ديلى نيوز

"إنها قصة مثيرة للإعجاب"

صحيفة ذا وول ستريت جورنال



مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ليست مجرد مكتبة - not just a book store